التفسير الأثري الجامع

الجزء الثاني

سورة البقرة - الآية ١-٦١

محمد هادي معرفة

التفسير الأثري الجامع

الجزء الثاني

سورة البقرة - الآية ١-٤٦

محمد هادي معرفة

مؤسسة التمهيد

الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
قم المقدسة. شارع انقلاب. فرع ١٨. رقم ٤٩
موبايل: ٠٠٩٨/٩١٢١٥٣١٩٥٥

التفسير الأثري الجامع

الجزء الثاني

العلّامة محمدهادي معرفة

الطبعة الأولى
١٣٨٧ هـ.ش، ١٤٢٩ هـ.ق، ٢٠٠٨ م
الكمّية: ٣٠٠٠ نسخة
مطبعة ستاره

جميع الحقوق محفوظة

التوزيع:
منشورات ذوي‌القربى: قم المقدسة، شارع إرم، بناية القدس التجارية
هاتف: ٠٠٩٨/٢٥١/٧٧٤٤٦٦٣
موبايل: ٠٠٩٨/٩١٢١٥١٧٧٤٨

سعر الدورة: ٣٥٠٠٠ تومان

ISBN: 978-600-5079-03-6 (Vol.2)
ISBN: 978-600-5079-08-1 (Vol.SET)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين

فهرس مواضيع الكتاب

سورة البقرة ١٣
نزولها وتسميتها ١٣
فضل سورة البقرة وميزاتها ١٦
فضل آية الكرسيّ ٣٠
فضل آياتٍ من سورة البقرة ٣١
مقاصد سورة البقرة وأهدافها ٣٤
تفسير سورة البقرة في ضوء الدلائل والبيّنات ٤٣

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمانِ الرَّحِيمِ الٓمٓ. ذَٰلِكَ الْكِتَابُ... وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفلِحون ﴿١-٥﴾ ٤٥
المتّقون هم أهل الفضائل ٤٧
سمات المتقين الخمس ٤٩
١ ـ الإيمان بالغيب ٤٩
٢ ـ الإخلاص في العبادة ٥٢
٣ ـ الإنفاق في سبيل الله ٥٢
الضرائب في شريعة الإسلام ٥٣
٤ ـ الايمان الشامل ٥٤
٥ ـ الإيقان بالآخرة ٥٤
«ذَٰلِكَ الْكِتَابُ» ٥٩
«لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» ٦٢
في حقيقة الإيمان ٦٩
حقيقة الإيمان واليقين ٧٣

صفة الإيمان ٧٥
فضل الإيمان واليقين ٧٦
درجات الإيمان ٧٧
في أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها ٧٩
السبق إلى الإيمان ٨٤
خصال المؤمن ٨٦
نسبة الإسلام ٨٨
إنّ الصبغة هي الإسلام ٨٩
دعائم الإسلام ٩٠
الإسلام يحقن به الدّم [وتؤدّى به الأمانة] وإنّ الثواب على الإيمان ٩٣
الإيمان يَشْرك الإسلام والإسلام لايَشْرك الإيمان ٩٤
الإسلام قبل الإيمان ٩٦
«يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» ١٠٢
«وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» ١١٠
«وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» ١١٢
«أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ١١٥
مسألة الهداية والتوفيق ١١٥
مراتب الهداية ودرجاتها ١١٦

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦-٧﴾ ١٢٠
«خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ» ١٢٤
«وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» ١٢٧
وجوه الكفر ١٢٧
دعائم الكفر وشعبه ١٢٩

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ... إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨-٢٠﴾ ١٣٢
إلمامة بشأن النفاق والمنافق ١٣٥

«يُخَادِعُونَ اللهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» ١٤٠
ما ورد في ذمّ الرياء والخداع في الدين ١٤١
لُباب ما ورد عن أئمّة أهل البيت بشأن الرياء ١٤٢
«فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ» ١٤٨
«فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ١٥٠
«بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» ١٥٢
«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ...» ١٥٣
«إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ» ١٥٥
«وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَآ آمَنَ النَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن...» . ١٥٦
«وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوٓا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» ... ١٥٧
«وَ إِذَا خَلَوْا إِلَى شَياطِينِهِم» ١٦٠
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ. اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ...» ١٦١
«وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» ١٦٢
«أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ» ١٦٣
«مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ» ١٦٥
«وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُـلُمَاتٍ» ١٦٩
«أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُـلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ» ... ١٧٠
حديث مفترى ١٧٧
مخاريق هزيلة ١٧٨
«يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا» ١٨٠
«إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ١٨٣
إلمامة في شمول قدرته تعالى ١٨٥

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ... وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢١-٢٥﴾ ١٨٦
حديث التحدّي ١٩٠
التحدّي في خطوات ١٩٤

هل وقع التحدّي بجميع وجوه الإعجاز؟ ١٩٥
هل التحدّي قائمٌ مع الأبد؟ ١٩٥
بماذا وقع التحدّي؟ ١٩٦
إلمامة بوجوه إعجاز القرآن ١٩٧
«يا أَيُّها النَّاسُ» ٢١١
المكّي والمدني ٢١٣
«اعْبُدُوا رَبَّكُمُ» ٢١٤
«الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» ٢١٦
«لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ٢١٧
«لعلّ» في كلامه تعالى ٢١٨
«الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَآءَ بِنَـآءً» ٢١٩
«وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً» ٢٢١
«فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» ٢٢٣
«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا» ٢٢٧
«فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ» ٢٢٨
«وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم» ٢٢٩
«فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» ٢٣٠
«وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ» ٢٣٥
في بناء الجنّة ٢٣٧
في أرض الجنّة ٢٣٨
«تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» ٢٤١
«كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ» ٢٤٤
«وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» ٢٤٦
«وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ» ٢٤٩
«مُطَهَّرَةٌ» ٢٥٦
«وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ٢٦١

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً ... أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴿٢٦-٢٧﴾ ٢٦٤
كلام عن ضرب الأمثال في القرآن ٢٦٦
«إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً» ٢٧٤
«مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا» ٢٧٦
«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ» ٢٧٨
«يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًاوَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» ٢٧٩
كلام عن الهداية والإضلال منه تعالى ٢٨٠
«الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ» ٢٨١
ماذا يكون هذا العهد والميثاق الّذي أخذه الله على العباد؟ ٢٨٤
«وَ يَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ» ٢٨٩
«وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» ٢٩٠

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَ كُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٢٨﴾ ٢٩١

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ ﴿٢٩﴾ ٢٩٦
كلام عن أصالة الإباحة «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» ٢٩٧
إباحة ذاتيّة تتبعها إباحة ظاهريّة ٢٩٩
سواء الشبهة الحكميّة أم الموضوعيّة ٣٠١
قاعدة «قبح العقاب بلا بيان» ٣٠٢
«ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ» ٣٠٣
«فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» ٣٠٤
في خلق السماوات والأرضين ٣٠٤
في طبقات السماء ٣١١
كلام عن السماوات السبع والأرضين السبع ٣١٢
سبع سماوات عُلا ٣١٢

مسائل ودلائل ٣١٨
١ـكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٣١٨
٢ـفَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ٣١٩
٣ـوَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ٣٢٠
٤ـأَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ٣٢٠
٥ـوَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ٣٢١
٦ـوَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ ٣٢٢
٧ـوَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ٣٢٨
٨ـوَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ٣٣١
تقاسيم الأرض ٣٣٢
محتملات ثلاثة ٣٣٢
أرضون لاتُحصى ٣٣٣
المختار في تفسير «مثلهنّ» ٣٣٤

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٠-٣٩﴾ ٣٣٧
إيحاءات من قصّة آدم ٣٤٥
عناية ربّانيّة دائمة ٣٤٨
«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ» ٣٥٦
«خَلِيفَةً» ٣٥٧
نظرة في أخبار الطينة ٣٨٠
«وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» ٣٩١
كلام عن التسبيح والتقديس ٣٩٣
ماذا نفقه من تسبيح الكائنات؟ ٣٩٨
فسبّح بحمد ربّك ٣٩٩
وأمّا التقديس ٤٠٣

رأي المشايخ في اسمه تعالى «القدُّوس» ٤٠٥
اشتقاق كلمة «قدّوس» ٤٠٥
«إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» ٤٠٦
«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صادقين» ٤١٥
«ثُمَّ عَرَضَهُمْ» ٤١٨
«أَنبِئُونِي بِأَسْماءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قالوا سُبحانَك» ٤٢٠
ممّ خُلقت الملائكة والجنّ وسائر الحيوان؟ ٤٢٢
«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» ٤٢٤
«إِلَّا إِبْلِيسَ» ٤٢٧
«وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» ٤٣٦
«وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ» ٤٤٠
ما كانت جنّة آدم؟ ٤٤٥
آدم شكر ربّه ٤٤٨
النهي من اقتراب الشجرة ٤٤٩
ماذا كانت الشجرة المنهيّة؟ ٤٥٠
«فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ» ٤٥٧
كم لبث آدم في الجنّة؟ ٤٦٦
هل كانت خطيئة آدم بتقدير من الله؟ ٤٦٨
إرادة تشريع وإرادة تكوين ٤٧٣
«وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» ٤٧٥
أين أهبطا ٤٧٨
كيف أُهبط آدم؟ ٤٨١
كم كان طول آدم وحوّاء عند الهبوط؟ ٤٨٢
كم عاش آدم؟ ٤٨٣
موت آدم ودفنه ٤٨٣

كنية آدم في الجنّة ٤٨٥
بدء التاريخ ٤٨٦
ما اصطحبه آدم عند الهبوط ٤٨٧
الغاية من الهبوط ٤٩٣
لغة آدم بعد الهبوط ٤٩٣
ماذا حدث بعد الهبوط؟ ٤٩٣
ماذا فعل إبليس عند هبوط آدم؟ ٤٩٦
«وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» ٤٩٦
ندم آدم وبكاؤه ٤٩٨
«فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» ٤٩٩
ماهي الكلمات؟ ٥٠٠
فيما أوصى الله آدم عند الهبوط ٥١٥
«قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا» ٥١٦
«فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّار» ٥١٩

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ... وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٠-٤٦﴾ ٥٢١
السرّ في تكرار قصص بني إسرائيل ٥٢٤
«يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ» ٥٢٦
«وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» ٥٢٨
«وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ» ٥٣١
«وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقون. وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ» ٥٣٣
«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» ٥٣٥
«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» ٥٣٨
«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» ٥٤٥
«وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» ٥٥٥
«الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ٥٥٩

سُورَةُ البَقَرَة

مدنيّة بلا خلاف، وهي مائتان و ستّ و ثمانون آية.

نزولها

[١/٢] أخرج أبو داوود في الناسخ والمنسوخ عن عكرمة قال: أوّل سورة نزلت بالمدينة، سورة البقرة[١].

[٢/٢] وذكر ابن كثير نقلاً عن الواقدي بالإسناد إلى زيد بن ثابت قال: نزلت البقرة بالمدينة. وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء، والمفسّرين ولا خلاف فيه[٢].

[٣/٢] وأخرج ابن الضريس في فضائله وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ وابن مردويه والبيهقي في دلائل النبوّة من طرق ابن عبّاس قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة[٣].

[٤/٢] وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير قال: أنزل بالمدينة سورة البقرة[٤].

في تسميتها

وهي من السبع الطوال، أُولاهنّ ـ حسب ثبت المصحف ـ وأطولهنّ.

---

(١) الدرّ ١: ٤٦؛ الثعلبي ١: ١٣٥.

(٢) ابن كثير ١: ٣٧.

(٣) الدرّ ١: ٤٦؛ ابن كثير ١: ٣٧؛ الدلائل ٧: ١٤١؛ باب ذكر السور الّتي نزلت بمكة والّتي نزلت بالمدينة؛ مجمع البيان ١٠: ٢١١ عن ابن عبّاس و ٢١٢ عن الحسن بن أبي الحسن في تفسير سورة الإنسان؛ القرطبي ١: ٦٠، نقلاً عن قتادة في مقدمة الكتاب.

(٤) الدرّ ١: ٤٦؛ ابن كثير ١: ٣٧.

واختلف الأوائل في تسميتها بسورة البقرة، أو السورة الّتي يذكر فيها البقرة.

[٥/٢] أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن جامع بن شدّاد قال: كنّا في غزاة فيها عبدالرحمان بن يزيد ففشا في الناس أنّ ناساً يكرهون أن يقولوا سورة البقرة، وآل عمران، حتّى يقولوا: السورة الّتي يُذكر فيها البقرة، والسورة الّتي يذكر فيها آل عمران. فقال عبدالرحمان: إنّي أسمع عبدالله بن مسعود إذا استبطن الوادي فجعل الجمرة على حاجبه الأيمن، ثمّ استقبل الكعبة فرماها بسبع حصيات، يكبّر مع كلّ حصاة، فلمّا فرغ قال: من هاهنا ـ والّذي لاإله غيره ـ رمى الّذي أنزلت عليه سورة البقرة[١].

[٦/٢] وأخرج ابن الضريس والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتقولوا سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذلك القرآن كلّه ولكن قولوا: السورة الّتي يذكر فيها البقرة، والسورة الّتي يذكر فيها آل عمران، وكذلك القرآن كلّه»[٢].

---

(١) الدرّ ١: ٤٦؛ المصنّف ٤: ٣٤٤ / ١، كتاب الحجّ، باب ٢٠٢ (مايقول إذا رمى جمرة العقبة) بلفظ: «... عن محمّد بن عبدالرحمان بن يزيد عن أبيه قال: أَفَضْتُ مع عبدالله فرمى سبع حصيات استبطن الوادي حتّى إذا فرغ قال: اللّهم اجعله حجّاً مبروراً وذنباً مغفوراً. ثمّ قال: هكذا رأيت الّذي أُنزل عليه سورة البقرة صنع»؛ مسند أحمد ١: ٤٣٠، مسند عبدالله بن مسعود، بلفظ: «... حدّثني جامع بن شدّاد وقال سمعت عبدالرحمان بن يزيد قال: رأيت عبدالله استبطن الوادي فجعل الجمرة على حاجبه الأيمن واستقبل البيت ثمّ رماها بسبع حصيات يكبّر دبر كلّ حصاة ثمّ قال: هذا والّذي لا إله غيره مقام الّذي أُنزلت عليه سورة البقرة»؛ البخاري ٢: ١٩٣، كتاب الحجّ، باب رمي الجمار بسبع حصيات؛ مسلم ٤: ٧٨ـ٧٩، كتاب الحجّ، باب رمي جمرة العقبة من بطن الوادي؛ أبوداوود ١: ٤٤٠ / ١٩٧٤، كتاب الحجّ، باب ٧٨؛ الترمذي ٢: ١٩٢ / ٩٠٢، أبواب الحجّ، باب ٦٣ (كيف ترمى الجمار) بنحو ما رواه أحمد؛ النسائي ٢: ٤٣٩ / ٤٠٧٩، كتاب الحجّ، باب المكان الّذي ترمى منه جمرة العقبة؛ ابن ماجة ٢: ١٠٠٨ / ٣٠٣٠، كتاب المناسك، باب ٦٤ (من أين ترمى جمرة العقبة) بنحو ما رواه أحمد؛ البيهقي ٥: ١٢٩، كتاب الحجّ، باب رمي الجمرة من بطن الوادي؛ مسند الطيالسي: ٤٢، باختلاف يسير؛ ابن كثير ١: ٣٧، بمعناه مختصراً.

(٢) الدرّ ١: ٤٦؛ الأوسط ٦: ٤٧ـ٤٨ / ٥٧٥٥؛ الشعب ٢: ٥١٩ / ٢٥٨٢، باب في تعظيم القرآن، فصل: في الاستشفاء بالقرآن وفيه: «وسائر القرآن» بدل قوله: «ولا سورة النساء»؛ ابن كثير ١: ٣٧؛ مجمع الزوائد ٧: ١٥٧، باب تسمية السور. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط.

[٧/٢] وأخرج البيهقي في الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال: لاتقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا: السورة الّتي يذكر فيها البقرة[١].

[٨/٢] وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي﴾ قال: هي السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس[٢].

[٩/٢] وروى العيّاشي بإسناده عن سعد الإسكاف[٣] قال: سمعت أباجعفر عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أُعطيتُ الطوال مكان التوراة، وأُعطيتُ المئين مكان الإنجيل، وأُعطيتُ المثاني مكان الزبور، وفُضّلتُ بالمفصَّل سبع وستين سورة».[٤]

[١٠/٢] وأخرج أحمد عن واثلة بن الأسقع عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «أُعطيتُ السبع الطوال مكان التوراة وأُعطيتُ المئين مكان الإنجيل وأُعطيت المثاني مكان الزّبور وفُضّلتُ بالمفصَّل»[٥].

[١١/٢] وعن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من أخذ السبع الأُوَل من القرآن فهو حِبْر»[٦].

[١٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنَّف عن سعيد بن خالد قال: صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بالسبع الطوال في ركعة.

ولعلّه أراد قراءة سورة من السبع الطوال لا جميعها. غير أنّ ابن أبي شيبة فهم الجمع والاقتران، ومن ثمّ أورد الحديث في الباب (١٤٢) من كتاب الصلاة، في الرجل يُقرن السور في الركعة، من رخّص فيه وزاد: إلّا أنّ وكيعاً قال: قرأ...[٧].

---

(١) الدرّ ١: ٤٦؛ الشعب ٢: ٥١٩ ـ ٥٢٠ / ٢٥٨٣، باب في تعظيم القرآن، فصل في الاستشفاء بالقرآن.

(٢) النسائي ١: ٩٨٨/٣١٨.

(٣) هو سعدبن طريف الحنظلي مولى بني تميم الكوفي، الإسكاف ويقال: الخَفّاف بيّاع الخفّ، من أصحاب عليّ بن الحسين ثمّ الباقر والصادق عليهما السلام وروى عن الأصبغ بن نباتة عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام. له روايات تنبؤك عن شدّة ولائه لآل البيت، ومن ثمّ رموه بالإفراط في التشيّع. وعدّه الأصحاب من الثقات ووصفوا أحاديثه بالصحاح.

(٤) العيّاشي ١: ٤٣ / ١؛ البحار ٨٩: ٢٧ / ٣١.

(٥) مسند أحمد ٤: ١٠٧؛ التبيان ١: ٢٠؛ مجمع البيان ١: ٤١؛ الطبري ١: ٦٨ / ١٠٣.

(٦) مسند أحمد ٦: ٨٢؛ الخطيب ١٠: ١٠٧ / ٥٢٣٢. (٧) المصنَّف ١: ٤٠٤ / ١١؛ الدرّ ١: ٤٧.

فضل سورة البقرة وميزاتها

ولمجدالدين محمّدبن يعقوب الفيروزآبادي ـ صاحب القاموس ـ تخريج لطيف في مقدمة كلّ سورة من القرآن الكريم، بحثاً عن مختلف شؤونها، ومنها فضل السورة.. وذكر بشأن سورة البقرة ملخّصاً من روايات وردت في فضلها، نذكره ثمّ نعقّبه بذكر التفصيل:

عن أَبي بُرَيدة عن أَبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تعلّموا البقرة؛ فإنّ أَخْذها بركة، وتركها حسرة، ولن يستطيعها البَطَلة»[(١)].

وقال ﷺ: «إنَّ الشَّيطان لايدخل بيتاً يُقرأُ فيه سورة البقرة»[(٢)]

وعن عكرمة قال: أَوّل سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة، مَنْ قَرأَها في بيته نهاراً لميدخل بيتَه شيطانٌ ثلاثة أَيّام. ومن قرأَها في بيته ليلاً لم يدخله شيطان ثلاث ليال[(٣)]. ورُوي: أَنَّ من قرأَها كان له بكلّ حرف أَجرُ مرابِطٍ في سبيل الله[(٤)]. وعن أَنس قال: [كان] الرّجل إذا قرأ سورة البقرة جَدّ فينا، أَي عَظُم في أعيننا[(٥)]. وعن ابن مسعود قال: كنّا نعدّ من يقرأُ سورة البقرة مِن الفحول[(٦)]. وقد أَمَّـرَ رسول الله ﷺ فتى على جماعة من شيوخ الصحابة كان يُحسن سورة البقرة[(٧)]. وقال ﷺ: «اقرأُوا الزّهراوين: البقرة وآل عمران فإنّهما يأْتيان يوم القيامة كأنّهما غَمَامتان أَو غَيَايَتان[(٨)] أَو فِرْقان[(٩)]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥: ٣٦١) عن عبدالله بن بُرَيدة عن أبيه عن رسول الله ﷺ ولعلّه اشتبه الأمر على الراوي أو الكاتب فأبدل من ابن بريدة بأبي بريدة. وأخرجه السيوطي عن بريدة. الإتقان ٤: ١٠٧. وأخرجه الثعلبي (١: ١٣٥) عن عبدالله بن يزيد عن أبيه وفي تفسير البيضاوي (١: ٢٧٤) آخر سورة البقرة: قيل: يا رسول الله ﷺ وما البطلة؟ قال: السحرة.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن: ١٢١ / ٩، باب ٣٤، والترمذي ٤: ٢٣٢ / ٢٠٣٧ وغيرهما باختلاف في بعض ألفاظه.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الايمان (٢: ٤٥٣ / ٢٣٧٨) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

(٤) أبوالفتوح ١: ٩٢.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣: ١٢٠ باختلاف يسير.

(٦) بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي ١: ١٥٦.

(٧) والفتى هو: عثمان بن العاص. أخرجه البيهقي في دلائل النبوّة ٥: ٣٠٨.

(٨) تثنية غياية ـ بيائين ـ هي: كلّ شيء أظلّ الإنسان فوق رأسه كالسحابة والغبرة ونحوهما.

(٩) تثنية فِرق ـ بكسر الفاء ـ وهو القطيع من الغنم والظباء ونحوهما.

من طير صوافّ يحاجّان عن صاحبهما[١]» وعنه ﷺ أنّه قال: «يا عليُّ مَنْ قرأَ سورة البقرة لاتنقطع عنه الرحمة مادام حيّا، وجعل الله البركة في ماله، فإنّ في تعلّمها ألفَ بركة، وفي قراءتها عشرة آلاف بركة، ولايتعاهدها إلّا مؤمن من أهل الجنّة، وله بكلّ آية قرأها ثوابُ شِيث بن آدم ﷺ. فمن مات من يوم قرأها إلى مائة يوم مات شهيداً»[٢][٣].

* * *

وإليك التفصيل:

وقد نبّهنا ـ في المقدّمة ـ أنّ أكثريّة الروايات الّتي وردت بشأن فضائل السور، لاأصل لها وفيها من الموضوعات الشيءُ الكثير ولعلّها الغالبيّة الساحقة بما لا يدع مجالاً للاعتماد بها، ولاسيّما وأغلب متونها ـ فضلاً عن الأسناد ـ موهونة وربما وضيعة لاتتناسب وموضع القرآن الرفيع.

ولنذكرها ونتركها على عهدة القارئ النبيه ليعرف السليم عن السقيم، وفي ضوء ماقدّمنا من أداة التمحيص النزيه.

[١٣/٢] روى الصدوق بإسناده إلى أبي عبدالله ﷺ قال: «من قرأ سورة البقرة وآل عمران جاء يوم القيامة تظلّانه على رأسه مثل الغيايتين»[٤] وقد مرّ تفسير الغياية بما يُظلّ الإنسان من مثل غمامة ونحوها.

[١٤/٢] وأخرج أبو عبيد وأحمد و حميدبن زنجويه في فضائل القرآن ومسلم وابن الضريس وابن حِبّان والطبراني وأبوذرّ الهروي في فضائله والحاكم والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرأوا الزهراوين: سورة البقرة وسورة آل عمران، فإنّهما تأتيان يوم القيامة كأنّهما غيايتان، أو كأنّهما غمامتان أو كأنّهما فرقان من طير صوافّ يحاجّان عن صاحبهما. اقرأوا سورة البقرة: فإنّ أخذها

---

(١) أخرجه أبوعبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن: ١٢٦/١، باب ٣٥.

(٢) أحاديث هي شبه مانسب إلى أبي بن كعب، قيل: من الموضوعات.

(٣) بصائر ذوي التمييز ١: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٤) ثواب الأعمال: ١٠٤؛ البحار ٨٩: ٢٦٥/٨.

بركة، وتركها حسرة، ولن تستطيعها البطلة»[١].

[١٥/٢] وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه ومسلم والترمذي ومحمّدبن نصر عن نواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران»، قال: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال، مانسيتهنّ بعدُ. قال: كأنّهما غمامتان، أو كأنّهما غيايتان، أو كأنّهما ظُلّتان سوداوان بينهما شرف، أو كأنّما فرقان من طير صوافّ يحاجّان عن صاحبهما[٢].

[١٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمدبن حنبل وابن أبي عمر العربيّ في مسانيدهم والدّارمي ومحمّدبن نصر والحاكم وصحّحه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا سورة البقرة، فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولاتستطيعها البطلة ـ ثمّ سكت ساعة ـ ثمّ قال: تعلّموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنّهما الزهراوان تظلّان صاحبهما يوم القيامة، كأنّهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صوافّ»[٣].

[١٧/٢] وأخرج الطبراني وأبوذرّ الهروي في فضائله عن عكرمة عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنّهما يجيئان يوم القيامة كأنّهما غمامتان، أو كأنّهما غيايتان، أو كأنّهما فرقان من طير صوافّ تحاجّان عن صاحبهما. تعلّموا البقرة، فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»[٤].

[١٨/٢] وأخرج البزّار بسند صحيح وأبو ذرّ الهروي ومحمّدبن نصر قال: «قال رسول الله ﷺ: اقرأوا البقرة، وآل عمران، فإنّهما يأتيان يوم القيامة كأنّهما غمامتان، أو غيايتان، أو

---

(١) الدرّ ١: ٤٧؛ فضائل القرآن لأبي عبيد: ١٢٥ـ١٢٦ / ١، باب ٣٥؛ مسند أحمد ٥: ٢٤٩ و ٢٥٥؛ مسلم ٢: ١٩٧؛ ابن حبّان ١: ٣٢٢ / ١١٦، كتاب العلم؛ الكبير ٨: ١١٨ / ٧٥٤٢؛ الحاكم ١: ٥٦٤، كتاب فضل القرآن؛ البيهقي ٢: ٣٩٥، كتاب الصلاة، باب المعاهدة على قراءة القرآن.

(٢) الدرّ ١: ٤٧ـ٤٨؛ مسند أحمد ٤: ١٨٣، «حديث النواس بن سمعان الكلابي»؛ التاريخ ٨: ١٤٧ـ١٤٨ / ٢٥١٢؛ مسلم ٢: ١٩٧ـ١٩٨؛ الترمذي ٤: ٢٣٥ / ٣٠٤٥، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) الدرّ ١: ٤٨؛ مسند أحمد ٥: ٣٤٨، «حديث بريدة الأسلمي»؛ الدّارمي ٢: ٤٥٠؛ الحاكم ١: ٥٦٠.

(٤) الدرّ ١: ٤٨؛ الكبير ١١: ٢٤٨ـ٢٤٩ / ١١٨٤٤؛ مجمع الزوائد ٦: ٣١٣.

فرقان من طير صوافّ»(١).

[١٩/٢] وأخرج الدارميّ عن كعب قال: من قرأ البقرة، وآل عمران، جاءتا يوم القيامة يقولان: ربّنا لاسبيل عليه(٢).

[٢٠/٢] وأخرج أحمد والحاكم في الكنى عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة البقرة وآل عمران، جعل الله له جناحَيْن منظومين بالدرّ والياقوت»(٣).

[٢١/٢] وأخرج أبو عبيد عن أبي عمران أنّه سمع أبا الدرداء يقول: إنّ رجلاً ممّن قد قرأ القرآن أغار على جار له فقتله، وإنّه أُقيد منه فقتل. فما زال القرآن ينسلّ منه سورةً سورةً، حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعةً، ثمّ إنّ آل عمران انسلّت منه فأقامت البقرة جمعةً. فقيل لها: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(٤) قال: فخرجت كأنّها السحابة العظيمة. قال أبو عبيد: يعني إنّهما كانتا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه، فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن.(٥)

[٢٢/٢] وأخرج الدارمي عن ابن مسعود أنّه قرأ عنده رجلٌ سورة البقرة وآل عمران. فقال: قرأتَ سورتين فيهما اسم الله الأعظم، الّذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى(٦).

[٢٣/٢] وأخرج أبو عبيد وابن الضريس عن أبي منيب عن عمّه، أنّ رجلاً قرأ البقرة وآل عمران، فلمّا قضى صلاته قال له كعب: أقرأتَ البقرة وآل عمران؟ قال: نعم. قال: فوالذي نفسي بيده إنّ فيهما اسم الله الّذي إذا دعي به استجاب. قال: فأخبرني به؟ قال: لا والله لاأخبرك، ولو أخبرتك لأوشكت أن تدعو بدعوةٍ أَهْلَكُ فيها أنا وأنت(٧).

[٢٤/٢] وأخرج أبوذرّ في فضائله عن سعيد بن أبي هلال قال: بلغني أنّه ليس من عبد يقرأ البقرة وآل عمران في ركعة قبل أن يسجد، ثمّ يسأل الله شيئاً إلّا أعطاه(٨).

---

(١) الدرّ ١: ٤٨؛ مختصر زوائد مسند البزّار ٢: ١٢٦ / ١٥٤٧، باب: فضائل القرآن والقراءات.

(٢) الدرّ ١: ٤٩؛ الدّارمي ٢: ٤٥٢.

(٣) الدرّ ١: ٥٥. وراجع: ميزان الاعتدال ٢: ٤٢٤ / ٤٣٢٦. ولسان الميزان، لابن حجر، ٣: ٢٨٧ / ١٢١٧.

(٤) ق ٥٠: ٢٩.

(٥) الدرّ ١: ٤٩؛ فضائل القرآن: ١٢٦ ـ ١٢٧ / ٤ ـ ٣٥.

(٦) الدرّ ١: ٤٨؛ الدارميّ ٢: ٤٥١ ـ ٤٥٢.

(٧) الدرّ ١: ٤٨؛ فضائل القرآن: ١٢٦ / ٢ ـ ٣٥.

(٨) الدرّ ١: ٥٠.

[٢٥/٢] وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن عبدالواحد بن أيمن قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة البقرة وآل عمران في ليلة الجمعة كان له من الأجر كما بين لُبَيْدا وعَـرُوبا. فـلُبَيْدا: الأرض السابعة، وعَرُوبا: السماء السابعة»(١).

[٢٦/٢] وأخرج حميد بن زنجويه في فضائل الأعمال من طريق محمّدبن أبي سعيد عن وهب بن منبّه قال: من قرأ ليلة الجمعة سورة البقرة وسورة آل عمران كان(٢) له نوراً مابين عريبا وعجيبا. قال محمّد: عريبا: العرش. و عجيبا: أسفل الأرضين(٣).

[٢٧/٢] وأخرج حميد بن زنجويه في فضائل الأعمال عن عبدالواحد بن أيمن عن حـميد الشامي قال: من قرأ في ليلةٍ البقرة وآل عمران كان أجره ما بين لُبيدا وعَروبا. قال عروبا: السـماء السابعة. ولبيدا: الأرض السابعة(٤).

[٢٨/٢] وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن عبدالعزيز التنوخي أنّ يزيد بن الأسود الجرشي كان يحدّث: أنّه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم برئ من النفاق حتى يمسي، ومن قرأهما في ليلة، برئ من النفاق حتّى يُصبح. قال: فكان يقرؤهما كلّ يوم وكلّ ليلة سوى جزئه(٥).

أي علاوة على المقدار الّذي كان عيّنه ورداً له كلّ يوم.

[٢٩/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خيّب الله امرأً قام في جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران، ونعم كنز المرء البقرة وآل عمران»(٦).

[٣٠/٢] وأخرج أحمد ومسلم وأبو نعيم في الدلائل عن أنس بن مالك قال: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران، جدّ فينا. يعني عظم(٧).

[٣١/٢] وأخرج أبو عبيد والدارمي عن أبي أمامة قال: إنّ أخاً لكم رأى في المنام أنّ النّاس يسلكون في صدر جبل وعر طويل، وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان تهتفان: هل فيكم من

---

(١) الدرّ ١: ٤٩.
(٢) أي كان ذلك له نوراً.
(٣) الدرّ ١: ٤٩؛ أبو الفتوح ١: ٩٢، باختلاف يسير.
(٤) الدرّ ١: ٤٩.
(٥) الدرّ ١: ٤٩ ـ ٥٠؛ فضائل القرآن: ١٢٧ / ٥ ـ ٣٥.
(٦) الدرّ ١: ٤٩؛ الأوسط ٢: ٢١٤ / ١٧٧٢؛ مجمع الزوائد ٢: ٢٥٤.
(٧) الدرّ ١: ٤٩؛ مسند أحمد ٣: ١٢٠؛ مجمع البيان ١٠: ١٤٥.

يقرأ سورة البقرة؟ هل فيكم من يقرأ سورة آل عمران؟ فإذا قال الرجل: نعم، دنتا منه بأعناقهما حتّى يتعلق بهما، فتُخطّرا به الجبل(١).

[٣٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنَّف وأحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصحّحه والبيهقي في سننه عن حذيفة قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان، فافتتح البقرة، فقلت: يصلّي بها ركعة. ثمّ افتتح النساء فقرأها، ثمّ افتتح آل عمران فقرأها مترسلاً. إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ(٢).

[٣٣/٢] وأخرج أحمد وابن الضريس والبيهقي عن عائشة قالت: كنت أقوم مع رسول الله ﷺ في الليل فيقرأ بالبقرة، وآل عمران، والنساء، فإذا مرّ بآية فيها استبشار دعا ورغب، وإذا مرّ بآية فيها تخويف دعا واستعاذ(٣).

[٣٤/٢] وأخرج أبو داوود والترمذي في الشمائل والنسائي والبيهقي عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة لا يمرّ بآية رحمة إلّا وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذاب إلّا وقف فتعوّذ ثمّ ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة. ثمّ سجد بقدر قيامه ثمّ قال في سجوده مثل ذلك، ثمّ قام فقرأ بآل

---

(١) الدرّ ١: ٤٨؛ فضائل القرآن: ١٢٦ / ٣ـ٣٥؛ الدارمي ٢: ٤٥١؛ ابن كثير ١: ٣٦.

(٢) الدرّ ١: ٤٧؛ المصنَّف ٢: ١١٥ / ٦، بلفظ: «عن حذيفة: قال: صلّيت مع النبي ﷺ فكان إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعويذ تعوّذ»؛ مسند أحمد ٥: ٣٩٧، «حديث حذيفة بن يمان»؛ مسلم ٢: ١٨٦، باختلاف في اللفظ؛ أبو داوود ١: ٢٠٠ / ٨٧١، كتاب الصلاة، باب ١٥١ (مايقول الرجل في ركوعه وسجوده) بتفاوت؛ الترمذي ١: ١٦٤ / ٢٦١، أبواب الصلاة، باب ١٩٢ (ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود)، بلفظ: «عن حذيفة أنّه صلّى مع رسول الله ﷺ فكان يقول في ركوعه: سبحان ربّي العظيم، وفي سجوده: سبحان ربّي الأعلى، وما أتى على آية رحمة إلّا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلّا وقف وتعوّذ». قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح؛ النسائي ١: ٤٣٣ / ١٣٧٧؛ ابن ماجة ١: ٤٢٩ / ١٣٥١، كتاب إقامة الصلاة والسّنة فيها، باب ١٧٩ (ماجاء في القراءة في صلاة الليل). بلفظ: «عن حذيفة أنّ النبيّ ﷺ صلّى فكان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب استجار، وإذا مرّ بآية فيها تنزيه لله سبّح»؛ الحاكم ١: ٣٢١، كتاب صلاة التطوع، بتفاوت في اللفظ؛ البيهقي ٢: ٣٠٩ كتاب الصلاة، باب الوقوف عند آية الرحمة وآية العذاب وآية التسبيح.

(٣) الدرّ: ١ / ٤٧؛ مسند أحمد ٦: ١١٩؛ البيهقي ٢: ٣١٠؛ مجمع الزّوائد ٢: ٢٧٢؛ ابن عساكر ٤: ١٤٦.

عمران ثمّ قرأ سورة سورة[١].

[٣٥/٢] وأخرج الحاكم وصحّحه وأبو ذرّ الهروي والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر قال: تعلّموا سورة البقرة وسورة النساء وسورة الحج وسورة النور، فإنّ فيهنّ الفرائض[٢].

[٣٦/٢] وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وعبدبن حميد والبيهقي في الشعب عن عمر بن الخطّاب قال: من قرأ البقرة وآل عمران والنساء، في ليلة كُتب من القانتين[٣].

[٣٧/٢] وقال الشيخ أبو الفتوح: وفي حديث آخر: وإنّ أصفر البيوت من الخير بيت لاتقرأ فيه سورة البقرة، سورة البقرة فسطاط القرآن[٤]. والأصفر: الفقير العاري. من الصِّفْر وهي النقطة لاعدد معها.

[٣٨/٢] وأخرج الديلمي عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «السورة الّتي يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن، فتعلّموها فإنّ تعلّمها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»[٥].

[٣٩/٢] وأخرج الدارمي عن خالدبن معدان قال: سورة البقرة، تعليمها بركة وتركها حسرة ولاتستطيعها البطلة وهي فسطاط القرآن[٦].

[٤٠/٢] وأخرج أبو يعلى وابن حِبّان والطبراني والبيهقي في الشعب عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته نهاراً لم يقرب بيته الشيطان ثلاثة أيّام ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال»[٧].

---

(١) الدرّ ١: ٤٧؛ أبو داوود ١: ٢٠٠ / ٨٧٣؛ النسائي ١: ٢٤٠ / ٧١٨؛ البيهقي ٢: ٣١٠؛ مسند أحمد ٦: ٢٤، «حديث عوف بن مالك الأشجعي».

(٢) الدرّ ١: ٥٣؛ الحاكم ٢: ٣٩٥؛ الشعب ٢: ٤٧٧ / ٢٤٥١؛ كنز العمّال ٢: ٣١٣ / ٤٠٩٥.

(٣) الدرّ ١: ٤٩؛ فضائل القرآن: ١٢٧ / ٦ ـ ٣٥؛ سنن سعيد بن منصور ٣: ١٠٢٣ / ٤٨٥؛ الشعب ٢: ٤٦٨ / ٢٤٢٤. بنحو ما رواه سعيدبن منصور في سننه؛ كنزالعمّال ٢: ٣٠٥ / ٤٠٦٧.

(٤) أبوالفتوح ١: ٩٢.

(٥) الدرّ ١: ٥١؛ فردوس الأخبار للديلمي ٢: ٤٨٩ / ٣٣٧٦؛ كنزالعمّال ١: ٥٦٦ / ٢٥٥٢.

(٦) الدارمي ٢: ٤٤٦.

(٧) الدرّ ١: ٥٠؛ أبو يعلى ١٣: ٥٤٧ / ٧٥٥٤؛ ابن حبّان ٣: ٥٩ / ٧٨٠؛ الكبير ٦: ١٦٣ / ٥٨٦٤؛ الشعب ٢: ٤٥٣ / ٢٣٧٨؛ مجمع الزوائد ٦: ٣١١ ـ ٣١٢؛ أبوالفتوح ١: ٩١؛ الثعلبي ١: ١٣٥.

[٤١/٢] وأخرج الدارمي ومحمّد بن نصر وابن الضريس والطبراني والحاكم وصحّحه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: إنّ لكلّ شيء سناماً، وسنام القرآن البقرة. وإنّ لكلّ شيء لباباً، ولباب القرآن المفصّل. وإنّ الشيطان إذا سمع سورة البقرة نفر من البيت الّذي يقرأ فيه، وله ضريط(١).

[٤٢/٢] وأخرج البخاري في تاريخه عن السائب بن خبّاب. ويقال: له صحبة. قال: البقرة سنام القرآن(٢).

[٤٣/٢] وأخرج أبوعبيد والنسائي وابن الضريس ومحمّدبن نصر في كتاب الصلاة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلّوا في بيوتكم ولاتجعلوها قبوراً، وزيّنوا أصواتكم بالقرآن، فإنّ الشيطان ينفر من البيت الّذي يقرأ فيه سورة البقرة»(٣).

[٤٤/٢] وأخرج أبو عبيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه»(٤).

[٤٥/٢] وأخرج ابن عدي في الكامل وابن عساكر في تاريخه عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعلّموا القرآن فوالّذي نفسي بيده إنّ الشيطان ليخرج من البيت الّذي يقرأ فيه سورة البقرة»(٥).

[٤٦/٢] وأخرج ابن الضريس والنسائي وابن الأنباري في المصاحف والطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ألفينّ أحدكم يضع إحدى رجليه على الأخرى، ثمّ يتغنّى ويدع أن يقرأ سورة البقرة فإنّ الشيطان ينفر من البيت الّذي يقرأ فيه سورة البقرة، وإنّ أصفر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله عزّوجلّ»(٦).

---

(١) الدرّ ١: ٥٠؛ الدارمي ٢: ٤٤٧؛ الكبير ٩: ١٢٩ / ٨٦٤٤؛ الحاكم ١: ٥٦١؛ الشعب ٢: ٤٥٢ / ٢٣٧٦؛ مجمع الزّوائد ٧: ١٥٩.

(٢) الدرّ ١: ٥١؛ التاريخ ٤: ١٥١ـ ١٥٢.

(٣) الدرّ ١: ٥٠؛ فضائل القرآن: ١٢١ / ٨ـ ٣٤؛ النسائي ٥: ١٣ / ٨٠١٥.

(٤) الدرّ ١: ٥٠؛ فضائل القرآن: ١٢١ / ٩ـ ٣٤.

(٥) الدرّ ١: ٥٠؛ الكامل ٦: ٢٠٦؛ ابن عساكر ٦٦: ٢٥٣ / ٨٥٣٥.

(٦) الدرّ ١: ٥٠؛ النسائي ٦: ٢٤٠ / ١٠٧٩٩؛ الأوسط ٢: ٣٦٦ / ٢٢٤٨؛ الصغير ١: ٥٣ـ ٥٤ / ١٤١، باختلاف يسير؛ الشعب ٢: ٤٥٣ / ٢٣٧٩؛ مجمع الزّوائد ٦: ٣١٢، باختلاف يسير.

[٤٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان عن ابن مسعود قال: خرج رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، لقيه الشيطان، فاتّخذا فاصطرعا، فصرعه الّذي من أصحاب محمّد. فقال الشيطان: أرسلني أحدّثك حديثاً، فأرسله فقال: حدّثني! قال: لا. فاتّخذا الثانية فاصطرعا، فصرعه الّذي من أصحاب محمّد فقال: أرسلني فلأحدثنّك حديثاً يُعجبك، فأرسله فقال: حدّثني! قال: لا. فاتّخذا الثالثة فصرعه الّذي من أصحاب محمّد، ثمّ جلس على صدره وأخذ بإبهامه يلوكها. فقال: أرسلني. فقال: لا أرسلك حتّى تحدّثني! قال: سورة البقرة، فإنّه ليس من آية منها تُقرأ في وسط شياطين إلّا تفرّقوا، ولا تُقرأ في بيت فيدخل ذلك البيت شيطان. قالوا: يا أبا عبدالرحمان فمن ذلك الرجل؟ قال: فمن ترونه إلّا عمربن الخطاب؟[1].

[٤٨/٢] وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «لاتجعلوا بيوتكم مقابر؛ الشيطان ينفر من البيت الّذي يُقرأ فيه سورة البقرة. ولفظ الترمذي: وإنّ البيت الّذي يقرأ فيه سورة البقرة لايدخله الشيطان»[2].

[٤٩/٢] وأخرج الطبراني عن عبدالله بن مغفّل قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت الّذي يقرأ فيه سورة البقرة لايدخله الشيطان تلك الليلة»[3].

[٥٠/٢] وأخرج أبوعبيد وأحمد والبخاري في صحيحة تعليقاً ومسلم والنسائي والحاكم وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوّة من طرق عن أسيد بن حضير قال: بينما هو ليلةً يقرأ سورة البقرة في مربده إذ جالت فرسه فسكت. فسكنت، ثمّ قرأ فجالت الفرس فسكت. فسكنت، ثمّ قرأ فجالت فسكت، فسكنت. فقال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، يعني ابنه وكان قريباً منها، فأشفقت أن تصيبه فلمّا أخذته رفعتُ رأسي إلى السماء، وإذا مثل الظلّة فوق رأسي فيها أمثال السُرُج (المصابيح) عرجت في الجوّ إلى السماء، حتّى ما أراها، فلمّا أصبحتُ حدّثت رسول الله ﷺ بذلك. فقال رسول الله ﷺ: «أتدري ما ذاك؟ قلت: لا يا رسول الله! قال: تلك الملائكة دنت لصوتك تستمع لقراءتك، ولو قرأت [اى تداومت في القراءة حتى الصباح] لأَصْبَحَتْ تنظر النّاس إليها، لاتتوارى

---

(١) الدرّ ١: ٥٢؛ ابن عساكر ٤٤: ٨٧ رواه ابن عساكر في فضائل عمربن الخطاب.

(٢) الدرّ ١: ٥٠؛ مسند أحمد ٢: ٢٨٤؛ مسلم ٢: ١٨٨؛ الترمذي ٤: ٢٣٢ / ٣٠٣٧؛ كنزالعمّال ١٥: ٣٩١ / ٤١٥١١.

(٣) الدرّ ١: ٥٠؛ مجمع الزّوائد ٦: ٣١٢.

منهم»[١].

[٥١/٢] وأخرج ابن حِبّان والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن أسيد بن حضير أنّه قال: «يا رسول الله بينما أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفي، فظننت أنّ فرسي انطلق؟ فقال رسول الله ﷺ: إقرأ أبا عتيك. فالتفتُّ فإذا أمثال المصابيح مدلاة بين السماء والأرض، فما استطعت أن أمضي. فقال رسول الله ﷺ: تلك الملائكة نزلت لقراءتك سورة البقرة، أما أنّك لو مضيت لرأيت العجائب»[٢].

والوجبة: صوت سقوط الشيء.

[٥٢/٢] وأخرج الطبراني عن أسيد بن حضير قال: كنت أصلّي في ليلة مقمرة وقد أوثقت فرسي، فجالت جولة ففزعت، ثمّ جالت أخرى فرفعت رأسي، وإذا ظلّة قد غشيتني، وإذا هي قد حالت بيني وبين القمر، ففزعت فدخلت البيت. فلمّا أصبحت ذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «تلك الملائكة، جاءت تسمع قراءتك من آخر الليل سورة البقرة»[٣].

[٥٣/٢] وأخرج الدارقطني والبيهقي في السنن عن ابن مسعود قال: «إنّ امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله رأيي في رأيك فقال رسول الله ﷺ للّذي خطبها: هل تقرأ من القرآن شيئاً؟ فقال:نعم، سورة البقرة وسورة من المفصّل، فقال: قد أنكحتكها على أن تُقرئها وتعلّمها وإذا رزقك الله عوّضتها. فتزوّجها الرجل على ذلك»[٤].

---

(١) الدرّ ١: ٥١ ـ ٥٢: فضائل القرآن: ٢٦ / ٦ ـ ٢: مسند أحمد ٣: ٨١؛ البخاري ٦: ١٠٦، كتاب فضائل القرآن، باب ١٥ (نزول السكينه والملائكة عند قراءة القرآن)؛ مسلم ٢: ١٩٤، كتاب الصلاة، باب نزول السكينة لقراءة القرآن؛ النسائي ٥: ٢٧ـ٢٨ / ٨٠٧٤، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، باختلاف يسير؛ الحاكم ١: ٥٥٤؛ الدلائل لأبي نعيم ٢: ٥٦٠ ـ ٥٦١ / ٥٠٢، الفصل ٢٧ (في ذكر ماظهر لأصحابه في حياته)؛ الدلائل، للبيهقي ٧: ٨٤، باب في رواية أسيد بن الحضير وغيره السكينة والملائكة الّتي نزلت عنه قراءة القرآن، باختلاف يسير. وابن عساكر ٩: ٩١، باب أسيد بن الحضير.

(٢) الدرّ ١: ٥٢؛ ابن حبّان ٣: ٥٨ / ٧٧٩؛ الكبير ١: ٢٠٨ / ٥٦٦؛ الحاكم ١: ٥٥٤؛ الشعب ٢: ٥٤٨ـ٥٤٩ / ٢٦٨٠. فصل في تنوير موضع القرآن: ابن عساكر ٩: ٩٢؛ كنز العمّال ١٣: ٢٧٨ ـ ٢٧٩ / ٣٦٨١٥.

(٣) الدرّ ١: ٥٢؛ الكبير ١: ٢٠٨ / ٥٦٥؛ الأوسط ٦: ٣٣٠ / ٦٥٤٧؛ كنزالعمّال ١٣: ٢٧٩ / ٣٦٨١٦.

(٤) الدرّ ١: ٥٣؛ الدار قطني ٣: ١٧٥؛ البيهقي ٧: ٢٤٣.

[٥٤/٢] وأخرج أبو داوود والبيهقي عن أبي هريرة، «أنّ النبي ﷺ قال للرجل: ما تحفظ من القرآن؟ قال: سورة البقرة والّتي تليها. قال: قم فعلّمها عشرين آية، وهي امرأتك» قال أبـو داوود: وكان مكحول يقول: ليس ذلك لأحد بعد رسول الله ﷺ(١).

[٥٥/٢] وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: من قرأ سورة البقرة فقد أكثر وأطاب(٢).

[٥٦/٢] وروي عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة البقرة فصلوات الله عليه ورحمته وأعطي من الأجر كالمرابط في سبيل الله سنة لاتسكن روعته»(٣).

[٥٧/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الصلصال بن الدلهمس أنّ رسول الله ﷺ قال: «إقرأوا سورة البقرة في بيوتكم، ولاتجعلوها قبوراً. قال: ومن قرأ سورة البـقرة تُـتوّج بـتاج فـي الجنّة»(٤).

[٥٨/٢] وأخرج وكيع والدارمي ومحمّد بن نصر وابن الضريس عن محمّد بن الأسود قال: من قرأ سورة البقرة في ليلة تُوِّج بها تاجاً في الجنّة(٥).

[٥٩/٢] وأخرج عبدالرزّاق وابن أبي شيبة معاً في المصنّف عن عروة قال: كان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة، يا أصحاب سورة البقرة(٦).

[٦٠/٢] وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن فرقد قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخُّراً، فقال: يا أصحاب سورة البقرة(٧).

[٦١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن مسدّد عن ابن مسعود قال: من حلف بسورة البقرة، وفي لفظ بسورة من القرآن، فعليه بكلّ آية يمين(٨).

---

(١) الدرّ ١: ٥٣ ـ ٥٤؛ أبو داوود ١: ٤٦٩ / ٢١١٢ ـ ٢١١٣، كتاب النكاح، باب ٣١ (التزويج على العمل يعمل)؛ البيهقي ٧: ٢٤٢؛ النسائي ٣: ٣١٣ / ٥٥٠٦.

(٢) الدرّ ١: ٥٣؛ الكبير ٩: ١٣٦ / ٨٦٧١؛ مجمع الزوائد ٢: ٢٧٠.

(٣) أبوالفتوح ١: ٩٢؛ مجمع البيان ١: ٧٤.

(٤) الدرّ ١: ٥٣؛ الشعب ٢: ٤٥٥ / ٢٣٨٤ و ٢٣٨٥؛ كنزالعمّال ١: ٥٦٢ / ٢٥٣٠.

(٥) الدرّ ١: ٥٣؛ الدارمي ٢: ٤٤٧.

(٦) الدرّ ١: ٥٤؛ المصنّف لعبدالرزّاق ٥: ٢٣٢ / ٩٤٦٥؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٧: ٧١٧ / ٤.

(٧) الكبير ١٧: ١٣٣ / ٣٢٨؛ مجمع الزوائد ٥: ٣٢٧.

(٨) الدرّ ١: ٥٥؛ المصنّف ٣: ٤٧٦ / ٥، باب ١٢.

[٦٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف بسورة من القرآن فعليه بكلّ آية منها يمين صبر، فمن شاء بَرّ ومن شاء فجر»(١).

[٦٣/٢] وأخرج البيهقي في سننه عن أبي جمرة قال: قلت لابن عبّاس: إنّي سريع القراءة؛ فقال: لأن أقرأ سورة البقرة فأُرتّلها أحبّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه هذرمةً(٢).

[٦٤/٢] وأخرج مالك وسعيد بن منصور والبيهقي في سننه عن عروة، أنّ أبابكر صلّى الصبح فقرأ فيها بسورة البقرة في الركعتين كلتيهما(٣).

[٦٥/٢] وأخرج الشافعي في الأمّ وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنَّف والبيهقي عن أنس أنّ أبابكر صلّى بالناس الصبح، فقرأ بسورة البقرة، فقال عمر: كربت الشمس أن تطلع! فقال: لو طلعت لم تجدنا غافلين(٤).

لاندري كيف وقع هذا السؤال والجواب، ولعلّه وقع بالإشارة! وهو غريب!

[٦٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس، أنّ أبابكر قرأ في يوم عيد بالبقرة، حتى رأيت الشيخ يميد من طول القيام(٥) أي يميل يمنة ويُسرة.

[٦٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والمروزي في الجنائز وأبو ذرّ الهروي في فضائله عن الشعبي قال: كانت الأنصار يقرؤون عند الميّت بسورة البقرة(٦).

[٦٨/٢] وأخرج الخطيب في رواة مالك والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال: تعلّم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلمّا ختمها نحر جزوراً(٧). وذكر مالك في الموطّأ: أنّه بلغه انّ عبدالله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلّمها(٨).

---

(١) الدرّ ١: ٥٥؛ المصنَّف ٣: ٤٧٦ / ١، باب ١٢.
(٢) الدرّ ١: ٥٤؛ البيهقي ٢: ٥٤، و٣: ١٣.
(٣) الدرّ ١: ٥٤؛ الموطّأ ١: ٨٢ / ٣٣؛ البيهقي ٢: ٣٨٩.
(٤) الدرّ ١: ٥٤؛ الأمّ ٧: ٢٤٠ ـ ٢٤١، كتاب العتق، باب ما جاء في الجهاد؛ المصنَّف ١: ٣٨٩ / ٥؛ البيهقي ٢: ٣٨٩؛ كنزالعمّال ٨: ٢٨٠ / ٢٢٩١٨.
(٥) الدرّ ١: ٥٤؛ المصنَّف ٢: ٨٢ / ٥، باب ١٣.
(٦) الدرّ ١: ٥٤؛ المصنَّف ٣: ١٢٣ / ٢.
(٧) الدرّ ١: ٥٤؛ الشعب ٢: ٣٣١ / ١٩٥٧؛ ابن عساكر ٤٤: ٢٨٦.
(٨) الموطّأ ١: ٢٠٥ / ١١.

وهكذا رواه القرطبي في مقدمة تفسيره من غير تبيين[١]. لكنّه عند بيان فضل سورة البقرة ذكر أنّ الإطالة تلك المدّة كانت لأجل حفظها تفقّهاً. قال: وتعلّمها عمر بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبدالله في ثماني سنين[٢].

وذكر ابن عطيّة أنّ عبدالله بن عمر تعلّمها بفقهها وجميع ما تحتوي عليه من العلوم في ثمانية أعوام قال: وفيها خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلاً[٣].

وهنا يبقى السؤال: هل كانت تلك المدّة أيّام حياة النبي ﷺ بعد الهجرة أم امتدّت حتّى ما بعد الوفاة؟!

[٦٩/٢] وأخرج ابن سعد في طبقاته عن ميمون أنّ ابن عمر تعلّم سورة البقرة في أربع سنين[٤].

[٧٠/٢] وأخرج أحمد في الزهد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن سليمان بن يسار، قال: استيقظ أبو أسيد الأنصاري ليلة وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فاتني وردي الليلة ـ وكان وردي البقرة ـ فلقد رأيت في المنام كأنّ بقرة تنطحني[٥].

[٧١/٢] وأخرج أبوعبيد عن محمّد بن جرير بن يزيد: أنّ أشياخ أهل المدينة حدّثوه: «أنّ رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر أنّ ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح؟ قال: فلعلّه قرأ سورة البقرة. فسُئل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة»[٦].

[٧٢/٢] وأخرج البيهقي في الدلائل عن عثمان بن العاص قال: استعملني رسول الله ﷺ وأنا أصغر الستة الّذين وفدوا عليه من ثقيف، وذلك أنّي كنت قرأت سورة البقرة[٧].

---

(١) القرطبي ١: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) المصدر: ١٥٢.

(٣) المحرّر الوجيز ١: ٨١.

(٤) الدرّ ١: ٥٤؛ الطبقات ٤: ١٦٤.

(٥) الدرّ ١: ٥٤ ـ ٥٥؛ النّوادر ١: ٣٨٨، الأصل ٧٧ (في حقيقة الرؤيا)؛ ابن عساكر ٦٥: ١٤٤، باب يزيد بن حازم، باختلاف يسير.

(٦) الدرّ ١: ٥٢؛ فضائل القرآن: ٢٧ / ٩ ـ ٢؛ ابن كثير ١: ٣٥، وقال: «هذا إسناد جيّد إلّا أنّ فيه إبهاماً ثمّ هو مرسل».

(٧) الدرّ ١: ٥٣؛ الدلائل ٥: ٣٠٨.

[٢/٧٣] وأخرج الترمذي وحسّنه والنسائي وابن ماجة ومحمدبن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن حِبّان والحاكم وصحّحه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كلّ رجل منهم يعني ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنّاً فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة قال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم. قال: اذهب فأنت أميرهم! فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلّم سورة البقرة إلّا خشية أن لا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلّموا القرآن واقرأوه فإنّ مثل القرآن لمن تعلّمه فقرأه وقام به، كمثل جراب محشوٍّ مسكاً يفوح ريحه في كلّ مكان، ومثل من تعلّمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكي على مسك»(١).

[٢/٧٤] وأخرج الزبير بن بكّار في الموفّقيات عن حُمران بن أبان(٢) قال: أتي عثمان بسارق فقال: أراك جميلاً! ما مثلك يسرق! قال: هل تقرأ شيئاً من القرآن؟ قال: نعم. أقرأ سورة البقرة. قال: اذهب فقد وهبت يدك بسورة البقرة(٣).

هذا الحديث إن صحّ فيحمل على صورة إقراره بالسرقة تطوّعاً.

---

(١) الدرّ ١: ٥٢ ـ ٥٣؛ الترمذي ٤: ٢٣٣ ـ ٢٣٤ / ٣٠٤١، وقال الترمذي: هذا حديث حسن؛ النسائي ٥: ٢٢٧ ـ ٢٢٨ / ٨٧٤٩، كتاب السير باب من أولى بالامارة؛ ابن ماجة ١: ٧٨ / ٢١٧، بلفظ: عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا القرآن واقرأوه وارقدوا، فإنّ مثل القرآن ومن تعلّمه فقام به، كمثل جراب محشوّ مسكاً يفوح ريحه كلّ مكان. و مثل من تعلّمه فرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكي على مسك»؛ ابن حبّان ٥: ٤٩٩ ـ ٥٠٠ / ٢١٢٦؛ الحاكم ١: ٤٤٣، كتاب المناسك، بلفظ: «عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم نفر فقال ماذا معكم من القرآن فاستقرأهم كذلك حتّى مرّ على رجل منهم هو من أحدثهم سنّاً فقال ماذا معك يا فلان؟ قال معي كذا وكذا وسورة البقرة. قال: اذهب فأنت أميرهم»؛ الشعب ٢: ٥٥٣ / ٢٦٩٥، باختصار واختلاف يسير؛ أبو الفتوح ١: ٩٢ ـ ٩٣؛ الثعلبي ١: ١٣٥ ـ ١٣٦، بتفاوت واختصار.

(٢) حُمران بن أبان هذا، هو مولى عثمان وحاجبه، كان من النمر بن قاسط، سُبي بعين التمر فابتاعه عثمان من المسيّب بن نجبة فأعتقه. روى عن عثمان ومعاوية. وكان كثير الحديث. قال ابن حجر: ولم أرهم يحتجّون بحديثه. وحكى عن قتادة: أنّه كان يصلّي مع عثمان، فإذا أخطأ فتح عليه. وأخيراً أفشى سرّاً كان أسرّ إليه عثمان، فغضب عليه ونفاه. مات بعد السبعين. (تهذيب التهذيب ٣: ٢٤ / ٣١).

(٣) الدرّ ١: ٥٤؛ كنز العمّال ٥: ٥٥٩ / ١٣٩٥٣.

فضل آية الكرسيّ

[٢/٧٥] أخرج وكيع والحرث بن أبي أسامة ومحمّدبن نصر وابن الضريس بسند صحيح عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل القرآن سورة البقرة، وأعظم آية فيه آية الكرسي. وإنّ الشيطان ليفرّ من البيت الّذي تقرأ فيه سورة البقرة»(١).

[٢/٧٦] وأخرج سعيدبن منصور والترمذي ومحمّدبن نصر وابن المنذر والحاكم وصحّحه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ شيء سناماً وإنّ سنام القرآن البقرة، وفيها آية هي سيّدة آي القرآن «آية الكرسى» لاتقرأ في بيت فيه شيطان إلّا خرج منه»(٢).

[٢/٧٧] وأخرج أحمد ومحمّدبن نصر والطبراني بسند صحيح عن معقل بن يسار أنّ رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كلّ آية منها ثمانون ملكاً، استُخرجت ﴿اللهُ لَا إِلٰـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ من تحت العرش فوُصِلَتْ بها»(٣).

[٢/٧٨] وأخرج وكيع وأبوذرّ الهروي في فضائله عن التميمي قال: سألت ابن عبّاس: أيّ سورة في القرآن أفضل؟ قال: البقرة قلت: فأيّ آية؟ قال: آية الكرسي(٤).

[٢/٧٩] وأخرج محمّدبن نصر في كتاب الصلاة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: أشرف سورة في القرآن البقرة، وأشرف آية، آية الكرسي(٥).

[٢/٨٠] وروي أنّ جماعة من الصحابة كانوا جلوساً في مسجد النبي ﷺ يتذاكرون فضائل القرآن، وأنّ أيّ آية أفضل؟ قال بعضهم: آخر براءة. وقال آخر: آخر بني إسرائيل. وقال ثالث: كهيعص. ورابع: طه. فقال عليّ ؑ: «أين أنتم من آية الكرسيّ! فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا عليّ! آدم، سيّد البشر، وأنا سيّد العرب، ولافخر. وسلمان سيّد فارس، وصهيب سيّد الروم، وبلال سيّد الحبشة. وطور سيناء سيّد الجبال، والسدرة سيّدة الأشجار. والأشهر الحرم سادة الشهور،

(١) الدرّ ١: ٥١؛ بُغية الباحث، للحارث بن أبي أُسامة: ٢٢٩ / ٧٣١، باب فضل القرآن. الرواية مطوّلة ـ والّذي جاء هنا ملتقط من صدره وذيله.

(٢) الدرّ ١: ٥١؛ الترمذي ٤: ٢٣٢ / ٣٠٣٨، باختلاف يسير؛ الحاكم ٢: ٢٥٩؛ الشعب ١: ٤٥٢ / ٢٣٧٥ و ٤٥٧ / ٢٣٨٩.

(٣) الدرّ ١: ٥١؛ مسند أحمد ٥: ٢٦ وللرواية ذيل؛ الكبير ٢٠: ٢٢٠ / ٥١١؛ مجمع الزّوائد ٦: ٣١١.

(٤) الدرّ ١: ٥٣.

(٥) المصدر.

والجمعة سيّدة الأيّام. والقرآن سيّد الكلام. وسورة البقرة سيّدة القرآن. وآية الكرسيّ سيّدة سورة البقرة. فيها خمسون كلمة، في كلّ كلمة بركة».[١]

وسيأتي تفصيل الحديث عن فضل آية الكرسيّ وثواب قراءتها، ذيل الآية.

فضل آياتٍ من سورة البقرة

[٨١/٢] روى ابن بابويه بإسناده عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ أربع آيات من أوّل البقرة وآية الكرسيّ وآيتين بعدها، وثلاث آيات من آخرها، لم يرفي نفسه وأهله وماله شيئاً يكرهه، ولايقربه الشّيطان ولاينسى القرآن»[٢].

[٨٢/٢] وأخرج الدارميّ وابن الضريس عن ابن مسعود قال: من قرأ أربع آيات من أوّل سورة البقرة وآية الكرسي وآيتين بعد آية الكرسي وثلاثاً من آخر سورة البقرة، لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطانٌ، ولاشيء يكرهه في أهله ولا ماله، ولا يُقرأن على مجنون إلّا أفاق[٣].

[٨٣/٢] وأخرج الدارميّ وابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود قال: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتّى يصبح. أربع من أوّلها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث خواتيمها. أوّلها: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾[٤] [البقرة ٢: ٢٨٤].

[٨٤/٢] وأخرج سعيد بن منصور والدارميّ والبيهقي في شعب الإيمان عن المغيرة بن سُبيع وكان من أصحاب عبدالله قال: من قرأ عشر آيات من البقرة عند منامه لم ينس القرآن: أربع آيات من أوّلها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث من آخرها[٥].

---

(١) أبوالفتوح ٣: ٣٩٩ ذيل آية الكرسي. ونقلاً عنه في مستدرك الوسائل ٤: ٣٣٦ـ٣٣٧ / ٤٨٢٥ـ٢٧.

(٢) نور الثقلين ١: ٢٦؛ ثواب الأعمال: ١٠٤؛ العيّاشي ١: ٤٣ـ٤٤ / ٣؛ البحار ٨٩: ٢٦٥ / ٩.

(٣) الدرّ ١: ٧٠؛ الدارمي ٢: ٤٤٨، كتاب فضائل القرآن، باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي وليس فيه قوله: «في أهله ولا ماله»؛ القرطبي ١: ١٥٣.

(٤) الدرّ ١: ٧٠؛ الدّارمي ٢: ٤٤٨؛ الكبير ٩: ١٣٧ / ٨٦٧٣، باختلاف يسير؛ مجمع الزوائد ١٠: ١١٨؛ القرطبي ١: ١٥٣.

(٥) الدرّ ١: ٧٠؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٤٢٨ / ١٣٨؛ الدارمي ٢: ٤٤٩؛ الشعب ٢: ٤٦٤ / ٢٤١٣ بلفظ: «عن المغيرة بن

←

[٨٥/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة أوّل النهار لايقربه شيطان حتّى يُمسي، وإن قرأها حين يُمسي لم يقربه حتّى يُصبح، ولا يرى شيئاً يكرهه في أهله وماله، وإن قرأها على مجنون أفاق. أربع آيات من أوّلها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها(١).

[٨٦/٢] وأخرج البغوي في معجم الصحابة وابن عساكر في تاريخه عن ربيعة الجرشي قال: «سُئل رسول الله ﷺ أيّ القرآن أفضل؟ قال: السورة الّتي يذكر فيها البقرة. قيل: فأيّ البقرة أفضل؟ قال: آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، نزلن من تحت العرش»(٢).

[٨٧/٢] وأخرج الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مات أحدكم فلا تحبسوه وأسرعوا به إلى قبره، وليُقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة، وعند رجليه بخاتمة سورة البقرة، في قبره»(٣).

[٨٨/٢] وأخرج الطبراني في الكبير عن عبدالرحمان بن العلاء بن اللجلاج قال: قال لي أبي: يا بنيّ إذا أنا متُّ فألحدني فإذا وضعتني في لحدي فقل: بسم الله وعلى ملّة رسول الله. ثمّ سنّ عليّ الثرى (التراب) سنّاً، ثمّ اقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة وخاتمتها. فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك(٤).

[٨٩/٢] وأخرج عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند والحاكم والبيهقي في الدعوات عن أبيّ بن كعب قال: «كنت عندالنبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا نبيّ الله إنّ لي أخاً وبه وجع، قال: وما وجعه؟ قال: به لَمَم. قال: فائتني به. فوضعه بين يديه فعوّذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع

← سُبيع قال: من قرأ عند منامه آيات من البقرة لم ينس القرآن: أربع آيات، ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣)، وآية الكرسي وثلاث آيات من آخرها».

(١) الدرّ ١: ٧١؛ الشعب ٢: ٤٦٤ / ٢٤١٢ باختلاف يسير.

(٢) الدرّ ١: ٥١؛ مجمع البيان ١: ٧٤ ـ ٧٥؛ كنزالعمّال ١: ٥٦١ / ٢٥٢٥، بلفظ: «أفضل القرآن سورة البقرة وأفضل آي القرآن آية الكرسي، البغوي في معجمه عن ربيعة الحرشي».

(٣) الدرّ ١: ٧٠؛ الكبير ١٢: ٣٤٠ / ١٣٦١٣؛ الشعب ٧: ١٦ / ٩٢٩٤. وفيه: «بفاتحة الكتاب» بدل قوله «بفاتحة البقرة»؛ مجمع الزوائد ٣: ٤٤؛ كنزالعمّال ١٥: ٦٠١ / ٤٢٣٩٠. (٤) الدرّ ١: ٧٠؛ الكبير ١٩: ٢٢١ / ٤٩١؛ مجمع الزوائد ٣: ٤٤.

آيات من أوّل سورة البقرة وهاتين الآتين ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾[١] وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٢] وآية من الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾[٣] وآخر سورة المؤمنين ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾[٤] وآية من سورة الجنّ ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾[٥] وعشر آيات من أوّل الصافّات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و «المعوّذتين» فقام الرجل كأنّه لم يَشْكُ قطّ».

وأخرج ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عبدالرحمان بن أبي ليلى عن رجل عن أبيه. مثله سواء[٦].

[٢/ ٩٠] وأخرج ابن النجّار في تاريخه من طريق محمّدبن عليّ الملطي عن خطّاب بن سنان عن قيس بن الربيع عن ثابت بن ميمون عن محمّد بن سيرين قال: نزلنا نهر تيرىٰ[٧] فأتانا أهل ذلك المنزل فقالوا: ارحلوا فإنّه لم ينزل عندنا هذا المنزل أحد إلّا اتُّخِذَ متاعه. فرحل أصحابي وتخلّفتُ، للحديث الّذي حدّثني ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ في ليلةٍ ثلاثا وثلاثين آية لم يضرّه في تلك الليلة سَبُعٌ ضاري ولا لصّ طاري، وعوفي في نفسه وأهله وماله حتّى يُصبح».

فلمّا أمسينا لم أنم حتّى رأيتهم قد جاءوا أكثر من ثلاثين مرّة، مخترطين سيوفهم فما يصلون إليّ. فلمّا أصبحت رحلت، فلقيني شيخ منهم على فرس ذنوب متنكّباً قوساً عربيّاً فقال لي: يا هذا إنسيّ أم جنّي؟ قلت: بل إنسيّ من ولد آدم! قال: فما بالك...! لقد أتيناك أكثر من سبعين مرّة كلّ ذلك يُحال بيننا وبينك بسور من حديد! فذكرت له الحديث فنزل عن فرسه وكسر قوسه وأعطى الله

---

(١) البقرة ٢: ١٦٣.

(٢) آل عمران ٣: ١٨.

(٣) الأعراف ٧: ٥٤.

(٤) المؤمنون ٢٣: ١١٦.

(٥) الجنّ ٧٢: ٣.

(٦) الدرّ ١: ٦٩ ـ ٧٠؛ الحاكم ٤: ٤١٢ ـ ٤١٣، كتاب الرقّي والتمائم؛ عمل اليوم والليلة: ٢١٠ ـ ٢١١ / ٦٣٧؛ مسند أحمد ٥: ١٢٨، باختلاف يسير؛ ابن ماجة ٢: ١١٧٥ / ٣٥٤٩، كتاب الأشربة، باب ٤٦ (الفزع والأرق ومايتعوّذ منه)؛ مجمع الزوائد ٥: ١١٥، كتاب الطّب، باب رقية الجنون.

(٧) بكسر التاء المثنّاة وياء ساكنة وراء مفتوحة، مقصوراً: بلد من نواحي الأهواز. قال ياقوت: حفره أردشير الأصغر. (معجم البلدان ٥: ٣١٩).

[عهداً] أن لا يعود فيها.

والثلاث والثلاثون آية: أربع آيات من أوّل البقرة إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُون﴾ و آية الكرسيّ وآيتان بعدها إلى قوله: ﴿خَالِدُون﴾[1] وثلاث آيات من آخر البقرة: ﴿لِلهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[2] إلى آخرها، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]. وآخر بني إسرائيل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ﴾[4] إلى آخرها. وعشر آيات من أوّل الصّافات إلى قوله: ﴿لَازِبٍ﴾. وآيتان من الرحمان: ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإنْس﴾ إلى قوله: ﴿فَلا تَنْتَصِران﴾[5] ومن آخر الحشر: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾[6] إلى آخر السورة. وآيتان من ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً﴾ إلى قوله: ﴿شَطَطًا﴾[7].

فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب فقال لي: كنّا نسمّيها آيات الحرز، ويقال: إنّ فيها شفاءً من كلّ داء. فَعَدَّ عليّ الجنون والجذام والبرص وغير ذلك فلم أحفظ. قال محمّد بن عليّ: فقرأتها على شيخ لنا قد فلج، حتّى أذهب الله عنه ذلك[8].

مقاصد سورة البقرة وأهدافها

ذكرنا في مباحثنا عن تناسب الآيات[9]، أنّ لكلّ سورة أهدافاً ومقاصد تخصّها، فما لم تستوف الغرض لاتكتمل السورة، وبذلك يعلّل اختلاف عدد آي السور، وكذلك تنوّع السور من طوال وقصار ومئين ومفصّلات، وكان ذلك دليلاً على الوحدة الموضوعيّة الجامعة لآيات كلّ سورة بالذات.

---

(١) البقرة ٢: ٢٥٧.
(٢) البقرة ٢: ٢٨٤.
(٣) الأعراف ٧: ٥٤ـ٥٧.
(٤) الإسراء ١٧: ١١٠.
(٥) الرحمان ٥٥: ٣٣ـ٣٤.
(٦) الحشر ٥٩: ٢١.
(٧) الجنّ ٧٢: ١ ـ ٤.
(٨) الدرّ ١: ٧٠ ـ ٧١؛ ذيل تاريخ بغداد ٣: ١٦٩ ـ ١٧١ / ٧٣٣، و ١٨: ١٦٩ ـ ١٧١ / ٧٣٣، (ط: دارالكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٧هـ.ق).
(٩) راجع بحث التناسب القائم بين آيات السور في التمهيد ٥: ١٩٣-١٩٧.

الأمر الّذي تنبّه له القدماء وزادت به عناية المتأخّرين، فلا تجد مُفسِّراً إلّا ويذكر في مقدمة كلّ سورة أهدافها ومقاصدها بصورة إجمال. وممّن اعتنى بهذا الجانب الخطير ـ في عالم التفسير ـ من الأقدمين، هو مجدالدّين محمّدبن يعقوب الفيروزآبادي، في كتابه «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» قال بشأن سورة البقرة:

وعلى الإجمال، مقصود هذه السُّورة: مدح مؤمني أهل الكتاب، وذمّ الكفّار كفّارِ مكّة، ومنافقي المدينة، والرّدّ على منكري النبوّة، وقصّة التخليق، والتعليم، وتلقين آدم، وملامة علماء اليهود في مواضع عدَّة، وقصَّة موسى، واستسقائه، ومواعدته ربّه، ومنَّته على بني إسرائيل، وشكواه منهم، وحديث البقرة، وقصّة سليمان، وهاروت و ماروت، والسحرة، والرّدّ على النَّصارى، وابتلاء إبراهيمعليه السلام، وبناء الكعبة، ووصيَّة يعقوب لأولاده، وتحويل القبلة، وبيان الصبر على المصيبة وثوابه، ووجوب السَّعي بين الصفا والمروة، وبيان حُجَّة التَّوحيد، وطلب الحلال، وإباحة الميتة حال الضرورة، وحكم القِصاص، والأَمر بصيام رمضان، والأَمر باجتناب الحرام، والأَمر بقتال الكفار، والأَمر بالحجّ والعُمْرة، وتعديد النعم على بني إسرائيل، وحكم القتال في الأشهر الحُرُم؛ والسؤال عن الخمر والْمَيْسِر ومال الأَيتام؛ والحيض؛ والطلاق؛ والمناكحات؛ وذكر العِدّة، والمحافظة على الصلوات، وذكر الصَّدقات والنَّفقات، ومُلْك طالوت؛ وقتل جالوت؛ ومناظرة الخليلعليه السلام ونمْرُود، وإحياء الموتى بدعاءِ إبراهيم، وحكم الإخلاص في الإنفاق، وتحريم الربا وبيان المداينات، وتخصيص الرسولصلى الله عليه وآله ليلة المعراج بالإيمان[١] حيث قال: ﴿آمَنَ الرَّسول﴾ إلى آخر السُّورة.

قال: هذا معظم مقاصد هذه السورة الكريمة[٢].

* * *

وذكرنا في التمهيد: أنّ سورة البقرة هي أُولى سورة نزلت بالمدينة واكتملت لعدّة سنوات،

(١) تبع في هذا ما ذكره في تنوير المقباس: أنّه لمّا نزلت الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ اشتدّ ذلك على المؤمنين، فلمّا عرج به إلى السماء سجد لربّه، فقال الله تعالى ـ مدحاً لنبيّه ـ: ﴿آمَنَ الرَّسُول...﴾.

(٢) بصائر ذوي التمييز ١: ١٣٤ ـ ١٣٥ مع تصحيح لبعض الألفاظ بالمقابلة.

ونزلت خلالها سور وآيات، تراها على طولها منتظمة على أسلوب رتيب: مقدمة لابدّ منها ـ في عشرين آية ـ ثمّ دعوة ـ في قريب من مائة وعشرين آية ـ و بعده تشريع ـ في قريب من مائة وأربعين آية ـ وختام في ثلاث آيات وبذلك تكتمل السورة على أحسن انسجام.

أمّا المقدمة ففي بيان طوائف الناس ومواقفهم تجاه دعوة الأنبياء، فمن متعهّد يخضع للحقّ الصريح، أو معاند يجحد بآيات الله، أو منافق مراوغ يحاول الخداع والالتواء اللئيم.

أمّا الشك والارتياب عن سلامة قصد، فهذا ينفيه القرآن الكريم، ولا مجال له بعد وضوح دلائل الحقّ ووفور آياته. ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1].

وبعد ذلك يأتي دور الدعوة، بتوجيه نداء عامّ إلى الملأ من الناس كافّة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ...﴾[2] ودعمها بدلائل وبراهين وشواهد من سابق حياة الإنسان، ولا سيّما دور بني اسرائيل وسوء تصرّفهم في الحياة الدينيّة، بما أورثهم العار والشنار وتلك هي الأمّة الوحيدة الّتي تعرفها العرب ولهم معها نسب قريب.

ثمّ يأتي دور التشريع[3] ويتقدّمه الحديث عن الكعبة وتشريفها، وبيان النسخ في الشرائع، فيبتدئ بقضيّة تحويل القبلة، وتشريع الحجّ والجهاد والقتال في سبيل الله، والصوم والزكاة والاعتكاف، والنكاح والطلاق والعدد، والمحيض والرضاع والأيمان، والوصيّة والدَّين والرّبا، والتجارة الحاضرة[4].

ثمّ ختام في ثلاث آيات، وبذلك تنتهي السورة في انسجام ووئام بديع.

هذه هي الصبغة العامّة للسورة، وفي ضمنها الاستطراق إلى عدّة مواضيع بالمناسبة، كما هي طريقة القرآن في جمعه لشتات الأمور، ولكن في وحدة موضوعيّة شاملة.

وفي ختام السورة جاء الحديث عن ملكوت السماوات والأرض، وعلمه تعالى بما في الصّدور، فيحاسب عباده على مدى نيّاتهم في مزاولة الأمور. والحديث عن إيمان الرسول بما أُنزل عليه، والمؤمنون على أثره، وأن لاتكليف بغير المستطاع، ولابدّ من الاستغفار على التفريط في

---

(١) تنتهي المقدمة بالآية رقم ٢٠.

(٢) تبتدئ الدعوة بالآية رقم ٢١ وتنتهي برقم ١٤١.

(٣) من الآية رقم: ١٤٢.

(٤) وتنتهي بالآية رقم: ٢٨٣.

جنب الله، وطلب رضوانه وابتغاء فضله ورحمته. وبذلك ينتهي المطاف.

ولعلّك تأمّلت المناسبة الظاهرة بعد ذلك التفصيل بين دلائل الدعوة ومعالم التشريع.

وقد جهد الإمام الرّازي في تبيين النظم القائم بين هذه الآيات الثلاث بالذات وماسبقتها من دلائل التوحيد وتشريع الأحكام، وذكر في ذلك وجوهاً لابأس بها وعقّبها بقوله:

ومن تأمّل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته. ولعلّ الّذين قالوا: إنّه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلّا أنّي رأيت جمهور المفسّرين معرضين عن هذه اللطائف، غير منتبهين لهذه الأمور. ثمّ تمثّل بقول الشاعر:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر[1]

* * *

ولسيّد قطب وصف دقيق عن هدف السورة ومحتواها الشامل لكلا جانبي تبليغ الدعوة ومكافحة الخصوم. قال: هذه السورة تضمّ عدّة موضوعات، ولكن المحور الّذي يجمعها كلّها محور واحد مزدوج يترابط الخطّان الرئيسيّان فيه ترابطاً شديداً. فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلاميّة في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولهاﷺ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها. وسائر مايتعلّق بهذا الموقف، بما فيه تلك العلاقة القويّة بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى. وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أوّل نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض. بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيمﷺ صاحب الحنيفيّة الأُولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات الّتي سبّبت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم. وكلّ موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطّيه الرئيسيّين.

---

(١) التفسير الكبير ٧: ١٢٧.

ولكي يتّضح مدى الارتباط بين محور السورة وموضوعاتها من جهة، وبين خطّ سير الدعوة أوّل العهد بالمدينة، وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها من الجهة الأخرى، أخذ يشرح من تلك الملابسات ما يرتبط ومواجهة نزول آيات السورة ابتداءً. مع التنبيه الدائم إلى أنّ هذه الملابسات في عمومها هي الملابسات الّتي ظلّت الدعوة الإسلاميّة وأصحابها يواجهونها ـ مع اختلاف يسير ـ على مرّ العصور وكرّ الدهور، من أعدائها وأوليائها على السواء. ممّا يجعل هذه التوجيهات القرآنيّة هي دستور هذه الدعوة الخالد، ويبثّ في هذه النصوص حياةً تتجدّد لمواجهة كلّ دور وكلّ طور، ويرفعها معالم للطريق أمام الأمّة المسلمة تهتدي بها في طريقها الطويل الشاقّ، بين العداوات المتعدّدة المظاهر المتوحّدة الطبيعة. وهذا هو الإعجاز يتبدّى جانب من جوانبه في هذه السمة الثابتة المميّزة في كلّ نصّ قرآني! وأخذ يصف موقف الرسول ﷺ قبل الهجرة ومحاولاته في بناء الجماعة المسلمة ذات الترابط الحكيم. ثمّ هجرته إلى المدينة وتأسيسه لحكم إسلامي قويّ الشوكة رهيب. وتلك معاهداته مع قبائل العرب واليهود على سواء. وأخيراً يقول:

من أولئك السابقين من المهاجرين والأنصار تكوّنت طبقة ممتازة من المسلمين نوّه القرآن بها في مواضع كثيرة. وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقوّمات الإيمان، وهي تمثّل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقاً. ولكنّها أوّلاً تصف ذلك الفريق من المسلمين الّذي كان قائماً بالمدينة حينذاك.

ثمّ نجد بعدها مباشرة في السياق وصفاً للكفّار؛ وهو يمثّل مقوّمات الكفر على الإطلاق. ولكنّه أوّلاً وصف مباشر للكفّار الّذين كانت الدعوة تواجههم حينذاك، سواء في مكّة أو فيما حول المدينة ذاتها من طوائف الكفّار.

كذلك كانت هناك طائفة المنافقين. ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرةً من الأوضاع الّتي أنشأتها الهجرة النبويّة إلى المدينة في ظروفها التي تمّت فيها، ولم يكن لها وجود بمكّة. فالإسلام في مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوّة، بل لم تكن له عصبة يخشاها أهل مكّة فينافقونها، على الضدّ من ذلك كان الإسلام مضطهداً، وكانت الدعوة مطاردة، وكان الّذين يغامرون بالانضمام إلى الصفّ الإسلامي هم المخلصون في عقيدتهم، الذين يؤثرونها على كلّ شيء ويحتملون في سبيلها كلّ شيء. فأمّا في يثرب الّتي أصبحت منذ اليوم تعرف باسم المدينة ـ أي مدينة الرسول ـ فقد أصبح

الإسلام قوّة يحسب حسابها كلّ أحد؛ ويضطرّ لمصانعتها كثيراً أو قليلاً ـ وبخاصّة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصاراً عظيماً ـ وفي مقدّمة من كان مضطرّاً لمصانعتها نفر من الكبراء، دخل أهلهم وشيعتهم في الإسلام وأصبحوا هم، ولابدّ لهم ـ لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك ـ أن يتظاهروا باعتناق الدّين الّذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم. ومن هؤلاء عبدالله بن أبيّ ابن سلول الّذي كان قومه ينظّمون له الخرز ليتوّجوه ملكاً عليهم قبيل مقدم الإسلام على المدينة. ونجد في أوّل السورة وصفاً مطوّلاً لهؤلاء المنافقين، نُدرك من بعض فقراته: أنّ المعنيّ به في الغالب هم أولئك الكبراء الذين أرغموا على التّظاهر بالإسلام، ولم ينسوا بعدُ ترفّعهم على جماهير الناس، وتسمية هذه الجماهير بالسفهاء على طريقة المتكبّرين!

وفي ثنايا هذه الحملة على المنافقين ـ الّذين في قلوبهم مرض ـ نجد إشارة إلى شياطينهم، والظاهر من سياق السورة ومن سياق الأحداث في السيرة: أنّها تعني اليهود، الذين تضمّنت السورة حملات شديدة عليهم فيما بعد.

ولقد كانت معجزة الإسلام الخالدة: أنّ صفتهم ـ اليهود ـ الّتي دفعهم بها، هي الملازمة لهم في كلّ أجيالهم، من قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا. ممّا جعل القرآن يخاطبهم في عهد النبيّ ﷺ كما لو كانوا هم أنفسهم الّذين كانوا على عهد موسى ﷺ وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم، باعتبارهم جبلّة واحدة، سماتهم هي هي، ودورهم هو هو، وموقفهم من الحقّ والخلق هو موقفهم على مدار الزّمان! ومن ثمّ يكثر الالتفات في السياق من خطاب قوم موسى، إلى خطاب اليهود في المدينة، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين. ومن ثمّ تبقى كلمات القرآن حيّة كأنّما تواجه موقف الأمّة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها. وتتحدّث عن استقبال يهود لهذه العقيدة ولهذه الدعوة، اليوم وغداً، كما استقبلتها بالأمس تماماً!

وكأنّ هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر، والتحذير الدائم للأمّة المسلمة، تجاه أعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دسٍّ وكيد، وحرب مُنَوَّعة المظاهر، متّحدة الحقيقة!

* * *

وهذه السورة الّتي تضمّنت هذا الوصف، وهذا التنبيه، وهذا التحذير، تضمّنت كذلك بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في الأرض بعد نكول بني إسرائيل عن حملها قديماً، ووقوفهم في وجهها هذه الوقفة أخيراً.

تبدأ السورة ـ كما أسلفنا ـ بوصف تلك الطوائف الّتي كانت تواجه الدعوة أوّل العهد بالهجرة ـ بما في ذلك تلك الإشارة إلى الشياطين اليهود الّذين يرد ذكرهم فيما بعد مطوّلاً ـ وتلك الطوائف هي الّتي تواجه هذه الدعوة على مدار التاريخ بعد ذلك. ثمّ تمضي السورة على محورها بخطّيه الأساسيّين إلى نهايتها، في وحدة ملحوظة، تمثّل الشخصيّة الخاصّة للسورة، مع تعدّد الموضوعات الّتي تناولها وتنوّعها...

فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأُولى: المتّقين. والكافرين. والمنافقين. وبعد الإشارة الضمنيّة لليهود الشياطين، نجد دعوة الناس جميعاً إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل على عبده، وتحدّي المرتابين فيه بأن يأتوا بسورة من مثله. وتهديد الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنّة. ثمّ التعجيب من أمر الّذين يكفرون بالله.

وعند هذا المقطع الّذي يشير إلى خلق ما في الأرض جميعاً للناس، تجيء قصّة استخلاف آدم في الأرض.

بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بني إسرائيل، تتخلّلها دعوتهم للدخول في دين الله وما أنزله الله مصدّقاً لما معهم، مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيّام موسى ﷺ ولا يزالون.

ومن ثمّ تتضمّن السورة حملة قويّة على أفاعيلهم هذه، وتذكّرهم بمواقفهم المماثلة من نبيّهم ومن شرائعهم وسائر أنبيائهم، على مدار الأجيال، وتخاطبهم في هذه كأنّهم جيل واحد متّصل، وجبلّة واحدة لا تتغيّر ولا تتبدّل!

وتنتهي هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم، وهم على هذه الجبلّة المؤوفة الطبع، كما تنتهي بفصل الخطاب في دعواهم أنّهم وحدهم المهتدون، بما أنّهم ورثة إبراهيم. وتبيين أنّ ورثة إبراهيم الحقيقيّين هم الذين يمضون على سنّته، ويتقيّدون بعهده مع ربّه؛ وأنّ وراثة

إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمّدﷺ والمؤمنين به حقاً.

* * *

وعند هذا الحدّ يبدأ سياق السورة يتّجه إلى النبيّ ﷺ وإلى الجماعة المسلمة من حوله، حيث يأخذ في وضع الأسس الّتي تقوم عليها حياة هذه الجماعة المستخلفة على دعوة الله في الأرض، وفي تمييز هذه الجماعة بطابع خاصّ، وبمنهج في التصوّر وفي الحياة خاصّ.

ويبدأ في هذا بتعيين القبلة الّتي تتّجه إليها هذه الجماعة ـ ممتازة عن سائر الجماعات غير المهذّبة ـ وهو أوّل حجر أساسي لهذا الامتياز والانفصال عن المفترقات. ثمّ تمضي السورة في بيان المنهج الربّانيّ لهذه الجماعة المسلمة، منهج التصوّر والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة. ومنهج الكفاح الحرّ في سبيل تثبيت الدعوة وانتشارها في الأرض.

وفي النهاية نرى ختام السورة ينعطف على افتتاحها، فيبيّن طبيعة التصوّر الإيماني وإيمان الأمّة المسلمة بالأنبياء كلّهم، وبالكتب كلّها وبالغيب وماوراءه، مع السمع والطاعة:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَاكَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.(١)

ومن ثمّ يتناسق البدء والختام، وتتجمّع موضوعات السورة بين ضفّتين، من صفات المؤمنين وخصائص الإيمان(٢).

نقلنا كلامه بطوله ـ مع شيء من الاختزال وتصرّف يسير ـ لما فيه من الإجادة والإفادة وحسن البيان.

* * *

قلت: وبحقّ كانت سورة البقرة مسرحاً خصباً لتنمية جذور الدعوة وتثبيت أركانها شامخة إلى الأبد! إلى جنب تربية أمّة واعية، عارفة وحاذرة، عارفة بمصيرها ومايثبطها في درب الحياة،

---

(١) البقرة ٢: ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٢) في ظلال القرآن ١: ٢٥ ـ ٣٦.

وحاذرة من مكائد الخصوم طول المسير.

وقد استغرق نزول سورة البقرة خمسة أعوام، منذ مطالع السنة الثالثة للهجرة فحتّى السابعة خطّطت خلالها كلّ معالم الحضارة الإسلامية العليا، ورسمت أصول بناء أمّة وسط هي شاهدة على الأمم عبر الأجيال.

بدأت ببدء الخليقة وعقّبها بمسألة الخلافة، ثمّ الكفاح في معترك الحياة، والنضال في سبيل الحصول على السعادة المنشودة، والّتي تنشأ من الإيمان الصادق والعمل الصالح والإخلاص في المسعى الجميل.

ولاتزال السورة ـ على رسالتها الأُولى ـ في التربية والتعليم وبثّ روح النشاط في جماعة المسلمين، إن كانت هناك أذن واعية.

تفسير سورة البقرة

في ضوء الدلائل والبينات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمانِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

أمّا البسملة فقد مرّ تفسيرها والكلام عن سائر شؤونها، في مفتتح تفسير سورة الحمد.

وكذا الحروف المقطّعة، جمعنا أطراف الكلام فيها في مقال ضاف، فيما سبق من المقدّمات التمهيديّة.

أمّا الآيات ـ حتّى الآية العشرين فبحث تمهيديّ للورود في مقاصد السورة وبيان أهدافها على ما سبق، وتشتمل على بيان أحوال الناس تجاه دعوة الأنبياء وغيرهم من مصلحين ذوي إخلاص، إمّا أناس متعهدون فيصغون بكلّ مسامعهم لما يلقى عليهم من عظات وحكم ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1].

وإمّا جاحدون مناوؤون، يرفضون كلّ أطروحة ـ مهما كانت إصلاحيّة ـ فور أن لمسوا منها منافية لمصالحهم هم بالذات، من غير ملاحظة مصالح الآخرين من سائر الناس. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[2].

وإمّا مراوغون، لاجرأة لهم على المخالفة، ولارضا لهم بالتسليم. ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ﴾[3].

أمّا احتمال وجود فئة رابعة، شاكّة ومرتابة في أمر دعوة الحقّ، فهذا شيء ينفيه القرآن بكلّ صراحة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ حيث وفور الدلائل الواضحة بإثبات الحقّ الصريح.

* * *

فهناك ـ وعلى مرّ الدهور ـ فئات ثلاث تجاه دعوة الحقّ الصّريح، إمّا أناس متعهدون، ـ وعبّر

---

(١) الزمر ٣٩: ١٧.　(٢) النمل ٢٧: ١٤.

(٣) النساء ٤: ١٤٣.

عنهم القرآن بالمتّقين ـ يحتضنون الحقّ فور ما وجدوه.

والآيات الأربع ـ بدء السورة ـ تخصّ هؤلاء المسالمين.

والآيتان السادسة والسابعة ـ تعنيان أولئك الجاحدين المناوئين.

وبقيّة الآيات حتّى الآية العشرين، تصف موقف المراوغين المنافقين، في تفصيل وتفضيع.

ولنبدأ بالفِئة الأُولى المسالمة:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

«ذلك» إشارة إلى البعيد، بُعْداً في ارتفاع الشأن.

و «الكتاب»: القرآن أو الشريعة الغرّاء.[١]

قوله: «لاريب فيه» أي لا مجال للريب بعد وفور دلائل اليقين، إذ كلّ تعاليم الشريعة، أصولاً وفروعاً، تتوافق ومباني العلم والحكمة، وتتواءم مع الفطرة والعقل السليم. وليس في الشرع ما يتنافر منه الطبع، فضلاً عن العقل الرشيد والفكر السديد.

ومن ثمّ جاء قوله تعالى ـ من غير محاباة ـ:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]. فقد كانت الغاية من إنزال الذكر وكذلك تبيين الرسول، هو أن يتفكّر أولئك الألباب، في مطاوي تعاليم الشريعة، وليكن أخذهم بها والعمل عليها عن بصيرة نافذة، وليس عن متابعة عمياء. وهكذا جاء الأمر بالتدبّر والتعقّل والتفكير، في كثير من آيات القرآن، متحدّياً شعور ذوي القلوب والأبصار، الأمر الّذي يجعل من دين الإسلام، دين الفطرة ودين العقل ودين الشعور والتفكير. فلا يحابي ولا يداهن

(١) باعتبارها كتاباً أي مكتوباً، يعني مفروضاً على المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء ٤: ١٠٣). والكتاب في المصطلح القرآني، كثيراً ما يراد به نفس الشريعة السمحاء، ولاسيّما في أمثال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ (آل عمران ٣: ٨١). حيث الكتاب المسموح به إلى جنب الحكمة، يراد به الشريعة: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة ٢: ١٥١) أي علم الشريعة مع البصيرة في الدين. فالكتاب هي المفروضات، والحكمة هي التبصّر في الدين والفهم المستقيم وعلم اليقين.

(٢) النحل ١٦: ٤٤.

ولا يهاب أحداً في مسيرة الدعوة العصماء.

المتّقون هم أهل الفضائل

قوله: ﴿هدىً للمتّقين﴾ وهم الفريق الأوّل من الفرق الثلاث تجاه دعوة الحقّ وهم النموذج الأوفى من النماذج البشريّة ذو تأصّل عريق، هم على سلامة الطبع ورصانة العقل وأصحابُ الفكر الرشيد. وقد كان الحقّ منشودهم في مناحي الحياة، فمتى وجدوه احتضنوه بكلّ شعور ووعي صادق فكان هذا الاختصاص ـ بالهدى ـ لأجل أنّهم هم الآهلون للاستضاءة بنوره والانضواء تحت لوائه. وليست التقوى سوى التعهّد النفسي العميق، يشعر به كلّ انسانٍ حرٍّ في تعقّله وفي تفكّره وفي سلوكه، فالتقوى في القلب هي الّتي تؤهّله للانتفاع بهذا الكتاب، وهي الّتي تفتح مغاليق القلب له فيدخل ويؤدّي دوره هناك، وهي الّتي تهيّء لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقّى وأن يستجيب. فلابدّ لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن، أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص، ثمّ يجيء إليه بقلب يخشى ويتّقي. ويحذر أن يكون على ضلالة، أو أن تستهويه ضلالة. وعندئذٍ يتفتّح القرآن عن أسراره وأنواره، ويسكبها في هذا القلب الّذي جاء إليه متّقياً، خائفاً، حسّاساً، مهيّأً للتلقّي. ممّن ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾(١)

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٣).

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾(٥).

إلى غيرها من آيات تنبؤك عن آهليّة هذا النمط من الناس، مُرنوا على قبول الحقّ والتسليم له إطلاقاً لايلويهم شيء عن الانصياع للحقيقة مهما كلّف الأمر.

---

(١) الرعد ١٣: ٢١.
(٢) الأنبياء ٢١: ٤٩.
(٣) سورة ق ٥٠: ٣٧.
(٤) فصلت ٤١: ٣.
(٥) المائدة ٥: ٨٣ ـ ٨٤.

تلك هي التقوى، حسّاسية في الضمير، وشفّافيّة في الشعور، وخشية مستمرّة، وحذر دائم، وتوقٍّ لأشواك الطريق، طريق الحياة، الّذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب، فيمن لايملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممّن لايملك نفعاً ولاضرّاً، وعشرات غيرها من الأشواك(١).

إذن فالمتّقون كما:

[٩١/٢] وصفهم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع. غضّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم... عظم الخالق في أنفسهم فصغر مادون ذلك في أعينهم... فمن علامة أحدهم: أنّك ترى له قوّة في دين، وحزماً في لين، وإيمانا في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنىً، وخشوعاً في عبادة، و تجمّلاً في فاقة، وصبراً في شدّة، وطلباً في حلال، و نشاطاً في هدىً، و تحرّجاً عن طمع... الخير منه مأمول، والشرّ منه مأمون... بعيداً فُحْشه، ليّناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شرّه... في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور... يعترف بالحقّ قبل أن يُشْهَد عليه. لايضيع ما استحفظ، ولاينسى ما ذكّر... ولايدخل في الباطل، ولايخرج من الحقّ... نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة(٢).

فالتقوى: هي مجموعة فضائل نفسيّة تجعل صاحبها في قمّة المكرمة الإنسانيّة الرفيعة، له شرفه ونبله وكرامته. وهذه الفضائل هي الّتي آهلته لإفاضة النفحات القدسيّة عليه في جميع أنحاء حياته الكريمة، وانفتاح أبواب الخير والبركات عليه. ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾(٣).

ألا وهي الاستقامة على طريقة الحقّ اللائحة، فتستعقب لا محالة صفاءً في علم وضياءً في حكمة، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(٤). ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾(٥).

فهناك التقوى تستجلب العلم والحكمة والهداية إلى سبيل الرشاد.

---

(١) انظر تفاصيل ما بيّنه سيّد قطب في هذا المجال (في ظلال القرآن ١: ٣٩ ـ ٤١).

(٢) نهج البلاغة ٢: ١٦٠ ـ ١٦٤، الخطبة: ١٩٣.

(٣) الجنّ ٧٢: ١٦.

(٤) البقرة ٢: ١٩٤.

(٥) البقرة ٢: ٢٨٢.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[١]. وهذا الفرقان هـي الحكـمة الرشيدة الّتي يمنحها الله تعالى لمن يشاء ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَـيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢].

[٩٢/٢] وقد جعل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام من حقائق القرآن مالايعرفه إلّا من صـفا ذهـنه، ولطف حسّه، وصحّ تمييزه، ممّن شرح الله صدره للإسلام[٣].

وهذا هو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَـمَسُّهُ إِلَّا الْـمُطَهَّرُونَ﴾[٤].
وصدق الله العظيم.

سمات المتقين الخمس

ثمّ أخذ ـ تعالى ـ في بيان سمات هؤلاء المتّقين، الّذين هم وحدهم موضع الاهـتداء بـهدي القرآن الكريم، والارتواء من منهل عذبه الرحيق. فذكر منها سماتٍ خمساً، هنّ الرؤوس والأسس لسائر الفضائل والمكرمات:

١ ـ الإيمان بالغيب

أُولاها ـ وهو الركن الركين لسائر الأسس ـ الإيمان بـالغيب. قـال تـعالى: ﴿الَّـذِينَ يُـؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، والغيب هنا مطلق. أي العقيدة بأنّ هناك وراء الشهود غيباً هو أرقى وأفسـح، وأن ليست الحياة محدودة بهذه الدنيا القصيرة المدىٰ، فيما زعمه القاصرون ﴿وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيىٰ وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[٥].

فالّذي يرى من الحياة هي الفانية وأن ليس الموجود سوى المحسوس، ما وراءه شيء، فهذا لايمكن التفاهم معه على أمر الوحي وشريعة السماء والكتاب والنبيّين والمبدأ والمعاد وغيرها من أمور هي فوق المادّة المحسوسة. فكيف ياتُرى يمكنه ـ و هوناكر لوجوده تعالى ـ أن يراعي تقوى

(١) الأنفال ٨: ٢٩. (٢) البقرة ٢: ٢٦٩.
(٣) وسائل الشيعة ٢٧: ١٩٤ عن كتاب الاحتجاج للطبرسي ١: ٣٧٦.
(٤) الواقعة ٥٦: ٧٧ ـ ٧٩. (٥) الجاثية ٤٥: ٢٤.

الله واليوم الآخر ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1].

وعليه فالإيمان بالغيب، وأنّ هناك وراء عالم الشهود عالماً أرقى وأبقى كان أسّ الأسس لجميع العقائد الدينيّة، والباعث الأوفى للاستسلام لوحي السماء.

وكما قال سيّد قطب: كان الإيمان بالغيب هو العتبة الأُولى الّتي يجتازها الإنسان، فيرتقي من مرتبة الحيوان ـ الّذي لايدرك سوى ما تدركه حواسّه ـ إلى مرتبة الإنسان الّذي يدرك أنّ الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيّز الصغير المحدَّد.

قال: وهي نقلة بعيدة الأثر في تصوّر الإنسان لحقيقة الوجود كلّه، ولحقيقة وجوده الذاتي، و لحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة و تدبير. كما أنّها بعيدة الأثر في حياته على الأرض؛ فليس من يعيش في الحيّز الصغير الّذي تدركه حواسّه، كمن يعيش في الكون الفسيح الّذي تدركه بديهته وبصيرته؛ ويتلقّى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أنّ مداه أوسع في الزمان والمكان من كلّ ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأنّ وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي الّتي صدر عنها، واستمدّ من وجودِها وجودَه. حقيقة الذات الإلٰهيّة الّتي لاتدركها الأبصار ولاتحيط بها العقول.

وعندئذٍ تصان الطاقة الفكريّة المحدودة المجال، عن التبدّد والتمزّق والانشغال بما لم تُخْلَق له، وما لم تُوْهَب القدرة للإحاطة به، ومالا يُجدي شيئاً أن تُنْفَق فيه.

إنّ الطاقة الفكريّة الّتي وُهِبَها الإنسان، وُهِبَها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلّة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها و تتعمّقها وتتقصّاها، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتجمّلها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحيّة الّتي تتّصل مباشرة بالوجود كلّه وخالق الوجود، وعلى أن تدع للمجهول حصّته في الغيب الّذي لا تحيط به العقول.

فأمّا محاولة إدراك ما وراء الواقع، بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لاترتادها العقول.

فهذه المحاولة محاولة فاشلة أوّلاً، ومحاولة عابثة أخيراً. فاشلة، لأنّها تستخدم أداةً لم تخلق

(١) الأنعام ٦: ٢٩.

لرصد هذا المجال. وعابثة، لأنّها تبدّد طاقة العقل الّتي لم تخلق لمثل هذا المجال.

ومتى سلّم العقل البشري بالبديهة العقليّة الأُولى (بديهة الفطرة)، وهي: أنّ المحدود لايدرك المطلق، لزمه ـ احتراماً لمنطقه ذاته ـ أن يسلّم بأنّ إدراكه للمطلق مستحيل؛ وأنّ عدم إدراكه للمجهول، لاينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون؛ وأنّ عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل؛ وأن يتلقّى العلم في شأنه من العليم الخبير الّذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهود. وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن، هو الّذي يتحلّى به المؤمنون، وهو الصفة الأُولى من صفات المتّقين.

لقد كان الإيمان بالغيب، هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان من عالم البهيمة. ولكن جماعة المادّيّين في هذا الزمان، كجماعة المادّيّين في كلّ زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرىٰ إلى عالم البهيمة الّذي لاوجود فيه لغير المحسوس! ويسمّون هذا «تقدّميّة» وهو النكسة الّتي وقى الله المؤمنين إيّاها، فجعل صفتهم المميّزة، صفة ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ والحمد لله على نعمائه، والنكسة للمنتكسين والمرتكسين[1].

* * *

[٩٣/٢] وهكذا قال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في وصف أهل الضلال: «ولايؤمنون بغيب، ولايعفّون عن عيب».

فقد رتّب عليه السلام عدم عفّهم عن الرذائل، على رفضهم الإيمان بالغيب، فأصبحوا منطلقين في الشهوات غير آبهين ولامكترثين.

قال عليه السلام ـ تعقيباً على ذلك ـ: «يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات. المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المُعْضِلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمّات على آرائهم، كأنّ كلّ امرء منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرىً ثقات وأسباب محكمات»[2].

[٩٤/٢] وكذلك روي عن ابن مسعود وجماعة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: أنّ الغيب هو ما غاب عن العباد علمه. قال الطبرسي: وهذا أولى لعمومه.[3]

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٤٢ ـ ٤٣ مع تصرّف يسير. (٢) نهج البلاغة ١: ١٥٦، الخطبة: ٨٨.

(٣) مجمع البيان ١: ٨٦.

٢ ـ الإخلاص في العبادة

السمة الثانية: العبادة لله خالصةً ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. فيتوجهون بالعبادة لله وحده، ويترفّعون عن عبادة العباد وعبادة الأشياء: يتّجهون إلى القوّة المطلقة بغير حدود ويحنون جباههم لله وحده. والقلب الّذي يسجد لله حقّاً ويتّصل به على مدار الليل والنهار، يستشعر أنّه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غايةً أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض، ويحسّ أنّه أقوى من المخاليق، لأنّه موصول بخالق المخاليق.

قال سيد قطب: وهذا كلّه مصدر قوّة للضمير، كما أنّه مصدر تحرّج وتقوى، وعامل خطير من عوامل تربية الشخصيّة، وجعلها ربّانيّة التصوّر، ربّانيّة الشعور، ربّانيّة السلوك[1].

٣ ـ الإنفاق في سبيل الله

السمة الثالثة: البذل بالمال وبما آتاه الله، في سبيل الله و في سبيل الخدمة الإنسانيّة النبيلة. حيث المؤمنون حقّاً المتقون، يعترفون ابتداءً بأنّ المال الّذي في أيديهم هو من رزق الله ومنحته الكريمة، وليس من عندهم، ومن هذا الشعور ينبثق حبّ البرّ والإيثار، وحبّ التضامن مع ضعاف الناس، شعوراً بالآصرة الإنسانيّة، وبالأخوّة البشريّة. وقيمة هذا كلّه تتجلّى في تطهير النفس من الشحّ، وتزكيتها بالبرّ. وقيمتها أنّها تردّ الحياة مجال تعاون لامعترك تطاحن، وأنّها تؤمّن العاجز والضعيف والقاصر، وتشعرهم أنّهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس إنسانية كريمة، لابين أظفار ومخالب وأنياب.

وقد وصف الله المتقين ـ في سورة الذاريات (٥١: ١٩) بقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. يعني أنّ المؤمن المتّقي (المتعهد بأصول الإنسانية) يرى للضعفاء حقّاً في أمواله، فيسهل عليه الإيثار والإنفاق. لأنّ فيه خروجاً عن حقّ مفروض عليه.

وجاء في سورة المعارج (٧٠: ٢٠) في وصف المصلّين: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ. وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾.

وفي سورة الأنفال (٨: ٢ ـ ٤): ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٤٣.

حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ولقد كان الإنفاق قريناً بالصلاة، سمةً بارزةً للإيمان الصادق، قال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾(١).

الأمر الّذي كان يتحاشاه أهل النفاق وكانوا يصدّون عن الإنفاق في سبيل الله والمستضعفين من المؤمنين، على ما جاء في سورة المنافقين (٦٣: ٧): ﴿يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رسول الله حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ وقد ردّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

وفي سورة محمّد (٤٧: ٣٨): ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

وفي سورة الحديد (٥٧: ١٠): ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾.

الضرائب في شريعة الإسلام

فريضة الضرائب في الإسلام كانت قبل فريضة الزكاة، وتختلفان في الشرائط والأحكام:

تعتبر الضريبة فريضةً ماليّة يُسَدّ بها خلل النظام في الحكم الإسلامي، السياسي والثقافي والاقتصادي وسائر شؤون الدولة في إدارة البلاد، يجب دفعها على الأمّة، موزّعة على فوائد المكاسب والصنائع والتجارات. كلّا بحسب النسبة العادلة.

وهذا غير فريضة الزكاة الخاصّة بأمور، وتصرف في شؤون المعوزين من عامّة الناس، وكان أحد مصارفها: «في سبيل الله». على خلاف الضريبة الخاصّة بمصرف سبيل الله محضاً. أي ما يقوم به أود النظام الحكومي والإداري في كافّة شؤون الدولة، ومنها: الجهاد في سبيل الدفاع عن حوزة الإسلام.

[٩٥/٢] قال رسول الله ﷺ: «إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة»(٢).

ومسألة التأكيد على الإنفاق في سبيل الله، ذلك التأكيد البالغ في القرآن الكريم، إنّما يعني

(١) إبراهيم ١٤: ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي ٢: ٨٥ / ٦٥٦، باب ٢٧ من كتاب الزكاة.

تأمين حاجة الدولة في سبيل تمشية مآربها في تنظيم شؤون الأمّة العامّة. وإلّا أصبحت معتازة، ومهدّدة بالسقوط والانهيار، الأمر الّذي يعود وبالها على الأمّة أنفسهم.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[١]

وقد كانت نفقات نظام الحكم الإسلامي، في بدء تأسيسه، مفروضة على عاتق الأمّة، من ذوي الثروات، فيقوموا بدفع مايلزمهم حسب إمكانيّاتهم، في سبيل تثبيت وتقوية الحكم القائم. فقد كان مفروضاً عليهم ذلك، تسديداً لأود النظام الحاكم، وإلّا لعاد محذور ضعف الدولة في أيّ ركن من أركانها، على الأمّة بالذات.

فلايكن تهاونهم في البذل في هذا السبيل، موجباً لضعضعة كيان الأُمّة ووهن شوكتهم، لا سمح الله.

٤ ـ الإيمان الشامل

والسمة الرابعة: التوحيد الايماني، والتصديق بجميع شرائع الله، حيث وحدة المصدر والهدف.

وهي الصفة اللائقة بالأمّة المسلمة الواعية، وهي وارثة العقائد السماويّة، ووارثة النبوّات منذ فجر البشريّة، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوّة، وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان. وهذا هو شعار الإسلام الخالد.

قال سيد قطب: وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشريّة، ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة معبودها. قيمتها هي تنقية الروح من التعصّب الذميم ضدّ الديانات والمؤمنين بالديانات، ماداموا على الطريق الصحيح. قيمتها هي الاطمئنان إلى رعاية الله للبشريّة على تطاول أجيالها وأحقابها. هذه الرعاية البادية في توالي الرسل والرسالات، بدين واحد وهدى واحد.

قيمتها هي الاعتزاز بالهدى الذي تتقلّب الأيّام والأزمان، وهو ثابت مطّرد، كالنجم الهادي في دياجير الظلام[٢].

٥ ـ الإيقان بالآخرة

والسمة الخامسة: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وهذه خاتمة السمات، الخاتمة الّتي تربط الدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء؛ والّتي تشعر الإنسان أنّه ليس لُقى مهملاً، وأنّه لم يخلق

---

(١) البقرة ٢: ١٩٥.

(٢) في ظلال القرآن ١: ٤٤.

عبثاً، ولن يترك سدىً؛ وأنّ العدالة المطلقة في انتظاره، ليطمئنّ قلبه، وتستقرّ بـلابله، ويـفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف.

قال سيّد قطب: واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحسّ المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أنّ حياته على الأرض هي كلّ ما لَه في هذا الوجود، ومن يشعر أنّ حياته على الأرض ابتلاء يمهّد للجزاء، وأنّ الحياة الحقيقيّة إنّما هي هنالك، وراء هذا الحيّز الصغير المحدود. ﴿يا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[1]. ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2].

[٩٦/٢] وفي الحديث: «إنّما خُلقتم للبقاء لا للفناء»[3].

فهذه العقيدة ـ في حقيقتها ـ تجعل الإنسان على أُهْبَة العمل لحياة خالدة، وأن لا يقصر هـمّه على مُتَع الحياة الدنيا الزائلة. ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[4] ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[5]. والتأكيد على الحياة الأخرى كثير في القرآن، سوف نـبحث عنه في مجاله. إن شاء الله.

* * *

وكلّ صفة من هذه الصفات ـ كما رأينا ـ ذات قيمة في الحياة الإنسانيّة، ومن ثمّ كانت هي صفة المتّقين، أي المتعهّدين بالذمم الأخلاقيّة وأصحاب الشعور الإنساني في الحياة.

قال سيد قطب: وهناك تساوق وتناسق بين هذه الصفات جميعاً، هو الّذي يؤلّف منها وحدة متناسقة متكاملة. فالتقوىٰ شعور في الضمير، وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتّجاهات وأعـمال؛ وتتوحّد بها المشاعر الباطنة والتصرّفات الظاهرة؛ وتصل الإنسان بالله في سرّه وجهره. وتشفّ منها الروح، فتقلّ الحجب بينها وبين الكلّيّ الّذي يشمل عالمي الغيب والشهادة، ويلتقي فـيه المـعلوم والمجهول. ومتى شفّت الروح وانزاحت الحجب بين الظاهر والباطن، فإنّ الإيمان بالغيب عـندئذٍ

(١) الانشقاق ٨٤: ٦.　(٢) البقرة ٢: ١٥٦.

(٣) راجع: تفسير الإمام: ١١٧؛ البحار ٣٧: ١٤٥. وكذا اعتقادات الصدوق: ٤٧، باب ١٥ (مصنفات المفيد ٢٥)؛ البـحار ٦: ٢٤٩ و ٥٨: ٧٨.　(٤) العنكبوت ٢٩: ٦٤.

(٥) الأعلى ٨٧: ١٧.

يكون هو الثمرة الطبيعيّة لإزالة الحجب الساترة، واتّصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه. ومع التقوى والإيمان بالغيب عبادة الله في الصورة الّتي اختارها، وجعلها صلة بين العبد والربّ. ثمّ السخاء بجزء من الرزق، اعترافاً بجميل العطاء، وشعوراً بالإخاء. ثمّ سعة الضمير لموكب الإيمان العريق، والشعور بآصرة القربىٰ لكلّ مؤمن ولكلّ نبيّ ولكلّ رسالة. ثمّ اليقين بالآخرة بلا تردّد ولا تأرجح في هذا اليقين.

وهذه كانت صورة الجماعة المسلمة الّتي قامت في المدينة يوم ذاك، مؤلّفة من السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار. وكانت هذه الجماعة بهذه الصفات شيئاً عظيماً، شيئاً عظيماً حقّاً يتمثّل هذه الحقيقة الإيمانيّة فيها. ومن ثمّ صنع الله بهذه الجماعة أشياء عظيمة في الأرض، وفي حياة البشر جميعاً. ومن ثمّ كان هذا التقرير: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾...

وكذلك اهتدوا وكذلك أفلحوا. والطريق للهدى والفلاح، هو هذا الطريق المرسوم للأبد. والعاقبة للمتّقين.

* * *

وأمّا الروايات فإليك منها:

[٢/٩٧] ما أخرجه أبو نصر السجزي في كتاب «الإبانة» عن ابن عبّاس، قال: آخر حرف عارض به جبرئيل رسول الله ﷺ: ﴿الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

[٢/٩٨] وأخرج أبو جعفر بالإسناد إلى مجاهد قال: أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين. وآيتان في نعت الكافرين. وثلاث عشرة في المنافقين.[٢]

[٢/٩٩] وهكذا ذكر الثعلبي نقلاً عن مجاهد قال: أربع آيات من أوّل هذه السورة نزلت في المؤمنين، وآيتان بعدها نزلت في الكافرين، وثلاث عشرة آية بعدها نزلت في المنافقين[٣].

[٢/١٠٠] وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن الضريس وابن المنذر عن مجاهد قال: من أوّل البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين. و من آية أربعين إلى عشرين ومائة في بني إسرائيل[٤].

---

(١) الدرّ ١: ٥٩.
(٢) الطبري ١: ١٥٢ / ٢٣٠.
(٣) الثعلبي ١: ١٤٩.
(٤) الدرّ ١: ٥٩.

قلت: ولعلّ الصحيح: إلى ثلاث وعشرين ومائة.

[١٠١/٢] وأخرج وكيع عن مجاهد قال: هؤلاء الآيات الأربع في أوّل سورة البقرة إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾[١] نزلت في نعت المؤمنين، واثنتان من بعدها إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ نزلت في نعت الكافرين، وإلى العشرين نزلت في المنافقين[٢].

[١٠٢/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس قال: أربع آيات من فاتحة سورة البقرة في الّذين آمنوا، وآيتان في قادة الأحزاب[٣].

[١٠٣/٢] وقال مقاتل بن سليمان: فلمّا سمع أبو ياسر بن أخطب اليهودي بهؤلاء الآيات، قال لأخيه جُدَيّ بن أخطب: لقد سمعت من محمّد ﷺ كلمات أنزلهنّ الله على موسى بن عمران ﷺ، فقال جُدَيّ لأخيه: لاتعجل حتّى تتثبت في أمره. فعمد أبو ياسر وجُدَيّ ابنا أخطب، وكعب بن الأشرف، وكعب بن أُسَيد، ومالك بن الضيف، وحُيَيّ بن أخطب، وسعيد بن عمرو الشاعر، وأبو لبابة ابن عمرو، ورؤساء اليهود، فأتوا النبيّ ﷺ فقال جُدَيّ للنبي ﷺ: يا أبا القاسم، أخبرني أبو ياسر بكلمات تقولهنّ آنفا. فقرأهنّ النبيّ ﷺ فقال جُدَيّ: صدقتم أمّا ﴿الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فنحن هم. وأمّا ﴿وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فهو كتابك ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ فهو كتابنا ﴿وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُوْلَٰئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فأنتم هم، قد آمنتم بما أُنزل إليكم وإلينا وآمنتم بالجنّة والنار. فآيتان فينا وآيتان فيكم. ثمّ قالوا للنبيّ ﷺ: ننشدك بالله أنّها نزلت عليك من السماء؟ فقال النبيّ ﷺ: أشهد بالله أنّها نزلت عَلَيّ من السماء.

فذلك قوله ـ سبحانه ـ في يونس: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾[٤] يعني: ويستخبرونك أحقّ هو؟ قل: إي وربّي. ويعني: بلى وربّي إنّه لحقّ.

فقال جُدَيّ: لئن كنت صادقا فإنّكم تملكون إحدى وسبعين سنة، ولقد بعث الله ـ عزّ وجلّ ـ في بني إسرائيل ألف نبيّ كلّهم يخبرون عن أمتّك ولم يخبرونا كم تملكون حتّى أخبرتنا أنت الآن. ثمّ قال جُدَيّ لليهود: كيف ندخل في دين رجل منتهى ملك أمته إحدى وسبعون سنة! فقال عمر: وما

(١) إذا لم تعدّ البسملة ولا الحروف المقطّعة آية.
(٢) الدرّ ١: ٥٩؛ أبو الفتوح ١: ١١١.
(٣) الدرّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٥٢ / ٢٣١.
(٤) يونس ١٠: ٥٣.

يُدريك أنّها إحدى وسبعون سنة؟ فقال جُدَيّ: أمّا ألف في الحساب فواحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون سنة. فضحك رسول الله ﷺ. فقال جُدَيّ: هل غير هذا؟ فقال النبيّ ﷺ: نعم ﴿الٓمٓصٓ . كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1]. فقال جُدَيّ: هذه أكبر من الأُولى، ولئن كنت صادقا فإنّكم تملكون مائتي سنة واثنتين وثلاثين سنة. ثمّ قال: هل غير هذا؟ فقال النبيّ ﷺ: ﴿الر .كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2] فقال جُدَيّ: هذه أكبر من الأُولى والثانية وقد حكم وفصل، ولئن كنت صادقا فإنّكم تملكون أربعمائة سنة وثلاثاً وستّين سنة؛ فاتّق الله ولاتقولنّ إلّا حقّاً. فهل غير هذا؟ فقال النبيّ ﷺ: ﴿الٓمٓرٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾[3]. فقال جُدَيّ: لئن كنت صادقا فإنّكم تملكون سبعمائة سنة وأربعاً وثلاثين سنة.

ثمّ إنّ جُدَيّ قال: الآن لانؤمن بما تقول ولقد خلطت علينا فما ندري بأيّ قولك نأخذ، وأيّما أُنزل عليك نتّبع، ولقد لبست علينا حتّى شككنا في قولك الأوّل، ولولا ذلك لاتّبعناك!

قال أبو ياسر: أمّا أنا فأشهد أنّ ما أُنزل على أنبيائنا حقّ وأنّهم قد بيّنوا لنا ملك هذه الأمّة، فإن كان محمّد صادقاً فيما يقول ليجمعنّ له هذه السنون كلّها، ثمّ نهضوا من عنده. فقالوا: كفرنا بقليله وكثيره. فقال جُدَيّ لعبدالله بن سلام وأصحابه: أما تعرفون الباطل فيما خلط عليكم. فقالوا: بلى، نعرف الحقّ فيما يقول، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ في كفّار اليهود بالقرآن ﴿الٓمٓ . اللهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾: الّذي لايموت ﴿الْقَيُّومُ﴾: يعني القائم على كلّ شيء ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يا محمّد ﴿بِالْحَقِّ﴾لم ينزل باطلاً ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: يقول ـ سبحانه ـ قرآن محمّد يصدّق الكتب الّتي كانت قبله ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ . مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ﴾ يعني لبني إسرائيل من الضلالة، ثمّ قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[4] يعني قرآن محمّد بعد التوراة والإنجيل. يعني بالفرقان المخرج من الشبهات والضلالة. نظيرها في الأنبياء ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾[5]. يعني المخرج. وفي البقرة: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[6]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ اليهود، كفروا بالقرآن يعني هؤلاء النفر المسمّين

---

(١) الأعراف ٧: ٢.
(٢) هود ١١: ١.
(٣) الرعد ١٣: ١.
(٤) آل عمران ٣: ١ ـ ٤.
(٥) الأنبياء ٢١: ٤٨.
(٦) البقرة ٢: ١٨٥.

وأصحابهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ﴾في ملكه وسلطانه ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾[١] من أهل معصيته.

وأنزلت أيضا في اليهود في هؤلاء النفر وما يحسبون من المتشابه ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٢].

فأمّا المحكمات فالآيات الثلاث اللّاتي في الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿...لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣] فهنّ محكمات ولم ينسخهنّ شيء من الكتاب، وإنّما سمّين أمّ الكتاب لأنّ تحريم هؤلاء الآيات في كلّ كتاب أنزله الله ـعزّوجلّـ.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يعني الٓمٓ، الٓمٓصٓ، الٓر، الٓمٓر، شُبّهت على هؤلاء النفر من اليهود، كم تملك هذه الأمّة من السنين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ يعني ميل عن الهدى وهم هؤلاء اليهود ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ يعني الكفر ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: يعني منتهى كم يملكون.

يقول الله ـعزّوجلّـ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾: يعني كم تملك هذه الأمّة من السنين ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يعني عبدالله بن سلام وأصحابه، ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾: يعني بالقرآن كلّه. ﴿كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤]: يعني من كان له لُبّ أو عقل.

ثمّ قال ابن سلام وأصحابه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ كما أزغت قلوب اليهود ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾إلى الإسلام ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

فآيتان من أوّل هذه السورة نزلتا في أصحاب النبيّ ﷺ المهاجرين والأنصار. والآيتان اللّتان تليانهما نزلتا في مشركي العرب. وثلاث عشرة آية في المنافقين من أهل التوراة[٥].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾

[١٠٤/٢] أخرج ابن جرير والحاكم وصحّحه عن ابن مسعود ﴿الٓمٓ﴾ حرف اسم الله، و﴿الْكِتَابُ﴾ القرآن، ﴿لاريب﴾ لا شكّ فيه[٦].

---

(١) آل عمران ٣: ٤.
(٢) آل عمران ٣: ٧.
(٣) الأنعام ٦: ١٥١.
(٤) آل عمران ٣: ٧.
(٥) تفسير مقاتل ١: ٨٤ـ٨٨.
(٦) الدرّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٤٤ / ٢٠٨؛ الحاكم ٢: ٢٦٠.

[١٠٥/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ قال: هذا الكتاب.

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن عكرمة. مثله(١).

[١٠٦/٢] وروى أبو الفتوح الرازي عن سعيد بن جبير، قال: الكتاب، هو اللوح المحفوظ، وقد أظهر الله القرآن فيه، حتّى كان جبرئيل يقرؤه ثمّ يتلوه على رسول الله ﷺ، يعني: أنّ الكتاب المنزل هو المنقول عن اللوح المحفوظ(٢).

[١٠٧/٢] وقال ابن كيسان: إنّ الله تعالى أنزل قبل سورة البقرة سوراً كذّب بها المشركون ثمّ أنزل سورة البقرة، فقال: ذلك الكتاب، يعني ما تقدّم البقرة من السور، لاشك فيه(٣).

[١٠٨/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ وذلك أنّ كعب بن الأشرف، وكعب ابن أسيد لمّا دعاهما النبي ﷺ إلى الإسلام قالا: ما أنزل الله كتاباً من بعد موسى، تكذيباً به فأنزل الله ـ عزّوجلّ ـ في قولهما: ﴿الٓمٓ. ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ بمعنى هذا الكتاب الّذي كفرت به اليهود ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني لا شكّ فيه أنّه من الله جاء، وهو أنزله على محمّد ﷺ ثمّ قال: هذا القرآن ﴿هُدًى﴾ من الضلالة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك(٤).

[١٠٩/٢] وقال الفرّاء: كان الله قد وعد نبيّه ﷺ أن يُنزل عليه كتاباً لا يمحوه الماءُ ولا يخلق عن كثرة الردّ، فلمّا أنزل القرآن قال: هذا ذلك الكتاب الّذي وعدتك ـ أن أنزله عليك ـ في التوراة والإنجيل وعلى لسان النبيّين من قبلك(٥).

[١١٠/٢] وقال الشيخ في «التبيان»: قال قوم: إنّ معناه: ذلك الكتاب الّذي وُعدوا به على لسان

---

(١) الدرّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٤٢ / ٢٠٤، بلفظ: عن ابن جريج قوله «ذلك الكتاب»: هذا الكتاب. قال: قال ابن عبّاس: «ذلك الكتاب»: هذا الكتاب. ورقم ٢٠١ عن مجاهد و ٢٠٢ عن عكرمة و ٢٠٣ عن السّدي؛ ابن كثير ١: ٤١، نقلاً عن ابن عبّاس ومجاهد و عكرمة وسعيدبن جبير والسّدّي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وابن جريج؛ التبيان ١: ٥١، نقلاً عن عكرمة؛ أبو الفتوح ١: ٩٧، نقلاً عن ابن عبّاس والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحّاك ومقاتل.

(٢) أبو الفتوح ١: ٩٨؛ الثعلبي ١: ١٤١، بلفظ: قال سعيدبن جبير: هو اللوح المحفوظ.

(٣) البغوي ١: ٨١؛ أبو الفتوح ١: ٩٨.

(٤) تفسير مقاتل ١: ٨١.

(٥) الثعلبي ١: ١٤١؛ البغوي ١: ٨١؛ مجمع البيان ١: ٨٢، نقلاً عن الفرّاء وأبي عليّ الجبّائي. وراجع: معاني القرآن للفرّاء ١: ١٠، قال: ومعنى ذلك: أنّ هذه الحروف ـ يا أحمد ـ ذلك الكتاب الّذي وعدتك أن أوحيه إليك.

موسى وعيسى كما قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعني: هذا ذلك الكتاب(١).

[١١١/٢] وأخرج مسلم من حديث عِياض بن حمار المُجاشعي أنّ رسول الله ﷺ قال ـ ذات يوم في خطبته ـ: إنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلّا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنّما بَعثتُك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لايغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان. الحديث(٢).

[١١٢/٢] وأيضاً أخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده: أنّ رحمتي تغلب غضبي». وفي رواية «سبقت»(٣).

[١١٣/٢] وعن عكرمة: المراد بالكتاب ـ في قوله: ذلك الكتاب ـ هو التوراة والإنجيل، يعني: أنّ «الم» اسم للقرآن الّذي جاء وصفه في كتب السالفين، التوراة والإنجيل(٤).

[١١٤/٢] وهناك رواية قد تبدو غريبة رواها عليّ بن إبراهيم بإسناده إلى يونس بن عبدالرحمان عن سعدان بن مسلم عن أبي بصير عن أبي عبدالله ﷺ قال: «الكتاب، عليّ، لاشكّ فيه، هدىً للمتّقين»(٥).

[١١٥/٢] ورواها أبو النضر محمّدبن مسعود العيّاشي بالإسناد إلى سعدان بن مسلم عن بعض أصحابه عن أبي عبدالله ﷺ قال: كتاب عليّ لاريب فيه. هدىً للمتّقين(٦).

---

(١) التبيان ١: ٥١ ـ ٥٢؛ أبوالفتوح ١: ٩٨. نقلاً عن ابن عبّاس.

(٢) القرطبي ١: ١٥٨، وحكى قبل ذلك من قائل يقول: «إنّ الله تعالى قد كان وعد نبيّه ﷺ أن ينزل عليه كتاباً لايمحوه الماء فأشار إلى ذلك الوعد كما في صحيح مسلم»؛ مسلم ٨: ١٥٩.

(٣) القرطبي ١: ١٥٧؛ وحكى قبل نقلها من قائل يقول: «إنّ المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ هو الّذي كتب الله على نفسه في الأزل «أنّ رحمته سبقت غضبه»؛ مسلم ٨: ٩٥ ـ ٩٦، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنّها سبقت غضبه.

(٤) أبو الفتوح ١: ٩٨؛ الثعلبي ١: ١٤١، بلفظ: هو التوراة والإنجيل والكتب المتقدّمة.

(٥) القمّيّ ١: ٣٠.

(٦) العيّاشي ١: ٤٤ / ١.

وسعدان بن مسلم كان قائد أبي بصير، ولم يوثّق صريحاً. ويونس، الراوي عنه قد طَعَن فيه القميّون، على أنّ العيّاشي رواها عن سعدان عن بعض أصحابه. فتكون في السند جهالة. إذن فلم يصحّ إسناد الرواية.

وعلى فرض الصحّة، فيمكن تأويله على إرادة الكتاب الّذي يفسّره عليّ عليه السلام. لأنّه عليه السلام هو القرآن الناطق، إلى جنب القرآن الصامت. فآل البيت ـ وعلى رأسهم الإمام أميرالمؤمنين ـ هم وحدهم مراجع الأمّة لفهم القرآن فهماً صحيحاً كما أراده الله. وقد بحثنا عن ذلك مستوفىً[1].

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

[١١٦/٢] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قال: لاشكّ فيه[2].

[١١٧/٢] وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عزّوجلّ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قال: لاشكّ فيه. وقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت ابن الزبعري وهو يقول:

ليس في الحقّ يا أمامة ريب إنّما الريب ما يقول الكذوب[3]

[١١٨/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قال: لاشكّ فيه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله[4].

---

(١) في كتابنا «التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب» (التمهيد، ج ٩) عند الكلام عن دور أهل البيت في القرآن.

(٢) الدرّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٤٤ / ٢٠٩؛ ابن كثير ١: ٤١؛ البخاري ٨: ٢١٠، كتاب التوحيد باب ٤٦.

(٣) الدرّ ١: ٦٠.

(٤) الدرّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٤٤ / ٢١٠ عن قتادة، و ٢٠٥ عن مجاهد، و ٢٠٦ عن عطاء و ٢٠٧ عن السّدّي و ٢١١ عن الربيع بن أنس؛ ابن كثير ١: ٤١، نقلاً عن أبي مالك وابن عبّاس وابن مسعود وأناس من أصحاب النبيّ وأبي الدرداء ومجاهد و سعيدبن جبير ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبي العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيّان والسّدّي وقتادة ←

[١١٩/٢] وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال: ﴿الرَّيب﴾ الشّك من الكفر[١] أي النا شيء من الكفر.

قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾

[١٢٠/٢] أخرج وكيع وابن جرير عن الشعبي في قوله: ﴿هُدىً﴾ قال: من الضلالة[٢].

[١٢١/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: جعله الله هدى وضياء لمن صدَّق به، ونوراً للمتقين[٣].

[١٢٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: للمؤمنين الّذين يتّقون الشرك ويعملون بطاعتي[٤].

[١٢٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من أصحاب النبيﷺ في قوله: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾، قال: نور ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقال: هم المؤمنون[٥].

[١٢٤/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: هم من نعتهم ووصفهم فأثبت صفتهم فقال: ﴿الَّذينَ يُؤْمِنونَ بِالغَيب﴾[٦].

[١٢٥/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي الّذين يحذرون من أمر الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في

← وإسماعيل بن أبي خالد. التبيان ١: ٥٢، نقلاً عن ابن عبّاس و مجاهد و عطاء والسّديّ وغيرهم؛ عبدالرزّاق ١: ٢٥٨/١٦ عن قتادة.

(١) الدرّ ١: ٦٠؛ الزّهد: ٢١٨/٧٥٦، (زهد أبي الدرداء)؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٤/٥٥.

(٢) الدرّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٤٥/٢١٢.

(٣) الدرُّ ١: ٦١.

(٤) الدرُّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٤٨/٢١٩؛ البغوي ١: ٨١، بلفظ: قال ابن عبّاس: المتّقي من يتّقي الشرك والكبائر والفواحش؛ التبيان ١: ٥٤، بلفظ: قيل: إنّ المتّقين هم الّذين اتّقوا الشرك وبرئوا من النفاق. وهذا الوجه ضعيف لأنّه يلزم عليه وصف الفاسق المتهتك بأنّه متّق إذا كان بريئاً من الشرك والنفاق؛ أبو الفتوح ١: ١٠١.

(٥) الدرّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٤٥/٢١٣، و ١٤٧/٢١٦؛ ابن كثير ١: ٤٢، نقلاً عن أبي مالك وابن عبّاس وابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبيﷺ.

(٦) الدرّ ١: ٦٤؛ الطبري ١: ١٤٧ـ١٤٨/٢١٨؛ ابن كثير ١: ٤٢.

التصديق بما جاء به[١].

[١٢٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال: يُحبَسُ الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فينادي منادٍ: أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمان، لايحتجب الله منهم، ولا يستتر. قيل: من المتقون؟ قال: قوم اتّقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فيمرّون إلى الجنّة[٢].

[١٢٧/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي كريب قال: حدّثنا أبوبكر بن عيّاش قال: سألني الأعمش عن المتّقين فأجبته، فقال لي: سل عنها الكلبي. فسألته فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾. قال: فرجعت إلى الأعمش، فقال: نرى أنّه كذلك ولم ينكره[٣].

[١٢٨/٢] وقال شهر بن حوشب: المتّقي الّذي يترك مالابأس به حذراً ممّا به بأس[٤].

[١٢٩/٢] وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتّقوا ما حرّم عليهم وأدّوا ما افترض عليهم[٥].

[١٣٠/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن سفيان الثوري قال: إنّما سمّوا المتّقين لأنّهم اتّقوا مالايُتّقى[٦].

[١٣١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأبو نعيم في الحلية عن ميمون بن مهران قال: لا يكون الرجل من المتقين حتّى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الرجل شريكه، حتّى ينظر من أين مطعمه، ومن أين ملبسه، ومن أين مشربه، أمن حلّ ذلك أو من حرام؟[٧]

[١٣٢/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قال: ما زالت التقوى بالمتّقين حتّى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام[٨].

---

(١) الدرّ ١: ٦٠؛ الطبري ١: ١٤٧ / ٢١٥، وفيه: «بما جاء به» بدل «بما جاء منه»؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٥ / ٦٢.

(٢) الدرّ ١: ٦١؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٥ / ٦١.

(٣) الطبري ١: ١٤٧ / ٢١٧؛ ابن كثير ١: ٤٢.

(٤) البغوي ١: ٨٢؛ أبو الفتوح ١: ١٠١.

(٥) الطبري ١: ١٤٧ / ٢١٤؛ ابن كثير ١: ٤٢.

(٦) الدرّ ١: ٦١.

(٧) الدرّ ١: ٦٣؛ المصنّف ٨: ٢٦٣ / ٨٥؛ الحلية ٤: ٨٩؛ ابن عساكر ٦١: ٣٥٤.

(٨) الدرّ ١: ٦١.

[١٣٣/٢] وأخرج أحمد وعبدبن حميد والبخاري في تاريخه والترمذي وحسّنه وابن ماجة وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه والبيهقي في الشعب عن عطيّة السعدي وكان من الصحابة، قال: قال رسول الله ﷺ: لايبلغ العبد المؤمن أن يكون من المتّقين، حتّى يدع ما لابأس به حذراً لما به بأس[١].

[١٣٤/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن المبارك قال: لو أنّ رجلاً اتّقى مائة شيء ولم‌يتّق شيئاً واحداً، لم يكن من المتقين[٢].

[١٣٥/٢] وأخرج من طريق مالك بن أنس عن وهب بن كيسان القرشي مولى آل الزبير[٣] أنّه كتب إلى عبدالله بن الزبير بموعظة: أمّا بعد فإنّ لأهل التقوى علامات يُعرفون بها ويَعرفونها من أنفسهم: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وكظم الغيظ، وصبر على البلاء، ورضى بالقضاء، وشكر للنعماء، وذلّ لحكم القرآن[٤].

[١٣٦/٢] وأخرج عن شبيب بن شيبة قال: تكلّم رجل من الحكماء عند عبدالملك بن مروان، فوصف المتّقي فقال: رجل آثر الله على خلقه، وآثر الآخرة على الدنيا، ولم تكترثه المطالب؛ ولم‌تُغنه المطامع، نظر ببصر قلبه إلى معالي إرادته، فسما نحوها ملتمساً لها، فدهره محزون. يبيت إذا نام الناس ذا شجون، ويصبح مغموماً. في الدنيا مسجون، قد انقطعت من همّته الراحةُ دون منيّته، فشفاؤه القرآن، ودواؤه الكلمة من الحكمة والموعظة الحسنة، لا يرى منها الدنيا عوضاً، ولا يستريح إلى لذّة سواها. فقال عبدالملك: أشهد أنّ هذا أرخى بالاً مِنّا، وأنعم عيشاً[٥].

---

(١) الدرّ ١: ٦١؛ منتخب مسند عبد بن حميد: ١٧٦ / ٤٨٤؛ التاريخ ٥: ١٥٨ / ٤٨٩، باختلاف يسير؛ الترمذي ٤: ٥١ / ٢٥٦٨؛ ابن ماجة ٢: ١٤٠٩ / ٤٢١٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٤ ـ ٣٥ / ٦٠، بلفظ: «قال رسول الله ﷺ لايكون الرجل من المتّقين حتّى يدع ما لابأس به حذراً لما به البأس»؛ الحاكم ٤: ٣١٩؛ الشعب ٥: ٥٢ / ٥٧٤٥؛ البيهقي ٥: ٣٣٥؛ ابن كثير ١: ٤٢؛ مجمع البيان ١: ٨٣، بلفظ: «روي عن النبي ﷺ أنّه قال: إنّما سمّي المتّقون لتركهم ما لا بأس به حذراً للوقوع فيما به بأس».

(٢) الدرّ ١: ٦١.

(٣) هو أبو نعيم المدني المعلّم المكّي، روى عن جماعة من الصحابة وروى عنه الأعلام... كان محدثاً ثقة. مات سنة ١٢٧. (تهذيب التهذيب ١١: ١٦٦ / ٢٨٦).

(٤) الدرّ ١: ٦٢؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٨: ٣٧٩، وفي الطبعة ٢ (١٩٧٤) مكتبة المعارف، بيروت ٨: ٣٤٤.

(٥) الدرّ ١: ٦٣؛ كتاب الهمّ والحزن، لابن أبي الدنيا: ٨٠ / ١١٩.

[١٣٧/٢] وأخرج عن رجاء قال: من سرّه أن يكون متّقياً فليكن أذلّ من قعود إبل، كلّ من أتى عليه أرغاه(١).

[١٣٨/٢] وأخرج عن قتادة قال: لمّا خلق الله الجنّة قال لها: تكلّمي. قالت: طوبى للمتّقين(٢).

[١٣٩/٢] وأخرج عن مالك بن دينار قال: القيامة عِرْس المتقين(٣).

[١٤٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العفيف ـ وكان من أصحاب معاذبن جبل ـ قال: يدخل أهل الجنّة على أربعة أصناف: المتّقين ثمّ الشاكرين ثمّ الخائفين ثمّ أصحاب اليمين(٤).

[١٤١/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمربن عبدالعزيز، أنّه لمّا وُلّي، حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أوصيكم بتقوى الله، فإنّ تقوى الله خلف من كلّ شيء، وليس من تقوى الله خلف(٥).

[١٤٢/٢] وأخرج عنه أيضاً قال: يا أيّها الناس اتّقوا الله، فإنّه ليس من هالك إلّا له خلف إلّا التقوى(٦).

[١٤٣/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عن طلق بن حبيب أنّه قيل له: ألا تجمع لنا التقوى في كلام يسير نرويه؟ فقال: التقوى، العمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء رحمة الله، والتقوى، ترك معاصي الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله(٧).

[١٤٤/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمربن عبدالعزيز قال: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرّم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رُزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير(٨).

---

(١) الدرّ ١: ٦٢. يقال: أرغاه أي أذلّه وقهره.

(٢) الدرّ ١: ٦٣؛ الطبري ١٠: ١١/ ١٩٢٥٨، (سورة المؤمنون ـ الآية ١١)، باختلاف يسير.

(٣) الدرّ ١: ٦٣.

(٤) الدرّ ١: ٦٤؛ ابن كثير ٣: ٣٤٠.

(٥) الدرّ ١: ٦٣؛ ابن عساكر ٤٥: ٣٥٧.

(٦) الدرّ ١: ٦٣.

(٧) الدرّ ١: ٦١؛ المصنّف ٧: ٢١٧/ ٥، بلفظ:... عن عاصم قال: قلنا لطلق بن حبيب: صف لنا التقوى، قال: التقوى عمل بطاعة الله رجاء رحمة الله، على نور من الله، والتقوى ترك معصية الله، مخافة عقاب الله على نور من الله.

(٨) الدرّ ١: ٦٢ ـ ٦٣؛ البغوي ١: ٨٢، بلفظ: قال عمربن عبدالعزيز: التقوى ترك ما حرّم الله وأداء ما افترض الله فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير؛ ابن عساكر ٤٥: ٢٣٠، (عمربن عبدالعزيز).

[١٤٥/٢] وأخرج عن أياس بن معاوية قال: رأس التقوى ومعظمه: أن لاتعبد شيئاً دون الله، ثمّ تتفاضل الناس بالتقى والنُّهى[١].

[١٤٦/٢] وقال عبدالله بن عمر: التقوى أن لاترى نفسك خيراً من أحد[٢].

[١٤٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا عن سهم بن سحاب قال: معدن من التقوى، لايزال لسانك رطباً من ذكر الله[٣].

[١٤٨/٢] وأخرج عن عون بن عبدالله قال: فواتح التقوى حسن النية، وخواتمها التوفيق، والعبد فيما بين ذلك، بين هلكات وشبهات، ونفس تحطب على سلوّها، وعدوّ مكيد غير غافل ولا عاجز. ثمّ قرأ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٤].

[١٤٩/٢] وأخرج عن محرز الطفاري قال: كيف يرجو مفاتيحَ التقوى من يُؤثر على الآخرة الدنيا؟!![٥].

[١٥٠/٢] وأخرج في كتاب التقوى عن أبي هريرة، أنّ رجلاً قال له: ما التقوى؟ قال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى[٦].

[١٥١/٢] وأخرج عن ابن المبارك قال: قال داوود لابنه سليمان ﷺ: يا بنيّ إنّما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: لحسن توكّله على الله فيما نابه، ولحسن رضاه فيما آتاه، ولحسن زهده فيما فاته[٧].

---

(١) الدرّ ١: ٦٢.
(٢) البغوي ١: ٨٢.
(٣) الدرّ ١: ٦٢.
(٤) الدرّ ١: ٦٢؛ ابن عساكر ٤٧: ٧٦.
(٥) الدرّ ١: ٦٢.
(٦) الدرّ ١: ٦١؛ القرطبي ١: ١٦١ ـ ١٦٢، بلفظ: سأل عمر بن الخطاب أُبيّاً عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم؛ قال: فما عملت فيه؟ قال: تشمّرت وحذرت؛ قال: فذاك التقوى؛ ابن كثير ١: ٤٢، بنحو ما رواه القرطبي؛ البغوي ١: ٨٢، بلفظ: قال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار: حدّثنا عن التقوى. فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمّرت، قال كعب: وذلك التقوى؛ قلت: ولعلّ الأمر اشتبه على الراوي فجعل كعب الأحبار اليهودي مكان أُبيّ بن كعب الصحابيّ الجليل! مجمع البيان ١: ٨٣؛ أبو الفتوح ١: ١٠١.
(٧) الدرّ ١: ٦٢.

[١٥٢/٢] وأخرج عن محمّد بن يوسف الفريابي قال: قلت لسفيان: أرى الناس يقولون: سفيان الثوري، وأنت تنام اللّيل؟ فقال لي: اسكت، ملاك هذا الأمر التقوى(١).

[١٥٣/٢] وأخرج عن محمّدبن يزيد الرحبي قال: قيل لأبي الدرداء: إنّه ليس أحد له بيت في الأنصار إلّا قال شعراً، فمالك لا تقول؟! قال: وأنا قلت فاستمعوه:

يــريد المـرءُ أن يُـعطَى مُـناهُ ... ويأبـــى الله إلّا مـــا أرادا

يقول المرءُ فـائدتي وذخـري ... وتقوى الله أفضل ما استفادا(٢)

[١٥٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن عون بن عبدالله قال: تمام التقوى أن تبتغي علم ما لم تعلم منها إلى ما قد علمت منها(٣).

[١٥٥/٢] وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن يتّقي اللهَ العبدُ، حتّى يتّقيه من مثقال ذرّة، وحتّى يترك بعض ما يرى أنّه حلال، خشية أن يكون حراماً يكون حاجزاً بينه وبين الحرام(٤).

[١٥٦/٢] وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: بلغنا أنّ رجلاً جاء إلى عيسى فقال: يا معلّم الخير كيف أكون تقياً لله كما ينبغي له؟ قال: بيسير من الأمـر. تحبّ الله بقلبك كلّه، وتعمل بكدحك وقوّتك ما استطعت، وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك. قال: من ابن جنسي يا معلّم الخير؟ قال: وُلد آدم كلّهم، وما لا تحبّ أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد، فأنت تقيّ لله حقّاً(٥).

---

(١) الدرّ ١: ٦٣.

(٢) الدرّ ١: ٦٣ ـ ٦٤؛ القرطبي ١: ١٦٢، بمعناه؛ ابن كثير ١: ٤٣.

(٣) الدرّ ١: ٦٢؛ المصنّف ٨: ٢٢٣ / ١، كتاب الزّهد، باب ٤٧، (عون بن عبدالله) بلفظ: عن عون بن عبدالله قال: إنّ من كمال التقوى أن تبتغي إلى ما علمت منها علم ما لم تعلم، واعلم أنّ فيما علمت ترك ابتغاء الزيادة فيه، وإنّما يحمل الرجل على ترك ابتغاء الزيادة فيما قد علم قلّة الانتفاع بما قد علم.

(٤) الدرّ ١: ٦١؛ ابن عساكر ٤٧: ١٦١، (عويمر بن زيد بن قيس).

(٥) الدرّ ١: ٦٢؛ الزّهد: ١١٣ / ٣٣١ (من مواعظ عيسى ﷺ)، باختلاف يسير؛ ابن عساكر ٤٧: ٤٤٦.

في حقيقة الإيمان

الإيمان ـ في حقيقته ـ هو الإيقان عن عقد قلب، بحيث أوجب ارتياح النفس إليه والاطمئنان به عن صدق وإخلاص، وباعثاً مباشراً على العمل بمقتضاه عن جدٍّ واجتهاد، من غير حاجة إلى بعث خارجيّ أو زاجر من خارج النفس.

كمن أيقن بحضور محبوبه أو ضالّته المنشودة لدى الباب، فيعمد لفوره لمقابلته برحابة من الصدر، والتماس أعتابه بكلّ خضوع وإجلال، من غير حاجة إلى بعث من خارج نفسه. وهكذا من أيقن بوجود عدوّ ضارّ قد كمن له في الطريق، فيحاول لحينه الفرار أو مقابلته بما يطمئنّ بالغلبة عليه.

هذا هو الإيمان الصادق والإيقان عن إخلاص. ومن ثمّ فيكون الإيمان بذاته باعثاً مباشراً على العمل، ويكون العمل الجادّ، كاشفاً حقّاً عن محض الإيمان، لاأنّه هو ولا كونه جزءاً من ماهيّته وحقيقته، بل لازمه المباشر الكاشف عنه.

فما ورد من أنّ الإيمان هو الاعتقاد بالجَنان والعمل بالأركان والقول باللسان، فهو بيان لأسّ الإيمان مع الكاشف عنه، حسب المتعارف المعهود.

وما ورد من استعمال اللفظة في القرآن، يدلّ على هذا التفكيك، وأنّ العمل لازم الإيمان ومنبعث عنه وليس متّحداً معه لا مفهوماً ولا مصداقاً. وفي كثير من الآيات جاء الحثّ على الإيمان والعمل الصالح توأمين: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[1]. وأنّ الإيمان بلاعمل، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾[2]. لأنّ العمل أثر ملازم للإيمان، وإذا فقد الأثر، كان دليلاً على فقدان صاحب الأثر. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3] يعني: إن صحّ أنّكم آمنتم، فليكن دليلاً على صدق الإيمان، هو استجابة الرسول فيما يدعوكم إليه، من العمل بمقتضى الإيمان. وهكذا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾[4]، أي يا أيّها الّذين آمنوا بإظهار الشهادتين، فليكن إظهاركم هذا نابعاً عن عقد قلب باعث على العمل بمقتضاه.

---

(١) المائدة ٥: ٦٩. (٢) النور ٢٤: ٣٩.

(٣) الأنفال ٨: ٢٤. (٤) النساء ٤: ١٣٦.

إلى غيرها من آيات تنبؤك عن تلازم باتٍّ بين الإيمان الصادق والعمل الجادّ وَفقه. ومن ثَمَّ فيكون أحدهما دليلاً على الآخر. والتعريف باللازم كثير في المتعارف. وإليك من روايات الباب ما استخرجناه من أصحّ الكتب: ولنبدأ بما أخرجه ثقة الإسلام أبوجعفر محمّدبن يعقوب الكليني في أصول الكافي:

[١٥٧/٢] فقد روى عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «أنّ السكينة الّتي أنزلها الله في قلوب المؤمنين، هي الإيمان».

وهو ما أشرنا إليه: أنّ الإيمان الصادق هو ما أورث ارتياحاً في البال وطمأنينة في النفس ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١]، نعم إنّه ركون إلى ذي القوّة المتين ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[٢]. ومن كان هذا دأبه فلاخوف يعتريه ولاحزن يزدريه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

[١٥٨/٢] وروى بإسناده إلى أبي حمزة الثمالي قال: سألت الإمام أباجعفر الباقر عليه السلام عن قول الله ـعزّوجلّـ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[٥] قال: هو الإيمان.

قال أبو حمزة: وسألته عن قول الله ـعزّوجل: ـ ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[٦]. قال: «هو الإيمان»[٧].

نعم، السكينة رَوْح الإيمان الّذي تسكن إليها القلوب والأرواح. فلا يزال المؤمن يزداد روحاً وارتياحاً على أثر الثبات في الإيمان والإيقان والعمل الجادّ.

[١٥٩/٢] وهكذا بإسناده إلى محمّدبن مسلم عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: «السكينة الإيمان»[٨].

---

(١) الرعد ١٣: ٢٨.
(٢) الطلاق ٦٥: ٣.
(٣) يونس ١٠: ٦٢.
(٤) الأحقاف ٤٦: ١٣.
(٥) الفتح ٤٨: ٤.
(٦) المجادلة ٥٨: ٢٢.
(٧) الكافي ٢: ١٥ / ١.
(٨) المصدر / ٣.

[١٦٠/٢] وفي ثالثة أيضاً عن الصادق عليه السلام «في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال: هو الإيمان»(١).

[١٦١/٢] وفي رابعة أيضاً عنه عليه السلام «في قوله تعالى: ﴿وَ أَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، قال: هو الإيمان. وفي قوله تعالى: ﴿وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾(٢)، قال: هو الإيمان»(٣).

نعم، ألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحقّ بها وأهلها ـ كما نصّت عليه الآية ـ بفضل إيمانهم الراسخ وثباتهم على الطريقة ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾(٤). والماء الغدق هي التقوى والحكمة الرشيدة. فقد صدق الله ورسوله والصفوة من عترته الأطيبين.

[١٦٢/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: والإيمان في كتاب الله على أربعة وجوه: فمنه إقرار باللسان، وقد سمّاه الله تبارك وتعالى إيماناً. ومنه تصديق بالقلب، ومنه الأداء، ومنه التأييد. فأمّا الإيمان الّذي هو إقرار باللسان وقد سمّاه الله تبارك وتعالى إيماناً ونادى أهله به فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً. وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً. وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾(٥)، قال الصادق عليه السلام: لو أنّ هذه الكلمة قالها أهل المشرق وأهل المغرب لكانوا بها خارجين من الإيمان، ولكن قد سمّاهم الله مؤمنين بإقرارهم. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾(٦) فقد سمّاهم الله مؤمنين بإقرارهم ثمّ قال لهم: صدّقوا.

وأمّا الإيمان الّذي هو التصديق بالقلب فقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾(٧)، يعني أقرّوا وصدّقوا. وقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ﴾(٨)، أي لا نصدّقك وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا أيها الّذين أقرّوا وصدّقوا، فالإيمان الخفيّ هو التصديق، وللتصديق شروط لا يتمّ التصديق إلّا بها، وقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ

(١) المصدر / ٤.
(٢) الفتح ٤٨: ٢٦.
(٣) الكافي ٢: ١٥ / ٥.
(٤) الجنّ ٧٢: ١٦.
(٥) النساء ٤: ٧١ ـ ٧٣.
(٦) النساء ٤: ١٣٦.
(٧) يونس ١٠: ٦٣ ـ ٦٤.
(٨) البقرة ٢: ٥٥.

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١]. فمن أقام بهذه الشروط فهو مؤمن مصدّق.

وأمّا الإيمان الّذي هو الأداء فهو قوله لما حوّل الله قبلة رسوله إلى الكعبة، قال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله فصلاتنا إلى بيت المقدس بطلت؟ فأنزل الله تبارك و تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[٢] فسمّى الصلاة إيماناً.

والوجه الرابع من الإيمان، هو التأييد، الّذي جعله الله في قلوب المؤمنين من روح الإيمان، فقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[٣] والدليل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «لايزني الزاني وهو مؤمن، ولايسرق السارق وهو مؤمن، يفارقه روح الإيمان ما دام على بطنها فإذا قام عاد إليه، قيل: وما الّذي يفارقه؟ قال: الّذي يدعه في قلبه، ثمّ قال ﷺ: ما من قلب إلّا وله أذنان على إحداهما ملك مرشد وعلى الأخرى شيطان مفتن، هذا يأمره وهذا يزجره».

ومن الإيمان ما قد ذكره الله في القرآن: خبيث وطيّب، فقال: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٤]، فمنهم من يكون مؤمناً مصدّقاً ولكنّه يلبس إيمانه بظلم، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٥]. فمن كان مؤمناً ثمّ دخل في المعاصي الّتي نهى الله عنها فقد لبس إيمانه بظلم فلا ينفعه الإيمان حتّى يتوب إلى الله من الظلم الّذي لبس إيمانه حتّى يخلص لله إيمانه، فهذه وجوه الإيمان في كتاب الله[٦].

[١٦٣/٢] وعن الإمام عليّ بن موسى الرضا ﷺ قال: «إنّ الإيمان هو التصديق بالقلب والعمل

---

(١) البقرة ٢: ١٧٧.
(٢) البقرة: ٢: ١٤٣.
(٣) المجادلة ٥٨: ٢٢.
(٤) آل عمران ٣: ١٧٩.
(٥) الأنعام ٦: ٨٢.
(٦) القمّي ١: ٣٠ ـ ٣٢؛ البحار ٦٥: ٢٧٣ ـ ٢٧٤ / ٣٠.

بالأركان والقول باللسان»[١].

[١٦٤/٢] وأخرج الثعلبي عن عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال: حدّثنا أبي سيّد شباب أهل الجنّة قال: حدّثنا أبي سيّد الأوصياء قال: حدّثنا محمّد سيّد الأنبياء قال: «الايمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول، واتّباع الرسول»[٢].

[١٦٥/٢] وأخرج عن الحسن بن عليّ قال: حدّثني عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»[٣].

[١٦٦/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال: الإيمان، التصديق[٤].

[١٦٧/٢] وأخرج عن معمر قال: قال الزهري: الايمان، العمل[٥].

[١٦٨/٢] وأخرج عن الربيع، قال: «يؤمنون»: يخشون[٦].

[١٦٩/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ قال: يصدّقون ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعني من الله[٧].

وإليك من أبواب عقدها الكليني بشأن الإيمان وحقيقته ودرجاته وسائر شؤونه، نتلوها عليك حسب ترصيفه:

حقيقة الإيمان واليقين

[١٧٠/٢] روى بإسناده إلى محمّد بن عذافر، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: بينا

(١) التبيان ١: ٥٥؛ مجمع البيان ١: ٨٦، وزاد: وقد روي ذلك على لفظ آخر عنه أيضاً: الايمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول، واتّباع الرسول.

(٢) الثعلبي ١: ١٤٧؛ مجمع البيان ١: ٨٦، رواه عن علي بن موسى الرضا عليه السلام.

(٣) الثعلبي ١: ١٤٦.

(٤) الطبري ١: ١٤٩ / ٢٢٣؛ ابن كثير ١: ٤٣.

(٥) الطبري ١: ١٤٩ / ٢٢٢؛ ابن كثير ١: ٤٣؛ البخاري ١: ١١، باب من قال: إنّ الايمان هو العمل.

(٦) الطبرى ١: ١٤٩ / ٢٢١؛ ابن كثير ١: ٤٣؛ التبيان ١: ٥٥.

(٧) الدرّ ١: ٦٤؛ الطبري ١: ١٤٨ ـ ١٤٩ / ٢٢٠ و ٢٢٤؛ ابن كثير ١: ٤٣؛ التبيان ١: ٥٥؛ مجمع البيان ١: ٨٦؛ بلفظ: قيل: بما جاء من عند الله، عن ابن عبّاس.

رسول‌الله ﷺ في بعض أسفاره إذ لقيه ركب، فقالوا: السّلام عليك يا رسول الله، فقال: «ما أنتم؟ فقالوا: نحن مؤمنون يا رسول الله! قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرّضا بقضاء الله والتفويض إلى الله والتسليم لأمر الله، فقال رسول الله ﷺ: علماء حكماء[1] كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا مالا تسكنون ولا تجمعوا مالا تأكلون واتّقوا الله الّذي إليه ترجعون»[2].

[١٧١/٢] وبإسناده عن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبدالله ﷺ يقول: «إنّ رسول الله ﷺ صلّى بالنّاس الصبح، فنظر إلى شابّ في المسجد وهو يخفق[3] ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله ﷺ من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الّذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدُّنيا وما فيها حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نُصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم. وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة، يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون وعلى الأرائك متّكئون. وكأنّي أنظر إلى أهل النّار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النّار، يدور في مسامعي. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالإيمان، ثمّ قال له: الزم ما أنت عليه، فقال الشابُّ: ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشّهادة معك، فدعا له رسول الله ﷺ فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبيّ ﷺ فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر»[4].

[١٧٢/٢] وبإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «استقبل رسول الله ﷺ حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاريّ فقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك؟ فقال: يا رسول الله مؤمن حقّاً، فقال له رسول الله ﷺ: لكلّ شيء حقيقة فما حقيقة قولك؟ فقال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدُّنيا فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري وكأنّي أنظر إلى عرش ربّي [و] قد وضع للحساب وكأنّي

(١) في بعض النسخ «حلماء» والحلم بالكسر: العقل ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ﴾. الطور ٥٢:٣٢.
(٢) الكافي ٢: ٥٢ ـ ٥٣ / ١.
(٣) يقال خفق برأسه إذا أخذته سنة من النعاس فمال رأسه دون سائر جسده.
(٤) الكافي ٢: ٥٣ / ٢.

أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون في الجنّة وكأنّي أسمع عواء أهل النّار في النّار، فقال له رسول الله ﷺ: عبدٌ نوّر الله قلبه، أبصرت فاثبت، فقال: يا رسول الله اُدع الله لي أن يرزقني الشّهادة معك، فقال: اللّهمّ ارزق حارثة الشّهادة، فلم يلبث إلّا أيّاماً حتّى بعث رسول الله ﷺ سريّة فبعثه فيها، فقاتل فقتل تسعة ـ أو ثمانية ـ ثمّ قُتل».

وفي رواية القاسم بن بريد، عن أبي بصير قال: استشهد مع جعفر بن أبي طالب بعد تسعة نفر و كان هو العاشر[1].

[١٧٣/٢] وبإسناده عن السكونيّ، عن أبي عبدالله ؑ قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «إنّ على كلّ حقّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً»[2].

صفة الإيمان

[١٧٤/٢] وروىٰ بالإسناد إلى جابر، عن أبي جعفر ؑ قال: سئل أمير المؤمنين ؑ عن الإيمان، فقال: «إنّ الله عزّوجلّ جعل الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد. فالصبر من ذلك على أربع شعب: على الشوق والإشفاق والزُّهد والترقّب، فمن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرّمات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ومن راقب الموت سارع إلى الخيرات؛ واليقين على أربع شعب: تبصرة الفطنة وتأوّل الحكمة[3] ومعرفة العبرة وسنّة الأوّلين. فمن أبصر الفطنة عرف الحكمة ومن تأوّل الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة عرف السنّة ومن عرف السنّة فكأنّما كان مع الأوّلين واهتدى إلى الّتي هي أقوم ونظر إلى من نجى بما نجى، ومن هلك بما هلك. وإنّما أهلك الله من أهلك بمعصيته وأنجى من أنجى بطاعته؛ والعدل على أربع شعب: غامض الفهم وغمر العلم وزهرة الحكم وروضة الحلم. فمن فهم فسّر جميع العلم ومن علم عرف شرائع الحكم ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميداً؛ والجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن

(١) المصدر ٢: ٥٤ / ٣. (٢) المصدر / ٤.

(٣) تأوُّل الحكمة تأويلها أي جعلها مكشوفة بالتدبّر فيها.

الفاسقين فمن أمر بالمعروف شدَّ ظهر المؤمن ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق وأمن كيده ومن صدَّق في المواطن قضى الّذي عليه ومن شنئ الفاسقين غضب لله ومن غضب لله غضب الله له، فذلك الإيمان ودعائمه وشعبه»[(١)].

[١٧٥/٢] وبإسناده عن يونس، عن سلام الجعفي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الإيمان، فقال: «الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى»[(٢)].

فضل الإيمان واليقين

[١٧٦/٢] وبإسناده عن جابر قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «يا أخا جعفر إنَّ الإيمان أفضل من الإسلام وإنَّ اليقين أفضل من الإيمان وما من شيء أعزُّ من اليقين».

[١٧٧/٢] وعن الوشّاء، عن أبي الحسن عليه السلام قال: سمعته يقول: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسّم في الناس شيء أقلّ من اليقين.

[١٧٨/٢] وبالإسناد إلى حمران بن أعين قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ الله فضّل الإيمان على الإسلام بدرجة كما فضّل الكعبة على المسجد الحرام».

[١٧٩/٢] وبالإسناد إلى أبي بصير قال: قال لي أبوعبدالله عليه السلام: «يا أبا محمّد الإسلام درجة؟ قلت: نعم. قال: والإيمان على الاسلام درجة؟ قلت: نعم. قال: والتقوى على الإيمان درجة؟ قلت: نعم. قال: واليقين على التقوى درجة؟ قلت: نعم، قال: فما أُوتي النّاس أقلَّ من اليقين، وإنّما تمسّكتم بأدنى الإسلام، فإيّاكم أن ينفلت من أيديكم».

[١٨٠/٢] وبإسناده عن يونس قال: سألت أباالحسن الرّضا عليه السلام عن الإيمان والإسلام فقال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إنّما هو الإسلام، والإيمان فوقه بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسّم بين النّاس شيء أقلُّ من اليقين، قلت: فأيّ شيء اليقين؟ قال: التوكّل على الله والتسليم لله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى الله».

[١٨١/٢] وبإسناده عن أحمد بن محمّدبن أبي نصر، عن الرضا عليه السلام قال: «الإيمان فوق الإسلام

---

(١) الكافي ٢: ٥٠ ـ ٥١ / ٢.　　(٢) المصدر: ٣٣ / ٣.

بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسّم بين العباد شيء أقلّ من اليقين»[١].

درجات الإيمان

[١٨٢/٢] وبإسناده، عن عمّار بن أبي الأحوص، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّوجلَّ وضع الإيمان على سبعة أسهم، على البرّ والصدق واليقين والرّضا والوفاء والعلم والحلم، ثمَّ قسّم ذلك بين النّاس، فمن جُعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل، محتمل؛ وقسّم لبعض النّاس السهم ولبعض السهمين ولبعض الثلاثة حتّى انتهوا إلى السبعة، ثمَّ قال: لاتحملوا على صاحب السهم سهمين ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهظوهم[٢] ثمَّ قال: كذلك حتّى ينتهي إلى السبعة»[٣].

[١٨٣/٢] وبإسناده، عن يعقوب بن الضحّاك، عن رجل من أصحابنا سرّاج وكان خادماً لأبي عبدالله ﷺ قال: بعثني أبو عبدالله ﷺ في حاجة وهو بالحيرة أنا وجماعة من مواليه، قال: فانطلقنا فيها ثمَّ رجعنا معتَمين[٤]. قال: وكان فراشي في الحائر الّذي كنّا فيه نزولاً، فجئت وأنا بحال[٥] فرميت بنفسي، فبينا أنا كذلك إذا أنا بأبي عبدالله ﷺ قد أقبل، فاستويت جالساً، وجلس على صدر فراشي، فسألني عمّا بعثني له فأخبرته. فحمد الله ثمَّ جرى ذكرُ قوم، فقلت: «جُعلت فداك إنّا نبرأ منهم، إنّهم لايقولون ما نقول! فقال: يتولّونا ولايقولون ما تقولون تبرأون منهم؟ قلت: نعم، قال: فهو ذا عندنا ماليس عندكم، فينبغي لنا أن نبرأ منكم؟ قلت: لا ـ جعلت فداك ـ قال: وهوذا عند الله ما ليس عندنا أفتراه أطرحنا؟ قلت: لا والله، جعلت فداك ما نفعل؟ قال: فتولّوهم ولاتبرأوا منهم، إنَّ من المسلمين من له سهمٌ، ومنهم من له سهمان، ومنهم من له ثلاثة أسهم؛ ومنهم من له أربعة أسهم؛ ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستّة أسهم، ومنهم من له سبعة أسهم، فليس ينبغي أن يحمل صاحب السّهم على ما عليه صاحب السّهمين، ولا صاحب السّهمين على ما عليه صاحب الثّلاثة،

---

(١) الكافي ٢: ٥١ ـ ٥٢ / ١ ـ ٦.

(٢) يقال: بهظه الأمر أو الحمل إذا أثقله وسبّب له المشقّة.

(٣) الكافي ٢: ٤٢ / ١.

(٤) يقال: أعتم قرى الضيف أي أخّره حتّى العتمة وهي الثلث الأوّل من الليل.

(٥) أي بحال تعب.

ولاصاحب الثّلاثة على ما عليه صاحب الأربعة، ولا صاحب الأربعة على ما عليه صاحب الخمسة، و لا صاحب الخمسة على ما عليه صاحب الستّة. ولا صاحب الستّة على ما عليه صاحب السبعة؛ و سأضرب لك مثلاً: إنّ رجلاً كان له جارٌ وكان نصرانيّاً فدعاه إلى الإسلام وزيّنه له فأجابه، فأتاه سُحَيراً فقرع عليه الباب فقال له: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ فقال: توضّأ والبس ثوبيك ومرَّ بنا إلى الصلاة، فتوضّأ ولبس ثوبيه و خرج معه، فصلّيا ما شاء الله، ثمَّ صلّيا الفجر ثمَّ مكثا حتّى أصبحا فقام الّذي كان نصرانيّاً يريد منزله، فقال له الرَّجل: أين تذهب؟ النهار قصير والّذي بينك وبين الظهر قليل؟ قال: فجلس معه إلى أن صلّى الظهر، ثمَّ قال: وما بين الظهر والعصر قليل، فاحتبسه حتّى صلّى العصر، ثمَّ قام وأراد أن ينصرف إلى منزله، فقال له: إنَّ هذا آخر النهار وأقلُّ من أوَّله فاحتسبه حتّى صلّى المغرب، ثمَّ أراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنّما بقيت صلاةٌ واحدةٌ، فمكث حتّى صلّى العشاء الآخرة، ثمَّ تفرَّقا، فلمّا كان سحيراً ـ من الغد ـ غدا عليه فضرب عليه الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ قال: توضّأ والبس ثوبيك واخرج بنا فصلِّ، قال: اطلب لهذا الدّين من هو أفرغ منّي، وأنا إنسان مسكين وعليَّ عيال! فقال أبو عبدالله ﷺ: أدخله في شيء أخرجه منه، أو قال: أدخله من مثل ذه و أخرجه من مثل هذا»[1].

* * *

[١٨٤/٢] وبإسناده عن يحيى بن أبان، عن شهاب قال: سمعت أبا عبدالله ﷺ يقول: «لو علم النّاس كيف خلق الله تبارك وتعالى هذا الخلق لم يَلُمْ أحدٌ أحداً. قلت: أصلحك الله فكيف ذاك؟ قال: إنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ خلق أجزاء بلغ بها تسعة وأربعين جزءاً. ثمَّ جعل الأجزاء أعشاراً، فجعل الجزء عشرة أعشار، ثمَّ قسّمه بين الخلق، فجعل في رجل عُشر جزء، وفي آخر عُشري جزء، حتّى بلغ به جزءاً تامّاً. وفي آخر جزءاً وعُشر جزء، وآخر جزءاً وعُشري جزء، وآخر جزءاً وثلاثة أعشار جزء، حتّى بلغ به جزئين تامّين، ثمَّ بحساب ذلك حتّى بلغ بأرفعهم تسعة وأربعين جزءاً، فمن لم يجعل فيه إلّا عُشر جزء، لم يقدر على أن يكون مثل صاحب العُشرين، وكذلك صاحب العُشرين لايكون مثل صاحب الثّلاثة الأعشار، وكذلك من تمَّ له جزءٌ لايقدر على أن يكون مثل صاحب الجزئين. ولو علم النّاس أنَّ الله عزَّوجلَّ خلق هذا الخلق على هذا لم يَلُمْ أحدٌ أحداً»[2].

---

(١) الكافي ٢: ٤٢ ـ ٤٤ / ٢.　　(٢) المصدر: ٤٤ / ١.

[١٨٥/٢] وبإسناده، عن الحسن بن عليّ، عن عبدالعزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبدالله ﷺ: «يا عبدالعزيز إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السُلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد: لست على شيء حتّى ينتهي إلى العاشر، فلا تُسقط من هو دونك فيُسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولاتحملنّ عليه مالايطيق فتكسره، فإنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره»[١].

[١٨٦/٢] وبإسناده عن ابن مسكان، عن سدير قال: قال لي أبوجعفر ﷺ: «إنّ المؤمنين على منازل، منهم على واحدة ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ستّ، ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقو، وعلى صاحب الثلاث أربعاً لم يقو، وعلى صاحب الأربع خمساً لم‌يقو، وعلى صاحب الخمس ستّاً لم يقو، وعلى صاحب الستّ سبعاً لم يقو، وعلى هذه الدرجات»[٢].

[١٨٧/٢] وبإسناده عن الصباح بن سيّابة، عن أبي عبدالله ﷺ: قال: «ما أنتم والبراءة، يبرأ بعضكم من بعض، إنّ المؤمنين بعضهم أفضل من بعض، وبعضهم أكثر صلاة من بعض، وبعضهم أنفذ بصراً من بعض وهي الدّرجات»[٣].

في أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها

[١٨٨/٢] وبإسناده عن القاسم بن بُرَيد قال: حدّثنا أبوعمرو الزُّبيري عن أبي عبدالله ﷺ قال: قلت له: «أيّها العالم أخبرني أيُّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: مالا يقبل الله شيئاً إلّا به، قلت: وما هو؟ قال: الإيمان بالله الّذي لا إله إلّا هو، أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظّاً. قلت: ألا تُخبرني عن الإيمان، أقولٌ هو وعملٌ أم قولٌ بلاعمل؟ فقال: الإيمان عملٌ كلُّه، والقول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجّته، يشهد له الكتاب ويدعو إليه، قلت: صفه لي، جعلت فداك، حتّى أفهمه، قال: الإيمان[٤] حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه

---

(١) المصدر: ٤٤ـ٤٥ / ٢.
(٢) المصدر: ٤٥ / ٣.
(٣) المصدر: ٤٥ / ٤.
(٤) في بعض النسخ «للايمان».

التامُّ المنتهى تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الرّاجح الزّائد رجحانه؛ قلت: إنَّ الإيمان ليتمّ وينقص ويزيد؟ قال: نعم، قلت: كيف ذلك؟ قال: لأنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ فرض الإيمان على جوارح ابن آدم و قسّمه عليها وفرّقه فيها، فليس من جوارحه جارحةً إلّا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أُختها، فمنها قلبه الّذي به يعقل ويفقه ويفهم، وهو أمير بدنه الّذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلّا عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللّتان يُبصر بهما، وأُذناه اللّتان يسمع بهما، ويداه اللّتان يبطش بهما، ورجلاه اللّتان يمشي بهما، وفرجه الّذي الباه من قِبَله، ولسانه الّذي ينطق به، ورأسه الّذي فيه وجهه، فليس من هذه جارحة إلّا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أُختها بفرض من الله ـ تبارك اسمه ـ ينطق به الكتاب لها ويشهد به عليها.

ففرض على القلب غير ما فرض على السمع، وفرض على السمع غير ما فرض على العينين، وفرض على العينين غير ما فرض على اللّسان، وفرض على اللّسان غير ما فرض على اليدين، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرّجلين، وفرض على الرّجلين غير ما فرض على الفرج، وفرض على الفرج غير ما فرض على الوجه، فأمّا ما فرض على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقد والرّضا والتسليم بأن لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له إلهاً واحداً لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله من نبيّ أو كتاب، فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة، وهو عمله وهو قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾[١] وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[٢] وقال: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[٣] وقال: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيَ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾[٤] فذلك ما فرض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على القلب من الإقرار والمعرفة، وهو عمله، وهو رأس الإيمان.

وفرض الله على اللّسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه وأقرّ به، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٥] وقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلَهُنَا وَ إِلَـهُكُمْ

(١) القصص ٢٨: ١٠٦.
(٢) الرعد ١٣: ٣٠.
(٣) المائدة ٥: ٤٤.
(٤) البقرة ٢: ٢٨٤.
(٥) البقرة ٢: ٨٣.

وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١] فهذا ما فرض الله على اللّسان وهو عمله.

وفرض على السمع أن يتنزّه عن الاستماع إلى ما حرّم الله، وأن يُعرض عمّا لايحلّ له ممّا نهى الله ـ عزّوجلّ ـ عنه والإصغاء إلى ما أسخط الله ـ عزّ وجلّ ـ فقال في ذلك: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[٢] ثمّ استثنى الله ـ عزّ وجلّ ـ موضع النسيان فقال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٣] وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤] وقال عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[٥] وقال: ﴿وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قَالُوا لَنَآ أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[٦] وقال: ﴿وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[٧] فهذا ما فرض الله على السمع من الايمان أن لايصغي إلى مالا يحلّ له وهو عمله وهو من الإيمان.

وفرض على البصر أن لاينظر إلى ما حرّم الله عليه، وأنْ يُعرض عمّا نهى الله عنه ممّا لايحلّ له، وهو عمله وهو من الإيمان، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[٨]، فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ويحفظ فرجه أن يُنظر إليه وقال: ﴿وَ قُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٩] من أن تنظر إحداهنّ إلى فرج اُختها وتحفظ فرجها من أن يُنظر إليها. وقال: كلُّ شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزّنا إلّا هذه الآية، فإنّها من النظر.

ثمّ نظّم ما فرض على القلب واللّسان والسمع والبصر في آية اُخرى فقال: ﴿وَ مَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لَآ أَبْصَارُكُمْ وَ لَا جُلُودُكُمْ﴾[١٠] يعني بالجلود: الفروج والأفخاذ وقال:

---

(١) العنكبوت ٢٩: ٤٦.
(٢) النساء ٤: ١٤٠.
(٣) الأنعام ٦: ٦٨.
(٤) الزمر ٣٩: ١٨.
(٥) المؤمنون ٢٣: ١ ـ ٤.
(٦) القصص ٢٨: ٥٥.
(٧) الفرقان ٢٥: ٧٢.
(٨) النور ٢٤: ٣٠.
(٩) النور ٢٤: ٣١.
(١٠) فصلت ٤١: ٢٢.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(١) فهذا ما فرض الله على العينين من غضّ البصر عمّا حرّم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو عملهما، وهو من الإيمان.

وفرض الله على اليدين أن لا يبطش بهما إلى ما حرّم الله، وأن يبطش بهما إلى ما أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفرض عليهما من الصدقة وصلة الرحم والجهاد في سبيل الله والطهور للصّلاة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾(٢) وقال: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾(٣) فهذا ما فرض الله على اليدين لأنّ الضرب من علاجهما.

وفرض على الرجلين أن لا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله، وفرض عليهما المشي إلى ما يُرضي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾(٤) وقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(٥) وقال فيما شهدت الأيدي والأرجل على أنفسهما وعلى أربابهما من تضييعهما لما أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ به وفرضه عليهما: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٦) فهذا أيضاً ممّا فرض الله على اليدين وعلى الرّجلين وهو عملهما وهو من الإيمان.

وفرض على الوجه السجود له باللّيل والنّهار في مواقيت الصّلاة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٧) فهذه فريضةٌ جامعة على الوجه واليدين والرّجلين. وقال في موضع آخر: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾(٨).

وقال فيما فرض على الجوارح من الطهور والصّلاة بها وذلك أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لمّا صرف نبيّه ﷺ إلى الكعبة عن البيت المقدّس فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ

(١) الإسراء ١٧: ٣٦.
(٢) المائدة ٥: ٧.
(٣) محمّد ٤٧: ٤.
(٤) لقمان ٣١: ١٨.
(٥) لقمان ٣١: ١٩.
(٦) يس ٣٦: ٦٥.
(٧) الحجّ ٢٢: ٧٧.
(٨) الجنّ ٧٢: ١٨.

بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] فسمّى الصّلاة إيماناً، فمن لقي الله ـ عزّ وجلّ ـ حافظاً لجوارحه، موفّياً كلّ جارحة من جوارحه ما فرض الله عليها، لقي الله مستكملاً لإيمانه وهو من أهل الجنّة، ومن خان في شيء منها أو تعدّى ما أمر الله فيها لقي الله ناقص الإيمان.

قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه، فمن أين جاءت زيادته؟ فقال: قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[2] وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾[3]. ولو كان كلّه واحداً لازيادة فيه ولانقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر، ولاستوت النعم فيه، ولاستوى النّاس، وبطل التفضيل. ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرّطون النّار»[4].

[١٨٩/٢] وبإسناده عن يحيى بن عمران الحلبي، عن عبدالله بن الحسن، عن الحسن بن هارون قال: قال لي أبوعبدالله عليه السلام: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ قال: «يُسأل السّمع عمّا سمع، والبصر عمّا نظر إليه، والفؤاد عمّا عقد عليه»[5].

[١٩٠/٢] وبإسناده عن محمّدبن مسلم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سألته عن الإيمان فقال: شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله وما استقرّ في القلوب من التصديق بذلك، قلت: الشّهادة أليست عملاً؟ قال: بلى، قلت: العمل من الإيمان؟ قال: نعم، الإيمان لايكون إلّا بعمل والعمل منه ولا يثبت الإيمان إلّا بعمل»[6].

[١٩١/٢] وبإسناده عن عبدالله بن مسكان، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: ما الإسلام؟ فقال: «دين الله اسمه الإسلام وهو دين الله قبل أن تكونوا حيث كنتم وبعد أن تكونوا،

---

(١) البقرة ٢: ١٤٣.
(٢) التوبة ٩: ١٢٦.
(٣) الكهف ١٨: ١٣.
(٤) الكافي ٢: ٣٣ـ٣٧ / ١.
(٥) المصدر: ٣٧ / ٢؛ والآية من سورة الإسراء ١٧: ٣٦.
(٦) المصدر: ٣٨ / ٣.

فمن أقرَّ بدين الله فهو مسلمٌ ومن عمل بما أمر الله به فهو مؤمن»(١).

[١٩٢/٢] وبإسناده عن أبي بصير قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام فقال له سلّام: «إنّ خيثمة يحدّثنا عنك أنّه سألك عن الإسلام، فقلت له: إنّ الإسلام، من استقبل قبلتنا وشهد شهادتنا ونسك نسكنا ووالى وليّنا وعادى عدوّنا، فهو مسلمٌ. فقال: صدق خيثمة. قلت: وسألك عن الإيمان فقلت: الإيمان بالله والتصديق بكتاب الله وأن لا يعصي الله، فقال: صدق خيثمة»(٢).

[١٩٣/٢] وبإسناده عن جميل بن درّاج، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الإيمان، فقال: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله. قلت: أليس هذا عملٌ؟ قال: بلى. قلت: فالعمل من الإيمان؟ قال: لا يثبت له الإيمان إلّا بالعمل والعمل منه»(٣).

[١٩٤/٢] وبإسناده عن محمّد بن حفص بن خارجة قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ـ وسأله رجلٌ عن قول المرجئة في الكفر والإيمان وقال: إنّهم يحتجّون علينا ويقولون: كما أنّ الكافر عندنا هو الكافر عند الله، فكذلك نجد المؤمن إذا أقرّ بإيمانه، أنّه عند الله مؤمن! فقال ـ: سبحان الله، وكيف يستوي هذان، والكفر إقرارٌ من العبد فلا يكلّف بعد إقراره ببيّنة، والإيمان دعوى لا يجوز إلّا ببيّنة، وبيّنته عمله ونيّته، فإذا اتّفقا فالعبد عند الله مؤمنٌ. والكفر موجودٌ بكلّ جهة من هذه الجهات الثلاث، من نيّة أو قول أو عمل، والأحكام تجري على القول والعمل، فما أكثر من يشهد له المؤمنون بالإيمان ويجري عليه أحكام المؤمنين وهو عند الله كافرٌ، وقد أصاب من أجرى عليه أحكام المؤمنين بظاهر قوله وعمله»(٤).

السبق إلى الإيمان

[١٩٥/٢] وبإسناده عن القاسم بن بُرَيد قال: حدّثنا أبو عمرو الزُّبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قلت له: إنّ للإيمان درجات ومنازل، يتفاضل المؤمنون فيها عند الله؟ قال: نعم، قلت: صفه لي ـ رحمك الله ـ حتّى أفهمه، قال: إنّ الله سبق بين المؤمنين كما يُسَبَّق بين الخيل يوم الرّهان، ثمّ فضّلهم على درجاتهم في السبق إليه، فجعل كلّ امرئ منهم على درجة سبقه، لا يُنقصه فيها من حقّه،

---

(١) المصدر / ٤.
(٢) المصدر / ٥.
(٣) المصدر / ٦.
(٤) المصدر: ٣٩ـ٤٠ / ٨.

ولايتقدَّم مسبوقٌ سابقاً ولامفضولٌ فاضلاً، تفاضل بذلك أوائل هذه الأُمّة وأواخرها، ولو لم يكن للسابق إلى الإيمان فضلٌ على المسبوق، للحق آخر هذه الأُمّة بأوّلها، نعم ولتقدَّموهم إذا لم يكن لمن سبق إلى الإيمان الفضل على من أبطأ عنه، ولكن بدرجات الإيمان قدَّم الله السابقين، وبالإبطاء عن الإيمان أخّر الله المقصّرين، لأنّا نجد من المؤمنين من الآخرين من هو أكثر عملاً من الأوّلين وأكثرهم صلاةً وصوماً وحجّاً وزكاةً وجهاداً وإنفاقاً، ولو لم يكن سوابق يفضّل بها المؤمنون بعضهم بعضاً عند الله، لكان الآخرون بكثرة العمل مقدَّمين على الأوّلين، ولكن أبى الله أن يدرك آخر درجات الإيمان أوّلها، ويقدّم فيها من أخّر الله أو يؤخّر فيها من قدَّم الله. قلت: أخبرني عمّا ندب الله المؤمنين إليه من الاستباق إلى الإيمان، فقال: قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ﴾[1] وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] وقال: ﴿وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ﴾[3] فبدأ بالمهاجرين الأوَّلين على درجة سبقهم، ثمّ ثنّى بالأنصار ثمَّ ثلّث بالتابعين لهم بإحسان، فوضع كلَّ قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده، ثمَّ ذكر ما فضّل الله به أولياءه بعضهم على بعض، فقال ـ عزّ وجلَّ ـ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ إلى آخر الآية[4] وقال: ﴿وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[5] وقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾[6] وقال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ﴾[7] وقال: ﴿وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾[8] وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ﴾[9] وقال: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾[10] وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ

---

(١) الحديد ٥٧: ٢١.
(٢) الواقعة ٥٦: ١٠ و ١١.
(٣) التوبة ٩: ١٠٠.
(٤) البقرة ٢: ٢٥٣.
(٥) الإسراء ١٧: ٥٥.
(٦) الإسراء ١٧: ٢١.
(٧) آل عمران ٣: ١٦٣.
(٨) هود ١١: ٣.
(٩) التوبة ٩: ٢٠.
(١٠) النساء ٤: ٩٦.

أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾[١] وقال: ﴿يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[٢] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[٣] وقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾[٤]. وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾ فهذا ذكر درجات الإيمان ومنازله عند الله عزّوجلّ»[٥].

خصال المؤمن

[١٩٦/٢] وبإسناده عن عبدالملك بن غالب، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثماني خصال: وقوراً عندالهزاهز، صبوراً عند البلاء، شكوراً عند الرّخاء، قانعاً بما رزقه الله، لايظلم الأعداء ولايتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب والنّاس منه في راحة، إنَّ العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل أمير جنوده، والرّفق أخوه، والبرّ والده»[٦].

[١٩٧/٢] وبإسناده عن السكونيّ، عن أبي عبدالله، عن أبيه ﷺ قال: «قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: الإيمان له أركانٌ أربعة: التوكّل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرّضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله عزّوجلّ»[٧].

[١٩٨/٢] وبإسناده عن عبدالرّحمان بن أبي ليلى عن أبي عبدالله ﷺ قال: «إنّكم لاتكونون صالحين حتّى تعرفوا، ولاتعرفون حتّى تُصَدِّقوا، ولاتصدِّقون حتّى تسلّموا أبواباً أربعة لايصلح أوّلها إلّا بآخرها، ضلَّ أصحاب الثلاثة وتاهوا تيهاً بعيداً. إنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لايقبل إلّا العمل الصالح، ولايتقبّل الله إلّا بالوفاء بالشروط والعهود، ومن وفى الله بشروطه واستكمل ما وصف في عهده، نال ما عنده واستكمل وعده، إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أخبر العباد بطريق الهدى، وشرع لهم فيها المنار، وأخبرهم كيف يسلكون، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾[٨] وقال:

---

(١) الحديد ٥٧: ١٠.
(٢) المجادلة ٥٨: ١١.
(٣) التوبة ٩: ١٢٠.
(٤) البقرة ٢: ١١٠.
(٥) الكافي ٢: ٤٠ ـ ٤٢ / ١.
(٦) المصدر: ٤٧ / ١.
(٧) المصدر / ٢.
(٨) طه ٢٠: ٨٢.

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[١] فمن اتّقى الله فيما أمره لقي الله مؤمناً بما جاء به محمّد ﷺ. هيهات هيهات فات قوم وماتوا قبل أن يهتدوا وظنّوا أنّهم آمنوا، وأشركوا من حيث لايعلمون، إنّه من أتى البيوت من أبوابها اهتدى، ومن أخذ في غيرها سلك طريق الرّدى، وَصَلَ اللهُ طاعة وليّ أمره بطاعة رسوله، وطاعة رسوله بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله، وهو الإقرار بما نزل من عند الله: خذوا زينتكم عند كلّ مسجد، والتمسوا البيوت الّتي أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه، فإنّه قد خبّركم أنّهم رجال لاتُلهيهم تجارةٌ ولابيعٌ عن ذكر الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار، إنّ الله قد استخلص الرسل لأمره، ثمّ استخلصهم مصدّقين لذلك في نُذُره، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢]. تاه من جهل، واهتدى من أبصر وعقل، إنّ الله ـ عزّوجلّ ـ يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٣] وكيف يهتدي من لم يبصر؟ وكيف يُبصر من لم ينذر؟ اتّبعوا رسول الله ﷺ وأقرّوا بما نزل من عند الله وابتغوا آثار الهدى، فإنّهم علامات الأمانة والتقى واعلموا أنّه لو أنكر رجلٌ عيسى بن مريم ﷺ وأقرّ بمن سواه من الرسل لم يؤمن، اقتصّوا الطريق بالتماس المنار، والتمسوا من وراء الحجب الآثار، تستكملوا أمر دينكم وتؤمنوا بالله ربّكم»[٤].

[١٩٩/٢] وبإسناده عن سليمان الجعفري، عن أبي الحسن الرّضا، عن أبيه ﷺ قال: رُفع إلى رسول الله ﷺ قومٌ في بعض غزواته، فقال: «مَنِ القوم؟ فقالوا: مؤمنون يا رسول الله! قال: وما بلغ من إيمانكم؟ قالوا: الصبر عند البلاء والشكر عند الرّخاء والرّضا بالقضاء. فقال رسول الله ﷺ حلماء[٥] علماء كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء، إن كنتم كما تصفون، فلا تبنوا مالا تسكنون ولاتجمعوا مالاتأكلون واتّقوا الله الّذي إليه ترجعون»[٦].

* * *

[٢٠٠/٢] وبإسناده عن جابر، عن أبي جعفر ﷺ وبأسانيد مختلفة، عن الأصبغ بن نباتة قال: خطبنا أميرالمؤمنين ﷺ في القصر ونحن مجتمعون، ثمّ أمر فكتب في كتاب وقرئ على الناس.

---

(١) المائدة ٥: ٢٧.

(٢) الفاطر ٣٥: ٢٤.

(٣) الحجّ ٢٢: ٤٦.

(٤) الكافي ٢: ٤٧ـ٤٨ / ٣.

(٥) في بعض النسخ «حكماء».

(٦) الكافي ٢: ٤٨ / ٤.

وروى غيره أنّ ابن الكوّاء[١] سأل أمير المؤمنين ﷺ عن صفة الإسلام والإيمان والكفر والنفاق؟ فقال: «أمّا بعد، فإنّ الله ـ تبارك و تعالى ـ شرّع الإسلام وسهّل شرائعه لمن ورده، وأعزّ أركانه لمن حاربه، وجعله عزّاً لمن تولّاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتمّ به، وزينة لمن تجلّله، وعذراً لمن انتحله، وعروة لمن اعتصم به، وحبلاً لمن استمسك به، وبرهاناً لمن تكلّم به، ونوراً لمن استضاء به، وعوناً لمن استغاث به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجّ به، وعلماً لمن وعاه، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضا، وحلماً لمن جرّب، ولباساً لمن تدبّر، وفهماً لمن تفطّن، ويقيناً لمن عقل، وبصيرة لمن عزم، وآية لمن توسّم، وعبرة لمن اتّعظ، ونجاة لمن صدّق، وتَؤُدَةً[٢] لمن أصلح، وزلفى لمن اقترب، وثقة لمن توكّل، ورجاء لمن فوّض، وسبقة لمن أحسن، وخيراً لمن سارع، وجُنّة لمن صبر، ولباساً لمن اتّقى، وظهيراً لمن رشد، وكهفاً لمن آمن، وأمنة لمن أسلم، وروحاً لمن صدّق، وغنى لمن قنع، فذلك الحقُّ، سبيلُه الهدى ومأثرتُه المجد، وصفته الحسنى. فهو أبلج المنهاج، مشرق المنار، ذاكي المصباح، رفيع الغاية، يسير المضمار، جامع الحَلبة، سريع السبقة، أليم النقمة، كامل العدّة، كريم الفرسان، فالإيمان منهاجه، والصالحات مناره، والفقه مصابيحه، والدّنيا مضماره، والموت غايته، والقيامة حلبته، والجنّة سبقته، والنار نقمته، والتقوى عدّته، والمحسنون فرسانه. فبالإيمان يستدلُّ على الصالحات، وبالصالحات يعمر الفقه، وبالفقه يُرْهَب الموت، وبالموت تختم الدنيا، وبالدُّنيا تحوز القيامة، وبالقيامة تزلف الجنّة. والجنّة حسرة أهل النار، والنّار موعظة المتّقين والتقوى سنخ الإيمان»[٣].

نسبة الإسلام

[٢٠١/٢] وبإسناده عن أحمدبن محمّدبن خالد، عن بعض أصحابنا رفعه قال: قال أمير المؤمنين ﷺ: «لأنسبنّ الإسلام نسبة لاينسبه أحدٌ قبلي ولا ينسبه أحد بعدي إلّا بمثل ذلك: إنّ الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التّصديق، والتّصديق هو الإقرار، والإقرار هو العمل، والعمل هو الأداء، إنّ المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه، ولكن أتاه من ربّه فأخذه، إنّ المؤمن

(١) عبدالله بن الكوّاء كان في أصحاب علي ﷺ وكان من المتعنّتين.
(٢) التؤدة: بفتح الهمزة وسكونها: الرزانة والتأني.
(٣) الكافي ٢: ٤٩ ـ ٥٠ / ١.

يُرى يقينه في عمله. والكافر يُرى إنكاره في عمله، فاعتبروا إنكار الكافرين والمنافقين بأعمالهم الخبيثة»[١].

[٢٠٢/٢] وبإسناده عن مدرك بن عبدالرّحمان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الإسلام عريان، فلباسه الحياء، وزينته الوقار، ومروءته العمل الصّالح وعماده الورع. ولكلّ شيء أساسٌ؛ وأساس الإسلام حبّنا أهل البيت»[٢].

[٢٠٣/٢] وبإسناده عن أحمدبن محمّد، عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني، عن أبي جعفر الثاني عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه صلوات الله عليهم قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله خلق الإسلام فجعل له عَرْصة[٣] وجعل له نوراً، وجعل له حصناً، وجعل له ناصراً. فأمّا عَرْصته فالقرآن، وأمّا نوره فالحكمة، وأمّا حصنه فالمعروف، وأمّا أنصاره فأنا وأهل بيتي وشيعتنا»[٤].

إنّ الصبغة هي الإسلام

[٢٠٤/٢] وبإسناده عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام «في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾[٥] قال: الإسلام، وقال في قوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[٦] قال: هي الإيمان بالله وحده لاشريك له»[٧].

[٢٠٥/٢] وبإسناده عن حمران، عن أبي عبدالله عليه السلام «في قول الله: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ قال: الصبغة هي الإسلام»[٨].

[٢٠٦/٢] وبإسناده عن محمّدبن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام «في قول الله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ قال: هي الإيمان»[٩].

---

(١) المصدر: ٤٥ ـ ٤٦ / ١.
(٢) المصدر: ٤٦ / ٢.
(٣) العَرْصَة: ساحة الدار.
(٤) الكافي ٢: ٤٦ / ٣.
(٥) البقرة ٢: ١٣٨.
(٦) البقرة ٢: ٢٥٦.
(٧) الكافي ٢: ١٤ / ١.
(٨) المصدر / ٢.
(٩) المصدر / ٣.

دعائم الإسلام

[٢٠٧/٢] وبإسناده عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام: قال: «بُني الإسلام على خمس: على الصّلاة والزّكاة والصيام والحجّ والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية»[١].

[٢٠٨/٢] وبإسناده عن عجلان أبي صالح قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أوقفني على حدود الإيمان، فقال: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله والإقرار بما جاء به من عند الله والصلوات الخمس وأداء الزكاة وصوم شهر رمضان وحجّ البيت وولاية وليّنا وعداوة عدوّنا والدخول مع الصّادقين»[٢].

[٢٠٩/٢] وبإسناده عن فضيل بن يسار، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بُني الإسلام على خمس: على الصّلاة والزكاة والصوم والحجّ والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية، فأخذ النّاس بأربع وتركوا هذه ـ يعني الولاية ـ»[٣].

[٢١٠/٢] وبإسناده عن ابن العرزميّ، عن أبيه، عن الصادق عليه السلام قال: قال: «أثافي الإسلام[٤] ثلاثة: الصلاة والزكاة والولاية، لا تصحُّ واحدةٌ منهنّ إلّا بصاحبتيها»[٥].

[٢١١/٢] وبإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصّلاة والزكاة والحجّ والصوم والولاية، قال زرارة: فقلت: وأيّ شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل، لأنّها مفتاحهنّ والوالي هو الدّليل عليهنّ، قلت: ثمّ الّذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال: الصلاة. إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الصلاة عمود دينكم، قلت: ثمّ الّذي يليها في الفضل؟ قال: الزكاة لأنّه قرنها بها وبدأ بالصلاة قبلها وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الزكاة تُذهب الذنوب. قلت: والّذي يليها في الفضل؟ قال: الحجُّ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٦] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لَحَجَّةٌ مقبولة خير من عشرين صلاة نافلة، ومن طاف بهذا البيت طوافاً أحصى فيه أُسبوعه وأحسن ركعتيه غفر الله له، قلت: وما بال الصوم؟ قال: قال

(١) المصدر: ١٨ / ١. (٢) المصدر / ٢.

(٣) المصدر / ٣.

(٤) الأثافي جمع الأثفيّة بالضم والكسر وهي الأحجار الّتي توضع عليها القدر وأقلّها ثلاثة.

(٥) الكافي ٢: ١٨ / ٤. (٦) آل عمران ٣: ٩٧.

رسول الله ﷺ: الصوم جُنّة من النّار، ثمّ قال: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرّحمان، الطّاعة للإمام بعد معرفته، إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾[١] أما لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه ويكونَ جميعُ أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله حقٌّ في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان. ثمّ قال: أُولئك المحسن منهم يدخله الله الجنّة بفضل رحمته»[٢].

[٢١٢/٢] وبإسناده عن أبان عن فضيل، عن أبي جعفر ﷺ قال: «بني الإسلام على خمس: الصّلاة والزكاة والصوم والحجّ والولاية ولم يناد بشيء ما نودي بالولاية يوم الغدير»[٣].

[٢١٣/٢] وبإسناده عن حمّادبن عثمان، عن عيسى بن السريّ قال: «قلت لأبي عبدالله ﷺ: حدّثني عمّا بنيت عليه دعائم الإسلام إذا أنا أخذت بها زكى عملي ولم يضرّني جهل ما جهلت بعده، فقال: شهادة أن لا إلّه إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ والإقرار بما جاء به من عند الله وحقّ في الأموال من الزكاة؛ والولاية الّتي أمرالله ـ عزّوجلّ ـ بها ولاية آل محمّد ﷺ، فإنّ رسول الله ﷺ قال: من مات ولايعرف إمامه مات ميتة جاهليّة، قال الله عزّوجلّ: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٤] فكان عليٌّ ﷺ، ثمّ صار من بعده حسن ثمّ من بعده حسين ثمّ من بعده عليّ بن الحسين، ثمّ من بعده محمّدبن عليّ، ثمّ هكذا يكون الأمر، إنّ الأرض لاتصلح إلّا بإمام ومن مات لايعرف إمامه مات ميتة جاهليّة، وأحوج ما يكون أحدكم إلى معرفته إذا بلغت نفسه هاهنا ـ وأهوى بيده إلى صدره ـ يقول حينئذ: لقد كنتُ على أمر حسن»[٥].

[٢١٤/٢] وبإسناده، عن أبي الجارود قال: «قلت لأبي جعفر ﷺ: يا ابن رسول الله هل تعرف مودّتي لكم وانقطاعي إليكم وموالاتي إيّاكم؟ قال: نعم، فقلت: فإنّي أسألك مسألة تجيبني فيها؟ فإنّي مكفوف البصر قليل المشي ولاأستطيع زيارتكم كلّ حين. قال: هات حاجتك، قلت: أخبرني بدينك الّذي تدين الله ـ عزّ وجلّ ـ به أنت و أهل بيتك لأدين الله به. قال: إن كنت أقصرت الخطبة فقد أعظمت المسألة، والله لأعطينّك ديني ودين آبائي الّذي ندين الله عزّوجلّ به: شهادة أن لا إلّه إلّا الله،

---

(١) النساء ٤: ٨٠.
(٢) الكافي ٢: ١٨ـ١٩ / ٥.
(٣) المصدر: ٢١ / ٨.
(٤) النساء ٤: ٥٩.
(٥) الكافي ٢: ٢١ / ٩.

وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ، والإقرار بما جاء به من عند الله، والولاية لوليّنا، والبراءة من عدوّنا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا والاجتهاد والورع»[1].

[٢/٢١٥] وبإسناده عن أبي بصير قال: «سمعته يسأل أبا عبدالله عليه السلام فقال له: جُعلت فداك أخبرني عن الدّين الّذي افترض الله على العباد، مالايسعهم جهله ولايقبل منهم غيره، ماهو؟ فقال: أعد عليّ، فأعاد عليه. فقال: شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً رسول الله ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً وصوم شهر رمضان، ثمّ سكت قليلاً، ثمّ قال: والولاية ـ مرّتين ـ ثمّ قال: هذا الّذي فرض الله على العباد ولا يسأل الربُّ العباد يوم القيامة فيقول ألّا زدتني على ما افترضتُ عليك ولكن من زاد زاده الله، إنّ رسول الله ﷺ سنَّ سُنَناً حسنة جميلة ينبغي للنّاس الأخذ بها»[2].

[٢/٢١٦] وبإسناده عن أبان، عن إسماعيل الجعفي قال: «دخل رجلٌ على أبي جعفر عليه السلام ومعه[3] صحيفةٌ، فقال له أبو جعفر عليه السلام: هذه صحيفة مخاصم يسأل عن الدّين الّذي يقبل فيه العمل. فقال الرجل: رحمك الله هذا الّذي أُريد، فقال أبوجعفر عليه السلام: شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له وأنّ محمّداً ﷺ عبده ورسوله.وتُقرُّ بما جاء من عند الله، والولاية لنا أهل البيت والبراءة من عدوّنا والتسليم لأمرنا، والورع والتّواضع، وانتظار قائمنا فإنّ لنا دولة إذا شاء الله جاء بها»[4].

[٢/٢١٧] وبإسناده عن عمروبن حريث قال: «دخلت على أبي عبدالله عليه السلام وهو في منزل أخيه عبدالله بن محمّد فقلت له: جعلت فداك ما حوّلك إلى هذا المنزل؟ قال: طلب النزهة[5] فقلت: جعلت فداك ألا أقصُّ عليك ديني؟ فقال: بلى، قلت: أدين الله بشهادة أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله وأنّ السّاعة آتية لاريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحجّ البيت والولاية لعليّ أميرالمؤمنين بعد رسول الله ﷺ والولاية للحسن والحسين والولاية لعليّ بن الحسين والولاية لمحمّدبن عليّ ولك من بعده وأنّكم أئمّتي، عليه أحيى وعليه أموت وأدين الله به، فقال: يا عمرو، هذا والله دين الله ودين آبائي الّذي

---

(١) المصدر: ٢١ـ٢٢ / ١٠.
(٢) المصدر: ٢٢ / ١١.
(٣) أي مع أبي جعفر.
(٤) الكافي ٢: ٢٢ـ٢٣ / ١٣.
(٥) النزهة: البعد عن الخلق وفي القاموس، التنزّه: التباعد والاسم النزهة بالضم.

أدين الله به في السرّ والعلانية، فاتّق الله وكفَّ لسانك إلّا من خير، ولاتقل إنّي هديت نفسي، بل الله هداك، فأدِّ شكر ما أنعم الله به عليك، ولاتكن ممّن إذا أقبل طُعن في عينه وإذا أدبر طُعن في قفاه[١] ولاتحمل الناس على كاهلك[٢] فإنّك أوشك إن حملت النّاس على كاهلك أن يصدعوا شعب كاهلك»[٣][٤].

[٢١٨/٢] وبإسناده عن سليمان بن خالد، عن أبي جعفرؑ: قال: «ألا أخبرك بالإسلام أصله وفرعه وذروة سنامه؟ قلت: بلى جعلت فداك، قال: أمّا أصله فالصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنامه الجهاد، ثمّ قال: إن شئت أخبرتك بأبواب الخير؟ قلت: نعم جعلت فداك، قال: الصوم جُنّة من النار، والصدقة تذهب بالخطيئة، وقيام الرّجل في جوف اللّيل بذكر الله، ثمّ قرأؑ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾»[٥].

الإسلام يحقن به الدّم [وتؤدّى به الأمانة] وإنّ الثواب على الإيمان

[٢١٩/٢] وبإسناده عن القاسم الصيرفي شريك المفضّل قال: سمعت أبا عبداللهؑ يقول: «الإسلام يحقن به الدّم، وتؤدّى به الأمانة، وتستحلُّ به الفروج؛ والثواب على الإيمان».[٦]

[٢٢٠/٢] وبإسناده عن محمّدبن مسلم، عن أحدهماؑ قال: «الإيمان إقرارٌ وعمل، والإسلام إقرارٌ بلاعمل»[٧].

[٢٢١/٢] وبإسناده عن جميل بن درّاج قال: «سألت أباعبداللهؑ عن قول الله عزَّوجلَّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٨] فقال لي: ألاترى أنّ الإيمان غير الإسلام»[٩].

---

(١) أي كن من الأخيار ليمدحك الناس في وجهك وقفاك ولاتكن من الأشرار الّذين يذمّهم الناس في حضورهم وغيبتهم.

(٢) أي لاتسلّط الناس على نفسك.

(٣) الشعب: بعد ما بين المنكبين.

(٤) الكافي ٢: ٢٣ / ١٤.

(٥) المصدر: ٢٣ ـ ٢٤ / ١٥.

(٦) المصدر: ٢٤ / ١.

(٧) المصدر / ٢. أي الإيمان إقرار وعمل توأمان، أمّا الإسلام فمحض الإقرار وإن لم يقارنه العمل.

(٨) الحجرات ٤٩: ١٤.

(٩) الكافي ٢: ٢٤ / ٣.

[٢٢٢/٢] وبإسناده عن سفيان بن السمط قال: «سأل رجلٌ أباعبدالله ﷺ عن الإسلام والإيمان، ماالفرق بينهما؟ فلم يجبه. ثمَّ سأله فلم يجبه ثمَّ التقيا في الطريق وقد أزف[1] من الرجل الرحيل، فقال له أبوعبدالله ﷺ: كأنّه قد أزف منك رحيل؟ فقال: نعم. فقال: فالقني في البيت، فلقيه فسأله عن الإسلام والإيمان ما الفرق بينهما؟ فقال: الإسلام هو الظاهر الّذي عليه النّاس: شهادة أن لا إلّه إلّا الله وحده لاشريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحجّ البيت وصيام شهر رمضان فهذا الإسلام، وقال: الإيمان معرفة هذا الأمر، مع هذا. فإن أقرَّ بها ولم يعرف هذا الأمر كان مسلماً وكان ضالاً»[2].

[٢٢٣/٢] وبإسناده عن أبي بصير، عن أبي جعفر ﷺ قال: سمعته يقول: «﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[3] فمن زعم أنّهم آمنوا فقد كذب ومن زعم أنّهم لم يسلموا فقد كذب»[4].

الإيمان يَشْرك الإسلام والإسلام لايَشْرك الإيمان

[٢٢٤/٢] وبإسناده عن سماعة قال: «قلت لأبي عبدالله ﷺ: أخبرني عن الإسلام والإيمان أهما مختلفان؟ فقال: إنّ الإيمان يشارك الإسلام والإسلام لايشارك الإيمان. فقلت: فصفهما لي، فقال: الإسلام شهادة أن لا إلّه إلّا الله والتصديق برسول الله ﷺ، به حقنت الدّماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة النّاس. والإيمان الهدى ومايثبت في القلوب من صفة الإسلام وماظهر من العمل به، والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة، إنَّ الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر والإسلام لايشارك الإيمان في الباطن وإن اجتمعا في القول والصفة»[5].

[٢٢٥/٢] وبإسناده عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبدالله ﷺ يقول: «إنَّ الإيمان يشارك الإسلام ولايشاركه الإسلام، إنَّ الإيمان ما وقر في القلوب، والإسلام ما عليه المناكح والمواريث

---

(١) أي قرب وفي القاموس: أزف الترحل كفرح أزوفاً وأزفاً: دنا.

(٢) الكافي ٢: ٢٤ ـ ٢٥ / ٤.

(٣) الحجرات ٤٩: ١٤.

(٤) الكافي ٢: ٢٥ / ٥.

(٥) المصدر / ١.

وحقن الدّماء؛ والإيمان يشرك الإسلام والإسلام لايشرك الإيمان»[١].

[٢٢٦/٢] وبإسناده عن حمران بن أعين، عن أبي جعفر ﷺ قال: سمعته يقول: «الإيمان ماستقرّ في القلب وأفضى به إلى الله عزّوجلّ، وصدّقه العملُ بالطاعة لله والتسليم لأمره، والإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو الّذي عليه جماعة النّاس من الفرق كلّها، وبه حُقنت الدّماء وعليه جرت المواريث وجاز النكاح واجتمعوا على الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ، فخرجوا بذلك من الكفر وأُضيفوا إلى الإيمان؛ والإسلام لايشرك الإيمان والإيمان يشرك الإسلام وهما في القول والفعل يجتمعان، كما صارت الكعبة في المسجد والمسجد ليس في الكعبة وكذلك الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لايشرك الإيمان وقد قال الله عزّوجلّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٢] فقول الله عزّوجلّ أصدق القول. قلت: فهل للمؤمن فضلٌ على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام والحدود وغير ذلك؟ فقال: لا، هما يجريان في ذلك مجرى واحد ولكن للمؤمن فضل على المسلم في أعمالهما وما يتقرّبان به إلى الله عزّوجلّ، قلت: أليس الله عزّوجلّ يقول: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٣]؟ ـ وزعمت أنّهم مجتمعون على الصلاة والزّكاة والصّوم والحجّ مع المؤمن ـ قال: أليس قد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[٤] فالمؤمنون هم الّذين يضاعف الله لهم حسناتهم لكلّ حسنة سبعون ضعفاً، فهذا فضل المؤمن، ويزيده الله في حسناته على قدر صحّة إيمانه أضعافاً كثيرة ويفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير، قلت: أرأيت من دخل في الإسلام أليس هو داخلاً في الإيمان؟ فقال: لا ولكنّه قد أُضيف إلى الإيمان وخرج من الكفر وسأضرب لك مثلاً تعقل به فضل الإيمان على الإسلام، أرأيت لو بصرت رجلاً في المسجد أكنت تشهد أنّك رأيته في الكعبة؟ قلت: لايجوز لي ذلك، قال: فلو بصرت رجلاً في الكعبة أكنت شاهداً أنّه قد دخل المسجد الحرام؟ قلت: نعم، قال: وكيف ذلك؟ قلت: إنّه لايصل إلى دخول الكعبة حتّى يدخل المسجد، فقال: قد أصبت وأحسنت، ثمّ قال: كذلك الإيمان والإسلام»[٥].

---

(١) المصدر: ٢٦ / ٣.

(٢) الحجرات ٤٩: ١٤.

(٣) الأنعام ٦: ١٦٠.

(٤) البقرة ٢: ٢٤٥.

(٥) الكافي ٢: ٢٦ ـ ٢٧ / ٥.

الإسلام قبل الإيمان

[٢٢٧/٢] وبإسناده عن عبدالرحيم القصير قال: كتبت مع عبدالملك بن أعين إلى أبي عبدالله عليه السلام أسأله عن الإيمان ما هو؟ فكتب إليّ مع عبدالملك: «سألت ـ رحمك الله ـ عن الإيمان، والإيمان هو الإقرار باللّسان، وعقد في القلب، وعمل بالأركان. والإيمان بعضه من بعض وهو دار، وكذلك الإسلام دارٌ والكفر دارٌ. فقد يكون العبد مسلماً قبل أن يكون مؤمناً ولايكون مؤمناً حتّى يكون مسلماً، فالإسلام قبل الإيمان وهو يشارك الإيمان. فإذا أتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغائر المعاصي الّتي نهى الله عنها كان خارجاً من الإيمان، ساقطاً عنه اسم الإيمان وثابتاً عليه اسم الإسلام. فإن تاب و استغفر عاد إلى دار الإيمان ولايخرجه إلى الكفر إلّا الجحود والاستحلال: أن يقول للحلال هذا حرامٌ، وللحرام هذا حلال ودان بذلك، فعندها يكون خارجاً من الإسلام والإيمان، داخلاً في الكفر، وكان بمنزلة من دخل الحرم ثمّ دخل الكعبة وأحدث في الكعبة حدثاً فأُخرج عن الكعبة وعن الحرم فضربت عنقه وصار إلى النار»[١].

[٢٢٨/٢] وبإسناده عن سماعة بن مهران قال: «سألته عن الإيمان و الإسلام قلت له: أفرقٌ بين الإسلام والإيمان قال: فأضرب لك مثلاً: مثل الإيمان والإسلام مثل الكعبة من الحرم قد يكون في الحرم ولايكون في الكعبة ولايكون في الكعبة حتّى يكون في الحرم، وقد يكون مسلماً ولايكون مؤمناً ولايكون مؤمناً حتّى يكون مسلماً»[٢].

* * *

[٢٢٩/٢] وبإسناده عن محمّد بن سالم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ ناساً تكلّموا في هذا القرآن بغير علم، وذلك أنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾[٣] فالمنسوخات من المتشابهات؛ والمحكمات من الناسخات.

إنّ الله ـ عزّوجلّ ـ بعث نوحاً إلى قومه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ﴾[٤] ثمّ دعاهم إلى الله

---

(١) المصدر: ٢٧ـ٢٨ / ١.
(٢) المصدر: ٢٨ / ٢.
(٣) آل عمران٣: ٧.
(٤) نوح ٧١: ٣.

وحده وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثمّ بعث الأنبياء عليهم السلام على ذلك إلى أن بلغ محمّداً صلى الله عليه وآله فدعاهم (الناس جميعاً) إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[1]. فبعث الأنبياء إلى قومهم بشهادة أن لا إلٰه إلّا الله والإقرار بما جاء من عند الله، فمن آمن مخلصاً ومات على ذلك أدخله الله الجنّة بذلك، وذلك أنّ الله ليس بظلّام للعبيد، وذلك أنّ الله لم يكن يعذّب عبداً حتّى يغلّظ عليه[2] في القتل والمعاصي الّتي أوجب الله عليها النّار لمن عمل بها، فلمّا استجاب لكلّ نبيّ؛ مَن استجاب له من قومه من المؤمنين، جعل لكلّ نبيّ منهم شرعة ومنهاجاً. والشرعة والمنهاج سبيل وسنّة، وقال الله لمحمّد صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[3].

وأمر كلّ نبيّ بالأخذ بالسبيل والسنّة. وكان من السنّة والسبيل الّتي أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ بها موسى عليه السلام أن جعل الله عليهم السبت، وكان مَنْ أعْظَمَ السبت ولم يستحلّ أن يفعل ذلك من خشية الله، أدخله الله الجنّة، ومن استخفّ بحقّه واستحلّ ما حرّم الله، أدخله الله النار، وذلك حيث استحلّوا الحيتان واحتبسوها وأكلوها يوم السبت، غضب الله عليهم من غير أن يكونوا أشركوا بالرَّحمان ولاشكّوا في شيء ممّا جاء به موسى عليه السلام، قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[4].

ثمّ بعث الله عيسى عليه السلام بشهادة أن لا إلٰه إلّا الله والإقرار بما جاء به من عند الله وجعل لهم شرعة ومنهاجاً فهدمت السبت الّذي أمروا أن يعظّموه قبل ذلك، فمن لم يتّبع سبيل عيسى أدخله الله النار، وإن كان الّذي جاء به النبيّون جميعاً أن لايشركوا بالله شيئاً.

ثمّ بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله و هو بمكّة عشر سنين[5] فلم يمت بمكّة في تلك العشر سنين أحدٌ يشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله رسول الله إلّا أدخله الله الجنّة بإقراره وهو إيمان التصديق،

(١) الشورى ٤٢: ١٣.

(٢) أي يؤكّد عليه المنع والتحريم.

(٣) النساء ٤: ١٦٣.

(٤) البقرة ٢: ٦٢.

(٥) عشر سنين بعد إظهار الدعوة وقد مضت على البعثة ثلاث سنين.

ولم يعذّب الله أحداً ممّن مات وهو متّبع لمحمّد ﷺ على ذلك إلّا من أشرك بالرّحمان.

وتصديق ذلك أنّ الله أنزل عليه في سورة بني إسرائيل بمكّة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾[1] أدبٌ وعظة وتعليمٌ ونهي خفيفٌ ولم يعد عليه ولم يتواعد على اجتراح شيء ممّا نهى عنه وأنزل نهياً عن أشياء حذّر عليها ولم يغلّظ فيها ولم يتواعد عليها. وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً. وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً. وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً. وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً. كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً. ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾[2].

وأنزل في ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ. لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[3] فهذا مشركٌ.

وأنزل في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً. وَيَصْلَىٰ سَعِيراً. إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً. إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ. بَلَىٰ﴾[4] فهذا مشرك.

وأنزل في تبارك: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[5] فهؤلاء مشركون.

وأنزل في الواقعة: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ. وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[6] فهولاء مشركون.

وأنزل في الحاقّة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ. يَا

---

(١) الإسراء ١٧: ٢٣.
(٢) الإسراء ١٧: ٣١ ـ ٣٩.
(٣) الليل ٩٢: ١٤ ـ ١٦.
(٤) الانشقاق ٨٤: ١٠ ـ ١٤.
(٥) الملك ٦٧: ٨ ـ ٩.
(٦) الواقعة ٥٦: ٩٢ ـ ٩٤.

لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾[١] فهذا مشرك.

وأنزل في طسم: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ . فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ جنود إبليس ذرّيّته من الشّياطين. وقوله: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾[٢] يعني المشركين الّذين اقتدى بهم هؤلاء فاتّبعوهم على شركهم، وهم قوم محمّد ﷺ ليس فيهم من اليهود والنّصارى أحد.

وتصديق ذلك قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾[٣]. ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾[٤] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾[٥] ليس فيهم اليهود الّذين قالوا: عزير ابن الله، ولا النصارى الّذين قالوا: المسيح ابن الله، سيدخل الله اليهود والنّصارى النّار، ويدخل كلّ قوم بأعمالهم.

وقولهم: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾[٦] إذ دعونا إلى سبيلهم. ذلك قول الله ـ عزّ وجلّ ـ فيهم حين جمعهم إلى النّار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾[٧] برئ بعضهم من بعض ولعن بعضهم بعضاً، يريد بعضهم أن يحجّ بعضاً رجاء الفلج فيفلتوا من عظيم ما نزل بهم، وليس بأوان بلوى ولا اختبار ولا قبول معذرة ولات حين نجاة!

والآيات وأشباههنّ ممّا نزل بمكّة، ولا يدخل الله النّار إلّا مشركاً، فلمّا أذن الله لمحمّد ﷺ في الخروج من مكّة إلى المدينة بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً ﷺ عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزّكاة وحجّ البيت وصيام شهر رمضان، وأنزل عليه الحدود وقسمة الفرائض، وأخبره بالمعاصي التي أوجب الله عليها النّار لمن عمل بها.

وأنزل في بيان القاتل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[٨]، ولا يلعن الله مؤمناً. قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ

---

(١) الحاقة ٦٩: ٢٥ ـ ٣٣.
(٢) الشعراء ٢٦: ٩١ ـ ٩٩.
(٣) سورة ص ٣٨: ١٢.
(٤) الشعراء ٢٦: ١٧٦.
(٥) الشعراء ٢٦: ١٦٠.
(٦) الشعراء ٢٦: ٩٩.
(٧) الأعراف ٧: ٣٦.
(٨) النساء ٤: ٩٣.

سَعِيراً. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾[١] وكيف يكون في المشيئة، وقد ألحق به ـ حين جزاه جهنّم ـ الغضب واللّعنة، وقد بيّن ذلك من الملعونون في كتابه.

وأنزل في مال اليتيم من أكله ظلماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[٢] وذلك أنّ آكل مال اليتيم يجيء يوم القيامة والنّار تلتهب في بطنه حتّى يخرج لهب النّار من فيه حتّى يعرفه كلُّ أهل الجمع أنّه آكل مال اليتيم. وأنزل في الكيل: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾[٣] ولم يجعل الويل لأحد حتّى يسمّيه كافراً، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

وأنزل في العهد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥] والخلاق: النصيب، فمن لم يكن له نصيبٌ في الآخرة فبأيّ شيء يدخل الجنّة.

وأنزل بالمدينة: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦] فلم يسمِّ الله الزّاني مؤمناً ولا الزّانية مؤمنة. وقال رسول الله ﷺ: ـ ليس يمتري فيه أهل العلم أنّه قال ـ: لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، فإنّه إذا فعل ذلك خُلع عنه الايمان كخلع القميص.

ونزل بالمدينة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٧] فبرأه الله ما كان مقيماً على الفرية من أن يسمّى بالايمان، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ﴾[٨] وجعله الله منافقاً، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٩]. وجعله ـ عزَّ وجلَّ ـ من أولياء إبليس، قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[١٠]. وجعله ملعوناً فقال:

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) النساء ٤: ١٠.
(٣) المطففين ٨٣: ٢. والتطفيف: نقص المكيال.
(٤) مريم ١٩: ٣٨.
(٥) آل عمران ٣: ٧٧.
(٦) النور ٢٤: ٤.
(٧) النور ٢٤: ٥.
(٨) السجدة ٣٢: ١٨.
(٩) التوبة ٩: ٦٧.
(١٠) الكهف ١٨: ٥٠.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١). وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمةُ العذاب.

فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾(٢) وسورة النور أُنزلت بعد سورة النساء، وتصديق ذلك أنّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنزل عليه في سورة النساء: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾(٣) والسبيل الّذي قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِأَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾»(٤)(٥).

[٢٣٠/٢] وبإسناده عن أبي الصباح الكناني، عن أبي جعفر ﷺ قال: «قيل لأمير المؤمنين ﷺ: من شهد أن لا إلَه إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله ﷺ كان مؤمناً؟ قال: فأين فرائض الله؟».

قال: وسمعته يقول: «كان عليٌّ ﷺ يقول: لو كان الإيمان كلاماً لم ينزل فيه صومٌ ولا صلاةٌ ولاحلالٌ ولا حرامٌ. قال: و قلت لأبي جعفر ﷺ: إنَّ عندنا قوماً يقولون: إذا شهد أن لا إلَه إلّا الله وأنَّ محمّداً رسول الله ﷺ فهو مؤمنٌ، قال: فَلِمَ يُضربون الحدود وَلِمَ تُقطع أيديهم؟! وما خلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلقاً أكرم عليه من المؤمن، لأنّ الملائكة خدّام المؤمنين وأنَّ جوار الله للمؤمنين وأنَّ الجنّة للمؤمنين وأنّ الحور العين للمؤمنين، ثمّ قال: فما بال من جحد الفرائض كان كافراً؟»(٦)

[٢٣١/٢] وبإسناده عن سلّام الجعفي قال: سألت أبا عبدالله ﷺ عن الإيمان، فقال: «الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى»(٧).

---

(١) النور ٢٤: ٢٣ و ٢٤.

(٢) الإسراء ١٧: ٧٤. فتيلا أي أدنى شيء.

(٣) النساء ٤: ١٤.

(٤) النور ٢٤: ١ و ٢.

(٥) الكافي ٢: ٢٨ ـ ٣٣ / ١.

(٦) المصدر: ٣٣ / ٢.

(٧) المصدر: ٣٣ / ٣.

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

وقد تكلّمنا عن الإيمان بالغيب فيما سبق عند تفسير الآية إجماليّاً، وذكرنا أنّه الإيمان بمطلق الغيب وأنّ هناك وراء عالمنا المحسوس عالماً ملؤه الحيويّة والكمال، وأنّ ما في عالَمنا هذا هي رشحة من ذاك الملكوت الأعلى. ولولا هذا الإيمان، لم يمكن قبول وحي ولا الإذعان بشريعة السماء وتصديق الأنبياء، فهو الأساس المكين لسائر المعتقدات فيما يعود إلى ما وراء الحسّ المشهود.

وإليك الآن ما روي بشأن الغيب والإيمان به من أحاديث السلف:

[٢٣٢/٢] قال الرمّاني: الغيب خفاء الشيء عن الحسّ قَرُب أم بعد، إلّا أنّه قد كثرت صفة الغائب على البعيد الّذي لا يظهر للحسّ[١].

[٢٣٣/٢] وجاء في التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال الإمام عليه السلام: «وصف هؤلاء المؤمنين الّذين هذا الكتاب هُدىً لهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني ما غاب عن حواسّهم من الأمور الّتي يلزمهم الإيمان بها كالبعث والحساب والجنّة والنّار وتوحيد الله، وسائر مالا يُعرف بالمشاهدة، وإنّما يعرف بدلائل قد نصبها الله تعالى عليها كآدم وحوّاء وإدريس ونوح وإبراهيم والأنبياء الّذين يلزمهم الإيمان بهم بحجج الله تعالى وإن لم يشاهدوهم، ويؤمنون بالغيب ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾»[٢][٣].

[٢٣٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: هم المؤمنون قال: و الايمان التصديق و الغيب ما غاب عن العباد من أمر الجنّة والنار، وما ذكر الله في القرآن لم يكن تصديقهم بذلك من قبل أصحاب الكتاب أو علم كان عندهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هم المؤمنون من أهل الكتاب، ثمّ جمع الفريقين فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ الآية[٤].

---

(١) التبيان ١: ٥٥؛ مجمع البيان ١: ٨٦. (٢) الجاثيه ٤٥: ٢٤.

(٣) البرهان ١: ١٣١ ـ ١٣٢ / ١١؛ تفسير الإمام: ٦٧ ـ ٦٨ / ٣٤؛ البحار ٦٥: ٢٨٥ / ٤٢.

(٤) الدرّ ١: ٦٤؛ الطبري ١: ١٥١ / ٢٢٩ و ١٤٩ ـ ١٥٠ / ٢٢٥؛ ابن كثير ١: ٤٣، بلفظ «وقال السّدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمداني عن ابن مسعود و عن ناس من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وآله: أمّا الغيب فما غاب عن العباد ←

[٢٣٥/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وجنّته وناره ولقائه والحياة بعد الموت(١).

[٢٣٦/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: آمنوا بالبعث بعد الموت والحساب والجنّة والنّار وصدّقوا بموعود الله الّذي وعد في هذا القرآن(٢).

[٢٣٧/٢] وأخرج الطستيّ في مسائله عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: ما غاب عنهم من أمر الجنّة والنّار. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت أبا سفيان بن الحرث يقول:

وبالغيب آمنّا وقد كان قومنا   يُصلّون للأوثان قبل محمّد(٣)

[٢٣٨/٢] وقال ابن عبّاس: الغيب هاهنا كلّ ما أُمِرْتَ بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنّة والنّار والصّراط والميزان(٤).

[٢٣٩/٢] وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب(٥).

[٢٤٠/٢] وقال الحسن في قوله: بالغيب: الآخرة(٦).

[٢٤١/٢] وقال إسماعيل بن أبي خالد: بغيب الإسلام(٧).

[٢٤٢/٢] وقال زيدبن أسلم: بالقدَرَ(٨).

← من أمر الجنّة وأمر النّار وما ذكر في القرآن»؛ التبيان ١: ٥٥، بلفظ: «قال جماعة من الصحابة كابن مسعود وغيره: إنّ الغيب ما غاب عن العباد علمه من أمر الجنّة والنّار والأرزاق والأعمال وغير ذلك»؛ مجمع البيان ١: ٨٦، بلفظ: «قيل: بما غاب عن العباد علمه ـ عن ابن مسعود وجماعة من الصحابة ـ وهذا أولى لعمومه»؛ أبو الفتوح ١: ١١٠.

(١) الدرّ ١: ٦٤؛ الطبري ١: ١٥٠ / ٢٢٨، عن الربيع بن أنس؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٦ / ٦٧، بلفظ: «قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه و رسله واليوم الآخر وجنّته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث. فهذا غيب كلّه»؛ ابن كثير ١: ٤٣؛ أبو الفتوح ١: ١٠٣، باختلاف يسير؛ الثّعلبي ١: ١٤٧.

(٢) الدرّ ١: ٦٤؛ الطبري ١: ١٥٠ / ٢٢٧، بلفظ: «عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: آمنوا بالجنّة والنّار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة وكلّ هذا غيب».

(٣) الدرّ ١: ٦٤ ـ ٦٥.

(٤) البغوي ١: ٨٤.

(٥) ابن كثير ١: ٤٣؛ أبوالفتوح ١: ١٠٣؛ الثعلبي ١: ١٤٧.

(٦) البغوي ١: ٨٤؛ أبوالفتوح ١: ١٠٤؛ الثعلبي ١: ١٤٧.

(٧) ابن كثير ١: ٤٣.

(٨) ابن كثير ١: ٤٣؛ البغوي ١: ٨٤، عن ابن كيسان.

[٢/٢٤٣] وقال مقاتل بن سليمان، في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني يؤمنون بالقرآن أنّه من الله ـ تعالى ـ جاء وهو أنزله على محمّد ﷺ فيحلّون حلاله ويحرّمون حرامه ويعملون بما فيه[١].

[٢/٢٤٤] وعن عاصم عن زرّ قال: الغيب: القرآن[٢].

[٢/٢٤٥] وعن زرّبن حبيش وابن جُرَيج: الوحي[٣].

[٢/٢٤٦] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه يعني من الله[٤].

[٢/٢٤٧] وعن الكلبي: كلّ ما لم يأت من القرآن، فهو غيب[٥].

[٢/٢٤٨] وأخرج الثعلبي عن عبدالله بن هاني: هو ما غاب عنهم من علوم القرآن[٦].

* * *

وهناك روايات وردت قد تبدو غريبة، ولكنّها بالتطبيق على بعض الأهمّ من المصاديق أشبه فلا تغفل. وإليك منها:

[٢/٢٤٩] ما رواه أبو جعفر الصدوق بإسناده إلى عمربن عبدالعزيز بن أبي بشّار ـ هو أبو حفص المعروف بزحل، عربيّ بصريّ مُخَلَّط ـ عن غير واحد من أصحابنا عن داوود بن كثير الرقّي عن أبي عبدالله عليه السلام «في قول الله ـ عزّوجلّ ـ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: من أقرّ بقيام القائم عليه السلام أنّه حقّ»[٧].

[٢/٢٥٠] وبإسناده إلى عليّ بن أبي حمزة سالم البطائني ـ أحد عُمُد الواقفة ـ قال عليّ بن الحسن بن فضّال: عليّ بن أبي حمزة ـ متّهم ـ عن يحيى بن أبي القاسم قال: «سألت الصادق جعفربن محمّد عليه السلام عن قول الله ـ عزّوجلّ ـ: ﴿الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ

---

(١) تفسير مقاتل ١: ٨١.

(٢) الطبري ١: ١٥٠ / ٢٢٦؛ الثعلبي ١: ١٤٧، عن عاصم.

(٣) البغوي ١: ٨٤؛ أبوالفتوح ١: ١٠٣، عن ابن جُرَيج؛ الثعلبي ١: ١٤٧.

(٤) الدرّ ١: ٦٤؛ الطبري ١: ١٤٩ / ٢٢٤؛ ابن كثير ١: ٤٣؛ مجمع البيان ١: ٨٦، بلفظ: «بما جاء من عند الله».

(٥) أبوالفتوح ١: ١٠٣؛ الثعلبي ١: ١٤٧، بلفظ: «بما نزل من القرآن وبما لم يجيء بعد».

(٦) الثعلبي ١: ١٤٧.

(٧) كمال الدّين: ١٧ و ٣٤٠ / ١٩.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فقال: المتّقون شيعة عليّ والغيب هو الحجّة الغائب، وشاهد ذلك قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[1] فأخبر ـ عزّ وجلّ ـ أنّ الآية هي الغيب، والغيب هو الحجّة. وتصديق ذلك قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً﴾[2] يعني حجّة»[3].

والرواية مضطربة المفاد، فضلاً عن ضعف السند.

وأمّا تفسير المتّقين بشيعة عليّ ـ كما في روايات أخرى أيضاً ـ فيحمل على إرادة أشياع عليّ عليه السلام الصادقين. لأنّ شيعته المخلصين هم المتّقون حقّاً، باتّباع من دارت عليه رحى الدّين وكان يعسوب المؤمنين.

[٢٥١/٢] وروى عليّ بن محمّد الخزّاز القمي (الرّازي) بإسناده إلى واثلة بن الأسقع عن جابر بن عبدالله الأنصاري ـ في حديث طويل ـ قال: دخل جندل بن جنادة اليهوديّ من خيبر[4] على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسأله عن مسائل، ثمّ عرض رؤياً رآه البارحة وأنّ موسى بن عمران أمره أن يُسلم على يد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ويستمسك بالأوصياء من بعده، وجعل يسأل عن أسمائهم وأوصافهم، وأنّه يُدرك خمسةً منهم، والخامس هو عليّ بن الحسين عليه السلام يُدركه عند ولادته!

ثمّ قال جندل: وجدتُ في التّوراة «أليا، يقطو، شبّر، شبير»، وسأل عن باقي الأئمة، فسمّاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى أتى على الثّاني عشر، فلم يسمّه، وأنّه يغيب غيبة طويلة، وقال: طوبىٰ للصّابرين في غيبته، طوبى للمقيمين على محجّتهم، أولئك وصفهم الله في كتابه وقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللّٰهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[5].

قال ابن الأسقع: ثمّ عاش جندل بن جنادة إلى أيّام الحسين بن عليّ عليه السلام ثمّ خرج إلى الطائف. فحدّثني نُعيم بن أبي قيس قال: دخلت عليه بالطائف وهو عليل، ثمّ دعا بشربة من لبن فشربه وقال: هكذا عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه يكون آخر زادي من الدنيا شربة من لبن. ثمّ مات ودفن بالطائف

(١) يونس ١٠: ٢٠.
(٢) المؤمنون ٢٣: ٥٠.
(٣) كمال الدّين: ١٧ ـ ١٨.
(٤) لم يُعرف! وأهملته كتب التراجم، وكذا أصحاب السِيَر والتواريخ!
(٥) المجادلة ٥٨: ٢٢.

في الموضع المعروف بالكوراء[١].

وهنا تنظّر المجلسي في هذا الخبر، حيث مواضع التنافي فيه. إذ كانت ولادة الإمام زين العابدين عليه السلام في أواخر أيّام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وغير ذلك ممّا يجعل هذا الخبر غريباً. راجع بيانه حول هذا الخبر في بحار أنواره[٢].

* * *

[٢٥٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وأبو نُعَيم كلاهما في معرفة الصّحابة عن نويلة بنت أسلم قالت: صلّيت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء[٣] فصلّينا سجدتين ثمّ جاءنا من يخبرنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد استقبل البيت الحرام، فتحوّل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلّينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلو البيت الحرام. فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب»[٤].

[٢٥٣/٢] وأخرج سفيان بن عُيَينة وسعيد بن منصور وأحمد بن منيع في مسنده وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصحّحه وابن مردويه عن الحرث بن قيس، أنّه قال لابن مسعود: عند الله يُحتسب ما سبقتمونا به يا أصحاب محمّد من رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله! فقال ابن مسعود: عند الله يُحتسب إيمانكم بمحمّد صلى الله عليه وآله ولم تروه! إنّ أمر محمّد كان بيّناً لمن رآه، والّذي لا إله غيره، ما آمن أحد أفضل من إيمانٍ بغيب. ثمّ قرأ: ﴿الم . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾[٥].

---

(١) كفاية الأثر: ٦٠. وفي الطبعة القديمة: ٨ ـ ٩. وفي المطبوعة مع ثلاث كتب: ٢٨٩.

(٢) البحار ٣٦: ٣٠٦.

(٣) أي البيت المقدّس وإيلياء اسم مدينة القدس.

(٤) الدرّ ١: ٦٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٧ / ٧٣، باختلاف يسير؛ الكبير ٢٥: ٤٣ / ٨٢، باختلاف يسير؛ معرفة الصحابة لأبي نعيم ٦: ٣٢٨٢ رقم الترجمة ٣٨٠٨ و ٧٥٤٨؛ ابن كثير ١: ٤٤؛ مجمع الزوائد ٢: ١٤، كتاب الصلاة، باب القبلة.

(٥) الدرّ ١: ٦٥؛ سنن سعيد بن منصور ٢: ٥٤٥ / ١٨١؛ الحاكم ٢: ٢٦٠؛ والقرطبي ١: ١٥٤ و ١٦٣. بلفظ: «عن الأعمش عن عمّارة عن حريث بن ظهير عن عبدالله قال: ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب؛ ثمّ قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾؛ ابن كثير ١: ٤٣ ـ ٤٤، باختصار؛ البغوي ١: ٨٤؛ الثعلبي ١: ١٤٧.

[٢٥٤/٢] وأخرج البزّار وأبو يعلى والمرهبي في فضل العلم والحاكم وصحّحه عن ابن الخطاب قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ فقال: «أنبئوني بأفضل أهل الإيمان إيماناً؟ قالوا: يا رسول الله، الملائكة؟ قال: هم كذلك، ويحقّ لهم، وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة الّتي أنزلهم بها. قالوا: يا رسول الله، الأنبياء الّذين أكرمهم الله برسالاته والنبوّة! قال: هم كذلك، ويحقّ لهم، وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة الّتي أنزلهم بها. قالوا: يا رسول الله، الشهداء الّذين استشهدوا مع الأنبياء! قال: هم كذلك، ويحقّ لهم، وما يمنعهم وقد أكرمهم الله بالشهادة مع الأنبياء. بل غيرهم. قالوا: فمن يا رسول الله؟! قال: أقوام في أصلاب الرجال، يأتون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني، ويصدّقوني ولم يروني، يجدون الورق المعلّق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً»(١).

[٢٥٥/٢] وأخرج الحسن بن عروة في «جزئه» المشهور والبيهقي في الدّلائل والأصبهاني في الترغيب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّ الخلق أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة. قال: وما لهم لايؤمنون، وهم عند ربّهم! قالوا: فالأنبياء. قال: فما لهم لايؤمنون، والوحي ينزل عليهم! قالوا: فنحن. قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم، ألا إنّ أعجب الخلق إليّ إيماناً لقومٌ يكونون من بعدكم يجدون صُحُفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيه»(٢).

[٢٥٦/٢] وأخرج الطبراني عن ابن عبّاس قال: أصبح رسول الله ﷺ يوماً فقال: «ما من ماء ما من ماء؟ قالوا: لا. قال: فهل من شَنّ؟ فجاؤوا بالشَنّ(٣)، فوضع بين يدي رسول الله ﷺ، ووضع يده عليه ثمّ فرق أصابعه، فنبع الماء مثل عصا موسى من بين أصابع رسول الله ﷺ، فقال: يا بلال اهتف بالناس بالوضوء، فأقبلوا يتوضّأون من بين أصابع رسول الله ﷺ وكانت همّة ابن مسعود الشرب، فلمّا توضّأوا صلّى بهم الصبح، ثمّ قعد للنّاس فقال: يا أيّها النّاس من أعجب الخلق إيماناً؟ قالوا: الملائكة! قال: وكيف لا تؤمن الملائكة وهم يعاينون الأمر! قالوا: فالنبيّون يا رسول الله! قال: وكيف لا يؤمن النبيّون والوحي ينزل عليهم من السماء! قالوا: فأصحابك يا رسول الله! فقال: وكيف لا يؤمن أصحابي وهم يرون ما يرون، ولكن أعجب الناس إيماناً، قوم يجيئون بعدي يؤمنون بي

---

(١) الدرّ ١: ٦٥؛ البزّار ١: ٤١٣ / ٢٨٩، باختصار؛ أبو يعلى ١: ١٤٧ / ١٦٠؛ الحاكم ٤: ٨٥ ـ ٨٦؛ كنز العمّال ١٤: ٤١ / ٣٧٨٨٠؛ مجمع الزّوائد ١٠: ٦٥؛ الثعلبي ١: ١٤٧.

(٢) الدرّ ١: ٦٥ ـ ٦٦؛ الدّلائل ٦: ٥٣٨؛ ابن كثير ١: ٤٤. (٣) الشَنّ: القربة الخَلِقة الصغيرة.

ولم يروني، ويصدّقوني ولم يروني، أولئك إخواني»(١).

[٢٥٧/٢] وأخرج الإسماعيلي في معجمه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّ شيء أعجب إيماناً؟ قيل: الملائكة. فقال: كيف وهم في السماء يرون من الله ما لا ترون! قيل: فالأنبياء. قال: كيف وهم يأتيهم الوحي؟ قالوا: فنحن. قال: كيف وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله! ولكن قوم يأتون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني، أولئك أعجب إيماناً، وأولئك إخواني. وأنتم أصحابي»(٢).

[٢٥٨/٢] وأخرج البزّار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّ الخلق أعجب إيماناً؟ قالوا: الملائكة. قال: الملائكة! كيف لا يؤمنون؟ قالوا: النبيّون. قال: النبيّون يوحىٰ إليهم فكيف لا يؤمنون؟ ولكن أعجب النّاس إيماناً، قوم يجيئون من بعدكم، فيجدون كتاباً من الوحي، فيؤمنون به ويتّبعونه. فهؤلاء أعجب النّاس إيماناً»(٣).

[٢٥٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ليتني قد لقيت إخواني؟ قالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك وأصحابك؟ قال: بلى. ولكنّ قوماً يجيئون من بعدكم يؤمنون بي إيمانكم ويصدّقوني تصديقكم وينصروني نصركم، فياليتني قد لقيت إخواني»(٤).

[٢٦٠/٢] وأخرج ابن عساكر في الأربعين السباعيّة من طريق أبي هدبة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليتني قد لقيت إخواني؟ فقال له رجل من أصحابه: أولسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني، ثمّ قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾(٥)».

[٢٦١/٢] وأخرج أحمد والدّارمي والباوردي وابن قانع معاً في معجم الصحابة والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم عن أبي جمعة الأنصاري قال: «قلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منّا

---

(١) الدرّ ١: ٦٦؛ الكبير ١٢: ٦٨ ـ ٦٩ / ١٢٥٦٠؛ مجمع الزّوائد ٨: ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٢) الدرّ ١: ٦٦.

(٣) الدرّ ١: ٦٦؛ مجمع الزّوائد ١٠: ٦٥.

(٤) الدرّ ١: ٦٦ ـ ٦٧.

(٥) المصدر: ٦٧.

أجراً؟ آمنّا بك، واتّبعناك! قال: ما يمنعكم من ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهركم، يأتيكم الوحي من السماء! بل قوم يأتون من بعدي، يأتيهم كتاب بين لوحين، فيؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً»[1].

[٢٦٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي عمرو وأحمد والحاكم عن أبي عبدالرحمان الجهني قال: «بينا نحن مع رسول الله ﷺ إذ طلع راكبان فقال رسول الله ﷺ «كنديّان أو مذحجيّان» حتّى أتيا، فإذا رجلان من مذحج. فدنا أحدهما ليبايعه، فلمّا أخذ بيده قال: يا رسول الله أرأيت من آمن بك واتّبعك وصدّقك، فماذا له؟ قال: طوبى له، فمسح على يده وانصرف. ثمّ جاء الآخر حتّى أخذ على يده ليبايعه فقال: يا رسول الله أرأيت من آمن بك وصدّقك واتّبعك ولم يرك؟ قال: طوبى له. ثمّ طوبى له. ثمّ مسح على يده وانصرف»[2].

[٢٦٣/٢] وأخرج الطيالسي وأحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني» سبع مرّات[3].

[٢٦٤/٢] وأخرج أحمد وابن حبّان عن أبي سعيد الخُدري عن رسول الله ﷺ أنّ رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثمّ طوبى ثمّ طوبى

---

(١) الدرّ ١: ٦٧؛ مسند أحمد ٤: ١٠٦، حديث أبي جمعة حبيب بن سباع، بتفاوت؛ الدّارمي ٢: ٣٠٨؛ معجم الصحابة لابن قانع ١: ١٨٧ ـ ١٨٨ / ٢١١، باختلاف يسير؛ التاريخ ٢: ٣١١ / ٢٥٨٥، بلفظ: «... عن أسيد بن عبدالرحمان: سمع صالح بن محمّد سمع أبا جمعة قال: تغذّينا مع النّبي ﷺ ومعنا أبو عبيدة فقال: يا رسول الله ﷺ هل أحد خيرٌ منّا؟ قال: نعم قوم آمنوا بي ولم يروني»؛ الكبير ٤: ٢٣ / ٣٥٤٠؛ الحاكم ٤: ٨٥، كتاب معرفة الصحابة، قريب لما رواه البخاري في تاريخه؛ ابن كثير ١: ٤٤؛ مجمع الزّوائد ١٠: ٦٦.

(٢) الدرّ ١: ٦٧؛ مسند ابن أبي شيبة ٢: ٢٣٩ ـ ٢٤٠ / ٧٣٠، باختلاف يسير؛ مسند أحمد ٤: ١٥٢، حديث عقبة بن عامر الجهني، باختلاف يسير؛ مجمع الزّوائد ١٠: ١٨ و ٦٧، قال الهيثمي: رواه البزّار والطبراني وإسناده حسن.

(٣) الدرّ ١: ٦٧؛ الطيالسي: ١٥٤ / ١١٣٢؛ مسند أحمد ٥: ٢٤٨؛ التاريخ ٢: ٢٧ / ١٥٧٦؛ الكبير ٨: ٢٦٠ / ٨٠١٠، باب أيمن عن أبي أمامة؛ الحاكم ٤: ٨٦، بلفظ: «عن عبدالله بن بسر صاحب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: طوبى لمن رآني وطوبى لمن رأى من رآني ولمن رأى من رأى من رآني وآمن بي»؛ مجمع الزّوائد ١٠: ٦٧.

لمن آمن بي ولم يرني»(١).

[٢٦٥/٢] وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد عن نافع قال: جاء رجل إلى ابن عمر فقال: يا أبا عبدالرحمان رأيتم رسول الله ﷺ بأعينكم هذه؟ قال: نعم. قال: طوبى لكم. فقال ابن عمر: ألا أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بلى. قال: سمعته يقول: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني» ثلاث مرّات(٢).

[٢٦٦/٢] وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني» سبع مرّات(٣).

[٢٦٧/٢] وأخرج الحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً «أنّ ناساً من أمّتي يأتون بعدي، يودّ أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

[٢٦٨/٢] أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: إقامة الصلاة، إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها(٥).

[٢٦٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال: المكتوبة الخمس يعني يقيمون ركوعها وسجودها في مواقيتها(٦).

---

(١) الدرّ ١: ٦٧؛ مسند أحمد ٣: ٧١، مسند أبي سعيد الخدري؛ ابن حبّان ١٦: ٢١٣ / ٧٢٣٠، باختلاف يسير؛ مجمع الزّوائد ١٠: ٦٧، كتاب المناقب، باب ما جاء في من آمن بالنبي ﷺ ولم يره.

(٢) الدرّ ١: ٦٧ ـ ٦٨؛ الطيالسي: ٢٥٢ ـ ٢٥٣ / ١٨٤٥؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٢٤٧ / ٧٦٩.

(٣) الدرّ ١: ٦٨؛ مسند أحمد ٣: ١٥٥، «مسند أنس بن مالك» بلفظ: «عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: طوبى لمن آمن بي ورآني، مرّة وطوبى لمن آمن بي ولم يرني، سبع مرّات» وأبو يعلى ٦: ١١٩ / ٣٣٩١، باختلاف يسير؛ الصغير ٢: ٣٤ / ٨٥٨، بلفظ: «... حدّثنا دينار بن عبدالله مولى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: طوبى لمن رآني ومن آمن بي ومن رأى من رآني»؛ مجمع الزّوائد ١٠: ٦٦ ـ ٦٧.

(٤) الدرّ ١: ٦٨؛ الحاكم ٤: ٨٥، كتاب معرفة الصحابة؛ الأوسط ٧: ٨٩ / ٦٩٣٨؛ الصغير ١: ٣٣٩ / ٢٢٢٤؛ كنزالعمّال ١٢: ١٦٤ / ٣٤٤٩٣.

(٥) الدرّ ١: ٦٨؛ الطبري ١: ١٥٣ / ٢٣٣.

(٦) تفسير مقاتل ١: ٨١.

[٢/٢٧٠] وقال مقاتل بن حيّان: إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور بها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهّد والصلاة على النّبيﷺ، فهذا إقامتها(١).

[٢/٢٧١] وقال أبو مسلم محمّدبن بحر: معنى ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: يُديمون أداء فرضها(٢).

[٢/٢٧٢] وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال: يقيمونها بفروضها. ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: يؤدّون الزكاة احتساباً لها(٣).

[٢/٢٧٣] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم و ابن اسحاق عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال: الصلوات الخمس. ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم(٤).

[٢/٢٧٤] وأخرج ابن جرير عن الضحّاك في قوله: ﴿الَّذينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال: يعني: الصلاة المفروضة(٥).

قوله تعالى: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

[٢/٢٧٥] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: يؤدّون الزكاة احتساباً لها(٦).

[٢/٢٧٦] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: من الأموال ﴿يُنفِقُونَ﴾ يعني الزكاة المفروضة نظيرها في لقمان(٧).

[٢/٢٧٧] وأخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم وابن إسحاق عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم(٨).

---

(١) ابن كثير ١: ٤٤ و ٢: ٢٩٨.

(٢) التبيان ١: ٥٦؛ مجمع البيان ١: ٨٥.

(٣) الدرّ ١: ٦٨؛ الطبري ١: ١٥٣ ـ ١٥٤ / ٢٣٢ و ٢٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٧ / ٧٤ و ٧٧.

(٤) الدرّ ١: ٦٨؛ الطبري ١: ١٥٤ / ٢٣٦. و ٦: ٢٣٩ / ١٢١٨٨، من سورة الأنفال، الآية: ٣.

(٥) الطبري ١: ١٥٣ / ٢٣٤.

(٦) الدرّ ١: ٦٨؛ الطبري ١: ١٥٤ / ٢٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٧ / ٧٧؛ التبيان ١: ٥٧، بلفظ: «حكي عن ابن عبّاس أنّها الزكاة المفروضة يؤتيها احتساباً».

(٧) تفسير مقاتل ١: ٨١.

(٨) الدرّ ١: ٦٨؛ الطبري ١: ١٥٤ / ٢٣٦.

[٢٧٨/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: أنفقوا في فرائض الله الّتي افترض الله عليهم، في طاعته وسبيله[١].

[٢٧٩/٢] وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: إنّما يعني الزكاة خاصّة، دون سائر النفقات. لايذكر الصلاة إلّا ذكر معها الزكاة، فإذا لم يسمّ الزكاة قال في إثر ذكر الصلاة: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢].

[٢٨٠/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحّاك في قوله: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: كانت النفقات قربات يتقرّبون إلى الله على قدر ميسورهم وجهدهم، حتّى نزلت فرائض الصدقات في سورة براءة. هنّ الناسخات المبيّنات[٣].

[٢٨١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: هي نفقة الرجل على أهله[٤].

[٢٨٢/٢] وروى أبو علي الطبرسي بالإسناد إلى محمّد بن مسلم عن الإمام جعفربن محمّد الصادق عليه السلام في قوله: ﴿وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، قال: «وممّا علّمناهم يبثّون»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

[٢٨٣/٢] قال عليّ بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: أي بما أُنزل من القرآن إليك وبما أُنزل على الأنبياء من قبلك من الكتب[٦].

[٢٨٤/٢] وعن الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام قال: «ثمّ وصف هؤلاء الّذين يقيمون الصلاة،

---

(١) الدرّ ١: ٦٨؛ البغوي ١: ٨٥.
(٢) الدرّ ١: ٦٨؛ البغوي ١: ٨٥.
(٣) الدرّ ١: ٦٨؛ الطبري ١: ١٥٤ / ٢٣٧؛ التبيان ١: ٥٧، بلفظ: «قال الضحاك: هو التطوّع بالنفقة فيما قرّب من الله»؛ أبو الفتوح ١: ١٠٧.
(٤) الدرّ ١: ٦٨؛ الطبري ١: ١٥٤ / ٢٣٨، بلفظ: «عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هي نفقة الرّجل على أهله وهذا قبل أن تنزل الزكاة»؛ التبيان ١: ٥٧؛ أبو الفتوح ١: ١٠٧.
(٥) مجمع البيان ١: ٨٦ـ٨٧.
(٦) البرهان ١: ١٣٢؛ القمي ١: ٣٢.

فقال: ﴿وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمّد! ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ على الأنبياء الماضين كالتوراة والإنجيل والزّبور وصحف إبراهيم وسائر كتب الله المنزلة على أنبيائه، بأنّها حقّ وصدق من عند ربّ العالمين العزيز الحكيم. ﴿وَ بِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بالدار الآخرة بعد هذه الدنيا يُوقنون لايشكّون فيها أنّها الدّار الّتي فيها جزاء الأعمال الصالحة بأفضل ممّا عملوا وعقاب الأعمال السيّئة بمثل ماكسبوا»[1].

[٢٨٥/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي يصدّقونك بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قبلك مِنَ المرسلين، لايفرّقون بينهم ولا يجحدون ما جاؤوهم به من عند ربّهم ﴿وَ بِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي بالبعث والقيامة والجنّة والنّار والحساب والميزان. أي لا هؤلاء الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاءك من ربّك.[2]

[٢٨٦/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قال: هو الفرقان الّذي فرق الله به بين الحقّ والباطل. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي الكتب الّتي قد خلت قبله ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال: استحقّوا الهدى والفلاح بحقّ، فأحقّه الله لهم. وهذا نعت أهل الإيمان، ثمّ نعت المشركين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآيتين[3].

[٢٨٧/٢] وعن أبي ذرّ قال: «قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزل الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفه، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان». الحديث أخرجه الحسين الآجريُّ وأبو حاتم البُستّي[4].

[٢٨٨/٢] وروي عن ابن عبّاس وعن مرّة الهَمْداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: أمّا الّذين يؤمنون بالغيب، فهم المؤمنون من العرب، والّذين يؤمنون بما أنزل إليك:

---

(١) تفسير الإمام: ٨٨: ٤٥؛ تأويل الآيات ١: ٣٣ / ٤.

(٢) الدرّ ١: ٦٩؛ الطبري ١: ١٥٥ ـ ١٥٦ / ٢٣٩ و ٢٤١؛ ابن أبي حاتم ١: ٣٨ / ٨٠ و ٨٢.

(٣) الدرّ ١: ٦٩؛ التبيان ١: ٥٨، قال قتادة: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: الكتب الماضية.

(٤) القرطبي ١: ١٨٠؛ الخصال: ٥٢٤ / ١٣؛ مجمع البيان ١٠: ٣٣٢.

المؤمنون من أهل الكتاب. ثمّ جمع الفريقين فقال: ﴿أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

قال الشيخ أبوجعفر الطوسي: وحملها على العموم في الفريقين، محكيّ عن ابن عبّاس وابن مسعود[٢].

[٢٨٩/٢] وقال ابن كثير: واختلف المفسّرون في الموصوفين هنا... على أقوال منها: أنّ الموصوفين أوّلاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كلّ مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم. قاله مجاهد وأبوالعالية والربيع بن أنس وقتادة[٣].

[٢٩٠/٢] وقال مقاتل بن سليمان: فهاتان الآيتان نزلتا في مؤمني أصحاب النبي ﷺ والمهاجرين، ثمّ ذكر مؤمني أهل التوراة: عبدالله بن سلام وأصحابه، منهم أُسَيد بن زيد، وأسد بن كعب، وسلام بن قيس، وثعلبة بن عمرو، وابن يامين واسمه سلام فقال: ﴿وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدّقون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمّد من القرآن أنّه من الله نزل ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ على الأنبياء يعني التوراة والإنجيل والزبور ﴿وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني يصدّقون بالبعث الّذي فيه جزاء الأعمال بأنّه كائن.

ثمّ جمعهم جميعاً فقال ـ سبحانه ـ: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

[٢٩١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود و عن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب[٥].

[٢٩٢/٢] وقال الشيخ أبو جعفر الطوسي: ويجوز أن يكون سمّيت (الآخرة) بذلك لتأخيرها عن الخلق، كما سمّيت الدنيا دنيا لدنوّها من الخلق؛ وإيقانهم ماجحده المشركون من البعث والنشور والحساب والعقاب. وروي ذلك عن ابن عبّاس[٦].

---

(١) الطبري ١: ١٥٦ / ٢٤٢؛ ابن كثير ١: ٤٧ و ٤٦.
(٢) التبيان ١: ٥٩.
(٣) ابن كثير ١: ٤٦.
(٤) تفسير مقاتل ١: ٨١ ـ ٨٤.
(٥) الطبري ١: ١٥٥ / ٢٤٠.
(٦) التبيان ١: ٥٨.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[٢٩٣/٢] روي عن الإمام العسكري ﷺ: أنّه قال: «ثمّ أخبر عن جلالة هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات الشريفة فقال: ﴿أُوْلَئِكَ﴾، أهل هذه الصفات، ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ بيان وصواب ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وعلم بما أمرهم به. ﴿وَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون ممّا منه يوجلون، الفائزون بما يؤمّلون.

قال: وجاء رجل إلى أمير المؤمنين ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين! إنّ بلالا كان يناظر اليوم فلاناً، فجعل يلحن في كلامه، وفلان يُعرب ويضحك من بلال!

فقال أمير المؤمنين ﷺ: يا عبدالله! إنّما يراد إعراب الكلام وتقويمه لتقويم الأعمال وتهذيبها، ماذا ينفع فلاناً إعرابه وتقويمه لكلامه، إذا كانت أفعاله ملحونة أقبح لحن؟ وما يضرّ بلالا لحنه في كلامه، إذا كانت أفعاله مقوّمة أحسن تقويم، مهذّبة أحسن تهذيب؟»[١]

[٢٩٤/٢] وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قال: أي على نور من ربّهم، واستقامة على ما جاءهم به[٢].

[٢٩٥/٢] وعن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال: أي الّذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شرّ ما منه هربوا[٣].

مسألة الهداية والتوفيق

لنا بحث عريض عن مسألة الهداية والتوفيق وعن مسألة الإضلال والخذلان، عرضناهما بتفصيل عند الكلام عن المتشابهات[٤] نقتطف منهما طرائف هنا بالمناسبة.

الهداية ـ في أصلها ـ: الدلالة على الشيء، كقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[٥]، أي دلّوهم عليه. غير أنّ أنحاء الدلالة تختلف حسب نوعيّتها ودرجتها في التأثير والإيصال إلى المطلوب. فمن دلّ غيره على طريق يؤدّي إلى مقصده فقد هداه، كما أنّ الّذي يأخذ بيده ويوصله إلى مطلوبه أيضاً هداه. وإن كان في النوع الأوّل قد يحتمل التيه والضلال، أمّا الثاني فلايكاد يحتمل الضلال بعد الحصول على المقصود.

---

(١) تفسير الإمام: ٩٠ ـ ٩١ / ٤٩.

(٢) الطبري ١: ١٥٨ / ٢٤٣؛ ابن كثير ١: ٤٧.

(٣) الطبري ١: ١٥٨ / ٢٤٤.

(٤) في الجزء الثالث من التمهيد.

(٥) الصافات ٣٧: ٢٣.

فقوله تعالى: ﴿وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[١]، هداية من النوع الأوّل. وقوله تعالى: ﴿وَ مَن يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾[٢]، هداية من النوع الثاني. وهكذا يختلف المعنى حسب اختلاف الموارد.

مراتب الهداية ودرجاتها

للهداية ـ حسب الاستعمال القرآني ـ مراتب و درجات، منها: فطريّة وأخرى: إرشاديّة، وثالثة: فيضيّة (إلهام وعناية ربّانية)، وتنتهي إلى عصمة إلّهيّة خُصّ بها الربّانيّون من أنبياء وأولياء مقرّبين. نلخّصها حسب التالي:

المرتبة الأُولى: هداية فطريّة مرتكزة في جبلّة الأشياء من حيوان ونبات وجماد، فضلاً عن الإنسان.. إذ ما من موجود وهو يهتدي ـ اهتداءً ذاتيّاً ـ إلى ما يلائمه من صلاح أو ينافره من فساد، فينجذب إليه انجذابا ذاتيّاً، أو ينفر منه نفاراً حسب طبعه وذاته. وذلك بدافع فطرته التي جبله الله عليها، ليستقيم الحياة ويستتبّ أمر النظام، في أحسن وجه وأكمل هندام.

﴿رَبُّنَا الَّذي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٣]. ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٤] الأمر الّذي نلمسه بوضوح في نظام الكون من غير تحوير أو تغيير. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٥]. وهو النظام الكوني السائد على المخلوق كلّه، سنّة الله الّتي جرت في الخلق ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[٦].

المرتبة الثانية: قدرة تفكيريّة جبّارة (العقل) ركّبها الله تعالى في الإنسان، ليمتاز على سائر الحيوان وليستطيع التغلّب على طاقات الأرض والسّماء فيسخّرها في سبيل منافعه في الحياة.. ﴿وَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٧]، أي جعلكم بحيث تستخدمونها في مآربكم.

هذا مايعود إلى جانب المادّيّات من حياة البشر، وأمّا جانب معنويّاته ـ التي تتبلور فيها حياته الإنسانيّة العليا ـ فقد منحه الله قدرة إدراك خارقة، يميّز بين الخير والشّر تمييزاً ذاتيّاً، كما يميّز بين

---

(١) فصلت ٤١: ١٧.
(٢) الزمر ٣٩: ٣٧.
(٣) طه ٢٠: ٥٠.
(٤) الأعلى ٨٧: ٣.
(٥) الأنبياء ٢١: ٣٣.
(٦) فاطر ٣٥: ٤٣.
(٧) الجاثية ٤٥: ١٣.

النافع والضارّ والصلاح والفساد، في بداهة عقله الرشيد المفطور عليها. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(١). هدايةً في فطرته وجبلّته التي خلقه الله عليها. ومن ثمّ جاء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام: أنّ العقل رسول باطني(٢)، وأنّ الرسل والأنبياء جاؤوا ليثيروا دفائن العقول(٣).

[٢٩٦/٢] جاء في حديث الإمام الكاظم عليه السلام: «إنّ لله على الناس حجّتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام وأمّا الباطنة فالعقول»(٤).

المرتبة الثالثة: نصب الدلائل وبعث الرسل، وإنزال الكتب والشرائع، هداية تشريعيّة لائحة جاءت لتؤيّد وتثير تلك الهداية الكامنة في مطاوي العقول.

وهذه الأنحاء الثلاثة من الهداية (الفطرة. العقل. الشريعة) جاءت عامّة وشاملة كلّ طوائف الناس وجميع الأمم من ولد آدم على الإطلاق.. وبهذا المعنى (الهدايات الثلاث العامّة) جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا﴾ بالإجابة والعمل ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بالإعراض والتولّي(٥).

أي أوفينا له سبل الاهتداء إلى الصواب، شكر أم كفر، إذ لا جبر في التكليف، إنّما هو إراءة طريق، سلكه أم لم يسلكه، كلّ ذلك باختياره في الرفض والقبول.. ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(٦)، أي يجعلهم على وضح الحقّ لا غبار عليه، فإن استسلموا فعن وعي صادق، وإن نفروا فعن غبن فاحش، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(٧).

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٨).

المرتبة الرابعة: توفيق رحماني وتسديد للخُطَى نحو الصواب، عناية ربانيّة خاصّة بأولئك الّذين ثبتوا على الحقّ والتزموا النهج المستقيم، ولم يحيدوا عن هدي الفطرة ونور العقل وإرشادات الشرع الحنيف. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا

(١) البلد ٩٠: ٨ـ ١٠.
(٢) الكافي ١: ١٣ ـ ١٦ في حديث الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.
(٣) كما في خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رقم ١.
(٤) الكافي ١: ١٦/ ١٢.
(٥) الإنسان ٧٦: ٣.
(٦) الأحزاب ٣٣: ٤.
(٧) البقرة ٢: ٢٥٦.
(٨) المائدة ٥: ١٥ ـ ١٦.

بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ﴾[١].

هذا هو التوفيق الإلّهي يخصّ أولئك الّذين صمدوا على الحقّ واستسلموا لقيادته الرشيدة. فوافتهم العناية الربّانيّة الكريمة.

والتوفيق: تمهيد الأسباب نحو المطلوب الخير.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ ءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[٢]. فيما أنّهم اهتدوا، أي سلكوا سبل السلام سعياً وراء الاهتداء إلى الحقّ وسعادة الحياة، زادهم الله هدىً، أي أنار لهم الدرب اللائح وكشف عنهم الظلام.

وآتاهم تقواهم، أي منحهم بصيرة في الدين وعلماً في يقين، فلا يضلّوا ولا يفوتهم نهج الصواب. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣]. فلا يضلّوا الطريق ما رافقهم الدليل الخبير.

أمّا الّذين عاكسوا الفطرة وأغفلوا نور العقل ونبذوا دلائل الشرع، فهم في الحقيقة عاكسوا حظّهم وظلموا بأنفسهم واستبدلوا الشقاء بالسعادة، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا وخسروا خسراناً مبيناً. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى . وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[٤].

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٥].

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[٦].

فذلك المنح، وهذا المنع، كلٌّ عن علّة مقتضية وعن حكمة في الخلق والتدبير، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٧]. فيضلّ أي يخذل من

---

(١) فصّلت ٤١: ٣٠ ـ ٣١.
(٢) سورة محمّد ٤٧: ١٧.
(٣) العنكبوت ٢٩: ٦٩.
(٤) طه ٢٠: ١٢٤ ـ ١٢٧.
(٥) آل عمران ٣: ٨٦.
(٦) الزمر ٣٩: ٣.
(٧) إبراهيم ١٤: ٤.

أعرض ونأى بجانبه. ويهدي من أقبل واستهدى. والله عزيز أي غالب على أمره، حكيم في فعاله.

المرتبة الخامسة: وهي الغاية القصوى بل المثل الأعلى للكمال الإنساني الرفيع، هي بلوغ مرتبة العصمة، تعصم صاحبها عن الخطل والزلل وعن الخطأ والانحراف.

والعصمة: بصيرة ذاتيّة حاصلة من قوّة الإيمان وشدّة الثقة بالله العظيم. وعبّر عنها القرآن بالحكمة (قدرة إيمانيّة واعية) يمنحها الله من يشاء من عباده المصطفين الأخيار. ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[١]. وليست الحكمة سوى بصيرة في الدين وعلم في يقين، بحيث يرى الحَسَنَ حَسَناً في ذاته، والقبيح قبيحاً في ذاته. رؤية علم و يقين لا غبار عليه.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾[٢]. والماء الغَدَق هو العلم الغزير، أي الحكمة الواسعة، والّتي هي أساس العصمة الربّانيّة يمنحها لعباده المخلَصين.. بما أخلصوا لله الطاعة واجتهدوا في العبادة والاستسلام لله ربّ العالمين.

* * *

وبعد فقد كانت درجات الهداية الرحمانيّة متصاعدةً خمسة: الفطرة، العقل، الشريعة، التوفيق وفي النهاية: العصمة..

وهي مراتب متلاحقة يُتدرّج في الصعود إليها حتّى بلوغ قمّة الكمال.

ولكلّ هذه المراتب مراحل، يقضيها السالك إلى الله سيراً حثيثاً، وفي ظلّ ولاية الله الفارهة. ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٣] فكلّ درجة يقضيها العبد، فقد خرج من ظلمة إلى نور.. ظلمة نسبيّة حسب درجات نوريّة متصاعدة.

أمّا المعاكس في انتهاج طريقة الهدى، فيتقهقر خلفياً من نور إلى الظلمة، وهكذا حتّى دركات الهاوية. ﴿وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٤].

ومن ثمّ فالذين اتّقوا كانوا على هدىً من ربّهم وأولئك هم المفلحون في نهاية المطاف.

---

(١) البقرة ٢: ٢٦٩.
(٢) الجنّ ٧٢: ١٦.
(٣) البقرة ٢: ٢٥٧.
(٤) البقرة ٢: ٢٥٧.

قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

هؤلاء هم الفريق الثاني ـ ممّن وصفهم القرآن ـ كانوا وقفوا تجاه دعوة الإسلام وقفة جحود وإنكار، ورفضوا الاستسلام للحقّ الصراح، لابرهان لهم[1] سوى اللجاج والعناد. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2].

ومن ثمّ لم ينفعهم الإنذار والتخويف بعد وقفتهم تلك المعاندة الغشومة، وقد عبّر القرآن عن حالتهم تلك التعنّتيّة بالختم والطبع على القلوب والأسماع. والغشاوة على الأبصار. بما أصرّوا على اللّجاج واستكبروا استكباراً[3].

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4].

نعم بشّره في هذه الدنيا بعذاب أليم، يكابد الأمرين، مغبّة حياده عن مسيرة الفطرة وإعراضه عن إيحاءات العقل الرشيد، إلى جنب رفضه القاسي لتعاليم وحي السماء. وكلّ ذلك يخالف فطرته وعقله وشعوره الإنساني النبيل، فكيف وهو يعالج الألم في ضميره من هياج عارم آخذ بأطراف وجوده في الحياة!

إنّ النوافذ المفتوحة في أرواح المتّقين، والوشائج الّتي تربطهم بالوجود وبخالق الوجود، والظاهر والباطن والغيب والشهود. إنّ هذه النوافذ المفتّحة كلّها هناك، مُغلّقه كلّها هنا. وإنّ الوشائج الموصولة كلّها هناك، مقطوعة كلّها هنا.

---

(١) المؤمنون ٢٣: ١٧. (٢) النمل ٢٧: ١٤.

(٣) فيما ذكره تعالى عن قوم نوح: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ (نوح ٧١: ٧).

(٤) الجاثية ٤٥: ٦ ـ ٧.

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، فلاتصل إليها حقيقة من الهدى ولا صدىً.

﴿وَ عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فلا نور يوصوص لها ولاضياء، فقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغُشي على أبصارهم، جزاءً وفاقاً على استهتارهم بالإنذار، حتّى تساوى لديهم الإنذار وعدم الإنذار، بل ومعاكسة طبيعيّة لسوء تدبّرهم وسوء تصرّفهم في هذه الحياة. ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

إنّها صورة صَلْدة، مُظلمة، جامدة، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة، حركة الختم على القلوب والأسماع، والتغشية على العيون والأبصار.

﴿وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وهي النهاية الطبيعيّة للكفر العنيد، الّذي لايستجيب للنذير، والّذي يستوي عنده الإنذار وعدم الإنذار، كما علم الله من طبعهم المطموس المغمور.

* * *

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: نزلت في أبي جهل وفي خمسة من قومه من قادة الأحزاب، قتلوا يوم بدر(٢)، في قول الربيع بن أنس. واختاره البلخيّ والمغربيّ. وقال ابن عبّاس: نزلت في قومٍ بأعيانهم من أحبار اليهود، ذكرهم بأشخاصهم(٣) من اليهود حول المدينة. وقال قوم نزلت في مشركي العرب. واختار الطبري قول ابن عبّاس(٤).

قال الشيخ: والّذي نقوله: إنّه لابدّ أن تكون الآية مخصوصة، لأنّ حملها على العموم غير ممكن، لأنّا علمنا أنّ في الكفّار من يؤمن، فلايمكن العموم. وأمّا القطع على واحد ممّا قالوه فلا دليل عليه، ويجب تجويز كلّ واحد من هذه الأقوال(٥).

وقال سيّدنا الأستاذ العلّامة الطباطبائي: هؤلاء قوم ثبتوا على الكفر وقد تمكّن الجحود من قلوبهم. و من ثمّ جاء وصفهم بمساواة الإنذار وعدمه فيهم. ولايبعد أن يكون المراد من هؤلاء الّذين

---

(١) الصفّ ٦١: ٥.

(٢) سوى نفرين استسلما فيما بعد: أبو سفيان والحكم بن أبي العاص (الدرّ ١: ٢٩).

(٣) راجع: الطبري (١: ١٥٩ / ٢٤٥ و ٢٤٦).

(٤) وهو ما رواه عكرمة أو سعيدبن جبير عن ابن عبّاس: أنّها نزلت في اليهود الّذين كانوا في نواحي المدينة.

(٥) التبيان ١: ٦٠.

كفروا، هم الكفّار من صناديد قريش وكبراء مكّة الّذين عاندوا ولجّوا في رفض الدين ولم يألوا جهداً في معارضته ولم يؤمنوا حتّى أفناهم الله عن آخرهم في بدر وغيره.

قال: ويؤيّده أنّ هذا التعبير لايمكن استطراده بشأن جميع الكفّار، وإلّا لانسدّ باب الهداية. فالأشبه أن يكون المراد ـ في مثل هذا التعبير في سائر الموارد أيضاً ـ كفّار مكّة ممّن جاحدوا الحقّ وقابلوا الدعوة حتّى آخر حياتهم(١).

* * *

وإليك ما ورد من الروايات بهذا الشأن:

[٢٩٧/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير واللالكائيّ في السنّة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ونحو هذا من القرآن قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس، ويتابعوه(٢) على الهدى، فأخبره الله أنّه لايؤمن إلّا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأوّل، ولا يضلّ إلّا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأوّل(٣).

[٢٩٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عمرو قال: «قيل يا رسول الله إنّا نقرأ من القرآن فنرجو، ونقرأ فنكاد نيأس! فقال: ألا أخبركم عن أهل الجنّة وأهل النّار؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ﴿الم . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله ﴿المفلحون﴾ هؤلاء أهل الجنّة قالوا: إنّانرجو أن نكون هؤلاء. ثمّ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿عَظِيم﴾ هؤلاء أهل النّار. قلنا لسناهم يا رسول الله؟ قال: أجل»(٤).

---

(١) الميزان ١: ٥٠ ـ ٥٢.

(٢) في رواية البيهقي في الأسماء والصفات ١: ١٣٦ ـ ١٣٧ «ويبايعوه على الهدى».

(٣) الدرّ ١: ٧٢؛ الطبري ١: ١٥٩ ـ ١٦٠ / ٢٤٧، و ٧: ٢٢٤ / ١٣٨٥٦؛ الكبير ١٢: ١٩٧ / ١٣٠٢٥؛ الأسماء والصفات ١: ١٣٦ ـ ١٣٧؛ مجمع الزّوائد ٧: ٨٤ ـ ٨٥.

(٤) الدرّ ١: ٧٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٠ / ٩١. بلفظ: «عن عبدالله بن عمرو عن النّبي ﷺ قيل: يا رسول الله إنّا نقرأ من القرآن ←

[٢٩٩/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بما أُنزل إليك، وإن قالوا: إنّا قد آمنّا بما جاء من قبلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنّهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق لك، فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم ممّا جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتخويفاً، وقد كفروا بما عندهم من نعتك ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ أي عن الهدى أن يصيبوه أبداً بغير ما كذّبوا به من الحقّ الّذي جاءك من ربّك، حتّى يؤمنوا به، وإن آمنوا بكلّ ما كان قبلك، ﴿ولهم﴾ بما هم عليه من خلافك ﴿عَذابٌ عَظِيم﴾ فهذا في الأحبار من اليهود(١).

[٣٠٠/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب، وهم الّذين ذكرهم الله في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾(٢). قال: فهم الّذين قتلوا يوم بدر، ولم يدخل من القادة أحد في الإسلام إلّا رجلان: أبو سفيان والحكم بن أبي العاص(٣).

[٣٠١/٢] وأخرج الثعلبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن الكلبي قال: يعني اليهود(٤).

[٣٠٢/٢] وأخرج عن الضحّاك قال: نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته(٥).

← فنرجو، ونقرأ فنكاد أن نأيس، فقال: ألا أخبركم؟ ثمّ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاء أهل النار. قالوا: لسنا منهم يا رسول الله؟ قال: أجل»؛ ابن كثير ١: ٤٨.

(١) الدرّ ١: ٧٢؛ الطبري ١: ١٥٩ / ٢٤٥، إلى قوله: «جاء من قبلك». و١٦٣ / ٢٤٩، إلى قوله: «نعتك» و ١٦٨ / ٢٥٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٠ و ٤١ / ٩٢ و ٩٤.

(٢) إبراهيم ١٤: ٢٨.

(٣) الدرّ ١: ٧٢ ـ ٧٣؛ الطبري ١: ١٦٠ و ١٦٨ / ٢٤٨، عن الربيع بن أنس، إلى قوله: «يوم بدر»؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٠ / ٩٣، بلفظ: «عن أبي العالية: قال: آيتان في قادة الأحزاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: هم الّذين ذكرهم الله في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾؛ ابن كثير ١: ٤٨، باختصار.

(٤) الثعلبي ١: ١٤٩.

(٥) المصدر.

[٣٠٣/٢] وأخرج ابن المنذر عن السّدّي في قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ قال: وعظتهم أم لم تعظهم[١].

[٣٠٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: يعني لا يصدّقون[٢].

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾

[٣٠٥/٢] روى الصدوق بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله ـ عزّوجلّ ـ: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ قال: الختم هو الطبع على قلوب الكفّار، عقوبةً على كفرهم، كما قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٣].[٤].

[٣٠٦/٢] وأخرج الطستيّ في مسائله عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، قال: طبع الله عليها، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت الأعشى وهو يقول:

وَصَهْبَاءَ طَافَ يَهُودِيُّهَا فَأَبْرَزَهَا وَعَلَيْهَا خُتُم[٥]

[٣٠٧/٢] وقال السدّي في قوله: ﴿خَتَمَ اللهُ﴾ أي: طبع الله[٦].

[٣٠٨/٢] وقال مجاهد: نبئت أنّ الذّنوب على القلب تحفّ به من نواحيه حتّى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم. قال ابن جريج الختم: ختم على القلب والسمع[٧].

---

(١) الدرّ ١: ٧٣. (٢) تفسير مقاتل ١: ٨٨.

(٣) النساء ٤: ١٥٥.

(٤) عيون أخبار الرّضا عليه السلام ١: ١١٣ / ١٦، باب ٣٤؛ الاحتجاج ٢: ١٩٧؛ البحار ٥: ١١ و ٢٠١.

(٥) الدرّ ١: ٧٣. والبيت في ديوانه: ٣٥.

(٦) ابن كثير ١: ٤٨.

(٧) الطبري ١: ١٦٤ / ٢٥٢؛ ابن كثير ١: ٤٨، بلفظ: «قال مجاهد: الطبع ثبتت الذّنوب على القلب فحفّت به من كلّ نواحيه حتّى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم».

[٣٠٩/٢] وعن ابن جُريج قال: حدّثني عبدالله بن كثير أنّه سمع مجاهداً يقول: الرّان أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشدّ ذلك كلّه[1].

[٣١٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُرَيج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر. قال الله تعالى ذكره: ﴿فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2] وقال: ﴿وَ خَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[3].[4].

[٣١١/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في الآية قال: الختم على قلوبهم وعلى سمعهم، والغشاوة على أبصارهم[5].

[٣١٢/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون[6].

[٣١٣/٢] وقال الطبرسي: قيل في معنى الختم وجوه... منها: أنّ المراد بذلك أنّه تعالى ذمّهم بأنّها كالمختوم عليها، في أنّه لايدخلها الإيمان ولايخرج عنها الكفر. عن الأصمّ وأبي مسلم الأصفهاني[7].

[٣١٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ فلا يعقلون ولا يسمعون، وجعل على أبصارهم، قال: أعينهم ﴿غشاوة﴾ فلا يُبصرون[8].

[٣١٥/٢] وقال القرطبي: فالختم على القلوب عدم الوعي عن الحقّ ـ سبحانه ـ مفهوم

---

(١) الطبري ١: ١٦٤ / ٢٥٣؛ ابن كثير ١: ٤٨؛ التبيان ١: ٦٤، وفيه: «الرّين» بدل «الرّان».

(٢) الشورى ٤٢: ٢٤.

(٣) الجاثية ٤٥: ٢٣.

(٤) الطبري ١: ١٦٧ / ٢٥٦؛ ابن كثير ١: ٤٩.

(٥) الدرّ ١: ٧٣؛ الطبري ١: ١٦٦ / ٢٥٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٤١ ـ ٤٢ / ١٠٠، بلفظ: «عن ابن عبّاس: في قوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾: والغشاوة على أبصارهم».

(٦) الدُرّ ١: ٧٣؛ ابن كثير ١: ٤٨، باختلاف يسير.

(٧) مجمع البيان ١: ٩٦ ـ ٩٧؛ التبيان ١: ٦٣، مع عدم ذكر الراوي.

(٨) الدرّ ١: ٧٣؛ الطبري ١: ١٦٨ / ٢٥٨، نقلاً عن ابن مسعود و عن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ.

مخاطباته والفكر في آياته. وعلى السمع: عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيّته. وعلى الأبصار: عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته؛ هذا معنى قول ابن عبّاس وابن مسعود وقتادة وغيرهم[١].

[٣١٦/٢] وعن الأعمش قال: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أنّ القلب في مثل هذا، يعني الكفّ، فإذا أذنب العبد ذنباً ضمّ منه وقال بأصبعه الخنصر هكذا؛ فإذا أذنب ضمّ. وقال بأصبع أخرى: فاذا أذنب ضمّ وقال بأصبع أخرى، هكذا حتّى ضمّ أصابعه كلّها. قال: ثمّ يطبع عليه بطابع. قال مجاهد: وكانوا يرون أنّ ذلك الرَّين[٢].

[٣١٧/٢] وأخرج الطبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِلَ قلبُه، فإن زاد زادت حتّى يُغْلَفَ قلبه، فذلك الرّان الّذي قال الله جلّ ثناؤه: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[٣][٤].

[٣١٨/٢] وأخرج سعيدبن منصور عن الحسن وأبي رجاء، قرأ أحدهما «غُشَاوة» والآخر «غَشْوة»[٥].

[٣١٩/٢] وعن ابن عبّاس: ولهم، بما هم عليه من خلافك، عذاب عظيم، قال: فهذا في الأحبار من يهود فيما كذّبوك به من الحقّ الّذي جاءك من ربّك بعد معرفتهم[٦].

---

(١) القرطبي ١: ١٨٦.

(٢) الطبري ١: ١٦٤ / ٢٥٠، و: ٣٠ / ١٢٣ / ٢٨٣٨٣، سورة المطففين، الآية ١٤؛ القرطبي ١: ١٨٨، بلفظ: «قال مجاهد: القلب كالكفّ يقبض منه بكلّ ذنب أصبع ثمّ يطبع».

(٣) المطفّفين ٨٣: ١٤.

(٤) الطبري ١: ١٦٥ / ٢٥٤؛ القرطبي ١: ١٨٨، نقلاً عن الترمذي بلفظ: «روى الترمذي وصحّحه عن أبي هريرة: إنّ الرجل ليصيب الذنب فيسوّد قلبه، فإن هو تاب صُقل قلبه. قال: وهو الرّين الّذي ذكره الله في القرآن في قوله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ ابن كثير ١: ٤٩، وفيه «واستعتب» بدل «واستغفر»؛ مسند أحمد ٢: ٢٩٧، «مسند أبي هريرة» باختلاف يسير؛ ابن ماجة ٢: ١٤١٨ / ٤٢٤٤، كتاب الزّهد، باب ٢٩ (ذكر الذنوب)؛ الحاكم ١: ٥، كتاب الإيمان.

(٥) الدرّ ١: ٧٣؛ القرطبي ١: ١٩١؛ بلفظ: قرأ الحسن: «غشاوة بضمّ الغين»؛ التبيان ١: ٦٣؛ بلفظ: وعن الحسن: ضمّ الغين؛ مجمع البيان ١: ٩٤، بنحو ما رواه الشيخ في التبيان.

(٦) الطبري ١: ١٦٩ / ٢٦١؛ التبيان ١: ٦٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[٢/٣٢٠] أخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى أبي روق عن الضحّاك عن ابن عبّاس، في قوله: ﴿عذاب﴾، يقول: نكال.

[٢/٣٢١] وبإسناده إلى محمّد بن مزاحم عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيّان، في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: عذاب وافر[١].

[٢/٣٢٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني طبع الله على قلوبهم فهم لايعقلون الهدى ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ يعني آذانهم فلايسمعون الهدى. ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ يعني غطاء فلايبصرون الهدى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني وافر لا انقطاع له. نزلت هاتان الآيتان في مشركي العرب، منهم شيبة وعُتبة ابنا ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام ـ اسمه عمرو ـ، وعبدالله بن أبي أميّة، وأميّة بن خلف، وعمروبن وهب، والعاص بن وائل، والحارث بن عمرو، والنضر بن الحارث، وعديّ بن مطعم بن عديّ، وعامر بن خالد، أبو البحتري ابن هشام[٢].

وجوه الكفر

عقد أبو جعفر الكليني باباً في الكافي الشريف لبيان وجوه الكفر على ما ورد في أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام وهو:

[٢/٣٢٣] ما رواه بإسناده عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله ـ عزّوجلّ ـ قال: «الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه:

فمنها كفر الجُحود، والجحود على وجهين؛ والكفر بترك ما أمر الله؛ وكفر البراءة؛ وكفر النعم.

فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالرُّبوبيّة وهو قول من يقول: لاربّ ولا جنّة ولا نار، وهو قول صنفين من الزّنادقة يقال لهم: الدّهريّة وهم الّذين يقولون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان على غير تثبّت منهم ولا تحقيق لشيء ممّا يقولون، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ

(١) ابن أبي حاتم ١: ٤٢/ ١٠٢-١٠٣.

(٢) تفسير مقاتل ١: ٨٨.

هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1] أنَّ ذلك كما يقولون وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] يعني بتوحيد الله تعالى فهذا أحد وجوه الكفر.

وأمّا الوجه الآخر من الجحود على معرفة فهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حقٌّ قد استقرَّ عنده، وقد قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[3] وقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4] فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث من الكفر كفر النعم، وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان ﷺ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[5] وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[6] وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[7].

والوجه الرابع من الكفر، ترك ما أمر الله ـ عزَّوجلَّ ـ به وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾[8] فكفّرهم بترك ما أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[9].

---

(١) الجاثية ٤٥: ٢٣.
(٢) البقرة ٢: ٦.
(٣) النمل ٢٧: ١٤.
(٤) البقرة ٢: ٨٩.
(٥) النمل ٢٧: ٤٠.
(٦) إبراهيم ١٤: ٧.
(٧) البقرة ٢: ١٥٢.
(٨) البقرة ٢: ٨٤-٨٥. وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي بالميثاق. وقوله: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أي تعاونون.
(٩) البقرة ٢: ٨٥.

والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة، وذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ يحكي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[١]. يعني تبرّأنا منكم، وقال يذكر إبليس وتبرئته من أوليائه من الإنس يوم القيامة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[٢] وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[٣] يعني يتبرّأ بعضكم من بعض».[٤]

دعائم الكفر وشعبه

[٣٢٤/٢] وروى بإسناده عن أبان بن أبي عيّاش، عن سليم بن قيس الهلالي، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال: «بني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلوّ والشكّ والشبهة.

والفسق على أربع شعب: على الجفاء والعمى والغفلة والعتوّ.

فمن جفا احتقر الحقّ[٥] ومقت الفقهاء وأصرّ على الحنث العظيم.

ومن عمي نسي الذكر واتّبع الظنّ وبارز خالقه، وألحّ عليه الشّيطان، وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة.

ومن غفل جنى على نفسه وانقلب على ظهره وحسب غيّه رشداً، وغرّته الأمانيّ؛ وأخذته الحسرة والنّدامة، إذا قضي الأمر وانكشف عنه الغطاء وبدا له مالم يكن يحتسب.

ومن عتا عن أمر الله شكّ ومن شكّ تعالى الله عليه[٦] فأذلّه بسلطانه وصغّره بجلاله كما اغترّ بربّه الكريم وفرّط في أمره[٧].

والغلوّ على أربع شعب: على التعمّق بالرّأي، والتنازع فيه، والزّيغ، والشقاق.

---

(١) الممتحنة ٦٠: ٤.

(٢) إبراهيم ١٤: ٢٢.

(٣) العنكبوت ٢٩: ٢٥.

(٤) الكافي ٢: ٣٨٩ـ٣٩١ / ١.

(٥) وفي بعض النسخ «احتقر الخلق».

(٦) تعالى الله عليه: أي استولى الله عليه وأذلّه بتمكّنه وقدرته.

(٧) أي قصّر في طاعته.

فمن تعمّق[١] لم ينب إلى الحقّ ولم يزدد إلّا غرقاً في الغمرات[٢]. ولم تنحسر عنه فتنة إلّا غشيته أُخرى، وانخرق دينه فهو يهوى في أمر مريج[٣].

ومن نازع في الرّأي وخاصم شهر بالعثل[٤] من طول اللّجاج.

ومن زاغ قبحت عنده الحسنة وحسنت عنده السيّئة.

ومن شاقّ[٥] اعورّت عليه طرقه واعترض عليه أمره، فضاق عليه مخرجه إذا لم يتّبع سبيل المؤمنين.

والشكُّ على أربع شعب: على المرية، والهوى، والتردُّد، والاستسلام[٦] وهو قول الله عزَّوجلَّ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾[٧].

وفي رواية أُخرى: على المرية، والهول من الحقّ، والتردُّد، والاستسلام للجهل وأهله.

فمن هاله مابين يديه نكص على عقبيه[٨]، ومن امترى في الدّين تردَّد في الرَّيب[٩]، وسبقه

---

(١) أي التعمّق في الباطل وطلب أقصى غايته بالرأي والقياس. وقوله: «والتنازع فيه» أي مخاصمة الحقّ بالرأي الباطل. والزيغ أي الميل عن الحقّ إلى الباطل. والشقاق: المخالفة الشديدة مع أهل الحقّ. وقوله: «لم ينب» أي لم يرجع. وفي بعض النسخ «لم يتب».

(٢) الغمرة: معظم الماء، مثل للجهالة الّتي يغمر صاحبها، والانحسار الانكشاف.

(٣) قال الرّاغب: أصل المرج: الخلط. والمرج الاختلاط، يقال: أمرهم مريج أي مختلط وقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي مضطرب.

(٤) العثل: الحمق. وفي أكثر النسخ «بالفشل» بالفاء والشين وهو الضعف والجبن.

(٥) أي عارض ونازع أهل الدين والإمام المبين. وقوله: «اعورّت» أي صارت أعور، لا علم لها فلا يهتدي سالكها. وفي بعض النسخ «أوعرت» أي صعبت.

(٦) المرية بالكسر والضم، الشك والجدل وماراه مماراة ومراء وامترى فيه وتمارى: شك. «والتردّد» أي بين الحقّ والباطل لأنّ الشّاك متردّد بينهما قد يختار هذا وقد يختار ذاك. والاستسلام: الانقياد لأنّ الشّاك واقف على الجهل مستسلم له.

(٧) النجم ٥٣: ٥٥. والممارات: المجادلة على مذهب الشك وشعبه.

(٨) الهول: الخوف من الحقّ وقوله: ﴿نكص﴾ أي رجع عمّا كان عليه.

(٩) أي تحيّر فيه لعدم النجاة منه.

الأوّلون من المؤمنين، وأدركه الآخرون، ووطأته سنابك الشيطان[1]، ومن استسلم لهـلكة الدُّنـيا والآخرة هلك فيما بينهما، ومن نجا من ذلك فمن فضل اليقين، ولم يخلق الله خلقاً أفضل من اليقين.

والشبهة على أربع شعب: إعجاب بالزّينة، وتسويل النـفس، وتأويـل العـوج، ولبس الحـقّ بالباطل، وذلك بأنّ الزّينة تُصدف عن البيّنة[2] وأنّ تسويل النفس تُقحم على الشهوة، وأنّ العـوج يميل بصاحبه ميلاً عظيماً، وأنّ اللّبس ظلمات بعضها فوق بعض. فذلك الكفر ودعائمه وشعبه»[3].

(١) السنبك كقنفذ: ضرب من العدو وطرف الحافر، وهو كناية عن استيلاء الشيطان وجنوده من الجنّ والإنس عليه.

(٢) أصدفه عنه: صرفه عنه.

(٣) الكافي ٢: ٣٩١ـ٣٩٣.

قال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

نزلت بشأن المنافقين وهم النمط الثالث من الناس، وقفوا وقفة المذبذبين تجاه الدعوة وحاولوا إخمادها بدساسهم الملتوية، وهيهات ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(١).

إنّها الصورة الثالثة، ليست في شفّافية الصورة الأُولى وسماحتها، ولا في عتامة الصورة الثانية وصفاقتها، ولكنّها تتلوّى في الحسّ، وتروغ من البصر، وتخفى وتبين. إنّها صورة المنافقين.

لقد كانت هذه صورة واقعة في المدينة حينذاك ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

---

(١) التوبة ٩: ٣٢.
(٢) التوبة ٩: ١٠١.

ولكنّنا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان، نجدها نموذجاً مكروراً في أجيال البشريّة جميعاً. نجد هذا النوع من المنافقين من عُليّة النّاس[1] الّذين لايجدون في أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحقّ بالإيمان الصادق، أو يجدون في نفوسهم الجرأة ليواجهوا الحقّ بالإنكار الصريح، وهم في الوقت ذاته يتّخذون لأنفسهم مكان الترفّع على جماهير الناس، وعلى تصوّرهم للأمور!

وهؤلاء قد اضطرّتهم المقادير على الإخضاع للجوّ الساطي، ولو ظاهريّاً، فيدّعون الإيمان، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين، ولكنّهم يحاولون خداع المؤمنين، ويظنّون في أنفسهم الذُّكاء والدُّهاء والقُدرة على خداع هؤلاء البسطاء، ولكن القرآن يصف حقيقة فعلتهم، فهم لايخدعون المؤمنين، إنّما ينخدعون هم مغبّة غبائهم في تقدير الأمور.

﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يحاولون خداعهم في سفاهة من الرأي.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، إنّهم في غفلة بحيث لايشعرون أنّهم فضحوا أنفسهم وسُقطوا في أيديهم، ويحسبون أنّهم الظافرون.

وفي هذا النصّ وأمثاله ـ في القرآن ـ تقرير فخيم عن حقيقة كبيرة، هي أكبر دعامة يستند إليها المؤمنون طول حياتهم الإيمانية وطول مكافحتهم ضدّ الباطل. وهي حقيقة الصلة بين الله وبين المؤمنين حقّاً. إنّه يجعل صفّهم صفّه، وأمرهم أمره، وشأنهم شأنه. يضمّهم سبحانه إليه، ويأخذهم في كنفه، ويجعل عدوّهم عدوّه، وما يوجّه إليهم من مكر ودسائس، فهو موجّه إليه تعالى في حقيقته.

وهذا هو التفضّل العلويّ الكريم، التفضّل الّذي يرفع مقام المؤمنين إلى ذاك المستوى الرفيع، والّذي يوحي بأنّ حقيقة الإيمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق، والّذي يُفيض على قلب المؤمن طمأنينة لاحدّ لها، وهو يرى ربّه الكريم يجعل قضيّته هي قضيّته، ومعركته هي معركته، ويأخذه في صفّه ويرفعه إلى جواره الكريم.. فماذا يكون العبيد وكيدهم الحقير!

وهو في ذات الوقت تهديد رعيب للّذين يحاولون المراوغة مع المؤمنين وإيقاع الكيد بهم. تهديد بأنّ معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم، إنّما هي مع الله المقتدر الجبّار القهّار ذي القوّة المتين. وأنّهم إنّما يحاربون الله ـ علانية ـ حين يحاربون أولياءه ـ مراوغة ـ وإنّما يتصدّون لنقمة الله حين يحاولون هذه المحاولة اللئيمة.

---

(١) أي من طبقة الأشراف فيما حسبوا.

قال سيّد قطب: وهذه الحقيقة من جانبها جديرة بأن يتدبّرها المؤمنون ويثبتوا ويمضوا في طريقهم، لايبالون كيد الكائدين، ولا خداع الخادعين، ويتدبّرها أعداء المؤمنين، فيفزعوا ويرتاعوا من الّذي يحاربونه ويتصدّون لنقمته حين يتصدّون للمؤمنين(١).

* * *

[٣٢٥/٢] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المنافقين من الأوس والخزرج، ومن كان على أمرهم(٢).

[٣٢٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ رجع إلى المنافقين فقال ـعزّ وجلّ ـ: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يعني صدّقنا بالله بأنّه واحد لاشريك له وصدّقنا بالبعث الّذي فيه جزاء الأعمال بأنّه كائن فكذّبهم الله ـعزّ وجلّ ـ فقال: ﴿وَ مَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بمصدّقين بالتوحيد ولا بالبعث الّذي فيه جزاء الأعمال(٣).

[٣٢٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَ مَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ قال: المراد بهذه الآية: المنافقون(٤).

[٣٢٨/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: إنّها نزلت في قوم منافقين أظهروا لرسول الله ﷺ الإسلام، فكانوا إذا رأوا الكفّار قالوا: إنّا معكم وإذا لقوا المؤمنين قالوا: نحن مؤمنون، وكانوا يقولون للكفّار: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، فردّ الله عليهم: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٥).

[٣٢٩/٢] وأخرج عبدالرزّاق وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) الدرّ ١: ٧٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٢ / ١٠٤؛ الطبري ١: ١٦٩ / ٢٦٢، وقال: «وقد سُمّي في حديث ابن عبّاس هذا أسماؤهم عن أُبيّ بن كعب غير أنّي تركت تسميتهم كراهة إطالة الكتاب بذكرهم»؛ ابن كثير ١: ٥٠، وزاد: «وكذا فسّرها بالمنافقين من الأوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسّدّي»؛ التبيان ١: ٦٧.

(٣) تفسير مقاتل ١: ٨٩.

(٤) الدرّ ١: ٧٤؛ الطبري ١: ١٧٠ / ٢٦٥. نقلاً عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النّبي ﷺ.

(٥) القمّيّ ١: ٣٤؛ البحار ٩: ١٧٤ / ٣.

وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حتّى بلغ ﴿وَ مَاكَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1] قال: هذه في المنافقين[2].

[٣٣٠/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ـ إلى ـ ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: هؤلاء أهل النفاق[3].

[٣٣١/٢] وروى أسباط عن السدّي في قوله: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال: هم المنافقون[4].

[٣٣٢/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عبّاس. أن صدر سورة البقرة إلى المائة منها، هي في رجال سمّاهم بأعيانهم وأنسابهم من أحبار اليهود، ومن المنافقين من الأوس والخزرج[5].

[٣٣٣/٢] وأخرج ابن المنذر عن محمّد بن سيرين قال: لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[6].

[٣٣٤/٢] وأخرج عبد بن حميد عن يحيى بن عتيق قال: كان محمّد (ابن سيرين) يتلو هذه الآية عند ذكر الحجّاج ويقول: أنا لغير ذلك أخوف ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[7].

إلمامة بشأن النفاق والمنافق

[٣٣٥/٢] أخرج ابن سعد عن أبي يحيى قال سأل رجلٌ حذيفة وأنا عنده فقال: ما النفاق؟ قال: أن تتكلم باللّسان ولا تعمل به[8].

[٣٣٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُرَيج في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، قال: هذا المنافق، يخالف قولُه فعله، وسرُّه علانيتَه، ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه[9].

---

(١) البقرة ٢: ١٦.

(٢) الدرّ ١: ٧٤؛ عبدالرزّاق ١: ٢٥٩ / ١٧؛ الطبري ١: ١٧٠ / ٢٦٣.

(٣) الطبري ١: ١٧٠ / ٢٦٦.

(٤) القرطبي ١: ١٩٢.

(٥) الدرّ ١: ٧٤. الطبري ١: ١٥٩ / ٢٤٦.

(٦) الدرّ ١: ٧٤؛ صفة المنافق، لجعفر بن محمّد الفريابي: ٧٣.

(٧) الدرّ ١: ٧٤.

(٨) المصدر.

(٩) الطبري ١: ١٧٠ / ٢٦٧.

[٣٣٧/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ الآية. قال: هذا نعت المنافق، نعت عبداً خائن السريرة، كثير الأخلاف[1]، يعرف بلسانه، وينكر بقلبه، ويصدّق بلسانه، ويخالف بعمله، ويُصبح على حالٍ، ويُمسي على غيره، ويتكفّأ تكفؤ السفينة، كلّما هبّت ريح هبّ فيها[2].

[٣٣٨/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى الأَصبغ بن نُباتة قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام في حديث طويل: «والنفاق على أربع دعائم: على الهوى، والهوينا، والحفيظة، والطمع.

فالهوى على أربع شعب: على البغي، والعدوان، والشهوة، والطغيان، فمن بغى كثرت غوائله وعلّاته، ومن اعتدى لم تؤمن بوائقه، ولم يسلم قلبه. ومن لم يعزل نفسه عن الشهوات خاض في الخبيثات، ومن طغى ضلّ على غير يقين ولا حجّة له.

وشعب الهوينا: الهيبة والغرّة والمماطلة والأمل. وذلك لأنّ الهيبة تردّ عن دين الحق وتُفرّط المماطلةُ في العمل حتّى يَقْدُمَ الأجل. ولولا الأمل علم الإنسان حسب ماهو فيه، ولو علم حسب ما هو فيه مات من الهول والوجل.

وشعب الحفيظة الكبر، والفخر، والحميّة، والعصبيّة. فمن استكبر أدبر، ومن فخر فجر، ومن حمي أضرّ، ومن أخذته العصبيّة جار فبئس الأمر أمر بين الاستكبار والإدبار، وفجور وجور.

وشعب الطمع أربع: الفرح، والمرح، واللّجاجة، والتكاثر. فالفرح مكروه عند الله ـ عزّوجلّ ـ والمرح خُيَلاء، واللّجاجة بلاء لمن اضطرّته إلى حبائل الآثام، والتكاثر لهو وشغل، واستبدال الّذي هو أدنى بالّذي هو خير فذلك النفاق ودعائمه وشعبه»[3].

[٣٣٩/٢] ورواه الكليني عن طريق عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى عمر بن أذينة عن أبان بن أبي

---

(١) لعلّه جمع الخِلف ـ بكسر الخاء ـ بمعنى المختلف المتفاوت اللّون. او جمع الخُلف ـ بالضمّ ـ بمعنى: عدم التزامه بالوفاء بالعهد. وهو في المستقبل، كالكذب في الماضي. وفي بعض النسخ: كثير خَنْع الأخلاق، والخَنع: الفجور والغدر والذلّ.

(٢) الدرّ ١: ٧٤؛ زاد المسير ١: ٢٣.

(٣) الخصال: ٢٣٤ ـ ٢٣٥ / ٧٤، أبواب الأربعة؛ البحار ٦٩: ٩١.

عيّاش عن سليم بن قيس الهلالي عن الإمام أميرالمؤمنين ﷺ قال: «والنفاق على أربع دعائم: على الهوى، والهوينا، والحفيظة، والطمع[١].

فالهوى على أربع شعب: على البغي، والعدوان، والشهوة، والطغيان، فمن بغى كثرت غوائله وتخلّى منه وقصر عليه، ومن اعتدى لم يُؤمن بوائقه ولم يسلم قلبه ولم يملك نفسه عن الشهوات ومن لم يعدل نفسه في الشهوات خاض في الخبيثات ومن طغى ضلَّ على عمد بلا حجّة.

والهوينا على أربع شعب: على الغِرَّة، والأمل، والهيبة، والمماطلة، وذلك بأنَّ الهيبة تردُّ عن الحقّ، والمماطلة تفرّط في العمل حتّى يقدم عليه الأجل، ولولا الأمل علم الإنسان حسب ما هو فيه، ولو علم حسب ما هو فيه مات خُفاتاً من الهول والوجل، والغرَّة تقصّر بالمرء عن العمل.

والحفيظة على أربع شعب: على الكبر والفخر والحميّة[٢] والعصبيّة، فمن استكبر أدبر عن الحقّ ومن فخر فجر ومن حمي أصرّ على الذُّنوب ومن أخذته العصبيّة جار، فبئس الأمر أمر بين إدبار وفجور وإصرار وجور على الصراط.

والطمع على أربع شعب: الفرح، والمرح، واللّجاجة، والتّكاثر، فالفرح مكروهٌ عند الله، والمرح خيلاء، واللّجاجة بلاء لمن اضطرَّته إلى حمل الآثام، والتكاثر لهو ولعب وشغل واستبدال الّذي هو أدنى بالّذي هو خيرٌ.

فذلك النفاق ودعائمه وشعبه. والله قاهر فوق عباده تعالى ذكره وجلَّ وجهه وأحسن كلَّ شيء خلقه وانبسطت يداه ووسعت كلَّ شيء رحمته وظهر أمره وأشرق نوره وفاضت بركته واستضاءت حكمته وهيمن كتابه وفلجت حجّته وخلص دينه واستظهر سلطانه وحقّت كلمته وأقسطت موازينه وبلّغت رسله، فجعل السيّئة ذنباً والذَّنب فتنة والفتنة دنساً وجعل الحسنى عتبى والعتبى توبة

---

(١) الهوينا تصغير الهونى، تأنيت الأهون وهو من الهون: الرّفق واللين والتثبّت والمراد هنا: التهاون في أمر الدّين وترك الاهتمام فيه، والحفيظة: الغضب والحميّة.

(٢) قال الراغب: عُبّر عن القوّة الغضبيّة إذا ثارت وكثرت بالحميّة فقيل: حميت على فلان: أي غضبت عليه، قال تعالى: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾. الفتح ٤٨:٢٦. والعصبة: الأقارب من جهة الأب والعصبيّة حمايتهم والدفع عنهم، والتعصّب المحاماة والمدافعة وهي والحميّة من توابع الكبر وكان الفرق بينهما بأنّ الحميّة للنفس والعصبيّة للأقارب أو الحميّة للأهل والعصبيّة للأقارب.

والتوبة طهوراً، فمن تاب اهتدى، ومن افتتن غوى، ما لم يتب إلى الله ويعترف بذنبه ولا يهلك على الله إلّا هالك.

الله الله فما أوسع ما لديه من التوبة والرَّحمة والبشرى والحلم العظيم وما أنكل ما عنده من الأنكال والجحيم والبطش الشديد، فمن ظفر بطاعته اجتنب كرامته ومن دخل في معصيته ذاق وبال نقمته وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين»[1].

[٣٤٠/٢] وروى بالإسناد إلى محمّدبن الفضيل قال: كتبت إلى أبي الحسن ﷺ أسأله عن مسألة فكتب إليّ: «﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً . مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[2] ليسوا من الكافرين وليسوا من المؤمنين وليسوا من المسلمين، يظهرون الإيمان ويصيرون إلى الكفر والتكذيب لعنهم الله»[3].

[٣٤١/٢] وبالإسناد إلى أبي حمزة، عن عليّ بن الحسين صلوات الله عليهما قال: «إنَّ المنافق ينهى ولاينتهي ويأمر بما لا يأتي وإذا قام إلى الصّلاة اعترض ـ قلت: يا ابن رسول الله و ما الاعتراض؟ قال: الالتفات ـ وإذا ركع ربض[4]، يمسي وهمّه العشاء وهو مفطر ويصبح وهمّه النوم ولم يسهر، إن حدّثك كذبك وإن ائتمنته خانك وإن غبت اغتابك وإن وعدك أخلفك»[5].

[٣٤٢/٢] وبالإسناد إلى عبدالملك بن بحر، رفعه مثل ذلك ـ وزاد فيه ـ إذا ركع ربض وإذا سجد نقر وإذا جلس شغر[6] [7].

---

(١) الكافي ٢: ٣٩٣ ـ ٣٩٥ / ١.

(٢) النساء ٤: ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) المصدر: ٣٩٥ / ٢.

(٤) الربض بفتح الباء مأوى الغنم وكلّ ما يؤوى ويستراح إليه.

(٥) الكافي ٢: ٣٩٦ / ٣.

(٦) ذكره لبيان الزيادة وقوله: «إذا سجد نقر» أي خفّف السجود. و«إذا جلس شغر» قيل: أي أقعى كإقعاء الكلب. وقيل: أي رفع ساقيه من الأرض وقعد على عقبيه من شغر الكلب كمنع رفع أحد رجليه، بال أولم يبل. والأظهر أنّه إشارة إلى مايستحبه أكثر العامّة في التشهّد فإنّهم يجلسون على الورك الأيسر ويجعلون الرجل اليمنى فوق اليسرى ويقيمون القدم اليمنى بحيث يكون رؤوس الأصابع إلى القبلة وفي بعض النسخ «شفر» بالفاء وقيل: هو من التشفير بمعنى النقص.

(٧) الكافي ٢: ٣٩٦ / ٤.

[٣٤٣/٢] وبالإسناد إلى سعيد بن يسار، عن أبي عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق مثل جذع النخل أراد صاحبه أن ينتفع به في بعض بنائه فلم يستقم له في الموضع الّذي أراد، فحوّله في موضع آخر فلم يستقم له، فكان آخر ذلك أن أحرقه بالنّار»[١].

[٣٤٤/٢] وبالإسناد إلى مسمع بن عبدالملك، عن أبي عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مازاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»[٢].

[٣٤٥/٢] وبالإسناد عن السكونيّ عن أبي عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء كلُّ غادر ـ يوم القيامة ـ بإمام مائل شدقه[٣] حتّى يدخل النّار، ويجيء كلُّ ناكث بيعة إمام أجذم، حتّى يدخل النّار».

[٣٤٦/٢] وعنه عن أبي عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ، «ليس منّا من ماكر مسلماً».

[٣٤٧/٢] وعن طلحة بن زيد، عن أبي عبدالله ﷺ قال: سألته عن فريقين من أهل الحرب لكلّ واحد منهما ملك على حدة اقتتلوا ثمّ اصطلحوا، ثمّ إنَّ أحد الملكين غدر بصاحبه فجاء إلى المسلمين فصالحهم على أن يغزو معهم تلك المدينة؟ فقال أبو عبدالله ﷺ: «لاينبغي للمسلمين أن يغدروا ولا يأمروا بالغدر ولايقاتلوا مع الّذين غدروا، ولكنّهم يقاتلون المشركين حيث وجدوهم ولايجوز عليهم ما عاهد عليه الكفّار».

[٣٤٨/٢] وعن عبدالله بن الحسن عن أبي عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء كلُّ غادر بإمام يوم القيامة مائلاً شدقه حتّى يدخل النّار».

[٣٤٩/٢] وعن الأصبغ بن نباتة قال: قال أميرالمؤمنين ﷺ ذات يوم وهو يخطب على المنبر بالكوفة: «يا أيّها الناس لولا كراهيّة الغدر كنت من أدهى النّاس، ألا إنَّ لكلِّ غدرة فجرة ولكلّ فجرة كفرة[٤]، ألا وإنَّ الغدر والفجور والخيانة في النّار»[٥].

---

(١) المصدر / ٥.
(٢) المصدر / ٦.
(٣) الشِدق: زاوية الفم، أي متدلٍّ بفمه عن استرخاء في بدنه لشدّة هوله.
(٤) بالفتح فيهما.
(٥) الكافي ٢: ٣٣٦ـ٣٣٨ / ١ـ٦.

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

[٣٥٠/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ قال: يُظهرون لا إلّه إلّا الله، يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك[١].

[٣٥١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ قال: هؤلاء المنافقون، يخادعون الله ورسوله، والّذين آمنوا: أنّهم يؤمنون بما أظهروه. وعن قوله: ﴿وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ﴾؟ قال: ما يشعرون بأنّهم ضرّوا أنفسهم بما أسرّوا من الكفر والنفاق، ثمّ قرأ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾[٢] قال: هم المنافقون. حتّى بلغ قوله: ﴿وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[٣].[٤]

[٣٥٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ حين أظهروا الإيمان بمحمّد، وأسرّوا التكذيب ﴿وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ﴾: نزلت في منافقي أهل الكتاب اليهود، منهم عبدالله بن أبيّ بن سلول، وجدّ بن قيس، والحارث بن عمرو، ومغيث بن قُشير، وعمرو بن زيد، فخدعهم الله في الآخرة حين يقول في سورة الحديد: ﴿ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[٥]. فقال لهم استهزاء «بهم» كما استهزؤوا في الدنيا بالمؤمنين حين قالوا: آمنّا وليسوا بمؤمنين، وذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٦] أيضاً على الصراط حين يقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[٧]

[٣٥٣/٢] وقيل: في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ حذف، تقديره: يخادعون رسول الله ﷺ. عن الحسن وغيره[٨].

---

(١) الدرّ ١: ٧٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٢ / ١٠٧.
(٢) المجادلة ٥٨: ٦.
(٣) المجادلة ٥٨: ١٨.
(٤) الدرّ ١: ٧٥؛ الطبري ١: ١٧٣ / ٢٦٨ و: ١٧٥ ـ ١٧٦ / ٢٦٩.
(٥) الحديد ٥٧: ١٣.
(٦) النساء ٤: ١٤٢.
(٧) تفسير مقاتل ١: ٨٩.
(٨) القرطبي ١: ١٩٥؛ البغوي ١: ٨٧. بلفظ: قال الحسن: معناه يخادعون رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
←

ما ورد في ذمّ الرياء والخداع في الدين

[٢/٣٥٤] أخرج البيهقي في الشعب عن قيس بن سعد قال: لولا أنّي سمعت رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة في النار»، لكنت أمكر هذه الأمّة[1].

[٢/٣٥٥] وروى الصدوق بإسناده إلى مسعدة بن زياد عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ سُئل فيما النّجاة غداً؟ قال: «إنّما النّجاة في أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنّه من يُخادع الله يخدعه و يخلع منه الإيمان[2] ونفسه يخدع لو يشعر.

قيل له: وكيف يخادع الله؟ قال: يعمل ما أمر الله عزّ وجلّ، ثمّ يريد به غيره، فاتّقوا الله والرياء فإنّه الشرك بالله. إنّ المرائي يُدعىٰ يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك وبطل أجرك، فلا خلاص لك اليوم، فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له»[3].

[٢/٣٥٦] وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «واعلم أنّك لا تقدر على إخفاء شيء من باطنك عليه تعالى وتصيّره مخدوعاً بنفسك، قال الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾»[4].

[٢/٣٥٧] وأخرج أحمد بن منيع في مسنده عن رجل من الصحابة: أنّ قائلا من المسلمين قال: «يا رسول الله ما النّجاة غداً؟ قال: لا تخادع الله! قال: وكيف نخادع الله؟ قال: أن تعمل بما أمرك به تريد به غيره. فاتّقوا الرياء فإنّه الشرك بالله، فإنّ المرائي يُنادىٰ به يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا خاسر، يا غادر. ضلّ عملك، وبطل أجرك، فلا خلاق لك اليوم عند الله، فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له يا مخادع، و قرأ آيات من القرآن: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ

← يُؤْذُونَ اللهَ﴾؛ التبيان ١: ٦٩، بلفظ: «وحكي عن الحسن أنّ معنى يخادعون الله أنّهم يخدعون نبيّه لأنّ طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله»؛ مجمع البيان ١: ١٠٠، بنحو ما رواه الشيخ رحمه الله في التبيان مع عدم ذكر الرّاوي.

(١) الدرّ ١: ٧٥؛ الشعب ٤: ٣٢٤ / ٥٢٦٨؛ الكامل، لعبدالله بن عديّ ٢: ١٦٢، وفيه: لكنت من أمكر النّاس؛ ابن عساكر ٤٩: ٤٢٣.

(٢) في ثواب الأعمال: «وينزع منه الإيمان».

(٣) ثواب الأعمال: ٢٥٥، باب عقاب المرائي؛ الأمالي للصدوق: ٦٧٧ / ٩٢١ ـ ٢٣؛ معاني الأخبار: ٣٤٠ ـ ٣٤١ / ١، باب معنى مخادعة الله؛ البحار ٦٩: ٢٩٥ / ١٩.

(٤) مصباح الشريعة: ٣٢، باب ١٤ (في الرياء)؛ البحار ٦٩: ٣٠٠ / ٣٧.

رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾[1] الآية و ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ﴾[2] الآية»[3].

والحديث كما رواه الصدوق أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله[4].

لُباب ما ورد عن أئمّة أهل البيت بشأن الرياء

وبعد فإليك ما ورد بشأن الرياء في العمل، برواية الصّادقين من آل محمّد ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ حسبما رواه ثقة الإسلام أبوجعفر الكليني ـ طاب ثراه:

[٣٥٨/٢] روى بإسناده إلى جعفر بن محمّد الأشعري، عن ابن القدّاح، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال لعَبّادبن كثير البصري[5] في المسجد: «ويلك يا عبّاد إيّاك والريّاء فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له».

[٣٥٩/٢] وعن عليّ بن عقبة، عن أبيه قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «اجعلوا أمركم هذا لله، ولاتجعلوه للناس، فإنّه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلايصعد إلى الله».

[٣٦٠/٢] وعن يزيد بن خليفة قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «كلُّ رياء شرك، إنّه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله».

[٣٦١/٢] وعن جرّاح المدائني، عن أبي عبدالله عليه السلام «في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا﴾[6] قال: الرَّجل يعمل شيئاً من الثواب لايطلب به وجه الله، إنّما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به النّاس، فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه، ثمّ قال:

---

(١) الكهف ١٨: ١١٠. (٢) النساء ٤: ١٤٢.

(٣) الدرّ ١: ٧٤ ـ ٧٥؛ القرطبي ١: ١٩٦، بلفظ:... قوله صلى الله عليه وآله إنّه قال: «لاتخادع الله فإنّه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعر، قالوا: يا رسول الله وكيف يخادع الله؟ قال: تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره».

(٤) الأمالي للصدوق: ٦٧٧ ـ ٦٧٨ / ٩٢١ ـ ٢٣؛ ثواب الأعمال: ٢٥٥.

(٥) هو عَبّادبن كثير الثقفي البصري العابد بمكّة، كان من المشايخ القدماء، لقي الإمام السجّاد والإمام الباقر عليهما السلام وله صحبة للإمام الصادق عليه السلام، ومواقف معه وأحياناً كان الإمام يؤنّبه ويوبّخه حيث ضعفه بمعرفة مواضع الدين. ومن ثمّ ضعّفه الأساطين. راجع: تهذيب التهذيب لابن حجر (٥: ١٠٠ ـ ١٠٢ / ١٦٩). وقاموس الرجال للتستري (٥: ٦٥٣ ـ ٦٥٧ / ٣٨٦٧).

(٦) الكهف ١٨: ١١٠.

ما من عبد أسرَّ خيراً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يُظهر الله له خيراً، وما من عبد يُسرُّ شرّاً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يُظهر الله له شرًّا».

[٣٦٢/٢] وعن محمّد بن عرفة قال: قال لي الرّضا ﷺ: «ويحك يا ابن عرفة! اعملوا لغير رياء ولا سُمعة، فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل، ويحك! ما عمل أحد عملاً إلّا ردّاه الله به[1]، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ».

[٣٦٣/٢] وعن عُمَر بن يزيد قال: إني لأتعشّى مع أبي عبدالله ﷺ إذ تلا هذه الآية: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[2] [فقال:] «يا أبا حفص ما يصنع الإنسان أن يتقرّب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بخلاف ما يعلم الله تعالى؛[3] إنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: من أسرَّ سريرة ردّاه الله رداءها إن خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ».

[٣٦٤/٢] وعن السكونيّ، عن أبي عبدالله ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المَلَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: اجعلوها في سجّين[4]، إنّه ليس إيّاي أراد بها».

[٣٦٥/٢] وبإسناده قال: قال أمير المؤمنين ﷺ: «ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحبُّ أن يُحمد في جميع أُموره».

[٣٦٦/٢] وعن عليّ بن سالم قال: سمعت أبا عبدالله ﷺ يقول: «قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلّا ما كان لي خالصاً».

[٣٦٧/٢] وعن داوود، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «من أظهر للناس ما يحبُّ الله، وبارز الله بما كرهه لقي الله وهو ماقت له».

[٣٦٨/٢] وعن فضل أبي العباس، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «ما يصنع أحدكم أن يُظهر حَسَناً ويُسرَّ سيّئاً أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أنَّ ذلك ليس كذلك، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ إنَّ السّريرة إذا صحّت قويت العلانية».

[٣٦٩/٢] وعن عليّ بن أبي حمزة، عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله ﷺ: «ما من عبد يُسرُّ خيراً

---

(١) يقال: ردّى الرجلَ أي ألبسه. (٢) القيامة ٧٥: ١٤ ـ ١٥.

(٣) وفي رواية أخرى: «ما يصنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه» الكافي ٢: ٢٩٦ / ١٥.

(٤) قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (المطفّفين ٨٣: ٧).

إلّا لم تذهب الأيّام حتّى يُظهر الله له خيراً، وما من عبد يُسرُّ شرّاً إلّا لم تذهب الأيّام حتّى يُظهر الله له شرًّا».

[٣٧٠/٢] وعن يحيى بن بشير، عن أبيه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أراد الله ـ عزّ وجلّ ـ بالقليل من عمله أظهر الله له أكثر ممّا أراد، ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلّا أن يُقلّله في عين من سمعه».

[٣٧١/٢] وعن السكونيّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سيأتي على النّاس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدُّنيا، لا يريدون به ما عند ربّهم، يكون دينهم رياء لا يخالطهم خوف، يعمّهم الله بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم».

[٣٧٢/٢] وعن عليّ بن أسباط، عن بعض أصحابه، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «الإبقاء على العمل أشدُّ من العمل، سئل: وما الإبقاء على العمل؟ قال: يصل الرَّجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فكُتب له سرّاً، ثمَّ يذكّرها فتُمحى فتُكتب له علانية، ثمَّ يذكّرها فتُمحى وتُكتب له رياء».

[٣٧٣/٢] وعن ابن القدّاح، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «اخشوا الله خشية ليست بتعذير، واعملوا لله في غير رياء ولا سُمعة، فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى عمله».

[٣٧٤/٢] وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سألته عن الرَّجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسانٌ فيسرُّه ذلك؟ فقال: لا بأس، ما من أحد إلّا وهو يحبُّ أن يظهر له في الناس الخير، إذا لم يكن صنع ذلك لذلك»[١].

ملحوظة

في هذا الخبر إشارة إلى نكتة دقيقة، وهي: أنّ أمر الرياء قد يشتبه على الإنسان فيحسب من عمله ـ أحياناً ـ رياء في حين أنّه ليس من حقيقة الرياء. وذلك حينما يُعجبه عمله إذا أتاه تامّاً بأكمل ما يستحبّه الشرع الحنيف، كالصلاة في المسجد أوّل الوقت جماعةً ـ مثلاً ـ فإنّ الإنسان يبتهج حينما يرى من نفسه أنّه فعل ما يستحبّه الشرع كُملاً.

---

(١) الكافي ٢: ٢٩٣ ـ ٢٩٧.

ويرى أنّه بفضل الله عليه أن وفّقه لهذه الحسنة. فهذا وإن كان نوعاً من الإعجاب بالنفس لكنّه إعجاب ناشئ من حسن ظنّه بالله تعالى.. فإنّ الأعجاب الموجب للهلكة هو الّذي ينشأ عن كبر ونخوة، فيستعظم من عمل نفسه و يستصغر عمل الآخرين، إعجاباً بالنفس غروراً واستكباراً.

قال المحقّق الهمداني: العُجب أن يرى الإنسان من عمل نفسه عظيماً ويستحقر عمل الآخرين. واستشهد بكلام بعض العارفين، حيث قال: العُجب نبات، حَبُّه الكفر وأرضه النفاق وماؤه البغي وأغصانه الجهل وورقه الضلالة وثمره اللعنة والخلود في النار.

قال المحقّق الهمداني: ويزيد في الطين بلّة ما لو أضاف إلى الإعجاب بالعمل المنّة على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١). قال: ومع ذلك فليس مطلق العُجب بالعمل حابطاً إذا لم يكن عن كبر و غرور وعن استكبار على الله. بل كان عن ابتهاج غمره من حسن ظنّه بالله أن وفّقه لعمل صالح وسدّد خطاه في الإتيان به كُمَلاً كما أراده الله، ويرجو مثوبته من فضله ورحمته بالمؤمنين(٢).

وذكر قبله حديث زرارة الآنف وقال: إنّ مجرّد المحبّة والسرور الموجب لازدياد الشوق، من دون أن يكون لذلك تأثير في البعث على العمل والإخلاص في إتيانه، فهذا لايضرّ بصحّة العمل، مادام كونه تبعيّاً بلا تأثير(٣).

وقال بعض أهل المعرفة: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثمّ وردت واردة الرياء، سواء في الأثناء أو بعد الفراغ، فهذا لايضرّ بصحّة العمل ومقبوليّته، إذا لم يكن لهذه الواردة تأثير لا في العمل ولا في كيفيّة امتثاله. ولا سيّما الطارئ بعد العمل، حيث لا يؤثّر المتأخّر وجوداً فيما تمّ على الصحة والكمال.

[٢/٣٧٥] وقد روي عن رسول الله ﷺ: أنّ رجلاً سأله عمّن أسرّ بعمله، وهو لا يُحبّ أن يَطّلع عليه أحد، فَيُطّلع عليه، فَيَسُرُّه.؟ قال ﷺ: «لك أجران: أجر السرّ وأجر العلانية»(٤).

وذكر المجلسي عن بعضهم: أنّه إن كان سروره باعتبار أنّه تعالى أظهر جميله أو باعتبار أنّه

(١) الحجرات ٤٩: ١٧.

(٢) راجع مباحثه في باب الوضوء: الكلام عن النيّة وعن العُجب في العمل. كتاب الطهارة: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) المصدر: ١١٩.

(٤) راجع: مرآة العقول، المجلسي ١٠: ٩٦.

استدلّ بإظهار جميله في الدنيا على إظهار جميله في الآخرة على رؤوس الأشهاد ونحو ذلك من الاعتبارات ـ الّتي لا تمسّ غرور النفس ـ فليس ذلك السرور رياءً أو سمعة. وإن كان سروره باعتبار رفع منزلته في أعين الناس وتعظيمه وتوقيره ونحو ذلك من تسويلات النفس وتلبيسات الشيطان، فهو رياء وخارج بالعمل من كفّة الحسنات إلى كفّة السيّئات.

قال المجلسي ـ تعقيباً على ذلك ـ: ويمكن أن يكون ذلك نظراً لاختلاف درجات الناس ومراتبهم في الكمال النفسي، فإنّ تكليفاً مثل ذلك قد يشقّ على من لا ترويض له في الخلوص والاجتهاد في الإخلاص لله تعالى محضاً. إنّما التكاليف حسب استعدادات الناس وتفاوتهم في الكمال العقلاني[١].

قلت: ويؤيّد ذلك:

[٣٧٦/٢] ما رواه الكليني بإسناده عن يونس عن بعض أصحابه عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله ـ عزّ وجلّ ـ لداوود عليه السلام: يا داوود، بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين. قال: كيف أبشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين؟ قال: يا داوود، بشّر المذنبين أنّي أقبل التوبة وأعفو عن الذنب. وأنذر الصدّيقين أن لا يُعْجَبُوا بأعمالهم، فإنّه ليس عبد أنصبه للحساب إلّا هلك»[٢] أي المداقّة هناك مع المقرّبين شديدة.

[٣٧٧/٢] وروى بالإسناد إلى عليّ بن سويد عن الإمام أبي الحسن الكاظم عليه السلام قال: سألته عن العُجْب الّذي يُفسد العمل؟ فقال: «العجب درجات، منها: أن يُزَيَّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيُعجبه ويحسب أنّه يُحسن صنعاً. ومنها: أن يؤمن العبد بربّه فيمنّ على الله ـ عزّ وجلّ ـ ولله عليه فيه المنّ»[٣].

[٣٧٨/٢] وروى بالإسناد إلى عبدالرحمان بن الحجّاج عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الرجل ليُذنب الذنب فيندم عليه، ويعمل العمل فيسّره ذلك، فيتراخى عن حاله تلك، فلأن يكون على حاله تلك خير له ممّا دخل فيه»[٤].

[٣٧٩/٢] وروى عن محمّد بن يحيى بالإسناد إلى إسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أتى

---

(١) المصدر: ١١٧.
(٢) الكافي ٢: ٣١٤/ ٨.
(٣) المصدر: ٣١٣/ ٣.
(٤) المصدر / ٤.

عالم عابداً، فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يُسأل عن صلاته؟! وأنا أعبد الله منذ كذا و كذا. قال: كيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتّى تجري دموعي. فقال له العالم: فإنّ ضحكك وأنت خائف، أفضل من بكائك وأنت مدلّ، إنّ المدلّ لا يصعد من عمله شيء»[1].

الإدلال: التدلّل وهو الافتخار والإعجاب بالنفس. وتدلّلت المرأة لزوجها تغنّجت وتلوّت في غنج ودلال، كأنّها تريد الفخار عليه.

[٢ / ٣٨٠] وروى عنه بالإسناد إلى أحمد بن أبي داوود عن بعض أصحابنا عن أحدهما (الباقر والصادق عليهما السلام) قال: «دخل رجلان المسجد، أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد، والفاسق صدّيق والعابد فاسق، وذلك أنّه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يُدِلُّ بها فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندّم على فسقه ويستغفر الله ـ عزّ وجلّ ـ ممّا صنع من الذنوب»[2].

[٢ / ٣٨١] وروى عن عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى عبدالرحمان بن الحجّاج قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق، ثمّ يعمل شيئاً من البرّ فيدخله شبه العجب به؟ فقال: هو في حاله الأُولى وهو خائف أحسن حالاً منه في حال عُجبه»[3].

[٢ / ٣٨٢] وروى عنه بالإسناد إلى يونس عن بعض أصحابه عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ موسى عليه السلام سأل إبليس، قال: أخبرني بالذنب الّذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذتَ عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عَمَلَه وصغر في عينه ذنبُه»[4].

نعوذ بالله من تسويلات النفس ومن شرور الشياطين!

* * *

[٢ / ٣٨٣] وروى في باب الإخلاص في العمل ـ عن شيخه عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى سفيان بن عُيَيْنة عن الإمام الصادق عليه السلام «في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[5]. قال: ليس يعني أكثر عملاً، ولكن أصوبكم عملاً. وإنّما الإصابة خشية الله والنيّة الصادقة الحسنة.

---

(١) المصدر / ٥.
(٢) المصدر: ٣١٣ ـ ٣١٤ / ٦.
(٣) المصدر: ٣١٤ / ٧.
(٤) المصدر / ٨.
(٥) الملك ٦٧: ٢.

ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص، الّذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله ـ عزّ وجلّ ـ والنيّة أفضل من العمل. ألا وإنّ النيّة هي العمل. ثمّ تلا قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[1] يعني على نيّته»[2].

[٣٨٤/٢] وبهذا الإسناد قال: سألته عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3] قال: «القلب السليم، الّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه. قال: وكلّ قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط. وإنّما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»[4].

[٣٨٥/٢] وأيضاً بهذا الإسناد إلى سفيان عن السندي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «ما أخلص العبد الإيمان بالله ـ عزّ وجلّ ـ أربعين يوماً، أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ اربعين يوماً، إلّا زهّده الله ـ عزّ وجلّ ـ في الدنيا وبصّره داءها ودواءها، فأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه. ثمّ تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[5]. فلا ترى صاحب بدعة إلّا ذليلاً ومفترياً على الله ورسوله»[6].

[٣٨٦/٢] وبالإسناد إلى عليّ بن أسباط عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: إنّ أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ كان يقول: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يُشغل قلبه بما تراه عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره»[7].

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾

[٣٨٧/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: النفاق. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: نكال موجع. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ قال: يبدّلون ويحرّفون[8].

[٣٨٨/٢] وأخرج الطسيّ عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى:

---

(١) الإسراء ١٧: ٨٤.
(٢) الكافي ٢: ١٦ / ٤.
(٣) الشعراء ٢٦: ٨٩.
(٤) الكافي ٢: ١٦ / ٥.
(٥) الأعراف ٧: ١٥١.
(٦) الكافي ٢: ١٦ / ٦.
(٧) المصدر / ٣.
(٨) الدرّ ١: ٧٥؛ الطبري ١: ١٧٧ / ٢٧١، بلفظ: «المرض: النفاق»؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٣ و ٤٤ / ١١١ و ١٢٠؛ التبيان ١: ٧٣.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: النفاق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الشاعر:

أجاملُ أقواماً حياءً وقد أرى   صدورهم تغلي عليّ مراضها(1)

قال: فأخبرني عن قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: الأليمُ الموجع. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الشاعر:

نام من كان خليّاً من ألم   وبقيتُ اللّيل طولاً لم أنم(2)

[٣٨٩/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿مرض﴾ قال: شكّ.

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله(3).

[٣٩٠/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿مرض﴾ قال: ريبة وشكّ في أمر الله. ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ قال: ريبة وشكّاً. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ قال: إيّاكم والكذب، فإنّه باب النفاق، وإنّا والله ما رأينا عملاً قطّ أسرع في فساد قلب عبدٍ من كبرٍ أو كذبٍ(4).

[٣٩١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدّين، وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون والمرض، الشكّ الّذي دخلهم في الإسلام(5).

[٣٩٢/٢] وأخرج عن الربيع في قوله ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هؤلاء أهل النفاق. والمرض الّذي في قلوبهم الشكّ في أمر الله عزّ وجلّ(6).

[٣٩٣/٢] وقال عكرمة وطاوس في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: يعني الرياء(7).

---

(١) مراض: جمع مَرِض، من به مَرَض.   (٢) الدرّ ١: ٧٥ ـ ٧٦.

(٣) الدرّ ١: ٧٥؛ الطبري ١: ١٧٧ / ٢٧٠، و ١٧٨ / ٢٧٧ و ٢٧٨، نقلاً عن ابن مسعود ورجل من أصحاب النّبي ﷺ بلفظ: «فزادهم الله ريبة وشكّاً»؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٣ و ٤٤ / ١١٢ و ١١٤؛ ابن كثير ١: ٥١، نقلاً عن السّدّي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مُرّة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ. وأيضاً عن ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة.

(٤) الدرّ ١: ٧٦؛ الطبري ١: ١٧٧ و ١٧٩ / ٢٧٤ و ٢٧٩، إلى قوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾.

(٥) الدرّ ١: ٧٦؛ الطبري ١: ١٧٧ / ٢٧٣ و ٢٧٦؛ ابن كثير ١: ٥١.

(٦) الدرّ ١: ٧٦؛ الطبري ١: ١٧٧ / ٢٧٥.   (٧) ابن كثير ١: ٥١.

قال الطبرسيّ: المراد بالمرض في الآية: الشكّ والنفاق، بلاخلاف. وإنّما سمّي الشّكّ في الدين مرضاً، لأنّ المرض هو الخروج عن حدّ الاعتدال، فالبدن ما لم تُصبه آفة يكون صحيحا سويّاً، وكذلك القلب ما لم تُصبه آفة من الشكّ يكون صحيحاً. وقيل: أصل المرض: الفتور، فهو في القلب فتوره عن الحقّ، كما أنّه في البدن فتور الأعضاء وتقدير الآية: في اعتقاد قلوبهم، الّذي يعتقدونه في الله ورسوله، مرضٌ أي شكّ. حذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه[1].

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾

قال الطبرسي: قيل فيه وجوه:

أحدها: أنّ معناه: ازدادوا شكّاً عند ما زاد الله من البيان بالآيات والحجج، إلّا أنّه لمّا حصل ذلك عند فعله، نُسب إليه، كقوله تعالى في قصّة نوح ؑ: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾[2] لمّا ازدادوا فراراً عند دعاء نوح ؑ، نسب إليه. وكذلك قوله: ﴿وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[3] والآيات لم تزدهم رجساً، وإنّما ازدادوا رجساً عندها.

وثانيها: ما قاله أبوعلي الجُبّائي: إنّه أراد: في قلوبهم غمّ بنزول النبي ﷺ المدينة، وبتمكّنه فيها، وظهور المسلمين وقوّتهم، فزادهم الله غمّاً بما زاده من التمكين والقوّة وأمدّه به من التأييد والنصرة.

وثالثها: ما قاله السُّدّي: معناه: زادتهم عداوةُ الله مرضاً. وهذا من حذف المضاف، مثل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[4] أي من ترك ذكر الله.

رابعها أنّ المراد به: في قلوبهم حزنٌ بنزول القرآن بفضائحهم ومخازيهم، فزادهم الله مرضاً بأن زاد في إظهار مقابحهم ومساويهم، والإخبار عن خبث سرائرهم وسوء ضمائرهم. وسمّي الغمّ مرضاً، لأنّه يُضيق الصدر كما يُضيقه المرض.

وخامسها ما قاله أبو مسلم الأصفهاني: إنّ ذلك على سبيل الدعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

---

(١) مجمع البيان ١: ١٠٢.

(٢) نوح ٧١: ٦.

(٣) التوبة ٩: ١٢٥.

(٤) الزمر ٣٩: ٢٢.

انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] فكأنّه دعاءٌ عليهم بأن يُخلّيهم الله وما اختاروه، ولا يُعطيهم من زيادة التوفيق والألطاف، ما يُعطي المؤمنين. فيكون خِذلاناً لهم. وهو في الحقيقة إخبار عن خذلان الله إيّاهم، وإن خرج في اللّفظ مخرج الدعاء عليهم.

ثمّ قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب النّار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بتكذيبهم الله ورسوله، فيما جاء به من الدين، أو بكذبهم في قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].[3].

[٣٩٤/٢] قال ابن زيد ـ في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ ـ: زادهم رجساً. وقرأ قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[4] قال: شرّاً إلى شرّهم وضلالة إلى ضلالتهم[5].

[٣٩٥/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ قال: ريبة وشكّاً[6].

[٣٩٦/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ قال: شكّاً[7].

[٣٩٧/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله: ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم الله شكّاً[8].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[٣٩٨/٢] أخرج ابن جرير عن الربيع، قال: ﴿أَلِيمٌ﴾: الموجع[9].

[٣٩٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى الربيع بن أنس عن أبي العالية، في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: الأليم: المُوجع في القرآن كلّه. قال: وكذلك فسّره سعيدبن جعفر، والضحّاك بن

(١) التوبة ٩: ١٢٧.
(٢) البقرة ٢: ٨.
(٣) مجمع البيان ١: ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٤) التوبة ٩: ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٥) الطبري ١: ١٧٩ / ٢٨٠؛ ابن كثير ١: ٥١، وقال: «هذا الّذي قاله عبدالرحمان حسنٌ وهو الجزاء من جنس العمل».
(٦) الدرّ ١: ٧٦؛ الطبري ١: ١٧٩ / ٢٧٩. وكذا نسبه إلى ابن مسعود و ناس من أصحاب النّبي ﷺ.
(٧) الطبري ١: ١٧٨ / ٢٧٧؛ الدرّ ١: ٧٥.
(٨) الدرّ ١: ٧٦؛ الطبري ١: ١٧٩ / ٢٨١.
(٩) الطبري ١: ١٧٩ / ٢٨٢. وبنحوه عن الضحّاك / ٢٨٣.

مزاحم، وقتادة، وأبو مالك، وأبوعمران الجوني، ومقاتل بن حيّان[١].

[٤٠٠/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: العذاب الأليم: هو الموجع. وكلّ شيء في القرآن من ﴿الأليم﴾ فهو الموجع[٢].

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

[٤٠١/٢] أخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى أبي روق عن الضحّاك عن ابن عبّاس، في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ يقول: يبدّلون ويحرّفون[٣].

[٤٠٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني الشكّ بالله وبمحمّد، نظيرها في سورة محمّد: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[٤] يعني الشكّ.

﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ يعني شكّاً في قلوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني وجيع في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ لقولهم: آمنّا بالله وباليوم الآخر. وذلك أنّ عبدالله بن أبيّ المنافق قال لأصحابه: انظروا إليّ وإلى ما أصنع فتعلّموا منّي وانظروا دفعي في هؤلاء القوم كيف أدفعهم عن نفسي وعنكم. فقال أصحابه: أنت سيّدنا ومعلّمنا، ولولا أنت لم نستطع أن نجتمع مع هؤلاء. فقال عبدالله بن أبيّ لأبي بكر وأخذ بيده: مرحباً بسيّد بني تيم بن مرّة. ثمّ أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيّد بني عديّ بن كعب، ثمّ أخذ بيد عليّ بن أبي طالب فقال: مرحباً بسيّد بني هاشم، غير رجل واحد اختصه الله بالنبوّة، لما علم من صدق نيّته ويقينه. فقال عمر: ويحك يا ابن أبي، اتّق الله ولاتنافق وأصلح ولاتفسد، فإنّ المنافق شرّ خليقة الله، وأخبثهم خبثا، وأكثرهم غشّا. فقال ابن أبيّ: يا عمر، مهلا فوالله لقد آمنتُ كإيمانكم وشهدت كشهادتكم فافترقوا على ذلك. فانطلق هؤلاء إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بالذي قاله عبدالله فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ على نبيّه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

[٤٠٣/٢] وأخرج الثعلبي هذا الخبر ذيل الآية ١٤ الآتية بوجه آخر من طريق الكلبي عن أبي

(١) ابن أبي حاتم ١: ٤٤ / ١١٩.
(٢) الدرّ ١: ٧٦؛ الطبري ١: ١٨٠ / ٢٨٤.
(٣) ابن أبي حاتم ١: ٤٤ / ١٢٠.
(٤) سورة محمّد ٤٧: ٢٩.
(٥) تفسير مقاتل ١: ٨٩ ـ ٩٠.

صالح عن ابن عبّاس، قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...﴾ في عبدالله بن أُبيّ محتجّاً به. وذلك أنّهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبدالله لأصحابه: انظر كيف أدرأ هؤلاء السفهاء عنكم. فذهب وأخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بسيّد بني تيم وثاني رسول الله في الغار. ثمّ أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيّد بني عديّ. ثمّ أخذ بيد عليّ فقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله وختنه وسيّد بني هاشم ما خلا رسول الله. فقال عليٌّ: «كفّ لله واتّق الله ولا تنافق، فإنّ المنافقين شرّ خليقة الله!»

فقال عبدالله: مهلاً أبا الحسن، إليّ تقول هذا! والله إنّ إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم، ثمّ افترقوا.

فقال عبدالله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلتُ! فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلتُ. فأثنوا عليه خيراً وقالوا: لانزال معك ما عشت.

فرجع المسلمون إلى النبيّ ﷺ وأخبروه بذلك، فأنزل الله الآية[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

هذه هي سمة المنافق، يحسب أنّه يُحسن صنعاً، وقد ضلّ سعيه في الحياة. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾[2].

نعم أولئك هم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾[3].

هذا شأن المنافق، في فكرته الكاسدة، إنّه لايقف عند حدّ الكذب والخداع، بل يضيف إليهما السَّفَه والادّعاء. ﴿وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التبجّح والتبرير: ﴿قَالُوا﴾ ـ متأكّدين ـ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

---

(١) الثعلبي ١: ١٥٥. (٢) الكهف ١٨: ١٠٣ـ١٠٥.

(٣) الكهف ١٨: ١٠١.

قال سيّد قطب: والّذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنّهم مصلحون، كثيرون جدّاً في كلّ زمان. يقولونها، لأنّ الموازين مختلّة في أيديهم، ومتى اختلّ ميزان الإخلاص والتجرّد في النفس، اختلّت سائر الموازين والقيم. والّذين لايخلصون سريرتهم لله يتعذّر أن يشعروا بفساد أعمالهم، لأنّ ميزان الخير والشرّ والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتيّة، ولا يثوب إلى قاعدة ربّانيّة.

ومن ثمّ يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا﴾

[٤٠٤/٢] أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال: إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم: لاتفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنّما نحن على الهدى مصلحون(٢).

[٤٠٥/٢] وأخرج عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، قال: لاتعصوا في الأرض. قال: فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله ـ جلّ ثناؤه ـ، لأنّ من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصيته، فقد أفسد في الأرض، لأنّ إصلاح الأرض والسماء بالطاعة(٣).

[٤٠٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني لاتعملوا في الأرض بالمعاصي(٤).

[٤٠٧/٢] وقال الطبرسي في قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بعمل المعاصي وصدّ الناس عن الإيمان ـ على ما روي عن ابن عبّاس(٥).

[٤٠٨/٢] وقال: وفي وجه آخر ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بممالأة الكفّار، فإنّ فيه توهين الإسلام ـ على ما قاله أبو عليّ(٦).

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٤٩.
(٢) الدرّ ١: ٧٧؛ الطبري ١: ١٨٤ / ٢٨٩.
(٣) الطبري ١: ١٨٢ / ٢٨٧؛ ابن كثير ١: ٥٢، نقلاً عن الرّبيع بن أنس وعن أبي العالية وقتادة وفيه «صلاح» بدل «إصلاح».
(٤) تفسير مقاتل ١: ٩٠.
(٥) مجمع البيان ١: ١٠٤.
(٦) المصدر.

[٤٠٩/٢] وفي وجه ثالث: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بتغيير الملّة وتحريف الكتاب، على ما قاله الضحّاك(١).

[٤١٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾

[٤١١/٢] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي إنّما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب(٣).

[٤١٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي مطيعون(٤).

[٤١٣/٢] وأخرج وكيع وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبّاد بن عبدالله الأسدي قال: قرأ سلمان هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال: لم يجيء أهل هذه الآية بعد(٥).

قلت: يعني بهم: القاسطين والمارقين والناكثين.

[٤١٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان: يقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ أي العاصون ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّهم مفسدون(٦).

---

(١) المصدر: ١٠٥، الثعلبي ١: ١٥٤، بلفظ: «تبديل الملّة وتغيير السنّة وتحريف كتاب الله».

(٢) الدرّ ١: ٧٦؛ الطبري ١: ١٨٢ / ٢٨٦، نقلاً عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ؛ ابن كثير ١: ٥٢، نقلاً عن السدّي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن مسعود وعن مُرّة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) الدرّ ١: ٧٧؛ الطبري ١: ١٨٤ / ٢٨٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٥ / ١٢٤؛ القرطبي ١: ٢٠٤، بلفظ: «وإنّما قالوا ذلك على ظنّهم، لأنّ إفسادهم عندهم إصلاح، أي إنّ ممالتنا للكفّار، إنّما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين، قاله ابن عبّاس وغيره»؛ ابن كثير ١: ٥٣؛ التبيان ١: ٧٦.

(٤) تفسير مقاتل ١: ٩٠.

(٥) الدرّ ١: ٧٧؛ الطبري ١: ١٨٢ / ٢٨٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٥ / ١٢٣؛ ابن كثير ١: ٥٢؛ التبيان ١: ٧٤؛ مجمع البيان ١: ١٠٤.

(٦) تفسير مقاتل ١: ٩٠.

قوله تعالى: ﴿وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَآ آمَنَ النَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾

ومن صفتهم كذلك التطاول والتعالي على سائر الناس، ليكسبوا لأنفسهم جاهاً زائفا في أعين الآخرين.

فقد كانت الدعوة الموجّهة إليهم هي الإيمان الخالص المتجرّد عن الأهواء. إيمان المخلصين الّذين دخلوا في السلم كافّة وأسلموا وجوههم لله، وهؤلاء هم الناس الّذين كان المنافقون يُدعَون ليؤمنوا مثلهم. ولكنّهم كانوا يأنفون من هذا الاستسلام لله ولرسوله، ويرونه لائقاً بضعاف الناس الّذين هم سوقة، دون العليّة ذوي الجاه.

ومن ثمّ قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السُّفَهَآءُ﴾ أي المبتذلة من غوغاء العوامّ، لارشد لهم ولا هدى!

ولذلك جاءهم الردّ الحاسم القامع: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ...﴾ ـ حقيقة ـ ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾. هم في غفوةٍ عن الفكر الصحيح وفي عَمَهِ العُتُوّ والاستكبار. ولكن أنّى يشعر السفيه بسفهه، وهو ـ عن حمقه ـ يسفّه ذوي العقول الراجحة. فياله من ابتذال الفكرة الحمقانيّة!!

[٤١٥/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَآ آمَنَ النَّاسُ﴾قال: صدّقوا كما صدّق أصحاب محمّد أنّه نبيّ ورسول، وأنّ ما أُنزل عليه حقّ. ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السُّفَهَآءُ﴾ يعنون أصحاب محمّد ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ﴾ يقول: الجهّال ﴿وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يعقلون[١].

[٤١٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَآ آمَنَ النَّاسُ﴾: نزلت في منذر بن معاذ، وأبي لبابة، ومعاذ بن جبل، وأسيد، قالوا لليهود: صدّقوا بمحمّد إنّه نبيّ، كما صدّق به عبدالله بن سلام وأصحابه، فقالت اليهود: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ يعني نصدّق ﴿كَمَآ آمَنَ السُّفَهَآءُ﴾ يعني الجهّال، يعنون عبدالله بن سلام وأصحابه. يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ ردّاً عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ بأنّهم السفهاء[٢].

[٤١٧/٢] وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس إنّها نزلت في شأن اليهود.

---

(١) الدرّ ١: ٧٧؛ الطبري ١: ١٨٥ و ١٨٦ و ١٨٧ / ٢٩٠ و ٢٩٤ و ٢٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٦ / ١٢٧ و ١٢٩ و ١٣١ و ١٣٢.

(٢) تفسير مقاتل ١: ٩٠ ـ ٩١.

قال القرطبي: أي و إذا قيل لهم ـ يعني اليهود ـ آمنوا كما آمن الناس: (عبدالله بن سلام وأصحابه) قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء يعنى الجهّال والخرُقاء[١].

[٤١٨/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿كَمَآ آمَنَ السُّفَهَآءُ﴾ قال: يعنون أصحاب النبي ﷺ.

وأخرج عن الربيع وابن زيد مثله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوٓا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ. اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

هذه هي السمة الأخير الّتي تكشف عن مدى الصلة بين المنافقين في المدينة واليهود الحانقين. إنّهم لايقفون عند حدّ الكذب والخداع، والسفه والادّعاء، إنّما يضيفون إليها الضعف واللؤم والتآمر في الظلام.

قال سيّد قطب: وبعض الناس يحسب اللؤم قوّةً، والمكر السيّء براعةً، وهو في حقيقته ضعف وخسّة. فالقويّ ليس لئيماً ولا خبيثاً، ولا خادعاً ولا متآمراً، ولا غمّازاً في الخفاء لمّازاً.

وهؤلاء المنافقون ـ ولايزالون ـ كانوا يجبنون عن المواجهة، ويتظاهرون بالإيمان عند لقاء المؤمنين، ليتّقوا الأذى، وليتّخذوا هذا الستار وسيلةً للأذى.

ولكنّهم كانوا إذا خلوا إلى شياطينهم وهم ـ غالباً ـ اليهود الّذين كانوا يجدون في هؤلاء المنافقين أداةً لتمزيق الصفّ الإسلامي وتفتيته، كما أنّ هؤلاء كانوا يجدون في اليهود سنداً وملاذاً. كانوا ﴿وَ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوٓا﴾ في نهاية الخسّة والرذالة: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بالمؤمنين، بإظهار الإيمان لهم جهراً ومكايدتهم سرّاً.

---

(١) القرطبي ١: ٢٠٥.

(٢) الدرّ ١: ٧٧؛ الطبري ١: ١٨٦ / ٢٩١، عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي. و ٢٩٢ عن الربيع و ٢٩٣ عن ابن زيد؛ ابن كثير ١: ٥٣، نقلاً عن أبي العالية والسُدّي في تفسيره بسنده عن ابن عبّاس و ابن مسعود وغير واحد من الصحابة وبه يقول: الربيع بن أنس وعبدالرحمان بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وما يكاد القرآن يحكي فعلتهم هذه وقولتهم، حتّى يصبّ عليهم من التهديد ما يهدّ الرواسي: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ـ ذلك بأن ـ ﴿يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وما أبأس من يستهزئ به جبّار السماء والأرض، وما أشقاه.

قال سيّد قطب: وإنّ الخيال ليمتدّ إلى مشهد مُفزع رعيب، وإلى مصير تقشعرّ من هوله القلوب، وهو يقرأ: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. فيدعهم يخبطون على غير هدىً، في طريق لايعرفون غايته. واليد الجبّارة تتلقّفهم في النهاية، كالفئران الضئيلة تتواثب في الفخّ، غافلةً عن المقبض المكين.

وهذا هو الاستهزاء الرعيب، لا كالاستهزاء الهزيل الحقير.

وهنا كذلك تبدو تلك الحقيقة الّتي أشرنا من قبل إليه، حقيقة تولّي الله ـ سبحانه ـ للمعركة الّتي يراد بها المؤمنون. وما وراء هذا التولّي من طمأنينة كاملة لأولياء الله. ومصير رعيب بشع لأعداء الله الغافلين المتروكين في عماهم يخبطون، المخدوعون بمدّ الله لهم في طغيانهم، وإمهالهم بعض الوقت في عدوانهم. والمصير الرهيب ينتظرهم هنالك، وهم غافلون يعمهون.

والكلمة الأخيرة الّتي تصوّر حقيقة حالهم، ومدى خسرانهم:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فلقد كانوا يملكون الهدى ـ المتاح لهم بفضل الإسلام ـ لو أرادوا، كان مبذولاً لهم، وكان في متناولهم، ولكنّهم ﴿اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ كأغفل ما يكون المتّجرون ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى سبيل الاسترباح الأفضل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾

[٢/٤١٩] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. قال: كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي ﷺ أو بعضهم قالوا: إنّا على دينكم. ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ وهم إخوانهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على مثل ما أنتم عليه[١].

[٢/٤٢٠] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا

(١) الدرّ ١: ٧٨؛ الطبري ١: ١٨٨ ـ ١٩٠ / ٢٩٦، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣١٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٦ ـ ٤٩.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي صاحبكم رسول الله، ولكنّه إليكم خاصّة ﴿وَإِذَا خَلَوا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾، من اليهود الّذين يأمرونهم بالتكذيب ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي إنّا على مثل ما أنتم عليه(١).

[٤٢١/٢] وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ وهم منافقوا أهل الكتاب، فذكرهم وذكر استهزاءهم، وأنّهم ﴿إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بأصحاب محمّد. يقول الله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ في الآخرة، يُفتَح لهم باب في جهنّم من الجنّة ثمّ يقال لهم: تعالوا، فيقبلون فيُسْحَبُون في النّار، والمؤمنون على الأرائك وهي السُّرُر في الحجال ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى الباب سُدّ عنهم، فضحك المؤمنون منهم فذلك قول الله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ في الآخرة، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلّقت دونهم الأبواب. فذلك قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾(٢).(٣).

[٤٢٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ أخبر عنهم فقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني صدّقوا من أصحاب النبيّ ﷺ ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿آمَنَّا﴾ صدّقنا بمحمّد. ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني رؤساء اليهود، كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بمحمّد وأصحابه(٤).

[٤٢٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُرَيج في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ قال: إذا أصاب المؤمنين رخاءٌ، قالوا: إنّا نحن معكم إنّما نحن إخوانكم، وإذا خلوا إلى شياطينهم استهزأوا بالمؤمنين(٥).

[٤٢٤/٢] وأخرج الثعلبي عن الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمنوا﴾ قال: كان عبدالله بن أُبيّ بن سلول الخزرجي عظيم المنافقين من رهط سعدبن عبادة، وكان إذا لقي سعداً قال: نعم الدينُ دين محمّد. وكان إذا رجع إلى رؤساء قومه، قالوا: هل نكفر؟ قال: سدّوا

(١) الدرّ ١: ٧٩؛ الطبري ١: ١٨٨ و ١٩٠ بعد رقم ٢٩٦ و ٣٠٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٧ و ٤٨.

(٢) المطفّفين ٨٣: ٣٤.

(٣) الدرّ ١: ٧٨؛ الأسماء والصفات ٣: ٦٥٧؛ القرطبي ١: ٢٠٨؛ التعلبي ١: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٤) تفسير مقاتل ١: ٩١.

(٥) الطبري ١: ١٨٩ / ٣٠٢.

أيديكم بدين آبائكم. فأنزل الله هذه الآية[1].

وللثعلبي رواية أخرى ذكرناها ذيل الآية ١٠ وفيها بيان أوفى فراجع[2].

[٤٢٥/٢] وقال ابن عبّاس: هم خمسة نفر من اليهود: كعب بن الأشرف بالمدينة، وأبو بَرْدة في بني أسلم، وعبدالدار في جُهَنية، وعَوف بن عامر في بني أسد، وعبدالله بن السوداء بالشام[3]. والشيطان كلّ متمرّد عاتٍ من الجنّ والإنس ومن كلّ شيء حتّى الحيوان الخبيث. ومنه قيل للحيّة النضناض: شيطان[4].

قوله تعالى: ﴿وَ إِذَا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِم﴾

[٤٢٦/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿وَ إِذَا خَلَوْا﴾ قال: مضوا[5].

[٤٢٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿وَ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: رؤوسهم في الكفر[6].

[٤٢٨/٢] وقال القرطبي: واختلف المفسّرون في المراد بالشياطين هنا: فقال ابن عبّاس والسُّدّي: هم رؤساء الكفر. وقال الكلبي: هم شياطين الجنّ. وقال جمع من المفسّرين: هم الكُهّان[7].

[٤٢٩/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: أصحابهم من المنافقين والمشركين[8].

[٤٣٠/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إلى إخوانهم من المشركين ورؤوسهم وقادتهم في الشرّ ﴿قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ يقولون:

---

(١) الثعلبي ١: ١٥٥.
(٢) المصدر.
(٣) الثعلبي ١: ١٥٦؛ البغوي ١: ٨٥؛ أبو الفتوح ١: ١٢٦.
(٤) المصدر. والنضناض من الحيّات: الّتي أخرجت لسانها تحرّكه. أو الّتي لاتستقرّ في مكان، أو الّتي إذا نهشت قتلت من ساعتها.
(٥) الدرّ ١: ٧٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٧ / ١٣٥.
(٦) الدرّ ١: ٧٩؛ الطبري ١: ١٨٨ / ٢٩٧.
(٧) القرطبي ١: ٢٠٧.
(٨) الدرّ ١: ٧٩؛ الطبري ١: ١٨٨ بعد رقم ٣٠٠؛ البخاري ٥: ١٤٧، كتاب التفسير، سورة البقرة.

إنّما نسخر من هؤلاء القوم ونستهزىء بهم(١).

[٤٣١/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: المشركون(٢).

[٤٣٢/٢] وأخرج عن الربيع بن أنس: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إخوانهم من المشركين ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾

[٤٣٣/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قال: ساخرون بأصحاب محمد ﷺ(٤).

[٤٣٤/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قال: أي إنّما نحن مستهزئون بالقوم ونلعب بهم(٥).

[٤٣٥/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾: أي نستهزئ بأصحاب محمّد ﷺ(٦).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾

[٤٣٦/٢] قال الحسن: معناه: إنّ الله يُظهر المؤمنين على نفاقهم(٧).

[٤٣٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان: فقال الله ـ سبحانه ـ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ في الآخرة إذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب على الصراط فيبقون في الظلمة حتّى يقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾(٨) فهذا من الاستهزاء بهم. ثمّ قال: ـ سبحانه ـ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ ويلجّهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ

---

(١) الدرّ ١: ٧٩؛ الطبري ١: ١٨٨ / ٢٩٨ و ٣٠٥.

(٢) الطبري ١: ١٨٨ / ٢٩٩.

(٣) المصدر / ٣٠١.

(٤) الدرّ ١: ٧٨؛ الطبري ١: ١٩٠ / ٣٠٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٨ / ١٤٢.

(٥) الدرّ ١: ٧٩؛ الطبري ١: ١٩٠ / ٣٠٤ وكذا بنحوه عن قتادة.

(٦) الطبري ١: ١٩٠ / ٣٠٦.

(٧) البغوي ١: ٨٩؛ الثعلبي ١: ١٥٧.

(٨) الحديد ٥٧: ١٣.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعني في ضلالتهم يتردّدون(١).

[٤٣٨/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ قال: يسخر بهم للنقمة منهم(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

[٤٣٩/٢] قال عليّ بن إبراهيم في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أي يدعهم(٣).

[٤٤٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ قال: يُملي لهم(٤).

[٤٤١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن السدّي في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ قال: يُملي لهم(٥).

[٤٤٢/٢] وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ قال: يزيدهم(٦).

[٤٤٣/٢] وعن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النّبي ﷺ في قوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: في كفرهم(٧).

[٤٤٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يعني في ضلالتهم يتردّدون(٨).

[٤٤٥/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: في كفرهم يتردّدون(٩).

[٤٤٦/٢] وأخرج عن الربيع قال: في كفرهم وضلالتهم(١٠).

---

(١) تفسير مقاتل ١: ٩١.

(٢) الدرّ ١: ٧٨؛ الطبري ١: ١٩٠ / ٣٠٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٨ / ١٤٣.

(٣) القمي ١: ٣٤.

(٤) الدرّ ١: ٧٩؛ الطبري ١: ١٩٤ / ٣٠٨؛ ابن كثير ١: ٥٥.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٤٨ / ١٤٤.

(٦) الدرّ ١: ٨٠؛ الطبري ١: ١٩٥ / ٣٠٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٨ / ١٤٥؛ التبيان ١: ٨٠.

(٧) الطبري ١: ١٩٦ / ٣١١.

(٨) تفسير مقاتل ١: ٩١.

(٩) الطبري ١: ١٩٦ / ٣١٠؛ ابن كثير ١: ٥٥.

(١٠) الطبري ١: ١٩٦ / ٣١٣؛ ابن كثير ١: ٥٥.

[٢/٤٤٧] وأخرج عن قتادة قال: أي في ضلالتهم يعمهون(١).

[٢/٤٤٨] وعن ابن زيد قال: طغيانهم، كفرهم وضلالتهم(٢).

[٢/٤٤٩] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: في كفرهم يتمادون(٣).

[٢/٤٥٠] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال: يتمادون(٤).

[٢/٤٥١] وأخرج الطستي عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال: يلعبون ويتردّدون. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الشاعر:

أراني قد عمهت وشاب رأسي   وهذا اللعب شين بالكبير(٥)

[٢/٤٥٢] وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يلعبون ويتردّدون في الضلالة(٦).

[٢/٤٥٣] وأخرج ابن جرير عن ابن جريج، قال: قال ابن عبّاس: يعمهون، المتلدّد(٧).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾

[٢/٤٥٤] قال الإمام العالم ﷺ: «﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾ باعوا دين الله واعتاضوا منه الكفر بالله ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ أي ما ربحوا في تجارتهم في الآخرة لأنّهم اشتروا النّار وأصناف

---

(١) الطبري ١: ١٩٦ / ٣١٢.

(٢) الطبري ١: ١٩٦ / ٣١٤؛ ابن كثير ١: ٥٥، نقلاً عن السدّي بإسناده عن الصحابة وعن أبي العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبي مالك وعبدالرحمان بن زيد.

(٣) الدرّ ١: ٧٩؛ الطبري ١: ١٩٧ / ٣١٥.

(٤) الدرّ ١: ٧٩؛ الطبري ١: ١٩٧ / ٣١٦. ابن أبي حاتم ١: ٤٩ / ١٤٩، وزاد بقوله: وكذا فسرّه السدّي، وخالفه آخرون فقالوا: يتردّدون.

(٥) الدرّ ١: ٧٩ ـ ٨٠.

(٦) الدُرّ ١: ٨٠؛ الطبري ١: ١٩٥ / ٣٠٩.

(٧) الطبري ١: ١٩٧ / ٣١٨. والمتلدّد: المتحيّر تحيّراً ناشئاً عن لَدَده أي لجاجه وعناده تجاه الحقّ.

عذابها بالجنّة الّتي كانت معدّة لهم لو آمنوا ﴿وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحقّ والصواب»[١].

[٤٥٥/٢] وقال عليّ بن ابراهيم: الضلالة هاهنا: الحيرة، والهدى: البيان. فاختاروا الحيرة والضلالة على الهدى والبيان، فضرب الله فيهم مثلاً[٢].

[٤٥٦/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ قال: الكفر بالإيمان[٣].

[٤٥٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ قال: أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى[٤].

[٤٥٨/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ قال: آمنوا ثمّ كفروا[٥].

[٤٥٩/٢] وأخرج عبدالرزّاق وعبد بن حميد وابن جرير و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ قال: استحبّوا الضلالة على الهدى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ قال: قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنّة إلى البدعة[٦].

[٤٦٠/٢] وقال الطبرسي ﵀: إنّهم استبدلوا بالإيمان الّذي كانوا عليه قبل البعثة كفراً، لأنّهم كانوا يُبشّرون بمحمّد، ويؤمنون به ﷺ فلمّا بُعث كفروا به، فكأنّهم استبدلوا الكفر بالإيمان، عن الكلبي ومقاتل[٧].

[٤٦١/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ نعتهم فقال ـ سبحانه ـ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ

(١) البرهان ١: ١٤٦؛ تفسير الإمام: ١٢٥ ـ ١٢٦ / ٦٤؛ البحار ٦٥: ١٠٦ / ٢٠.

(٢) البرهان ١: ١٤٦؛ القمي ١: ٣٤؛ البحار ٩: ١٧٥.

(٣) الدرّ ١: ٨٠؛ الطبري ١: ١٩٨ / ٣٢١؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٩ / ١٥٣.

(٤) الدرّ ١: ٨٠؛ الطبري ١: ١٩٨ / ٣٢٢؛ الثعلبي ١: ١٥٩.

(٥) الدرّ ١: ٩٠؛ الطبري ١: ١٩٨ / ٣٢٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٠ / ١٥٤.

(٦) الدرّ ١: ٨٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٠ / ١٨؛ الطبري ١: ١٩٨ و ٢٠١ / ٣٢٣ و ٣٢٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٤٩ و ٥٠ / ١٥٢ و ١٥٧؛ أبو الفتوح ١: ١٣١.

(٧) مجمع البيان ١: ١١١.

بِالْهُدَىٰ﴾ وذلك أنّ اليهود وجدوا نعت محمّد النبيّ ﷺ في التوراة قبل أن يُبعث فآمنوا به وظنّوا أنّه من ولد إسحاق ﷺ فلمّا بُعث محمّد ﷺ من العرب من ولد إسماعيل ﷺ كفروا به حسداً، واشتروا الضلالة بالهدى، يقول: باعوا الهدى الّذي كانوا فيه من الإيمان بمحمّد ﷺ قبل أن يُبعث، بالضلالة الّتي دخلوا فيها بعد ما بُعث، من تكذيبهم بمحمّد ﷺ فبئس التجارة! فذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ من الضلالة[1].

[٤٦٢/٢] وقال أبو مسلم محمّد بن بحر الأصفهاني: المراد بالضلالة هنا: العذاب. وبالهدى: طريق الثواب. يُبيّنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[2].[3]

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

مَثَل ضربه الله، يبيّن مدى تعسّف المنافق في حياته المظلمة التعسة، إنّه يبتغي النور والخلاص، ولكنّه نور مايجده ـ وقد مهّده الله له ولكلّ مبتغي الهداية، بفضل رحمته الواسعة ـ إذا هو يقوم بما يعاكس مبتغاه، لفرط جهله وعتوّه واستكباره، فإذا هو في غياهب التيه والضلالة، لايبصر شيئاً ولايهتدي إلى سبيل نجاة، وذلك أنّه أصمّ أذنه وأبكم منطقه وأعمى بصره، فتمادى في غيّه وضلاله، فلا يمكنه بعد ذلك الرجوع إلى جادّة الهدى ووضح النور.

وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون، خُلقت لتلقّي الأصداء والأضواء والاهتداء بمباهج الهدى والنور، فهؤلاء قد عطّلوا آذانهم فهم «صُمّ» وعطّلوا ألسنتهم فهم «بُكم» وعطّلوا عيونهم فهم «عُمي»، فلا رجعة لهم إلى الحقّ، ولا أوبة لهم إلى الهدى، ولا هداية لهم إلى النور.

ومن ثمّ فمثلهم كمثل من أُتيحت له سُبُل السعادة وفي ضوء مشاعل وهّاجة، ولكن من غير ما يمكنه الانتفاع بها والاستنارة بأنوارها، فذهبت عنه أدراج الرّياح، فلم يغتنم الفرصة المتاحة وأضاعها بسوء تدبيره.

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٦.
(٢) البقرة ٢: ١٧٥.
(٣) أبو الفتوح ١: ١٣١.

[٤٦٣/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بالإسناد إلى ابن عبّاس، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين، كانوا يعتزّون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلمّا ماتوا سلبهم الله العزّ كما سلب صاحب النار ضوءه وتركه في ظلمات. قال: في عذاب إذا ماتوا(١).

[٤٦٤/٢] وهكذا أخرجه الثعلبي وتبعه البغوي عن ابن عبّاس وقتادة والضحّاك ومقاتل والسدّي، إنّها نزلت في المنافقين. يقول تعالى: مثلهم في كفرهم ونفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة، فاستضاء بها واستدفأ ورأى ما حوله، فاتّقى ما يحذر ويخاف فأمن. فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي مظلماً خائفاً متحيّراً. كذلك المنافقون إذا أظهروا كلمة الإيمان استناروا بنورها واعتزّوا بعزّها وناكحوا المسلمين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم وأمنوا على أموالهم وأولادهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الخوف والظلمة وهووا في العذاب والنقمة(٢).

[٤٦٥/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ قال: ضربه الله مثلاً للمنافق. وقوله: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ أما النور فهو إيمانهم الّذي يتكلّمون به، وأما الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم(٣).

[٤٦٦/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافق. إنّ المنافق تكلّم بلا إلّه إلّا الله فناكح بها المسلمين، ووارث بها المسلمين، وغازى بها المسلمين، وحقن بها دمه وماله. فلمّا كان عند الموت لم يكن لها أصل في قلبه، ولا حقيقة في عمله، فسلبها المنافق عند الموت، فتُرك في ظلمات وعمى يتسكّع فيها. كما كان أعمى في الدنيا عن حقّ الله وطاعته، ﴿صُمٌّ﴾ عن الحقّ فلا يسمعونه، ﴿بُكْمٌ﴾ عن الحقّ فلا ينطقون به، ﴿عُمْيٌ﴾ عن الحقّ فلا يبصرونه ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن ضلالتهم، ولا يتوبون ولا يتذكّرون(٤).

---

(١) الطبري ١: ٢٠٥ / ٣٢٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٠ / ١٥٨؛ ابن كثير ١: ٥٧.

(٢) الثعلبي ١: ١٦٠؛ البغوي ١: ٩٠؛ مجمع البيان ١: ١١٢ـ١١٣؛ أبو الفتوح ١: ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٣) الدرّ ١: ٨٢؛ الطبري ١: ٢٠٦ / ٣٢٩.

(٤) الدرّ ١: ٨٣؛ الطبري ١: ٢٠٦ / ٣٣٠ و ٣٣٩.

[٤٦٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ ضرب الله للمنافقين مثلاً فقال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ طفئت نارُه. يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: مثل المنافق إذا تكلّم بالإيمان كان له نور بمنزلة المستوقد ناراً يمشي بضوئها مادامت ناره تتّقد. فإذا ترك الإيمان كان في ظلمة كظلمة من طفئت ناره، فقام لايهتدي ولا يُبصر. فذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يعني بإيمانهم. نظيرها في سورة النور ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[١] يعني به الإيمان، وقال ـ سبحانه ـ في الأنعام: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[٢] يعني يهتدي به الّذين تكلّموا به ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ يعني الشرك ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ الهدى[٣].

[٤٦٨/٢] وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: هذا مثل المنافق يُبصر أحياناً ويعرف أحياناً ثمّ يُدركه عمى القلب. قال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة والحسن والسدّي والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني[٤].

[٤٦٩/٢] وقال عطاء ومحمّد بن كعب: نزلت في اليهود وانتظارهم خروج النبي ﷺ واستفتاحهم به على مشركي العرب، فلمّا خرج كفروا به[٥].

[٤٧٠/٢] وقال أبو مسلم: معناه أنّه لا نور لهم في الآخرة وأنّ ما أظهروه في الدنيا، يضمحلّ سريعاً كاضمحلال هذه اللمعة[٦].

[٤٧١/٢] وأخرج الثعلبي عن الضحّاك: لَمّا أضاءت النّار أرسل الله عليه ريحاً قاصفاً فأطفأتها، فكذلك اليهود كلّما أوقدوا ناراً لحرب محمّد ﷺ أطفأها الله[٧].

[٤٧٢/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: أما إضاءة النّار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى الكافرين

---

(١) النور ٢٤: ٤٠.	(٢) الأنعام ٦: ١٢٢.

(٣) تفسير مقاتل ١: ٩١ ـ ٩٢.

(٤) ابن كثير ١: ٥٧، ونقلاً عن عبدالرحمان بن زيد بن أسلم؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٠ / ١٦٠.

(٥) البغوي ١: ٩٠؛ مجمع البيان ١: ١١٣؛ أبو الفتوح ١: ١٤٠، نقلاً عن سعيد بن جبير و محمّد بن كعب و عطاء ويمان بن رئاب؛ الثعلبي ١: ١٦١، عن سعيد بن جبير ومحمّدبن كعب و عطاء و يمان بن رئاب.

(٦) التبيان ١: ٨٨.	(٧) الثعلبي ١: ١٦١.

والضلالة[١].

[٤٧٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناسٍ من الصحابة في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ الآية. قال: إنّ ناساً دخلوا في الإسلام عند مقدم النبي ﷺ المدينة، ثمّ نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة، فأوقد ناراً أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ من قذى أو أذى، فأبصره حتّى عرف ما يتّقي. فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، فأقبل لا يدري ما يتّقي من أذى، فكذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال من الحرام، والخير من الشرّ، بينا هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشرّ[٢].

[٤٧٤/٢] وعن الربيع بن أنس قال: ضرب مثل أهل النفاق، فقال ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، قال: إنّما ضوء النار ونورها ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها. كذلك المنافق كلّما تكلّم بكلمة الإخلاص بلا إلّه إلّا الله أضاء له فإذا شكّ وقع في الظلمة[٣].

[٤٧٥/٢] وعن عبدالرحمان بن زيد في قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية قال: هذه صفة [حالة] المنافقين كانوا قد آمنوا حتّى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الّذين استوقدوا، ثمّ كفروا، فذهب الله بنورهم، فانتزعه كما ذُهب بضوء هذه النار، فتركهم في ظلمات لا يبصرون[٤].

[٤٧٦/٢] وأخرج عن الضحّاك بن مزاحم في قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ قال: أمّا النور فهو إيمانهم الّذي يتكلّمون به، وأمّا الظلمات فهي ضلالتهم وكفرهم[٥].

---

(١) الدرّ ١: ٨٢ــ٨٣؛ الطبري ١: ٢٠٧ / ٣٣٢؛ البخاري ٥: ١٤٧، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ ابن أبي حاتم ١: ٥١ / ١٦١ و ١٦٣؛ الثعلبي ١: ١٦١.

(٢) الدرّ ١: ٨١؛ الطبري ١: ٢٠٥ / ٣٢٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٥١ / ١٦٢، عن السدّي.

(٣) الطبري ١: ٢٠٧ / ٣٣٣؛ ابن كثير ١: ٥٧، نقلاً عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، ابن أبي حاتم ١: ٥٠ / ١٥٩، عن أبي العالية.

(٤) الطبري ١: ٢٠٧ / ٣٣٤؛ ابن كثير ١: ٥٧.

(٥) الطبري ١: ٢٠٦ ــ ٢٠٧ / ٣٣١؛ ابن كثير ١: ٥٧، بلفظ: وقال الضحّاك «ذهب الله بنورهم» أمّا نورهم فهو إيمانهم الّذي تكلّموا به؛ أبو الفتوح ١: ١٤١؛ ابن أبي حاتم ١: ٥١ ــ ٥٢ / ١٦٥ و ١٦٩.

[٤٧٧/٢] ورُوي عن ابن مسعود وغيره: أنّ ذلك في قوم كانوا أظهروا الإسلام ثمّ أظهروا النفاق، فكان النور الايمان، والظلمة نفاقهم[١].

قوله تعالى: ﴿وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُـلُمَاتٍ﴾

[٤٧٨/٢] روى الصدوق بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود قال: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُـلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فقال: إنّ الله تعالى لايوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنّه متى علم أنّهم لايرجعون عن الكفر والضلال، منعهم المعاونة واللطف، وخلّى بينهم وبين اختيارهم»[٢].

[٤٧٩/٢] وقال السُدّي في قوله: ﴿وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُـلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾: فكانت الظلمة نفاقهم[٣].

[٤٨٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُـلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ قال: فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عملُه عملَ السوء، فلايجد له عملاً من خيرٍ عمل به يُصدّق به قول «لا إله إلّا هو»[٤].

[٤٨١/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُـلُمَاتٍ﴾ يقول: في عذاب إذا ماتوا[٥].

[٤٨٢/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُـلُمَاتٍ﴾ قال: بكفرهم ونفاقهم. فتركهم الله في ظلمات الكفر فهم لايُبصرون هدى ولايستقيمون على حقّ[٦].

[٤٨٣/٢] وأخرجا عن ابن عبّاس في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ قال: لايسمعون الهدى ولايبصرونه ولايعقلونه[٧].

---

(١) التبيان ١: ٨٨.

(٢) العيون ١: ١١٣ / ١٦، باب ١١ (ما جاء عن الرضا عليّ بن موسى عليه السلام من الأخبار في التوحيد)؛ البحار ٥: ١١ / ١٧.

(٣) ابن كثير ١: ٥٧.

(٤) ابن كثير ١: ٥٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٢ / ١٧٠.

(٥) الدرّ ١: ٨١؛ الطبري ١: ٢٠٥ / ٣٢٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٢ / ١٦٧.

(٦) الطبري ١: ٢٠٥ / ٣٢٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٢ / ١٦٨.

(٧) الدرّ ١: ٨١؛ الطبري ١: ٢١٢ / ٣٣٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٢ / ١٧٢؛ ابن كثير ١: ٥٧، نقلاً عن ابن عبّاس وأبي العالية وقتادة بن دعامة.

[٢/٤٨٤] وأخرجا عن قتادة قال: صمّ عن الحقّ فلايسمعونه، بكم عن الحقّ فلاينطقون به، عمي عن الحقّ فلايبصرونه[١].

[٢/٤٨٥] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ نعتهم فقال ـ سبحانه ـ: ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون، يعني لا يعقلون ﴿بُكْمٌ﴾ خُرس لا يتكلّمون بالهدى ﴿عُمْيٌ﴾ فهم لا يُبصرون الهدى، حين ذهب الله بنورهم، يعني بإيمانهم ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلالة إلى الهدى[٢].

[٢/٤٨٦] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾: فهم الخُرس ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإسلام[٣].

[٢/٤٨٧] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال: عن ضلالتهم، ولا يتوبون ولا يتذكّرون[٤].

[٢/٤٨٨] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أي فلايرجعون إلى الهدى ولا إلى الخير فلا يصيبون نجاةً، ما كانوا على ما هم عليه[٥].

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُـلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

[٢/٤٨٩] أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابه في قوله ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُـلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ﴾ قال: كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الّذي ذكر الله، فيه رعد شديد وصواعق وبرق، فجعلا كلّما أصابتهما الصواعق يجعلان أصابعهما في آذانهما من الفَرَق، أن تدخل الصواعق في مسامعها فتقتلهما، وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرا، قاما مكانهما لا يمشيان. فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمّداً فنضع أيدينا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما ووضعا أيديهما في يده وحسن إسلامهما.

---

(١) الطبري ١: ٢١٣ / ٣٣٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٣ / ١٧٤. (٢) تفسير مقاتل ١: ٩٢.

(٣) الدرّ ١: ٨١؛ الطبري ١: ٢١١ ـ ٢١٢ / ٣٣٧ و ٣٤٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٣ / ١٧٣ و ١٧٨، عن السدّي.

(٤) الدرّ ١: ٨٣؛ الطبري ١: ٢١٣ / ٣٣٩. (٥) الطبري ١: ٢١٣ / ٣٤١.

فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين، مثلاً للمنافقين الّذين بالمدينة، وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبيّ ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فَرَقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء، أو يُذكروا بشيء فيقتلوا كما كان ذانك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما وإذا ﴿أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ فإذا كثرت أموالهم وولدهم وأصابوا غنيمة وفتحاً ﴿مَّشَوْا فِيهِ﴾ وقالوا: إنّ دين محمّد حينئذ صدق واستقاموا عليه كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء بهما البرق ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ فكانوا إذا هلكت أموالهم وولدهم وأصابهم البلاء، قالوا هذا من أجل دين محمّد وارتدّوا كفّاراً، كما كان ذانك المنافقان حين أظلم البرق عليهما.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدّي، مثله[١].

[٢/ ٤٩٠] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِم﴾ قال: كان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فَرَقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزّل فيهم شيء أو يُذكروا بشيء فيقتلوا.[٢] أي فيفضحوا ويفضح نفاقهم فيعاقبوا.

[٢/ ٤٩١] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. قال: هذا مثل ضربه الله للمنافق لجبنه، لا يسمع صوتاً إلّا ظنّ أنّه قد أتي، ولا يسمع صياحاً إلّا ظنّ أنّه ميّت. أَجْبَنُ قوم وأَخْذَلُه للحقّ، وقال الله في آية أُخرى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[٣] ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ قال: الْبَرْقُ هو الإسلام و الظلمة هو البلاء والفتنة. فإذا رأى المنافق من الإسلام طمأنينة وعافية ورخاء وسلوة من عيش ﴿قالوا: إنّا معكم﴾ ومنكم، وإذا رأى من الإسلام شدّة وبلاء حَقْحَقَ[٤] عندها فلا يصبر لبلائها ولم يحتسب أجرها ولم يرجُ عاقبتها. إنّما هو صاحب دنيا، لها يغضب ولها يرضى، وهو كما نعته الله[٥].

[٢/ ٤٩٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ ضرب للمنافقين مثلا فقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ

---

(١) الدرّ ١: ٨١ ـ ٨٢؛ الطبري ١: ٢٢٣/ ٣٧٩.
(٢) ابن أبي حاتم ١: ٥٦/ ١٩٦.
(٣) المنافقون ٦٣: ٤.
(٤) الحقحقة: الوقفة في السير لشدّة التعب.
(٥) الدرّ ١: ٨٣؛ الطبري ١: ٢٢٤/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤. وتقدّم الحديث عن الطبري ذيل الآية السابقة.

السَّمَآءِ﴾ يعني المطر ﴿فِيهِ ظُـلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ﴾ مثل المطر مثل القرآن، كما أنّ المطر حياة للناس فكذلك القرآن حياة لمن آمن به. ومثل الظلمات يعني الكافر بالقرآن يعني الضلالة الّتي هم فـيها، ومثل الرعد ما خُوّفوا به من الوعيد في القرآن، ومثل البرق الّذي في المطر مثل الإيمان وهو النور الّذي في القرآن ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ يقول: مثل المنافق إذا سمع القرآن فصمّ أذنيه كراهية للقرآن كمثل الّذي جعل أصبعيه في أذنيه من شدّة الصواعق ﴿حَـذَرَ الْمَوْتِ﴾ يـعني مخافة الموت. يقول: كما كره الموت من الصاعقة فكذلك يكره الكافر القرآن، فالموت خير له من الكفر بالله ـ عزّ وجلّ ـ والقرآن. ﴿وَ اللهُ مُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني أحاط علمه بالكافرين(١).

[٤٩٣/٢] وأخرج عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أو كصيّب﴾ الآية. قال: الصيّب: المطر. وهو مثل المنافق في ضوء ما تكلّم بما معه من كتاب الله، وعمل مراءاة للناس، فإذا خلا وحده عمل بغيره، فهو في ظلمة ما أقام على ذلك، وأمّا ﴿الظلمات﴾ فالضلالة، وأمّا ﴿البرق﴾ فالإيمان. وهم أهل الكتاب ﴿وَ إِذَآ أَظْـلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو رجل يأخذ بطرف الحقّ لا يستطيع أن يجاوزه(٢).

[٤٩٤/٢] وروي عن ابن عبّاس: أنّه مثل للقرآن، شبّه المطر المنزل من السماء، بالقرآن. وما فيه الظلمات، بما في القرآن من الابتلاء. وما فيه من الرعد، بما في القرآن من الزجر. وما فيه من البرق، بما فيه من البيان وما فيه من الصواعق، بما في القرآن من الوعيد آجلاً والدعاء إلى الجهاد عاجلاً(٣).

[٤٩٥/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحّاك بن مزاحم في قوله: ﴿فِيهِ ظُـلُمَاتٌ﴾ قال: أمّا الظلمات فالضلالة، والبرق: الإيمان(٤).

[٤٩٦/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُـلُمَاتٌ﴾ قال: ابتلاء(٥).

[٤٩٧/٢] وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُـلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ﴾ قال: مثل ضُرِبَ للكفّار(٦).

[٤٩٨/٢] وقال عليّ بن ابراهيم في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ﴾: أي كمطر، وهو مثل الكفّار(٧).

---

(١) تفسير مقاتل ١: ٩٢.
(٢) الدرّ ١: ٨٢؛ الطبري ١: ٢٢٣ / ٣٨٠.
(٣) التبيان ١: ٩٣؛ مجمع البيان ١: ١١٨.
(٤) الطبري ١: ٢٢٥ / ٣٨٦. ومثله عن ابن عبّاس.
(٥) الطبري ١: ٢٢٣ / ٣٨١؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٤ / ١٨٢.
(٦) الطبري ١: ٢٢٥ / ٣٨٩.
(٧) القمي ١: ٣٤.

[٤٩٩/٢] وأخرج وكيع وعبدبن حميد وأبو يعلى في مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة من طرق عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ﴾ قال: المطر.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد والربيع وعطاء، مثله(١).

[٥٠٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود و عن ناس من أصحاب النبي ﷺ: الصيّب: المطر(٢).

[٥٠١/٢] وأخرج عن ابن جُريج: قال: قال لي عطاء: الصيّب: المطر(٣).

[٥٠٢/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنّما الصيّب من هاهنا»، وأشار بيده إلى السماء(٤).

[٥٠٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ﴾ قال: القطر(٥).

[٥٠٤/٢] وعن عبدالرحمان بن زيد، قال: أو كغيث من السماء(٦).

[٥٠٥/٢] وقال الضحّاك: هو السحاب(٧).

[٥٠٦/٢] وقال سفيان: الصيّب: الّذي فيه المطر(٨).

[٥٠٧/٢] وقال مجاهد: الصيّب: الربيع(٩).

* * *

(١) الدرّ ١: ٨٣؛ أبو يعلى ٥: ٧١ / ٢٦٦٤؛ الطبري ١: ٢١٥ / ٣٤٦ عن ابن عبّاس و ٣٤٧ عن مجاهد، و ٣٤٨ عن الربيع و ٣٥٠ عن عطاء؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٤ / ١٨٠، وزاد: قال أبو محمّد وكذلك فسرّه أبو العالية والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعطيّة العوفي وقتادة وعطاء الخراساني والسدّي والربيع بن أنس؛ العظمة ٤: ١٢٦٢ / ٧٤٣، باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله) ورقم ٧٤٤ عن مجاهد بعين اللفظ ورقم ٧٤٥ عن حكيم بن جابر ايضاً بعينه؛ البخاري ٢: ٢١؛ مجمع الزوائد ٦: ٣١٣؛ ابن كثير ١: ٥٧.

(٢) الطبري ١: ٢١٥ / ٣٤٥.

(٣) الطبري ١: ٢١٤ / ٣٤٣؛ ابن كثير ١: ٥٧؛ التبيان ١: ٩١، ثمّ قال الشيخ ﷺ: وبه قال ابن مسعود وجماعة من الصحابة وبه قال قتادة.

(٤) الدرّ ١: ٨٣؛ الأوسط ٩: ١٣٩ / ٩٣٥٣؛ مجمع الزوائد ٢: ٢١٦.

(٥) الطبري ١: ٢١٤ / ٣٤٢؛ التبيان ١: ٩١.

(٦) الطبري ١: ٢١٥ / ٣٤٩.

(٧) ابن كثير ١: ٥٨.

(٨) الطبري ١: ٢١٥ / ٣٥٠.

(٩) التبيان ١: ٩١.

[٥٠٨/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد، قال: الرعد: ملك يزجر السحاب بصوته[١].

[٥٠٩/٢] وأخرج عن شهر بن حوشب قال: الرعد: ملك موكّل بالسحاب، يسوقه كما يسوق الحادي الإبلَ، يُسبّح[٢] كلّما خالفت سحابةٌ سحابةً صاح بها، فإذا اشتدّ غضبه طارت النار من فيه، فهي الصواعق الّتي رأيتم[٣].

[٥١٠/٢] وأخرج عن ابن عبّاس، قال: الرعد: ملك من الملائكة اسمه الرعد، وهو الّذي تسمعون صوته[٤].

[٥١١/٢] وأخرج الترمذي بإسناده إلى ابن عبّاس قال: «سألت اليهود النّبيﷺ عن الرعد ما هو؟ قال: ملك من الملائكة موكّل بالسحاب معه مخاريق[٥] من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله. فقالوا: فما هذا الصوت الّذي نسمع؟ قال: زجرُه بالسحاب إذا زجره حتّى ينتهي إلى حيث أُمِر. قالوا: صدقت»[٦].

[٥١٢/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي مالك، عن ابن عبّاس، قال: الرعد: ملك يزجر السحاب بالتسبيح والتكبير[٧].

---

(١) الطبري ١: ١١٧ و ٢١٨ / ٣٥١ و ٣٥٧؛ الدرّ ٤: ٦٢٣، سورة الرعد، الآية ١٣.

(٢) اي تلك الصيحة هي تسبيحه.

(٣) الطبري ١: ٢١٨ / ٣٥٣؛ البغوي ١: ٩١، بلفظ: قال شهر بن حوشب: الرعد ملك يزجر السحاب فإذا تبدّدت ضمّها، فإذا اشتدّ غضبه طارت من فيه النار فهي الصواعق؛ التبيان ١: ٩٣، بلفظ: روى شهر بن حوشب: إنّ الملك إذا اشتدّ غضبه طارت النار من فيه فهي الصواعق؛ أبو الفتوح ١: ١٤٥؛ الدرّ ٤: ٦٢٢؛ سورة الرعد، الآية ١٣؛ وفيه: أنّ الرعد ملك يزجر السحاب كما يحثّ الراعي الابل، فإذا شذّت سحابة ضمّها، فإذا اشتدّ غضبه طار من فيه النار، فهي الصواعق؛ الثعلبي ١: ١٦٣. وفيه: «الرعد ملك يزجي السحاب كما يحثّ الراعي الابل فإذا انتبذت السحاب ضمّها. فإذا اشتدّ غضبه طار من فيه النار فهي الصواعق».

(٤) الطبري ١: ٢١٨ / ٣٥٤؛ الدرّ ٤: ٦٢١ ـ ٦٢٢ نقلاً عن ابن جرير وابن مردويه عن ابن عبّاس، بتفاوت. سورة الرعد، الآية ١٣.

(٥) مخاريق: جمع مِخراق، آلة شبه سوط يضرب بها البهائم. وهو في الأصل ثوب يُلفّ ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً في لعبهم.

(٦) الترمذي ٤: ٣٥٦ ـ ٣٥٧ / ٥١٢١، أبواب تفسير القرآن، سورة الرعد؛ النسائي ٥: ٣٣٧ / ٩٠٧٢؛ القرطبي ١: ٢١٧.

(٧) الطبري ١: ٢١٨ / ٣٥٥؛ الدرّ ٤: ٦٢٢، سورة الرعد، الآية ١٣.

[٥١٣/٢] وأخرج عن مجاهد، عن ابن عبّاس، قال: الرعد: اسم ملك، وصوته هذا تسبيحه، فإذا اشتدّ زجره السحابَ اضطرب السحاب واحتك فتخرج الصواعق من بينه[١].

[٥١٤/٢] وأخرج عن شهر بن حوشب عن ابن عبّاس، قال: الرعد: ملك يسوق السحاب بالتسبيح، كما يسوق الحادي الإبل بحدائه[٢].

[٥١٥/٢] وأخرج عن عكرمة، قال: الرعد: ملك في السحاب يجمع السحاب كما يجمع الراعي الإبل[٣].

[٥١٦/٢] وعنه أيضاً قال: الرعد: ملك يسوق السحاب كما يسوق الراعي الإبل[٤].

[٥١٧/٢] وعن قتادة، قال: الرعد: خَلْقٌ من خَلْقِ الله سامع مطيع لله ـ جلّ و عزّ ـ[٥].

[٥١٨/٢] وعن عكرمة، قال: إنّ الرعد ملك يؤمر بإزجاء السحاب فيؤلّف بينه، فذلك الصوت تسبيحه[٦].

[٥١٩/٢] وأخرج عن أبي صالح قال: الرعد: ملك من الملائكة يسبّح[٧].

[٥٢٠/٢] وأخرج عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، قال: كان ابن عبّاس إذا سمع الرعد، قال: سبحان الّذي سبّحت له، قال: وكان يقول: إنّ الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه[٨].

* * *

[٥٢١/٢] وعن ابن عبّاس: البرق مخاريق بأيدي الملائكة يزجرون بها السحاب[٩].

---

(١) الطبري ١: ٢١٨ / ٣٥٦؛ الدرّ ٤: ٦٢٢.

(٢) الطبري ١: ٢١٨ / ٣٥٧؛ الدرّ ٤: ٦٢١، سورة الرعد، الآية ١٣.

(٣) الطبري ١: ٢١٨ / ٣٥٨؛ الدرّ ٤: ٦٢٢، بلفظ:... عن عكرمة قال: إنّ الرعد ملك من الملائكة وُكّل بالسحاب يسوقها كما يسوق الراعي الإبل.

(٤) الطبري ١: ٢١٩ / ٣٦٤؛ الثعلبي ١: ١٦٣ بنحوه.

(٥) الطبري ١: ٢١٨ / ٢١٨.

(٦) الطبري ١: ٢١٨ / ٣٦٠. والإزجاء: السياقة والدفع برفق.

(٧) الطبري ١: ٢١٧ / ٣٥٢.

(٨) الطبري ١: ٢١٩ / ٣٦٥. قوله: «سَبَّحت له» أي سبَّحتِ السُحُب أو السماوات.

(٩) الطبري ١: ٢٢٠ / ٣٦٩؛ كنزالعمّال ٦: ١٧٠ / ١٥٢٣٩.

[٥٢٢/٢] وعنه أيضاً: هو سوط من نور يزجر به الملكُ السحابَ(١).

[٥٢٣/٢] وعن مجاهد، قال: البرق: مَصْع مَلَك(٢).(٣).

[٥٢٤/٢] وعن محمّد بن مسلم الطائفي، قال: بلغني أنّ البرق ملك له أربعة أوجه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مصع بأجنحته فذلك البرق(٤).

[٥٢٥/٢] وعن شعيب الجبّائي، قال: في كتاب الله الملائكة حملة العرش، لكلّ ملك منهم وجه إنسان، وثور، وأسد، فإذا حرّكوا أجنحتهم فهو البرق. وقال أمية بن أبي الصلت:

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ   والنَّسْرُ للأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصدُ(٥)

[٥٢٦/٢] وعن مجاهد عن ابن عبّاس قال: البرق: ملك(٦).

[٥٢٧/٢] وقال ابن عبّاس: البرق ملك يُتراءى(٧).

[٥٢٨/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جريج، قال: الصواعق ملك يضرب السحاب بالمخاريق يصيب منه من يشاء(٨).

ملحوظة

لعلّك تستغرب تفسير الرعد أو البرق بالمَلَك وسياطه وزجره للسحب.

لكنّا قد نبّهنا ـ مسبقاً ـ أنّ القوى العاملة في الطبيعة قد عبّر عنها بالملائكة سواء أكانت عاقلة كجبريل وميكال. أو غير عاقلة كالعوامل الطبيعية الّتي هي رهن إرادة الله تعالى في الخلق والتدبير.

فالتعابير في هكذا نصوص، إنّما هي تعابير كنائيّة، من قبيل الاستعارة في الكلام، فلا تغفل.

---

(١) الطبري ١: ٢٢٠ / ٣٧٠؛ القرطبي ١: ٢١٧.

(٢) يقال: مَصَعَ البرقُ: لَمَعَ. الدابّةُ بذنبها: حرّكته. ومصع فلاناً: ضربه بسوطٍ ونحوه.

(٣) الطبري ١: ٢٢١ / ٣٧٣؛ الدرّ ٤: ٦١٩، سورة الرعد، الآية ١٢، بلفظ: عن مجاهد قال: البرق مصع ملك، يسوق السحاب.

(٤) الطبري ١: ٢٢١ / ٣٧٤؛ الدرّ ٤: ٦١٩، وفيه: فإذا مصع بذنبه فذلك البرق.

(٥) الطبري ١: ٢٢١ / ٣٧٥؛ الدرّ ٤: ٦١٩.

(٦) الطبري ١: ٢٢١ / ٣٧٦.

(٧) القرطبي ١: ٢١٧؛ الدرّ ٤: ٦١٩، سورة الرعد الآية ١٢.(٨) الطبري ١: ٢٢٢ / ٣٧٧.

حديث مفترى

هناك روايات وردت بشأن مراجعة ابن عبّاس لأهل الكتاب في التاريخ واللغة والآداب، ولاسيّما فيما يمسّ تفسير القرآن، الأمر الّذي نستغربه جدّاً مع وفرة أفاضل أمجاد من الصحابة الأعلام.

والّذي يزيد غرابةً في ذلك أنّ الأسئلة الّتي ـ زعموا ـ وجّهها ابن عبّاس إلى أولئك اليهود هي مسائل تافهة وبسيطة جدّاً، ليس ينبغي لمثل حبر الأمّة السؤال عنها من أناس جهلاء لاشأن لهم في العلم والمعرفة سوى كونهم يقرأون سطوراً من صحف محرّفة. ولعلّهم كانوا أحوج إلى السؤال من مثل ابن عبّاس!

[٥٢٩/٢] هذا ابن جرير الطبري يروي بإسناده إلى أبي كثير، قال: كنت عند أبي الجَلْد إذ جاءه رسول ابن عبّاس بكتاب إليه. فكتب إليه: تسألني عن البرق، فالبرق: الماء[1].

[٥٣٠/٢] وفي حديث آخر بنفس الإسناد: كتب إليه: كتبت تسألني عن الرعد، فالرعد: الريح[2].

يا تُرى هل يجهل مثل ابن عبّاس ـ وهو العربيّ الصميم ـ معنى الرعد والبرق، حتّى يسأل رجلاً غريباً في حياته، مجهولاً في نَسَبه وحَسَبه؟!

[٥٣١/٢] وهكذا أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كتب ابن عبّاس إلى أبي الجلد يسأله عن الصواعق، فكتب إليه: أنّ الصواعق مخاريق يزجر بها السحاب[3].

ثمّ من هو أبو الجلد؟

ذكر ابن سعد في الطبقات أنّ أبا الجلد الجَوْني ـ حيٌّ من الأزد ـ اسمه جيلان بن فروة، كان يقرأ الكتب. وزعمت ابنته ميمونة: أنّ أباها كان يقرأ القرآن في كلّ سبعة أيّام. ويختم التوراة في ستّةٍ، يقرأها نظراً. فإذا كان يوم يختمها حُشد لذلك ناس[4]!

لا شكّ أنّها مغالاة من ابنته، يقول جولد تسيهر: ولايتّضح حقّاً من هذا الخبر الغامض، الّذي

---

(١) المصدر: ٢٢١ / ٣٧١.
(٢) المصدر: ٢١٩ / ٣٦٦.
(٣) ابن أبي حاتم ١: ٥٦ / ١٩٧.
(٤) الطبقات ٧: ٢٢٢.

زادته مغالاة ابنته غموضاً. أيّ نسخةٍ من التوراة كان يستخدمها في دراسته[١].

وقد كانت دراستنا بهذا الشأن وافية، في كتابنا «التفسير والمفسّرون» (الجزء التاسع من التمهيد) فراجع.

مخاريق هزيلة

[٥٣٢/٢] اسندوا إلى ابن عبّاس أنّه قال: كنّا مع عمربن الخطاب في سفرةٍ بين المدينة والشام ومعنا كعب الأحبار، قال: فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرق، وفَرِقَ الناس[٢]. قال: فقال لي كعب: إنّه من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، عُوفي ممّا يكون في ذلك السحاب والبرد والصواعق. قال: فقلتها أنا وكعب فلمّا أصبحنا واجتمع الناس، قلت لعمر: يا أمير المؤمنين، كأنّا كنّا في غير ما كان فيه الناس! قال: وما ذاك؟ قال: فحدّثته حديث كعب، قال: سبحان الله! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم!

ـ وفي رواية ـ فإذا بَرَدَةٌ[٣] قد أصابت أنف عمر فأثّرت به.

قال القرطبي: ذكر الروايتين أبوبكر أحمدبن عليّ بن ثابت الخطيب البغدادي في روايات الصحابة عن التابعين[٤].

قلت: ما أعلى كعب كعب عند هؤلاء المساكين حسبوا من رأس اليهود عملاقاً يعلم كلّ شيء ويفوق علمه علم الصحابة النبهاء، فيالها من مخلقة تنبو بها روح الإسلام الزكيّة الطاهرة!

وأورد القرطبي هذا الخبر في تفسير سورة الرعد، جاء فيه:

[٥٣٣/٢] وذكر الخطيب من حديث سليمان بن عليّ بن عبدالله بن عبّاس عن أبيه عن جدّه قال: كنّا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبَرَد، فقال لنا كعب: من قال حين سمع الرعد: «سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته» ثلاثاً عُوفي ممّا يكون في ذلك الرعد. ففعلنا فعوفينا.

قال: ثمّ لقيت عمربن الخطّاب فإذا بَرَدة قد أصابت أنفه فأثّرت به، فقلت: يا أميرالمؤمنين ما هذا؟ قال: بَرَدة أصابت أنفي فأثّرت فقلت: إنّ كعباً حين سمع الرعد قال لنا: من قال حين يسمع

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي: ٨٦.

(٢) فَرِقَ: فَزِعَ.

(٣) البَرَدة ـ بالتحريك ـ: حبّ الغمام.

(٤) القرطبي ١: ٢١٨.

الرعد: «سبحان من يُسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته» ثلاثاً عُوفي ممّا يكون في ذلك الرعد، فقلنا فعُوفينا! فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتّى تقولها؟[1]

قلت: لاشكّ أنّه خبر موضوع، بعد تظافر الروايات عن رسول الله ﷺ أنّه هو الّذي علّم أصحابه ذلك:

[٥٣٤/٢] فيما رواه أبو هريرة عنه ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كلّ شيء قدير»، فإن أصابته صاعقة فعَلَيَّ ديته[2].

ولفظة «كان» تدلّ على تداومه ﷺ على ذلك على ملاء من أصحابه.

[٥٣٥/٢] ومن ثمّ روي عن ابن عبّاس أيضاً كان يقول: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الّذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كلّ شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعَلَيَّ ديته.

[٥٣٦/٢] وهكذا كان عبدالله بن الزبير إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته. ويقول: إنّ هذا الوعيد لأهل الارض شديد[3].

وهكذا روى الثعلبي في تفسيره[4].

[٥٣٧/٢] وأخرج أحمد عن حجاج بن أرطأة عن أبي مطر عن سالم يحدّث عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «أللهمّ لاتقتلنا بغضبك ولاتُهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك»[5].

[٥٣٨/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة: أنّه كان يتأوّل قوله: ﴿حَذَرَ الْمَوتِ﴾ حذراً من الموت[6].

[٥٣٩/٢] وأخرج عن ابن جريج قال: ليس شيءٌ في الأرض سمعه المنافق إلّا ظنّ أنّه يراد به

---

(١) القرطبي ٩: ٢٩٨.

(٢) هكذا رواه القرطبي في التفسير ٩: ٢٩٨ وراجع: الثعلبي ٥: ٢٧٩.

(٣) البغوي ٣: ١١.

(٤) الثعلبي ٥: ٢٧٩.

(٥) مسند أحمد ٢: ١٠٠ ـ ١٠١؛ الثعلبي ٥: ٢٧٩؛ البغوي ١: ٩١.

(٦) الطبري ١: ٢٢٧ / ٣٩٠.

وأنّه الموت كراهية له، والمنافق أكره خلق الله للموت، كما إذا كانوا بالبَراز[١] في المطر فرّوا من الصواعق[٢].

[٥٤٠/٢] وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يقول: الله منزل ذلك بهم من النقمة[٣].

[٥٤١/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال: جامعهم في جهنّم[٤].

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[٥٤٢/٢] أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ قال: يلتمع ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ ولمّا يخطف. وكلّ شيء في القرآن «كاد، وأكاد، وكادوا» فإنّه لا يكاد، أبداً[٥].

قوله: أبداً أي هذا الحكم سارٍ في جميع القرآن عامّةً.

[٥٤٣/٢] وقال عليّ بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: أي يُعمي[٦].

[٥٤٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: يكاد محكم القرآن يدلّ على عورات المنافقين ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَشَوْا فِيهِ﴾ يقول: كلّما أصاب المنافقون من الإسلام عزّاً اطمأنوا، وإن أصابوا من الإسلام نكبة، قالوا: ارجعوا إلى الكفر. يقول: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ...﴾ الآية[٧].[٨].

---

(١) البراز ـ بفتح الباء ـ: الخلاء، الأرض الواسعة الّتي تخلو عن أعين الناظرين.

(٢) الطبري ١: ٢٢٥ / ٣٨٨.

(٣) الطبري ١: ٢٢٨ / ٣٩٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٧ / ١٩٩.

(٤) الدرّ ١: ٨٣؛ الطبري ١: ٢٠٧ / ٣٩١؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٧ / ٢٠٠.

(٥) الدرّ ١: ٨٣ ـ ٨٤؛ الطبري ١: ٢٢٩ / ٣٩٣، بلفظ: «يلتمع أبصارهم ولمّا يفعل»؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٧ / ٢٠٤، إلى قوله: «ولمّا يخطف».

(٦) القمي ١: ٣٤.

(٧) الحجّ ٢٢: ١١.

(٨) الطبري ١: ٢٢٤ / ٣٨١.

[٥٤٥/٢] وأخرج عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿فِيهِ ظُـلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ﴾ قال: مثلهم كمثل قوم ساروا في ليلة مظلمة ولها مطر ورعد وبرق على جادّة[1]، فلما أبرقت أبصروا الجادّة فمضوا فيها، وإذا ذهب البرق تحيّروا. وكذلك المنافق كلّما تكلّم بكلمة الإخلاص أضاء له، فإذا شكّ تحيّر ووقع في الظلمة، فكذلك قوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَـهُم مَّشَـوْا فِـيهِ وَ إِذَآ أَظْـلَمَ عَـلَيْهِمْ قَـامُوا﴾ ثـمّ قـال: فـي أسماعهم وأبصارهم الّتي عاشوا بها في الناس: ﴿وَ لَوْ شَآءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ﴾[2].

[٥٤٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ قال ـ سبحانه ـ: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ الّذي في المطر ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يعني يذهب بأبصارهم من شدّة نوره. يقول ـ سبحانه: مثل الإيمان إذا تكلّم به المنافق مثل نور البرق الّذي يكاد أن يذهب بأبصارهم ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ البرق ﴿مَّشَوْا فِـيهِ﴾ يـقول كـلّما تكلّموا بالإيمان مضوا فيه يقول: ويضيء لهم نورا يهتدون به ﴿وَ إِذَآ أَظْـلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ البرق أي ذهب ضوءه ﴿قَامُوا﴾ في ظلمة لايبصرون الهدى ﴿وَ لَوْ شَآءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون ﴿وَ أَبْصَارِهِمْ﴾ فلا يرون أبداً، عقوبة لهم ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ذلك وغيره[3].

[٥٤٧/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: إضاءة البرق وإظلامه على نحو ذلك المثل[4].

[٥٤٨/٢] وأخرج عن سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿فِيهِ ظُـلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَ إِذَآ أَظْـلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ قال: فالمنافق إذا رأى في الإسلام رخاء أو طمأنينة أو سلوة من عيش، قال: أنا معكم وأنا منكم؛ وإذا أصابته شدّة حقحق[5] والله عندها فانقُطع بـه[6] فـلم يـصبر عـلى بـلائها، ولم يحتسب أجرها، ولم يَرْجُ عاقبتها[7].

[٥٤٩/٢] وأخرج عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿فِيهِ ظُـلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ﴾ يقول: أخبر عن قوم لايسمعون شيئاً إلّا ظنّوا أنّهم هالكون فيه حذراً من الموت، والله محيط بالكافرين. ثمّ ضرب لهم مثلاً آخر فقال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ يقول: هذا المنافق، إذاكثر ماله

---

(١) الجادّة: الطريق اللائح.

(٢) الطبري ١: ٢٢٥ / ٣٨٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٩ / ٢١٠ و ٢١٢.

(٣) تفسير مقاتل ١: ٩٢ ـ ٩٣.

(٤) الطبري ١: ٢٢٤ / ٣٨٢.

(٥) الحقحقة: الوقفة في السير لشدّة التعب.

(٦) يقال: انقطع به السير أي وقف فلم يطق الحراك.

(٧) الطبري ١: ٢٢٤ / ٣٨٣.

وكثرت ماشيته وأصابته عافية قال: لم يصبني منذ دخلت في ديني هذا إلّا خير، ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ يقول: إذا ذهبت أموالهم وهلكت مواشيهم وأصابهم البلاء قاموا متحيّرين(١).

[٥٥٠/٢] وأخرج الثعلبي عن الوالبي عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ قال: هم اليهود لمّا نُصر رسول الله ﷺ ببدر طمعوا وقالوا: هذا والله النبيّ الّذي بشّرنا به موسى لاتردّ له راية. فلمّا نكب بأُحد ارتدّوا وسكتوا(٢).

[٥٥١/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالرحمان بن زيد في قوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ فقرأ حتّى بلغ: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال: هذا أيضاً مثل ضربه الله للمنافقين، كانوا قد استناروا بالإسلام كما استنار هذا بنور هذا البرق(٣).

[٥٥٢/٢] وأخرج أحمد بإسناده عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصفَح. فأمّا القلب الأجرد فقلب المؤمن، فسراجه فيه نوره، وأمّا القلب الأغلف فقلب الكافر، وأمّا القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثمّ أنكر، وأمّا القلب المُصفَح فقلب فيه إيمان و نفاق، ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيّب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأيّ المادّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»(٤). قال ابن كثير: وهذا إسناد جيّد حسن.

[٥٥٣/٢] وروي عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ قال: أي ثبتوا على نفاقهم(٥).

[٥٥٤/٢] وقيل: المعنى كلّما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت النعم قالوا: دين محمّد دينٌ مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سخطوا وثبتوا في نفاقهم، عن ابن مسعود وقتادة(٦).

---

(١) الطبري ١: ٢٢٤ ـ ٢٢٥ / ٣٨٤؛ الثعلبي ١: ١٦٥ ـ ١٦٦ بمعناه.

(٢) الثعلبي ١: ١٦٦؛ القرطبي ١: ٢٢٤. (٣) الطبري ١: ٢٢٥ / ٣٨٧.

(٤) مسند أحمد ٣: ١٧؛ الدرّ ١: ٢١٥؛ مجمع الزوائد ١: ٦٣. وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الصغير؛ ابن كثير ١: ٥٩. والمُصْفَح: المتقلّب. يقال: أصفح الشيءَ أي قلّبه. (٥) القرطبي ١: ٢٢٣.

(٦) المصدر.

[٢/٥٥٥] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قال: لما تركوا من الحقّ بعد معرفته[١].

[٢/٥٥٦] وعن الربيع بن أنس، قال: ثمّ قال، يعني قال الله: في أسماعهم، يعني أسماع المنافقين وأبصارهم الّتي عاشوا بها في الناس: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[٢/٥٥٧] قال ابن عبّاس: أي إنّ الله على كلّ ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير[٣].

[٢/٥٥٨] وروى الصدوق بإسناده إلى أبي هاشم الجعفري عن أبي جعفر الثاني عليه السلام في حديث طويل جاء فيه: «قولك: إنّ الله قدير، خبّرت أنّه لايُعجزه شيء، فنفيت بالكلمة العجز، وجعلت العجز سواه»[٤].

[٢/٥٥٩] وبإسناده إلى أبي بصير وقال: سمعت أبا عبدالله يقول: «لم يزل الله ـ عزّ وجلّ ـ ربّنا والعلم ذاته ولامعلوم، والسمع ذاته ولامسموع، والبصر ذاته ولا مُبْصَر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور»[٥].

[٢/٥٦٠] وبإسناده إلى عمروبن أذينة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قيل لأميرالمؤمنين: هل يقدر ربّك أن يُدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ قال: إنّ الله تبارك وتعالى لاينسب إلى العجز، والّذي سألتني لايكون»[٦].

---

(١) ابن كثير ١: ٥٩؛ الطبري ١: ٢٣٠ / ٣٩٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٩ / ٢١٣.

(٢) الطبري ١: ٢٣١ / ٣٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٩ / ٢١٢، عن أبي العاليه.

(٣) ابن كثير ١: ٥٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٩ / ٢١٤، عن محمّد بن إسحاق.

(٤) التوحيد: ١٩٣ / ٧، باب ٢٩ (اسماء الله تعالى و...)؛ الكافي ١: ١١٦ ـ ١١٧ / ٧، كتاب التوحيد باب: معاني الأسماء واشتقاقها؛ البحار ٤: ١٥٣ ـ ١٥٤ / ١.

(٥) التوحيد: ١٣٩ / ١؛ الكافي ١: ١٠٧ / ١؛ البحار ٤: ٧١ ـ ٧٢ / ١٨.

(٦) التوحيد: ١٣٠ / ٩، باب ٩ (القدرة)؛ البحار ٤: ١٤٣ / ١٠. والمعنى: أنّ العجز في القابل لا في الفاعل.

[٥٦١/٢] وبإسناده إلى ابن أبي عمير عمّن ذكره عن أبي عبدالله ﷺ قال: «إنّ إبليس قال لعيسى بن مريم ﷺ: أيقدر ربّك على أن يُدخل الأرض بيضة لا تصغر الأرض ولا تكبر البيضة؟ فقال عيسى ﷺ. ويلك إنّ الله تعالى لايُوصف بعجز، ومن أَقْدَرُ ممّن يُلطّف الأرض ويعظّم البيضة!؟»(١)

[٥٦٢/٢] وبإسناده إلى أبان بن عثمان عن أبي عبدالله ﷺ قال: «جاء رجل إلى أمير المؤمنين ﷺ فقال: أيقدر الله أن يُدخل الأرض في بيضة ولاتصغر الأرض ولاتكبر البيضة؟ فقال له: ويلك إنّ الله لايُوصف بالعجز، ومن أَقْدر ممّن يلطّف الأرض ويعظّم البيضة»(٢).

[٥٦٣/٢] وبإسناده إلى محمّد بن أبي إسحاق الخفاف قال: حدّثني عدّة من أصحابنا أنّ عبدالله الديصاني أتى هشام بن الحكم فقال له: ألك ربّ؟ فقال: بلى. قال: قادر؟ قال: نعم، قادر قاهر. قال: يقدر أن يدخل الدنيا كلّها في البيضة، لاتكبر البيضة ولاتصغر الدنيا؟ فقال هشام: النظرة، فقال له: قد أنظرتك حولا، ثمّ خرج عنه، فركب هشام إلى أبي عبدالله ﷺ فاستأذن عليه فأذن له، فقال له: يا ابن رسول الله! أتاني عبدالله الديصاني بمسألة ليس المعول فيها إلّا على الله وعليك؛ فقال له أبو عبدالله ﷺ: عمّا ذا سألك؟ فقال: قال لي كيت وكيت، فقال أبو عبدالله ﷺ: «يا هشام! كم حواسّك؟ قال: خمس، قال: أيّها أصغر؟ قال: الناظر، قال: وكم قدر الناظر؟ قال: مثل العدسة أو أقلّ منها، فقال له: يا هشام! فانظر أمامك وفوقك وأخبرني بماترى، فقال: أرى سماءً وأرضاً ودُوراً وقصوراً وتراباً وجبالا وأنهاراً، فقال له أبو عبدالله ﷺ: إنّ الّذي قدر أن يُدخل الّذي تراه، العدسة أو أقلّ منها، قادر أن يُدخل الدنيا كلّها البيضة لاتصغر الدنيا ولا تكبر البيضة». فانكبّ هشام عليه وقبّل يديه ورأسه ورجليه وقال: حسبي يا ابن رسول الله(٣).

[٥٦٤/٢] وبإسناده إلى أحمد بن محمّدبن أبي نصر قال: «جاء رجل إلى الرضا ﷺ فقال له: هل يقدر ربّك أن يجعل السماوات والأرض وما بينهما في بيضة؟ فقال: نعم، وفي أصغر من البيضة قد

---

(١) التوحيد: ١٢٧ / ٥، باب ٩ (القدرة)؛ البحار ٤: ١٤٢ / ٩.

(٢) التوحيد: ١٣٠ / ١٠؛ البحار ٤: ١٤٣ / ١١.

(٣) التوحيد: ١٢٢ ـ ١٢٣ / ١، باب ٩ (القدرة)؛ الكافي ١: ٧٩ / ٤، كتاب التوحيد باب حدوث العالم وإثبات المحدث؛ البحار ٤: ١٤٠ / ٧.

جعلها في عينك وهو أقلّ من البيضة، لأنّك إذا فتحتها عاينت السماء والأرض وما بينهما، فلو شاء لأعماك عنها»[١].

إلمامة في شمول قدرته تعالى

كانت صفة القدرة من صفاته تعالى القديمة الذاتيّة، وكان وصف شمولها متناسباً مع عموم ربوبيّته، فإذ كان هو تعالى ربّاً لكلّ شيء، فاستدعى ذلك أن يكون قادراً على كلّ شيء.

إذ لاربوبيّة في غير مقدور. فلولا شمول قدرته تعالى لما كان خالقاً لكلّ شيء وربّاً لكلّ شيء في عالم الوجود.

هذا هو مقتضى ألوهيته تعالى الشاملة: ألوهيّة شاملة، فقدرة شاملة أيضاً، فخلق وتدبير شاملان.

غير أنّ شمول قدرته تعالى، إنّما يعني كلّ أمر ممكن في ذاته، مقدور في تحقّقه. حيث القدرة لا تتعلّق بالممتنع ذاتاً المستحيل، الأمر الّذي لايعني عجزاً في الفاعل، وإنّما هو عدم الصلاح في القابل محضاً.

فالممكنات بأسرها واقعة تحت قدرته تعالى، لايُعجزه شيء، ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[٢].

وإلى ذلك ينظر ما ورد من أحاديث البيضة، وأنّ النقص والعجز إنّما هو في القابل وليس في الفاعل، القادر المتعالي.

---

(١) التوحيد: ١٣٠ / ١١؛ البحار ٤: ١٤٣ / ١٢.
(٢) فاطر ٣٥: ٤٤.

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً
لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ
تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً
قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

هذا أوان الشروع في مقصود السورة الأصل وكانت دعوة الناس عامّتهم إلى عبادة الله خالصة ونبذ مداعي الشرك إطلاقاً، للحصول على الغاية المنشودة هي: صفة التقوى في النفس، وهي حالة يشعر بها الإنسان أنّه ليس مسترسلاً في منهوماته ومنشغلات نفسه، بل هو بفضل إنسانيّته يشعر بتعهّد في ذاته، ليجعله متقيّداً في سلوكه في ذات نفسه ومع بني جلدته، ومن ثمّ فهو يتحرّى التقيّد بالحدود المضروبة دون تصرّفاته المطلقة في حياته العامّة.

[٥٦٥/٢] قال الإمام أمير المؤمنين ﷺ ـ في خطاب كتبه إلى عثمان بن حنيف عامله بالبصرة ـ: «فما خُلقت ليَشغلني أكل الطيّبات، كالبهيمة المربوطة همّها علفُها، أو المرسلة شُغُلُها تَقَمُّمُها، تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يُراد بها، أو أُترك سُدىً، أو أهمل عابثاً، أو أَجُرَّ حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة»[١].

وبعدُ فعند ما يتمّ استعراض الصور الثلاث ـ من متعهّد وجاحد و مراوغ ـ يعود السياق إلى نداء الناس كافّة يدعوهم إلى اختيار الصورة الكريمة والمهتدية المفلحة: صورة المتّقين:

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٧٢، الكتاب ٤٤.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

إنّه نداء عامّ إلى كافّة البشريّة جمعاء، يدعوهم جميعاً لعبادة ربّهم الّذي تفرّد بالخلق والإيجاد. ومن ثمّ فوجب أن يتفرّد بالعبادة الخالصة. ولقد كان للعبادة هدف لعلّهم ينتهون إليه ليحققّوه، وهو حصول التقوى في النفس والالتزام والتعهّد في العمل في كافّة أنحاء الحياة.

* * *

وهنا يذكّرهم بمنسيّ نعمته ـ وهي ظاهرة في مرأى منهم و مسمع، فكيف بالخفيّ المحتاج إلى إمعان نظر ـ يذكّرهم ببركات الأرض تحتهم فراشاً، وبركات السماء فوقهم بناءً: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً ...﴾ وهو تعبير يشي باليسير في حياة البشر على هذه الأرض، وفي إعدادها لتكون لهم سكناً مريحاً وملجأً واقياً كالفراش. والناس يتناسون هذا الفراش الممهّد لهم، لطول ما ألفوه.

﴿وَالسَّمَآءَ بِنَـآءً﴾ فيها متانة البناء وتنسيق البناء. والسماء ذات علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض وبسهولة هذه الحياة. هي بحرارتها وضوئها وجاذبيّة أجرامها وتناسقها وسائر النسب بين الأرض وأكناف السماء، كلّ ذلك تمهيد لقيام الحياة على الأرض ومساعدة عليها مساعدة بانتظام. والّتي من بركاتها إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به:

﴿وَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

قد تكرّر ذكر إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به، في مواضع شتّى من القرآن، في معرض التذكير بنعم الله الجسام ولاشكّ أنّ الماء النازل من السماء هو مادّة الحياة الرئيسيّة للأحياء في الأرض جميعاً؛ فمنه تنشأ الحياة بكلّ أشكالها ودرجاتها ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].

وقصّة الماء في الأرض ودوره في حياة الناس، وتوقّف الحياة عليه في كلّ صورها وأشكالها. كلّ هذا ممّا لايقبل المماحكة، وإنّما تكفي الإشارة إليه والتذكير به في مقام الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهّاب.

وفي ذلك النداء تبرز كليّتان من كليّات التصوّر الإسلامي:

١ ـ وحدة الخالق لكلّ الخلائق ﴿الّذي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٢ ـ ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا

---

(١) الأنبياء ٢٢: ٣٠.

وَالسَّمَآءَ بِنَـآءً وَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[١].

فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان، وسماؤه مبنيّة بنظام، مُعينة بالماء الّذي تخرج به الثمرات رزقاً للإنسان. وهذا الانسجام والتوائم لممّا يدلّ بوضوح على وحدة الخالق المتعالي، وبالأحرى أن يكون متفرّداً في العبوديّة واللجوء إليه في جميع الحوائج.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَندَادًا وَ أَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

وأنتم تعلمون أنّه لا ندّ له، لا نظير له يعارضه، ولا شريك له يساعده، فالشرك به بعد هذا العلم تصرّف لا يليق، بل هو ظلم عظيم.

والنِدّ: المثل، إمّا نظير معارض، أو شريك مساعد.

[٥٦٦/٢] وفي الحديث: «قال رجل للنبيّ ﷺ: ما شاء الله وشئتَ! فقال له النبيّ: جَعَلتني لله نِدّاً؟ ما شاء الله وَحْدَه!»[٢]

* * *

ولقد كان اليهود يشكّكون في صحّة رسالة نبيّ الإسلام، وكان المنافقون يساندونهم ويثيرون الريب فيها، كما ارتاب المشركون وشكّكوا من قبل. فهنا يأتي القرآن ليتحدّى الجميع؛ إذ جاء الخطاب عامّاً إلى الناس جميعاً. يتحدّاهم بتجربة واقعيّة تفصل في الأمر وتفصم مادّة النزاع.

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهذا التحدّي ظلّ قائماً في حياة الرسول ﷺ وبعدها، ومايزال قائماً مرّ الأجيال. وهو حجّة قائمة في كلّ وقت، لاسبيل إلى المماحكة فيها. ومايزال القرآن متميّزاً من كلّ كلام يقوله البشر تمييزاً واضحاً قاطعاً. وسيظلّ كذلك مع الأبد. سيظلّ كذلك معجزةً خالدةً، وتصديقاً لقوله تعالى المعجز بنفس التعبير:

---

(١) الأنبياء ٢٢: ٣٠. راجع مباحثنا عن دور الماء في الحياة، عند الكلام عن الإعجاز العلمي للقرآن، في الجزء السادس من التمهيد: ٣٥ـ٤٦.

(٢) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ١: ٨٨ عن عدّة مصادر بألفاظ مختلفة ومتقاربة كما يأتي واللفظ هنا لأبي نعيم في الحلية ٤: ٩٩ في ترجمة يزيد بن الأصمّ (٢٥٢).

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

والتحدّي هنا عجيب، والجزم بعدم إمكانه أعجب! ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة. وما من شكّ أنّ تقرير القرآن الكريم أنّهم لن يفعلوه، وتحقّق هذا العجز على صفحة التاريخ كما قرّره القرآن، هو بذاته معجزة باهرة لاموضع للمماراة فيها. وهذه هي كلمة الفصل التاريخيّة الخالدة.

ومن ثمّ كان المراء فيها بعد هذا الوضوح، لاينشأ إلّا عن جهالة مقيتة أو غرض خبيث، فكان موضعاً لمثل هذا التهديد المخيف: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَ قُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

يعني: فإذ قد أمكنتكم الجهالاتُ والأحقادُ، الجحودَ والمماراةَ، فلتسعكم التحرُّزَ عن العقوبات الّتي تنتظركم، وهي من أشدّ العقوبات. وهي النار الّتي تلتهم الحجر الصلد، فكيف بذوي الأجسام النحاف!!

وفي الجمع بين الحجارة والناس هنا دقيقة ظريفة: إذ الّذي يجحد البرهان اللائح، إنّما هو في صورة إنسان، ولكنّه في واقعه حجارة خشناء. فليكن إلى جنبها في الابتعاد عن إدراك الفضائل والمكرمات.

وكذا في التعبير بقوله: ﴿مِن مِّثْلِهِ﴾ إشارة إلى أنّ النبيّ محمّداً ﷺ لو فُصل عن مقام رسالته وجُحدت نبوّته، لأصبح عربيّاً متجرّداً عائشاً في أحضان الجاهليّة الجرداء. على غرار سائر العرب لا شأن لهم في ميادين الحضارة الراقية، ولاعهد بالعلوم والمعارف السامية. فشأنه ـ والحال هذه ـ شأن أمثاله العرب العرباء.

إذن فكان يمكنهم أن يأتوا برجل منهم يكافئ محمّداً في مثل حديثه.

وإذ لم يأتوا ـ ولن يأتوا ـ فليعلموا أنّما أُنزِلَ بعلم الله[1]، لايد لأيّ إنسان عائش على الأرض في نظم مثل هذا التأليف الأنيق الفخيم، والمعجز الخارق القويم.

* * *

وفي مقابل ذلك المشهد المفزع، يعرض المشهد المشرّف، مشهد النعيم الّذي ينتظر أصحاب الإيمان.

---

(١) من الآية ١٣ من سورة هود.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هي ألوان من النعيم من ثمار نكهة وازواج مطهّرة وجنّات زاهـرة وعـيون جـارية. جـاءت متشابهة. هي بظاهرها تشبه نعيم الدنيا في زهرتها. ولكنّها تشابهت عليهم. فهناك الفـارق كـبير. واللذائذ هناك تفترق عن لذائذ الدنيا بكثير. إذ لا تنقصها عيب ولا تنغض الالتذاذ بها خوف الفساد والزوال. وهم فيها خالدون. ينالها من لذّة دائمة وعيش هنئ ينعم بها أولو النهى وأصحاب العقول الراجحة. ويحرم عنها المتشاكسون.

وبعد فينبغي بنا ونحن على أهبة عرض أحاديث الباب، أن نقدّم بـحثاً مـوجزاً عـن مسألة التحديّ مع إلمامة بوجوه إعجاز القرآن، ونوكل التفصيل إلى مباحثنا عن الإعجاز في التمهيد.

حديث التحدّي

حديث التحدّي حديث طريف مذيّل كثر الكلام فيه من نواحي شتّى، وقد بحثنا عنها في مجال مُسبَق[١]. وبقي أن نتحدّث هنا عن ترتيبها حسب النزول، ممّا أجملنا الكلام فيه هناك.

لاشكّ أنّ التحدّي نحو مقارعة مع الخصم العنود، إظهاراً لعجزه وربما امتهاناً بشأنه. فكان من الطبيعي أن يقع التحدّي من الأشدّ إلى الأخفّ، فقد تحدّاهم القرآن أوّلاً لو أن يأتوا بحديث مثله[٢]، في مثل الحجم النازل منه[٣] وعلى كيفيّته الخاصّة البارعة.

ثمّ تنازل إلى عشر سورٍ مثله مفتريات ـ كما زعموا ـ[٤]. وأخيراً تحدّاهم بما لو يأتون بسورة مثله[٥] ومن مثله[٦].

هذا مايقتضيه طبع القضيّة. غير أنّ هنا سؤالاً. نظراً إلى أن سورة يونس الّتي وقع التحدّي فيها بسورةٍ مثله، كان رقم نزولها: ٥١. قبل سورة هود الّتي وقع التحدّي فيها بعشر سور مثله، حيث رقم

---

(١) في الجزء الرابع من التمهيد. وسوف نلخّصها في نهاية الفصل.

(٢) في سورة الطور ٥٢: ٣٤. ورقم نزولها بمكة: ٤٥.

(٣) في حجم ٤٥ سورة كانت نازلة لحدّ ذاك الوقت.

(٤) في سورة هود ١١: ١٣. ورقم نزولها بمكة: ٥٢.

(٥) في سورة يونس ١٠: ٣٨. ورقم نزولها بمكة: ٥١.

(٦) البقرة ٢: ٢٣.

نزولها: ٥٢! وهل وقع التحدّي من الأخفّ إلى الأشدّ؟!

قلت: لا ثقة بهذا الترتيب ـ وفق المأثور ـ ليكون حتماً لا نقاش فيه، فلعلّ هناك بعض التقديم والتأخير أو تساهلاً في تسلسل الترقيم. لاسيّما والاختلاف في كثير من مواضع الترتيب معروف.

على أنّ هناك من الآيات ما نزلت في وقت، ولكن تأخّر تسجيلها في سورة نزلت بعدها بزمان. أو العكس: كان من الآيات ما نزلت في وقت متأخّر عن وقت نزول سورتها.

فمن النوع الأوّل آية الصدع[1] وآية إنذار الأقربين[2] نزلتا في إبّان الدعوة عند ما أمر النبي ﷺ بإظهار الدعوة وليبدأ بعشيرته الأقربين.

قال أبو جعفر الطبري: ثمّ إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أمر نبيّه محمّداً ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره ويدعو إليه، فقال له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. وكان قبل ذلك ـ في السنين الثلاث من مبعثه ـ مستسرّاً مخفياً أمره.

قال: وأُنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ...﴾. قال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا إلى الشِّعاب، فاستخفَوا من قومهم[3].

هذا وآية الصدع مسجّلة في سورة الحجر، رقم نزولها: ٥٤. وآية الإنذار مثبتة في سورة الشعراء، رقم نزولها: ٤٧. الأمر الّذي يقتضي نزولها في فترة متأخرة عام الست أو السبع من البعثة. بعد ملاحظة أنّ مجموعة السور النازلة بمكة: ٨٦ سورة. وقد بدئت بعد العام الثالث من البعثة.

فكان ثبت آية الصدع في سورة الحجر، المتأخرة نزولاً عن سورة الشعراء المثبت فيها آية الإنذار. كان ذلك دليلاً على أنّ ترتيب نزول الآيات غير مرعيّ في ثبتها في السور.

ومن النوع الثاني ما قيل بشأن آخر آية نزلت من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4]. فيما رواه ابن الأنباري بإسناده إلى ابن عبّاس قال: آخر آية أُنزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ...﴾. قال: وكان بين نزولها ووفاة

---

(١) قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ الحجر ١٥: ٩٤ـ٩٥.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء ٢٦: ٢١٤.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٣١٨؛ سيرة ابن هشام ١: ٢٨٠.

(٤) البقرة ٢: ٢٨١.

النبيّ ﷺ أحدٌ وثمانون يوماً[١].

هذا مع العلم بأنّ سورة البقرة هي أوّل سورة نزلت بالمدينة، وكمل نزولها خلال خمس سنين. فالآية تأخّر نزولها بعد إكمال السورة بخمس سنين، لأنّها نزلت سنة العشر من الهجرة، قُبيل وفاة النبي ﷺ بأقل من ثلاثة أشهر.

وأمثال ذلك كثير، من آيات سجّلت في مواضعها من السور، من غير ما مراعاة للترتيب، لا بالنسبة إلى الآيات بعضها مع بعض، ولا بالنسبة إلى السور المدرج فيها.

* * *

خذ لذلك مثلاً قاطعاً، سورة الممتحنة:

تبتدئ السورة بآيات نزلن بشأن حاطب بن أبي بلتعة سنة ثمان من الهجرة، كان رسول‌الله ﷺ في شهر رمضان سنة ثمان، أجمع على المسير إلى مكّة، محاولاً إخفاء مسيره إليها، وقال: «اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نَبْغَتَها»[٢].

ولكنّ حاطب بن بلتعة كتب كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ وأرسله مع امرأةٍ، يقال: إنّها سارة مولاة لبعض بني عبدالمطلب، وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته في رأسها ثمّ فتلت عليه قرونها ثمّ خرجت تريد مكّة.

لكنّ الله فضحها وأخبر رسوله بذلك، فبعث رسول الله ﷺ عليّاً والزبير إليها فأدركاها بذي الحليفة فاستنزلاها ففتّشا رحلها. فاضطرّت إلى استخراج الكتاب وفضح أمرها.

قال ابن هشام: وفي ذلك أنزل الله: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ...﴾[٣].

فصدر السورة نزلت في العام الثامن للهجرة.

أمّا الآيتان: العاشرة والحادية عشره. فقد نزلتا بعد صلح الحديبيّة عام الستّ من الهجرة. بشأن سُبيعة بنت الحارث الأسلميّة، جاءت مسلمةً إلى رسول الله ﷺ فور ختم كتاب الصلح.

وكان من موادّ الصلح: أنّ من أتاه من مكّة ردّه إليهم.

---

(١) الزركشي في البرهان ١: ٢٠٩، النوع العاشر.

(٢) من البغتة بمعنى المفاجئة أي نُفاجئها.

(٣) سيرة ابن هشام ٤: ٤٠ ـ ٤١. وراجع: مجمع البيان ٩: ٢٦٩.

فجاء زوجها مسافر المخزومي في طلبها وكان مشركاً، فقال: يا محمّد، أُردد عليّ امرأتي بنصّ كتاب الصلح وعلى ما شرطت لنا. وهذه طينة الكتاب لم تجفّ!!

فاحتار النبي ﷺ في أمره. فنزلت الآيتان:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَـٰتُ مُهاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَـلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَ لَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾...إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

فامتنع النبي من ردّها. وحكم بإبانتها عن زوجها الكافر. فتزوّجها رجل من المسلمين. وبذلك اختص شرط الردّ بالرجال دون النساء المهاجرات[١].

وبذلك تبيّن أنّ ثبت آيةٍ في موضعها من أيّ سورة كانت، لا ينمّ عن موضعها حسب النزول، لا بالنسبة إلى السورة ذاتها، ولا بالنسبة إلى مكتنفاتها من آيات.

إذن فلا موضع للجدل بشأن آيات التحدّي حسب ترتيب بعضها مع بعض، نظراً إلى مواضعها من السور، وهي لا تنمّ عن شيء.

فالمرجع هو الدليل القائل بأنّ التحدّي بالعشر يجب أن يكون واقعاً قبل التحدّي بسورة واحدة. إيذاناً بموضع ضعف المناوئين وامتهاناً بمقدرتهم على المعارضة.

* * *

وأخيراً فلا يذهب عليك فتتوهّم أنّ يداً عابثة لعبت بهكذا آيات فغيّرت من مواضعها الأصل. كلاّ بل الّذي نقوله: إنّ لفيفاً من الآيات سجّلت على غير ترتيب نزولها بإرشاد من الوحي، لحكمة قد تخفى علينا. ومن ثمّ فإنّ ترتيب ثبت الآيات جميعاً في مواضعها من السور، توقيفي لاغير. حسبما فصّلنا الكلام فيه.

وبعد فإليك إجمالاً من مباحث حول قضيّة التحدّي مرّت عليك في مباحثنا عن مسألة الإعجاز:

---

(١) مجمع البيان ٩: ٢٧٣. وراجع: ابن هشام ـ السيرة ٣: ٣٤١، والبحار ٨٩: ٦٧.

التحدّي في خطوات

لقد تحدّى القرآن ـ في وقته ـ عامّة العرب، وهم أهل فصاحة وبيان. وذلاقة لسان. وقد لمسوه بأناملهم فوجدوه صعباً على سهولته، وممتنعاً على مرونته. فحاولوا معارضته. ولكن لا بالكلام، لعجزهم عنه وضحالة مقدرتهم تجاه شوكته. فعمدوا إلى مقارعته بالسيوف و بذل الأموال والنفوس، فلم يستطيعوا مقابلته في هذا الميدان أيضاً. فباؤوا بالفشل والفضيحة مع الأبد.

وربما كانوا بادئ ذي بدء استهانوا من شأنه حيث قولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1].

وقالوا: ﴿إِنْ هذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[2]. وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[3]. وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[4]. إلى أمثالها من تعابير تنمّ عن سخف أوهامهم.

ولكن سرعان ما تراجعوا عن مقابلته وانقلبوا صاغرين، وقد ملكتهم روعة هذا الكلام الخارق المعجز. وتحدّاهم في مراحل:

أوّلاً: فليأتوا بحديث مثله كَمَلاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[5].

ثانياً: حدّد لهم لو يأتون بعشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[6].

ثالثاً: امتهاناً بشأنهم تنازل أن لو استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[7].

وأخيراً حكم عليهم حكمه البات: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَ لَن تَفْعَلُوا﴾[8]: أن ليس باستطاعتهم ذلك مهما حاولوه وأعدّوا له واستعدّوا، لأنّه يفوق كلام البشر كافّة!!

---

(١) الأنفال ٨: ٣١.
(٢) المدثّر ٧٤: ٢٥.
(٣) النحل ١٦: ١٠٣.
(٤) الأنعام ٦: ٩١.
(٥) الطور ٥٢: ٣٣ ـ ٣٤.
(٦) هود ١١: ١٣ ـ ١٤.
(٧) يونس ١٠: ٣٨ ـ ٣٩.
(٨) البقرة ٢: ٢٤.

والآن وقد حان أوان إعلان التحدّي بوجه عامّ، متوجّهاً إلى البشريّة جمعاء، تحدّياً مستمرّاً مع الأبد: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١].

هل وقع التحدّي بجميع وجوه الإعجاز؟

وحيث وقع التحدّي مع العرب الأوائل، فلابدّ أن يخصّ جانب فصاحته الرائعة وبلاغته الرائقة، في أسلوب بديع وترصيف عجيب، ونظم وتأليف غريب، لاسابقة له ولا مثيل، ولا أمكن أن يخلفه بديل. فهو فذٌّ فرد منذ أن بدا، وهكذا إلى الأبد، بلا نِدٍّ ولا نظير.

لكنّه حيث وجّه خطابه مع الناس جميعاً، على تنوّع مهنهم وحرفهم، وتوسّعهم في العلوم والمعارف والآداب. فلعلّ هناك وقع التحدّي بمجموع ما في الكلام الخارق من بدائع وفرائد أبكار. ظلّت مع الأبديّة موضع إعجاب العالَمين واستغراب الملأ في الخافِقين.

هل التحدّي قائمٌ مع الأبد؟

لحن التعبير عامّ، والخطاب موجّهٌ إلى كافّة الناس، في جميع طبقاتها وفي جميع أجيالها.

لكن هناك من حسب اختصاص التحدّي بالعهد الأوّل، مع بقاء جانب إعجازه مع الأبد. زعماً بأنّ عجز أولئك الناس يكفي دليلاً على إعجازه أبداً.

هكذا زعمت الكاتبة بنت الشاطي، قالت: مناط التحدّي هو عجز بُلَغاء العرب ذلك العهد، وأمّا حجّة إعجازه فلا تخصّ عصراً دون عصر. وكان عجز البلغاء من العصر الأوّل ـ وهم أصل الفصاحة ـ برهاناً فاصلاً في قضيّة التحدّي[٢].

ولعلّها خشيت أن لو قلنا بأنّ التحدّي قائم حتّى اليوم، أن سوف ينبري أصحاب الإلحاد من الناطقين بالضاد، فيأتي بحديث مثله، وبذلك ينتقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام.

لكنّها فلتطمئنّ أنّ هذا لن يقع ولن يكون، بعد أن وضع القرآن على أسلوب لا يدانيه كلام بشر البتّة، ولن يستطيع أحد أن يجاريه لا في التعبير والأداء، ولا في التحبير والوفاء، مادام الإعجاز

---

(١) الإسراء ١٧: ٨٨.

(٢) الإعجاز البياني: ٦٥ ـ ٦٨؛ التمهيد ٤: ٣٢.

قائماً بمجموع اللفظ والمحتوى: في إناقة لفظ وفخامة معنى، في جمال وبهاء.

وفي التاريخ عِبَرٌ تؤثر عن أناس حاولوا معارضة القرآن، لكنّهم أتوا بكلام لا يُشبه القرآن ولا يُشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة وفضحوا أنفسهم من غير دراية. فمن حدّثته نفسه أن يعيد هذه التجربة فلينظر في تلك العبر، ومن لم يرعو فليصنع ما شاء. ومن جرّب المجرَّب حلّت به الندامة.

ومن كانت عنده شبهة، زاعماً أنّ في الناس من يستطيع الإتيان بمثله، فليراجع أدباء عصره وليسألهم: هل يقدر أحد منهم على ذلك؟ فإن قالوا: نعم، لو نشاء لقلنا مثل هذا! فليقل لهم: هاتوا برهانكم وجرّبوا أنفسكم! وإن قالوا: لا طاقة لنا به، فليقل لهم: أيّ شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهادة على العجز. وإنّ بضعة النفر الّذين انغضّوا إليه رؤوسهم، باؤوا بالخزي والهوان وسحب التاريخ على آثارهم ذيل النسيان[(١)].

بماذا وقع التحدّي؟

إنّما وقع التحدّي بفضيلة الكلام، ولها مقاييس بها يعرف ارتفاع شأن الكلام وانحطاطه، ممّا فصّله علماء البيان. وبها تتفاوت درجات الكلام ويقع بها التفاضل بين أنحائه من رفيع أو وضيع.

وقد أشار السكّاكي إلى طرف من تلكم المقاييس الّتي هي المعيار لارتفاع شأن الكلام وضعته، قال ــ بعد أن ذكر أنّ مقامات الكلام متفاوتة، ولكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، ولكلّ حدّ ينتهي إليه الكلام مقام ــ: وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول، إنّما هو بمصادفته لما يليق به من هذه المقامات.

قال: فحسن الكلام تحلّيه بشيء من هذه المناسبات والاعتبارات، بحسب المقتضيات، الّتي يفصّلها فنّ المعاني والبيان. قال: والبلاغة تتزايد حتّى تبلغ قمّتها وهو حدّ الإعجاز، الّذي لا يستطيع إنسان أن يبلغه، مادام قيد الذهول والنسيان.

إذن فالتفاضل بين كلامين إنّما هو بهذه الاعتبارات وهي لا تحصى، ولا يمكن ملاحظتها أجمع لمن لم يحط علماً بجوامع الأمور[(٢)].

---

(١) الجزء الرابع من التمهيد: ٣٢و٣٣.

(٢) التمهيد ٤: ٣٤.

إلمامة بوجوه إعجاز القرآن

وبعد فينبغي هنا بالمناسبة، أن نلمّ بمسألة الإعجاز إلمامة قصيرة، لغرض الوقوف على جوانب عابرة من وجوه هذا الإعجاز الخارق. فنقول:

تفاوتت أنظار العلماء في وجه إعجاز القرآن ولايزال البحث مستمرّاً عن هذا السرّ الّذي هو آية الإسلام:

١ ـ ذهب أرباب الأدب والبيان إلى أنّها الفصاحة البالغة والبلاغة الفائقة، إن في بديع نظمه أو في عجيب رصفه، الّذي لم يسبقه مثيل ولا يمكن أن يخلفه بديل.

قد نُضِّدت عباراته نضداً مؤتلفاً، ونُظِّمت فرائده نظماً متناسقاً، وضعت كلّ لفظة منه في موضعها اللائق بها، ورصفت كلّ كلمة منه إلى كلمات تناسبها وتوائمها، وضعاً دقيقاً ورصفاً رقيقاً تامّاً، يجمع بين أناقة التعبير وسلاسة البيان، وجزالة اللفظ وفخامة الكلام، حُلواً رشيقاً وعذباً سائغاً، يستلذّه الذوق ويستطيبه الطبع. ممّا يستشفّ عن إحاطة واسعة ومعرفة كاملة بأوضاع اللغة ومزايا الكلام، ويقصر دونه طوق البشر المحدود.

قالوا في دقّة هذا النظم وروعة هذا النضد: لو انتزعت منه لفظة، ثمّ أُدير بها لغة العرب كلّها على أن يوجد لها نظير في مثل موضعها الخاصّ، لم يوجد البتّة!!

قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم في مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مَثَلٍ، ومساق كلّ خبر، وصورة كلّ عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجّة وبرهان، وصفةٍ وتبيان.. وبَهَرهم أنّهم تأمّلوه سورة سورة وعشراً عشراً وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها أو يُرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى أو أخلق، بل وجدوا اتّساقاً بَهَرَ العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يَدَعْ في نفس بليغ منهم موضع طمع، حتّى خرست الألسنُ عن أن تدّعي وتقول، وخلدت القروم[1] فلم تملك أن تجول وتصول[2].

---

(١) القَرْم: العظيم الشأن. يقال: خَلَد بالمكان أي استكن وغمّه الخُمولُ.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢٨. وراجع: التمهيد ٥: ٢٠.

وأجمل من استوفى الكلام في هذا الجانب من ميزة القرآن، هو أبو سليمان حمدبن محمّد الخطّابي البستي (ت : ٣٨٨ هـ) قال في بيان السبب الأوفى لدقيق تعبيره ورحيق تحبيره:

إنّ الّذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السامع، والهشاشة في نفسه[١]، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة، الّتي يباين بها سائر الكلام، حتّى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتصطلح من أجله الألْسُنُ على أنّه كلام لا يُشبهه كلام. وتحصر الأقوال عن معارضته[٢]. وتنقطع به الأطماع عنها. أمرٌ لابدّ له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحقّ هذا الوصف.

قال: وقد استقرينا أوصافه الخارجة عنه، وأسبابه النابتة منه، فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر أو يستقيم في القياس ويطّرد على المعايير. فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته ومستقصىً من جهة نفسه. فدلّ النظر وشاهد العِبَر على أنّ السبب له والعلّة فيه: أنّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز المطلق الرسل. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون الهجين المذموم، الّذي لايوجد في القرآن شيء منه البتّة.

فالقسم الأوّل أعلى طبقات الكلام وأرفعه. والقسم الثاني أوسطه وأقصده. والقسم الثالث أدناه وأقربه. فحازت بلاغات القرآن من كلّ قسم حصّة، وأخذت من كلّ نوع شعبة. فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نَمَطٌ من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة.

قال: وهما (الفخامة والعذوبة) على الانفراد في نعوتهما كالمتضادّين؛ لأنّ العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة (عمودا فقرة الفخامة) في الكلام إنّما تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه ـ مع نبوّ كلّ واحد منهما على الآخر ـ فضيلة خصّ بها القرآن!!

قال: وإنّما تعذّر على البشر الإتيان بمثله، لأمور:

منها: أنّ علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة وبألفاظها الّتي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولاتُدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ. ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم الّتي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصّلوا باختيار الأفضل عن

---

(١) هَشّ هشاشةً: خفّ وارتاح ونشط.

(٢) حَصِر حَصَراً: عَيِيَ في النطق والكلام.

الأحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام مثله!

وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم. وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتّى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه!

وأمّا المعاني فلا خفاء ـ على ذي عقل ـ أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها، والترقّي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرّق في أنواع الكلام[1]، فأمّا أن توجد مجموعة في نوع منه، فلم توجد إلّا في كلام العليم القدير، الّذي أحاط بكلّ شيء علماً وأحصى كلّ شيء عدداً.

قال: فالقرآن إنّما صار معجزاً، لأنّه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مُضمِّنا أصحّ المعاني. قال: وعمود هذه البلاغة الّتي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كلّ نوع من الألفاظ الّتي تشتمل عليها فصول الكلام، موضعه الأخصّ الأشكل به، الّذي إذا أُبدل مكانه غيره، جاء منه إمّا تبدّل المعنى، الّذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهاب الرونق، الّذي يكون معه سقوط البلاغة[2].

وتابعه على ذلك ابن عطيّة، قال: وجه إعجازه أنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّه علماً. فإذا ترتّبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلي الأُولى، ويتبيّن المعنى دون المعنى، ثمّ كذلك من أوّل القرآن إلى آخره.

والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أنّ أحداً من البشر لا يحيط بذلك. وبهذا جاء النظم القرآني في الغاية القصوى من الفصاحة.

قال: وكتاب الله ـ سبحانه ـ لو نزعت منه لفظة، ثمّ أدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد[3].

---

(١) يعني بها: النثر والنظم والسجع.

(٢) بيان الإعجاز ـ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢١ ـ ٣٧؛ التمهيد ٥: ٢٣ ـ ٢٦.

(٣) مقدمة تفسيره (المحرّر الوجيز ١: ٥٢). راجع: الجزء الخامس من التمهيد.

ويتلخّص هذا الوجه في صياغة القرآن البارعة، جمعاً بين فخامة المعنى وإناقة اللفظ، وهما كالمتنافرين ـ كما نبّه عليه البُستي ـ وقد استسهله القرآن في روعة باهرة.

* * *

الوجه الثاني ـ من وجوه إعجاز القرآن ـ جانب أسلوبه البديع وسبكه الجديد على العرب. فيه مزايا أنواع الكلام ما يجمع بين طلاقة النثر وأناقة الشعر وجزالة السجع الرصين. فلا هو نثر كنثرهم المبعثر، ولا هو شعر كشعرهم المتحصّر، ولا فيه تكلُّف السجع الهجين. وإنّما هو نوع صياغة للكلام لم تعرفها العرب من قبل، ولا استطاعت أن تحيك على منوالها أبداً. وهو في نفس الوقت وقع موضع إعجابهم وبهرتهم براعتها وروعتها إلى حدّ بعيد.

قال الإمام كاشف الغطاء: تلك صورة نظمه العجيب وأسلوبه الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه. بل حارت فيه عقولهم، وتدلّهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر. هكذا اعترف له أفذاذ العرب وفصحاؤهم الأوّلون[1].

قال عظيم العرب وفريدها الوليد بن المغيرة: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة! فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي جنون، وإنّ قوله لمن كلام الله!

وقال ـ ردّاً على من زعم أنّه من الشعر ـ: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّي، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منّي، ولا بأشعار الجنّ! والله ما يُشبه الّذي يقول شيئاً من هذا.

ثمّ قال: ووالله إنّ لقوله الّذي يقول حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنّه ليعلو وما يُعلى. وفي رواية الإصابة: وما هذا بقول بشر.

ولمّا سمع عتبة بن ربيعة ـ وكان سيّداً في العرب ـ آياً من مفتتح سورة فصّلت، قرأها عليه النبيّ ﷺ وهو منصتٌ له، أتى معشر قريش، فسألوه عمّا وراءه؟ قال: ورائي أنّي قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

وهكذا أُنَيس بن جنادة ـ وكان من أشعر العرب ـ بعثه أخوه جندب بن جناده ليستخبر من أحوال النبي ﷺ فرجع وأخبره: إنّه صادق في قوله. قال: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم.

---

(١) الدين والإسلام ٢: ١٠٧.

ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنّه شعر. والله إنّه لصادق، وإنّ خصومه لكاذبون[١].

وقال الأستاذ محمّد عبدالله درّاز: أسلوب القرآن لايعكس نعومة أهل المدن ولا خشونة أهل البادية. وزن المقاطع في القرآن أكثر ممّا في النثر وأقلّ ممّا في الشعر. وإنّ نثره ينفرد ببعض الخصائص والميزات، فالكلمات فيه مختارة، غير مبتذلة ولامستهجنة، ولكنّها رفيعة رائعة مُعبِّرة، الجمل فيها ركّبت بشكل رائع، حتّى أنّ أقلّ عددٍ من الكلمات يُعبِّر عن أوسع المعاني وأغزرها، إنّ تعابيره موجزة، ولكنّها مُدهشة في وضوحها، حتّى أنّ أقلّ الناس حظّاً من التعلّم يستطيع فهم القرآن دونما صعوبة، وهناك عمق ومرونة في القرآن ممّا يصلح أن يكون أساساً لمبادئ وقوانين العلوم والآداب الإسلاميّة ومذاهب الفقه وفلسفة الإلٰهيّات[٢].

وبذلك نجد القرآن قد أبطل سجع الكهّان وطوابع الوثنيّة، وأضعف فنون الفخر والاستعلاء والهجاء، وطَبَع الحوار بطابع السماحة وإقامة الحجّة والبحث عن الدليل، وأحلّ الإيجاز محلّ الإسهاب، والحكمة مكان الإطالة، وترك في الأسلوب العربي الإسلامي طابعه الوسيط السمح، وأعطاه جزالةً وسلاسةً وعذوبة ورواءً. ذلك أنّ القرآن رقّق القلوب، وأفسح مجال الفكر والنظر للعقول، وحرّر الإنسان من غياهب الجهل والعمى، وأطلق سراحه في ميادين الهدى والرشاد. وهكذا عمل القرآن في تثقيف الأجيال مدى الأعصار.

نعم كان لأنواع الكلام ـ عند العرب ـ من نثر وشعر وسجع، محاسن ومساوئ، فجاء القرآن ليجمع بين هذه الأنواع، في صياغة جديدة وسبك طريف. واستطاع مع ذلك، مجانبة المساوئ كلّها في أسلوب فذٍّ فريد.

وكان سرّ إعجازه الخارق، قد كمن وراء ذاك الجمع وهذا النبذ العجيبين. بعد أن لم يكن باستطاعة أحد أن يجمع بين مزايا أنواع الكلام في صياغة واحدة، ولا أن يتجانب المساوئ كلّها على الإطلاق، الأمر الّذي تغلّب عليه القرآن في براعة فائقة بهرت العقول وأذهلت النفوس.

نعم، من أهمّ محاسن النثر طلاقته، فلا يتقيّد صاحب الكلام بمراعاة وزن أو قافية، لتضطرّه إلى اقتراب ألفاظ قد لا تمسّ صميم المعنى ذاتياً، وإنّما هي ضرورة شعريّة ألجأته إلى ذلك. وهذا من

---

(١) التمهيد ٥: ١١٩ و ١٢٠. (٢) المصدر: ١٢١ و ١٢٢.

معايب الشعر أحياناً. غير أنّ للشعر جذبة ونغماً يوجبان رواء الكلام وجمال البيان. ممّا يخصّ النظم المنسجم، دون النثر المبعثر المنتثر.

أمّا السجع فحدّث عن وفرة التكلّفات فيه ولا حرج. وإلّا فهو كلام جزل رصين.

جاء القرآن ووضع صياغته على النثر أوّلاً، ولكن غير المبعثر، بل أضفى عليه بعض أقراء النظوم الشعريّة[1]، لكن لا بشكل مستوعب ومترمّت فيه بحيث يسلب طلاقة الكلام. فجمع بين الطلاقة والنغم في صياغة واحدة، الأمر الصعب الّذي استسهله القرآن.

هذا ولم يتغافل ما في مزايا السجع الرصين ليقتنيها، متجانباً عن التكلّفات الهجينة، وفي القرآن من أنواع السجع البديع الشيء الكثير[2].

هذا هو سرّ إعجاز القرآن، في جانب سبكه وأسلوبه الكلامي الجديد، جامعاً بين مزايا النثر والشعر والسجع، في صياغة فذّةٍ فريدة، بعيداً عن معايب أنواع الكلام بأسرها جميعاً. والعظمة لله.

* * *

الوجه الثالث: نظامه الصوتي العجيب!

وهو جانب خطير من إعجاز القرآن البياني، لَمَسَته العرب من أوّل يومها، فبهرتهم روعته ودَهَشَتهم رنّته، فأخضعهم للاعتراف في نهاية المطاف بأنّه كلام يفوق طوع البشر وأنّه كلام الله!

إنّه جانب «اتّساق نظمه وتناسب نغمه» وإيقاعاته الموسيقيّة الساطية على الأحاسيس، والآخذة بمجامع القلوب. وهذا الجمال التوقيعي للقرآن يبدو جليّاً لكلّ من يستمع إلى آياته تُتلى عليه، حتّى ولو كان من غير العرب، فكيف بالعرب أنفسهم.

وأوّل شيء تحسّه الآذان عند سماع القرآن هو ذا نظامه الصوتيّ البديع، الّذي قُسّمت فيه الحركات والسكونات تقسيماً متنوّعاً ومتوزّعاً على الألحان الموسيقيّة الرقيقة، فينوّع ويجدّد نشاط السامع عند سماعه، ووزّعت في تضاعيفه حروف المدّ والغُنَّة توزيعاً بالقسط، يساعد على ترجيع الصوت به، وتهاوي النَفَسُ فيه آناً بعد آن، إلى أن يصل قمّتها في الفاصلة، فيجد عندها راحته الكبرى، على ما فصّله أساتذة الترتيل!

قال الأستاذ درّاز: ويجد الإنسان لذّة، بل وتعتريه نشوة إذا ما طرق سمعه جواهر حروف

---

(١) راجع: التمهيد ٥: ١٢٤.

(٢) المصدر: ١٢٧ و ٢١٨.

القرآن، خارجة من مخارجها الشحيحة. من نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النَفَس، وآخر يحتبس عنده النَفَس. فترى الجمال النغمي ماثلاً بين يديك في مجموعة مختلفة ولكنّها مؤتلفة. لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة. ولا تناكر ولا تنافر. وهكذا ترى كلاماً ليس بالبدويّ الجافي ولا بالحضريّ الفاتر، بل هو ممزوج مؤلّف من جزالة ذاك ورقّة هذا، مزيجاً كأنّه عصارة اللغتين وسلالة اللهجتين.

نعم من هذا الثوب القشيب يتألّف جمال القرآن اللفظي، وليس الشأن في هذا الغلاف إلّا كشأن الأصداف، تتضمّن لآلي نفيسة، وتحتضن جواهر ثمينة. فإن لم يُلْهِكَ جمال الغطاء عمّا تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الستار عمّا وراءه من السرّ المصون، ففليت القشرة عن لبّها، وكشفت الصدفة عن درّها، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى تلك الفخامة المعنويّة، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيت منه ما هو أبدع وأروع. تلك روح القرآن وحقيقته. وجذوة موسى الّتي جذبته إلى نار الشجرة في شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة. فهناك نسمة الروح القدسيّة: ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وقال الأستاذ الرافعي: كان العرب يتساجلون الكلام ويتقارضون الشعر، وكان أسلوب الكلام عندهم واحداً: حرّاً في المنطق وجزلاً في الخطاب، في فصاحة كانت تؤاتيهم الفطرة وتمدّهم الطبيعة. فلمّا ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة. ليس فيها إعنات ولا معاياة. ووجوه تركيبه ونَسَق حروفه ونظم جُمَله وعبائره، ما أذهلهم هيبةً وروعة، حتّى أحسّوا بضعف الفطرة وتخلّف الملكة. ورأى بُلَغاؤهم جنساً من الكلام غير ما هم فيه، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً نغميّة رائعة، كأنّها لائتلافها وتناسقها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى وكان أبين لعجزهم.

وكلّ الّذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسيّة يرون أن ليس في الفنّ العربيّ بجملته شيء يعدل هذا التناسب الطبيعي في ألفاظ القرآن وأصوات حروفه. وما أحدٌ يستطيع أن يغتمز في ذلك حرفاً واحداً. والقرآن يعلو على الموسيقى؛ إنّه مع هذه الخاصيّة العجيبة ليس من الموسيقى.

---

(١) القصص ٢٨: ٣٠. راجع: النبأ العظيم للأستاذ درّاز: ٩٤ ـ ٩٩.

إنّ مادّة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي في الأنغام الموسيقيّة، بسبب تنويع الصوت مدّاً وغُنّة وليناً وشدّة وما يتهيّأ له من حركات مختلفة، وبمقدار مايكسبه من الحدرة والارتفاع والاهتزاز ممّا هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن، لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلّها، في هزّ الشعور واستثارة الوجد النفسي. ومن هذه الجهة تراه يغلب على طبع كلّ عربيّ أو عجميّ. وبذلك يؤوّل ما ورد من الحث على تحسين الصوت عند قراءة القرآن.

وما هذه الفواصل الّتي تنتهي بها آيات القرآن إلّا صوراً تامّة للأبعاد الّتي تنتهي بها جُمَل الموسيقى، وهي متّفقة مع آياتها في قرارات الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت، والوجه الّذي يساق عليه، بما ليس وراءه من العجب مذهب. وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيّان في الموسيقى نفسها. أو المدّ، وهو كذلك طبيعيّ في القرآن[١].

قال ابن الأعرابي[٢]: كانت العرب تتغنّى بالرُكبانيّ[٣] إذا ركبت وإذا جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها. فلمّا نزل القرآن أحبّ النبيّ ﷺ أن تكون هِجّيراهم[٤] بالقرآن مكان التغنّي بالرُكباني[٥].

قال الزمخشري: كانت هِجّيرىٰ العرب التغنّي بالرُكباني ـ وهو نشيد بالمدّ والتمطيط ـ إذا ركبوا الإبل، وإذا انبطحوا على الأرض، وإذا قعدوا في أفنيتهم، وفي عامّة أحوالهم. فأحبّ الرسول أن تكون قراءة القرآن هِجّيراهم. فقال ذلك. يعني قوله: ليس منّا من لم يضع القرآن موضع الرُكباني في اللهج به والطرب عليه[٦].

قال الفيروز آبادي: غنّاه الشعرُ وغنّى به تغنية: تغنّى به.

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ١٨٨ و ٢١٦. وراجع: التمهيد ٥: ١٤٦ و ١٤٧.

(٢) هو أبو عبدالله محمّدبن زياد الكوفي مولى بني هاشم أحد العلماء باللغة المشهورين بمعرفتها؛ كان يحضر مجلسه خلق كثير، وكان رأساً في الكلام الغريب. وربما كان متقدّماً على أبي عبيدة والأصمعي في ذلك. كان ولادته في رجب سنة ١٥٠. توفّي في شعبان سنة ٢٣١.

(٣) هو نشيد بالمدّ والتمطيط.

(٤) هي زمزمة الغناء ورنّته.

(٥) النهاية لابن الأثير ٣: ٣٩١.

(٦) الفائق للزمخشري ٢: ٣٦ مادة: رنث.

قال الشاعر:

تـغنّ بـالشعر إمّـا كُـنْتَ قـائلَه   إنّ الغِناء بهذا الشِّـعر مـضمار[١]

قال الزبيدي: وعليه حُمل قوله ﷺ: «ما أذن الله لشيء كإذنه للنبيّ يتغنّى بالقرآن يجهر به».

قال الأزهري: أخبرني البغويّ عن الربيع عن الشافعيّ: أنّ معناه: «تحزين القراءة وترقيقها»[٢]. ويشهد له الحديث الآخر: «زيّنوا القرآن بأصواتكم». قال: وبه قال أبو عبيد[٣].

وروى ثقة الإسلام الكليني بهذا الشأن أحاديث مرفوعة إلى النبي وعترته الطيّبين.

[٢ / ٥٦٧] فعن رسول الله ﷺ: «لكلّ شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن»[٤].

[٢ / ٥٦٨] وقال: «إنّ من أجمل الجمال الشّعر الحَسَن، ونَغْمة الصوت الحَسَن».

[٢ / ٥٦٩] وقال: «اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحون أهل الفسوق والكبائر»[٥].

[٢ / ٥٧٠] وقال الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[٦] ـ: «هو أن تتمكّث فيه، وتُحسِّن به صوتك»[٧].

[٢ / ٥٧١] وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ورجّع بالقرآن صوتك، فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يحبّ الصوت الحسن يُرَجَّع فيه ترجيعاً»[٨].

قال السيد محمّد بن إبراهيم الحسيني المعروف بماجد ـ في رسالة وضعها لبيان الموسيقى ذاتيّاً وذكر أحكامها شرعيّاً ـ: «إنّ حسن الصوت إنّما يتحقّق بمناسبات عدديّة فيه، وهي موقوفة على تحقّق التراجيع. فإنّ الصوت المستقيم من غير ترجيع لا يتّصف بشيء من الحسن والقبح»[٩].

* * *

(١) قال ابن منظور: أراد إنّ التغنّي. فوضع الاسم موضع المصدر.

(٢) وفي اللسان ١٥: ١٣٦: «تحسين القراءة وترقيقها».

(٣) تاج العروس ١٠: ٢٧٢.

(٤) الكافي ٢: ٦١٤ / ٩.

(٥) الكافي ٢: ٦١٤ ـ ٦١٦ / ٨ و ٣.

(٦) المزّمّل ٧٣: ٤.

(٧) البحار ٨٩: ١٩٠ ـ ١٩٥ / ٢١، كتاب القرآن.

(٨) الكافي ٢: ٦١٦ / ١٣؛ التمهيد ٥: ١٥٧ و ١٥٨.

(٩) راجع: التمهيد ٥: ٥٠٣.

الوجه الرابع: جانب اشتماله على معارف سامية وتعاليم راقية، أتحف بها البشـريّة جـمعاء، وكانت تجهلها أو كانت معرفتها عن ذلك ناقصة ومبعثرة. فجاءت في تعاليم القرآن وافية شـافية، وكاملة جامعة. الأمر الّذي أبهر وأعجب، وهكذا أذعنت البشريّة برفعتها وسمّوها عمّا كانت تعرفها من ذي قبل، وكانت تتطلّبها حسبما جاءت في القرآن، وكانت شفاءً لما في الصدور.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١].

كان الإنسان لم يزل يحاول التعرّف على أمور تمسّ بحياته على الأرض، ليعرف عن نفسه أوّلاً من هو؟ وما هو؟. ثمّ هو من أين؟ وإلى أين؟ وأيضاً ما هو سرّ الوجود والسبب الباعث على الخليقة؟. وإلى أمثالها من أسئلة تجوش في نفسه يحاول العثور على إجابة صحيحة عليها تقنعه فيستريح إليها.

هذا والقرآن ـ في برامجه عن الحياة ـ قد أتى بالأجوبة الكاملة الكافلة لبيان سرّ الوجود. ولاسيّما الحكمة في خلق الإنسان، الّذي هو بدوره الغاية القصوى للوجود كلّه. كما جاء في الحديث القدسي: «يا ابن آدم، خلقتُ الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي»[٢].

وفي القرآن وصف كامل عن الإنسان، في أصل وجوده والسرّ المستسرّ وراء خلقه، وأنّه الغاية من الخلق والمهيمن على سائر الخليقة، وكونه المَثَل الأعلى للصانع الحكيم.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣]. والخلافة هنا هي المظهريّة الأجلى لذاته تعالى في صفاته الجمال والجلال. ليكون هذه الإنسان خلّاقاً مبدعاً تتجلّى على يديه أسرار الكون وخبايا الوجود. وأوكله عمارة الأرض وإحياء معالمها: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٤].

وقد أودعه تعالى أمانته (العقل والقدرة على التفكير والانتاج) الّتي أشفق من تحمّلها سائر الخلق: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

---

(١) يونس ١٠: ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) علم اليقين ـ للفيض الكاشاني ١: ٣٨١؛ مشارق أنوار اليقين ـ للبُرسي: ٦٧.

(٣) بقرة ٢: ٣٠.

(٤) هود ١١: ٦١.

﴿الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[١]. كناية عن صلاحيّة هذا الإنسان لحمل هذا العبء الثقيل، ممّا يعجز عن حمله سائر الموجودات. أي لاتصلح لهذا الشأن الخطير. نعم كان الإنسان من ذي قبل ظلوماً لنفسه حيث موضع جهله بقدره ومنزلته في عالم الوجود.

هذا الإنسان بهذه المقدرة الجبّارة، كان موضع مباهاة لله في خليقته، حيث بارك نفسه في خلقه. إذ خلقه بيديه[٢] ونفخ فيه من روحه ليجعله مَثَله الأعلى في السمات والصفات.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[٣]. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٤]. فكان الإنسان ذا خلقة أخرى غير سائر الخلق، وخلقته الأخرى هي نفخ روحه تعالى فيه، ليكون من جنسه وسنخه، متناسباً مع الملكوت الأعلى. ومن ثمّ هذا التبجيل والتكريم وتفضيله على كثير ممّن خلقهم الله:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٥].

نعم أودعه تعالى العقل وقدرة التدبير، وأردفه بالقدرة على النطق والبيان: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٦]. وهي فضيلة لايوازيها فضيلة.

كما علّمه الأسماء كلّها وأودع فيه القدرة على معرفة حقائق الأشياء والوقوف على سماتها واستنباط آثارها، ليستخدمها في مآربه ولازدهار معالم الحياة على الأرض.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[٧] أي ركّز في فطرته القدرة على معرفتها حيثما حاول وشاء.

ومن ثمّ سخّر له ما في الكون من أعلى طبقات السماء فإلى أسفل الأرضين.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾[٨]. أي جعلكم بحيث تستطيعون تسخيرها في معالم الحياة.

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٧٢.

(٢) ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ...﴾ سورة ص ٣٨: ٧٥.

(٣) السجدة ٣٢: ٩.

(٤) المؤمنون ٢٣: ١٤.

(٥) الإسراء ١٧: ٧٠.

(٦) الرحمان ٥٥: ٣ ـ ٤.

(٧) البقرة ٢: ٣١.

(٨) الجاثية ٤٥: ١٣.

وهذا معنى إسجاد الملائكة له، وهم القوى العاملة تعمل في صالح الحياة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...﴾. كناية عن خضوع كافّة القوى العاملة، في صالح الإنسان. تجاه القوى المعارضة المضادّة لمصالحه ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾. فقد كانت جنود إبليس تعمل في مضادّة مصالح الإنسان وإفساد الحياة عليه. فكان عليه أن يكافحهم مبلغ جهده في الحياة.

ومن ثمّ فالإنسان في هذه الحياة يمتلك قدرة جبّارة على التسخير والمكافحة معاً. فلا يتهاون في هذا ولا يتكاسل عن ذاك. وليكن على نشاط دائم في عمارة الأرض وازدهار الحياة، وفي كفاح ونضال مع المرديات.

هذا جانب من وصف الإنسان حسبما عرضه القرآن، ولعلّه أجمل وصف وأكمله بشأن الإنسان وحياته هذه الحاضرة، وهي تمهيد للحياة الأخرى الباقية. ولم تشهد البشريّة وصفاً أدقّ ممّا وصفه القرآن، ولم يسجّل التاريخ وصفاً جامعاً ووافياً بشأن هذه الحياة ممّا ذكره القرآن. كما لم يأت من بعد وصف ولا ذكر كهكذا وصف جميل دقيق. هذا بشأن الإنسان وهذه الحياة قبل الحياة الأخرى.

وهكذا أوصاف جاءت في القرآن بشأن المبدأ والمعاد، والحديث عن سرّ الوجود وحكمة الحياة، وغير ذلك من معارف كان يتطلّبها الإنسان منذ أن وضع قدمه على عرصة الوجود. فوجدها في تعاليم القرآن ومحكمات آياته الكريمة. وإذ لم يتأتّ لاي متفكّر جاء بعدُ، أن يأتي بمثل هذا الجمال في الوصف عن الحياة. اللّهمّ سوى اقتباسات من نصوص الوحي الرشيدة. فكان أكبر دليل على إعجاز هذا الكتاب الخالد مع الأبد.

وفيما سطّرناه في باب الإعجاز التشريعي للقرآن من «التمهيد»، تبيين أكثر. مهما كان ضئيلاً في جنب عظمة القرآن المجيد.

* * *

الوجه الخامس: إشارات علميّة، جاءت عابرة، تكشف عن أسرارٍ مودعة في كمون الطبيعة، لم تكن تعرفها البشرية لحدّ ذاك اليوم، وإنّما كشف عنها العلوم في ظلّ تجارب عنيفة كابدها الإنسان في آماد وأحقاب ولايزال.

فالإشارة إليها في لسان الوحي المبين، تنمّ عن إحاطة واسعة حظي بها صاحب الكلام، وهو

الله العالم بخبايا الوجود: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾[١].

نعم إنّها رشحات فاضت من عرض بيانه، جاءت عظيمة وفخيمة كلّما تقدّمت ركب الحضارة وتألّق نجم العلم على آفاق الوجود. فإنّ القرآن يسبق الإنسان بخطوات واسعة الأرجاء، ولايكاد الإنسان يلحق أذياله، مهما جدّ في المسير.

وهذا يعني أنّها شذرات بدرت من طيّ كلامه تعالى، شأن كلّ متكلّم كان قد أحاط بكلّ شيء علماً وإن لم تكن مقصودة ذاتاً وفي صميم المعنى والمرام.

وقد شرحنا هذا المعنى في مباحثنا عن الإعجاز العلمي للقرآن في الجزء السادس من التمهيد.

* * *

الوجه السادس: أنباء غيبيّة جاءت في القرآن صريحة وقويمة، لم تكن باستطاعة البشر أن يعلمها كما نطق به القرآن جازماً جاداً في الإفادة والبيان.

وأنباء الغيب في القرآن ـ المتحدّى بها ـ قد تكون عن ماضٍ غابر، كان مشوّهاً غامضاً علته هالة من الإبهام والإجمال. فقصّة القرآن نقيّاً زاهياً، رافعاً كلّ إبهام ومبيّناً موارد الإجمال. الأمر الّذي لميكن يعرفه أحد لحدّ الآن. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَاكُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾[٢].

وأخرى عن حاضر خاتل دبّرته دسائس أهل النفاق و الخديعة في حوالك الظلام، فكشفته آية الوحي وفضحت مواضعهم الخبيثة في وضح الصباح.

والآيات بشأن فضح دسائس المنافقين ومكائدهم ضدّ المسلمين كثير في القرآن، وفي سورة براءة منه الشيء الكثير:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

---

(١) الفرقان ٢٥: ٦.
(٢) هود ١١: ٤٩.
(٣) التوبة ٩: ٩٩ـ١٠١.

وثالثة عن مستقبل واقع، وليكون شاهداً على صدق النبوّة عبر الأيّام. منها القريبة ومنها البعيدة كما في آية التحدّي بوجه عامّ: ﴿...وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾[١]. ﴿... لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ...﴾[٢].

وعن القريبة ما توعّده الله بشأن أناس عارضوا الإسلام، فجاء النبأ بخزيهم في نهاية المطاف. هذا أبولهب طالما كايد الإسلام، فنزل القرآن بأن سوف يموت ذلاًّ وتمسّه النار: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[٣]. كان ذا ثروة طائلة. لكنّه مات كافراً في ذلّ وهوان ولفظته نار جحيم. وفي ذلك دليل على صدق الرسالة.

وهكذا ورد بشأن الوليد بن المغيرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[٤]. وبشأن أبي جهل وغيرهما. ما ينبؤك عن صراحة القرآن وصرامته في إخباره عن الغيب الآتي.

وكذلك آيات العصمة وأنّ الدعوة سوف تنتصر وتزدهر وتظهر على الدين كلّه ولو كره المشركون المنافسون. ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[٥].

كما وعده الله بالنصر والغلبة، وأنّه حين خرج من مكّة مهاجراً، وعده الله بالعودة ظافراً: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[٦].

وآية غلبة الروم. حيث كانت المعارك دامية بين الروم والفرس أيّام الملك «خسرو پرويز» وكانت الحروب مستمرّة من سنة ٦٠٣ م إلى سنة ٦٢٧. وكانت الكفّة راجحة مع الفرس حتّى عام ٦٢٢ وهو عام الهجرة. وبعده انقلب الأمر ودارت الدائرة على الفرس فجاءتهم الهزيمة عام ٦٢٨. أي بعد الهجرة بخمس سنوات[٧].

* * *

الوجه السابع: القول بالصرفة. ارتآه بعض السلف ومشى على أثرهم بعض الخلف.

ويتلخّص هذا المذهب في القول بأنّ الآية والمعجزة في القرآن إنّما هي لجهة صرف الناس

---

(١) البقرة ٢: ٢٤. (٢) الإسراء ١٧: ٨٨.
(٣) سورة المسد. (٤) المدّثر ٧٤: ٢٦.
(٥) القمر ٥٤: ٤٥. (٦) القصص ٢٨: ٨٥.
(٧) راجع: تاريخ إيران لحسن پيرنيا: ٢٢٢ ـ ٢٢٧؛ والتمهيد ٦: ١٨٥ ـ ٢١٠.

عن معارضته، صرفهم الله عن ذلك صرفاً بأن ثبّط عزيمتهم على المقابلة. كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[١]. قالوا: أي أصرفهم عن إبطال دلائلي. وأنسخ عزيمتهم على القدح في حججي.

وبما أنّ هذا الوجه يسلب القرآن ميزاته الفائقة، ويجعل الإعجاز لأمر خارجيّ بعيد عن جوهر القرآن وعن ذاته، حاول بعضهم توجيهه إلى ما يتلائم ومذهب المشهور. قالوا: لعلّهم أرادوا بالصرفة: أنّه تعالى سلبهم العلوم الّتي تمكنهم الإتيان بما يشاكل القرآن، ومعنى السلب: عدم المنح ذاتياً.. أي لم يمنح الله تعالى أحداً من العلم مبلغاً يمكنه الإتيان بمثل القرآن: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٢].

والكلام في ذلك كثير ومذيّل. استوفيناه في مباحثنا عن وجوه الإعجاز في الجزء الرابع من التمهيد.

قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾

[٥٧٢/٢] قال ابن عبّاس: قوله: ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾ خطاب أهل مكة، و﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنوا﴾ خطاب أهل المدينة، وهو هاهنا عام[٣].

[٥٧٣/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾ قال: فهي للفريقين جميعاً من الكفّار والمؤمنين. ﴿اعْبُدُوا﴾ قال: وحّدوا[٤].

[٥٧٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني المنافقين واليهود وحّدوا ربّكم[٥].

[٥٧٥/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنّف وعبد بن حميد والطبراني في الأوسط والحاكم

---

(١) الأعراف ٧: ١٤٦.

(٢) الإسراء ١٧: ٨٥.

(٣) الثعلبي ١: ١٦٦؛ البغوي ١: ٩٣؛ أبوالفتوح ١: ١٥١.

(٤) الدرّ ١: ٨٥؛ الطبري ١: ٢٣٢ ـ ٢٣٣ / ٣٩٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٥٩ ـ ٦٠ / ٢١٥ و ٢١٦؛ ابن كثير ١: ٦٠.

(٥) تفسير مقاتل ١: ٩٣.

وصحّحه عن ابن مسعود قال: قرأنا المفصّل ونحن بمكّة حججاً، ليس فيها: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا﴾[1].

[٥٧٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن عروة قال: ماكان من حجّ، أو فريضة، فإنّه نزل بالمدينة، أو حدّ، أو جهاد، فإنّه نزل بالمدينة. وماكان من ذكر الأمم، والقرون، وضرب الأمثال، فإنّه نزل بمكّة[2].

[٥٧٧/٢] وأخرج أبو عبيد عن ميمون بن مهران قال: ماكان في القرآن ﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾[3] فإنّه مكيّ. وماكان ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا﴾ فإنّه مدنيّ[4].

[٥٧٨/٢] وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن الضريس وابن المنذر وأبو الشيخ ابن حبّان في التفسير عن علقمة قال: كلّ شيء في القرآن ﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ فهو مكيّ، وكلّ شيء في القرآن ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا﴾ فهو مدنيّ[5].

[٥٧٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه وعبدبن حميد وابن المنذر عن الضحّاك، قال: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا﴾ في المدينة[6].

[٥٨٠/٢] وأخرج البزّار والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: ماكان

---

(١) الدرّ ١: ٨٤؛ المصنّف ٧: ١٨٥ / ٥، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٨ (مانزل من القرآن بمكّة والمدينة)؛ الأوسط ٦: ٢٥٨ / ٦٣٤٤، بلفظ: «عن ابن مسعود قال: نزل المفصّل بمكّة فمكثنا حججاً نقرأه لاينزل غيره»؛ الحاكم ٢: ٢٢٤، و٣: ١٨ - ١٩؛ الكامل ١: ٤٢٣.

(٢) الدرّ ١: ٨٤؛ المصنّف ٧: ١٨٥ / ٢؛ القرطبي ١: ٢٢٥، بلفظ: قال عروة بن الزبير: ماكان من حدّ أو فريضة فإنّه نزل بالمدينة، وماكان من ذكر الأمم والعذاب فإنّه نزل بمكّة.

(٣) جاء خطاب ﴿يا بني آدم﴾ أربع مرّات في سورة الأعراف المكيّة، الآيات: (٢٦ و ٢٧ و ٣١ و ٣٥).

(٤) الدرّ ١: ٨٤؛ فضائل القرآن لأبي عبيد: ٢٢٢.

(٥) الدرّ ١: ٨٤؛ فضائل القرآن لأبي عبيد: ٢٢٢ / ١٣، باب ٥٦؛ المصنّف ٧: ١٨٥؛ القرطبي ١: ٢٢٥، بلفظ: «قال علقمة ومجاهد: كلّ آية أوّلها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإنّما نزلت بمكّة، وكلّ آية أوّلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا﴾ فإنّما نزلت بالمدينة. قال القرطبي: قلت: وهذا يردّه أنّ هذه السورة والنساء مدنيّتان وفيهما: ﴿يا أيها الناس﴾. وأمّا قولهما في ﴿يا أيها الّذين آمنوا﴾ فصحيح؛ التبيان ١: ٩٨، نقلاً عن علقمة والحسن؛ مجمع البيان ١: ١٢٢، نقلاً عن ابن عبّاس والحسن.

(٦) المصنّف ٧: ١٨٥، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٨ (ما نزل من القرآن بمكّة والمدينة).

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا﴾ أُنزل بالمدينة، وما كان ﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ فبمكّة[١].

قلت: ولعلّه أراد خطاباً لأهل مكّة وإن كان نزولها بالمدينة، كما مرّ في حديث ابن عبّاس.

[٥٨١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة قال: كلّ سورة فيها ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا﴾ فهي مدنيّة[٢].

[٥٨٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن عروة قال: ما كان ﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ بمكّة، وما كان ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا﴾ بالمدينة[٣].

المكّي والمدني

ذكرنا في كتابنا «التمهيد» المعيار لتميز المكّي والمدني من الآيات والسور. وكانت ثلاثة:

المعيار الزَّمَني: ما نزل قبل الهجرة إلى المدينة فهو مكّي وما نزل بعدها فهو مدني وهذا هو الأرجح الأوفق حسبما نبّهنا.

المعيار المحلّي: ما نزل بمكّة فهو مكّي ولو كان بعد الهجرة. ومانزل بالمدينة فهو مدني. وعليه فالآيات الّتي نزلت في الغزوات وفي الأسفار، لا مكيّة ولا مدنيّة.

المعيار الخطابي: ما كان خطاباً لأهل مكّة فهو مكّي وما كان خطاباً لأهل المدينة فهو مدني.

وعلى هذا المعيار الأخير وردت بعض الروايات بأنّ كلّ سورة أو آية جاء فيها الخطاب بـ﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ فهو مكّي. وما جاء فيه ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا﴾ فهو مدني.

وهذا المعيار قد رفضه أهل التحقيق، لمخالفته للواقع قطعيّاً.

ففي سورة البقرة المدنيّة كلّها بإجماع، جاء قوله: ﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ في موضعين: (الآية: ٢١ و الآية: ١٦٨).

وفي سورة النساء المدنيّة أيضاً جاء قوله: ﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ في ثلاثة مواضع: (الآيات: ١ و ١٧٠ و ١٧٤).

وفي سورة الحجّ المدنيّة[٤] موضعان: (الآية: ١ و الآية: ٧٣).

---

(١) الدرّ ١: ٨٤؛ الحاكم ٣: ١٨؛ الدلائل ٧: ١٤٤.
(٢) الدرّ ١: ٨٤؛ المصنّف ٧: ١٨٥/ ٦.
(٣) الدرّ ١: ٨٤؛ المصنّف ٧: ١٨٥/ ٩.
(٤) ذكرنا الخلاف في مدنيّتها ـ التمهيد ١: ١٧٢.

وفي سورة الحجرات المدنيّة بلاريب[١]، جاء قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١٣).

وقد زيّفنا احتمال كون الآية بالذات مكيّة أُقحمت في سورة مدنيّة، وأن لا دليل عليه سوى الاحتمال والحدس، فقد استدلّوا بلحن الخطاب وهو استدلال دوريّ كما نبّهنا[٢].

وعليه فقد صحّ ما أخرجه ابن أبي شيبة عن عكرمة ـ حسبما تقدّم[٣] كما لم نجد في سورة مكّية خطاب: ﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنوا﴾ حسبما جاء في حديث ابن مسعود الآنف[٤].

وما روي خلاف ذلك فلابدّ من ضربٍ من التأويل فيه.

قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾

[٥٨٣/٢] قال ابن عبّاس: كلّ ما ورد في القرآن من العبادة فمعناد التوحيد[٥].

[٥٨٤/٢] وفي تفسير العسكري: قال علي بن الحسين ﷺ «في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾ يعني سائر المكلّفين من ولد آدم ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أطيعوا ربّكم من حيث أمركم أن تعتقدوا أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ولا شبيه له ولا مثل. عدل لا يجور، جواد لايبخل، حليم لا يعجل، حكيم لا يخطل[٦]، ثمّ قال عز وجل: ﴿الَّذي خَلَقَكُمْ﴾ اعبدوا الّذي خلقكم من نطفة من ماء مهين، فجعله في قرار مكين، إلى قدر معلوم، فقدّره فنعم القادر ربّ العالمين. ﴿الَّذي خَلَقَكُمْ﴾ نسماً وسوّاكم من بعد ذلك وصوّركم أحسن صورة، ثمّ قال عزّوجلّ: ﴿وَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، قال: وخلق الله الّذين من قبلكم من سائر أصناف الناس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، قال: لها وجهان أحدهما: وخلق الّذين من قبلكم لعلّكم كلّكم تتّقون، أي لتتّقوا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٧]، والوجه الآخر: اعبدوا الّذي خلقكم والّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون، أي اعبدوه لعلّكم تتّقون النار»[٨].

---

(١) هي مدنيّة قولاً واحداً بإجماع ـ التمهيد ١: ١٧٣.
(٢) راجع: التمهيد ١: ٢٤٥.
(٣) برقم ٥٨٣ / ١.
(٤) برقم ٥٧٥ / ١.
(٥) البغوي ١: ٩٣.
(٦) خطل في كلامه: أتى بكلام كثير فاسد لاطائل تحته.
(٧) الذاريات ٥١: ٥٦.
(٨) تفسير الإمام: ١٣٥ ـ ١٤٢.

[٢/٥٨٥] وروى الصدوق بإسناده عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «لاعبادة إلّا بتفقّه»[١].

[٢/٥٨٦] وروى الكليني بإسناده عن معمّر بن خلّاد قال: سمعت أبا الحسن الرّضا عليه السلام يقول: «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ»[٢].

[٢/٥٨٧] وروى الصدوق بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما عُبد الله بشيء أفضل من الصمت والمشي إلى بيته»[٣].

[٢/٥٨٨] وروى الكليني بالإسناد إلى أحمد بن محمّد بن خالد عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن بعض رجاله عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته»[٤].

[٢/٥٨٩] وبإسناده إلى الفضيل بن يسار قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إنّ أشدّ العبادة الورع»[٥].

[٢/٥٩٠] وبإسناده إلى عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «من عمل بما افترض الله عليه فهو من أعبد الناس»[٦].

[٢/٥٩١] وروى الصدوق فيما أوصى به النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام: «يا عليّ من أتى بما افترض الله عليه فهو من أعبد الناس»[٧].

[٢/٥٩٢] وبإسناده إلى إسماعيل بن مسلم عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «العبادة سبعون جزءاً وأفضلها جزءاً، طلب الحلال»[٨].

[٢/٥٩٣] وروى الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب عن جميل عن هارون بن خارجة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ العُبّاد ثلاثة، قوم عبدوا الله خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله طلب الثواب فتلك عبادة الأُجَراء، وقوم عبدوا الله حبّاً له فتلك عبادة الأحرار، وهي

(١) الخصال: ١٨؛ البحار ١: ٢٠٧ / ٤؛ الكافي ٨: ٢٣٤ / ٣١٢.

(٢) الكافي ٢: ٥٥ / ٤؛ البحار ٦٨: ٣٢٢ / ٤.

(٣) نورالثقلين ١: ٤٠؛ الخصال: ٣٥ / ٨؛ ثواب الأعمال: ١٧٨؛ البحار ٦٨: ٢٧٨ / ١٥.

(٤) الكافي ٢: ٥٥ / ٣؛ البحار ٦٨: ٣٢١ / ٣.

(٥) الكافي ٢: ٧٧ / ٥؛ البحار ٦٧: ٢٩٧ ـ ٢٩٨ / ٥.

(٦) الكافي ٢: ٨٤ / ٧؛ البحار ٦٧: ٢٥٧ / ١٤.

(٧) الخصال: ١٢٥ / ١٢٢؛ من لايحضره الفقيه ٤: ٣٥٨ / ٥٧٦٢؛ البحار ٧٤: ٤٥ / ٢.

(٨) معاني الأخبار: ٣٦٦ ـ ٣٦٧ / ١؛ الكافي ٥: ٧٨ / ٦؛ ثواب الأعمال: ١٨٠؛ البحار ١٠٠: ٧ / ٢٥.

أفضل العبادة»(١).

[٥٩٤/٢] وروى الصدوق فيما ذكره الفضل بن شاذان من العلل عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «فإن قال: فلم يعبدوه؟ قيل: لئلّا يكونوا ناسين لذكره ولا تاركين لأدبه، ولا لاهين عن أمره ونهيه، إذ كان فيه صلاحهم وقوامهم، فلو تركوا بغير تعبّد لطال عليهم الأمد فقست قلوبهم»(٢).

[٥٩٥/٢] وروى الكليني عن عليّ بن إبراهيم عن العبّاس بن معروف عن عبدالرحمان بن أبي نجران قال: «كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام ـ أو قلت له ـ: جعلني الله فداك، نعبد الرحمان الرحيم الواحد الأحد الصمد؟ فقال: إنّ من عبد الإسم دون المسمّى بالأسماء فقد أشرك وكفر وجحد ولم يعبد شيئاً، بل اعبد الله الواحد الأحد الصمد المسمّى بهذه الأسماء دون الأسماء، إنّ الأسماء صفات وصف بها نفسه تعالى»(٣).

[٥٩٦/٢] وروى الصدوق خطبة للرضا عليه السلام يقول فيها: «أوّل عبادة الله معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه، لِشهادة العقول أنّ كلّ صفة وموصوف مخلوق، وشهادة كلّ مخلوق أنّ له خالقاً ليس بصفة و لاموصوف، وشهادة كلّ صفة وموصوف بالاقتران وشهادة الاقتران بالحدوث، وشهادة الحدوث بالامتناع من الأزل الممتنع من الحدوث»(٤).

[٥٩٧/٢] وروى بإسناده إلى الرضا عليه السلام أنّه قال: «النظر إلى ذرّيّتنا عبادة. فقيل له: يا ابن رسول الله، النظر إلى الأئمّة منكم عبادة أو النظر إلى جميع ذرّيّة النبيّ صلى الله عليه وآله؟ قال: بل النظر إلى جميع ذرّيّة النبي صلى الله عليه وآله عبادة مالم يفارقوا منهاجه، ولم يتلوّثوا بالمعاصي»(٥).

قوله تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

[٥٩٨/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿الَّذي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يقول:

---

(١) نور الثقلين ١: ٤٠؛ الكافي ٢: ٨٤/ ٥؛ البحار ٦٧: ٢٥٥ / ١٢.

(٢) عيون الأخبار ٢: ١١٠ / ١؛ علل الشرائع ١: ٢٥٦؛ البحار ٦: ٦٣.

(٣) الكافي ١: ٨٧ـ ٨٨ / ٣.

(٤) عيون الأخبار ١: ١٣٥ ـ ١٣٦ / ٥١؛ التوحيد: ٣٤ ـ ٣٥؛ البحار ٤: ٢٢٧ ـ ٢٢٨ / ٣.

(٥) عيون الأخبار ٢: ٥٥ / ١٩٦؛ الأمالي للصدوق: ٣٦٩ ـ ٣٧٠ / ٤٦١ ـ ٢، المجلس ٤٩؛ البحار ٩٣: ٢١٨ / ٢.

خلقكم وخلق الّذين من قبلكم(١).

[٢/٥٩٩] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى أبي صالح، عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يقول: خلقكم وخلق الّذين من قبلكم(٢).

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[٢/٦٠٠] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني كي، غير آية في الشعراء ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(٣) يعني كأنّكم تخلدون(٤).

[٢/٦٠١] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿الَّذي خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿وَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم الخالية ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني لكي ﴿تَتَّقُونَ﴾ الشرك وتوحّدوا الله عزّ وجلّ إذا تفكّرتم في خلقكم وخلق الّذين من قبلكم(٥).

وقال الشيخ الطوسي: قال بعضهم: معنى قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لكي تتّقوا النار في ظنّكم ورجائكم، لأنّهم لايعلمون أنّهم يوقون النار في الآخرة، لأنّ ذلك من علم الغيب الّذي لا يعلمه إلّا الله. قال: لعلّكم تتّقون ذلك في ظنّكم ورجائكم(٦).

[٢/٦٠٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحّاك في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: تتّقون النار(٧).

[٢/٦٠٣] وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال: تطيعون(٨).

قلت: وأوفق التفاسير هو تفسير مجاهد: «لَعَلَّكُمْ تطيعون». وذلك لأنّ التقوى ـ كما نبّهنا سابقاً

---

(١) الدرّ ١: ٨٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٠ / ٢١٧، وزاد: وروي عن مجاهد نحو ذلك.

(٢) الطبري ١: ٢٣٣ / ٣٩٧. (٣) الشعراء ٢٦: ١٢٩.

(٤) الدرّ ١: ٨٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٠ / ٢١٨؛ البخاري ٦: ١٦، بلفظ: قال ابن عبّاس: «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ»: كأنّكم.

(٥) تفسير مقاتل ١: ٩٣. (٦) التبيان ١: ٩٩.

(٧) الدرّ ١: ٨٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٠ / ٢١٩، بلفظ: قال: يقول: لعلّكم تتّقون النار بالصلوات الخمس.

(٨) الدرّ ١: ٨٥؛ الطبري ١: ٢٣٣ / ٣٩٨؛ التبيان ١: ٩٨.

ـ هي حالة نفسيّة تجعل الإنسان على وعي تامّ في الالتزام بتعهّداته الإنسانيّة الكريمة، إمّا تجاه خالقه الّذي أنعم عليه بالحياة ومُتَعها، أو تجاه من أسدى إليه حسنةً، وكذا تجاه أهله وذويه وأمثالهم ممّن يشعر بأنّ لهم حقّاً عليه، فيجب الخروج منه.

ولذا فسّرنا التقوى بالتعهد الإنساني النبيل. وهي صفة قدسيّة تصعد بالإنسان على مدارج الكرامة العليا.

وهذه الحالة لا تحصل إلّا بالمراوضة على التذلّل والخضوع لديه سبحانه والاجتهاد في عبادته عن وعي وإخلاص.

وأمّا التعبير بلعلّ فَلِسِرٍّ فيها سننبّه عليه.

[٦٠٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عون بن عبدالله بن غنية قال: ﴿لعلّ﴾ من الله واجب[١].

[٦٠٥/٢] وهكذا جاء في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ: «﴿لعلّ﴾ من الله واجب لأنّه أكرم من أن يُعني[٢] عبده بلا منفعة ويُطمعه في فضله ثمّ يخيّبه، ألا ترى كيف قَبُحَ من عبد من عباده إذا قال لرجل: اخدمني لعلّك تنتفع بي ولعلّي أنفعك بها، فيخدمه ثمّ يخيّبه ولا ينفعه، فالله ـ عزّ وجلّ ـ أكرم في أفعاله وأبعد من القبيح في أعماله من عباده»[٣].

«لعلّ» في كلامه تعالى

ذكروا في معنى «لعلّ» أنّها للتوقّع، وهو: ترجّي المحبوب والإشفاق من المكروه. نحو: لعلّ الحبيب قادم، ولعلّ الرقيب حاصل[٤].

وبما أنّ توقّع أمر يستدعي كون المتوقّع على شكّ من وقوعه، فيترجّاه أو يخاف عقباه، حيث لا يقطع بتحقّقه حتميّاً، الأمر الّذي يتنافى وعلمه تعالى الأزلي بما يكون.

لكنّ حروف الترجّي كلّها إنّما تحاكي مفاهيمها في ذات معانيها حسب الوضع، من غير دلالتها على مختلجات الصدور، إلّا عرضاً وبدلالة الاقتضاء فيما ناسب من مظانّها، الأمر الّذي لا موضع له

---

(١) الدرّ ١: ٨٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٨ / ٥١٦.

(٢) الإعناء: الإتعاب بالتكاليف الشاقّة.

(٣) تفسير الإمام: ١٤٢.

(٤) مغني اللبيب لابن هشام ١: ٢٨٧.

بالنسبة إليه تعالى.

توضيحه: أنّ حروف الترجّي ـ والّتي منها «لعلّ» ـ إنّما وضعت للدلالة على أنّ ماقبلها لايبلغ مبلغ العلّة التامّة لما بعدها. وإنّما هو في مرحلة الاقتضاء فحسب، كما في قولك: تعلّم لعلّك تصبح عالماً يستفيد منك الناس. إذ التعلّم، غايته حصول العلم النافع للناس، وهذا من الاقتضاء ـ عادةً و عرفاً ـ وليس كلّ من تعلّم بلغ هذه المرتبة حتمياً.

وهذا المعنى لاينبئ عن شكّ وترديد في نفس المتكلّم بهذا الكلام، وإنّما هو بيان منه لهذا الاقتضاء الطبيعي حسب العادة المعهودة، فقد يبلغه الساعي وقد لايبلغه ولا يساعده التوفيق.

على المرء أن يسعى بمقدار جهده   وليس عليه أن يكون الموفّقا

وكلّ ما جاء في كلامه تعالى ـ من حروف الترجّي ـ جارية هذا المجرى، حيث الخطاب عامّ، وليس كلّ من عبد الله حصلت له حالة التقوى، إلّا العارفين المخلصين وهم على خطر عظيم.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. فكان العفو مظنّة الشكر ممّن وعى وتدبّر، لا الّذي غوى وتبطّر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2] حيث الغاية من بعثة نبيّ الله موسى عليه السلام هو اهتداء قومه، لو اعتبروا.

وهكذا آيات أخرى كان التوقّع فيها بمعنى وجود المقتضي لولا الموانع، لا أنّ نفسيّة صاحب الكلام كانت على وَجَل أو رجاء.

فقوله عليه السلام: «لعلّ في كلامه تعالى واجب» يريد: أنّ الأثر المتوقّع قد تمّت أسبابه من قبله تعالى، وإن كان تحقّقه منوطاً بشروط يقوم بها العباد، لولا تقاعسهم المستوجب للحرمان.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾

[٦٠٦/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ قال: هي فراش يُمشى عليها، وهي المهاد والقرار. ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ قال: بنى

(١) البقرة ٢: ٥٢.
(٢) البقرة ٢: ٥٣.

السماء على الأرض كهيئة القبّة، وهي سقف على الأرض(١).

[٦٠٧/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ قال: مهاداً لكم(٢).

[٦٠٨/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ دلّ على نفسه بصنعه ليوحّدوه وذكّرهم النعم فقال ـ سبحانه ـ: اعبدوا ربّكم ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ يعني بساطا ﴿وَالسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ يعني سقفا(٣).

[٦٠٩/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَالسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ قال: جعل السماء سقفاً لك(٤).

[٦١٠/٢] وأخرج أبو داوود وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جبير بن مطعم قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت المواشي. استسق لنا ربّك، فإنّا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ «سبحان الله! فما زال يسبّح حتّى عرف ذلك في وجوه أصحابه فقال: ويحك أتدري ما الله؟ إنّ شأنه أعظم من ذلك، وإنّه لا يستشفع به على أحد، إنّه لفوق سماواته على عرشه، وعرشه على سماواته، وسماواته على أرضيه هكذا ـ وقال بأصابعه مثل القبّة ـ وإنّه ليئطّ به أطيط الرحل بالراكب»(٥).

[٦١١/٢] وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن أياس بن معاوية قال: السماء مقبّبة على الأرض مثل القبّة(٦).

[٦١٢/٢] وأخرج أبو الشيخ عن وهب بن منبّه قال: شيء من أطراف السماء محدق بالأرضين،

---

(١) الدرّ ١: ٨٥؛ الطبري ١: ٢٣٤ و ٢٣٥ / ٣٩٩ و ٤٠٢.

(٢) الطبري ١: ٢٣٤ / ٤٠٠ وفي ٤٠١ عن الربيع بن أنس؛ البخاري ٤: ٧٥، نقلاً عن مجاهد، كتاب الجزية والموادعة، باب ٣.

(٣) تفسير مقاتل ١: ٩٣.

(٤) الطبري ١: ٢٣٥ / ٤٠٣.

(٥) الدرّ ١: ٨٥ ـ ٨٦؛ أبو داوود ٢: ٤١٨ ـ ٤١٩ / ٤٧٢٦، كتاب السنّة، باب ١٩ (في الجهميّة)؛ ابن أبي حاتم ١: ٦١ / ٢٢٣، بلفظ: ـ قال رسول الله ﷺ ويحك! أتدري ما الله؟ إنّ الله على عرشه وعرشه على سماواته وسماواته على أرضه هكذا ـ وقال بإصبعه مثل القبّة؛ الأسماء والصفات ٣: ٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٦) الدرّ ١: ٨٦؛ العظمة ٣: ١٠٢٤ / ٥٤٠، باب ٢٠ (صفة السماوات).

والبحار كأطراف الفسطاط[1].

[٦١٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن القاسم بن أبي بزّة قال: ليست السماء مربعة، ولكنّها مقبّوة يراها الناس خضراء[2].

[٦١٤/٢] وقال نوف البكالي: رأيت عليّ بن أبي طالب عليه السلام خرج فنظر إلى النجوم فقال: «يا نوف، أراقد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق يا أميرالمؤمنين، قال: طوبى للزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتّخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً، وماءها طيّباً والقرآن والدعاء دثاراً وشعاراً، فرفضوا الدنيا، على منهاج المسيح عليه السلام»[3].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾

[٦١٥/٢] أخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن. أنّه سئل عن المطر، من السماء أم من السحاب؟ قال: من السماء، إنّما السحاب عَلَم ينزل عليه الماء من السماء[4].

[٦١٦/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ يقول: فأخرج بالمطر من الأرض أنواعا ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[5].

[٦١٧/٢] وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال: لا أدري المطر أنزل قطره من السماء في السحاب، أم خلق في السحاب فأمطر[6]؟

[٦١٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن كعب قال: السحاب غربال المطر، ولولا

---

(١) الدرّ ١: ٨٦؛ العظمة ٣: ١٠٥٣ / ٥٧٠، باب ٢٠ (صفة السماوات)؛ تاريخ الطبرى ١: ٢٧، وفيه: «كأطناب الفسطاط».

(٢) الدرّ ١: ٨٦.

(٣) القرطبي ١: ٢٣٠؛ نهج البلاغة ٤: ٢٣ ـ ٢٤ / ١٠٤؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨: ٢٦٥، الأصل ١٠١؛ تاريخ بغداد ٧: ١٧٢ ـ ١٧٣ / ٣٦٠٨، في ترجمة: جعفربن مبشر؛ ابن عساكر ٦٢: ٣٠٤ ـ ٣٠٥، في ترجمة: نوف بن فضالة؛ الخصال: ٣٣٧ ـ ٣٣٨ / ٤٠.

(٤) الدرّ ١: ٨٦؛ العظمة ٤: ١٢٧٢ / ٧٥٨، باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله).

(٥) تفسير مقاتل ١: ٩٣.

(٦) الدرّ ١: ٨٦؛ العظمة ٤: ١٢٧٥ ـ ١٢٧٦ / ٧٦٤، باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله).

السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض، والبذر ينزل من السماء[١].

[٦١٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن خالد بن معدان قال: إنّ المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء حتّى يجتمع في السماء الدنيا فيقع في شيء يقال له الإبْرَم فيجتمع فيه، فتجيء السحابة السوداء فتدخله فتشربه مثل شرب الإسفنجة، فيسوقها الله حيث يشاء[٢].

[٦٢٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال: ينزل الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحابة مثل البعير[٣].

[٦٢١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن خالد بن يزيد قال: المطر منه من السماء، ومنه ماء يسقيه الغيم من البحر، فيعذبه الرعد والبرق. فأمّا ما كان من البحر فلا يكون له نبات، وأمّا النبات فممّا كان من السماء[٤].

قلت: هذه روايات تحاكي ذهنيّة أصحاب الفكر القديم السُّذَّج، وإنّما نقلناها نقلاً وليس اعتماداً بها.

[٦٢٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلّا أنبت بها في الأرض عشبة، أو في البحر لؤلؤة[٥].

[٦٢٣/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المطر عن ابن عبّاس قال: إذا جاء القطر من السحاب تفتحت له الأصداف فكان لؤلؤاً[٦].

---

(١) الدرّ ١: ٨٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٥/ ١٤٧٦، ذيل الآية ١٦٤؛ العظمة ٤: ١٢٣٨/ ٧١٣ باب ٢٣ (ذكر السحاب وصفته).

(٢) الدرّ ١: ٨٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٦١/ ٢٢٥؛ العظمة ٤: ١٢٧٥/ ٧٦٣، باب ٢٤: (ذكر المطر ونزوله) بلفظ: ...قال: المطر يخرج من تحت العرش فينزل إلى السماء الدنيا فيجتمع في موضع يقال له «الإبْرَم» فتجيء السحابة السوداء فتشربه.

(٣) الدرّ ١: ٨٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٢٧٤/ ١٤٦٩، ذيل الآية ١٦٤؛ العظمة ٤: ١٢٥٨/ ٧٣٧، باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله).

(٤) الدرّ ١: ٨٦؛ العظمة ٤: ١٢٧٠ ـ ١٢٧١/ ٧٥٦ باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله)؛ ابن كثير ٣: ٣٣٣، وفيه: «فيذيّبه الرعد» بدل «فيعذّبه الرعد» سورة الفرقان، الآية ٤٨.

(٥) الدرّ ١: ٨٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٦١: ٢٢٧؛ العظمة ٤: ١٢٥٩/ ٧٣٨، باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله) بلفظ: عن عكرمة: قال: ما من قطرة تقطر إلّا نبتت بها شجرة أو لؤلؤة. ابن كثير ٣: ٣٣٣، سورة الشعراء.

(٦) الدرّ ١: ٨٧؛ كتاب المطر والرعد والبرق والريح لابن أبي الدنيا: ٥٤/ ٧؛ الطبري ١٣: ١٧٢ بعد ٢٥٥٤٢.

[٦٢٤/٢] وأخرج أبو الشيخ عن ابن عبّاس قال: يخلق الله اللؤلؤ في الأصداف من المطر، تفتح الأصداف أفواهها عند المطر، فاللؤلؤة العظيمة من القطرة العظيمة، واللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة[١].

نعم تلك مزعومة قديمة حسبت اللؤلؤة من قطرات الأمطار تبلعها الأصداف!

[٦٢٥/٢] وأخرج الشافعي في الأمّ وابن أبي الدنيا في كتاب المطر عن المطّلب بن حنطب، أنّ النبي ﷺ قال: «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلّا والسماء تُمطر فيها، يصرفه الله حيث يشاء»[٢].

[٦٢٦/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن عبّاس قال: ما نزل مطر من السماء إلّا ومعه البذر. أما إنّكم لو بسطتم نطعاً لرأيتموه[٣].

[٦٢٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن عبّاس قال: المطر مزاجه من الجنّة، فإذا كثر المزاج عظمت البركة، وإن قلّ المطر، وإذا قلّ المزاج قلّت البركة وإن كثر المطر[٤].

[٦٢٨/٢] وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه حيث شاء، وينزل مع المطر كذا وكذا من الملائكة، يكتبون حيث يقع ذلك المطر، ومن يرزقه، وما يخرج منه مع كلّ قطرة[٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[٦٢٩/٢] أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: **﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ**

---

(١) الدرّ ١: ٨٧؛ العظمة ٤: ١٢٥٥ ـ ١٢٥٦ / ٧٣١ باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله)، بلفظ: قال: يخلق الله عزّوجلّ اللؤلؤ. يخرّ الأصداف من المطر.

(٢) الدرّ ١: ٨٧؛ الأمّ ١: ٢٩٠، كتاب الاستسقاء، باب كثرة المطر وقلّته؛ كتاب المطر لابن أبي الدنيا: ٩٢ / ٦٠ وفيه: «ما أتى على الناس ساعة قطّ من ليل أو نهار...»؛ كنز العمّال ٧: ٨٣٢ / ٢١٥٩٠.

(٣) الدرّ ١: ٨٧؛ كتاب المطر، لابن أبي الدنيا: ١٠٧ ـ ١٠٨ / ٨٦؛ العظمة ٤: ١٢٦٧ / ٧٥٠، باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله).

(٤) الدرّ ١: ٨٧؛ كتاب المطر، لابن أبي الدنيا: ٥٤ ـ ٥٥ / ٨؛ العظمة ٤: ١٢٧٤ ـ ١٢٧٥ / ٧٦٢.

(٥) الدرّ ١: ٨٧؛ العظمة ٤: ١٢٧٤ / ٧٦١، باب ٢٤ (ذكر المطر ونزوله)، وفيه: يصرفه حيث يشاء وربما كان ذلك في البحر ينزل مع المطر.

أندَادًا﴾ أي لا تشركوا به غيره من الأنداد الّتي لاتضرّ ولا تنفع ﴿وَ أَنتُمْ تَـعْلَمُونَ﴾ أنّه لا ربّ لكم يرزقكم غيره[١].

[٢ / ٦٣٠] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ يقول: لا تجعلوا مع الله شركاء ﴿وَ أَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّ هذا الّذي ذكر كلّه من صنعه فكيف تعبدون غيره؟[٢].

[٢ / ٦٣١] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿أَندَادًا﴾ قال: شركاء[٣].

[٢ / ٦٣٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: ﴿أَندَادًا﴾ هو الشرك[٤].

[٢ / ٦٣٣] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أَندَادًا﴾ قال: أشباهاً[٥].

[٢ / ٦٣٤] وأخرج الطستي عن ابن عبّاس، أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قول الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿أَندَادًا﴾ قال: الأشباه والأمثال. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول لبيد:

أحمد الله فلا ندّ له   بيديه الخير ما شاء فعل[٦]

[٢ / ٦٣٥] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أكفاء من

---

(١) الدرّ ١: ٨٧؛ الطبري ١: ٢٣٧ / ٤١٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٢ / ٢٣١، وزاد في آخره: وقد علمتم الّذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحقّ لايشكّ فيه؛ ابن كثير ١: ٦١؛ التبيان ١: ١٠٢، بلفظ: قال ابن عبّاس: إنّه خاطب بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جميع الكفّار من عُبّاد الأصنام وأهل الكتابين، لأنّ معنى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَـعْلَمُونَ﴾ أنّه لا ربّ لكم يرزقكم غيره وأنّ ما تعبدون لايضرّ ولا ينفع.

(٢) تفسير مقاتل ١: ٩٣.

(٣) الدرّ ١: ٨٨؛ ابن كثير ١: ٦١، بلفظ: قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً﴾ أي عُدَلاء شركاء، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدّي وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد.

(٤) الدرّ ١: ٨٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٢ / ٢٢٩، وزاد: «أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة وحياتي. ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. لاتجعل فيها فلان فإنّ هذا كله به شرك»؛ ابن كثير ١: ٦١. قريب لما رواه ابن أبي حاتم.

(٥) الدرّ ١: ٨٧؛ الطبري ١: ٢٣٧ / ٤٠٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٢ / ٢٢٨.

(٦) الدرّ ١: ٨٧ ـ ٨٨.

الرجال تطيعونهم في معصية الله(١).

[٦٣٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عوف بن عبدالله قال: «خرج النبي ﷺ ذات يوم من المدينة فسمع منادياً ينادي للصلاة، فقال: الله أكبر الله أكبر. فقال رسول الله ﷺ: على الفطرة؛ فقال: أشهد أن لا إلٰه إلّا الله. فقال: خلع الأنداد»(٢).

[٦٣٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والنسائي وابن ماجة وأبونعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس قال: «قال رجل للنبيّ ﷺ: ما شاء الله وشئت فقال: جعلتني لله نداً، ما شاء الله وحده»(٣).

[٦٣٨/٢] وأخرج ابن سعد عن قتيلة بنت صيفي قالت: «جاء حبر من الأحبار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمّد نعم القوم أنتم لولا أنّكم تشركون. قال: وكيف؟ قال: يقول أحدكم: لا والكعبة. فقال النبي ﷺ: إنّه قد قال، فمن حلف فليحلف بربّ الكعبة. فقال: يا محمّد نعم القوم أنتم لولا أنّكم تَجْعَلُون للهِ ندًا. قال: وكيف ذاك؟! قال: يقول أحدكم: ما شاء الله وشئت؛ فقال النبي ﷺ للحبر: إنّه قد قال، فمن قال منكم فليقل: ما شاء الله ثمّ شئت»(٤).

[٦٣٩/٢] وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي عن طفيل بن سخبرة أنّه رأى فيما يرى النائم كأنّه مرّ برهط من اليهود فقال: أنتم نعم القوم لولا أنّكم تزعمون أنّ عزيراً ابن الله! فقالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنّكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمّد. ثمّ مرّ برهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنّكم

(١) الدرّ ١: ٨٧؛ الطبري ١: ٢٣٦ / ٤٠٦، نقلاً عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ؛ التبيان ١: ١٠٢.

(٢) الدرّ ١: ٨٨.

(٣) الدرّ ١: ٨٨؛ المصنّف ٦: ٢٦٤ / ٣، باب ٢٣١؛ مسند أحمد ١: ٢١٤ و ٢٢٤ و ٢٨٣؛ الأدب المفرد: ١٦٩ ـ ١٧٠ / ٧٨٣؛ النسائي ٦: ٢٤٥ / ١٠٨٢٥، باب ٢٣٣؛ ابن ماجة ١: ٦٨٤ / ٢١١٧، باب ١٣ (كتاب الكفّارات)؛ الحلية ٤: ٩٩، باب ٢٥٢ (يزيدبن الأصم)؛ الأسماء والصفات ١: ٢٢٤، باب: قول الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ بلفظ: عن ابن عبّاس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلّمه في بعض الأمر فقال الرجل لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت! فقال رسول الله ﷺ: أجعلتني لله عدلاً؟ بل شاء الله وحده؛ كنز العمّال ٣: ٦٥٩ / ٨٣٧٩؛ ابن كثير ١: ٦٠.

(٤) الدرّ ١: ٨٨؛ الطبقات الكبرى ٨: ٣٠٩، في ترجمة: قتيلة بنت صيفي؛ مسند أحمد ٦: ٣٧١ ـ ٣٧٢؛ البيهقي ٣: ٢١٦، كتاب الجمعة، باب مايكره من الكلام في الخطبة.

تقولون: المسيح ابن الله! قالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنّكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمّد. فلمّا أصبح أخبر النبي ﷺ، فخطب فقال: «إنّ طفيلاً رأى رؤيا، وإنّكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم، فلا تقولوها ولكن قولوا: ما شاء الله وحده لاشريك له»(١).

[٢/٦٤٠] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داوود والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن حذيفة ابن اليمان عن النبيّ ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان؛ قولوا: ماشاء الله ثمّ شاء فلان»(٢).

[٢/٦٤١] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي عُدَلاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: إنّ الله خلقكم وخلق السماوات والأرض(٣).

[٢/٦٤٢] وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي عُدَلاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنّه إلٰه واحد في التوراة والإنجيل لاندّ له(٤).

[٢/٦٤٣] وأخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله! أيّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك»(٥).

[٢/٦٤٤] وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أي أن تقولوا: لولا كلبنا لدخل علينا اللّصّ الدار، لولا كلبنا صاح في الدار ونحو ذلك(٦).

---

(١) الدرّ ١: ٨٨؛ مسند أحمد ٥: ٧٢؛ ابن ماجة ١: ٦٨٥ / ٢١١٨، كتاب الكفارات، باب ١٣ (النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت)؛ الأسماء والصفات، الجزء الأوّل: ٢٢٣، باب قول الله عزّ وجلّ ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ ابن كثير ١: ٦٠.

(٢) الدرّ ١: ٨٨؛ المصنّف ٧: ٩٢ / ١، باب ٦٨، كتاب الدعاء؛ مسند أحمد ٥: ٣٨٤ و ٣٩٤؛ أبو داوود ٢: ٤٧٣ / ٤٩٨٠، باب ٨٤، كتاب الأدب؛ النسائي ٦: ٢٤٥ / ١٠٨٢١؛ ابن ماجة ١: ٦٨٥ / ٢١١٨، باب ١٣؛ البيهقي ٣: ٢١٦، كتاب الجمعة، باب ما يكره من الكلام في الخطبة؛ الأسماء والصفات ١: ٢٢٤؛ ابن كثير ١: ٦٠.

(٣) الدرّ ١: ٨٨؛ الطبري ١: ٢٣٦ و ٢٣٧ ـ ٢٣٨ / ٤٠٤ و ٤١١؛ ابن كثير ١: ٦١، في تفسير قوله تعالى «أنداداً» عن أبي العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدّي وأبي مالك وإسماعيل بي أبي خالد.

(٤) الدرّ ١: ٨٨ ـ ٨٩؛ الطبري ١: ٢٣٦ و ٢٣٨ / ٤٠٥ و ٤١٢؛ مجمع البيان ١: ١٢٤، بلفظ: ثالثها: ما قاله مجاهد وغيره: إنّ المراد بذلك أهل التوراة والإنجيل دون غيرهم أي: تعلمون ذلك في الكتابين؛ التبيان ١: ١٠٢، بلفظ: روي عن مجاهد: أنّه عنى بذلك أهل الكتابين.

(٥) البخاري ٥: ١٤٨؛ مسلم ١: ٦٣، كتاب الإيمان، باب: بيان كون الشرك أقبح الذنوب؛ ابن كثير ١: ٦٠.

(٦) الطبري ١: ٢٣٧ / ٤٠٩.

[٦٤٥/٢] وعن ابن زيد قال: الأنداد: الآلهة الّتي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له[١].

[٦٤٦/٢] قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، الخطاب للكافرين والمنافقين، عن ابن عبّاس[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾

[٦٤٧/٢] قال عليّ بن إبراهيم في قوله: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾: أي في شكٍّ[٣].

[٦٤٨/٢] وقال مقاتل بن سليمان: قالت اليهود، منهم رفاعة بن زيد، وزيد بن عمرو، ما يشبه هذا الكلامُ الوحيَ وإنّا لفي شكّ منه، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ يعني في شكّ[٤].

[٦٤٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ الآية. قال: هذا قول الله لمن شكّ من الكفّار فيما جاء به محمدﷺ[٥].

[٦٥٠/٢] وأخرج عبد الرزّاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ قال: في شكّ ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ قال: من مثل هذا القرآن حقّاً وصدقاً، لا باطل فيه ولا كذب[٦].

قوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾

[٦٥١/٢] روى الصدوق عن جعفر بن محمّد بن مسرور قال: حدّثنا الحسين بن محمّد بن عامر قال: حدّثنا أبو عبدالله السيّاري عن أبي يعقوب البغدادي قال: قال ابن السكّيت لأبي الحسن الرضاؑ: لما ذا بعث الله تعالى موسى بن عمران بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر، وبعث عيسى بالطبّ، وبعث محمّداًﷺ بالكلام والخطب؟ فقال له أبو الحسنؑ: «إنّ الله تعالى لمّا بعث موسىؑ كان الأغلب على أهل عصره السحر فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن عند القوم وفي

(١) المصدر / ٤٠٧.

(٢) القرطبي ١: ٢٣١.

(٣) القمي ١: ٣٤.

(٤) تفسير مقاتل ١: ٩٣.

(٥) الدرّ ١: ٨٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٣ / ٢٣٦.

(٦) الدرّ ١: ٨٩؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٠ / ١٩؛ الطبري ١: ٢٣٩ / ٤١٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٣ / ٢٣٥، بلفظ: عن أبي العالية في قوله: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ قال: في شكّ، وكذلك فسرّه الحسن وقتادة والربيع بن أنس.

وسعهم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله تعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطبّ فأتاهم من عند الله بمالم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم، وإنّ الله تبارك وتعالى بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام [وأظنّه قال:] والشعر فأتاهم من كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم.

فقال ابن السكّيت: تالله ما رأيت مثلك اليوم قطّ. فما الحجّة على الخلق اليوم؟ فقال عليه السلام: العقل تعرف به الصادق على الله فتصدّقه، والكاذب على الله فتكذّبه. فقال له ابن السكّيت: وهذا والله الجواب»[(١)].

قلت: في هذا الكلام الأخير جوهرة الحجّة القاطعة: براهين العقل الساطعة، فتدبّر!

[٦٥٢/٢] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من الأنبياء نبيّ إلّا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الّذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾

[٦٥٣/٢] قال مقاتل بن سليمان: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن﴾ الله ﴿مِّثْلِهِ﴾ يعني مثل هذا القرآن[(٣)].

[٦٥٤/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ يقول: بسورة مثل هذا القرآن[(٤)].

---

(١) عيون الأخبار ٢: ٨٥ـ٨٦ / ١٢، باب ٣٢ (في ذكر ما جاء عن الرضا عليه السلام من العلل)؛ البحار ١١: ٧٠.

(٢) الدرّ ١: ٨٩؛ مسند أحمد ٢: ٤٥١؛ البخاري ٦: ٩٧، كتاب فضائل القرآن؛ مسلم ١: ٩٢ ـ ٩٣، كتاب الإيمان؛ النسائي ٥: ٣ / ٧٩٧٧؛ الدلائل ٧: ١٢٩؛ البيهقي ٩: ٤، كتاب السير، باب مبتدأ الخلق؛ كنز العمّال ١١: ٤١٠ / ٣١٩٢٢؛ ابن كثير ١: ٦٤.

(٣) تفسير مقاتل ١: ٩٣.

(٤) الطبري ١: ٢٤٠ / ٤١٤؛ القرطبي ١: ٢٣٢، بلفظ: الضمير في ﴿مِّثْلِهِ﴾ عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء كقتادة ←

[٢/٦٥٥] وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ قال: مثل القرآن ﴿وَ ادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: ناس يشهدون لكم إذا أتيتم بها أنّه مثله[1].

قوله تعالى: ﴿وَ ادْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾

[٢/٦٥٦] قال مجاهد: معنى قوله: ﴿وَ ادْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾: أي ادعوا ناساً يشهدون لكم، أي يشهدون أنّكم عارضتموه[2].

[٢/٦٥٧] وأخرج ابن جرير وابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله ﴿وَ ادْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾ وقال: أعوانكم على ما أنتم عليه ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَ لَن تَفْعَلُوا﴾ فقد بُيّن لكم الحقّ[3].

[٢/٦٥٨] وقال عليّ بن إبراهيم في قوله: ﴿وَ ادْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾: يعني الّذين عبدوهم وأطاعوهم[4].

[٢/٦٥٩] وقال الفرّاء: ﴿وَ ادْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾: أي آلهتكم[5].

[٢/٦٦٠] وقال مقاتل بن سليمان: ﴿وَ ادْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾ يقول: واستعينوا بالآلهة الّتي تعبدون ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنّ محمّداً ﷺ يقول من تلقاء نفسه[6].

← ومجاهد وغيرهما: ابن كثير ١: ٦٣، نقلاً عن مجاهد وقتادة. ثمّ قال ابن كثير: «واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي، ونقله عن ابن مسعود وابن عبّاس والحسن البصري وأكثر المحقّقين».

(١) الدرّ ١: ٨٩؛ الطبري ١: ٢٤٠ و ٢٤١ / ٤١٥ و ٤١٧، نقلاً عن مجاهد.

(٢) القرطبي ١: ٢٣٣؛ الطبري ١: ٢٤١ / ٤١٧؛ ابن كثير ١: ٦٢؛ البغوي ١: ٩٤؛ التبيان ١: ١٠٤، بلفظ: قال مجاهد وابن جريج: أراد قوماً يشهدون لكم بذلك ممّن يقبل قولهم؛ مجمع البيان ١: ١٢٦، بنحو ما رواه التبيان.

(٣) الدرّ ١: ٨٩؛ الطبري ١: ٢٤١ و ٢٤٣ / ٤١٦ و ٤١٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٣ ـ ٦٤ / ٢٤٠؛ ابن كثير ١: ٦٢، بلفظ: قال ابن عبّاس: شهداءكم أعوانكم: التبيان ١: ١٠٤، في تفسير قوله تعالى ﴿وَادْعُوا شُهَدَآءَكُمْ﴾، قال الشيخ: هذا القول أقوىٰ؛ مجمع البيان ١: ١٢٦، بلفظ: قال ابن عبّاس: يعني أعوانكم وأنصاركم الّذين يظاهرونكم على تكذيبكم. قال الطبرسي: قول ابن عبّاس أقوى.

(٤) القمي ١: ٣٤.

(٥) القرطبي ١: ٢٣٢؛ التبيان ١: ١٠٤؛ مجمع البيان ١: ١٢٦.

(٦) تفسير مقاتل ١: ٩٣.

[٢/٦٦١] وقال السدّي عن أبي مالك: ﴿شُرَكَاءِكُمْ﴾: أي قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك؛ أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدّونكم وينصرونكم(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾

[٢/٦٦٢] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ يقول: لن تقدروا على ذلك ولن تطيقوه(٢).

[٢/٦٦٣] وقال ابن كيسان: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ توقيفاً لهم على أنّه الحقّ، وأنّهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنّه كذب، وأنّه مفترىً وأنّه سحر وأنّه شعر، وأنّه أساطير الأوّلين، وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله(٣).

[٢/٦٦٤] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ يقول ـ سبحانه ـ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ يعني تجيئوا به. فيها تقديم، تقديمها: ولن تفعلوا ذلك فإن تفعلوا فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن. فلم يجيبوه وسكتوا(٤).

[٢/٦٦٥] وروى ابن كثير بالإسناد إلى عمرو بن العاص أنّه وفد على مسيلمة الكذّاب وذلك قبل أن يُسلم عمرو فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل على صاحبكم بمكّة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أُنزل عليه سورة وجيزة بليغة؛ فقال: وما هي فقال: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ...﴾ ففكّر مسيلمة هُنيئة ثمّ رفع رأسه فقال: ولقد أُنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر، وإنّما أنت أذنان وصدر، وسائرك حُفَرٌ نُقَرٌ! ثمّ قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنّك لتعلم أنّي أعلم أنّك تكذب.

قال ابن كثير: والوَبْر دويبة تُشبه الهرّ، أعظم شيء فيه أُذناه وصدره وباقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركّب من هذا الهذيان ما يعارض القرآن، فلم يَرُج ذلك على عابدي الأوثان في ذلك الزمان(٥).

---

(١) ابن كثير ١: ٦٢.
(٢) الدرّ ١: ٨٩؛ الطبري ١: ٢٤٣ / ٤١٨ باختلاف.
(٣) القرطبي ١: ٢٣٤.
(٤) تفسير مقاتل ١: ٩٣ ـ ٩٤.
(٥) ذكر ذلك في تفسير سورة العصر (٤: ٥٨٥). وأورده هنا أيضاً باختصار (١: ٦٥) وفي تفسير سورة يونس الآية: ١٧ بتفصيل (٢: ٤٢٦).

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

[٢/٦٦٦] رُوي عن عليّ ﷺ قال: يا معشر شيعتنا اتّقوا الله واحذروا أن تكونوا لتلك النار حطباً وإن لم تكونوا بالله كافرين، فتوقّوها بتوقّي ظلم إخوانكم المؤمنين، وإنّه ليس من مؤمن ظلم أخاه المؤمن إلّا ثقل الله في تلك النار سلاسله وأغلاله ولم يفكّه منها إلّا شفاعتنا، ولن نشفع إلى الله إلّا بعد أن نشفع له إلى أخيه المؤمن، فإن عفا عنه شفعنا وإلّا طال في النار مكثه[١].

[٢/٦٦٧] وأخرج ابن أبي شيبة عن النعمان بن بشير قال: «سمعت النبي ﷺ وهو على المنبر يقول: أُنذركم النار، أُنذركم النار» حتّى سقط إحدى عطفي ردائه عن منكبيه[٢].

[٢/٦٦٨] وأخرج عبد الرزّاق وسعيد بن منصور والفريابي وهنّاد بن السريّ في كتاب الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصحّحه والبيهقي في «البعث والنشور» عن ابن مسعود قال: إنّ الحجارة الّتي ذكرها الله في القرآن في قوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء[٣].

[٢/٦٦٩] وقال مقاتل بن سليمان: يقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وتلك الحجارة تحت الأرض الثانية مثل الكبريت تجعل في أعناقهم إذا اشتعلت فيها النار احترقت عامة اليوم فكان وهجها على وجوههم وذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعني شدّة العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ثمّ قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالتوعيد يخوّفهم الله ـ عزّ وجلّ ـ فلم يخافوا فقالوا من تكذيبهم: هذه النار وقودها الناس فما بال الحجارة[٤]؟

---

(١) تفسير الإمام: ٢٠٤ / ٩٣؛ البحار ٧٢: ٣١٥ـ٣١٦ / ٣٩.

(٢) الدرّ ١: ٩٠؛ المصنَّف ٨: ٩٤ / ٢٠، كتاب ذكر النار، باب ما ذكر فيما أعدّ لأهل النار وشدّته.

(٣) الدرّ ١: ٩٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٠ ـ ٢٦١ / ٢١؛ الزهد، لهنّاد ١: ١٧٩ / ٢٦٣؛ الطبرى ١: ٢٤٤ / ١ ـ ٤٢٣ و ٤٢١، بنحوه؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٤ / ٢٤٤؛ الكبير ٩: ٢١٠ ـ ٢١١؛ الحاكم ٢: ٢٦١و ٤٩٤، في تفسير سورة التحريم؛ البعث والنشور: ٢٨٦ / ٥٠٣، باب ما جاء في شدّة حرّ جهنّم؛ مجمع الزوائد ٧: ١٢٧، كتاب التفسير، سورة التحريم، قال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه عبدالله بن محمّدبن سعيد بن أبي مريم؛ ابن كثير ١: ٦٤؛ مجمع البيان ١: ١٢٨، بلفظ: قيل: إنّها حجارة الكبريت لأنّها أحرّ شيء إذا أحميت، عن ابن مسعود وابن عبّاس، وكذا: أبو الفتوح ١: ١٦٤.

(٤) تفسير مقاتل ١: ٩٤.

[٦٧٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في الآية قال: هي حجارة في النار من كبريت أسود يعذّبون به مع النار(١).

[٦٧١/٢] وأخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون قال: هي حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض، في السماء الدنيا فأعدّها للكافرين(٢).

[٦٧٢/٢] وروي عن مجاهد قال: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة(٣).

[٦٧٣/٢] وقال ابن جُرَيج: حجارة من كبريت أسود في النار، وقال لي عمرو بن دينار: أصلب من هذه الحجارة وأعظم(٤).

[٦٧٤/٢] وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فقال: أوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت، وألف عام حتّى ابيضّت، وألف عام حتّى اسودّت، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها»(٥).

[٦٧٥/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقدت النار ألف سنة حتّى احمرّت ثمّ أوقد عليها ألف سنة حتّى ابيضّت، ثمّ أوقد عليها ألف سنة حتّى اسودّت، فهي سوداء مظلمة»(٦).

[٦٧٦/٢] وأخرج أحمد ومالك والبخاري ومسلم والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم الّتي توقدون، جزء من سبعين جزءاً(٧) من نار جهنم فقالوا: يا

---

(١) الدرّ ١: ٩٠؛ الطبري ١: ٢٤٤ / ٤٢٢، نقلاً عن ابن عبّاس وعن مُرّة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ؛ البغوي ١: ٩٤، بلفظ: قال ابن عبّاس وأكثر المفسرين: يعني حجارة الكبريت لأنّها أكثر التهاباً.

(٢) الدرّ ١: ٩٠؛ الطبري ١: ٢٤٤ / ٤٢٠، نقلاً عن عمرو بن ميمون عن عبدالله؛ ابن كثير ١: ٦٤.

(٣) ابن كثير ١: ٦٤.

(٤) ابن كثير ١: ٦٤.

(٥) الدرّ ١: ٩٠؛ الشعب ١: ٤٨٩ / ٧٩٩، باب: في الخوف من الله تعالى؛ ابن كثير ٢: ٣٩١، سورة التوبة، الآية ٨١.

(٦) الدرّ ١: ٩٠؛ المصنّف ٨: ٩٩ / ٤٩، باب ١، كتاب ذكر النار؛ الترمذي ٤: ١١٠ ـ ١١١ / ٢٧١٧، باب ٧، كتاب صفة جهنّم؛ البعث والنشور: ٢٨٧ / ٥٠٥، باب ما جاء في شدّة حرّ جهنّم؛ كنزالعمّال ١٤: ٥٢٢ / ٣٩٤٨٣؛ القرطبي ١٩: ٢٣٥، سورة التكوير، الآية ١٢.

(٧) البعث والنشور: جزءاً.

رسول الله إن كانت لكافية؟ قال: فإنّها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلّهنّ مثل حرّها»(١).

[٦٧٧/٢] وأخرج مالك في الموطّأ والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: أترونها حمراء مثل ناركم هذه الّتي توقدون؟ إنّها لأشدّ سواداً من القار(٢).

[٦٧٨/٢] وأخرج الترمذي وحسّنه عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ «قال: ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، لكلّ جزء منها حرُّها»(٣).

[٦٧٩/٢] وأخرج ابن ماجة والحاكم وصحّحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، لولا أنّها أُطفئت بالماء مرّتين ما انتفعتم منها بشيءٍ، وإنّها لتدعو الله أن لا يعيدها فيها»(٤).

[٦٨٠/٢] وأخرج البيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من تلك النار، ولولا أنّها ضُربت في البحر مرّتين ما انتفعتم منها بشيءٍ(٥).

[٦٨١/٢] وأخرج البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، ضُربت بماء البحر مرّتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»(٦).

---

(١) الدرّ ١: ٩٠ ـ ٩١؛ مسند أحمد ٢: ٤٦٧ و ٤٧٨؛ الموطّأ ٢: ٩٩٤ / ١، كتاب جهنّم؛ البخاري ٤: ٩٠، كتاب بدء الخلق، باب ١٠ (صفة النار وأنّها مخلوقة)؛ مسلم ٨: ١٤٩ ـ ١٥٠، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب شدّة حرّ جهنّم وبعد قعرها؛ البعث والنشور: ٢٨٤ / ٤٩٧، باب: ما جاء في شدّة حرّ جهنّم.

(٢) الدرّ ١: ٩١؛ الموطّأ ٢: ٩٩٤ / ٢، كتاب جهنّم، باختلاف؛ البعث والنشور: ٢٨٦ / ٥٠١، باب ما جاء في شدّة حرّ جهنّم، بلفظ: عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: تحسبون أنّ نار جهنّم مثل ناركم هذه، هي أشدّ سواداً من القار، هي جزء من بضعة وستّين جزءاً منها، أو نيفٍ وأربعين جزءاً.

(٣) الترمذي ٤: ١١٠ / ٢٧١٦ باب ٧، أبواب صفة جهنّم؛ كنز العمّال ١٤: ٥٢١ / ٣٩٤٧٧؛ أبو يعلى ٢: ٤٩٣ / ١٣٦٠ـ ١٣٣٤؛ أبو الفتوح ١: ١٦٤، إلى قوله «جهنّم».

(٤) الدرّ ١: ٩١؛ ابن ماجة ٢: ١٤٤٤ / ٤٣١٨، باب ٣٨، كتاب الزهد، باب صفة النار؛ الحاكم ٤: ٥٩٣، كتاب الأهوال؛ كنز العمّال ١٤: ٥٢١ / ٣٩٤٧٦.

(٥) الدرّ ١: ٩١؛ البعث والنشور: ٢٨٥ / ٤٩٩، باب ماجاء في شدّة حرّ جهنّم.

(٦) الدرّ ١: ٩١؛ البعث والنشور: ٢٨٥ / ٥٠٠، باب ما جاء في شدّة حرّ جهنّم؛ مسند أحمد ٢: ٢٤٤، سورة التوبة، الآية ٨١.

[٦٨٢/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: إنّ ناركم هذه تعوّذ من نار جهنم(١).

[٦٨٣/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال: أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر(٢).

[٦٨٤/٢] وروى مسلم بإسناده عن عبدالله بن مسعود «قال: كنّا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وَجْبَةً؛ فقال النّبي ﷺ: تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم؛ قال: هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتّى انتهى إلى قعرها»(٣).

الوَجْبَة ـ بالجيم والباء الموحّدة ـ: السقطة مع الهدّة (التهدّم). أو صوت الساقط.

[٦٨٥/٢] وروى بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّت النار والجنّة، فقالت هذه: يدخلني الجبّارون والمتكبّرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين؛ فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ لهذه: أنتِ عذابي أُعذّب بكِ من أشاء، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحم بك مَن أشاء، ولكلّ واحدة منكما ملؤها»(٤).

[٦٨٦/٢] وروى البخاري بإسناده إلى أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «تحاجّت الجنّة والنار، فقالت النار: أوثرتُ بالمتكبّرين والمتجبّرين! وقالت الجنّة: مالي لا يدخلني إلّا ضعفاء الناس وسَقَطُهم! قال الله تبارك وتعالى للجنّة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنّما أنت عذابي أعذّب بك من أشاء من عبادي. ولكلّ واحدة منهما ملؤها. فأمّا النار فلا تمتلئُ حتّى يضع رجله فتقول: قَطْ قَطْ قَطْ. فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله ـ عزّ وجلّ ـ من خلقه أحداً. وأمّا الجنّة فإنّ الله يُنشئ لها خلقاً!»(٥).

قلت: في أمثال هذه الأحاديث بعض النكارة لابدّ من تأويلها إن صحّت.

---

(١) الدرّ ١: ٩١؛ المصنّف ٨: ٩٦ / ٣٠، باب ١، كتاب ذكر النار، باب ما ذكر فيما أعدّ لأهل النار وشدّته.

(٢) الدُرّ ١: ٩١؛ الطبري ١: ٢٤٥ / ٤٢٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٥ / ٢٤٨؛ ابن كثير ١: ٦٥.

(٣) مسلم ٨: ١٥٠، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدّة حرّ نار جهنّم وبُعد قعرها؛ ابن كثير ١: ٦٥.

(٤) مسلم ٨: ١٥٠ ـ ١٥١، كتاب الجنّة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبّارون والجنّة يدخلها الضعفاء.

(٥) البخاري ٦: ٤٨، تفسير سورة ق.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

وفي مقابل ذلك المشهد المفزع ـ النار الّتي وقودها الناس والحجارة ـ يعرض المشهد المقابل، مشهد النعيم الّذي ينتظر المؤمنين:

وهي ألوان النعيم، يستوقف النظر منها ـ إلى جانب الأزواج المطهّرة ـ تلك الثمار المتشابهة، الّتي يُخيَّل إليهم أنّهم رزقوها من قبل ـ إمّا ثمار الدنيا الّتي تشبهها بالإسم أو الشكل، وإمّا ثمار الجنّة الّتي رزقوها من قبل ـ فربّما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوّع الداخلي مزيّة المفاجأة في كلّ مرّة. وهي ـ كما قال سيد قطب[1] ـ ترسم جوّاً من الدعابة الحلوة، والرضا السابغ، والتفكّه الجميل، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة، وفي كلّ مرّة ينكشف التشابه الظاهري عن شيء جديد، وفي كلّ جديد لذّة.

[٦٨٧/٢] روى الثعلبيّ وكذا الطبرسيّ بالإسناد إلى ابن عبّاس قال: «وعملوا الصالحات فيما بينهم وبين ربّهم»[2].

[٦٨٨/٢] وقيل: أي أخلصوا الأعمال، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[3] أسنده البغويّ إلى ابن عفّان.

[٦٨٩/٢] وقال معاذ: العمل الصالح الّذي فيه أربعة أشياء: العلم والنيّة والصبر والإخلاص[4]. وهذا قد أسنده الثعلبي إلى ابن عبّاس. وزاد: وقال سهل بن عبدالله: لزموا السنّة، لأنّ عمل المبتدع لا يكون صالحاً[5].

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾

[٦٩٠/٢] روى الصدوق بإسناده إلى يزيد بن عبدالله بن سلام عن أبيه عن النبي ﷺ في حديث

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٥٧.

(٢) مجمع البيان ١: ١٣١؛ الثعلبي ١: ١٧٠.

(٣) الكهف ١٨: ١١٠.

(٤) البغوي ١: ٩٤.

(٥) الثعلبي ١: ١٧٠.

طويل وفيه: «قال: فلم سمّيت الجنّة جنّة؟ قال: لأنّها جنينة[1] خيّرة نقيّة، وعند الله تعالى ذكره مرضيّة»[2].

[٦٩١/٢] وقال الفرّاء: الجنّة ما فيه النخيل، والفردوس ما فيه الكرم[3].

[٦٩٢/٢] وقال عليّ بن الحسين عليه السلام خطاباً مع المؤمنين الأخلّاء: «أما الجنّة فلن تفوتكم سريعاً كان أو بطيئاً ولكن تنافسوا في الدرجات، واعلموا، أنّ أرفعكم درجاتٍ وأحسنكم قصوراً ودوراً وأبنية، أحسنكم إيجاباً لإخوانه المؤمنين، وأكثركم مواساة لفقرائهم، إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ ليقرّب الواحد منكم إلى الجنّة بكلمة طيّبة يكلّم بها أخاه المؤمن الفقير بأكثر من مسيرة مائة ألف عام بقدمه، وإن كان من المعذّبين بالنار، فلا تحتقروا الإحسان إلى إخوانكم فسوف ينفعكم حيث لا يقوم مقام ذلك شيء غيره»[4].

[٦٩٣/٢] وأخرج ابن ماجة وابن أبي الدنيا في صفة الجنّة، والبزّار وابن أبي حاتم وابن حبّان وابن أبي داوود والبيهقي كلاهما في البعث، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا هل مُشمّر للجنّة، فإنّ الجنّة لاخطر لها، هي وربّ الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتزّ، وقصر مُشيد ونهر مُطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَل كثيرة، ومقام آبد في دار سليمة وفاكهة خضرة وحَبِرة، ونعمة في محلّة عالية بهيّة. قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمّرون لها. قال: قولوا إن شاء الله، قال القوم: إن شاء الله»[5].

---

(١) والجنينة: المستورة من شدّة التفاف أشجارها.

(٢) علل الشرائع ٢: ٤٧٢ / ٣٣، باب ٢٢٢ (النوادر)؛ البحار ٩: ٣٠٦ / ٨.

(٣) البغوي ١: ٩٤؛ التبيان ١: ١٠٨، نقلاً عن الفضل، بلفظ: قال الفضل: الجنّة: كلّ بستان فيه نخل وإن لم يكن شجرٌ غيره، وإن كان فيه كرم، فهو فردوس، كان فيه شجر غير الكرم أم لم يكن.

(٤) البرهان ١: ١٥٦ / ٤؛ تفسير الإمام: ٢٠٤ / ٩٤؛ البحار ٧١: ٣٠٨ / ٦١، باب ٢٠.

(٥) الدرّ ١: ٩١ ـ ٩٢؛ ابن ماجة ٢: ١٤٤٨ ـ ١٤٤٩ / ٤٣٣٢؛ صفة الجنّة: ١١ / ٢؛ مسند البزّار ٧: ٤٣ / ٢٥٩١؛ ابن حبّان ١٦: ٣٨٩ / ٧٣٨١؛ البعث والنشور: ٢٣٣ / ٣٩١؛ العظمة ٣: ١١٠٥ ـ ١١٠٦ / ٦٠٢؛ البغوي ١: ٩٧ ـ ٩٨ / ٤٣؛ كنز العمّال ٤: ٤٤٧ ـ ٤٤٨ / ١١٣٣٦؛ ابن كثير ٤: ٥٣٧ ـ ٥٣٨، في تفسير سورة الغاشية.

في بناء الجنّة

[٦٩٤/٢] أخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده والترمذي وابن حبّان في صحيحه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قلنا يا رسول الله حدّثنا عن الجنّة ما بناؤها؟ قال: «لبنة مـن ذهب، ولبنة من فضّة، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت، وملاطها المسك، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لايموت. لاتبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[١].

[٦٩٥/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجنّة كيف هي؟ قال: «من يدخل الجنّة يحيا لايموت، وينعم لاييأس. لاتبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. قيل يا رسول الله كيف بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها مسك أذفر، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران»[٢].

[٦٩٦/٢] وأخرج البزّار والبيهقي في البعث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ حائط الجنّة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، ومجامرهم الألُوَّة، وأمشاطهم الذهب، ترابها زعفران، وطيبها مسك»[٣].

[٦٩٧/٢] وأخرج ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في صفة الجنّة عن أبي هريرة قال: حائط الجنّة لبنة ذهب، ولبنة فضّة، ودرمها اللؤلؤ والياقوت، ورضاضها اللؤلؤ، وترابها الزعفران[٤].

---

(١) الدرّ ١: ٩٢؛ مسند أحمد ٢: ٣٠٤ـ٣٠٥؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٤١٥ـ٤١٦ / ١٤٢٠؛ الترمذي ٤: ٧٩ـ٨٠ / ٢٦٤٦، باب ٢؛ ابن حبّان ١٦: ٣٩٦ / ٧٣٨٧؛ البعث والنشور: ١٨٠ / ٢٥٨؛ ابن كثير ١: ٤١٥، في تفسير سورة آل عمران، الآية ١٣٥.

(٢) الدرّ ١: ٩٢؛ المصنّف ٨: ٦٧ / ٢؛ صفة الجنّة لابن أبي الدنيا: ١٦ / ١٢؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٩٧.

(٣) الدُرّ ١: ٩٢؛ البعث والنشور: ١٧٩ / ٢٥٦. والألُوَّة: عود يُتَبخّر به.

(٤) الدرّ ١: ٩٢؛ الزهد لابن المبارك ١: ٧٢ / ٢٥٢ و ٣٨٠ / ١٠٧٥؛ صفة الجنّة: ١١ـ١٢ / ٤ و ٥، بلفظ: «أبو هريرة يقول: قلت: يا رسول الله حدّثنا عن الجنّة، ما بناؤها؟ قال: لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، من يدخلها ينعم لاييؤس ويخلد لايموت، لايبلى ثيابه ولايفنى شبابه».

الدرم: العشب الناعم يغطّ قيعات الجنّة.

[٦٩٨/٢] وأخرج البزّار والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله أحاط حائط الجنّة لبنة من ذهب، ولبنة من فضّة، ثمّ شقّق فيها الأنهار، وغرس فيها الأشجار، فلمّا نظرت الملائكة إلى حسنها وزهرتها قالت: طوباك منازل الملوك»(١).

في أرض الجنّة

[٦٩٩/٢] أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أرض الجنّة بيضاء، عرصتها صخور الكافور وقد أحاط به المسك مثل كثبان الرمل، فيها أنهار مطّردة. فيجتمع أهل الجنّة أوّلهم وآخرهم، يتعارفون فيبعث الله عليهم ريح الرحمة، فتهيج عليهم المسك، فيرجع الرجل إلى زوجه وقد ازداد حسناً وطيباً فتقول: لقد خرجت من عندي وأنا بك معجبة، وأنا بك الآن أشدّ إعجاباً»(٢).

[٧٠٠/٢] وأخرج أبو نعيم عن سعيد بن جبير قال: أرض الجنّة فضّة(٣).

[٧٠١/٢] وأخرج مسلم من طريق نصربن علي بالإسناد إلى أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال لابن صائد (غلام يهوديّ حسبوه الدجّال): ما تربة الجنّة؟ قال: دَرْمَكَةٌ: بَيْضاءُ مِسْكٌ! قال: صدقت.

[٧٠٢/٢] وأخرج من طريق أبي بكر بن أبي شيبه بالإسناد إلى الجُرَيريّ عن أبي نضرة عن أبي سعيد أنّ ابن صيّاد (هو ابن صائد) سأل النبيّ ﷺ عن تربة الجنّة؟ فقال: دَرْمَكَةٌ بيضاء مسك خالص(٤). والدرمك: الدقيق الحُوّارى الخالص البياض.

هذان خبران متهافتان؛ قال القاضي: حديث ابن أبي شيبة أظهر عند بعض أهل النظر من

(١) الدرّ ١: ٩٢ ـ ٩٣؛ الأوسط ٤: ٩٩؛ البعث والنشور: ١٨١ / ٢٦١ باب ما جاء في حائط الجنّة وترابها وحصائها؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٩٧، كتاب أهل الجنّة، باب في بناء الجنّة وصفاته، قال الهيثمي: رواه البزّار مرفوعاً وموقوفاً وصحّحه.

(٢) الدرّ ١: ٩٢؛ صفة الجنّة لابن أبي الدنيا: ٢٠ / ٢٨.

(٣) الدرّ ١: ٩٢؛ حلية الأولياء ٤: ٢٨٧، ترجمة ٢٧٥ (سعيد بن جبير) بلفظ: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنّة.

(٤) مسلم ٨: ١٩١ ـ ١٩٢. وراجع: المصنّف لابن أبي شيبة ٨: ٦٧ / ٣ باب ١ / كتاب الجنّة وابن كثير ٤: ٧٣ ـ ٧٤.

حديث نصر بن عليّ(١).

[٧٠٣/٢] غير أنّ أحمد روى الحديث بالإسناد إلى الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد أنّ رسول الله ﷺ هو الّذي سأل ابن صائد عن تربة الجنّة، فقال: دَرْمَكَةٌ بيضاء مسك خالص، فقال: صدق(٢).

ومن ثمّ فقد خلط السيوطي(٣) حيث نسب حديث ابن أبي شيبة إلى مسلم وأحمد أيضاً، وكم له من هذا النوع من الخلط الفاحش!

غير أنّ أخبار ابن صائد أو ابن صيّاد المزعوم أنّه الدجّال، يخرج في آخر الزمان، لاتعدو أساطير سطّرتها يد المخاريف، وإن كان قد اعتنى بها أصحاب الصحاح، وعقد لها مسلم في صحيحه أبواباً في تنوّع وتفصيل؛ وقد صحّ عن الإمام أحمد بن حنبل: ثلاثة لاأصل لها، وعدّ منها أخبار الملاحم والفتن(٤).

[٧٠٤/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة وأبو الشيخ في العظمة عن أبي زميل، أنّه سأل ابن عبّاس ما أرض الجنّة؟ قال: مرمرة بيضاء من فضة كأنّها مرآة، قال: ما نورها؟ قال: أما رأيت الساعة الّتي يكون فيها طلوع الشمس؟ فذلك نورها، إلّا أنّه ليس فيها شمس ولا زمهرير، قال: فما أنهارها أفي أخدود(٥)؟ قال: لا، ولكنّها تفيض على وجه الأرض، لا تفيض هاهنا ولا هاهنا. قال: فما حُلَلُها؟ قال: فيها الشّجر فيها الثمر كأنّه الرمّان، فإذا أراد وليّ الله منها كسوة انحدرت إليه من أغصانها فانفلقت له من سبعين حُلّة، ألواناً بعد ألوان ثمّ لتطبق فترجع كما كانت(٦).

---

(١) شرح النووي ١٨: ٥٢.

(٢) مسند أحمد ٣: ٤٣.

(٣) الدرّ ١: ٩٣.

(٤) الإتقان ٤: ١٨٠.

(٥) والخُدّة والأخدود: الشُقّة المستطيلة في الأرض.

(٦) الدرّ ١: ٩٣؛ صفة الجنّة: ٥٩ ـ ٦٠ / ١٦٦، من قوله: «فما حلل الجنّة» إلى آخر الحديث؛ العظمة ٣: ١١٠١ / ٥٩٩، باب ٢٠ (صفة السماوات)، بلفظ: زميل بن سماك أنّه سمع أباه يقول: قال: قلت لابن عبّاس: ما أرض الجنة؟ قال: مرمرة بيضاء من فضّة كأنّها مرآة. قلت: فما نورها؟ قال: أما رأيت الساعة الّتي تكون قبل طلوع الشمس كذلك نورها إلّا أنّه ليس فيها شمس ولا زمهرير، قلت: فما أنهارها أفي خُدّة؟ قال: لا ولكنّها تجري على أرض الجنّة منسكبة لاتفيض هاهنا ولا هاهنا. قال الله تعالى لها: كوني.

[٧٠٥/٢] وأخرج الطبراني عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنّة عدن بيده وذلّل فيها ثمارها وشقّ فيها أنهارها ثمّ نظر إليها فقال لها: تكلّمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فقال: وعزّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل»(١).

[٧٠٦/٢] وأخرج البزّار عن ابن عبّاس. أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله خلق جنّة عدن بيضاء»(٢).

[٧٠٧/٢] وأخرج أحمد والبخاري وابن ماجة عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنّة خير من الدنيا و مافيها»(٣).

[٧٠٨/٢] وأخرج أحمد والبخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقابُ قوسِ أحدكم في الجنّة خيرٌ ممّا طلعت عليه الشمس أو تغرب»(٤).

[٧٠٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وهنّاد بن السريّ في الزهد وابن ماجة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لشبر في الجنّة خير من الدنيا وما فيها»(٥).

[٧١٠/٢] وأخرج الترمذي وابن أبي الدنيا عن سعدبن أبي وقّاص عن النبيّ ﷺ: «لو أنّ ما يُقِلُّ ظُفُرٌ ممّا في الجنّة بدا لتزخرفت له ما بين خَوافق السماوات والأرض، ولو أنّ رجلاً من أهل الجنّة اطّلع فبدا أساوره لطمس ضوءُه ضوءَ الشمس كما تطمس الشمسُ ضوءَ النجوم»(٦).

---

(١) الدرّ ١: ٩٣؛ الكبير ١٢: ١١٤ / ١٢٧٢٣؛ في ترجمة أبي صالح عن ابن عبّاس؛ الأوسط ٥: ٣٤٩ / ٥٥١٨؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٩٧، كتاب أهل الجنّة، باب في بناء الجنّة وصفاته، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأحد إسنادي الطبراني في الأوسط جيّد؛ ابن كثير ٣: ٢٤٨.

(٢) الدرّ ١: ٩٣؛ مختصر زوائد مسند البزّار ١: ٦٥٢ / ١١٨١، بلفظ: إنّ الله خلق الجنّة بيضاء، وأحبُّ شيء إلى الله البياض.

(٣) الدرّ ١: ٩٣؛ مسند أحمد ٣: ٤٣٣؛ البخاري ٤: ٨٧، كتاب بدء الخلق، باب ٨، وكذا ٧: ١٧٠، كتاب الرقاق، باب ٢، ابن ماجة ٢: ١٤٤٨ / ٤٣٣٠، باب ٣٩، (صفة الجنّة) كتاب الزهد.

(٤) الدرّ ١: ٩٣؛ مسند أحمد ٢: ٤٨٢؛ البخاري ٤: ٨٧، كتاب بدء الخلق، باب ٨؛ كنز العمّال ٤: ٣٠٤ / ١٠٦١٥.

(٥) الدرّ ١: ٩٣؛ المصنّف ٨: ٧٩ / ٧٠؛ الزهد لهنّاد ١: ٥٠ / ٥؛ ابن ماجة ٢: ١٤٤٨ / ٤٣٢٩، باب ٣٩؛ كنز العمّال ١٤: ٤٥٦ / ٣٩٢٤٣، باختلاف؛ مجمع البيان ٥: ٤٦٤، في تفسير سورة يوسف.

(٦) الدرّ ١: ٩٣؛ الترمذي ٤: ٨٥ / ٢٦٦١، باب ٧ (ما جاء في صفة أهل الجنّة)؛ صفة الجنّة لابن أبي الدنيا: ٨٨ / ٢٨٢، إلى قوله: «ولو أنّ رجلاً...»؛ مسند أحمد ١: ١٧١.

[٧١١/٢] وأخرج البخاري عن أنس قال: «أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فَجاءت أمّه إلى النّبي ﷺ فقالت: يا رسول الله قد علمتَ منزلة حارثةَ منّي، فإن يكن في الجنّة أصبرُ وأحتسبُ، وإن تكن الأخرى تَرَى ما أصنع؟ فقال: وَيْحَكِ (أو هَبِلْتِ) أَوَ جَنَّةٌ واحدة هي، إنّها جِنان كثيرة، وإنّه في جنّة الفردوس الأعلى»(١).

[٧١٢/٢] وأخرج الترمذي وحسّنه والحاكم وصحّحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أَدْلَجَ، ومن أَدْلَجَ فقد بلغ المنزل، ألا إنّ سلعة الله غالية»(٢).

[٧١٣/٢] وأخرج الحاكم عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج فقد بلغ المنزل. ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إنّ سلعة الله الجنّة، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»(٣).

[٧١٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: والّذي أنزل الكتاب على محمّد ﷺ إنّ أهل الجنّة ليزدادون جمالاً وحُسناً كما يزدادون في الدنيا قباحة وهرماً(٤).

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

[٧١٥/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يعني المساكن، تجري أسفلها أنهارها(٥).

[٧١٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وابن حبّان والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنّة تَفَجَّرُ من تحت تلال أو من تحت جبال مسك»(٦).

[٧١٧/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ بن حبّان في التفسير والبيهقي في

(١) الدرّ ١: ٩٤؛ البخاري ٥: ٩، كتاب المغازي، باب ٩ (فضل من شهد بدراً)، وكذا ٧: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) الدُرّ ١: ٩٤؛ الترمذي ٤: ٥١ / ٢٥٦٧، باب ١٤، وزاد: «ألا إنّ سلعة الله الجنّة»؛ الحاكم ٤: ٣٠٧ ـ ٣٠٨، كتاب الرقاق؛ كنزالعمّال ٣: ١٤٢ / ٥٨٨٥.

(٣) الدرّ ١: ٩٤؛ الحاكم ٤: ٣٠٧ ـ ٣٠٨، كتاب الرقاق.

(٤) الدرّ ١: ٩٤؛ المصنَّف ٨: ٧٥ / ٥٢، باب ١.

(٥) الدرّ ١: ٩٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٦ / ٢٥٣.

(٦) الدرّ ١: ٩٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٥ / ٢٥٢؛ ابن حبّان ١٦: ٤٢٣ / ٧٤٠٨؛ البعث والنشور: ١٨٣ / ٢٦٦؛ أبو الفتوح ١: ١٧١، نقلاً عن ابن عبّاس؛ ابن كثير ١: ٦٦ و ٤: ٥٣٧ في تفسير سورة الغاشية.

البعث وصحّحه عن ابن مسعود قال: إنّ أنهار الجنة تَفَجَّرُ من جبل من مسك[١].

[٧١٨/٢] وأخرج أحمد ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان، والفرات والنيل، كلّ من أنهار الجنّة»[٢].

[٧١٩/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة عن ابن عبّاس قال: «إنّ في الجنّة نهراً يقال له البيدخ، عليه قباب من ياقوت، تحته جوار نابتات يقول أهل الجنّة: انطلقوا بنا إلى البيدخ، فيجيئون فيتصفّحون تلك الجوارى، فإذا أعجب رجل منهم بجارية مسّ معصمها، فتبعته وتنبت مكانها أخرى»[٣].

[٧٢٠/٢] وأخرج أحمد وعبدبن حميد في مسنده وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل والضياء المقدسي في صفة الجنّة وصحّحه عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة، فجاءت امرأة فقالت: يا رسول الله رأيتُ في المنام كأنّي أُخرجت فأُدخلت الجنّة، فسمعت وَجْبَةً التجّت لها الجنّة، فإذا أنا بفلان وفلان حتّى عدّت اثني عشر رجلاً، وقد بعث رسول الله ﷺ سريّة قبل ذلك، فجيئ بهم عليهم ثياب طُلس[٤] تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ[٥]، فغمسوا فيه، فخرجوا وجوههم كالقمر ليلة البدر، وأتوا بكراسيّ من ذهب فقعدوا عليها، وجيئ بصحفة من ذهب فيها بُسرة، فأكلوا من بسره ما شاؤوا، فما يقلبونها لوجهة[٦] إلّا أكلوا من فاكهة ما شاؤوا، فجاء البشير فقال: يا رسول الله كان كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان، حتّى عدَّ اثني عشر رجلاً فقال: عليّ بالمرأة، فجاءت فقال: قصّي رؤياك على هذا، فقال الرجل: هو كما قالت، أُصيب فلان وفلان»[٧].

---

(١) الدرّ ١: ٩٤؛ المصنّف ٨: ٦٧ / ٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٦ / ٢٥٤؛ البعث والنشور: ١٨٤ / ٢٦٧؛ ابن كثير ١: ٦٦.

(٢) الدرّ ١: ٩٤؛ مسند أحمد ٢: ٢٨٩؛ مسلم ٨: ١٤٩، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب مافي الدنيا من أنهار الجنّة؛ كنز العمّال ١٢: ٣٤٥ / ٣٥٣٤٠.

(٣) الدرّ ١: ٩٤؛ صفة الجنّة: ٣٦ ـ ٣٧ / ٦٩.

(٤) جمع أطلس، ثوب منسوج من حرير في لونه غبرة إلى سواد. والتجّ البحرُ: اضطرب.

(٥) وفي مسند أحمد: نهر السدخ أو نهر البيدج.

(٦) وفي المسند: لشقّ. وفي بعض النسخ: من وجه.

(٧) الدرّ ١: ٩٤ ـ ٩٥؛ مسند أحمد ٣: ١٣٥؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٣٨٠ / ١٢٧٥، مسند أنس؛ أبو يعلى ٦: ٤٤ ـ ٤٥ /

[٧٢١/٢] وأخرج البيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: إنّ في الجنّة نهراً طول الجنّة، حافتاه العذارى قيام متقابلات يغنّين بأحسن أصوات، يسمعها الخلائق حتّى ما يرون أنّ في الجنّة لذّة مثلها. قلنا: يا أبا هريرة وما ذاك الغناء؟ قال: إن شاء الله التسبيح، والتحميد، والتقديس، وثناء على الربّ(١).

[٧٢٢/٢] وأخرج أحمد بن حنبل في الزهد والدار قطني في المدبَّج عن المعتمر بن سليمان قال: إنّ في الجنّة نهراً يُنبت الجواري الأبكار(٢).

[٧٢٣/٢] وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن أنس مرفوعاً: «في الجنّة نهر يقال له الريّان، عليه مدينة من مرجان، لها سبعون ألف باب من ذهب وفضّة، لحامل القرآن»(٣).

[٧٢٤/٢] وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وهنّاد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في البعث، عن مسروق قال: أنهار الجنّة تجري في غير أخدود، ونخل الجنّة نضيد من أصلها إلى فرعها. وثمرها أمثال القِلال، كلّما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعاً(٤).

[٧٢٥/٢] وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنّة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلّكم تظنّون أنّ أنهار الجنّة أخدود في الأرض لا والله إنّها لسائحة على وجه الأرض، حافتاها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر. قلت: يا رسول الله ما الأذفر؟ قال: الّذي لا

← ٣٢٨٩؛ الدلائل ٧: ٢٦ ـ ٢٧؛ مجمع الزوائد ٧: ١٧٥ ـ ١٧٦، كتاب التعبير، باب ما يدلّ على صدق الرؤيا. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح؛ ابن كثير ٤: ٣٠٧، سورة الواقعة ٥٦: الآية ٢٠ ـ ٢١.

(١) الدرّ ١: ٩٥؛ البعث والنشور: ٢٢٩ / ٣٨٣، باب السماع في الجنّة والتغنّي بذكر الله.

(٢) الدرّ ١: ٩٥.

(٣) الدرّ ١: ٩٥؛ ابن عساكر ٥٤: ١٩٩ / ١١٤٤٧، ترجمة محمّد بن عثمان بن خراش؛ كنز العمّال ١: ٥٥٠ / ٢٤٦٣.

(٤) الدرّ ١: ٩٥؛ الزهد لابن المبارك ١: ٥٢٤ / ١٤٩٠؛ المصنّف ٨: ٦٨ / ٦، كتاب الجنّة، باب ١، بلفظ: «أنهار الجنّة في غير أخدود وبثرها كالقلال كلّما نزعت ثمرة عادت أخرى والعنقود اثنى عشر ذراعاً»؛ الزهد لهنّاد ١: ٩٤ / ١٠٣؛ الطبري ١: ٢٤٦ / ٤٢٥، بلفظ: عن مسروق قال: نخل الجنّة نضيد من أصلها إلى فرعها وثمرها أمثال القلال كلّما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وماؤها يجري في غير أخدود؛ البعث والنشور: ١٩٢ ـ ١٩٣ / ٢٩٢، باختلاف؛ التبيان ١: ١٠٨، بلفظ: «أنّها جارية في غير أخاديه، رُوي ذلك عن مسروق، رواه عنه أبو عبيدة وغيره». وبنحوه: مجمع البيان ١: ١٣٠.

خلط معه»[١].

[٧٢٦/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه والضياء عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنّ أنهار الجنّة تشخب من جنّة عدن في جوبة[٢] ثمّ تصدع بعدُ أنهاراً»[٣].

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾

فيه قولان، الأوّل: رزقنا مثلَه في الدنيا:

[٧٢٧/٢] أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ قال: أتوا بالثمرة في الجنّة فينظروا إليها فقالوا: ﴿هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم[٤].

[٧٢٨/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد عن قتادة في قوله: ﴿هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي في الدنيا ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يشبه ثمار الدنيا غير أنّ ثمر الجنّة أطيب[٥].

[٧٢٩/٢] وأخرج عبد بن حميد عن عليّ بن زيد ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ يعني به: ما رزقوا به من فاكهة الدنيا قبل الجنّة[٦].

[٧٣٠/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالرحمان بن زيد في قوله: ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا، التفّاح بالتفّاح، والرمّان بالرمّان، قالوا في الجنّة: ﴿هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يعرفونه وليس هو مثله في الطعم[٧].

[٧٣١/٢] وعن ابن زيد: قالوا: ﴿هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا، قال: ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾

---

(١) الدرّ ١: ٩٥؛ كنز العمّال ١٤: ٤٦٣ / ٣٩٢٧٧؛ ابن كثير ٤: ١٩٠، سورة محمّد ﷺ، الآية ١٥.

(٢) الجوبة: الحفرة المتّسعة.

(٣) الدرّ ١: ٩٥؛ صفة الجنّة: ٦٨ ـ ٦٩ / ٢٠٤، بلفظ: إنّ أنهار الجنّة تخرج من جنّة عدن ثمّ تصدع بعدها أنهارها. وإنّ للمؤمن فيها لخيمة طولها ستّون ميلاً له فيها أهلون لايرى بعضهم بعضاً؛ ابن كثير ٤: ١٩٠.

(٤) الدرّ ١: ٩٦؛ الطبري ١: ٢٤٧ و ٢٥٠ / ٤٢٦ و ٤٣٧.

(٥) الدرّ ١: ٩٦؛ الطبري ١: ٢٤٧ و ٢٥١ / ٤٢٧ و ٤٤٤.

(٦) الدرّ ١: ٩٦.

(٧) الطبري ١: ٢٥١ / ٤٤٦؛ ابن كثير ١: ٦٦.

يعرفونه[١].

[٧٣٢/٢] وعن قسامة عن الأشعري قال: إنّ الله لمّا أخرج آدم من الجنّة زوّده من ثمار الجنّة وعلّمه صنعة كلّ شيء، فثماركم هذه من ثمار الجنّة غير أنّ هذه تغيّر وتلك لاتغيّر[٢].

[٧٣٣/٢] وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله: ﴿هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال: قولهم من قبل، معناه: مثل الّذي كان بالأمس[٣].

[٧٣٤/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال: يقولون ما أشبهه به. يقول: من كلّ صنف مثل[٤].

* * *

القول الثاني: من قبلُ من ثمار الجنّة:

[٧٣٥/٢] أخرج ابن جرير عن يحيى بن كثير قال: يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها ثمّ يؤتى بأخرى فيقول: هذا الّذي أتينا به من قبل. فيقول الملك: كُلْ، اللون واحد والطعم مختلف[٥].

[٧٣٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن كثير قال: عُشْب الجنّة، الزعفران وكُثبانها المسك[٦]، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثمّ يُؤْتَوْن بمثلها فيقول لهم أهل الجنّة: هذا الّذي أَتيتمونا آنفاً به! فتقول لهم الولدان: كلوا، فاللّون واحد والطعم مختلف، وهو قول الله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[٧].

[٧٣٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان: فَرِقَ المؤمنون عند التخويف، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿وَبَشِّرِ

---

(١) الطبري ١: ٢٤٧ / ٤٢٩؛ ابن كثير ١: ٦٦.

(٢) الطبري ١: ٢٥٢ / ٤٤٧؛ الحاكم ٢: ٥٤٣، كتاب تواريخ المتقدّمين من الأنبياء والمرسلين؛ مجمع الزوائد ٨: ١٩٧، كتاب الأنبياء، باب ذكر نبينا آدم. قال الهيثمي: رواه البزّار والطبراني ورجاله ثقات.

(٣) الدرّ ١: ٩٦؛ ابن كثير ١: ٦٦، ونقلاً عن الربيع بن أنس أيضاً.

(٤) الدرّ ١: ٩٦؛ الطبري ١: ٢٤٧ / ٤٢٨.

(٥) الدرّ ١: ٩٦؛ الطبري ١: ٢٤٧ ـ ٢٤٨ / ٤٣١؛ ابن كثير ١: ٦٦، وفيه: «فتقول الملائكة» بدل «فيقول الملك»، وأيضاً «فاللون» بدل «اللون».

(٦) العُشب: الكلأ الرطب. والكُثبان جمع الكثيب: التلّ من الرمل.

(٧) ابن أبي حاتم ١: ٦٧ / ٢٦١؛ ابن كثير ١: ٦٦.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يعني البساتين ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ كلّما أُطعموا منها من الجنّة من ثمره ﴿رِزْقًا قَالُوا هذا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وذلك أنّ لهم في الجنّة رزقهم فيها بكرة وعشيّاً، فإذا أتوا بالفاكهة في صحاف الدرّ والياقوت في مقدار بكرة الدنيا، وأتوا بالفاكهة غيرها على مقدار عشاء الدنيا، فإذا نظروا إليه متشابه الألوان قالوا: هذا الّذي رُزقنا من قبلُ يعني أُطعمنا بكرة، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير الّذي أتوا به بكرة، فذلك قوله ـ سبحانه ـ :﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يعني يشبه بعضه بعضاً في الألوان مختلفاً في الطعم(١).

[٢/٧٣٨] وقال عليّ بن إبراهيم: وقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هذا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾؛ قال: يُؤْتَوْن من فاكهة واحدة على ألوان متشابهة(٢).

[٢/٧٣٩] وقال الشيخ في التبيان: وقال بعضهم: إنّ ثمار الجنّة إذا جُنيت من أشجارها عاد مكانها فإذا رأوا ما عاد بعد الّذي جُني اشتبه عليهم فقالوا: ﴿هذا الَّذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ وهذا قول أبي عبيدة ويحيى بن أبي كثير(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾

فيه أقوال: الأوّل: أنّ ثمار الجنّة يشبه بعضُه بعضاً في الجودة:

[٢/٧٤٠] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: خيار كلّه يُشبه بعضه بعضاً لا رَذل فيه. ألم تر إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه(٤).

[٢/٧٤١] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي خياراً لا رذل فيه، وإنّ ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها، وثمار الجنّة خيار كلّه لا يرذل منه شيء(٥).

---

(١) تفسير مقاتل ١: ٩٤. (٢) القمّي ١: ٣٤.

(٣) التبيان ١: ١٠٩؛ مجمع البيان ١: ١٣١.

(٤) الدرّ ١: ٩٦؛ الطبري ١: ٢٤٩ / ٤٣٣، بلفظ: قال: ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه؟ وإنّ ذلك ليس فيه رذل!؛ البغوي ١: ٩٥، بلفظ: قال الحسن وقتادة: «متشابها» أي يشبه بعضها بعضاً في الجودة أي كلّها خيار لا رذالة فيها؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦١ / ٢٣، بلفظ: قال الحسن: يشبه بعضها بعضاً ليس فيها من رَذْل.

(٥) الطبري ١: ٢٤٩ / ٤٣٥.

[٧٤٢/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: خياراً كلّه لا رذل فيه(١).

[٧٤٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُرَيج، قال: ثمر الدنيا منه ما يرذل ومنه نقاء، وثمر الجنّة نقاء كلّه يُشبه بعضُه بعضاً في الطيب، ليس منه مرذول(٢).

[٧٤٤/٢] وعن مجاهد في قوله: ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: مثل الخيار(٣).

[٧٤٥/٢] وعن أبي عبيدة قال: نخل الجنّة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها مثل القلال، كلّما نزعت منها ثمرة عادت مكانها أخرى. قالوا: فإنّما اشتبهت عند أهل الجنّة لأنّ الّتي عادت نظيرها الّتي نزعت فأكلت، في كلّ معانيها. قالوا: ولذلك قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ لاشتباه جميعه في كلّ معانيه(٤).

[٧٤٦/٢] وأخرج البزّار والطبراني عن ثوبان، أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لاينزع رجل من أهل الجنّة من ثمرة إلّا أعيد في مكانها مثلاها»(٥).

[٧٤٧/٢] وقال الطبرسي ﵀ ـ في رابع الوجوه ـ: إنّه يشبه بعضه بعضاً في اللذّة وجميع الصفات، عن أبي مسلم(٦).

الثاني: أنّه يشبه بعضه بعضاً في اللّون دون الطعم: وهو اختيار ابن جرير:

[٧٤٨/٢] قال الضحّاك في قوله: ﴿وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾: إذا رأوه، قالوا: هو الأوّل في النظر واللّون، وإذا طعموا وجدوا له طعماً غير طعم الأوّل(٧).

[٧٤٩/٢] وأخرج وكيع وعبد الرزّاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَ أُتُوا بِهِ

---

(١) الدرّ ١: ٩٦؛ الطبري ١: ٢٤٩ / ٤٣٢.

(٢) الطبري ١: ٢٥٠ / ٤٣٦؛ التبيان ١: ١٠٩، روى ما بمعناه عن الحسن وابن جريج؛ أبو الفتوح ١: ١٧٢.

(٣) الطبري ١: ٢٥٠ / ٤٣٨.

(٤) المصدر ١: ٢٤٧ / ٤٣٠.

(٥) الدرّ ١: ٩٧؛ مختصر زوائد مسند البزّار ٢: ٤٨١ ـ ٤٨٢ / ٢٢٥٩؛ الكبير ٢: ١٠٢ / ١٤٤٩، باختلاف، باب من غرائب مسند ثوبان؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٤، كتاب أهل الجنّة، باب فيما أعدّه الله سبحانه وتعالى لأهل الجنّة. بلفظ: عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الرجل إذا نزع ثمرة من الجنّة عادت مكانها أخرى». قال الهيثمي: رواه الطبراني والبزّار.

(٦) مجمع البيان ١: ١٣٢.

(٧) التبيان ١: ١٠٩.

﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال: متشابهاً في اللون مختلفاً في الطعم. مثل الخيار من القثاء(١).

[٧٥٠/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يُشبه بعضُه بعضاً ويختلف الطعم(٢).

الثالث: أنّه يشبه بعضه بعضاً في اللون والطعم:

[٧٥١/٢] أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال: اللّون والطعم(٣).

الرابع: بأنّ ثمار الجنّة يشبه ثمار الدنيا في الصفات أو الأسماء:

[٧٥٢/٢] أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يُشبه ثمر الدنيا غير أنّ ثمر الجنّة أطيب(٤).

[٧٥٣/٢] وقال عكرمة في قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾: يشبه ثمر الدنيا ويباينه في جُلّ الصفات(٥).

[٧٥٤/٢] وقال ابن زيد والأشجعي: إنّ التشابه في الأسماء دون الألوان والطعوم فلا يُشبه ثمارَ الجنّة شيءٌ من ثمار الدنيا في لون ولا طعم(٦).

[٧٥٥/٢] وأخرج مسدّد وهنّاد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في

---

(١) الدرّ ١: ٩٦؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦١ / ٢٤؛ الطبري ١: ٢٥٠ / ٤٤٠.

(٢) الطبري ١: ٢٥٠ / ٤٣٩؛ ابن كثير ١: ٦٦، نقلاً عن الربيع بن أنس عن أبي العالية. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد والربيع بن أنس والسُّدّي نحو ذلك؛ البخاري ٤: ٨٥ نقلاً عن أبي العالية، كتاب بدء الخلق، باب ٨ (في صفة الجنّة وأنّها مخلوقة).

(٣) الطبري ١: ٢٥٠ / ٤٤١، و ٤٤٢ نقلاً عن مجاهد و يحيى بن سعيد مثله؛ أبوالفتوح ١: ١٧٢، وهو قول عبدالله بن مسعود وجماعة منهم ابن عبّاس وروي عن السّدّي.

(٤) الطبري ١: ٢٥١ / ٤٤٣؛ البغوي ١: ٩٥، نقلاً عن محمّدبن كعب؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦١ / ٢٢؛ مجمع البيان ١: ١٣٢، نقلاً عن عكرمة؛ ابن كثير ١: ٦٦، نقلاً عن عكرمة.

(٥) القرطبي ١: ٢٤٠؛ ابن كثير ١: ٦٦، بلفظ: قال عكرمة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا غير أنّ ثمر الجنّة أطيب. مجمع البيان ١: ١٣٢، بنحو ما رواه ابن كثير.

(٦) التبيان ١: ١٠٩.

البعث عن ابن عبّاس قال: ليس في الدنيا ممّا في الجنّة شيء إلّا الأسماء[١].

[٧٥٦/٢] وأخرج الديلمي عن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في طعام العرس مثقال من ريح الجنّة»[٢].

[٧٥٧/٢] وأخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق ابن حيوة عن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان قال: بينا أسير في أرض الجزيرة إذ مررت برهبان وقسيسين وأساقفة، فسلّمت فردّوا السلام فقلت: أين تريدون؟ فقالوا: نريد راهباً في هذا الدير، نأتيه في كلّ عام، فيخبرنا بما يكون في ذلك العام لمثله من قابل، فقلت: لآتينّ هذا الراهب فلأنظرنّ ما عنده ـ وكنت معنيّاً بالكتب ـ فأتيته وهو على باب ديره، فسلّمت فردّ السلام، ثمّ قال: ممّن أنت؟ فقلت: من المسلمين، قال: أمن أمّة محمّد؟ فقلت: نعم. فقال: من علمائهم أنت أم من جهّالهم؟ قلت: ما أنا من علمائهم ولا أنا من جهّالهم، قال: فإنّكم تزعمون أنّكم تدخلون الجنّة فتأكلون من طعامها، وتشربون من شرابها، ولاتبولون ولا تتغوّطون، قلت: نحن نقول ذلك وهو كذلك، قال: فإنّ له مثلاً في الدنيا فأخبرني ما هو؟ قلت: مثله كمثل الجنين في بطن أمّه إنّه يأتيه رزق الله في بطنها ولا يبول ولا يتغوّط. قال: فتربّد وجهه، ثمّ قال لي: أما أخبرتني أنّك لست من علمائهم! قلت: ما كذبتك، قال: فإنّكم تزعمون أنّكم تدخلون الجنّة فتأكلون من طعامها، وتشربون من شرابها، ولا ينقص ذلك منها شيئاً! قلت: نحن نقول ذلك وهو كذلك، قال: فإنّ له مثلاً في الدنيا فأخبرني ما هو؟ قلت: مَثَله في الدنيا كمثل الحكمة، لو تعلّم منها الخلق أجمعون لم ينقص ذلك منها شيئاً، فتربّد وجهه، ثمّ قال: أما أخبرتني أنّك لست من علمائهم؟ قلت: ما كذبتك ما أنا من علمائهم، ولا من جهّالهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ﴾

[٧٥٨/٢] أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصحّحه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد

---

(١) الدرّ ١: ٩٦؛ الزهد لهنّاد ١: ٤٩ / ٣؛ الطبري ١: ٢٥١ / ٤٤٥؛ البعث والنشور: ٢١٠ / ٣٣٢؛ البغوي ١: ٩٥، وفيه «الأسامي» بدل «الأسماء».

(٢) الدرّ ١: ٩٦؛ فردوس الأخبار ٣: ١٨٧ / ٤٣٧٥؛ كنزالعمّال ١٦: ٣٠٦ / ٤٤٦٢١.

(٣) الدرّ ١: ٩٧؛ ابن عساكر ١٦: ٣٠٨ للرواية ذيل طويل. ترجمة خالدبن يزيد بن معاوية.

الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّل زمرة تدخل الجنّة وجوههم كالقمر ليلة البدر. والزمرة الثانية أحسن كوكب دُريّ في السماء لكلّ امرئ منهم زوجتان، على كلّ زوجة سبعون حلّة، يرى مخّ ساقهنّ من وراء الحُلَل»(١).

[٧٥٩/٢] وأخرج أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخُدري، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة الّذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وياقوت وزبرجد، كما بين الجابية وصنعاء»(٢).

[٧٦٠/٢] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أنّهم تذاكروا: الرجال أكثر في الجنّة أم النساء؟ فقال: ألم يقل رسول الله ﷺ: «ما في الجنّة أحد إلّا له زوجتان. إنّه لَيُرى مخّ ساقهما من وراء سبعين حلّة، ما فيها عزب»(٣).

[٧٦١/٢] وأخرج الترمذي وصحّحه والبزّار عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يزوّج العبد في الجنة سبعين زوجة! فقيل: يا رسول الله يطيقها؟ قال: يُعطى قوّة مائة»(٤).

---

(١) الدرّ ١: ٩٨؛ المصنّف ٨: ٧٨ / ٦٤؛ مسند أحمد ٣: ١٦، وفيه: يرى مخّ ساقها من وراء لحومها ودمها وحللها؛ الترمذي ٤: ٨٤ / ٢٦٥٧، باب ٥، أبواب صفة الجنّة؛ البعث والنشور: ١٩٧ / ٣٠٠، باب: ما جاء في لباس أهل الجنّة و... وفيه: «الخال» بدل قوله «الحلل»؛ كنزالعمّال ١٤: ٤٧١ / ٣٩٣٠٢.

(٢) الدرّ ١: ٩٨؛ مسند أحمد ٣: ٧٦؛ الترمذي ٤: ٩٨ / ٢٦٨٧، باب ٢٢، أبواب صفة الجنّة؛ ابن حبّان ١٦: ٤١٤ ـ ٤١٥ / ٧٤٠١، كتاب أخباره عن مناقب الصحابة، باب ٥؛ كنزالعمّال ١٤: ٤٧٦ / ٣٩٣٢٧؛ ابن كثير ٤: ٣٠٠ ـ ٣٠١، سورة الرحمان، الآية ٧٢.

(٣) الدرّ ١: ٩٨؛ مسند أحمد ٢: ٢٣٠، بلفظ: حدّثنا أيّوب عن محمّد قال: أما تفاخروا وأمّا تذاكروا: الرجال أكثر أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبوالقاسم ﷺ: «إنّ أوّل زمرة تدخل الجنّة على صورة القمر ليلة البدر والّتي تليها على أضواء كوكب درّيّ في السماء، لكلّ امرئ منهم زوجتان ثنتان يرى مخّ ساقهما من وراء اللحم، وما في الجنّة أعزب»؛ البخاري ٤: ٨٨، كتاب بدء الخلق، باب ٨؛ مسلم ٨: ١٤٥ ـ ١٤٦، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب أوّل زمرة تدخل الجنّة، بنحو ما رواه أحمد؛ البعث والنشور: ٢١٢ ـ ٢١٣ / ٣٣٥، باب ما جاء في صفة الحور العين و...؛ ابن حبّان ١٦: ٤٣٦ ـ ٤٣٧ / ٧٤٢٠، كتاب أخباره عن مناقب الصحابة، باب ٥، قريب لما رواه أحمد.

(٤) الدرّ ١: ٩٨؛ الترمذي ٤: ٨٤ / ٢٦٥٩، أبواب صفة الجنّة، باب ٦ (باب ما جاء في صفة جماع أهل الجنّة)؛ مختصر زوائد مسند البزّار ٢: ٤٨٥ / ٢٢٦٧؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٧، كتاب أهل الجنة، باب في أكل أهل الجنّة وشربهم وشهواتهم.

[٧٦٢/٢] وأخرج ابن السكن في المعرفة وابن عساكر في تاريخه عن حاطب بن أبي بلتعة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يزوّج المؤمن في الجنّة اثنتين وسبعين زوجة، سبعين من نساء الآخرة واثنتين من نساء الدنيا».(١)

[٧٦٣/٢] وأخرج ابن ماجة بإسناده عن هشام بن خالد وابن عديّ في الكامل والبيهقي في البعث عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يُدخله الله الجنّة إلّا زوّجه اثنتين وسبعين زوجة، اثنتين من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار، ما منهنّ واحدة إلّا ولها قُبُلٌ شهيّ، وله ذكر لاينثني»!

قال هشام بن خالد: من ميراثه من أهل النار، يعني: رجالاً دخلوا النار فَورِثَ أهل الجنّة نساءَهم كما وُرِّثَت امرأة فرعون(٢).

[٧٦٤/٢] وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة من له سبع درجات وهو على السادسة، وفوقه السابعة، وإنّ له لثلاثمائة خادم، ويغدى عليه كلّ يوم ويراح بثلاثمائة صحفة من ذهب، في كلّ صحفة لون ليس في الأخرى، وإنّه ليلذّ أوّله كما يلذّ آخره، وإنّه ليقول: يا ربّ لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنّة وسقيتهم لم ينقص ممّا عندي شيء، وإنّ له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة، وإنّ الواحدة منهنّ لتأخذ مقعدتها قدر ميل من الأرض».(٣)

[٧٦٥/٢] وأخرج البيهقي في البعث عن أبي عبدالله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الرجل من أهل الجنّة ليزوّج خمسمائة حوراء، وأربعة آلاف بكر، وثمانية آلاف ثيّب، يعانق كلّ واحدة منهنّ مقدار عمره من الدنيا»(٤).

[٧٦٦/٢] وأخرج أبو الشيخ، وأبو نعيم في صفة الجنّة عن ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «يزوّج كلّ رجل من أهل الجنّة بأربعة آلاف بكر، وثمانية آلاف أيّم، ومائة حوراء.

---

(١) الدرّ ١: ٩٩؛ ابن عساكر ٣٤: ٢٨١ ـ ٢٨٢، باختلاف، في ترجمة: عبدالرحمان بن حاطب بن أبي بلتعة.

(٢) الدرّ ١: ٩٩؛ ابن ماجة ٢: ١٤٥٢ / ٤٣٣٧، باب ٣٩، كتاب الزهد، باب صفة الجنّة؛ الكامل لابن عديّ ٣: ١١، باب من اسمه خالد، البعث والنشور: ٢٢٢ / ٣٦٧، باب ما جاء في صفة الحور العين و...؛ كنز العمّال ١٤: ٤٧٤ / ٣٩٣١٧.

(٣) الدرّ ١: ٩٩؛ مسند أحمد ٢: ٥٣٧؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤٠٠؛ ابن كثير ٤: ١٤٥، سورة الزخرف، الآية ٧١.

(٤) الدرّ ٢: ٢١٥ (ط: مركز حجر)؛ البعث والنشور: ٢٢٤ / ٣٧٣، باب ما جاء في صفة الحور العين و....

فيجتمعن في كلّ سبعة أيّام فيقلن بأصوات حسان لم يسمع الخلائق بمثلهنّ: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن، طوبى لمن كان لنا وكنّا له»[(١)].

[٧٦٧/٢] وأخرج أحمد والبخاري عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال: «غدوة في سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا و مافيها، ولقابُ قوس أحدكم في الجنّة خير من الدنيا وما فيها، ولو أنّ امرأة من نساء أهل الجنّة أطلعت إلى الأرض لأضاءت مابينهما ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها على رأسها ـ يعني الخمار ـ خير من الدنيا وما فيها»[(٢)].

[٧٦٨/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة عن ابن عبّاس قال: لو أنّ امراة من نساء أهل الجنّة بصقت في سبعة أبحر كانت تلك الأبحر أحلى من العسل[(٣)].

[٧٦٩/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن عمربن الخطّاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أطلعت امرأة من نساء أهل الجنّة إلى الأرض لملأت الأرض ريح مسك»[(٤)].

[٧٧٠/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وهنّاد بن السّريّ عن كعب قال: لو أنّ امرأة من أهل الجنّة أطلعت كفّها لأضاء ما بين السماء والارض[(٥)].

[٧٧١/٢] وأخرج أبو يعلى والطبراني وابن عديّ في الكامل والبيهقي في البعث عن أبي أمامة:

---

(١) الدرّ ١: ٩٩؛ كنزالعمّال ١٤: ٤٨٨ ـ ٤٨٩ / ٣٩٣٧٦، نقلاً عن أبي الشيخ في العظمة.

(٢) الدرّ ١: ٩٩؛ مسند أحمد ٣: ١٤١؛ البخاري ٧: ٢٠٤، كتاب الرقاق، باب ٥١ (صفة الجنّة والنار)؛ الترمذي ٣: ١٠٠ ـ ١٠١ / ١٦٩٩، باب ١٧، أبواب فضائل الجهاد. قال الترمذي: هذا حديث صحيح؛ كنز العمّال ٤: ٣٠٤ / ١٠٦١٦؛ ابن كثير ٤: ٢٩٨ ـ ٢٩٩؛ البغوي ١: ٩٧ / ٤٢؛ صفة الجنّة لابن أبي الدنيا: ٨٨ / ٢٨١، بلفظ: قال: لو أنّ امرأة من نساء أهل الجنّة أطلعت من السماء لسدّ ضوؤها ضوء الشمس ولوجد ريحها من بين الخافقين ولنصيفها خير من الدنيا وما فيها.

(٣) الدرّ ١: ٩٩؛ صفة الجنّة لابن أبي الدنيا: ٩٠ ـ ٩١ / ٢٩٣.

(٤) الدرّ ١: ٩٩؛ الزهد: ٢٨٦ / ١٠٢٩، (زهد سعيدبن عامر).

(٥) الدرّ ١: ٩٩ ـ ١٠٠؛ المصنّف ٨: ٧٢ / ٣٣، باب ١، كتاب الجنّة؛ الزهد لهنّاد ١: ٥٥ / ١٤، بلفظ: عن كعب قال: إن امرأة من نساء الجنّة بدا معصمها لأذهب بضوء الشمس.

أنّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ هل يتناكح أهل الجنّة؟ فقال: «دحاماً دحاماً[١]... لامنيّ ولا منيّة»[٢].

[٧٧٢/٢] وأخرج عبد الرزّاق وعبد بن حميد والأصبهاني في الترغيب عن أبي الدرداء قال: ليس في الجنّة منيّ ولا منيّة، إنّما يدحمونهنّ دحماً[٣].

[٧٧٣/٢] وأخرج عبد الرزّاق وعبدبن حميد عن طاووس قال: أهل الجنّة ينكحون النساء ولا يلدن، ليس فيها منيّ ولا منيّة.

وأخرج عبد الرزّاق وعبد بن حميد عن عطاء الخراساني. مثله[٤].

[٧٧٤/٢] وأخرج الضياء المقدسي في صفة الجنّة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «أنّه سئل: أنطأ في الجنّة؟ قال: نعم. والّذي نفسي بيده دحماً دحماً... فإذا قام عنها رجعت مطهّرة بكراً»[٥].

[٧٧٥/٢] وأخرج البزّار والطبراني والخطيب البغداديّ في تاريخه عن أبي هريرة قال: «قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنّة؟ فقال: إنّ الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء»[٦].

[٧٧٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وهنّاد بن السريّ في الزهد والنسائي وعبدبن حميد في مسنده وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن زيدبن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا القاسم تزعم أنّ أهل الجنّة يأكلون ويشربون؟ فقال: والّذي نفسي بيده إنّ الرجل منهم ليؤتى قوّة مائة رجل منكم في الأكلّ والشرب والجماع والشهوة! قال: فإنّ الّذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة، والجنّة طاهرة ليس فيها قذر ولا أذى، فقال

(١) قال ابن الأثير: في الحديث: «أنّه سئل هل يتناكح أهل الجنّة فيها؟ فقال: نعم دحماً وحماً.» هو النكاح والوطي بدفع وإزعاج.

(٢) الدرّ ١: ١٠٠؛ الكبير ٨: ٩٦ / ٧٤٧٩؛ الكامل ٣: ١١، باب من اسمه خالد؛ البعث والنشور: ٢٢٣ / ٣٦٧؛ كنزالعمّال ١٤: ٤٨٤ / ٣٩٣٥٨، باختلاف؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٦ ـ ٤١٧.

(٣) الدرّ ١: ١٠١؛ المصنّف لعبد الرزّاق ١١: ٤٢١ / ٢٠٨٩٠، باب الجنّة وصفتها.

(٤) الدرّ ١: ١٠١؛ المصنّف لعبد الرزّاق ١١: ٤٢٠ ـ ٤٢١ / ٢٠٨٨٧ و ٢٠٨٨٩، باب الجنّة وصفتها.

(٥) الدرّ ١: ١٠١؛ ابن كثير ٤: ٣١٣، سورة الواقعة؛ ابن حبّان ١٦: ٤١٥ / ٧٤٠٢.

(٦) الدرّ ١: ١٠٠؛ مختصر زوائد مسند البزّار ٢: ٤٨٥ / ٢٢٦٦، بلفظ: عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله أنفضي إلى نسائنا في الجنّة؟ قال: إي والّذي نفسي بيده، إنّ الرجل ليفضي في اليوم الواحد إلى مائة عذراء؛ الصغير ٢: ١٢ ـ ١٣ / ٧٩٥، باب من اسمه محمّد؛ الخطيب ١: ٣٨٨ / ٣٢٠؛ ابن كثير ٤: ٣١٣، سورة الواقعة، الآية ٣٦.

رسول الله ﷺ: حاجتهم عرق يُفيض مثل ريح مسك، فإذا كان ذلك ضمر له بطنه»[١].

[٧٧٧/٢] وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم، أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ البول والجنابة عرق يسيل من تحت ذوائبهم إلى أقدامهم مسك»[٢].

[٧٧٨/٢] وأخرج وكيع وعبد الرزّاق وهنّاد وابن أبي شيبة وعبدبن حميد عن إبراهيم النخعي قال: في الجنّة جماع ما شئت، ولا ولد. وقال: فيلتفت فينظر النظرة فتنشأ له الشهوة، ثمّ ينظر النظرة فتنشأ له شهوة أخرى[٣].

[٧٧٩/٢] وأخرج أبو يعلى والبيهقي في البعث عن ابن عبّاس قال: «قيل يا رسول الله: أنفضي إلى نسائنا في الجنّة كما نفضي إليهنّ في الدنيا؟ قال: والّذي نفس محمّد بيده إنّ الرجل ليفضي في الغداة الواحدة إلى مائة عذراء»[٤].

[٧٨٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال: «سئل رسول الله ﷺ: يتناكح أهل الجنّة؟ فقال: نعم. بفرج لا يملّ، وذكر لاينثني، وشهوة لاتنقطع، دحماً دحماً»[٥].

[٧٨١/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا والبزّار عن أبي هريرة قال: «سئل

---

(١) الدرّ ١: ١٠٠؛ المصنَّف ٨: ٧٣ / ٤١، باب ١، كتاب الجنّة؛ مسند أحمد ٤: ٣٦٧، وفيه: عن زيد بن أرقم، قال: أتى النبيﷺ رجل من اليهود...؛ الزهد لهنّاد ١: ٧٣ / ٦٣، باختلاف؛ النسائي ٦: ٤٥٤ / ١١٤٧٨، كتاب التفسير، سورة الزخرف؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ١١٣ ـ ١١٤ / ٢٦٣، (مسند زيد بن أرقم)؛ ابن كثير ٢: ٥٣٦، سورة الرعد، الآية ٣٥؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٦، كتاب أهل الجنّة، باب في أكل أهل الجنّة وشربهم وشهواتهم، قال الهيثمي: ورجال أحمد والبزّار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة.

(٢) الدرّ ١: ١٠١؛ الأوسط ٧: ٣٦٥ / ٧٧٤١؛ الكبير ٥: ١٧٨ ـ ١٧٩ / ٥٠١٠؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٦؛ كنزالعمّال ١٤: ٤٨٦ / ٣٩٣٦٨.

(٣) الدرّ ١: ١٠١؛ المصنَّف لابن أبي شيبة ٨: ٧٦ / ٥٧، باب ١، كتاب الجنّة، بلفظ: عن أبي ملح قال سمعت إبراهيم يقول: في الجنّة ما شاؤوا ولا ولد. قال: فينظر النظرة فينشأ له الشهوة، ثمّ ينظر النظرة فينشأ له شهوة أخرى؛ الزهد لهنّاد ١: ٨٨ / ٩١ و ٩٢؛ البغوي ١: ٩٥.

(٤) الدرّ ١: ١٠٠؛ أبويعلى ٤: ٣٢٦ / ٢٤٣٦؛ البعث والنشور: ٢٢٢ / ٣٦٥؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٧.

(٥) الدرّ ١: ١٠٠؛ الكبير ٨: ١٦٠، ترجمة: صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٦.

رسول الله ﷺ هل يمسّ أهل الجنّة أزواجهم؟ قال: نعم. بذكر لايملّ، وفرج لايحفي[١]، وشهوة لاتنقطع»[٢].

[٧٨٢/٢] وأخرج الحرث بن أبي أسامة وابن أبي حاتم عن سليم بن عامر والهيثم الطائي: «أنّ النبي ﷺ سُئل عن البضع في الجنّة؟ قال: نعم بقبل شهيّ، وذكر لايملّ، وإنّ الرجل ليتكئ فيها المتكأ مقدار أربعين سنة، لايتحوّل عنه ولايملّه، يأتيه فيه ما اشتهته نفسه ولذّت عينه»[٣].

[٧٨٣/٢] وأخرج البيهقي في البعث وابن عساكر في تاريخه عن خارجة العذري قال: سمعت رجلاً بتبوك قال: «يا رسول الله أيباضع أهل الجنّة؟ قال: يعطى الرجل منهم من القوّة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم»[٤].

[٧٨٤/٢] وأخرج البزّار والطبراني في الصغير وأبو الشيخ في العظمة عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكاراً»[٥].

[٧٨٥/٢] وأخرج عبد بن حميد وأحمد بن حنبل في زوائد الزهد و ابن المنذر عن عبدالله بن عمرو قال: إنّ المؤمن كلّما أراد زوجته وجدها بكراً[٦].

[٧٨٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال: طول الرجل من أهل الجنّة تسعون ميلاً. وطول المرأة ثلاثون ميلاً. ومقعدتها جريب، وإنّ شهوته لتجري في جسدها سبعين عاماً تجد اللّذة![٧]

قلت: لعلّ امثال هذه الروايات حكايات حيكت تسليةً لأرباب العقول السُذَّج وترويحاً لأوار

---

(١) أي لايتعب.

(٢) الدرّ ١: ١٠٠؛ صفة الجنّة لابن أبي الدنيا: ٨٤ / ٢٦٤؛ مختصر زوائد مسند البزّار ٢: ٤٨٤ ـ ٤٨٥ / ٢٢٦٥؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٧؛ كنزالعمّال ١٤: ٦٤٩ / ٣٩٧٧٩.

(٣) الدرّ ١: ١٠٠؛ ابن كثير ٤: ٢٥٨، سورة الطور، الآية ٢٠.

(٤) الدرّ ١: ١٠١؛ البعث والنشور: ٢٢١ ـ ٢٢٢ / ٣٦٤. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٨: ٢٨٣، باب ١٣٩ ترجمة: ربيعة بن الغاز بن ربيعة؛ كنز العمّال ١٤: ٤٨٥ / ٣٩٣٦٢.

(٥) الدرّ ١: ١٠١؛ مختصر زوائد مسند البزّار ٢: ٤٨٦ / ٢٢٦٨؛ الصغير ١: ٩١ / ٢٤٩، باب من اسمه إبراهيم؛ العظمة ٣: ١٠٨١ / ٥٨٣؛ مجمع الزوائد ١٠: ٤١٧؛ ابن كثير ٤: ٣١٣، سورة الواقعة؛ القرطبي ١٥: ٤٥، سورة يس.

(٦) الدرّ ١: ١٠١.

(٧) الدرّ ١: ١٠١؛ المصنّف ٨: ٧١ / ٢٩، باب ١، كتاب الجنّة.

نفوسهم الشهوانيّة العارمة. الأمر الّذي لايخفى على النابه البصير! وسنذكر ملاحظتنا حول ما يحتمل التأويل منها.

[٧٨٧/٢] وأخرج أحمد والترمذي وحسّنه وابن ماجة وابن أبي داوود في البعث عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «لاتؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلّا قالت زوجته من الحور العين: قاتلكِ الله! فإنّما هو عندك دخيلٌ يوشَك أن يفارقكِ إلينا»(١).

قوله تعالى: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾

[٧٨٨/٢] أخرج الحاكم وابن مردويه وصحّحه عن أبي سعيد الخُدري عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخامة والبزاق»(٢).

[٧٨٩/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: من القذر والأذى(٣).

[٧٩٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: لايحضن ولا يحدثن ولا يتنخّمن(٤).

[٧٩١/٢] وأخرج وكيع وعبدالرزّاق وهنّاد في الزهد وعبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: من الحيض والغائط والبول والنخامة والبزاق والمني والولد(٥).

[٧٩٢/٢] وأخرج وكيع وهنّاد عن عطاء في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: لايحضن

(١) الدرّ ١: ١٠١؛ مسند أحمد ٥: ٢٤٢؛ الترمذي ٢: ٣٢٠ / ١١٨٤، باب ١٩، أبواب النكاح؛ ابن ماجة ١: ٦٤٩ / ٢٠١٤، باب ٦٢، كتاب النكاح، باب في المرأة تؤذي زوجها؛ الكبير ٢٠: ١١٣ / ٢٢٤، ترجمة كثيربن مرّة عن معاذ؛ كنزالعمّال ١٦: ٣٣٣ ـ ٣٣٤ / ٤٤٧٧٩.

(٢) الدرّ ١: ٩٧؛ ابن كثير ١: ٦٧.

(٣) الدرّ ١: ٩٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٧ / ٢٦٤؛ الطبري ١: ٢٥٣ / ٤٤٩، بلفظ: يقول: مطهّرة من القذر والأذى.

(٤) الدرّ ١: ٩٧؛ الطبري ١: ٢٥٣ / ٤٤٨.

(٥) الدرّ ١: ٩٨؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٢ / ٢٦، بلفظ:... قال: لايبلن ولايتغوّطن ولايلدن ولايحضن ولايمنين ولايبزقن؛ الزهد لهنّاد ١: ٦٠ / ٢٧، باب صفة نساء الجنّة، وفيه: «البصاق» بدل «البزاق»؛ الطبري ١: ٢٥٤ / ٤٥٢؛ ابن كثير ١: ٦٦.

ولا يمنين ولا يلدن ولا يتغوّطن ولا يبلن ولا يبزقن[١].

[٧٩٣/٢] وأخرج عبد الرزّاق وعبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: طهّرهن الله من كلّ بول وغائط وقذر ومأثم[٢].

[٧٩٤/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ خلقن في الجنّة مع شجرها وحللها مطهّرة من الحيض والغائط والبول والأقذار كلّها ﴿وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لايموتون[٣].

[٧٩٥/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالرحمان بن زيد في قوله: ﴿وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: المطهّرة: الّتي لاتحيض، قال: وأزواج الدنيا لسن بمطهّرة، ألا تراهن يُدمين ويتركن الصلاة والصيام؟ قال ابن زيد: وكذلك خلقت حوّاء حتّى عصت، فلمّا عصت قال الله: إنّي خلقتك مطهّرة وسأدميكِ كما أدْميتِ هذه الشجرة[٤].

[٧٩٦/٢] وعن الحسن في قوله: ﴿وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: مطهّرة من الحيض[٥].

[٧٩٧/٢] وعنه أيضاً قال: هنّ عجائزكم الغُمْص الرُّمْص العُمْش[٦]، طُهِّرن من قَذارات الدنيا[٧].

[٧٩٨/٢] وروى أبو اسحاق الثعلبي عن ثعلب قال: الزوج في اللغة: المرأة والرجل، والجمع والفرد، والنوع واللون، وجمعها أزواج.

---

(١) الدرّ ١: ٩٨؛ الزهد لهنّاد ١: ٦٠ / ٢٨، باب صفة نساء الجنّة، بلفظ: «من الغائط والبول والحيض والولد»؛ الطبري ١: ٢٥٥ / ٤٦٠، بلفظ: قال: من الولد والحيض والغائط والبول وذكر أشياء من هذا النحو.

(٢) الدرّ ١: ٩٨؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٢ / ٢٥؛ الطبري ١: ٢٥٤ / ٤٥٥، وفيه: «ومن كلّ مأثم».

(٣) تفسير مقاتل ١: ٩٤.

(٤) الطبري ١: ٢٥٤ / ٤٥٨، والإدماء كناية عن رؤيتهنّ دم الحيض.

(٥) المصدر / ٤٥٩.

(٦) الغُمص جمع الغمصاء ـ بالصاد المهملة ـ إذا كانت عينها ذات غَمَص وهو الرمص إذا كان سائلاً. والرُّمْص جمع الرمصاء ـ بالصاد المهملة ـ: إذا كانت عينها ذات رَمَص وهو وسخ أبيض في مجرى الدمع من العين. والعُمْش جمع العمشاء: إذا ضعفت عينها مع سيلان دمعها. والقذارات جمع القذارة وهو الوسخ. وفي النُسَخ: قَذَرات، ولعلّه من خطأ النُسّاخ، إذ لايجمع القَذَر بالألف والتاء، وإنّما جمعه: أقذار.

(٧) الثعلبي ١: ١٧٢؛ البغوي ١: ٩٥؛ مجمع البيان ١: ١٣٢، بلفظ: قال الحسن: هنّ عجائزكم الغمص الرمص العمش طُهِّرن من قذارات الدنيا.

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من الغائط والبول والحيض والنفاس والمخاط والبصاق والقيئ والمني والولد وكلّ قذر ودنس.

وقال إبراهيم النخعي: في الجنّة جماع ما شئت ولا ولد. وقيل: مطهّرة عن مساويً الأخلاق. وقال يمان: مطهّرة من الإثم والأذى.

قال النبي ﷺ: «إنّ أهل الجنة يأكلون ويشربون ولايتفلون ولا يتغوّطون ولا يبولون ولا يتمخّطون». قيل: فما بال الطعام؟ قال: «جشأ ورشح تجري من أعرافهم كريح المسك يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمون النَفَس».

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: دائمون مقيمون لايموتون فيها ولايخرجون منها.

الحسن عن ابن عمر قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الجنّة: كيف هي؟ قال: «من يدخل الجنّة يحيى ولايموت وينعم ولا يبؤس ولا تبلى ثيابه ولا شبابه». قيل: يا رسول الله كيف بناؤها؟ قال: «لبنة من فضّة ولبنةٌ من ذهب، بلاطها مسك أذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران».

وقال يحيى بن أبي كثير: إنّ الحور العين لتُنادينَ أزواجهنّ بأصوات حسان، فيقلن: طالما انتظرناكم، نحن الراضيات الناعمات الخالدات، أنتم حبّنا ونحن حبّكم ليس دونكم مقصد ولا وراءكم معذر.

وقال الحسن في هذه الآية: هنّ عجائزكم الغمض الرّمض العمش طُهّرن من قذارات الدنيا[١].

[٢/٧٩٩] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: إي والله من الإثم والأذى[٢].

[٢/٨٠٠] وعنه أيضاً قال: مطهّرة من الحيض والحبل والأذى[٣].

[٢/٨٠١] وفي رواية عنه: لاحيض ولاكَلَف[٤]. وروي عن عطاء والحسن والضحّاك وأبي صالح وعطية والسُدّي نحو ذلك[٥].

---

(١) الثعلبي ١: ١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) الطبري ١: ٢٥٤ / ٤٥٤؛ ابن كثير ١: ٦٦، بلفظ: قال قتادة: مطهّرة من الأذى والمأثم.

(٣) الطبري ١: ٢٥٤ / ٤٥٦.

(٤) الكَلَف: كدرة لون الدم أو الأثر المتبقّى منه.

(٥) ابن كثير ١: ٦٦.

[٨٠٢/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: لايبلن ولايتغوّطن ولايمذين[١].

[٨٠٣/٢] وعنه أيضاً، قال: لايبلن ولا يتغوّطن، ولايحضن، ولايلدن، ولايمنين ولايبزقن[٢].

[٨٠٤/٢] وروى ابن بابويه مرسلاً، قال: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «الأزواج المطهّرة اللّاتي لايحضن ولايحدثن»[٣].

[٨٠٥/٢] وروي عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أهل الجنّة يأكلون ويشربون ولايبولون ولايتغوّطون ولايمتخطون ولايبزقون، يلهمون الحمد والتسبيح كما تلهمون النَفَس، طعامهم له الجُشاء وشرابهم رشح كرشح المسك»[٤].

[٨٠٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وابن ماجة والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوّل زمرة تلج الجنّة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لايبصقون فيها، ولايمتخطون ولايتغوّطون، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضّة، ومجامرهم من الألُوَّة[٥]، ورضخهم المسك، ولكلّ واحد منهم زوجتان يرى مخّ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد. يسبّحون الله بكرة وعشياً»[٦].

---

(١) الطبري ١: ٢٥٣ / ٤٥٠، و ٤٥١ عن مجاهد نحوه إلّا أنّه زاد فيه: ولا يُمنين ولا يحضن. ملحوظة: ليس للنساء منيّ!

(٢) الطبري ١: ٢٥٤ / ٤٥٣، القرطبي ١: ٢٤١، بلفظ: ذكر عبدالرزّاق قال: أخبرني الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: لايبلن ولايتغوّطن ولايلدن ولايحضن ولايمنين ولايبصقن؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٢ / ٢٦، بلفظ: قال: لايبلن ولا يتغوّطن ولايلدن ولايحضن ولايمنين ولايبزقن. تقدّم أن لا منيّ للنساء راجع: التمهيد ٦: ٦٥ ـ ٧٤.

(٣) البرهان ١: ١٥٧ / ٦؛ من لايحضره الفقيه ١: ٨٩ / ١٩٥، وفيه: «لم يحضن» بدل «لايحضن»؛ العيّاشي ١: ١٨٧ ـ ١٨٨ / ١١، سورة آل عمران؛ البحار ٨: ١٣٩ / ٥٢؛ القمي ١: ٣٤؛ الصافي ١: ١٥٣.

(٤) البغوي ١: ٩٥ / ٣٩؛ ابن حبّان ١٦: ٤٦٢ / ٧٤٣٥؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٣١٥ / ١٠٣٠ باختلاف. صحّحنا الحديث على منابع جاءت الإشارة إليها في هامش البغوي. والجُشاء: تنفّس المعدة من الامتلاء. أي إنّ طعامهم ليتحوّل إلى جشاء فلا يتغوّطون. كما جاء في رواية أبي نعيم: «وإنّه يصير طعامهم جُشاءً، وشرابهم رشح مسك».

(٥) الألُوَّة: هو العود الّذي يتبخّر به. قال ابن الأثير: وتفتح همزته وتضمّ.

(٦) الدرّ ١: ٩٨؛ المصنّف ٨: ٧٣ / ٤٣، كتاب الجنّة، باب ١؛ مسند أحمد ٢: ٢٣١ ـ ٢٣٢، باختلاف؛ البخاري ٤: ٨٦، كتاب بدء الخلق، باب ٨ (ما جاء في صفة الجنّة وأنّها مخلوقة)؛ مسلم ٨: ١٤٧، كتاب الجنّة، في صفات الجنّة وأهلها؛ ابن ماجة ←

ملحوظة

مانجده من أوصاف جاءت عن أحوال الآخرة ووصف نعيمها وجحيمها، إنّما هي تـمثيلات وتشبيهات تحمل معاني أخر غير ظاهرها، وهي في عين الواقعيّة تمثّل أمـوراً تـفوق تـصوّرات الإنسان وهو على سطح البسيطة، الأمر الّذي لايعني أن لاواقعيّة لها، بل هي حقائق راهنة جاءت في قالب التشبيه والتنظير.

فكما أنّ الماء الغدق يطلق عـلى العـلم النـافع والهـدى الشـامل، إطـلاقاً شـائعاً بـالمجاز والاستعارة، مع الحفاظ على واقعيّة المستعار له وأصالته الذاتيّة، كذلك التعابير المجازيّة عن نِعَم الآخرة وملاذّها وكذا شدائد عقوباتها، كانت بالمجاز والكناية، تشبيهاً وتنظيراً.

نعم هي حقائق تتحمّل مثل هذه التعابير، وإن لم تكن بنفس معانيها المعهودة في عالم الدنيا. كما أنّ العلم يتحمّل إطلاق الماء عليه، إطلاقاً بالمناسبة القريبة، ذاك منشأ أصل الحياة الماديّة وهذا منشأ ازدهار الحياة المعنويّة، فتناسبا فصحّ الإطلاق في كلا الجانبين. وإن كان في أصـل الوضـع اللغويّ، أحدهما حقيقة بالمواضعة، والآخر مجازاً (استعارة) بالمعارفة والمناسبة القريبة. غير أنّ الإطلاق في كلا الجانبين إطلاق صحيح رائج شائع، وكلاهما تنبئ عن واقعيّة راهنة لا محيد عنها. وليس هناك تخييل مجرّد في فراغ هائم. كلّا لاخداع ولارمياً في ظلام.

ذكر بعض أساتيدنا أنّ كائنات ماوراء المادّة ليست ممّا تدرك بهذه الحواسّ الّتي خلقت مادّيّة ولأجل إدراك مايناسبها من الماديّات، أمّا الكـائنات الّـتي تـفوق المـادّة، فـإنّ هـذه الحـواسّ ـ وحتّى الحاسّة الذهنيّة ـ تقصر عن إمكان إدراكـها وحـتّى تصوّرها، بـهذه الآلات والأدوات الّـتي خلقت لإدراك ما في هذا العالم المادّي فحسب.

إذن فلابدّ في تصويرها من اللجوء إلى ضرب من التمثيل والتشبيه، من قبيل تشبيه غير المادّي بالمادّي بنحو من التمثيل المقرّب إلى الأذهان، هذا فحسب. فماتلك التعابير عن كائنات مـاوراء الغيب سوى استعارات جاءت بالمناسبة، ومن غير أن تكون تعابير تنمّ عن نفس مفاهيمها المعهودة في عالم المادّة.

← ٢: ١٤٤٩ / ٤٣٣٣، كتاب الزهد، باب ٣٩؛ البعث والنشور: ١٩٦ / ٢٩٩، باب ما جاء في لباس أهل الجنّة و...، باختلاف؛ الترمذي ٤: ٨٥ / ٢٦٦٠، باب ٧، أبواب صفة الجنّة.

فالتعبير عن نعيم الجنّة بالحور والقصور والأشجار والأنهار، وكذا التعبير بالجحيم والسجّين والنار والقطران، وإن كان تنمّ عن حقائق راهنة لا محيص عنها، لكنّه ليس بنفس المفاهيم المعهودة لدينا ونحن في هذه الحياة. إذ الكائنات في تلك الحياة إنّما تشبه الكائنات الماديّة اسماً فقط ومن غير أن تكون من سنخها ومن جنسها بالوصف المعهود، وإنّما هي مماثلة اسماً ومغايرة سنخاً.

وعليه فجميع ما جاء في روايات في هذا السبيل ـ والّتي سلفت ـ فإن صحّت فلابدّ من تأويلها بضرب من التأويل وحملها على التشبيه والتمثيل، لا الأخذ بنفس المفاهيم ـ وأكثرها ممّا يمجّ منها الطبع ـ ومن غير نكران لأصل حقيقتها المجهولة لدينا تماماً.

قوله تعالى: ﴿وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[٨٠٧/٢] أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال: أي خالدون أبداً. يخبرهم أنّ الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله لا انقطاع له[١].

[٨٠٨/٢] وأخرج أحمد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال: يعني لا يموتون[٢].

[٨٠٩/٢] وروى الكليني بإسناده عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن القاسم بن محمّد عن المنقري عن أحمد بن يونس عن أبي هاشم قال: قال أبو عبدالله ﷺ: «إنّما خُلّد أهل النار في النار لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خُلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنّما خُلّد أهل الجنّة في الجنّة لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً. فبالنيّات خُلّد هؤلاء وهؤلاء، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[٣]. قال: على نيّته»[٤].

---

(١) الدرّ ١: ١٠٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٥٩ / ٨٣٢، في تفسير الآية ٨١ ـ ٨٢، من سورة البقرة؛ الطبري ١: ٥٤٧ / ١١٩٠، في تفسير الآية ٨٢، من سورة البقرة.

(٢) الدرّ ١: ١٠٢؛ ابن أبي حاتم ٢: ٥٤٧ / ٢٩٠٤، في تفسير الآية ٢٧٥ من سورة البقرة.

(٣) الإسراء ١٧: ٨٤.

(٤) الكافي ٢: ٨٥ / ٥ كتاب الايمان والكفر، باب النية؛ المحاسن ٢: ٣٣٠ ـ ٣٣١ / ٩٤؛ علل الشرائع ٢: ٥٢٣ / ١، باب ٢٩٩: العلّة الّتي من أجلها يخلد من يخلد في الجنّة و...؛ البحار ٦٧: ٢٠١ / ٥؛ كنز الدقائق ١: ٢٨٠ ـ ٢٨١.

وسوف نبحث عن مسألة الخلود، في كلا شقّي المثوبة والعقوبة، ذيل الآية ٣٩ الآتية من نفس السورة إن شاء الله.

[٨١٠/٢] وروى القميّ في حديث طويل عنه ﷺ عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْـمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْداً﴾[(١)] يذكر فيه أحوال المتقين بعد دخولهم الجنّة وفيه: «ثمّ يرجعون إلى عين أخرى عن يسار الشّجرة فيغتسلون منها فهي عين الحياة فلا يموتون أبداً»[(٢)].

[٨١١/٢] وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عبّاس: أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؟ قال: ماكثون لايخرجون منها أبداً. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم؛ أما سمعت قول عديّ بن زيد:

فهل من خالد إمّا هلكنا   وهل بالموت يا للناس عار[(٣)]

[٨١٢/٢] وأخرج عبدبن حميد والبخاري ومسلم وابن مردويه عن عمر عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار. ثمّ يقوم مؤذّن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، كلٌّ خالد فيما هو فيه»[(٤)].

[٨١٣/٢] وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبيّ ﷺ: «يقال لأهل الجنّة: خلود ولاموت، ولأهل النار: خلود ولاموت»[(٥)].

[٨١٤/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن ماجة والحاكم وصحّحه وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت في هيئة كبش أملح، فيوقف على الصراط فيقال: يا أهل الجنّة! فيطّلعون خائفين وجلين، مخافة أن يخرجوا ممّا هم فيه. فيقال: تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا

---

(١) مريم ١٩: ٨٥.

(٢) القميّ ٢: ٥٤، سورة مريم، الآية ٨٥؛ الكافي ٨: ٩٦؛ البحار ٧: ١٧٢ / ٢؛ كنزالدقائق ١: ٢٨٠.

(٣) الدرّ ١: ١٠٢.

(٤) الدرّ ١: ١٠٢؛ البخاري ٧: ١٩٩، كتاب الرقاق، باب ٥٠، نقلاً عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ؛ مسلم ٨: ١٥٣، باختلاف، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبّارون والجنّة يدخلها الضعفاء بلفظ: أنّ عبدالله قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: يُدخل الله أهل الجنّة الجنّة....

(٥) الدرّ ١: ١٠٢؛ البخاري ٧: ١٩٩ ـ ٢٠٠، كتاب الرقاق، باب ٥٠.

الموت، فيقال: يا أهل النار، فيطّلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا ممّا هم فيه، فيقال: أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، فيؤمر به فيذبح على الصراط، فيقال للفريقين: خلود فيما تجدون لاموت فيها أبداً»(١).

[٨١٥/٢] وأخرج الطبراني والحاكم وصحّحه عن معاذ بن جبل، أنّ رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن، فلمّا قدم عليهم قال: «يا أيّها الناس، إنّي رسول رسول الله إليكم، إنّ المردّ إلى الله، إلى جنّة أو نار، خلود بلا موت، وإقامة بلا ظعن، في أجساد لا تموت»(٢).

[٨١٦/٢] وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لو قيل لأهل النار إنّكم ماكثون في النار عدد كلّ حصاة في الدنيا لفرحوا بها، ولو قيل لأهل الجنّة إنّكم ماكثون عدد كلّ حصاة لحزنوا. ولكن جعل لهم الأبد»(٣).

[٨١٧/٢] وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنّة جُرد مُرد كحل لايفنى شبابهم ولاتبلى ثيابهم»(٤).

---

(١) الدرّ ١: ١٠٢؛ ابن ماجة ٢: ١٤٤٧ / ٤٣٢٧، باب ٣٨، كتاب الزهد، باب صفة النار، باختلاف؛ الحاكم ١: ٨٣، كتاب الايمان؛ مسند أحمد ٢: ٢٦١؛ ابن حبّان ١٦: ٤٨٦ ـ ٤٨٧ / ٧٤٥٠، كتاب إخباره عن مناقب الصحابة، باب ٥؛ كنزالعمّال ١٤: ٥١٦ / ٣٩٤٥٣.

(٢) الدرّ ١: ١٠٢؛ الكبير ٢٠: ١٧٥ / ٣٧٥، باختلاف، (المراسيل عن معاذ بن جبل)؛ الأوسط ٢: ١٨١ / ١٦٥١، بتفاوت؛ الحاكم ١: ٨٣، بتفاوت؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٩٦، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه وزاد فيه «في أجساد لاتموت» وإسناد الكبير جيّد إلّا أنّ ابن سابط لم يدرك معاذاً؛ كنزالعمّال ١٦: ٥ / ٤٣٦٨١.

(٣) الدرّ ١: ١٠٢؛ الكبير ١٠: ١٧٩ ـ ١٨٠ / ١٠٣٨٤؛ حلية الأولياء ٤: ١٦٨، ترجمة ٢٦٩ (مرّة بن شراحيل)؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٩٦؛ كنزالعمّال ١٤: ٥٣٢ / ٣٩٥٣٠.

(٤) البغوي ١: ٩٨؛ / ٤٤؛ الدارمي ٢: ٣٣٥؛ كنزالعمّال ١٤: ٤٧١ / ٣٩٣٠١.

قال تعالى:

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

هنا يأتي دور الحديث عن الأمثال الّتي يضربها الله في القرآن:

هذه الآية تشي بأنّ المنافقين الّذين ضرب الله لهم مَثَل الّذي استوقد ناراً، ومَثَل الصيّب الّذي فيه ظلمات ورعد وبرق ـ أضف إليهم اليهود وكذلك المشركين ـ قد اتّخذوا من ورود هذه الأمثال في هذه المناسبة، وأمثال أخرى جاءت في السور المكّيّة كالّذي ضربه الله مثلاً للذين كفروا بربّهم ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وكالّذي ضربه الله مثلاً لعجز آلهتهم المدّعاة عن خلق الذباب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[2].

فهؤلاء وهؤلاء قد وجدوا في هذه المناسبة منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن، بحجّة أنّ ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تحقير لهم وسخريّة منهم لاتصدر عن الله، وأنّ الله لايذكر هذه الأشياء الصغار كالذباب والعنكبوت في كلامه المتعالي الحكيم! وكان هذا طرفاً من هجمة التشكيك وإيجاد البلبلة في نفوس العامّة، والّتي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة، ومن قبلهم المشركون في مكّة.

فجاءت هذه الآيات دفعاً لهذا الدسّ الخبيث، وبياناً لحكمة الله في ضرب الأمثال، وتحذيراً للمعاندين من عاقبة الاستدراج بها، وتطميناً للمؤمنين أن ستزيدهم إيماناً وتثبيتاً:

---

(١) العنكبوت ٢٩: ٤١.

(٢) الحجّ ٢٢: ٧٣.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

فالله ربّ الصغير والكبير وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة في خلق البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل. إنّها معجزة الحياة، معجزة السرّ المغلق الّذي لايعلمه إلّا الله. على أنّ العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنّما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير، وليس في ضرب المثل ما يُعاب أو يستدعي الاستحياء، والله ـ جلّت حكمته ـ يريد بها اختبار القلوب وامتحان النفوس:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

ذلك أنّ إيمانهم بالله يجعلهم يتلقّون كلّ ما يصدر عنه بما يليق بجلاله؛ وبما يعرفون من حكمته، وقد وهبهم الإيمان نوراً في قلوبهم، وحسّاسيّة في أرواحهم، وتفتّحاً في مداركهم، واتّصالاً بالحكمة الإلّهيّة في كلّ أمر وفي كلّ قول يجيئهم من عند الله.

﴿وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً؟!﴾

وهذا سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصّلة بسنّة الله وتدبيره. ثمّ هو سؤال من لايرجو لله وقاراً، ولا يتأدّب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرّفات الربّ. يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار، أو في صورة التشكيك وإيجاد البلبلة في نفوس الضعفاء!

هنا يجيئهم الجواب في صورة تهديد وتحذير بماوراء المثل من تقدير وتدبير:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

والله ـ سبحانه ـ يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضي في طريقها، ويتلقّاها عباده، كلٌّ وفق طبيعته واستعداده، وكلٌّ حسب طريقه ومنهجه الّذي اتّخذه لنفسه. والابتلاء واحد. ولكن آثاره في النفوس تختلف بحسب اختلاف المنهج والطريق. فالشدّة تزيد المؤمن الواثق بالله التجاءً إليه وتقرّباً لديه، وأمّا الفاسق أو المنافق فتزلزله وتزيده من الله بعداً وتخرجه من الصفّ إخراجاً.

* * *

وتبييناً لموضع الفاسق الّذي يأخذ به الضلال حيث مهوى الخسران والدمار، جاء الوصف التالي:

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

جاء الوصف بصورة إجمال، حيث المطلوب تشخيص الصورة في عمومها، لاتسجيل واقعة بعينها. ومن ثمّ فالعهد المنقوض يتمثّل في عهود كثيرة تعود إلى ميثاق الفطرة والاستخلاف وتعليم الأسماء وإيداع ودائع الله والتزويد بإرسال الرسل وإنزال الشرائع وهكذا.

وعلى أثره فيقومون بقطع الأواصر والإفساد في الأرض، وبالتالي تعود الخسارة إليهم بالذات، حيث خسرت صفقتهم في الحياة[١].

كلام عن ضرب الأمثال في القرآن

ضرب المثل في القرآن يعدّ من روائع بيانه الحكيم، حيث تقريبه للمعاني إلى الأذهان وتجسيده للمفاهيم بصورة عيان. وقد قيل قديماً: المثال يقرّب المقال.

قال نظام الدين النيسابوري القمي: ونحن نرى أنّ الإنسان قد يذكر معنىً فلا يلوح كما ينبغي، فإذا ذكر المثال اتّضح وانكشف، وذلك أنّ من طبع الخيال حبّ المحاكاة، فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال، وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال، ولاشكّ أنّ الثاني يكون أكمل. وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والإيضاح، وجب ذكره في الكتاب الّذي أُنزل تبياناً لكلّ شيء[٢].

وقال الشيخ عبدالقاهر الجرجاني: اتّفق العقلاء على أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصليّة إلى صورة التمثيل، كساها أُبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستنار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبةً وشغفاً.

---

(١) راجع: في ظلال القرآن ١: ٥٨ ـ ٦١.

(٢) تفسير غرائب القرآن للنيشابوري بهامش الطبري ١: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

ثمّ جعل يُعدّد فوائده في أنواع الكلام، مدحاً أو ذمّاً، حجاجاً أو فخاراً أو اعتذاراً، أو وعظاً وإرشاداً، ونحو ذلك. قال:

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للأُلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغرّ المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلّقه القلوب وأجدر.

ومثاله في القرآن قوله تعالى ـ في وصف المؤمنين الّذين ثبتوا على الإيمان والجهاد في سبيله صفّاً كأنّهم بنيانٌ مرصوص ـ: ﴿مُحَمَّدٌ رسول الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[1].

فقد شبّه صَلابة الإيمان بزرع نمى فقوي، فخرج فرخه من قوّته وخصوبته، فاشتدّ واستغلظ الزرع، وضخمت ساقه وامتلأت، فاستوى وازدهر. الأمر الّذي يبعث على الابتهاج والإعجاب من جهة، وإغاظة الكفّار من جهة أُخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[2].

قال الزمخشري: يجوز أن يكون تمثيلاً، لاستظهاره به ووثوقه بحمايته، بامتساك المتدلّي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه[3].

فقد شبّهت عرى الدين بوشائج وثيقة تربط الأُمّة بعضها ببعض، فكأنّ الشريعة المقدّسة حبل ممدود على طرف مهواة سحيقة، والأُمّة المتماسكة مستوثقون بعراها استيثاقاً يأمن جانبهم من أخطار السقوط وينجيهم من مهاوي الضلال.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّـلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[4] شبّه الهدى بالنور، والضلال بالظلمات، والاهتداء بحالة الخروج من الظلمات إلى النور.

---

(١) الفتح ٤٨: ٢٩.
(٢) آل عمران ٣: ١٠٣.
(٣) الكشّاف ١: ٣٩٤.
(٤) البقرة ٢: ٢٥٧.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[1] شبّه الأولاد بأفراخ الطير تستذلّ لدى والديها تستطعمهما وتسترحمهما، ودليلاً على ذلك تبسط أجنحتها على الأرض خفضاً وذلاًّ، وهي من المبالغة في التشبيه وتصوير حالة الذلّ في موضع ينبغي الذلّ فيه بمكان.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[2] لو اعتبرنا التشبيه في جملة «فاصدَع» فقد شبّهت شوكة المشركين وهيبتهم بصرح زجاجي، وشبّهت الدعوة بمصادمة هذا الصرح، وشبّه التأثير البليغ بالصَدع، وهو الأثر البيّن في الزجاجة المصدومة.

وهذا من تشبيه عدّة أشياء بأشياء مع إفاضة الحركة والفعل والانفعال. فقد شبّه النبي ﷺ في إبلاغ دعوته للمشركين بمن يرمي بقذائفه إلى قلاع مبنيّة من زجاجات سريعة التكسّر والانهيار.

* * *

قال: وإن كان ذمّاً كان مسّه أوجع وميسه ألذع، ووقعه أشدّ وحدّه أحدّ، كما جاء في قوله تعالى ـ في تصوير حالة من أُوتي الهداية فرفضها لغيّه وانسلخ منها ـ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[3] إنّه من التمثيل الرائع وفي نفس الوقت لاذع، إنّه يمثّل مشهد إنسان يؤتيه الله آياته ويخلع عليه من فضله ويعطيه الفرصة للاكتمال والارتفاع... ولكن، ها هو ذا ينسلخ من هذا كلّه انسلاخاً، كمن ينسلخ عن أديم جلده بجهد ومشقّة، ويتجرّد من الغطاء الواقي والدرع الحامي، ويهبط من الأُفق العالي إلى سافل الأرض، فيصبح غرضاً للشيطان، لا وقاية ولا حمى، وإذا هو أُلعوبة أو كرة قدم تتقاذفه الأقدار، لا إرادة له ولا اختيار، فمثله كمثل كلب هراش لا صاحب له، ويلهث[4] من غير هدف. ويتضرّع من غير أن يجد من يشفق عليه.

وهكذا جاء تصويره لمن حمّل ثقل الحقّ ولا يهتدي به بالحمار يحمل أسفاراً، هي أفضل ودائع الإنسان، يئنّ بثقلها ولا يعي شرف محتواها: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[5].

---

(١) الإسراء ١٧: ٢٤.
(٢) الحجر ١٥: ٩٤.
(٣) الأعراف ٧: ١٧٦.
(٤) اللهث: دلع اللسان عطشاً أو تعباً.
(٥) الجمعة ٦٢: ٥.

فقد كلّفوا حمل أمانة الله في الأرض، لكن القلوب الحيّة الواعية هي الّتي تطيق عبء هذه الأمانة، وقد افتقدها هؤلاء فلم يصلحوا لحملها ومرافقتها.

* * *

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، و سلطانه أقهر، وبيانه أبهر. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[2].

قال ابن معصوم ـ في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[3] ـ: إنّه من التمثيل اللطيف، مثّل الاغتياب بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثمّ لم يقتصر عليه حتّى جعله لحم الأخ وجعله ميّتاً، وجعل ما هو في غاية الكراهة موصولاً بأخيه. ففيه أربع دلالات واقعة على ماقصدت له مطابقة المعنى الّذي وردت لأجله:

أمّا تمثيل الاغتياب بأكل لحم المغتاب فشديد المناسبة جدّاً، لأنّه ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم.

وأمّا قوله: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾ فلما في الاغتياب من الكراهة، وقد اتّفق العقل والشرع على استكراهه.

وأمّا قوله ﴿مَيْتًا﴾ فلأجل أنّ المغتاب لايشعر بغيبته ولايحسّ بها[4].

* * *

قال الشيخ عبدالقاهر: وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد، وشرفه أجدّ، ولسانه ألذّ. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(١) العنكبوت ٢٩: ٤١.
(٢) البقرة ٢: ٢٦٤.
(٣) الحجرات ٤٩: ١٢.
(٤) أنوار الربيع ٣: ١٧٩.

عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث[٢].

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغيابة[٣] ويبصر الغاية، ويبرئ العليل ويشفي الغليل.

قال تعالى ـ في وصف نعيم الدنيا وزوالها ـ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٦].

قال الجرجاني: وهكذا في سائر فنون الكلام وضروبه ومختلف أبوابه وشعوبه[٧].

* * *

وقال الزمخشري ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ

---

(١) الزمر ٣٩: ٦٧.

(٢) يقال: خَلَبه أي أصاب خِلبه أي قلبه وسلبه إيّاه وفتنه. والسخائم: الضغائن. وسلّها: نزعها. وغرب السيف: حدّه. وفلّه: ثلمه. والنفث: النفخ مع التفل.

(٣) الغيابة ـ بيائين ـ: كلّ ما يغطي الإنسان من فوق رأسه.

(٤) الحديد ٥٧: ٢٠.

(٥) إبراهيم ١٤: ٢٤ ـ ٢٧.

(٦) الزمر ٣٩: ٢١.

(٧) أسرار البلاغة: ٩٢ ـ ٩٦.

﴿الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] ـ: والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه، تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لاغير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز. وكذلك حكم ما يُروَى أنّ حِبراً[2] جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم، إنّ الله يُمسك السماوات يوم القيامة على إصبع والأرضين والجبال على إصبع والشجر على إصبع وسائر الخلق على إصبع، ثمّ يهزّهنّ فيقول: أنا المَلِك! فضحك رسول الله ﷺ تعجّباً ممّا قال...

قال: وإنّما ضحك أفصحُ العرب وتعجّب، لأنّه ﷺ لم يفهم منه إلّا ما يفهمه علماء البيان، من غير تصوّر إمساكٍ ولا إصبع ولا هزّ ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزُبدة والخلاصة، الّتي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأنّ الأفعال العظام الّتي تتحيّر فيها الأفهام والأذهان ولاتكتنهها الأوهام، هيّنة عليه هواناً لايوصل السامع إلى الوقوف عليه، إلّا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل. ولاترى باباً في علم البيان أدقّ ولا أرقّ ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماويّة وكلام الأنبياء، فإنّ أكثره وعليّته تخييلات قد زلّت فيها الأقدام قديماً وما أتى الزالّون إلّا من قلّة عنايتهم بالبحث والتنقير حتّى يعلموا أنّ في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدّروه حقّ قدره، لما خفي عليهم أنّ العلوم كلّها مفتقرة إليه وعيال عليه، إذ لايحلّ عقدها المورّبة ولايفكّ قيودها المكربة إلّا هو.

قال: وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول، قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثّة والوجوه الرثّة، لأنّ مَنْ تأوّل ليس من هذا العلم في عير ولا نفير، ولايعرف قبيلا منه من دبير[3].

وعليه فالتمثيل في الكلام ضرب من الخيال جاء لبيان واقع الحال، ترسيماً وتجسيداً له في

---

(١) الزمر ٣٩: ٦٧.

(٢) في الكشّاف: «جبرائيل» وهو تصحيف. والصحيح ما أثبتناه وفق ما في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث والتفسير. راجع: ابن كثير ٤: ٦٢.

(٣) الكشّاف ٤: ١٤٢ـ١٤٣.

مظهر العيان وحكايةً عن أمر واقع، وليس مجرّد تخييل صوّرته الأوهام. وهو أسلوب من أساليب البلاغة في البيان، دفعت إليه حاجة العقل البشري عند ما حاول دعم البرهان بشاهد العيان.

انظر إلى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

إنّه سبحانه وتعالى يريد أن يبيّن للناس أنّ الصدقة الّتي تبذل رياءً والّتي يتبعها المنّ والأذى لاتثمر شيئاً ولا تتبقّى، فينقل هذا المعنى المجرّد في صورة حسّيّة متخيّلة على النهج الّذي جاء في الآية:

فمثله كمثل صَفْوان (صخرة صمّاء ملساء) غطّته طبقة خفيفة من التراب الناعم، قد يزعم الزاعم إمكان الخصوبة عليه، فإذا بوابل (مطر غزير ذو قطرات ثقيلة) أصابه بشدّة وأزال كلّ ما عليه من ضعيف الرجاء في الخصوبة. فبدلاً من أن يُعدّه للخصب والنماء ـ كما هو شيمة الأرض تجودها السماء ـ وكما هو منظور، فإذا هو يتركه صَلْداً وتذهب تلك الطبقة الخفيفة الّتي كانت تستره وتخيّل فيه الخير والخصوبة.

ثمّ يمضي في التصوير لإبراز المعنى المقابل للرياء:

... كمثل جنّة بِرَبْوةٍ (هَضْبة: أرض مرتفعة ذات خصوبة وبركة) أصابها مطر غزير فآتت أُكلها (ثمرها) ضعفين.

فالصدقات الّتي تنفق ابتغاء مرضاة الله هي في هذه المرّة كجنّة، لا كحفنة من تراب، وإذا كانت حفنة التراب هناك على وجه صفوان، فالجنّة هنا فوق ربوة.

وهكذا الوابل كان مشتركاً بين الحالتين، ولكنّه في الحالة الأُولى يمحو ويمحق، وفي الحالة الثانية يُربي ويُخصب.

---

(١) البقرة ٢: ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

وحتّى لو أنّ الوابل لم يصبها فإنّ فيها من الخصب والاستعداد للإنبات مايجعل القليل من المطر يَهزّها ويُحييها: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ (مطر ناعم خفيف).

وبعدُ فإنّ الآية ترسم مشهداً كاملاً مؤلّفاً من منظرين متقابلين شكلاً ووضعاً وثمرةً. وفي كلّ منظر جزئيّات يتّسق بعضها مع بعض من ناحية فنّ الرسم وفنّ العرض، ويتّسق كذلك مع ما يمثّله من المشاعر والمعاني الّتي رُسم المنظر كلّه لتمثيلها وتشخيصها وإحيائها.

نحن في المنظر الأوّل أمام قلب صلد ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾. فهو لايستشعر نداوة الإيمان وبشاشته. ولكن يغطّي هذه الصلادة بغشاءٍ من الرياء.

هذا القلب الصلد المغشيّ بالرياء يمثّله ﴿صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ صخر لاخصب فيه ولا ليونة، يُغطّيه تراب خفيف يحجب صلادته عن الأعين، كالرياء يحجب صلادة القلب العاري عن الإيمان. ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾. فقد ذهب المطر الغزير بالتراب اليسير. فانكشف الصخر بجدبه وقساوته، ومن غير أن يثمر شيئاً.

أمّا المنظر الثاني، فقلب عامر بالإيمان، نديّ ببشاشته، ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله. ينفقه عن ثقة ثابتة في الخير، نابعة من الإيمان، عميقة الجذور في الضمير. وهكذا قلب تمثّله جنّة خصبة عميقة التربة ذات البركة.

فإذ كان الوابل هناك في المنظر الأوّل قد ذهب بغشاء التراب، فإنّه هنا جاء ليخصب وينمي ويثمر وينتشل ببركات الأرض.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أحياها كما يحيي الصدقة ـ في سبيل رضا الله ـ قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلةً بالله، كما يزكو ماله ويضاعف له الحسنات.

وحقّاً إنّه المشهد الكامل، المتقابل المناظر، المنسّق الجزئيّات، المعروض بطريقة معجزة التناسق والأداء، الممثّل بمناظره الشاخصة لكلّ خالجة في القلب وكلّ خاطرة في النفس، المصوّر للمشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات والمحسوسات، الموحي للقلب باختيار الطريق في يسر عجيب!

ولمّا كان المنظر مجالاً للبصر والبصيرة من جانب، ومردّ الأمر كلّه إلى كونه بعين الله وعلمه

بذات الصدور، جاء التعقيب بقوله: ﴿واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

هذا والمجال واسع للكلام عن التمثيل في القرآن، استوفينا الكلام فيه في حقول ثلاثة من مباحث إعجاز القرآن البياني الفائق، فراجع[2].

* * *

وبعد فإليك ما ورد بشأن التمثيل في القرآن من روايات:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾

[٨١٨/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: لمّا ضرب الله هذين المثلين للمنافقين قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ﴾ قال المنافقون: الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3].

[٨١٩/٢] وأخرج عبد الغني الثقفي في تفسيره والواحدي عن ابن عبّاس قال: إنّ الله ذكر آلهة المشركين فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً﴾ وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت فقالوا: أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمّد. أيّ شيء كان يصنع بهذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ الآية[4].

[٨٢٠/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ وذلك أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ ذكر العنكبوت والذباب في القرآن فضحكت اليهود وقالت: ما يشبه هذا من الأمثال. فقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ يعني أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لا يمنعه الحياء أن يصف للخلق مثلا ﴿مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[5].

---

(١) راجع: التمهيد ٥: ٢٨٠. وفي ظلال القرآن ١: ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٢) التمهيد ٥: ٢٦١ ـ ٣٠٤ فصل «حسن تشبيهه وجمال تصويره»، و ٣٠٥ ـ ٣٣٠ فصل «جودة استعارته وروعة تخييله»، و ٣٣١ ـ ٣٤٢ فصل «لطيف كنايته وظريف تعريضه».

(٣) الطبري ١: ٢٥٥ ـ ٢٥٦ / ٤٦١؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٨ / ٢٧٣، نقلاً عن السدّي؛ الدرّ ١: ١٠٣؛ ابن كثير ١: ٦٧.

(٤) الدرّ ١: ١٠٣؛ أسباب النزول: ١٤؛ القرطبي ١: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٥) تفسير مقاتل ١: ٩٤ ـ ٩٥.

[٢/٨٢١] وأخرج عبد الرزّاق وعبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لمّا ذكر الله العنكبوت والذباب قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (١).

[٢/٨٢٢] وروى ابن كثير بإسناده إلى سعيد عن قتادة قال: أي: إنّ الله لايستحيي من الحقّ أن يذكر شيئاً ممّا قلّ أو كثر وإنّ الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت، قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾(٢).

[٢/٨٢٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: لمّا أُنزلت ﴿يا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ قال المشركون: ما هذا من الأمثال فيضرب أو ما يشبه هذا الأمثال! فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ لم يُرد البعوضة إنّما أراد المثل(٣).

[٢/٨٢٤] وروي عن الإمام أبي محمّد العسكري عليه السلام، قال: قال الباقر عليه السلام: «فلمّا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ وذكر الذباب في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ الآية، ولمّا قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وضَرَب المثل في هذه السورة (البقرة) بالّذي استوقد ناراً، وبالصيّب من السماء، قالت الكفّار والنواصب: ما هذا من الأمثال فيضرب، يريدون به الطعن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الله: يا محمّد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾، لا يترك حياء ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ للحقّ يوضّحه به عند عباده المؤمنين ﴿ما بَعُوضَةً﴾ أي ما هو بعوضة ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فوق البعوضة، وهو الذباب، يضرب به المثل إذا علم أنّ فيه صلاح عباده المؤمنين ونفعهم»(٤).

---

(١) الدرّ ١: ١٠٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٢ / ٢٧؛ الطبري ١: ٢٥٦ـ٢٥٧ / ٤٦٤ وفيه: «قال أهل الضلالة» بدل قوله: «قال المشركون». وهو أقرب للصواب، نظراً لأنّ الآية مدنيّة؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٩ / ٢٧٣، وزاد: وروي عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدّي وقتادة؛ القرطبي ١: ٢٤٢، بلفظ: قال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: مايشبه هذا كلام الله. فأنزل الله الآية؛ ابن كثير ١: ٦٧، قال ابن كثير: قلت: العبارة الأولى (قال المشركون) عن قتادة، فيها إشعار بأنّ هذه الآية مكيّة وليس كذلك وعبارة رواية سعيد عن قتادة أقرب والله أعلم؛ أبو الفتوح ١: ١٧٥.

(٢) ابن كثير ١: ٦٧؛ التبيان ١: ١١١.

(٣) الدرّ ١: ١٠٣؛ ابن كثير ١: ٦٧، بلفظ: قال ابن أبي حاتم: روي عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدّي وقتادة.

(٤) تفسير الإمام: ٢٠٥ / ٩٥؛ البحار ٢٤: ٣٨٨ / ١١٢.

[٨٢٥/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا، إنّ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الّذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلأوا من الدنيا ريّاً أخذهم الله عند ذلك. قال: ثمّ تلا ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(١) الآية.

[٨٢٦/٢] وعنه أيضاً بطريق آخر بنحوه، إلّا أنّه قال: فإذا خلت آجالهم، وانقطعت مدّتهم، صاروا كالبعوضة تحيا ما جاعت وتموت إذا رويت؛ فكذلك هؤلاء الّذين ضرب الله لهم هذا المثل إذا امتلأوا من الدنيا ريّاً أخذهم الله فأهلكهم، فذلك قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(٢).(٣)

قوله تعالى: ﴿مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً﴾

[٨٢٧/٢] أخرج ابن جرير عن قتادة قال: البَعُوضَة أضعف ما خلق الله(٤).

[٨٢٨/٢] وروى الطبرسيّ مرسلاً عن الإمام الصادق ﷺ قال: «إنّما ضرب الله المثل بالبعوضة لأنّ البعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين فأراد الله سبحانه أن ينبّه بذلك المؤمنين على لطف خلقه وعجيب صنعه»(٥).

[٨٢٩/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً﴾ قال: يعني الأمثال صغيرها وكبيرها. ويؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنّها الحقّ من ربّهم ويهديهم الله بها، ويُضلّ بها الفاسقين. يقول: يعرفه المؤمنون فيؤمنون به، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به(٦).

[٨٣٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والديلمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيّها الناس لاتغترّوا بالله، فانّ الله لو كان مغفلاً شيئاً لأغفل البعوضة، والذرّة

---

(١) الأنعام ٦: ٤٤. (٢) الأنعام ٦: ٤٤.

(٣) الطبري ١: ٢٥٦ / ٤٦٢ ـ ٤٦٣؛ ابن كثير ١: ٦٧؛ التبيان ١: ١١١، باختلاف؛ مجمع البيان ١: ١٣٥، باختلاف؛ أبوالفتوح ١: ١٧٨، باختصار.

(٤) الدرّ ١: ١٠٣؛ الطبري ١: ٢٥٨ / ٤٦٦، و ٤٦٧ نقلاً عن ابن جريج بنحوه.

(٥) مجمع البيان ١: ١٣٥؛ التبيان ١: ١١١؛ البحار ٩: ٦٤. (٦) الطبري ١: ٢٥٧ / ٤٦٥.

والخردلة»[1].

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾

[٨٣١/٢] قال قتادة وابن جُريج في قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ المعنى في الكبر[2].

* * *

ملحوظة: وهناك حديث غريب جاء في التفسير المنسوب إلى عليّ بن ابراهيم القميّ وحاشاه فإنّه مكذوب عليه قطعيّاً. جاء فيه:

[٨٣٢/٢] قال: وحدّثني أبي عن النضر بن سويد عن القاسم بن سليمان عن المعلّى بن خنيس عن أبي عبدالله عليه السلام: «إنّ هذا المثل ضربه الله لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فالبعوضة أميرالمؤمنين عليه السلام، وما فوقها رسول الله صلى الله عليه وآله، والدليل على ذلك قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني أميرالمؤمنين عليه السلام كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله الميثاق عليهم له ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ فردّ الله عليهم فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ في عليّ ﴿وَ يَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ يعني من صلة أميرالمؤمنين والأئمّة عليهم السلام ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾»[3].

والدليل على وهن هذا الحديث، أنّ جماعة من الشيعة سألوا الإمام الباقر عليه السلام عن هذه الأكذوبة الشائعة بين لفيف من المنتحلين لولاء آل البيت، ولكن مع جهل وغباء، ولعلّه من وضع بعض المعاندين تشويهاً لسمعة الشيعة الأبرياء. فجاء تكذيبه من الإمام عليه السلام صريحاً كالتالي:

[٨٣٣/٢] قيل للباقر عليه السلام: «فإنّ بعض من ينتحل موالاتكم يزعم أنّ البعوضة عليّ عليه السلام وأنّ ما

---

(١) الدرّ ١: ١٠٤؛ العظمة ٢: ٥٣٣ ـ ٥٣٤ / ١٨٧؛ فردوس الأخبار للديلمي ٥: ٣٧٢ / ٨٢٠٢؛ كنزالعمّال ١٦: ١٧ / ٤٣٧٤٦.

(٢) القرطبي ١: ٢٤٣؛ ابن كثير ١: ٦٨، بلفظ: والثاني من الأقوال في معنى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: فما فوقها لما هو أكبر منها، لأنّه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة واختيار ابن جرير؛ مجمع البيان ١: ١٣٥، بلفظ: أي ما هو أعظم منها ـ عن قتادة وابن جريج.

(٣) القمي ١: ٣٤ ـ ٣٥؛ البحار ٢٤: ٣٩٣؛ البرهان ١: ١٥٧ ـ ١٥٨ / ١.

فوقها، وهو الذباب، محمّد رسول الله ﷺ! فقال الباقر ؑ: سمع هؤلاء شيئاً لم يضعوه على وجهه، إنّما كان رسول الله ﷺ قاعداً ذات يوم هو وعليّ ؑ إذ سمع قائلاً يقول: ما شاء الله وشاء محمّد، وسمع آخر يقول: ما شاء الله وشاء عليّ! فقال رسول الله ﷺ: لا تقرنوا محمّداً وعليّاً بالله عزّ وجلّ، ولكن قولوا: ما شاء الله ثمّ شاء محمّد ما شاء الله ثمّ شاء عليّ. إنّ مشيئة الله هي القاهرة الّتي لاتساوى ولا تكافى ولا تدانى، و ما محمّد رسول الله ﷺ في الله وفي قدرته إلّا كذبابة تطير في هذه المسالك الواسعة، وما عليّ ؑ في الله وفي قدرته إلّا كبعوضة في جملة هذه المسالك، مع أنّ فضل الله تعالى على محمّد وعلي هو الفضل الّذي لا يفي به فضله على جميع خلقه من أوّل الدهر إلى آخره. هذا ما قال رسول الله ﷺ في ذكر الذباب والبعوضة في هذا المكان، فلا يدخل في قوله ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً﴾»[١].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾

[٨٣٤/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ قال: أي أنّ هذا المثل الحقّ مِن رَّبِّهِمْ وأنّه كلام الله ومن عنده. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله[٢].

[٨٣٥/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ قال: يؤمن به المؤمنون، ويعلمون أنّه الحقّ من ربّهم، ويهديهم الله به، وفي قوله: ﴿يضلّ بِهِ كَثيراً﴾ يقول: يعرفه المؤمنون فيؤمنون به ويعرفه الفاسقون فيكفرون به[٣].

---

(١) البرهان ١: ١٥٨ ـ ١٦٠ / ٢؛ تفسير الإمام: ٢٠٥ ـ ٢١٠ / ٩٥ و ٩٦؛ كنز الدقائق ١: ٣٠٢ ـ ٣٠٣؛ البحار ٢٤: ٣٨٨ ـ ٣٩٢ / ١١٢، باب ٦٧.

(٢) الدرّ ١: ١٠٤؛ الطبري ١: ٢٦١ / ٤٦٨، عن الربيع بن أنس، و ٤٦٩، عن قتادة بلفظ: أي يعلمون أنّه كلام الرحمان وأنّه الحقّ من الله؛ ابن أبي حاتم ١: ٦٩ / ٦٩، بلفظ: عن أبي العالية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ﴾ يعني هذا المثل؛ ابن كثير ١: ٦٨.

(٣) الدرّ ١: ١٠٤؛ الطبري ١: ٢٦١ / ٤٧٠؛ التبيان ١: ١١١.

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًاوَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾

[٨٣٦/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن مصعب بن سعد عن سعد في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ قال: يعني الخوارج[١].

[٨٣٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المنافقين ﴿وَ يَهْدِى بِهِ كَثِيرًا﴾ يعني المؤمنين ﴿وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون. وفي قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ فأقرّوا به ثمّ كفروا فنقضوه[٢].

[٨٣٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون[٣].

[٨٣٩/٢] وعن الربيع عن أبي العالية قال: هم أهل النفاق[٤].

[٨٤٠/٢] وعن مجاهد عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: يعني الكافرين[٥].

[٨٤١/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا﴾: يعني يصدّقون بالقرآن ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي هذا المثل هو ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقرآن يعني اليهود ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهذا﴾ الّذي ذكر ﴿مَثَلاً﴾ إنّما يقوله محمّد من تلقاء نفسه وليس من الله فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ أي يضلّ الله بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس يعني اليهود ﴿وَ يَهْدِي بِهِ﴾ أي بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس يعني المؤمنين ﴿وَ مَا يُضِلُّ بِهِ﴾ أي بهذا المثل ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ يعني اليهود[٦].

[٨٤٢/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال: فسقوا فأضلّهم الله بفسقهم[٧].

---

(١) ابن أبي حاتم ١: ٧٠ / ٢٨١.

(٢) الدرّ ١: ١٠٤؛ الطبري ١: ٢٦١ / ٤٧١ و ٤٧٢؛ ابن كثير ١: ٦٨، إلى قوله «هم المنافقون» نقلاً عن السدّي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة. وفي ص ٦٩ ـ ٧٠ تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ...﴾ عن السدّي بلفظ: قال هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثمّ كفروا فنقضوه.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٧٠ / ٢٨٤.

(٤) ابن أبي حاتم ١: / ٧٠ / ٢٨٢؛ الطبري ١: ٢٦٢ / ٤٧٤.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٧٠ / ٢٨٦.

(٦) تفسير مقاتل ١: ٩٥.

(٧) الدرّ ١: ١٠٤؛ الطبري ١: ٢٦٢ / ٤٧٣. ابن أبي حاتم ١: ٧٠ / ٢٨٥.

كلام عن الهداية والإضلال منه تعالى

جاء التعبير بالهداية والإضلال ناسباً إليه تعالى في القرآن في مواضع ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]. ما تلك الهداية يمنحها من يشاء ويمنعها عمّن يشاء من عباده، وهو العزيز الغالب على أمره، الحكيم في حسن فعاله، لايرتكب شططاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2]؟!

نعم كان الإضلال منه تعالى بمعنى الخذلان، أثراً مباشراً يلحق أولئك المعاندين ممّن تمادوا في الغيّ والضلال، الّذين عرفوا الحقّ ولمسوا حقيقته بواقع فطرتهم الأُولى، لكنّهم أنكروه مكابرة وطغياناً ولجّوا في العتوّ والعناد، فأصمّهم الله وأعمى أبصارهم.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[3]. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[4].

إذن كان ذلك الحرمان على اثر هذا الطغيان. أثراً مباشراً استدعاه لجاجهم في غياهب التيه والفساد.

أمّا الّذين اهتدوا فزادهم الله هدىً وآتاهم تقواهم[5]. ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[6]. وهي عناية ربّانيّة تشمل أولئك الّذين اتّخذوا سبيل الرشد وجاهدوا في الله حقّ جهاده ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[7].

وقد استوفينا البحث حول الهداية والإضلال نسبتهما إلى الله سبحانه بما يتوافق مع عدله وحكمته تعالى، في مباحثنا عن متشابهات القرآن من التمهيد فراجع[8].

---

(١) إبراهيم ١٤: ٤.
(٢) الكهف ١٨: ٤٩.
(٣) الصفّ ٦١: ٥.
(٤) المائدة ٥: ٧٨ ـ ٨٠.
(٥) وفق الآية ١٧ من سورة محمّد ٤٧.
(٦) مريم ١٩: ٧٦.
(٧) العنكبوت ٢٩: ٦٩.
(٨) التمهيد ٣: ١٧٥ ـ ٢٨٠.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾

وبعد، فإنّ الآية بذاتها تشير إلى سبب هذا الخذلان وأنّه ردّ فعل لما ارتكبوه من التمرّد والعصيان الملحّ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

إذن فقد كان الخذلان لموضع فسقهم وخروجهم عن حدود ما أمر الله به أن يوصل، والسعي لغرض الإفساد في الأرض، فكانت عاقبتهم الخسران والحرمان عن نفحات الرضوان.

وإليك بعض ما ورد بهذا الشأن:

[٨٤٣/٢] روى ثقة الإسلام الكليني بإسناده إلى سهل بن زياد عن عمرو بن عثمان عن محمّدبن عذافر عن بعض أصحابه عن محمّدبن مسلم أو أبي حمزة عن الإمام أبي عبدالله الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال لي أبي عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام: «يا بُنيّ! انظر خمسة فلا تصاحبهم ولاتحادثهم ولاترافقهم في طريق. قلت: يا أبه! من هم؟ قال: إيّاك ومصاحبة الكذّاب، فإنّه بمنزلة السراب، يقرّب لك البعيد ويباعد لك القريب. وإيّاك ومصاحبة الفاسق، فإنّه بائعك بأكلة أو أقلّ من ذلك. إيّاك ومصاحبة البخيل، فإنّه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه. وإيّاك ومصاحبة الأحمق، فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك. وإيّاك ومصاحبة القاطع لرحمه، فإنّي وجدته ملعوناً في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ في ثلاثة مواضع:

قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[١].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٢].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾»[٣][٤].

---

(١) محمّد ٤٧: ٢٣.
(٢) الرعد ١٣: ٢٥.
(٣) البقرة ٢: ٢٧.
(٤) الكافي ٢: ٣٧٦ـ٣٧٧.

[٨٤٤/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن الربيع في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال: فهي ستّ خلال في أهل النفاق إذا كانت لهم الظهرة أظهروا هذه الخلال الستّ جميعاً: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت عليهم الظهرة أظهروا الخلال الثلاث: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا[١].

[٨٤٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى الربيع عن أبي العالية في الآية، قال: هي ستّ خصال في المنافقين إذاكانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصائص: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. و إذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا[٢].

[٨٤٦/٢] وأخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقّاص قال: الحروريّة هم ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: إيّاكم ونقض هذا الميثاق. وكان يسمّيهم الفاسقين[٣].

[٨٤٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى شعبة عن عمرو بن مرّة عن مصعب بن سعد بن أبي وقّاص قال: سألت أبي عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ فقال: هم الحروريّة[٤].

[٨٤٨/٢] وأخرجه الحاكم في كتاب التفسير[٥] قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، غير أنّه أخرج الحديث عن منصور عن المصعب قال: قلت لأبي ـ في قوله تعالى:

---

(١) الطبري ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ٤٧٧؛ ابن كثير ١: ٦٩. نقلاً عن أبي العالية والربيع بن أنس ـ وفيه «الخصال» بدل «الخلال».

(٢) ابن أبي حاتم ١: ٧١ / ٢٨٨.

(٣) الدرّ ١: ١٠٤؛ البخاري ٥: ٢٣٦، كتاب التفسير، سورة الكهف؛ ابن أبي حاتم ١: ٧١ و ٧٢ / ٢٨٧ و ٢٩٥؛ كنزالعمّال ١١: ٣٢٢ / ٣١٦٢٧؛ الحاكم ٢: ٣٧٠، كتاب التفسير، سورة الكهف.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ٧١ / ٢٨٧.

(٥) الحاكم ٢: ٣٧٠، من تفسير سورة الكهف.

﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ ـ الحروريّة هم؟ قال: لا، ولكنّهم أصحاب الصوامع. والحروريّة قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم[١].

[٨٤٩/٢] وروى ابن كثير بإسناده إلى شعبة عن عمرو بن مرّة عن مصعب بن سعد قال: سألت أبي عن هذه الآية؟ فقال: هم الحروريّة.

قال ابن كثير: وهذا الإسناد وإن صحّ عن سعد بن أبي وقّاص فهو تفسير على المعنى (أي الأخذ بشمول مفهوم الآية العام) لا أنّ الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الّذين خرجوا على عليّ عليه السلام بالنهروان، فإنّ أولئك لم يكونوا حال نزول الآية وإنّما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل، لأنّهم سمّوا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام وعن القيام بشرائع الإسلام. والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضاً. وتقول العرب: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها. ولهذا يقال للفأرة: فُوَيسقة لخروجها عن جحرها للفساد[٢].

[٨٥٠/٢] وقال مقاتل بن سليمان، بعد ذهابه إلى أنّ المراد منها اليهود: ثمّ أخبر فقال ـ سبحانه ـ: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ فنقضوا العهد الأوّل، ونقضوا ما أخذ عليهم في التوراة، أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأن يؤمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله وكفروا بعيسى وبمحمد صلى الله عليه وآله وآمنوا ببعض الأنبياء، وكفروا ببعض، ﴿وَ يَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني ويعملون فيها بالمعاصي ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في العقوبة يعني اليهود ونظيرها في الرعد ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من إيمانٍ بمحمّد صلى الله عليه وآله ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٣].

[٨٥١/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: إيّاكم ونقض هذا الميثاق، فإنّ الله قد كره نقضه وأوعد فيه، وقدّم فيه في آي من القرآن حجّة وموعظة ونصيحة، وإنّا لا نعلم الله ـ جلّ ذكره ـ أوعد في ذنب ما أوعد في نقض هذا الميثاق. فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فَلْيَفِ به لله[٤].

---

(١) هامش المستدرك ٢: ٣٧٠. (٢) ابن كثير ١: ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) تفسير مقاتل ١: ٩٥. والآية من سورة الرعد ١٣: ٢٥. (٤) الطبري ١: ٢٦٥ / ٤٧٦؛ الدرّ ١: ١٠٤، بتفاوت يسير.

[٨٥٢/٢] وأخرج أحمد والبزّار وابن حبّان والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

وأخرج الطبراني في الكبير من حديث عبادة بن الصامت وأبي أمامة، مثله.

وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر، مثله[١].

[٨٥٣/٢] وأخرج البخاري في تاريخه والحاكم وصحّحه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «حسن العهد من الإيمان»[٢].

ماذا يكون هذا العهد والميثاق الّذي أخذه الله على العباد؟

قال أبوجعفر الطبري: اختلف أهل المعرفة في معنى العهد الّذي وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه.

فقال بعضهم هو: وصيّة الله إلى خلقه وأمره إيّاهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إيّاهم عمّا نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسوله ﷺ. ونقضهم ذلك تركهم العمل به.

وقال آخرون: إنّما نزلت هذه الآيات في كفّار أهل الكتاب و المنافقين منهم وإيّاهم عنى الله ـ جلّ ذكره ـ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣] وبقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

فكلّ ما في هذه الآيات فعذل لهم وتوبيخ إلى انقضاء قصصهم.

قالوا: فعهد الله الّذي نقضوه بعد ميثاقه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتّباع محمد ﷺ إذا بُعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربّهم.

---

(١) الدرّ ١: ١٠٤ـ١٠٥؛ مسند أحمد ٣: ١٣٥ و ١٥٤ و ٢١٠ و ٢٥١؛ ابن حبّان ١: ٤٢٢ـ٤٢٣ / ١٩٤، كتاب الايمان، باب ٤ (فرض الايمان)؛ الأوسط ٣: ٩٨ / ٢٦٠٦، نقلاً عن أنس؛ الشعب ٤: ٧٨ / ٤٣٥٤، باب: في الايفاء بالعقود؛ الكبير ٨: ١٩٥ / ٧٧٩٨، (ترجمة: ثابت بن ثوبان عن القاسم) بلفظ: عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «لاإيمان لمن لا أمانة له والّذي نفسي بيده لاتدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا»؛ الأوسط ٢: ٣٨٣ / ٢٢٩٢، نقلاً عن ابن عمر.

(٢) الدرّ ١: ١٠٥؛ التاريخ الكبير ١: ٣١٩ / ١٠٠٠؛ الحاكم ١: ١٦، كتاب الايمان؛ كنزالعمّال ٤: ٣٦٥ / ١٠٩٣٧.

(٣) البقرة ٢: ٦.

(٤) البقرة ٢: ٨.

ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيّننّه للناس ولايكتمونه، فأخبر الله ـ جلّ ثناؤه ـ أنّهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً.

وقال بعضهم: إنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفاق وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلّة الدالّة على ربوبيّته وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتجّ به لرسله من المعجزات الّتي لايقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم.

قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبيّنت لهم صحّته بالأدلّة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أنّ ما أتوا به حقّ.

و قال آخرون: العهد الّذي ذكره الله ـ جلّ ذكره ـ هو العهد الّذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الّذي وصفه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾[1]. ونقضهم ذلك ترك الوفاء به.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك قول من قال: إنّ هذه الآيات نزلت في كفّار أحبار اليهود الّذين كانوا بين ظهرانيّ مهاجر رسول الله ﷺ وما قرب منها من بقايا بني إسرائيل ومن كان على شركه من أهل النفاق، الّذين قد بيّنّا قصصهم. وقد دلّلنا على أنّ قول الله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ وقوله: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾ فيهم أُنزلت وفي من كان على مثل الّذي هم عليه من الشرك بالله، غير أنّ هذه الآيات عندي وإن كانت فيهم نزلت فإنّه معنيٌّ بها كلّ من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال، ومعنيٌّ بما وافق منها صفة المنافقين، خاصّة جميع المنافقين، وبما وافق منها صفة كفّار أحبار اليهود جميع من كان لهم نظيراً في كفرهم. وذلك أنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ يعمّ أحياناً جميعهم بالصفة، لتقديمه ذكر جميعهم في أوّل الآيات الّتي ذكرت قصصهم، ويخصّ أحياناً بالصفة بعضهم لتفصيله في أوّل الآيات بين فريقيهم، أعني فريق المنافقين من عَبَدة الأوثان وأهل الشرك بالله، وفريق كفّار أحبار اليهود. فالّذين ينقضون عهد الله هم التاركون ما عهد الله إليهم من الإقرار بمحمّد ﷺ وبما جاء به وتبيين نبوّته للناس، الكاتمون بيان ذلك بعد علمهم به وبما قد أخذ الله عليهم في ذلك، كما قال الله ـ جلّ ذكره ـ:

(١) الأعراف ٧: ١٧٢.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[1]. ونبذهم ذلك وراء ظهورهم هو نقضهم العهد الّذي عهد إليهم في التوراة، الّذي وصفناه، وتركهم العمل به.

قال: وإنّما قلت: إنّه عنى بهذه الآيات من قلت. لأنّ الآيات من ابتداء الآيات الخمس والستّ من سورة البقرة فيهم نزلت إلى تمام قصصهم. وفي الآية الّتي بعد الخبر عن خلق آدم وأبنائه في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[2]. وخطابه إيّاهم بالوفاء في ذلك خاصّة دون سائر البشر، ما يدلّ على أنّ قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ مقصود به كفّارهم ومنافقوهم ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم. غير أنّ الخطاب وإن كان لمن وصفتُ من الفريقين، فداخل في أحكامهم وفي ما أوجب الله لهم من الوعيد والذمّ والتوبيخ، كلّ من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي.

فمعنى الآية إذن: وما يُضلّ به إلّا التاركين طاعة الله، الخارجين عن اتّباع أمره ونهيه، الناكثين عهود الله الّتي عهدها إليهم في الكتب الّتي أنزلها إلى رسله وعلى ألسن أنبيائه، باتّباع أمر رسوله محمّد ﷺ وما جاء به، وطاعة الله في ما افترض عليهم في التوراة من تبيين أمره للناس وعدم كتمانه. ونكثهم في ذلك ونقضهم إيّاه هو مخالفتهم لله في عهده إليهم، بعد إعطاء ربّهم الميثاق بالوفاء، كما وصفهم به بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾[3].[4].

* * *

وذكر الفخر الرازي وجوهاً في المراد بهذا الميثاق:

أحدها: أنّ المراد حججه القائمة على عباده الدالّة لهم على صحّة توحيده وصدق رسله، فكان ذلك ميثاقاً وعهداً على التمسّك بالتوحيد، إذ كان يلزم بهذه الحجج ما ذُكر من التمسّك بالتوحيد

(١) آل عمران ٣: ١٨٧.
(٢) البقرة ٢: ٤٠.
(٣) الأعراف ٧: ١٦٩.
(٤) الطبري ١: ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

وغيره. ولذلك صحّ قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[١].

وثانيها: يحتمل أن يعني به ما دلّ عليه بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾[٢].

فلمّا لم يفعلوا ما حلفوا عليه وصفهم بنقض عهده.

قال: والتأويل الأوّل يمكن فيه العموم في كلّ من ضلّ وكفر، والثاني لايمكن إلّا في من اختص بهذا الحلف. وبذلك يبدو رجحان التأويل الأوّل من وجهين: أحدهما: إمكان إجراء الآية على عمومها. وعلى الثاني يلزم التخصيص. وثانيهما: أنّ على التقدير الأوّل يلزمهم الذمّ، لأنّهم نقضوا عهداً أبرمه الله وأحكمه بما أنزل من الأدلّة الّتي كرّرها عليهم في الأنفس والآفاق وأوضحها وأزال اللبس عنها، ولما أودع في العقول من دلائلها وبعث الأنبياء وأنزل الكتب مؤكّداً لها. وأمّا على التقدير الثاني فإنّه يلزمهم الذمّ لأجل أنّهم تركوا شيئاً هم بأنفسهم كانوا التزموه، ومعلوم أنّ ترتيب الذمّ على الوجه الأوّل أولى.

وثالث الوجوه: قال القفّال[٣]: يحتمل أن يكون المقصود بالآية قوماً من أهل الكتاب قد أخذ عليهم العهد والميثاق في الكتب المنزلة على أنبيائهم بتصديق نبيّ الإسلامﷺ وبيّن لهم أمره وأمر أمّته فنقضوا ذلك وأعرضوا عنه وجحدوا نبوّته.

ورابعها: قال بعضهم: إنّه عنى ميثاقاً أخذه من الناس وهم على صورة الذرّ وأخرجهم من صلب آدم ـ على ما مرّ في كلام الطبري ـ.

قال: قال المتكلّمون: هذا ساقط، لأنّه تعالى لايحتجّ على العباد بعهد وميثاق لايشعرون به، كما لا يؤاخذون بما ذهب علمه عن قلبهم بالسهو والنسيان، فكيف يجوز أن يوبّخهم على ذلك؟

وخامسها: عهد الله إلى خلقه في ثلاثة عهود: العهد الأوّل ما أخذه على جميع ذريّة بني آدم

---

(١) البقرة ٢: ٤٠.
(٢) فاطر ٣٥: ٤٢.

(٣) هو أبوبكر عبدالله بن أحمد الفقيه الشافعي، كان وحيد زمانه وله في مذهب الشافعي آثار ليست لغيره من أبناء عصره. اشتغل بالتحصيل على الكبر بعد أن قضى شبيبته في صنع الأقفال وبذلك لُقّب بالقفّال. وقد برع ومهر في مختلف العلوم حتّى طار صيته. وهو الّذي صلّى صلاة كذائيّة بمحضر السلطان محمودبن سبكتكين وكان حنفيّاً فتحوّل إلى مذهب الشافعي، على ما ذكره الدميري وابن خلّكان. توفّي سنة ٤١٧. راجع: الكنى والألقاب للقمي ٣: ٧٨.

بالإقرار بربوبيّته، في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ...﴾[١]. العهد الثاني عهد خَصَّ به النبيّين أن يبلّغوا الرسالة ويقيموا الدّين ولا يتفرّقوا، في قوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ...﴾[٢]. العهد الثالث عهد خَصَّ به العلماء من أهل الكتاب، في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[٣].[٤]

نعم كان عهد الله المعقود مع البشر يتمثّل في عهود كثيرة: إنّه عهد الفطرة المركوزة في جبلّة كلّ إنسان منذ أن نشأ، يعرف خالقه ويتّجه بكلّ وجوده إليه في بخوعه والاستكانة لديه ثمّ الاستعانة به والانقطاع إليه في حوائجه. ولا تزال هذه الرغبة الملحّة للاعتقاد بالله العظيم في الفطرة عبر الوجود، عقيدة راسخة في جوهر كلّ موجود، ليحنّ إلى بارئه مستعطفاً إيّاه راغباً في رعايته وعنايته الشاملة، هو الرحمان الرحيم. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٥].

وهذه هي الهداية الربّانيّة شملت كلّ شيء وكلّ موجود برز إلى الوجود: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[٦]. ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[٧].

وهذه الهداية خَصَّ بها الإنسانَ في مراحل:

أُولاها: عند ما عرض ﴿الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾[٨] حيث القابليّة وتواجد الصلاحيّة لحمل عبء الأمانة وركيزتها العقل الرشيد.

ثانيتها: حينما جعله خليفته في الأرض[٩]، لتتمثّل فيه جلائل صفاته تعالى، ويصبح مظهراً تامّاً لصفات الجمال والجلال. حيث أودعه قدرة الإبداع والتفكير والتدبير.

ثالثتها: أن علّمه الأسماء كلّها[١٠]، بأن أودع فيه الهيمنة على استكشاف أسرار الوجود والعثور على كوامن الطبيعة ليستخرجها ويستخدمها في عمارة الأرض وإحياء معالمها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[١١].

---

(١) الأعراف ٧: ١٧٢.
(٢) الأحزاب ٣٣: ٧.
(٣) آل عمران ٣: ١٨٧.
(٤) التفسير الكبير ٢: ١٤٧ ـ ١٤٨، المسألة ١٨.
(٥) الإسراء ١٧: ٤٤.
(٦) طه ٢٠: ٥٠.
(٧) الأعلى ٨٧: ١ ـ ٣.
(٨) الأحزاب ٣٣: ٧٢.
(٩) البقرة ٢: ٣٠.
(١٠) البقرة ٢: ٣١.
(١١) هود ١١: ٦١.

رابعتها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾(١). وذلك أنّ كلّ مولود يولد على الفطرة ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ.

[٢/٨٥٤] وسئل الإمام الباقر ﷺ عن هذه الفطرة؟ قال: يعني المعرفة بأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خالقهم. ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(٢). قال ﷺ: «ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه»(٣).

والخامسة: ـ وهي القاطعة للعذر ـ أن بعث إليهم أنبياء وأنزل معهم الكتاب والحكمة وفصل الخطاب. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٤).

[٢/٨٥٥] وقال الإمام أميرالمؤمنين ﷺ: «فَبَعَثَ فيهم رُسُلَه، وواتَرَ إليهم أنبياءَه، ليستأدوهم ميثاقَ فطرته، ويذكّروهم منسيَّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»(٥).

ودعم الفطرة بإرسال الرسل وإنزال الشرائع والكتب، كان قد وعد به الله منذ أن هبط الإنسان إلى الأرض ولمست رجلاه هذه البسيطة، حيث أحسّ بالوحشة على أثر الوحدة، كيف يعالج خضمّ الحياة، وملؤها الأكدار والأقذار، فوعده الله الحراسة والحمى في كنفه، مادام لائذاً به وعائذاً بلطف كرمه.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٦).

إذن فالمواطن لتوكيد ذلك الميثاق وفيرة ومتلاحقة عبر حياة الإنسان، منذ أن فُطر على الفطرة وبعد أن برز إلى الوجود وهكذا استمرّ عبر حياته حتّى يفارقها إلى دار البقاء ليلاقي ربّه وقد تمّت عليه الحجّة ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾(٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾

[٢/٨٥٦] قال شيخ الطائفة: قال قوم: أراد صلة رسوله وتصديقه، فقطعوه بالتكذيب، وهو قول

(١) الأعراف ٧: ١٧٢.
(٢) لقمان ٣١: ٢٥.
(٣) البحار ٣: ٢٧٩ / ١١ عن توحيد الصدوق: ٣٣٠ / ٩.
(٤) النساء ٤: ١٦٥.
(٥) نهج البلاغة ١: ٢٣.
(٦) البقرة ٢: ٣٨.
(٧) الأنعام ٦: ١٤٩.

الحسن[١].

[٨٥٧/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَ يَقْطَعُونَ مَآ أَمَـرَ اللهُ بِـهِ أَن يُوصَلَ﴾ قال: الرحم والقرابة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

[٨٥٨/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعملون فيها بالمعصية[٣].

[٨٥٩/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: يعني ويعملون فيها بالمعاصي[٤].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

[٨٦٠/٢] أخرج ابن المنذر عن مقاتل في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال: هم أهل النار[٥].

[٨٦١/٢] وقال مقاتل بن حيّان في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال: في الآخرة. وهذا كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾[٦].

[٨٦٢/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: كلّ شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم، مثل خاسر، فإنّما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنّما يعني به الذنب[٧].

---

(١) التبيان ١: ١٢١؛ مجمع البيان ١: ١٤٠، بلفظ: معناه: أُمروا بصلة النبيّ ﷺ والمؤمنين فقطعوهم. عن الحسن.

(٢) الدرّ ١: ١٠٥؛ الطبري ١: ٢٦٦ / ٤٧٨، بلفظ: عن قتادة ﴿وَ يَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ فقطع والله ما أمر الله به أن يوصل بقطيعة الرحم والقرابة.

(٣) الدرّ ١: ١٠٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٢ / ٢٩٦.

(٤) تفسير مقاتل ١: ٩٥.

(٥) الدرّ ١: ١٠٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٣ / ٢٩٩.

(٦) ابن كثير ١: ٧٠.

(٧) الدرّ ١: ١٠٥؛ الطبري ١: ٢٦٧ ـ ٢٦٨ / ٤٧٩؛ ابن كثير ١: ٧٠؛ التبيان ١: ١٢١، بلفظ: قال قوم: كلّما نسبه الله من الخسار إلى غير المسلمين فإنّما عنى به الكفر وما نسب به إلى المسلمين إنّما عنى به الدنيا، روى ذلك عن ابن عبّاس؛ مجمع البيان ١: ١٤٠، بنحو ما روي في التبيان؛ أبو الفتوح ١: ١٨٣.

قال تعالى:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

[٨٦٣/٢] قال الإمام العسكري: «قال رسول الله ﷺ لكفّار قريش واليهود: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ الّذي دلّكم على طريق الهدى وجنّبكم ـ إن أطعتموه ـ سبيل الردى ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ في أصلاب آبائكم وأرحام أمّهاتكم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أخرجكم أحياء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ في هذه الدنيا ويُقبركم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في القبور وينعم فيها المؤمنين ويعذّب الكافرين فيها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة بأن تموتوا في القبور بعد، ثمّ تحيوا للبعث يوم القيامة، ترجعون إلى ما قد وعدكم من الثواب على الطاعات إن كنتم فاعليها، ومن العقاب على المعاصي إن كنتم مقارفيها»[١].

[٨٦٤/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي نطفة ميتة وعلقة، فأجرى فيكم الروح ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في القيامة.

قال: والحياة في كتاب الله على وجوه كثيرة، فمن الحياة ابتداءً خلق الله الإنسان في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، فهي الروح المخلوقة الّتي خلقها الله وأجراها في الإنسان.

والوجه الثاني من الحياة، يعني إنبات الأرض، وهو قوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٢] والأرض الميتة: الّتي لا نبات بها فإحياؤها بنباتها.

ووجه آخر من الحياة، وهو دخول الجنّة، وهو قوله: ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٣]، يعني الخلود في الجنّة، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[٤].[٥].

[٨٦٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ بأنّه واحد لاشريك له ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ يعني نطفا ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ يعني فخلقكم وذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

(١) تفسير الإمام: ٢١٠ / ٩٧؛ البحار ٦: ٢٣٦ / ٥٤.
(٢) الروم ٣٠: ١٩.
(٣) الأنفال ٨: ٢٤.
(٤) العنكبوت ٢٩: ٦٤.
(٥) القميّ ١: ٣٥.

الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند إحيائكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ من بعد الموت يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجزيكم بأعمالكم(١).

[٨٦٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ قال: لم تكونوا شيئا فخلقكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة(٢).

[٨٦٧/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ قال: في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئا حتّى خلقكم، ثمّ يميتكم موتة الحقّ، ثمّ يحييكم حياة الحقّ حين يبعثكم(٣).

[٨٦٨/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله فأخرجهم ثمّ أماتهم الموتة الّتي لابدّ منها ثمّ أحياهم للبعث يوم القيامة. فهما حياتان وموتتان(٤).

[٨٦٩/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في الآية يقول: حين لم يكونوا شيئا ثمّ أحياهم حين

---

(١) تفسير مقاتل ١: ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) الدرّ ١: ١٠٥؛ الطبري ١: ٢٦٨ / ٤٨٠؛ القرطبي ١: ٢٤٩، بلفظ: فقال ابن عبّاس وابن مسعود: أي كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تخلقوا فأحياكم، أي خلقكم، ثمّ يميتكم عند انقضاء آجالكم ثمّ يحييكم يوم القيامة؛ التبيان ١: ١٢٢؛ مجمع البيان ١: ١٤١، نقلاً عن ابن عبّاس وابن مسعود؛ أبوالفتوح ١: ١٨٥، نقلاً عن ابن عبّاس وابن مسعود ومجاهد.

(٣) الدرّ ١: ١٠٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٣ / ٣٠٢، وزاد في آخره: قال: وهي مثل قوله: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾. وروي عن أبي العالية والحسن البصري وأبي صالح والسدّي وقتادة نحو ذلك؛ ابن كثير ١: ٧٠، بلفظ: قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عبّاس: ﴿كُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾: أمواتاً في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتّى خلقكم ثمّ يميتكم موتة الحقّ ثمّ يحييكم حين يبعثكم قال: وهي مثل قوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾؛ أبوالفتوح ١: ١٨٥، نقلاً عن ابن عبّاس وابن مسعود ومجاهد؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ / ٢٨، عن الكلبي وبلفظ: قال: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ثمّ أحياهم ثمّ يميتهم ثمّ يحييهم حين يبعثهم.

(٤) الدرّ ١: ١٠٥؛ الطبري ١: ٢٦٩ / ٤٨٨؛ ابن كثير ١: ٧٠؛ التبيان ١: ١٢٢؛ مجمع البيان ١: ١٤١؛ أبوالفتوح ١: ١٨٥، قال أبو الفتوح الرازي: والدليل على ضعف هذا القول، أنّ قوله ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني البعث والنشور في القيامة، فلو كان قوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ مراداً به ذلك أيضاً، لزم التكرار من غير فائدة.

خلقهم ثمّ أماتهم ثمّ أحياهم يوم القيامة ثمّ رجعوا إليه بعد الحياة(١).

[٢/٨٧٠] وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال: لم تكونوا شيئاً حتّى خلقكم، ثمّ يميتكم موتة الحقّ، ثمّ يحييكم. وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(٢) مثلها(٣).

[٢/٨٧١] وعن عبدالله بن محمّدبن سعيد في قوله: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(٤) قال: هي كالّتي في البقرة: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾(٥).

[٢/٨٧٢] وعن أبي مالك في قوله: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: خلقتنا ولم نكن شيئاً ثمّ أمتّنا ثمّ أحييتنا(٦).

[٢/٨٧٣] وعن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو قوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(٧).

[٢/٨٧٤] وعنه قال ـ في قوله: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ ـ: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة، ثمّ أحياكم فخلقكم فهذه إحياءة، ثمّ يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثمّ يبعثكم يوم القيامة فهذه إحياءة. فهما ميتتان وحياتان، فهو قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٨).

[٢/٨٧٥] وعن ابن زيد في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(٩) قال: خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق. وقرأ: ﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حتّى بلغ:

---

(١) الطبري ١: ٢٦٩ / ٤٨٥.
(٢) غافر ٤٠: ١١.
(٣) الدرّ ١: ١٠٦؛ الطبري ١: ٢٦٨ ـ ٢٦٩ / ٤٨٣.
(٤) غافر ٤٠: ١١.
(٥) الطبري ١: ٢٦٨ / ٤٨١؛ التبيان ١: ١٢٢؛ الحاكم ٢: ٤٣٧، كتاب التفسير، سورة المؤمن؛ الكبير ٩: ٢١٤ / ٩٠٤٤؛ مجمع الزوائد ٧: ١٠٢، كتاب التفسير، سورة غافر. قال الهيثمي: رواه الطبراني عن عبدالله بن محمّد بن سعيد بن أبي مريم.
(٦) الطبري ١: ٢٦٨ / ٤٨٢، وفي حديث آخر بلفظ: قال: كانوا أمواتاً فأحياهم الله، ثمّ أماتهم ثمّ أحياهم؛ وأيضاً الطبري ١٢: ٦٠ / ٢٣٣٥٤، سورة غافر، الآية ١١.
(٧) الطبري ١: ٢٦٩ / ٤٨٤.
(٨) الطبري ١: ٢٦٩ / ٤٨٦؛ ابن كثير ١: ٧٠. وزاد: وهكذا روي عن السدّي بسنده عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعن أبي العالية والحسن ومجاهد وقتادة وأبي صالح والضحّاك وعطاء الخراساني نحو ذلك.
(٩) غافر ٤٠: ١١.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(١) قال: فكسبهم العقل وأخذ عليهم الميثاق. قال: وانتزع ضلعاً من أضلاع آدم القُصَيْرى، فخلق منه حوّاء، ذكره عن النبي ﷺ. قال: وذلك قول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً﴾(٢) قال: وبثّ منهما بعد ذلك في الأرحام خلقاً كثيراً، وقرأ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾(٣) قال: خلقاً بعد ذلك. قال: فلمّا أخذ عليهم الميثاق أماتهم ثمّ خلقهم في الأرحام، ثمّ أماتهم ثمّ أحياهم يوم القيامة. فذلك قول الله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾. وقرأ قول الله: ﴿وَ أَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(٤). قال: يومئذ. قال: وقرأ قول الله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾(٥).(٦).

[٨٧٦/٢] وأخرج وكيع وابن جرير عن أبي صالح في الآية قال: يحييكم في القبر ثمّ يميتكم(٧).

[٨٧٧/٢] وقال القرطبي: وقد قيل: إنّ الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم ﷺ كالهباء ثمّ أماتهم، فيكون على هذا خمس موتات وخمس إحياءات وموتة سادسة للعصاة من أمّة محمّد ﷺ إذا دخلوا النار؛ لحديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أمّا أهل النار الّذين هم أهلها فإنّهم لايموتون فيها ولايحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال بخطاياهم ـ

---

(١) الأعراف ٧: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) النساء ٤: ١.

(٣) الزمر ٣٩: ٦.

(٤) الأحزاب ٣٣: ٧.

(٥) المائدة ٥: ٧.

(٦) الطبري ١: ٢٧٠ / ٤٨٩؛ ابن كثير ١: ٧٠. بلفظ: قال ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبدالرحمان بن زيد بن أسلم: قال: خلقهم من ظهر آدم ثمّ أخذ عليهم الميثاق ثمّ أماتهم ثمّ خلقهم في الأرحام ثمّ أماتهم ثمّ أحياهم يوم القيامة. وذلك كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾. قال: وهذا غريبٌ والّذي قبله!؛ التبيان ١: ١٢٢، مع عدم ذكر الراوي. بلفظ: وقال قوم: معناه إنّ الله تعالى أحياهم حين أخذ الميثاق منهم وهم في صلب آدم وكساهم العقل ثمّ أماتهم ثمّ أحياهم وأخرجهم من بطون أمّهاتهم وقد بيّنا أنّ هذا الوجه ضعيف في نظائره لأنّ الخبر الوارد بذلك ضعيف.

(٧) الدرّ ١: ١٠٥؛ الطبري ١: ٢٦٩ / ٤٨٧؛ ابن كثير ١: ٧٠؛ التبيان ١: ١٢٢، بلفظ: روي عن أبي صالح أنّه قال: كنتم أمواتاً في القبور فأحياكم فيها ثمّ يميتكم، ثمّ يحييكم يوم القيامة.

فأماتهم [الله] إماتة حتّى إذا كانوا فحماً أُذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائرَ ضبائرَ[1] فبُثّوا على أنهار الجنّة ثمّ قيل: يا أهل الجنّة أفيضوا عليهم، فَيَنْبُتُون نبات الحِبّة تكونُ في حَميل السَّيل». فقال رجل من القوم: كأنّ رسول الله ﷺ قد كان [يرعى] بالبادية. أخرجه مسلم[2].

[٨٧٨/٢] وروى أبو الفتوح الرازي عن الحسن البصري يقول: الآية عامّة لمن كانت له حياتان وموتتان. ولكن جماعة كانت لهم ثلاث موتات وثلاثة إحياءات، كما في قصّة عزير أماته الله مأة عام ثمّ أحياه. والّذين خرجوا من ديارهم حذر الموت وهم ألوف فقال لهم الله موتوا ثمّ أحــياهم. والسبعون من قوم موسى أخذتهم الصاعقة ثمّ أحياهم[3].

---

(١) قوله: ضبائر ضبائر أي جماعات في تفرقة.

(٢) القرطبي ١: ٢٤٩ ـ ٢٥٠؛ مسلم ١: ١١٨، كتاب الايمان، باب إثبات الشفاعة.

(٣) أبو الفتوح ١: ١٨٦.

قال تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

[٨٧٩/٢] روى الصدوق عن أبي الحسن محمّد بن القاسم المفسّر ﷺ قال: حدّثنا يوسف بن محمّد بن زياد وعليّ بن محمّد بن سيّار عن أبويهما عن الحسن بن عليّ عن أبيه عليّ بن محمّد عن أبيه محمّد بن عليّ عن أبيه الرضا عليّ بن موسى عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفربن محمّد عن أبيه محمّدبن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ ﷺ قال: «قال أميرالمؤمنين ﷺ في قول الله ـ عزّوجلّ ـ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال: هو الّذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً لتعتبروا به ولتتوصّلوا به إلى رضوانه، وتتوقّوا به من عذاب نيرانه، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ أخذ في خلقها وإتقانها ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ولعلمه بكلّ شيء علم المصالح فخلق لكم كلّ ما في الأرض لمصالحكم يا بني آدم»[١].

[٨٨٠/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: نعم والله، سخّر لكم ما في الأرض جميعاً كرامة من الله، ونعمة لابن آدم. متاعا، وبُلغة، ومنفعة إلى أجل[٢].

[٨٨١/٢] وأخرج عبدالرزّاق وعبدبن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: سخّر لكم ما في الأرض جميعاً ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلمّا خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك

---

(١) عيون الأخبار ٢: ١٥ ـ ١٦ / ٢٩، باب ٣٠ (فيما جاء عن الرضا ﷺ من الأخبار المنثورة)؛ البحار ٣: ٤٠ ـ ٤١ / ١٤؛ تفسير الإمام: ٢١٥ / ٩٩، من قوله: «قال اميرالمؤمنين ﷺ».

(٢) الدرّ ١: ١٠٦؛ الطبري ١: ٢٧٥ / ٤٩٠؛ إلى قوله: في الأرض؛ ابن عساكر ٧: ٣٩٩، (آدم نبيّ الله)؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٥ / ٣٠٧.

قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ يقول: خلق سبع سماوات بعضهنّ فوق بعض، وسبع أرضين بعضهنّ تحت بعض(١).

[٨٨٢/٢] وقال مقاتل بن سليمان: فأمّا اليهود فعرفوا وسكتوا وأمّا المشركون فقالوا: أئذا كنّا تراباً من يقدر أن يبعثنا من بعد الموت؟ فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من شيء(٢).

[٨٨٣/٢] وروى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطّاب أنّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي شيء ولكن ابتع عَلَيَّ فإذا جاء شيء قضينا»(٣)، فقال له عمر: هذا أعطيت إذا كان عندك فما كلّفك الله مالا تقدر. فكره رسول الله ﷺ قول عمر. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! «أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»(٤). فتبسّم رسول الله ﷺ وعُرف السرور في وجهه لقول الأنصاري، ثمّ قال رسول الله ﷺ: «بذلك أُمرت»(٥).

كلام عن أصالة الإباحة

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾

تشير هذه الآية الكريمة وما شابهها من آيات(٦) إلى أصل أصيل من أمّهات القواعد الفقهيّة،

---

(١) الدرّ ١: ١٠٦؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٣ / ٢٩؛ الطبري ١: ٢٨٠ ـ ٢٨١ / ٤٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٤ / ٣٠٤؛ العظمة ٤: ١٣٦٧ / ٨٨٣؛ القرطبي ١: ٢٥٥. بلفظ: قال مجاهد وغيره من المفسّرين: إنّه تعالى أيبس الماء الّذي كان عرشه عليه فجعله أرضاً وثار منه دخان فارتفع. فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثمّ قصد أمره إلى السماء فسوّاهنّ سبع سماوات، ثمّ دحا الأرض بعد ذلك وكانت إذ خلقها غير مدحوّة؛ ابن كثير ١: ٧١ ـ ٧٢.

(٢) تفسير مقاتل ١: ٩٦.

(٣) أي اشتر ما تبغي على حسابنا، فإذا جاءنا شيء نسدّه.

(٤) الإقلال: الإفقار ضدّ الإغناء.

(٥) القرطبي ١: ٢٥٢ ـ ٢٥٣، وقال: فخوف الإقلال من سوء الظنّ بالله، لأنّ الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم وقال في تنزيله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾؛ كنز العمّال ٧: ٢٠٣ ـ ٢٠٤ / ١٨٦٣٧، باختلاف؛ الشمائل المحمّديّة: ٢٩٤؛ مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا: ١١٨ / ٣٩٠.

(٦) منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة ٢:

←

والّتي تمنح الإنسان حقّ الانتفاع بمتع الحياة والتمتّع بكلّ ما مهّدت له الطبيعة من مُتَع ومِنَح. فقد كان الأصل الذاتي هو جواز الانتفاع ما لم يرد منع عن شيء أو يزاحم حقوق الآخرين.

قال المحقّق الأردبيلي: وفي الآية[1] دلالة على إباحة السكنى في الأرض مطلقاً، بل التصرّف فيها مطلقاً، حتّى يُمنع بدليل. وعلى أنّ خلق الأشياء وتدبيرها بهذا التقدير الموزون، إنّما هو لصالح الإنسان، وإباحة كلّ ما خلق لهذا الإنسان، كما دلّ عليه العقل أيضاً، أي أنّ أصل الإباحة في الأشياء كلّها، كما دلّ عليه الشرع دلّ عليه العقل أيضاً، لقاعدة «قبح العقاب بلا بيان»[2]. نعم قد يحرم شيء لدليل عقليّ إذا كان ضارّاً كالسموات المخلوقة لأغراض أُخر في صالح الإنسان أيضاً. أو لدليل نقليّ من آية أو سنّة أو إجماع، كالميتة والدم ولحم الخنزير. (وهذا قد يخفى مفاسده على الإنسان في ظاهر الحال. لكنّه معلوم بدليل الحكمة في الخلق والتكليف). وعلى أيّ تقدير فالآية وما شاكلها دلّت على إباحة كلّ ما يَنْبُت على وجه الأرض أو يُشْرَب أو يُركَب وسائر الانتفاعات بأسرها إلّا ما أخرجه الدليل.

وقال ـ تذييلا على الآية ١٦٨ من سورة البقرة ـ: يمكن الاستدلال بها على إباحة كلّ ما في الأرض لكلّ أحد، سواء المؤمن والكافر والعاصي. إذ المحلّل محلّل على الجميع والمحرَّم محرَّم

→ ١٦٨).

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر ١٥: ١٩ ـ ٢١).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُم فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف ٧: ١٠).

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ (الملك ٦٧: ١٦).

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الحجّ ٢٢: ٦٥).

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزْقاً لِلْعِبَادِ...﴾ (ق ٥٠: ٩ ـ ١١)

وقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ (طه ٢٠: ٨١).

(١) الآيات ١٩ ـ ٢١ من سورة الحجر.

(٢) سيأتي الكلام عن عدم مساوقة القاعدة مع الأصل المستفاد من الكتاب.

على الجميع، ولا دليل على التخصيص[١].

قال الفاضل المقداد: الآية إخبار بكون الأرض محلّ المعاش والارتزاق، والامتنان على عباده بإباحة ذلك لهم[٢].

إباحة ذاتيّة تتبعها إباحة ظاهريّة

أصالة الإباحة الجارية في عامّة الأشياء إباحة ذاتيّة، تعني إباحة كلّ شيء ذاتيّاً وبعنوانه الذاتي الأوّلي، ليكون كلُّ شيء مَنَحَتْهُ الطبيعة من جمادها ونباتها وحيوانها جعلت بفطرتها الأوّليّة في متناول الإنسان، أي خلقت لينتفع بها الإنسان في مآربه حسبما يشاء جعلاً أوّليّاً. فالأشجار والثمار والأنهار، وكذا المعادن والآجام والجبال والبحار، والطير في الهواء والحيوان في الغابات والقفار، كلّ ذلك كانت مباحة للإنسان، في أصل خلقتها ذاتيّاً، وليس لطرّو عنوان آخر يعرضها أحياناً.

فالأصل في كلّ شيء ـ حسب ذاته ـ هي الإباحة وجواز الانتفاع به ما لم يمنعه دليل خاصّ. نعم كان المشكوك حلّيته ـ أيضاً ـ ملحقاً بعموم العامّ حتّى يتبيّن خروجه عن العموم. وهذا من باب تحكيم العامّ فيما شك في خروجه، إذا كان المخصّص منفصلاً، قاعدة أصوليّة مطّردة. لأنّ العامّ قد انعقد عمومه، ولا ينفصم إلّا حيث علم شمول التخصيص له.

وعليه فالأصل الظاهري (إجراء أصل الإباحة في المشكوك حرمته) امتداد للأصل الذاتي وإسراء له في موارد شُكّ خروجها من تحت ذاك العام.

وبذلك دلّت النصوص الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

[٨٨٤/٢] روى ثقة الإسلام الكليني عن شيخه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: «كلّ شيء هو لك حلال حتّى تعلم أنّه حرام بعينه فتدعه».

---

(١) زبدة البيان في أحكام القرآن للمحقّق الأردبيلي: ٣٦١ ـ ٣٦٥، نقلاً بتوضيح.

(٢) كنز العرفان ٢: ٢.

ومثّل بالثوب تشتريه لعلّه من سرقة أو امرأة تتزوّج بها لعلّها رضيعتك. ثمّ قال: «والأشياء كلّها على هذا حتّى يستبين لك غير ذلك أو تقوم به البيّنة»[١].

[٨٨٥/٢] وروى بالإسناد إلى ابن محبوب عن عبدالله بن سنان عن الصادق عليه السلام قال: «كلّ شيء فيه حلال وحرام فهو حلال لك أبداً حتّى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه»[٢].

[٨٨٦/٢] وروى بالإسناد إلى عبدالله بن سليمان قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الجبن. فقال: «سأخبرك عن الجبن وغيره، كلّ ما كان فيه حلال و حرام فهو لك حلال حتّى تعرف الحرام بعينه فتدعه»[٣].

[٨٨٧/٢] وأيضاً بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: «كلّ شيء لك حلال حتّى يجيئك شاهدان يشهدان أنّ فيه ميتة»[٤].

[٨٨٨/٢] وروى الشيخ ـ في الأمالي ـ بإسناده إلى كلّ من صفوان بن يحيى وجعفر بن عيسى بن يقطين عن الحسين بن أبي غندر عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «الأشياء مطلقة ما لم يرد عليك أمر ونهي. وكلّ شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبداً ما لم تعرف الحرام منه فتدعه»[٥].

[٨٨٩/٢] وروى ابن أبي جمهور الأحسائي ـ في باب الاعتكاف ـ قال: قال الصادق عليه السلام: «كلّ شيء مطلق حتّى يرد فيه منع»[٦]. وفي نسخة المجلسي: «... حتّى يرد فيه نصّ»[٧].

والأحاديث بهذا الشأن كثيرة ومتضافرة وقد طفق الأصحاب (الفقهاء) يعملون بها ويستندون إليها في فتاواهم في مختلف أبواب الفقه، سواء في شبهة حكميّة أو موضوعيّة حسبما ننبّه.

---

(١) الكافي ٥: ٣١٣ـ٣١٤ / ٤٠، كتاب المعيشة، باب النوادر؛ التهذيب ٧: ٢٢٦ / ٩٨٩ ـ ٩؛ الوسائل ١٧: ٨٩ / ٢٢٠٥٣ ـ ٤.

(٢) الكافي ٥: ٣١٣ / ٣٩؛ التهذيب ٧: ٢٢٦ / ٩٨٨ ـ ٨. وكلاهما في المرآة ١٩: ٤٣١ ـ ٤٣٢ / ٣٩ و ٤٠؛ البحار ٢: ٢٧٣ / ١٢ و: ٢٨٢ / ٥٨.

(٣) الكافي ٦: ٣٣٩ / ١؛ الوسائل ٢٥: ١١٧ ـ ١١٨، باب ٦١ ـ ١. (الأطعمة والأشربة).

(٤) الكافي ٦: ٣٣٩ / ٢.

(٥) الأمالي للطوسي: ٦٦٩ / ١٤٠٥ ـ ١٢، المجلس ٣٦؛ ترتيب الأمالي ١: ٢٠٤ / ١٦٧ ـ ٢، باب ١٩ و ٦: ٤٩٧ / ٣٢٩٤ ـ ١٠، باب ٢٤؛ جامع أحاديث الشيعة ١: ٣٩٣ / ٦٤٢ ـ ١٦.

(٦) عوالي اللئالي ٣: ٤٦٥ / ١٦.

(٧) البحار ٢: ٢٧٢ / ٣.

[٢/٨٩٠] قال الصدوق بشأن جواز الدعاء بالفارسيّة في القنوت: ذكر شيخنا محمّدبن الحسن بن الوليد رحمه الله عن سعدبن عبدالله أنّه كان يقول: لايجوز الدعاء بالفارسيّة. وكان محمّدبن الحسن الصفّار يقول: إنّه يجوز. والّذي أقول به: أنّه يجوز. لقول أبي جعفر الثاني عليه السلام:

«لابأس أن يتكلّم الرجل في صلاة الفريضة بكلّ شيء يناجي به ربّه ـ عزّ وجلّ ـ».

قال الصدوق: ولو لم يرد هذا الخبر أيضاً لكنت أجيزه بالخبر الّذي روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «كلّ شيء مطلق حتّى يرد فيه نهي». والنهي عن الدعاء بالفارسيّة في الصلاة غير موجود، والحمد لله[1].

قال التقيّ المجلسي ـ في الشرح ـ: حَكَم الصدوق بصحّة هذا الحديث[2] لأنّه استند إليه في فتواه بالجواز.

سواء الشبهة الحكميّة أم الموضوعيّة

سبق أن نبّهنا أنّ موارد الشبهة ـ أيضاً ـ ملحقة بعموم العامّ، حيث كان المخصّص منفصلاً. وهذا من غير فرق بين شبهة حكميّة (كان الشكّ من أجل فقدان النصّ أو إبهامه أو ما شاكل) أو شبهة موضوعيّة (كان الشكّ من أجل اشتباه أمور خارجيّة). ذلك لإطلاق النصوص وربما عمومها.

وقد عرفت استناد الصدوق ـ عليه الرحمة ـ لجواز القنوت بالفارسيّة، بعموم النصّ الوارد في قول الصادق عليه السلام: «كلّ شيء مطلق حتّى يرد فيه نهي». وفي سائر روايات الباب شواهد على هذا العموم كما في الحديث الأوّل والثاني من روايات الكافي الشريف. حيث قوله عليه السلام: «كلّ شيء هو لك حلال حتّى تعرف أنّه حرام بعينه» عام وفيه إطلاق يشمل الحكم والموضوع جميعاً. وقوله: «كلّ شيء فيه حلال و حرام فهو حلال» ناصّ في الشبهات الموضوعيّة. فلا مجال للترديد في الشمول.

وهكذا صرّح الأقطاب من علماء الأصول. أن لافرق بين شبهة حكميّة أو موضوعيّة في التمسّك بحديث الرفع[3] وما شاكله من أحاديث الباب.

---

(١) من لايحضره الفقيه ١: ٣١٦ـ٣١٧ / ٩٣٦ و ٩٣٧؛ البحار ٢: ٢٧٤ / ٢٠.

(٢) روضة المتّقين ٢: ٣٤٩.

(٣) روى الصدوق في الخصال: (٤١٧ / ٩) بالإسناد إلى أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رفع عن أمّتي ←

قاعدة «قبح العقاب بلا بيان»

وهكذا يُتمسّك للحكم بجواز ما لم يُعلم التكليف به ـ سواء الوجوب أو التحريم ـ بقاعدة «قبح العقاب بلا بيان». وهي قاعدة عقلانيّة ومتأيّدة بدليل الكتاب والسّنّة. فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]. وبعث الرسول كناية عن إبلاغ التكليف.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَـتَّقُونَ﴾[2]. قـوله: «ليـضلّ» أي ليخذلهم بترك العناية بهم وإذلالهم بالعقاب.

وهذا يدلّ أن لا مؤاخذة على تكليف لم يبلغه، إذا لم يكن للمكلّف تقصير في ذلك.

ومن السّنّة، أشهرها حديث الرفع[3] المأثور عن رسول الله ﷺ فيما رواه الفريقان مستفيضاً، قال: «رفع عن أمّتي تسع... وعدّ منها: مالايعلمون». الشامل بعمومه كلاًّ من الجاهل بالحكم أو الموضوع.

والرفع هنا رفع للمؤاخذة على ترك تكليف كان يجهله ـ لا عن تقصير ـ كما مرّ في دلالة الكتاب.

(ملحوظة): وممّا يجدر التنبّه له أن لا صلة بين هذه القاعدة (قاعدة قبح العقاب بلا بيان) وأصل الإباحة الذاتيّة المتقدّمة. حيث هذه القاعدة بيان لحكم ظاهري بحت وموضوعه الجهل بالواقع. وهذا نظير الأحكام الثانويّة، حيث نظراً للموضوعات بعناوين طارئة مثل الحرج والضرر والاضطرار ـ وهنا الجهل ـ. على خلاف أصالة الإباحة الذاتيّة الّتي جعلت الأشياء بعناوينها الذاتيّة مورداً للحكم بالإباحة. نعم حيث يسرى هذا الحكم إلى موارد الشبهة، حسبما نبّهنا، فعند ذلك تتساوقان. فتدبّر جيّداً.

← تسعة: الخطأ والنسيان وما أُكرهوا عليه وما لايعلمون ومالايطيقون وما اضطرّوا إليه والحسد والطيرة والتفكّر في الوسوسة في الخلق مالم ينطق بشفةٍ».

(١) الإسراء ١٧: ١٥.

(٢) التوبة ٩: ١١٥.

(٣) الخصال: ٤١٧ / ٩.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾

[٨٩١/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي العالية في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال: ارتفع[١].

[٨٩٢/٢] وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ قال: يعني صَعَد أمره إلى السماء[٢].

[٨٩٣/٢] وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾: ثمّ استوى أمرُه وصُنْعُه إلى السّماء، لأنّ أوامره وقضاياه تنزل من السّماء إلى الأرض[٣].

[٨٩٤/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى الإمام العسكري عن آبائه «عن عليّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ قال: أخذ في خلقها وإتقانها»[٤].

[٨٩٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾: فبدأ بخلقهنّ وخلق الأرض[٥].

[٨٩٦/٢] وقال ابن كيسان والفرّاء وجماعة من النحويين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾: أي: أقبل على خلق السماء[٦].

---

(١) الدرّ ١: ١٠٧؛ الطبري ١: ٢٧٦ / ٤٩١، نقلاً عن الربيع بن أنس. قال ابن جرير: وأولى المعاني بقول الله جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ علا عليهن وارتفع؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٥ / ٣٠٨. وزاد: «وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله»؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٧٢؛ القرطبي ١: ٢٥٥؛ البغوي ١: ١٠١، بلفظ: قال ابن عبّاس وأكثر مفسّري السلف: أي ارتفع إلى السماء؛ البخاري ٨: ١٧٥، كتاب التوحيد، باب ٢٢.

(٢) الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٧١؛ القرطبي ١: ٢٥٤، بلفظ: «صعد». وزاد: «وأما ما حكي عن ابن عبّاس فإنّما أخذه عن تفسير الكلبيّ. والكلبيّ ضعيف».

(٣) التبيان ١: ١٢٥؛ أبو الفتوح ١: ١٩٠؛ مجمع البيان ١: ١٤٣، عن ابن عبّاس.

(٤) عيون الأخبار ٢: ١٥ ـ ١٦ / ٢٩، باب ٣٠ (فيما جاء من الرضا ﷺ من الأخبار المنثورة). الرواية مطوّلة؛ البحار ٣: ٤٠ ـ ٤١ / ١٤؛ تفسير الإمام: ٢١٥ / ٩٩.

(٥) تفسير مقاتل ١: ٩٦.

(٦) البغوي ١: ١٠١؛ التبيان ١: ١٢٤، بلفظ: ما قاله الفرّاء: من أنّ معناه أقبل عليها؛ معاني القرآن للفرّاء ١: ٢٥، وفيه: استوى عَلَيّ وإليّ، عَلىٰ معنى أقبل؛ القرطبي ١: ٢٥٥، بلفظ: «قال سفيان بن عيينة وابن كيسان في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾: قصد إليها، أي بخلقه واختراعه».

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾

[٨٩٧/٢] أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ قال: يعني خلق سبع سماوات. قال: أجرى النار على الماء، فبخّر البحر، فصعد في الهواء، فجعل السماوات منه[1].

[٨٩٨/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ يعني فخلقهنّ ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ فهذا أعظم من خلق الإنسان وذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الخلق ﴿عَلِيمٌ﴾ بالبعث وغيره[2].

[٨٩٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ قال: سوّى خلقهنّ[3].

[٩٠٠/٢] وأخرج عبدالرزّاق وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قال: بعضهنّ فوق بعض، بين كلّ سماءين مسيرة خمسمائة عام[4].

في خلق السماوات والأرضين

[٩٠١/٢] أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق السدّي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ قال: إنّ الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء. فلمّا أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسَما عليه فسمّاه سماء، ثمّ أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثمّ فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين: في الأحد والاثنين، فخلق الأرض على حوت وهو الّذي ذكره في قوله: ﴿ن، والقلم﴾. والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر مَلَك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة الّتي ذكرها

---

(١) الدرّ ١: ١٠٧؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) تفسير مقاتل ١: ٩٦.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٧٥ / ٣١٠؛ الطبري ١: ٢٧٧ / ٤٩٢؛ الدرّ ١: ١٠٧.

(٤) الدرّ ١: ١١٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٤ / ٣٢؛ الطبري ١: ٢٨١ / ٤٩٦.

لقمان[١]، ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرّك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرّت، فالجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله: ﴿وَ أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[٢] وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها، وشجرها، وما ينبغي لها في يومين: في الثلاثاء والأربعاء، وذلك قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ إلى قوله ﴿وَ بَارَكَ فِيهَا﴾[٣] يقول: أنبت شجرها ﴿وَ قَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾، يقول: لأهلها ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يقول: من سأل، فهكذا الأمر. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَ هِيَ دُخَانٌ﴾[٤] وكان ذلك الدخان من تنفّس الماء حين تنفّس، ثمّ جعلها سماءً واحدةً، ثمّ فتقها فجعلها سبع سماوات في يومين: في الخميس والجمعة، وإنّما سمّي يوم الجمعة، لأنّه جُمع فيه خلق السماوات والأرض ﴿وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[٥] قال: خلق في كلّ سماء خلقها، من الملائكة، والخلق الّذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم. ثمّ زيّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً من الشياطين فلمّا فرغ من خلق ما أحبّ استوى على العرش[٦].

[٩٠٢/٢] وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الردّ على الجهميّة عن عبدالله بن عمرو قال: لمّا أراد الله أن يخلق الأشياء إذ كان عرشه على الماء، وإذ لا أرض ولا سماء، خلق الريح فسلّطها على الماء حتّى اضطربت أمواجه وأثار ركامَه، فأخرج من الماء دخاناً وطيناً وزبداً، فأمر الدّخان فَعَلا وسما ونما، فخلق منه السماوات، وخلق من الطين الأرضين، وخلق من الزبد الجبال[٧].

[٩٠٣/٢] وأخرج أحمد والبخاري في التاريخ ومسلم والنسائي وابن المنذر وأبو الشيخ في

---

(١) لقمان ٣١: ١٦.
(٢) النحل ١٦: ١٥.
(٣) فصّلت ٤١: ٩ ـ ١٠.
(٤) فصّلت ٤١: ١١.
(٥) فصّلت ٤١: ١٢.
(٦) الدرّ ١: ١٠٦ ـ ١٠٧؛ الطبري ١: ٢٧٩ / ٤٩٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٤ ـ ٧٥ / ٣٠٦، إلى قوله: «فهكذا الأمر» نقله عن السدّي؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٣٦ ـ ٥٣٧؛ القرطبي ١: ٢٥٦ ـ ٢٥٧، وزاد في آخره: قال: فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ويقول: ﴿كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؛ ابن كثير ١: ٧١.
(٧) الدرّ ١: ١٠٧؛ الردّ على الجهميّة: ١٢ / ٩ (ط ١٩٦٠ ليدن).

العظمة وابن مردويه والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة قال: أخذ النبي ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدوابّ يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».[1]

[٢/ ٩٠٤] وعن عبدالله بن سلام أنّه قال: إنّ الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السماوات في الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك الساعة الّتي تقوم فيها الساعة[2].

[٢/ ٩٠٥] وأخرج ابن جرير عن محمّد بن إسحاق قال: كان أوّل ما خلق الله تبارك وتعالى: النور والظلمة، ثمّ ميّز بينهما فجعل الظلمة ليلاً أسود مُظلِماً، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً، ثمّ سمك السماوات السبع من دخان ـ يقال والله أعلم: من دخان الماء ـ حتّى استقللن ولم يحبكهنّ[3]، وقد أغطش في السماء الدنيا ليلها وأخرج ضحاها، فجرى فيها الليل والنهار، وليس فيها شمس ولا قمر ولا نجوم، ثمّ دحى الأرض وأرساها بالجبال، وقدّر فيها الأقوات، وبثّ فيها ما أراد من الخلق، ففرغ من الأرض وما قدّر فيها من أقواتها في أربعة أيّام. ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان كما قال. فحبكهنّ، وجعل في السماء الدنيا شمسها وقمرها ونجومها، وأوحى في كلّ سماء أمرها، فأكمل خلقهنّ في يومين. ففرغ من خلق السماوات والأرض في ستّة أيام، ثمّ استوى في اليوم السابع فوق سماواته، ثمّ قال للسماوات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[4] لما أردت بكما، فاطمئنا عليه طوعاً

---

(١) الأسماء والصفات، الجزء الأوّل: ٥٢؛ الدرّ ١: ١٠٧؛ مسند أحمد ٢: ٣٢٧؛ التاريخ الكبير ١: ٤١٣ / ١٣١٧، إلى قوله: «يوم السبت»؛ مسلم ٨: ١٢٧، كتاب صفة القيامة، باب ابتداء الخلق وخلق آدم ﷺ؛ النسائي ٦: ٢٩٣ / ١١٠١٠، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ العظمة ٤: ١٣٦٠ ـ ١٣٦١ / ٨٧٦، باب ٢٨ (صفة ابتداء الخلق)؛ البيهقي ٩: ٣، كتاب السير، باب مبتدأ الخلق؛ كنز العمّال ٦: ١٢٧ / ١٥١٢٥.

(٢) الطبري ١: ٢٨١ / ٤٩٨؛ ابن كثير ١: ٧١؛ تاريخ الطبري ١: ٣٢.

(٣) يقال: استقلّ الطائر في طيرانه: ارتفع. والحبك: الشدّ. يقال: حبكه أي شدّه ووثّقه.

(٤) فصّلت ٤١: ١١.

أو كرهاً، قَالتَا: أتَيْنا طائِعينَ(١).

[٩٠٦/٢] وروى وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عبّاس قال: إنّ اوّل ما خلق الله ـ عزّ وجلّ ـ من شيء «القلم» فقال له: اكتب، فقال: يا ربّ وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة. قال: ثمّ خلق «النون» فدحى الأرض عليها فارتفع بخار الماء ففتق منه السماوات، واضطرب النون فمادّت الأرض فأُثبتت بالجبال فإنّ الجبال تفخر على الأرض إلى يوم القيامة(٢).

[٩٠٧/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: حيث ذكر خلق الأرض قبل السماء ثمّ ذكر السماء قبل الأرض، وذلك أنّ الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثمّ استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات ثمّ دحى الأرض بعد ذلك فذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾(٣).

[٩٠٨/٢] وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ...﴾: يظهر من هذه الآية أنّه سبحانه خلق الأرض قبل السّماء... وهذا قول قتادة: إنّ السّماء خُلقت أوّلاً. حكاه عنه الطبري(٤).

[٩٠٩/٢] وقد روى أبو الضحى ـ وإسمه مسلم ـ عن ابن عبّاس أنّه قال: الله الّذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنّ. قال: سبع أرضين في كلّ أرض نبيّ كنبيّكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقي: إسناد هذا عن ابن عبّاس صحيح، وهو شاذّ بمرّة لاأعلم لأبي الضحى عليه دليلاً(٥).

[٩١٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن حبّة العرني قال: سمعت عليّاً عليه السلام ذات يوم يحلف: «والّذي

---

(١) الطبري ١: ٢٧٩ / ٤٩٢.

(٢) القرطبي ١: ٢٥٧؛ الحاكم ٢: ٤٩٨، باختلاف، كتاب التفسير، سورة القلم؛ البيهقي ٩: ٣، كتاب السير، باب مبتدأ الخلق.

(٣) الطبري ١: ٢٨١ / ٤٩٧؛ و ١٥: ٥٧ / ٢٨١٢٢، في تفسير سورة النازعات، الآية ٣٠؛ ابن كثير ١: ٧١، بلفظ: وقيل: إنّ الدحى كان بعد خلق السماوات والأرض ـ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس.

(٤) القرطبي ١: ٢٥٥؛ ابن كثير ١: ٧٢.

(٥) القرطبي ١: ٢٦٠؛ الحاكم ٢: ٤٩٣، كتاب التفسير، سورة الطلاق؛ ابن كثير ٤: ٤١١، سورة الطلاق، الآية ١٢.

خلق السماء من دخان وماء!»[١].

[٩١١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كتب ابن عبّاس إلى أبي الجلد يسأله عن السماء من أيّ شيء هي؟ فكتب إليه: إنّ السماء من موج مكفوف[٢].

قلت: وحاشا ابن عبّاس أن يسأل كتابيّاً لاعلم له، وقد تكلّمنا عن ذلك في ترجمته من كتابنا التفسير والمفسّرون[٣].

[٩١٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عبّاس قال: «قال رجل: يا رسول الله ما هذه السماء؟ قال: هذه موج مكفوف»[٤].

[٩١٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن كعب قال: السماء أشدّ بياضا من اللبن[٥].

[٩١٤/٢] وأخرج عبدالرزّاق وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري قال: تحت الأرضين صخرة، بلغنا أنّ خضرة السماء من تلك الصخرة[٦].

[٩١٥/٢] وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داوود والترمذي وحسّنه وابن ماجة وعثمان بن سعيد الدارمي في الردّ على الجهميّة وابن أبي الدنيا في كتاب المطر وابن أبي عاصم في السنة وأبو يعلى وابن خزيمة في التوحيد وابن أبي حاتم وأبو أحمد الحاكم في الكنى والطبراني في الكبير وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصحّحه واللالكائي في السنة والبيهقي في الأسماء والصفات عن العبّاس بن عبد المطّلب قال: «كنّا عند النبي ﷺ فقال: هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم! قال: بينهما مسيرة خمسمائة عام، ومن مسيرة سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، وكثف كلّ سماء خمسمائة سنة. وفوق السماء السابعة بحر، بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك ثمانية أوعال[٧]، بين وَرَكهنّ وأظلافهنّ كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق

(١) الدرّ ١: ١١٠؛ كنزالعمّال ٦: ١٧٠ / ١٥٢٣٥.

(٢) الدرّ ١: ١١٠. وأبو الجلد هذا هو: جيلان بن فروة الأزدي. كان صاحب كُتُب وكان جمّاعة لأخبار الملاحم (التصحيف للعسكري: ٤٠٩).

(٣) التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب ١: ٢٥٢ ـ ٢٥٧.

(٤) الدرّ ١: ١٠٩؛ العظمة ٣: ١٠٢٣ ـ ١٠٢٤ / ٥٣٩.

(٥) الدرّ ١: ١١٠؛ العظمة ٣: ١٠٢٧ / ٥٤٣.

(٦) الدرّ ١: ١١٠؛ عبدالرزّاق ٣: ٢٣ / ٢٢٩١، سورة لقمان.

(٧) أوعال جمع وَعْل: تيس الجبل.

ذلك العرشُ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله سبحانه وتعالى علمُه فوق ذلك، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء»[١].

[٩١٦/٢] وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده والبزّار وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وغِلَظ كلّ سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء إلى التي تليها مسيرة عام، كذلك إلى السماء السابعة. والأرضون مثل ذلك، ومابين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك، ولو حفرتم لصاحبكم ثمّ دلّيتموه لوجد الله ثمّة» يعني علمه[٢].

[٩١٧/٢] وأخرج الترمذي وأبوالشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: «كنّا جلوساً مع رسول الله ﷺ فمرّت سحابة فقال: أتدرون ما هذه؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: هذه العُبابة[٣]، هذه روايا الأرض[٤] يسوقها الله إلى بلد لا يعبدونه ولايشكرونه.

---

(١) الدرّ ١: ١٠٧؛ مسند أحمد ١: ٢٠٦ـ٢٠٧؛ أبو داوود ٢: ٤١٨ / ٤٧٢٣، كتاب السنّة، باب ١٩ (في الجهميّة)؛ الترمذي ٥: ٩٦ـ٩٧ / ٣٣٧٦، سورة الحاقّة؛ ابن ماجة ١: ٦٩ / ١٩٣، باب ١٣؛ الردّ على الجهميّة: ١٩؛ كتاب المطر، لابن أبي الدنيا: ٥٠ / ٢؛ أبو يعلى ١٢: ٧٥ـ٧٦ / ٦٧١٣؛ التوحيد لابن خزيمة: ١٠٢، (دار الشرق للطباعة ـ القاهرة ط: ١٣٨٨ هـ)؛ العظمة ٣: ١٠٥٠ـ١٠٥١ / ٥٦٨، باب ٢٠ (صفة السماوات)؛ الحاكم في المستدرك ٢: ٣٧٨، كتاب التفسير، سورة طه؛ كتاب السنّة: ٢٥٣ / ٥٧٧، باب ١٢٣؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٦٠؛ ابن كثير ٤: ٧٨، سورة غافر، الآية ٧؛ كنزالعمّال ٦: ١٤٥ / ١٥١٨٥.

(٢) الدرّ ١: ١٠٨؛ مختصر زوائد مسند البزّار ٢: ٢٦١ / ١٨٣١، باب بدء الخلق، بلفظ: عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ «كثف الأرض مسيرة خمسمائة عام، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام، وكثفها مثل ذلك، وكثف الثانية مثل ذلك وما بين كلّ الأرضين مثل ذلك ـ إلى أن قال ـ ثمّ ما بين السماء السابعة إلى العرش مثل ذلك كلّه»؛ العظمة ٢: ٥٥٧ـ٥٥٨ / ١٩٩، باب ٩ (ذكر عرش الربّ تبارك وتعالى و...)؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٦٢، باب بدء الخلق، بلفظ:...عن أبي ذرّ قال رسول الله ﷺ: «ما بين الأرض إلى السماء مسيرة خمسمائة سنة وغلظ السماء الدنيا مسيرة خمسمائة سنة ومابين كلّ سماء إلى السماء الّتي تليها مسيرة خمسمائة سنة، وكلّ الأرضين مثل ذلك، وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك ولو حفرتم لصاحبكم ثمّ دلّيتموه لوجدتم الله عزّ وجلّ».

(٣) العُبابة ـ بعين مهملة ـ: ما يُعَبُّ به الماء. يقال: عبّت الدلو بالماء إذا صوّتت عند غرف الماء.

(٤) الروايا جمع الراوية: الدابّة يستقى عليها.

هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإنّ فوق ذلك سماء. هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإنّ فوق ذلك موجاً مكفوفاً[١] وسقفاً محفوظاً. هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإنّ فوق ذلك سماء. هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإنّ فوق ذلك سماء أخرى. هل تدرون كم ما بينهما؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإنّ بينهما مسيرة خمسمائة عام ـ حتّى عدّ سبع سماوات ـ بين كلّ سماءين مسيرة خمسمائة عام، ثمّ قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإنّ فوق ذلك العرشَ. فهل تدرون كم بينهما؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: فإنّ بين ذلك كما بين السماءين، ثمّ قال: هل تدرون ما هذه؟ هذه أرض. هل تدرون ما تحتها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: أرض أخرى وبينهما مسيرة خمسمائة عام ـ حتّى عدّ سبع أرضين ـ بين كلّ أرضَين مسيرة خمسمائة عام»[٢].

[٩١٨/٢] وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي في الردّ على الجهميّة وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه واللالكائي والبيهقي عن ابن مسعود ـ واللفظ للدارمي ـ قال: ما بين السماء الدنيا والّتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وبين كلّ سماءين مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسيّ خمسمائة عام، وبين الكرسي إلى الماء خمسمائة عام. والعرش على الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه[٣].

[٩١٩/٢] وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس قال: تفكّروا في كلّ شيء ولاتفكّروا في ذات الله، فإنّ بين السماء السابعة إلى كرسيّه سبعة آلاف نور. وهو فوق ذلك[٤].

---

(١) يقال: كفّ الإناء: مَلأه ملأً مفرطاً.

(٢) الترمذي ٥: ٧٧ ـ ٧٨ / ٣٣٥٢، سورة الحديد؛ العظمة ٢: ٥٦٠ ـ ٥٦٢ / ٢٠١، باب ٩ (ذكر عرش الربّ تبارك وتعالى وكرسيّه و...)؛ الدرّ ١: ١٠٨ ـ ١٠٩؛ مجمع الزوائد ١: ٨٥ ـ ٨٦؛ القرطبي ١: ٢٥٩.

(٣) الردّ على الجهميّة: ١٢؛ كتاب التوحيد للدارمي: ١٠٥؛ الدرّ ١: ١٠٩؛ الكبير ٩: ٢٠٢، باختلاف؛ العظمة ٢: ٥٦٥ ـ ٥٦٦ / ٢٠٣، باب ٩ (ذكر عرش الربّ تبارك وتعالى وكرسيّه و...)؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٦٢ ـ ٥٦٣، باب ما جاء في العرش والكرسيّ؛ مجمع الزوائد ١: ٨٦، وفيه: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح»؛ القرطبي ٣: ٢٧٦.

(٤) الدرّ ١: ١١٠؛ العظمة ١: ٢١٢ / ٢، باب الأمر بالتفكّر في آيات الله عزّ وجلّ وقدرته و...؛ الأسماء والصفات، الجزء الثاني: ٤٢٠، باب ما ذكر في الذات. إلى قوله: «في ذات الله»؛ كنزالعمّال ٣: ١٠٦ / ٥٧٠٤.

في طبقات السماء

[٢/ ٩٢٠] أخرج البيهقي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنّه نظر إلى السماء فقال: تبارك الله ما أشدّ بياضها، والثانية أشدّ بياضاً منها، ثمّ كذلك حتّى بلغ سبع سماوات، ثمّ قال: خلق الله سبع سماوات وخلق فوق السابعة الماء، وجعل فوق الماء العرش، وجعل فوق السماء الدنيا الشمس، والقمر، والنجوم، والرجوم(١).

[٢/ ٩٢١] وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس قال: السماء الدنيا موج مكفوف، والثانية مرمرة بيضاء، والثالثة حديد، والرابعة نحاس، والخامسة فضّة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة حمراء، ومافوق ذلك صحارى من نور، ولايعلم ما فوق ذلك إلّا الله، وملك موكّل بالحجب يقال له: ميطاطروش(٢).

[٢/ ٩٢٢] وأخرج أبو الشيخ عن سلمان الفارسي قال: السماء الدنيا من زمردة خضراء واسمها رقيعاء، والثانية من فضّة بيضاء واسمها أزقلون، والثالثة من ياقوتة حمراء واسمها قيذوم، والرابعة من درّة بيضاء واسمها ماعونا، والخامسة من ذهبة حمراء واسمها ريقا، والسادسة من ياقوتة صفراء واسمها دقناء، والسابعة من نور واسمها عريبا(٣).

[٢/ ٩٢٣] وأخرج أبو الشيخ عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: «اسم السماء الدنيا رقيع، واسم السابعة الضراح»(٤).

[٢/ ٩٢٤] وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الردّ على الجهميّة وابن المنذر عن ابن عبّاس قال: سيّد السماوات السماء الّتي فيها العرش، وسيّد الأرضين الأرض الّتي نحن عليها، وسيّد

---

(١) الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٦٣، باب ما جاء في العرش والكرسيّ؛ الدرّ ١: ١٠٩.

(٢) الدرّ ١: ١٠٩؛ الأوسط ٦: ١٥ ـ ١٦ / ٥٦٦١، إلى قوله «ياقوتة»؛ العظمة ٣: ١٠٤٤ / ٥٦٢، باب ٢٠ (صفة السماوات)، بلفظ: عن الربيع بن أنس قال: السماء الدنيا موج مكفوف، والثانية صخرة، والثالثة حديد، والرابعة نحاس، والخامسة فضّة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة؛ أبو الفتوح ١: ١٩٤، باختصار؛ مجمع الزوائد ٨: ١٣١ ـ ١٣٢، إلى قوله «ياقوتة»؛ الطبري ١٤: ١٩٦ / ٢٦٦٤٧، إلى قوله «ياقوتة» سورة الطلاق، الآية ١٢.

(٣) الدرّ ١: ١٠٩؛ العظمة ٤: ١٣٨٧ ـ ١٣٨٩ / ٩٠٦، باب ٢٩ (صفة الأرضين وما فيهنّ من خلق الله...).

(٤) الدرّ ١: ١٠٩؛ العظمة ٣: ١٠٤٦ / ٥٦٤، كنز العمّال ٦: ١٧٠ / ١٥٢٣٦.

الشجر العوسج، ومنه عصا موسى[١].

[٩٢٥/٢] وقال الرمّاني: السماوات غير الأفلاك، لأنّ الأفلاك تتحرّك وتدور، وأمّا السماوات فلا تتحرّك ولا تدور، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾

[٩٢٦/٢] أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: العالِم الّذي قد كَمُل في علمه[٣].

[٩٢٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن سعيدبن جبير في قول الله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال: يعني من أعمالكم عليم[٤].

[٩٢٨/٢] وأخرج ابن الضريس عن ابن مسعود قال: إنّ أعدل آية في القرآن آخرها اسم من أسماء الله تعالى[٥].

كلام عن السماوات السبع والأرضين السبع

استوفينا الكلام عن السماوات السبع والأرضين السبع في كتابنا «شبهات وردود» (الجزء السابع من التمهيد) ننقله هنا حرفيّاً مع بعض التغيير:

سبع سماوات عُلا

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾ ـ إلى قوله: ـ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾[٦].

ظاهر التعبير أنّ السماوات السبع هي أجواء وأفضية متراكبة بعضُها فوق بعضٍ، لتكون الجميع محيطة بالأرض من كلّ الجوانب ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾[٧]. حيث الفوقيّة بالنسبة إلى جسم

(١) الردّ على الجهمية: ٢٤ وكذا في الدرّ ١: ١٠٩. إلى قوله: وسيّد الأرضين الأرض التي أنتم عليها.

(٢) التبيان ١: ١٢٥. وتنظّر فيه الشيخ وكذا الطبرسي: مجمع البيان ١: ١٤٤.

(٣) الطبري ١: ٢٨٢ / ٤٩٩.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ٧٥ / ٣١٢.

(٥) الدرّ ١: ١١٠.

(٦) الملك ٦٧: ٣ ـ ٥.

(٧) النبأ ٧٨: ١٢.

كريّ ـ هي الأرض ـ إنّما تعني الإحاطة بها من كلّ جانب.

وأيضاً فإنّ السماء الدنيا ـ وهو الفضاء الفسيح المحيط بالأرض ـ هي الّتي تزيّنت بزينة الكواكب ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾(١). والظاهر يقتضي التركيز فيها، وإن كان من المحتمل تجلّلها بما تُشِعّ عليها الكواكبُ من أنوار!

ويبدو أنّ هذا الفضاء الواسع الأرجاء ـ بما فيه من أنجم زاهرة وكواكب مضيئة لامعة ـ هي السماء الأُولى الدنيا، ومن ورائها أفضيةٌ ستٌّ في أبعادٍ مترامية، هي مليئة بالحياة لايعلم بها سوىٰ صانعها الحكيم. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾(٢).

والعقل لايفسح المجال لإنكار مالم يبلغه العلم، وهو في بدء مراحله الآخذة إلى الكمال.

نعم، يزداد العلم يقيناً ـ كلّما رصد ظاهرة كونيّة ـ أنّ ما بلغه ضئيل جدّاً بالنسبة إلى ما لم يبلغه، وتزداد ضآلةً كلّما تقدّم إلى الأمام. حيث عظمة فسحة الكون تزداد أُبّهةً وكبرياءً كلّما كُشف عن سرٍّ من أسرار الوجود وربما إلى غير نهاية، لاسيّما والكون في اتّساع مطّرد: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(٣).

هذا وقد حاول بعضهم ـ في تكلّفٍ ظاهر ـ التطبيق مع ما بلغه العلم قديماً وفي الجديد من غير ضرورة تدعو إلى ذلك. ولعلّ الأناة، حتّى يأتي يوم يساعد التوفيق على حلّ هذا المجهول من غير تكلّفٍ، كانت أفضل.

يقول سيّد قطب: لا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على مايصل إليه علمنا، لأنّ علمنا لايحيط بالكون حتّى نقول على وجه التحقيق: هذا ما يريده القرآن. ولن يصحّ أن نقول هكذا إلّا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كلّه علماً يقينيّاً، وهيهات...(٤).

وإليك بعض محاولات القوم: حاول بعض القدامىٰ تطبيق التعبير الوارد في القرآن على فرضيّة بطلميوس لهيئة الأفلاك الّتي هي مدارات الكواكب فيما حسبه حول الأرض(٥). ولكن من غير

(١) ق ٥٠: ٦.
(٢) الإسراء ١٧: ٨٥.
(٣) الذاريات ٥١: ٤٧.
(٤) في ظلال القرآن ٢٨: ١٥٢.
(٥) زعموا أنّ الأرض في مركز العالم، وأنّ القمر وعطارد والزهرة والشمس والمرّيخ والمشتري وزُحل سيّارات حولها، في مدارات هي أفلاك متراكبة بعضها فوق بعض بنفس الترتيب. وكلّ واحدٍ منها في فلكٍ دائر حول الأرض من الغرب إلى ←

جدوى. لأنّ الأفلاك في فرضيّته تسعة، ومن ثَمَّ أضافوا على السماوات السبع ـ الواردة في القرآن ـ العرش والكرسي ليكتمل التسع ويحصل التطابق بين القرآن وفرضيّةٍ أساسُها الحدسُ والتخمينُ المجرّد.

وأمّا المحدَثون فحاولوا التطبيق على النظرة الكوبرنيكيّة الحديثة، حيث الشمس هي نواة منظومتها والكرات دائرة حولها ومنها الأرض مع قمرها[1].

← الشرق في حركةٍ معاكسةٍ لحركتها اليومية من الشرق إلى الغرب على أثر تحريك الفلك التاسع، المسمّى عندهم بفلك الأفلاك أو بالفلك الأطلس، لعدم وجود نجم فيه. وأمّا النجوم الثوابت فهي مركوزة في الفلك الثامن. فهذه تسعة أفلاك محيطة بالأرض بعضها فوق بعض.

وهكذا جاء في إنجيل برنابا من كلام المسيح ﷺ: أنّ السماوات تسع، فيها السيّارات، وتبعد إحداها عن الأُخرى مسيرة خمسمائة عام.

ولمّا ترجمت فلسفة اليونان إلى العربية، ودرسها علماء الإسلام وثقوا بأنّ الأفلاك تسعة، وقال بعضهم: هي سبع سماوات، والكرسي فلك الثوابت، والعرش هو الفلك المحيط.

والغريب أنّ مثل محيي الدين ابن عربي اغترّ بهذه الغريبة وحسبها حقيقة وبنى عليها معارفه الإشراقية فيما زعم. (راجع: الفتوحات المكيّة ٣: ٤١٦ و ٤٣٣، الباب ٣٧١ والفصل الثالث منه، وكذا الفصّ الإدريسي من فصوص الحكم ١: ٧٥).

وهكذا شيخنا العلّامة بهاء الدين العاملي في كتابه تشريح الأفلاك، وهو عجيب!

ولقد أعجبني كلام أبي الحسن علي بن عيسى الرّمّاني المعتزلي في تفسير الآية، حيث أنكر إرادة الأفلاك البطلميوسيّة من السماوات السبع في القرآن، محتجّاً بأنّه تفسير يخالف ظاهر النصّ. راجع: التبيان ١: ١٢٧.

(١) جاءت النظريّة على الأساس التالي:

١ ـ الشمس: نواة المنظومة.

٢ ـ نجمة فلكان: بُعدها عن الشمس ١٣ مليون ميلاً، ودورها المحوري ١٨ ساعة، ودورها حول الشمس ٢٠ يوماً.

٣ ـ كوكب عطارد: بُعدها ٣٥ مليون ميلاً، دورها المحوري ٢٤ ساعة و ٥ دقائق، حول الشمس ٨٨ يوماً.

٤ ـ الزُهرة: بُعدها ٦٦ مليون ميلاً، دورها المحوري ٢٣ ساعة و ٢٢ دقيقة، حول الشمس ٢٢٥ يوماً.

٥ ـ الأرض: بُعدها ٩٣ مليون ميلاً، دورها المحوري ٢٤ ساعة، حول الشمس ٣٦٥ يوماً.

٦ ـ المرّيخ: بُعدها ١٤٠ مليون ميلاً، دورها المحوري ٢٤ ساعة و ٣٨ دقيقة، حول الشمس ٦٨٧ يوماً.

٧ ـ المشتري: بُعدها ٤٧٦ مليون ميلاً، دورها المحوري ١٠ ساعات، حول الشمس ١٢ سنة.

٨ ـ زُحل: بُعدها ٨٧٦ مليون ميلاً، دورها المحوري ١٠ ساعات و ١٥ دقيقة، حول الشمس ٢٩ سنة ونصفاً.

زعموا أنّ المراد بالسماوات السبع، هي الأجرام السماوية، الكرات الدائرة حول الشمس، تُرىٰ فوق الأرض في أفقها. فالسماوات ـ في تعبير القرآن على هذا الفرض ـ هي الأجرام العالقة في جوّ السماء. (وكان جديراً أن يقال ـ بدل السماوات ـ السماويّات).

يقول الشيخ الطنطاوي: هذا هو الّذي عرفه الإنسان اليوم من السماوات. فقايس بين ما ذكره علماء الإسكندريّة بالأمس، وبين ما عرفه الإنسان الآن. إنّ عظمة الله تجلّت في هذا الزمان. إذن فما جاء في إنجيل برنابا مبنيّاً على علم الإسكندرون أصبح لا قيمة له بالنسبة للكشف الحديث الّذي يوافق القرآن[1].

ويزداد تبجّحاً قائلاً: إذن دين الإسلام صار الكشف الحديث موافقاً له. وهذه معجزة جديدة جاءت في زماننا.

ثُمّ يورد أسئلةً وُجّهت إليه، منها: التعبير بالسبع. فيجيب: أنّ العدد غير حاصر، فسواء قلت سبعاً أو ألفاً فذلك كلّه صحيح. إذ كلّ ذلك من فعل الله دالّ على جماله وكماله.

وأخيراً يقول: إنّ ما قلناه ليس القصد منه أن يخضع القرآن للمباحث [العلميّة] فإنّه ربما يبطل المذهب الحديث كما بطل المذهب القديم، فالقرآن فوق الجميع. وإنّما التطبيق كان ليأنس المؤمنون بالعلم ولا ينفروا منه لظاهر مخالفته لألفاظ القرآن في نظرهم[2].

وللسيّد هبة الدين الشهرستاني ـ علّامة بغداد في عصره ـ محاولة أُخرىٰ للتطبيق، ففرض من كلّ كرة دائرة حول الشمس ومنها الأرض أرضاً والجوّ المحيط بها سماءً. فهناك أرضون سبع وسماوات سبع. الأُولى هي أرضنا وسماؤها الغلاف الهوائي المحيط بها. والأرض الثانية هي الزهرة وسماؤها الغلاف البخاري المحيط بها. والثالثة: عطارد وسماؤها المحيط بها. الرابعة: المرّيخ وسماؤها المحيط بها. الخامسة: المشتري وسماؤها المحيط بها. السادسة: زحل وسماؤها المحيط بها. السابعة: أورانوس وسماؤها المحيط بها.

← ٩ ـ أُورانوس: بُعدها ١٧٥٣ مليون ميلاً، دورها المحوري ١٠ ساعات، حول الشمس ٨٤ سنة وأُسبوعاً.

١٠ ـ نبتون: بُعدها ٢٧٤٦ مليون ميلاً، دورها المحوري مجهول، حول الشمس ١٦٤ سنة و ٢٨٥ يوماً.

راجع: الهيئة والإسلام للسيّد هبة الدين الشهرستاني: ٦١ ـ ٦٢.

(١) تفسير الجواهر ١: ٤٩، الطبعة الثانية.

(٢) المصدر: ٥٠ ـ ٥١ بتصرّف وتلخيص.

قال: ترتيبنا المختار تنطبق عليه مقالات الشريعة الإسلاميّة ويوافق الهيئة الكوبرنيكيّة.[١]

وأسند ذلك إلى حديث عن الإمام الرضا عليه السلام سنوافيك به عند الكلام عن الأرضين السبع.

وذكر الحجّة البلاغي أنّ السماوات السبع لايمتنع انطباقها على كلّ واحدة من الهيئتين القديمة والجديدة، فيمكن أن يقال على الهيئة القديمة: إنّ السماوات السبع هي أفلاك السيّارات السبع، وإنّ فلك الثوابت هو الكرسي في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[٢]. وإنّ الفلك الأطلس المدير ـ على ما زعموا ـ هو العرش في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[٣].

ويمكن أن يقال على الهيئة الجديدة: إنّ السماوات السبع هي أفلاك خمس من السيّارات مع فلكي «الأرض» و «فلكان» والعرش والكرسي هما فلكا «نبطون» و«أُورانوس». وأمّا الشمس فهي مركز الأفلاك. والقمر تابع للأرض وفلكه جزء من فلكها[٤].

قال: والحاصل أنّ كلاًّ من وضعي الهيئة القديمة والجديدة يمكن من حيث انطباق الحركات المحسوسة عليه. ولكنّه يمكن أن يتعدّاه التحقيق إلى وضعٍ ثالث ورابع، فلايحسن الجزم بشيءٍ ما لم يشاهد بالتفصيل أو بصراحة الوحي. لكنّ الحكمة تقتضي أن لايتولّى الوحي بصراحته بالتفصيل[٥].

وبعد، فالطريقة السليمة هي الّتي سلكها سيّدنا العلّامة الطباطبائي، يقول:

إنّ المستفاد من ظاهر الآيات الكريمة ـ وليست نصّاً ـ أنّ السماء الدنيا هي عالم النجوم والكواكب فوقنا. وأنّ السماوات السبع هي أجواء متطابقة أقربها منّا عالم النجوم. ولم يصف لنا القرآن شيئاً من الستّ الباقية سوىٰ أنّها طباق. وليس المراد بها الأجرام العلويّة سواء من منظومتنا الشمسيّة أو غيرها.

وما ورد من كون السماوات مأوى الملائكة يهبطون منها ويعرجون إليها ولها أبواب تفتّح لنزول البركات، كلّ ذلك يكشف عن أنّ لهذه الأُمور نوع تعلّق بها لا كتعلّقها بالجسمانيّات. فإنّ للملائكة عوالم ملكوتيّة مترتّبة سمّيت سماوات سبعاً، ونسب ما لها من الآثار إلى ظاهر هذه

---

(١) الهيئة والإسلام: ١٧٧ ـ ١٧٩.

(٢) البقرة ٢: ٢٥٥.

(٣) المؤمنون ٢٣: ٨٦.

(٤) الهدى إلى دين المصطفى للبلاغي ٢: ٧.

(٥) المصدر ٢: ٦.

السماوات بلحاظ ما لها من العلوّ والإحاطة والشمول، وهو تسامح في التعبير، تقريباً إلى الأذهان الساذجة[1].

ولبعض العلماء الباحثين في المسائل الروحيّة في إنجلترا ـ (هو: جيمس آرثر فندلاي من مواليد ١٨٨٣ م) ـ تصوير عن السماوات السبع يشبه تصويرنا بعض الشيء: يرىٰ من كرة الأرض واقعة في وسط أبهاء وأفضية تحيط بها من كلّ الجوانب، في شكل كراتٍ متخلّلةٍ بعضُها بعضاً ومتراكبة إلى سبعة أطباق، كلّ طبقة ذات سطحين أعلىٰ وأسفل ملؤ ما بينهما الحياة النابضة. يسمّى المجموع العالم الأكبر الّذي نعيش فيه، نحن في الوسط على وجه الأرض. وهذه الأجواء المتراكبة تحيط بنا طباقاً بعضها فوق بعض إلى سبع طبقات، وإن شئت فعبّر بسبع سماوات، لأنّها مبنيّة في جهةٍ أعلى فوق رؤوسنا. وإليك الصورة حسبما رسمها في كتابه «الكون المنشور»:

شكل الأرض في الوسط تحيط بها سبعة أطباق هي سماوات عُلىٰ:

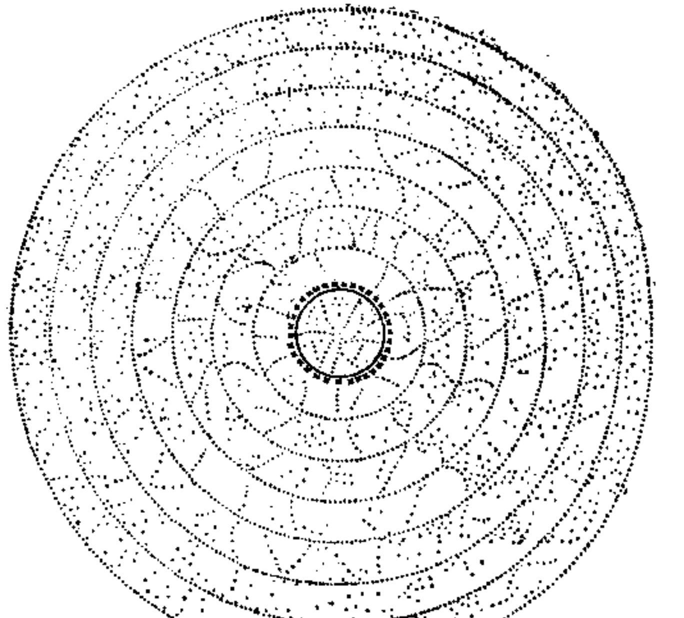

(١) الميزان ١٧: ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

في هذا الشكل ـ كما رسمه «جيمس آرثر فندلاي» ـ نجد العالم الأكبر في صورة أبهاء متراكبة بعضها فوق بعض مملوءة بالحياة، ويُرىٰ الحياة في حركتها إلى أعلىٰ وأسفل في شكل خطوطٍ منحنية على السطوح. وتمثّل الصلبان الصغيرة الحياة على الأرض. أمّا النقط فتمثّل الحياة الأثيرية ويلاحظ أنّها ليست مقصورة على السطوح وحدها، لأنّ الأفضية بين السطوح ملؤها الحياة سابحة فيها![(١)].

مسائل ودلائل

هنا عدّة أسئلة تستدعي الوقوف لديها:

١ ـ ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٢)].

وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٣)].

هلّا كان التعبير بالفَلَك متابعة لما حسبه بطلميوس؟

قلت: لا، لأنّ الفَلَك لفظة عربيّة قديمة يُراد بها الشيء المستدير، ومن الشيء مستداره. قال ابن فارس: الفاء واللام والكاف أصل صحيح[(٤)] يدلّ على استدارةٍ في شيء. من ذلك «فَلْكَةُ المِغْزَل» لاستدارتها. ولذلك قيل: فَلَكَ ثديُ المرأة، إذا استدار. ومن هذا القياس: فَلَكُ السماء[(٥)].

إذن، فكما أنّ السماء مستديرة حتّى في شكلها الظاهري، فكلّ ما يسبح في فضائها يسير في مسلك مستدير. وبذلك صحّت استعارة هذا اللفظ.

والدليل على أنّها استعارة هو استعمال اللفظة بشأن الليل والنهار أيضاً. أي أنّ لكلّ ظاهرة من الظواهر الكونيّة مجراها الخاصّ وفي نظام رتيب لا تجور ولا تحور.

---

(١) راجع: ملحق كتابه «على حافّة العالم الأثيري» ترجمة أحمد فهمي أبوالخير (ط ٣): ١٩٩.

(٢) الأنبياء ٢١: ٣٣. (٣) يس ٣٦: ٤٠.

(٤) مقصوده من الأصل: كونها ذات أصالة عربيّة وليست مستعارة من لغةٍ أجنبيّة.

(٥) معجم مقاييس اللغة ٤: ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

وقد سبق حديث الرمّاني: أنّ السماوات غير الأفلاك المفروضة عند القدماء[١].

٢ ـ ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾[٢].

أو هل كانت الطرائق هنا هي مدارات الأفلاك البطلميوسيّة؟

قلت: كلّا، إنّها الطرائق بمعنى مجاري الأُمور في التدبير والتقدير والّتي هي محلّها السماوات العُلىٰ.

الطرائق: جمع الطريقة بمعنى المذهب والمسلك الفكري والعقائدي وليس بمعنى سبيل الاستطراق على الأقدام. ولم تُستعمل في القرآن إلّا بهذا المعنى:

يقول تعالى ـ حكايةً عن لسان الجنّ ـ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾[٣]. أي مذاهب شتّىٰ.

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[٤]. أي بمذهبكم القويم الأفضل.

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾[٥]. وذاك يوم الحشر يتخافت المجرمون: كم لبثوا؟ فيقول بعضهم: عشراً. ويقول أعقلهم وأفضلهم بصيرة: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾.

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾[٦]. أي الطريقة المُثلىٰ والمذهب الحقّ.

فالمقصود بالطرائق ـ في الآية الكريمة ـ هي طرائق التدبير والتقدير، المتّخذة في السماوات حيث مستقرّ الملائك المدبّرات أمراً والمقسّمات[٧]. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾[٨] ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٩]. أي تقدير أرزاقكم وكلّما قُدّر لكم من مجاري الأُمور. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[١٠]. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[١١].

---

(١) راجع: التبيان ١: ١٢٥ والرمّاني هو أبوالحسن عليّ بن عيسى المعتزلي النحوي المشهور. توفّي: ٣٨٢.

(٢) المؤمنون ٢٣: ١٧.

(٣) الجنّ ٧٢: ١١.

(٤) طه ٢٠: ٦٣.

(٥) طه ٢٠: ١٠٤.

(٦) الجنّ ٧٢: ١٦.

(٧) النازعات ٧٩: ٥. والذاريات ٥١: ٤.

(٨) السجدة ٣٢: ٥.

(٩) الذاريات ٥١: ٢٢.

(١٠) يونس ١٠: ٣.

(١١) الحجر ١٥: ٢١.

فالتدبير في السماء ثمّ التنزيل إلى الأرض ﴿وَ مَا نَـتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْـرِ رَبِّكَ﴾[١]. ﴿تَـنَزَّلُ الْـمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[٢]. ومن ثمّ تعقّب الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾. قال العلاّمة الطباطبائي: أي لستم بمنقطعين عنّا ولابمعزلٍ عن مراقبتنا وتدبيرنا لشؤونكم، فـهذه الطرائق السبع إنّما جعلت ليستطرقها رسل ربّكم في التقدير والتدبير والتنزيل[٣].

٣ ـ ﴿وَ السَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾

ماذا يعني بذات الحُبُك؟

الحُبُك: جمع الحبيكة بمعنى الطريقة المتّخذة. قال الراغب: فمنهم من تصوّر مـنها الطـرائـق المحسوسة بالنجوم والمجرّات، ومنهم من اعتبر ذلك بما فـيه مـن الطـرائـق المـعقولة المـدركة بالبصيرة.

والحُبُك: المنعطفات على وجه الماء الصافي تحصل على أثر هبوب الرياح الخـفيفة. وهـي تكسّرات على وجه الماء كتجعّدات الشعر. ويقال للشعر المجعَّد: حُبُك والواحد حباك وحـبيكة. قاله الشيخ أبو جعفر الطوسي في التبيان.

من ذلك قول زهير يصف روضة:

مكـلّلٌ بـأُصول النَـجْمِ تَـنْسِجُهُ ريحٌ خريقٌ لضـاحي مـائه حُـبُكُ

مراده بالنجم، النبات الناعم. وشبّه تربية الرياح له بالنسج، كأنّه إكليل (تاج مزيّن بالجواهر) نسجته الريح. ووصف الريح بالخريق، وهو العاصف.

ثمّ وصف ضاحي مائه ـ وهو الصافي الزلال ـ بأنّ على وجهه قَسَمات وتعاريج على أثر مهبّ الرياح عليه، وهو منظر بهيج.

فعلى احتمال إرادة التعرّجات المتأرجحة من الآية، فهي إشارة إلى تلكم التعرّجات النـوريّة الّتي تجلّل كبد السماءَ زينةً لها وبهجةً للناظرين. فسبحان الصانع العظيم!

٤ ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[٤]

في هذه الآية توجّه الخطاب إلى عامّة الناس ولا سيّما الأُمم السالفة الجاهلة حيث لايعرفون

---

(١) مريم ١٩: ٦٤.
(٢) القدر ٩٧: ٤.
(٣) راجع: الميزان ١٥: ٢١.
(٤) نوح ٧١: ١٥.

من أطباق السماء شيئاً، فكيف يُعرض عليهم دليلاً على إتقان صنعه تعالى؟ (الآية في سورة نوح والخطاب عن لسانه موجّه إلى قومه).

وهكذا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[1].

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[2].

قلت: هذا بناء على تفسير الطباق بذات الطبقات.

هكذا فسّره المشهور: طباقاً، واحدة فوق أُخرى كالقباب بعضها فوق بعض[3].

لكنّ الطباق هو بمعنى الوفاق والتماثل في الصنع والإتقان، بدليل تفسيره بقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِن تَفَاوُتٍ﴾. أي كلّها في الصنع والاستحكام متشاكل.

وقد أشرب هنا معنى الالتحام والتلاصق التامّ بين أجزائها مراداً به الانسجام في الخلق. بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ أي انشقاق وخلل وعدم انسجام. وكذا قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي منفرجات وخَلَآت توجب فصل بعضها عن بعض بحيث تضادّ النظم القائم. الأمر الّذي يستطيع كلّ إنسان ـ مهما كان مبلغه من العلم ـ من الوقوف عليه إذا تأمّل في النظم الساطي على السماوات والأرض.

٥ ـ ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[4]

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[5]. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾[6]. أو هل تعني البروج هذه ما تصوّره الفلكيّون بشأن البروج الاثني عشر في أشكالٍ رسموها لرصد النجوم؟

قلت: المعنيّ بالبروج هذه هي نفس النجوم، تشبيها لها بالقصور الزاهية والحصون المنيعة الرفيعة، بدليل عطف السراج ـ وهي الشمس الوهّاجة ـ والقمر المنير عليها. ولاصلة لها بالأشكال

---

(١) ق ٥٠: ٦.
(٢) الملك ٦٧: ٣.
(٣) راجع: مجمع البيان ١٠: ٣٢٢ و ٣٦٣، ذيل الآية من سورة الملك والآية من سورة نوح؛ وروح المعاني للآلوسي، ٢٩: ٦ و ٧٥؛ وتفسير المراغي ٢٩: ٦ و ٨٥... وغيرها.
(٤) البروج ٨٥: ١.
(٥) الحجر ١٥: ١٦.
(٦) الفرقان ٢٥: ٦١.

الفلكيّة الاثني عشر.

البرج ـ في اللغة ـ بمعنى الحصن والقصر وكلّ بناءٍ رفيع على شكلٍ مستدير. فالنجوم باعتبار إنارتها تبدو مستديرة، وباعتبار تلألؤها تبدو كعُبابات تعوم على وجه السماء زينةً لها، وباعتبارها مراصد لحراسة السماء ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[١] هي حصون منيعة. فصحّ إطلاق البروج عليها من هذه الجوانب لا غيرها.

هذا، وقد خُلط على لفيفٍ من المفسّرين فحسبوها منازل الشمس والقمر حسب ترسيم الفلكيّين[٢].

وسيّدنا العلّامة الطباطبائي وإن كان في تفسيره لسورتي الحِجر والفرقان قد ذهب مذهب المشهور، لكنّه ﷺ عدل عنه عند تفسيره لسورة البروج. قال: البروج، جمع بُرج وهو الأمر الظاهر، ويغلب استعماله في القصر العالي والبناء المرتفع على سور البلد، وهو المراد في الآية. فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء. قال: وبذلك يظهر أنّ تفسير البروج [في الآيات الثلاث] بالبروج الاثني عشر المصطلح عليها في علم النجوم غير سديد[٣].

وقال الشيخ محمّد عبده: وفسّرت البروج بالنجوم وبالبروج الفلكيّة وبالقصور على التشبيه، ولاريب في أنّ النجوم أبنية فخيمة عظيمة، فيصحّ إطلاق البروج عليها تشبيهاً لها بما يبنى من الحصون والقصور في الأرض[٤].

٦ ـ ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾

يبدو من ظاهر تعبير آيات قرآنيّة أنّ النجوم جعلت شُهُباً يُرمىٰ بها الشياطين. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾[٥].

وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ

---

(١) الحجر ١٥: ١٧.

(٢) القمي ١: ٣٧٣؛ الميزان ١٢: ١٤٣ و ١٥٤؛ ابن كثير ٢: ٥٦٨؛ روح المعاني ١٤: ٢٠.

(٣) تفسير الميزان ٢٠: ٢٤٩.

(٤) تفسير جزء عمّ لمحمّد عبده: ٥٧.

(٥) الملك ٦٧: ٥.

الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾(٢).

وقال عزّ مِن قائل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾(٣).

غير خفيّ أنّ الشُهُبَ والنَيازِكَ إنّما تحدث في الغلاف الغازي (الهواء) المحيط بالأرض وقايةً لها، وقُدّر سمكه بأكثر من ثلاثمائة كيلومتر. وذلك على أثر سقوط أحجار هي أشلاء متناثرة في الفضاء المتبقّية من كواكب اندثرت تعوم عبر الفضاء. فإذا ما اقتربت من الأرض انجذبت إليها بسرعة هائلة مابين ٥٠ و ٦٠ كيلومتراً في الثانية، تخترق الهواء المحيط بالأرض، ولاحتكاكها الشديد بالهواء من جهة ولتأثير الغازات الهوائيّة من جهةٍ أُخرى تحترق وتلتهب شعلة نار لتتحوّل إلى ذرّات عالقة في الهواء مكوِّناً منها الغبار الكوني. وهي في حال انقضاضها ـ وهي تشتعل ناراً ـ تُرى بصورة نجمة وهّاجة ذات ذنب مستطيل تُدعى الشُهُب والنَيازِك.

فليست الشُهُب سوىٰ أحجار ملتهبة في الهواء المحيط بالأرض، قريبة منها! فما وجه فرضها نجوماً في السماء يُرجم بها الشياطين الصاعدة إلى الملأ الأعلىٰ؟!

لكن يجب أن نعلم قبل كلّ شيء أنّ التعابير القرآنيّة ـ وهي آخذة في الحديث عن كائنات ماوراء الطبيعة ـ ليس ينبغي الأخذ بظاهرها اللفظي، حيث الأفهام تقصر عن إدراك مايفوق مستواها المادّي المحدود، والألفاظ أيضاً تضيق عن الإدلاء بتلك المفاهيم الرقيقة البعيدة عن متناول الحسّ.

وبتعبير اصطلاحي: إنّ الأفهام وكذا الألفاظ محدودة في إطار المادّة الكثيفة، فلاتنال المجرّدات الرقيقة.

وعليه، فكلّ تعبير جاء بهذا الشأن إنّما هو مجاز واستعارة وتمثيل بلاريب.

فلاتحسب من الملأ الأعلىٰ عالَماً يُشبه عالمنا الأسفل، سوىٰ أنّه واقع في مكان فوق أجواء

---

(١) الصافّات ٣٧: ٧ ـ ١٠.
(٢) الجنّ ٧٢: ٨ و ٩.
(٣) الحجر ١٥: ١٦ ـ ١٨.

الفضاء، لأنّه تصوّر مادّي عن أمرٍ هو يفوق المادّة ومتجرّد عنه. وعليه، فقس كلّ ماجاء في أمثال هذه التعابير.

فلا تتصوّر من الشياطين أجساماً على مثال الأناسي والطيور، ولارجمها بمثل رمي النُشّاب إليها، ولامُرودها بمثل نفور الوحش، ولااسّماعها في محاولة الصعود إلى الملأ الأعلىٰ بـالسارق المتسلّق على الحيطان، ولاقذفها بمثل قذف القنابل والبندقيّات، ولاالحرس الّذين ملأوا السـماء بالجنود المتصاكّة في القلاع. ولا رصدها بالكمين لها على غرار ميادين القتال. إذ كلّ ذلك تشبيه وتمثيل وتقريب في التعبير لأمرٍ غير محسوس إلى الحسّ لغرض التفهيم، فهو تقريبٌ ذهني، أمّـا الحقيقة فالبون شاسع والشقّة واسعة والمسافة بينهما بعيدة غاية البُعد.

قال العلّامة الطباطبائي: إنّ هذه التعابير في كلامه تعالىٰ من قبيل الأمثال المضروبة، ليتصوّر بها الأمور الخارجة عن محدودة الحسّ في صوَر المحسوسات للتقريب إلى الأذهان. وهو القائل عزّوجلّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[١] أي لايتعقّلها ولايعرف مغزاها إلّا مَن عرف أنّها أمثال ظاهريّة ضُربت للتقريب محضاً.

قال: وأمثال هذه التعابير كثير في القرآن كالحديث عن العرش والكرسي واللـوح والكـتاب وغيرها.

قال: وعلىٰ هذا، فيكون المراد من السماء الّتي ملأتها الملائكة: عالماً ملكوتيّاً هو أعلا مرتبة من العالم المشهود، على مثال اعتلاء السماء الدنيا من الأرض. والمراد من اقتراب الشياطين إليها واستراق السمع والقذف بالشُهب: اقترابهم من عالم الملائكة لغرض الاطّلاع على أسرار الملكوت، وثَمَّ طردهم بما لايطيقون تحمّله من قذائف النور. أو محاولتهم لتلبيس الحقّ الظاهر، وثَمَّ دحرهم ليعودوا خائبين[٢]. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٣].

والآيات من سورة الجنّ لعلّها إشارة إلى هذا المعنىٰ، حيث هي ناظرة إلى بعثة نبيّ الإسـلام، وقد أيس الشيطان من أن يُعبد وعلا نفيرُه.

[٩٢٩/٢] قال الإمام أميرالمؤمنين ﷺ: «ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ

(١) العنكبوت ٢٩: ٤٣.
(٢) الميزان ١٧: ١٢٤ نقلاً مع تصرّفٍ يسير.
(٣) الأنبياء ٢١: ١٨.

فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرَّنَّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته»[١].

يقول تعالىٰ في سورة الجنّ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ -إلى قوله: ـ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾[٢]. فهي حكاية عن حال حاضرة وجدتها الجنُّ حينما بُعث نبيّ الإسلام.

وبهذا يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾[٤].

نعم، كانت تلك بغية إبليس أن يتلاعب بوحي السماء ولكن في خيبة آيسة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ (ظهورَ شريعته) ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٥]. أي حاول إبليس الحؤول دون بلوغ أمنيّة الأنبياء، فكان يندحر ويغلبُ الحقُّ الباطلَ وتفشل دسائسه في نهاية المطاف.

أمّا عند ظهور الإسلام فقد خاب هو وجنوده نهائيّاً وخسر هنالك المبطلون.

[٢ / ٩٣٠] قال الإمام الصادق عليه السلام: «فلمّا وُلد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حُجب (إبليس) عن السبع السماوات ورميت الشياطين بالنجوم...»[٦].

[٢ / ٩٣١] وفي حديث الرضا عن أبيه الكاظم عن أبيه الصادق عليهم السلام في جواب مساءلة اليهود: «أنّ الجنّ كانوا يسترقون السمع قبل مبعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فمنعت من أوان رسالته بالرجوم وانقضاض النجوم وبطلان [عمل] الكهنة والسحرة»[٧].

وهكذا حاول الشيخ الطنطاوي تأويل ظواهر التعابير الواردة في هذه الآيات إلى إرادة التمثيل، قال ـ ما ملخّصه ـ: إنّ العلوم الّتي عرفها الناس تُراد لأمرين: إمّا لمعرفة الحقائق لإكمال

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٥٧ ـ ١٥٨، الخطبة ١٩٢ (الخطبة القاصعة).

(٢) الجنّ ٧٢: ١ ـ ٩.

(٣) الحجر ١٥: ٩.

(٤) الفتح ٤٨: ٢٨.

(٥) الحجّ ٢٢: ٥٢.

(٦) الأمالي للصدوق: ٣٦٠ / ٤٤٤ ـ ١، المجلس ٤٨؛ البحار ١٥: ٢٥٧ / ٩.

(٧) البحار ١٧: ٢٢٦ / ١، عن قرب الإسناد للحميري: ٣١٨.

العقول، أو لنظام المعايش والصناعات لتربية الجسم. وإلى الأوّل أشار بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾[1]. وإلى الثاني قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[2]. وكلّ من خالف هاتين الطريقتين فهو على أحد حالين: إمّا أن يريد ابتزاز أموال الناس بالاستعلاء بلافائدة، وإمّا أن يريد الصيت والشهرة وكسب الجاه. وكلاهما لانفع في علمه ولافضل له. فمن طلب العلم أو أكثر في الذكر ليكون عالةً على الأُمّة فهو داخلٌ في نوع الشيطان الرجيم، مرجومٌ مُبْعَدٌ عن إدراك الحقائق ومعذّب بالذّل والهوان، وهذا مثال قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾ (فلا يعرفون حقائق الأشياء) ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا﴾ بما ركّب فيهم من الشهوات وما ابتلوا من العاهات ﴿وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي في أمل متواصل ملازم لهم مدى الحياة. فلو حاول أن يخطف خطفة من الحقائق حالت دون بلوغه لها الأميالُ الباطلة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[3].

نعم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾[4]. ولاشكّ أنّها كناية عن حرمانهم العناية الربّانيّة المفاضة من ملكوت أعلى. الأمر الّذي أُنعِمَ به الرّبانيّون في هذه الحياة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[5]. فملائكة الرحمة تهبط إليهم وهم في مواضعهم آمنون مستقرّون سائرون في طريقهم صُعُداً إلى قمّة الكمال.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[6]. أي آخذ في الصعود إلى سماء العزّ والشرف والكرامة. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[7]. فما هذا الصعود وهذا الرفع إلّا ترفيعاً في مدارج الكمال.

وهكذا جاء التعبير بفتح أبواب السماء كنايةً عن هطول المطر ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ

---

(١) الحجر ١٥: ١٦.
(٢) الأعراف ٧: ١٠. الحجر ١٥: ٢٠.
(٣) الصافّات ٣٧: ٦ ـ ١٠. راجع: تفسير الجواهر ٨: ١٣، و ١٨: ١٠.
(٤) الأعراف ٧: ٤٠.
(٥) فصّلت ٤١: ٣٠.
(٦) ابراهيم ١٤: ٢٤.
(٧) فاطر ٣٥: ١٠.

مُنْهَمِرٍ﴾[١]. وأمثال هذا التعبير في القرآن كثير[٢]. والجميع مجاز وليس على الحقيقة، سواء في المعنويّات أم الماديّات. فلو كان عيباً لعابه العرب أصحاب اللغة العرباء في الجزيرة، لا أرباب اللغة العجماء من وراء البحار. وأمّا النجوم الّتي يُرجم بها الشياطين (أبالسة الجنّ والإنس) فهم العلماء الربّانيّون المتلألئون في أُفق السماء، يقومون في وجه أهل الزيغ والباطل فيرجمونهم بقذائف الحجج الدامغة ودلائل البيّنات الباهرة، ويرمونهم من كلّ جانب دحوراً.

فسماء المعرفة ملئت حرساً شديداً وشُهباً.

[٩٣٢/٢] قال رسول الله ﷺ: «يحمل هذا الدين في كلّ قَرْنٍ عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين...»[٣].

وقد أُطلق النجوم على أئمة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ من آل بيت الرسول ﷺ.

[٩٣٣/٢] فقد روىٰ عليّ بن إبراهيم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٤] قال: النجوم آل محمّد ﷺ[٥].

[٩٣٤/٢] وفي حديث سلمان الفارسي ـ رضوان الله عليه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «معاشر الناس، إنّي راحل عنكم عن قريب ومنطلق إلى المغيب. أُوصيكم في عترتي خيراً وإيّاكم والبدع، فإنّ كلّ بدعةٍ ضلالة وكلّ ضلالة وأهلها في النار. معاشر الناس! من افتقد الشمس فليتمسّك بالقمر، ومن افتقد القمر فليتمسّك بالفرقدين، ومن افتقد الفرقدين فليتمسّك بالنجوم الزاهرة بعدي. أقول قولي واستغفر الله لي ولكم.

قال سلمان: فتبعته وقد دخل بيت عائشة وسألته عن تفسير كلامه فقال ـ ما ملخّصه ـ: أنا الشمس وعليٌّ القمر. والفرقدان الحسن والحسين. وأمّا النجوم الزاهرة فالأئمّة من ولد الحسين واحداً بعد واحد...»[٦].

---

(١) القمر ٥٤: ١١.

(٢) الأنعام ٦: ٤٤، الأعراف ٧: ٩٦، الحجر ١٥: ١٤، النبأ ٧٨: ١٩.

(٣) البحار ٢: ٩٣ / ٢٢، من كتاب العلم.

(٤) الأنعام ٦: ٩٧.

(٥) القميّ ١: ٢١١.

(٦) البحار ٣٦: ٢٨٩ عن كتاب كفاية الأثر للخزّاز الرازي، باب ما جاء عن سلمان في النصّ على الأئمّة الاثني عشر: ٢٩٣.

[٩٣٥/٢] «... كلّما غاب نجمٌ طلع نجم إلى يوم القيامة...» كما في حديث سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رحمة الله عليهما قاله في شأن أهل البيت ﷺ[١].

[٩٣٦/٢] وفي حديث أبي ذرّ ـ رضوان الله عليه ـ التعبير عنهم بالنجوم الهادية[٢] وأمثال ذلك كثير.

٧ـ ﴿وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[٣].

«يزجي»: يسوق. «يؤلّف بينه»: يؤلّف بين متفرّقه. «يجعله ركاماً»: متكاثفاً. «فترى الوَدْق»: قطرات المطر الآخذة في الهطول.

﴿وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾

السؤال هنا: ماذا يعني بالجبال هذه؟ وماذا يكون المقصود من البَرَد وهو الماء المتجمّد على أثر ضغط البَرْد؟ وكيف يكون هناك في السماء جبالٌ من بَرَد؟

وقد مرّ عليها أكثر المفسّرين القُدامى مرور الكرام، وبعضهم أخذها على ظاهرها وقال: إنّ في السّماء جبالاً من بَرَد (من ثلج) ينزل منها المطر، كما تنحدر المياه من جبال الأرض على أثر تراكم الثلوج عليها.

[٩٣٧/٢] عن الحسن والجُبّائي[٤] وعن مجاهد والكلبي وأكثر المفسّرين: أنّ المراد بالسّماء هي المُظلّة وبالجبال حقيقتها. قالوا: إنّ الله خلق في السّماء جبالاً من بَرَد كما خلق في الأرض جبالاً من صخر. قال الآلوسي: وليس في العقل ما ينفيه من قاطع. فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها كما قيل[٥].

---

(١) البحار ٤٠: ٢٠٣ / ٩، عن جامع الأخبار للصدوق: ١٥.

(٢) راجع: البحار ٢٨: ٢٧٥.

(٣) النور ٢٤: ٤٣.

(٤) مجمع البيان ٧: ٢٦٠.

(٥) روح المعاني ١٨: ١٧٢. وراجع: التفسير الكبير ٢٤: ١٤.

قال السيّد المرتضى: وجدتُ جميع المفسّرين على اختلاف عباراتهم يذهبون إلى أنّه تعالى أراد: أنّ في السّماء جبالاً من بَرَدٍ. وفيهم من قال: ما قَدْرُه قَدْرُ جبال. يعني مقدار جبال من كثرته.

قال: وأبو مسلم بن بحر الأصبهانيّ خاصّةً انفرد في هذا الموضع بتأويلٍ طريف، وهو أن قال: الجبال، ما جَبَل الله من بَرَد، وكلّ جسم شديد مستحجر فهو من الجبال، ألم تر إلى قوله تعالىٰ في خلق الأمم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾[1]. والناس يقولون: فلان مجبول على كذا.

وأورد عليه السيّد بأنّه يلزمه أن جعل الجبال اسماً للبَرَد نفسه، من حيث كان مجبولاً مستحجراً! وهذا غلط، لأنّ الجبال وإن كانت في الأصل مشتقّة من الجَبْل والجَمْع، فقد صارت اسماً لذي هيئةٍ مخصوصة. ولهذا لا يُسمّي أحدٌ من أهل اللغة كلَّ جسم ضُمَّ بعضُه إلى بعض ـ مع استحجار أو غير استحجار ـ بأنّه جبل، ولا يخصّون بهذا اللفظ إلّا أجساماً مخصوصة... كما أنّ اسم الدابّة وإن كان مشتقّاً في الأصل من الدبيب فقد صار اسماً لبعض ما دبّ، ولا يعمّ كلّ ما وقع منه الدبيب.

قال: والأولى أن يريد بلفظة السماء ـ هنا ـ ما علا من الغيم وارتفع فصار سماءً لنا، لأنّ سماء البيت وسماواته ما ارتفع منه. وأراد بالجبال التشبيه، لأنّ السحاب المتراكب المتراكم تُشبّهه العرب بالجِبال والجِمال، وهذا شائعٌ في كلامها. كأنّه تعالىٰ قال: ويُنزّل من السحاب الّذي يُشبه الجبال في تراكمه بَرَداً.

قال: وعلى هذا التفسير تكون «من» الأُولى والثانية لابتداء الغاية، والثالثة زائدةً لا حكم لها، ويكون تقدير الكلام: وينزّل من جبالٍ في السماء بَرَداً. فزادت «من» كما تزاد في قولهم: ما في الدار من أحد. وكم أعطيته من درهم، ومالك عندي من حقّ، وما أشبه ذلك.

وأضاف: إنّه قد ظهر مفعولٌ صحيحٌ لـ«ننزّل»، ولا مفعول لهذا الفعل على سائر التأويلات[2].

قلت: وهو تأويل وجيه لولا جانب زيادة «من» في الإيجاب.

قال ابن هشام: شرط زيادتها تقدّم نفي أو نهي أو استفهام ولم يشترطه الكوفيّون واستدلّوا بقول العرب: قد كان من مطر. وبقول عمربن أبي ربيعة:

---

(١) الشعراء ٢٦: ١٨٤.

(٢) الأمالي للسيّد المرتضى علم الهدى ٢: ٣٠٤ ـ ٣٠٦.

ويَـنمي لهـا حـبّها عـندنا   فما قال من كاشحٍ لم يَضِرّ

أي فما قاله كاشحٌ ـ وهو الّذي يُضمر العداوة ـ لم يضرّ.

قال: وقال الفارسي في قوله تعالى: ﴿وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾: يجوز كون «من» الثانية والثالثة زائدتين. فجوّز الزيادة في الإيجاب[1].

وقال الزمخشري: «من» الأُولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة للبيان. أو الأُوليان للابتداء والآخرة للتبعيض[2]. فالمعنى على الأوّل: وننزّل من السماء شيئاً من الجبال الكائنة من البَرَد. وعلى الثاني: وننزّل من السماء من جبالٍ فيها شيئاً من البَرَد. فقدّر المفعول بـه ولم يـجعل «من» زائدة.

والّذي ذكره الزمخشري أصحّ، لأنّ التقدير شائع في كلام العرب ولا سيّما مع معلوميّته كما هنا. قال ابن مالك: «وحذف ما يُعلم جائز». أمّا زيادة «من» في الإيجاب، فعلىٰ فرض ثبوته فهو أمـرٌ شاذٌ، ولا يجوز حمل القرآن عليه.

ومعنى الآية على ذلك: أنّه تعالى يُنَزِّلُ من السّماء ماءاً من جبالٍ فيها ـ هي السُحب الركاميّة، وهي النوع الأهمّ من السُحب، لأنّها قد تمتدّ عمودياً عبر ١٥ أو ٢٠ كيلومتراً، فتصل إلى طبقات من الجوّ باردةٍ جداً تنخفض فيها درجة الحرارة إلى ٦٠ أو ٧٠ درجة مئوية تحت الصفر. وبذلك يتكوّن البَرَد (خيوط ثلجيّة) في أعالي تلك السُحب ـ.

وقوله: «من بَرَد» بيان لتكوّن تلك السُحب الجباليّة (الركاميّة) ولو باعتبار قممها المتكوّن فيها الخيوط الثلجيّة (البَرَد).

والمعروف علميّاً أنّ نموّ البَرَد في أعالي السُحب الركاميّة يعطي انفصال شحنات أو طاقات كهربائيّة سالبة، وأنّه عند ما يتساقط داخل السحابة ويصل في قاعدتها إلى طبقات مرتفعة الحرارة فوق الصفر يذوب ذلك البَرَد أو يتميّع ويعطي انفصال شحنات كهربائيّة موجبة. وعندما لايـقوى الهواء على عزل الشحنة السالبة العليا عن الشحنة الموجبة في أسفل يحدث التـفريغ الكـهربائي على هيئة برق. وينجم عن التسخين الشديد المفاجئ الّذي يحدثه البرق أن يتمدّد الهـواء فـجأةً ويتمزّق مُحدثاً الرعد. وما جلجلة الرعد إلّا عمليّة طبيعيّة بسبب سلسلة الانعكاسات الّتي تحدث

---

(١) مغني اللبيب لابن هشام ١: ٣٢٥، حرف الميم.   (٢) الكشّاف ٣: ٢٤٦.

من قواعد السُحب لصوت الرعد الأصلي[١].

وبذلك يبدو وجه مناسبة التعقيب بقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ وكذا عند الحديث عن السحاب الثقال[٢]. فإنّ البرق وليد هكذا سحب ركاميّة ثقيلة (جبليّة).

قال سيّد قطب: إنّ يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكانٍ إلى مكان. ثمّ تؤلّف بينه وتجمعه، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض. فإذا ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قِطع البَرَد الثلجيّة الصغيرة... ومشهد السُحب كالجبال لايبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السُحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقّاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاظاتها. وإنّه لتعبير مصوّر للحقيقة الّتي لم يرها الناس إلّا بعد ما ركبوا الطائرات[٣]. بل ويمكن مشاهدتها في الصحاري الواسعة عن بُعد.

٨ـ ﴿وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[٤].

ما تعني المثليّة؟ هل هي في الصنع والإتقان؟ أم في العدد؟ وما هنّ على هذا الفرض؟

ولم تُذكر الأرض في القرآن إلّا مفردة سوى في هذا الموضع، حيث شبهة إرادة التعدّد إلى سبع أرضين، كما جاء في الحديث ودار على الألسن!

وفسّر التعدّد من وجوه:

١ ـ سبع قطاع من الأرض على وجهها من أقاليم أو قارّات.

٢ ـ سبع أطباق من الأرض في قشرتها المتركّبة من طبقات[٥].

٣ ـ الكواكب السبع السيّارة، كلّ كوكبة ـ ومنها أرضنا ـ أرض، والغلاف الهوائي المحيط بها سماء[٦].

---

(١) راجع ما سجّلناه بهذا الصدد في حقل الإعجاز العلمي للقرآن في التمهيد، المجلّد ٦.

(٢) الرعد ١٣: ١٢. والجمع في «ثقال» باعتبار كون «السحاب» اسم جنس يفيد الجمع، واحدتها سحابة.

(٣) في ظلال القرآن ١٨: ١٠٩ ـ ١١٠، المجلّد ٦.

(٤) الطلاق ٦٥: ١٢.

(٥) راجع: الميزان ١٩: ٣٢٦؛ تفسير نمونه ٢٤: ٢٦١.

(٦) راجع: تفسير الجواهر ١: ٤٩.

٤ ـ فوق كلّ سماء بعد أرضنا أرض وفوقها سماء. فهناك سبع أرضين بعضها فوق بعض لسبع سماوات[١].

تقاسيم الأرض

قسّم الأقدمون البلاد الآهلة من الربع المعمور في القطاع الشمالي إلى سبع مناطق جغرافيّة طولاً. وجاء المتأخّرون ليقسّموها تارةً على حسب المناخ الطبيعي إلى سبعة أقاليم: واحدة استوائية. واثنتان حارّتان حتّى درجة ٥ / ٢٣ عرضاً في جانبي خطّ الاستواء شمالاً وجنوباً. واثنتان اعتداليتان ما بعد خطّ الميل الأعظم فإلىٰ مداري الخطّ القطبي. والأخيرتان منطقتا القطبين الشمالي والجنوبي.

وأُخرى إلى قارات مألوفة. خمسة منها ظاهرة: آسيا، أُروبا، أفريقيا، أستراليا، أمريكا. واثنتان هما قطبا الشمال والجنوب في غطاء من الثلوج.

محتملات ثلاثة

قال الحجّة البلاغي: يُحتَمل في قوله تعالى: ﴿وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ وجوه ثلاثة:

الأوّل: أن يُراد مثلهنّ في الطبقات، باعتبار اختلاف طبقات الأرض في البدائع والآثار.

الثاني: أن يُراد مثلهنّ في عدد القطع والمواضع المعتدّ بها كآسيا وأُروبا وأفريقيا وأمريكا الشماليّة وأمريكا الجنوبيّة وأستراليا، وأرض لم تكشف بعد أو لاشتها الحوادث البحريّة وفتّتتها بالكلّيّة أو بقي منها بصورة جُزُر متفرّقة صغيرة. أو هي تحت القطب الجنوبي على ما يظنّ البعض.

الثالث: أن يُراد بالمماثل للسماوات هو غير أرضنا بل ما هو من نوعها، فيُراد منه ذات السيّارات على الهيئة الجديدة، أو ما هو مسكون من الكواكب ولم يظهر للاكتشاف[٢].

---

(١) راجع: الهيئة والإسلام: ١٧٩؛ الميزان ١٩: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٢) الهدى إلى دين المصطفى ٢: ٧ ـ ٨.

أرضون لاتُحصى

قال الشيخ الطنطاوي في تفسير الآية: أي وخلق مثلهنّ في العدد من الأرض. وهذا العدد ليس يقتضي الحصر، فإذا قلت: عندي جوادان تركب عليهما أنت وأخوك، فليس يمنع أن يكون عندك ألف جواد وجواد. هكذا هنا، فقد قال علماء الفلك: إنّ أقلّ عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشموس العظيمة الّتي نسمّيها نجوماً لايقلّ عن ثلاثمائة مليون أرض... هذا فيما يعرفه الناس. وهذا القول من هؤلاء ظنّيٌّ، فلم يدّع أحدٌ أنّه رأى وقطع بشيءٍ من ذلك، اللّهمّ إلّا علماء الأرواح، فإنّهم لمّا سألوها قالت: عندنا كواكب آهلة بالسكّان لايُحصى عددها، وفيها سكّان أنتم بالنسبة إليهم كالنمل بالنسبة للإنسان. وأيّد ذلك بما نقل عن «غاليلو» عند ما أُحضرت روحه بعد الممات(١).

وهكذا ذكر الشيخ المراغي وعقّبه بما روي عن ابن مسعود:

[٢/٩٣٨] أنّ النبيّ ﷺ قال: «ما السماوات السبع ومافيهنّ وما بينهنّ والأرضون السبع وما فيهنّ وما بينهنّ في الكرسي إلّا كحلقةٍ ملقاة بأرض فلاة»(٢).

وروى ابن كثير أحاديث تنمّ عن أرضين سبع آهلة بالسكّان، وقد بعث إليهم أنبياء كإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد ﷺ. زعموا صحّة أسانيدها(٣).

وهكذا رووا روايات هي أشبه بروايات إسرائيلية، وفيها الغثّ والسمين(٤).

[٢/٩٣٩] وفي حديث زينب العطّارة عن رسول الله ﷺ: «إنّ هذه الأرضين واقعة تحت الأرض الّتي نعيش عليها واحدة تحت أُخرى كلّ واحدة بالنسبة إلى الأُخرى الّتي تحتها كحلقةٍ ملقاة في فلاة قفر، حتّى تنتهي إلى السابعة، والجميع على ظهر ديك، له جناحان إلى المشرق والمغرب ورجلاه في التخوم! والديك على صخرة، والصخرة على ظهر حوت، والحوت على بحرٍ مظلم، والبحر على الهواء، والهواء على الثرى...»(٥).

[٢/٩٤٠] وفي حديث الحسين بن خالد عن الرضا ﷺ: «هذه أرض الدنيا، والسماء الدنيا فوقها

(١) تفسير الجواهر ٢٤: ١٩٥.
(٢) تفسير المراغي ٢٨: ١٥١.
(٣) ابن كثير ٤: ٤١١.
(٤) راجع: الدرّ ٨: ٢١٠ـ ٢١٢؛ الطبري ١٤: ١٩٥.
(٥) نورالثقلين ٥: ٣٦٤ـ ٣٦٥.

قبّة، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا، والسماء الثانية فوقها قبّة، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية، والسماء الثالثة فوقها قبّة... والأرض السابعة فوق السماء السادسة، والسماء السابعة فوقها قبّة، وعرش الرحمان فوق السماء السابعة... فالّتي تحتنا هي أرض واحدة هي الدنيا، وأنّ الستّ لَهُنَّ فوقنا»(١).

[٩٤١/٢] ورووا عن الإمام أمير المؤمنين ﷺ: «أنّ لهذه النجوم الّتي في السماء مدناً مثل المدائن الّتي في الأرض، مربوطة كلّ واحدة بالأُخرى بعمود من نور طوله مسيرة مائتين وخمسين سنة. كما أنّ ما بين سماءٍ واُخرى مسيرة خمسمائة عام. وأنّ هناك بين النجوم وبين السماء الدنيا بحاراً تضرب الريح أمواجها، ولذلك تستبين النجوم صغاراً وكباراً. في حين أنّ جميعها في حجمٍ واحدٍ سواء»(٢).

[٩٤٢/٢] وذكر أبو نعيم حديثاً عن كعب الأحبار أنّ إبليس تغلغل إلى الحوت الّذي على ظهره الأرضُ كلُّها، فألقى في قلبه، فقال: هل تدري ما على ظهرك يالوثيا، من الأمم والشجر والدوابّ والناس والجبال؟! لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع! قال: فهمّ لوثيا بفعل ذلك فبعث الله دابّة فدخلت في منخره، فعجّ إلى الله منها فخرجت. قال كعب: والّذي نفسي بيده إنّه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت(٣).

قلت: يا له من عجوز كذوب عجّت من أكاذيبه أقطار السماوات!

وغالب الظنّ أنّها ـ أو جُلّها ـ أساطير إسرائيلية تسرّبت إلى التفسير والحديث مضافاً إليها وضع الأسانيد!

المختار في تفسير «مثلهنّ»

ليس في القرآن تصريح بالأرضين السبع، ولا إشارة سوى ما هنا من احتمال إرادة العدد في المثليّة! لكن تكرّر ذكر الأرض في القرآن مفردةً إلى جنب السماوات جمعاً ممّا يوهن جانب هذا

---

(١) البرهان ٨: ٤٦؛ القمي ٢: ٣٢٩. (٢) البحار ٥٥: ٩٠ ـ ٩١.

(٣) القرطبي ١: ٢٥٧ و٣؛ أبو الفتوح ١: ١٥٦.

الاحتمال.

﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾[١].

﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[٢].

﴿للهِ الَّذي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣].

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ﴾[٤].

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[٥].

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[٦].

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٧].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[٨].

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾[٩].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَن فِيهِنَّ﴾[١٠].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[١١].

إلى ما يقرب من مائتي موضع في القرآن، جاء اقتران الأرض واحدة بالسماوات سبعاً!

فيا تُرى كيف يصحّ اقتران الفرد بالجمع ـ في هذا الحجم من التكرار ـ لو كانت الأرض مثل

---

(١) فاطر ٣٥: ١.
(٢) فاطر ٣٥: ٤١.
(٣) النمل ٢٧: ٢٥.
(٤) لقمان ٣١: ٢٠.
(٥) الروم ٣٠: ٢٦.
(٦) النمل ٢٧: ٨٧.
(٧) الزمر ٣٩: ٦٣.
(٨) الشورى ٤٢: ٢٩.
(٩) الزخرف ٤٣: ٨٢.
(١٠) الإسراء ١٧: ٤٤.
(١١) فصّلت ٤١: ٩ ـ ١٢.

السماء في العدد السبع؟! ولا سيّما في آيات التكوين، ما المبرّر لذكر الأرض واحدة لو كانت سبعاً؟!

على أنّ اللام في ﴿وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ للعهد، أي الأرض المعهودة لدى المخاطبين وهم العرب يومذاك، ولا يعرفون سوى هذه الأرض الّتي نعيش عليها![1].

فلابدّ أنّ هذه الأرض خُلقت مثل السماوات السبع، مِثْلاً في الإبداع والتكوين.

هذا، بالإضافة إلى أنّ التعبير بـ﴿وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ـ لو أُريد العدد ـ ليستدعي أن يكون من هذه الأرض (نفس كرة الأرض الّتي نعيش عليها) جعلت سبعاً، الأمر الّذي يعني سبع قطاع منها وهي المناطق الكبرى المعمورة منها. وهذا هو المراد بالأرضين السبع الواردة في الأدعية المأثورة وفي الأحاديث، ودارت على ألسن العارفين.

وإطلاق الأرض على المعمورة منها شائع في اللغة، وجاء في القرآن أيضاً حيث قوله تعالى ـ بشأن المفسدين ـ: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾[2] أي من البلاد العامرة حسبما فسّره الفقهاء.

وكذا إطلاقها على مطلق البقاع، كقوله تعالى: ﴿وَ ءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾[3]. والمراد البقعة الميتة منها.

وبعد، فإنّ قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ظاهرٌ كلّ الظهور في إرادة سماوات سبع، وجاءت بلفظ تنكير. وأرضٍ واحدة جاءت بلفظ تعريف. وأنّ المثليّة تعني جانب الإبداع والتكوين، وعلى فرض إرادة العدد فهي البقاع والمناطق المعمورة منها ومن ثَمَّ جاء بلفظ ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي وجعل من هذه الأرض أيضاً سبعاً حسب المناطق. وإلّا فلو كان أراد سبع كُرات من مثل كُرة الأرض، لكان الأولى أن يعبّر بسبع سماوات وسبع أرضين، وكان أخصر وأوفىٰ بالمعنى.

---

(١) وحتّى البشريّة اليوم لاتعرف أرضاً بهذا الاسم سوى الّتي نعيش عليها. على أنّ الأرض اسم علم شخصي لهذه الكوكبة نظير أسامي سائر الكواكب. وليست كالسماء اسم جنس عامّ. ومن ثمّ قالوا: كلّ ما علاك سماء وما تطأه قدمك أرض! قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾. الرّحمان ٥٥: ١٠. (٢) المائدة ٥: ٣٣.

(٣) يس ٣٦: ٣٣.

قال تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ
الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾
قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ
بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ
إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا
مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

هذه هي قصّة البشريّة الأُولى تمثّل بدء وجود الإنسان والسبب في تكوينه؛ خُلق ليكون خليفة الله في الأرض، وليكون مظهراً تامّاً لصفاته الجمال والكمال، ومثلاً كاملاً برزت فيه سماته تعالى وجلائل أسمائه.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

نعم هي المشيئة العليا تريد أن تُسلّم لهذا الكائن الجديد ـ في عالم الوجود ـ زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الابداع والتكوين والتطوير والتبديل والتحليل والتركيب؛ وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، وتسخير هذا كلّه ـ بإذن الله ـ في المهمّة الضخمة الّتي وكّلها الله إليه.

إذن فقد وُهب لهذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، ووُهب من القوى الخفيّة ما يحقّق المشيئة الإلٓهيّة. ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1].

* * *

أمّا الحكمة في إعلام الملائكة بذلك فترجع إلى أدب سلطاني رفيع، يجعل من أعضاد النظام مواضع سرّه في مهامّ الأمور تعزيزاً بجانبهم، ليجعلهم على إشراف من الأمر، دون أن يُباغَتوا فيحسّوا باحتقار.

وبمثل هذا الأدب الرفيع جاء في كتاب الإمام أميرالمؤمنين ﷺ إلى أمراء جيشه:

[٩٤٣/٢] «فإنّ حقّاً على الوالي أن لا يغيّره على رعيّته فضلٌ نالَهُ، ولا طَولٌ خُصّ به ـ إلى أن يقول ـ: ألا وإنّ لكم عندي أن لا أحتجز دونكم سرّاً... ولا أطوي دونكم أمراً»[2].

وإذ لم يكن ذاك الإعلام سوى إكرام وتعزيز بجانبهم لا لغرض المشاورة معهم، فلم يكن هناك مجال لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

ومن ثمّ جاءهم الردع اللاذع: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أمّا لماذا بدت منهم تلك البادرة، وكيف علموا أنّ الإنسان سوف يقوم بالإفساد في الأرض إلى جنب الإصلاح فيها؟!

فلعلّه كان لديهم من شواهد الحال أو من إلهام البصيرة ما كشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ومن مقتضيات حياته على الأرض حياة اجتماعيّة تزدحم بمناوشات و مصادمات سوف تنتهي إلى مناورات ومنافرات وبالتالي إلى مخاصمة وإفساد في الأرض.

ثمّ هم ـ بفطرة الملائكة البريئة الّتي لاتتصوّر إلّا الخير المطلق وإلّا السلام الشامل ـ يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له، هو وحده الغاية القصوى للوجود، وهو العلّة الأُولى للخلق. وهو متحقّق بوجودهم هم، لايعصون الله ما أمرهم ويعبدون الله لايفترون.

نعم خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي ترقية الحياة

(١) هود ١١: ٦١. وراجع: في ظلال القرآن ١: ٦٦ ـ ٦٨. (٢) نهج البلاغة ٣: ٧٩، الكتاب ٥٠.

وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الله وناموس الوجود في تطويرها وتنميتها وتعديلها على يد خليفة الله في أرضه. هذا الّذي قد يُفسد أحياناً وقد يسفك الدماء، ليتمّ من وراء هذا الشرّ الجزئي المحدود خير أكبر وأشمل، خير النموّ والرقيّ والاكتمال، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة الدائبة الّتي لاتكفّ، والتطّلع الّذي لايقف، والتغيير والتطوير في هذا المُلك الكبير والجوّ الفسيح.

عندئذٍ جاءهم القرار من العليم الخبير بكوامن الأمور: ﴿قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

* * *

﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾

وتبييناً لموضع آدم ـ هذا الكائن الجديد ـ من تحقيق تلك الخلافة المسجّلة باسمه والّتي فضّلته على كثير من الخلق وجعلته في درجة أعلى من التبجيل والإكرام، جاء دور تركيز فطرته على العلم والمعرفة بحقائق الأشياء، علماً ذاتياً ناشئاً من جبلّته الّتي خلقه الله عليها، وبذلك فاق على الآفاق.

والأسماء ـ كما تقدّم في تفسير البسملة ـ جمع اسم بمعنى السمة، ليكون العلم بالأسماء عِلماً بسماتها وخصائصها ومعرفة شاملة لحقائق الأشياء والأسرار الكامنة في طبيعة الوجود. فيستخرجها ويَسْخرها ويستخدمها في مآربه في الحياة. وبذلك تعمر الأرض وتزدهر معالمها مع الآباد.

وها نحن أُولاء نشهد طرفاً من ذلك السرّ الإلّهي العظيم الّذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلّمه مقاليد الخلافة ويُسَخِّر له أفاق الأرض وأجواء السماء.

الأمر الّذي يقصر عن نيله الملائكة ذات الحياة الرتيبة والوظيفة الجارية على منوال، إذ لم يعد لهم حاجة بتلك الخاصيّة ولا كانت هناك ضرورة تدعو إليه.

ومن ثمّ لمّا عُرضت الأسماء على الملائكة لم يعرفوها ولم يهتدوا إلى كنه معرفتها، وهنا جاء هذا الكائن الجديد ليقوم بدور التعليم وإبداء مقدرته الذاتيّة على سائر الخلق، فلم يكن من الملائكة سوى إبداء العجز والاعتذار عمّا فرط منهم في ذلك المجال.

قال الزمخشري: وإنّما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء، على سبيل التبكيت[١].

والتبكيت: غلبة، بحجّة دامغة. ومنه تبكيت الضمير أي تعنيفه بقرع الحجّة، يوجب تراجعه عن الغلواء العارمة.

ملحوظة

هنا نلحظ من سيّد قطب ـ هذا المفسّر الخبير ـ غريبة في تفسير الأسماء، فرضها القدرة على التسمية، حيث ضرورة الحياة الاجتماعية للإنسان تجعله جانحاً إلى الرمز بالأسماء للمسمّيات، وذلك لغرض إمكان التفاهم مع بني نوعه ولا يمكن إلّا بالتسمية وعن طريق التعبير بالألفاظ. وهي حاجة حياتيّة دعت إلى اصطناع الألفاظ والتفاوض على الرمز للأشياء بذكر أسماء لها.

الأمر الذي لا ضرورة فيه في الحياة الملائكيّة، حيث تبادل المقاصد بينها ـ إن كان ـ كان عن طريق الإيحاء، إيحاء المعاني دون الألفاظ.

قال: «ها نحن أُولاء نشهد طرفاً من ذلك السرّ الإلهي العظيم الّذي أودعه الله هذا الكائن البشري ـ وهو يسلّمه مقاليد الخلافة ـ سرّ القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات، سرّ القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها ـ وهي ألفاظ منطوقة ـ رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض، ندرك قيمتها حين نتصوّر الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات والمشقّة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كلّ فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء، أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه... إنّها مشقّة هائلة لا تتصوّر معها حياة!

فأمّا الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصيّة، لأنّها لا ضرورة لها في وظيفتهم. ومن ثَمَّ لم توهب لهم. فلمّا علّم الله آدم هذا السرّ، وعرض على الملائكة ما عرض لم يعرفوا الأسماء، لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظيّة للأشياء والشخوص. وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربّهم، والاعتراف بعجزهم، والإقرار بحدود علمهم وهو ما علّمهم»[٢].

والغرابة في هذا التفسير تبدو بوضوح إذا ما لاحظنا أنّ الجنوح إلى تسمية الأشياء

(١) الكشّاف ١: ١٢٦.

(٢) في ظلال القرآن ١: ٦٩ ـ ٧٠.

والأشخاص شيء اقتضته طبيعة الحياة البشريّة بالذات، وأساسها التفاهم وتبادل الأفكار، الأمر الّذي تنبو عنه حياة الملك وهو متجرّد عن هذه الملابسات. فما وجه التحدّي، بعد أن لم تعد حاجة إلى هذه الخاصيّة!؟

وهذا نظير ما إذا بعثنا مندوباً إلى بلاد الأرمن وعلّمناه لغتهم، ثمّ تحدّينا به مندوبنا العربي المعدّ للذهاب إلى البلاد العربيّة، وقلنا له: إنّ مندوبنا ذاك يفضّل عليك بعلمه بلغة الأرمن دونك؟!

وأمّا على تفسيرنا للأسماء بمعرفة حقائق الكون وأسرار الطبيعة والقدرة على استكشافها واستنباط خباياها، بفضل استعداده الذاتي الّذي جُبل عليه. فهذا يكون نظير ما لو بعثنا هيأة اكتشافيّة إلى مناطق صعبة أو إلى أجواء السماء للبحث عن الكوامن فيها. وهؤلاء يتحدّىٰ بهم لمقام فضلهم وعلمهم وقدرتهم على هذا التجوال العلمي الواسع الأرجاء.

* * *

وإذ قد تحقّق ذلك التفوّق الذاتي لهذا الكائن البشري، جاء دور اخضاع سائر الخلق له وتسخير الكائنات وفق إرادته. وبذلك تتجلّى في وجوده معنى الخلافة التي منحه الله إيّاها على وجه الأرض بأطباقها وأجوائها.

وفي مقدّمتها القوى الفاعلة في تدبير العالم وتنظيم الحياة في الوجود كلّه بإذن الله.

﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

والسجود لآدم، خضوع له، حيث المسخّرات خاضعة لهذا الإنسان مدى الدهر.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وهنا تبتدئ خليقة الشرّ مجسّمة: عصيان الجليل سبحانه، والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله، والعزّه بالإثمّ والاستغلاق للفهم. وبذلك تبيّن أنّ هناك قوى معارضة تعرقل سبيل الحياة في وجه هذا الكائن، يرأسها إبليس، حيث يحاول الغلبة على القوى العاملة في صالح الإنسان، ليحول دون بلوغ مآربه.

وهكذا الحياة تزدحم بمعارضات؛ هناك عوامل صالحة تعارضها آفاتٌ تعمل في الإفساد. وعلى هذا الإنسان ـ الكائن العاقل المتفكّر المدبّر لشؤون حياته ـ أن يخوض المعركة ويكافح المعارض ويقوم بعلاج حكيم.

نعم كان إبليس وجنوده يشكّلون ركب القوى المعارضة المقاومة في وجه الإنسان، ركباً أُنشئت من قبل للطموس على معالم الحياة والحؤول دون ازدهارها. ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

تلك حكمة الله في الخلق والتدبير، يجعل من القوى العاملة في هذه الحياة أضداداً متعارضة ليتمخّض الجيّد من الرديء ويذهب الزبد جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض وعلى ذمّة الخلود.

والآن وقد انكشف ميدان المعركة الخالدة، المعركة بين خليقة الشرّ في إبليس وخليفة الله في الأرض. المعركة الخالدة في ضمير الإنسان والّتي ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربّه، وينتصر فيها الشرّ بمقدار مايستسلم الإنسان لشهوته وينقاد لهوى نفسه، فيبتعد عن ربّه.

وفي الآيات الّتي تليها (٣٥ ـ ٣٩) عرض نموذجي من تلك المعركة الّتي خاضها الإنسان بدء وجوده وخسرها بعض الشيء، لتكون تجربة في محاولاته من بعد طول مسيرة الحياة.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

نعم يعيش هذا الإنسان ـ بل وكلّ مخلوق خلقه الله ـ في ظلّ عناية البارئ البارّ الحكيم في طمأنينة وسلام، هادئ البال فارغ الخيال، في رغد ورفاهية من العيش يتمتّع بالحياة حيث يشاء.

فقد أبيحت لهما (لآدم وحوّاء وهما يمثّلان النموذج البشري في بدء تكوينه) كلّ ثمار الجنّة إلّا شجرة واحدة. وربما كانت ترمز للمحظور الّذي لابدّ منه في الحياة على الأرض، فبغير محظور لا تنبت الإرادة ولايتميّز الإنسان المريد (صاحب الإرادة الذاتيّة) من الحيوان المسوق. ولا يمتحن صبر الإنسان ومقاومته تجاه جموح النفس وأطماعها الهابطة، إلّا بمقدار مقدرته ومبلغ صلابته على الوفاء بالعهد والتقيّد بالشرط. فالإرادة هي مفترق الطرق بين الإنسان وغيره.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

تلك هي التجربة الأُولى لم ينجح الإنسان فيها كما أراده الله ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[1]. فنسي أم تناسى؟ نعم تناسى حيث غلبته الوساوس ولم يقف موقفه الصارم

(١) طه ٢٠: ١١٥.

الّذي كان ينبغي له.

عندئذ تمّت التجربة: نسي آدم عهده وضعف أمام الغواية. وعندئذ حقّت كلمة الله وتمّ قضاؤه:

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة في مجالها المقدّر لها، بين الشيطان والإنسان، إلى آخر الزمان. وعليه فلايزال الإنسان في كفاح دائم مع عوامل الشرّ طول مسيرته في الحياة. كما عليه أن يأخذه بجدّه فلا تتكرّر التجربة الأُولى «لايُلدغ المؤمن [النابه] من جحر مرّتين».

وعندئذ نهض آدم من عثرته، بما ركّب في فطرته (من نباهة وذكاء) وأدركته رحمة ربّه التي تدرك الإنسان دائماً عندما يثوب وينوب إلى بارئه.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وتمّت كلمة الله الأخيرة وعهده الدائم مع آدم وذرّيّته، عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الفلاح فيها أو البوار:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

نعم، انتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل، وانطلقت من عقالها لاتهدأ لحظة ولاتفتر. وعرف الإنسان في فجر البشريّة كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار.

* * *

وهنا لابدّ من عودة إلى مطالع القصّة: قصّة البشريّة الأُولى:

لقد قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأُولى، ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرّمة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأُولى؟

قال سيّد قطب: لعلّني ألمح أنّ هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً، كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه، كانت تدريباً له على تلقّي الغواية، وتذوّق العاقبة، وتجرّع الندامة، ومعرفة العدوّ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين!

إنّ قصّة الشجرة المحرّمة، ووسوسة الشيطان باللذّة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكرة، والندم وطلب المغفرة. إنّها هي هي تجربة البشريّة المتجدّدة المكرورة! سيتعرّض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً[1].

وبعد، فأين كان هذا الّذي كان؟ وما الجنّة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمن؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إبليس؟. كيف قال الله تعالى لهم؟ وكيف أجابوه؟...

قال سيّد قطب: هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ وعلم بحكمته أن لاجدوى للبشر في كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة الّتي وهبهم إيّاها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطّلع على هذا الغيب. وبقدر ما سخّر الله للإنسان من النواميس الكونيّة وعرّفه بأسرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب فيما لاجدوى له في معرفته. وما يزال الإنسان مثلا، على الرغم من كلّ ما فتح له من الأسرار الكونيّة، يجهل ما وراء اللحظة الحاضرة جهلاً مطلقاً، ولايملك بأيّ أداةٍ من أدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد اللحظة وهل النَفَس الّذي خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه؟ وهذا مثل من الغيب المحجوب عن البشر، لأنّه لايدخل في مقتضيات الخلافة، بل ربما كان معوّقا لها لو كُشف للإنسان عنه؟ وهنالك ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الإنسان، في طيّ الغيب الّذي لايعلمه إلّا الله.

ومن ثمّ لم يعد للعقل البشري أن يخوض فيه، لأنّه لايملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره. وكلّ جهد يبذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع، ذاهب سدىً، بلاثمرة ولا جدوىٰ.

وبعد فإذكان العقل البشري لم يوهب الوسيلة للاطّلاع على مثل هذا الغيب المحجوب؛ فليس سبيله إذن أن يُتَبجّح فَيُنكر. فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة، والمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل، وليست في طوق وسائله، ولا هي ضروريّة له في وظيفته!

إنّ الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة. ولكن أضرّ منه وأخطر، التنكّر للمجهول كلّه وإنكاره، واستبعاد الغيب لمجرّد عدم القدرة على الإحاطة به. إنّها تكون نكسة إلى عالم الحيوان الّذي يعيش في المحسوس وحده، ولاينفذ من أسواره إلى الوجود الطليق.

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٧٢.

فلندع هذا الغيب إذن لصاحبه، وحسبنا ما يقصّ لنا عنه، بالقدر الّذي يصلح لنا في حـياتنا، ويُصلح سرائرنا ومعاشنا. ولنأخذ من القصّة ما تشير إليه من حقائق كونيّة وإنسانيّة، ومـن تـصوّر للوجود وارتباطاته، ومن إيحاءات بطبيعة الإنسان وقيمته وموازينه. فذلك وحده أنـفع للـبشريّة وأهدى[1].

إيحاءات من قصّة آدم

ولسيّد قطب هنا ملاحظات عابرة وفي نفس الوقت جليلة استوحاها مـن قـصّة آدم، قـصّة البشريّة الأُولى:

يقول: «وفي اختصار يناسب ظلال القرآن سنحاول أن نـمرّ بـهذه الإيـحاءات والتـصوّرات والحقائق مروراً مجملاً سريعاً:

إنّ أبرز إيحاءات قصّة آدم ـ كما وردت في هذا الموضع ـ هو القيمة الكـبرى الّـتي يـعطيها التصوّر الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض، ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم الّتي يوزن بها. ثمّ لحقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الّذي قامت خلافته على أساسه.

وتتبدّى تلك القيمة الكبرى الّتي يعطيها التصوّر الإسلامي للإنسان في الإعلان العلوي الجليل في الملأ الأعلى الكريم، أنّه مخلوق ليكون خليفة في الأرض؛ كـما تـتبدّى فـي أمـر المـلائكة بالسجود له. وفي طرد إبليس الّذي استكبر وأبى، وفي رعاية الله له أوّلاً وأخيراً.

ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصوّر وفي عـالم الواقع على السواء.

وأوّل اعتبار من هذه الاعتبارات هو أنّ الإنسان سيّد هذه الأرض، ومن أجله خُلق كلّ شيء فيها ـ كما تقدّم ذلك نصّاً ـ فهو إذن أعزّ وأكرم وأغلى من كلّ شيء مادّي، ومن كلّ قيمة مادّيّة في هذه الأرض جميعاً. ولايجوز إذن أن يُستعبد أو يُستذل لقاء توفير قيمة مـادّيّة أو شـيء مـادّي. لايجوز أن يُعتدى على أيّ مقوّم من مقوّمات إنسانيّته الكريمة. ولا أن تُهدر أيّة قيمة من قيمه لقاء تحقيق أيّ كسب مادّي، أو إنتاج أيّ شيء مادّي، أو تكثير أيّ عنصر مادّي. فهذه المادّيّات كـلّها

(١) المصدر: ٧٢ـ٧٣.

مخلوقة ـ أو مصنوعة ـ من أجله، من أجل تحقيق إنسانيّته، من أجل تقرير وجوده الإنساني. فلايجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانيّة، أو نقض مقوّم من مقوّمات كرامته.

والاعتبار الثاني هو أنّ دور الإنسان في الأرض هو الدور الأوّل. فهو الّذي يُغيّر ويُبدّل في أشكالها وفي ارتباطاتها؛ وهو الّذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج، هي الّتي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبيّاً كما تصوّره المذاهب الّتي تُحقّر من دور الإنسان وتُصغّر، بقدر ما تعظّم في دور الآلة وتكبّر!

إنّ النظرة القرآنيّة تجعل هذا الإنسان بخلافته في الأرض، عاملاً مهمّاً في نظام الكون، ملحوظاً في هذا النظام. فخلافته في الأرض تتعلّق بارتباطات شتّى مع السماوات ومع الرياح ومع الأمطار، ومع الشموس والكواكب. وكلّها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة. فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الّذي تخصّصه له المذاهب المادية، ولاتسمح له أن يتعدّاه؟!

وما من شكّ أنّ كلّاً من نظرة الإسلام هذه ونظرة الماديّة للإنسان تؤثّر في طبيعة النظام الّذي تقيمه هذه وتلك للإنسان؛ وطبيعة احترام المقوّمات الإنسانيّة أو إهدارها؛ وطبيعة تكريم هذا الإنسان أو تحقيره. وليس ما نراه في العالم المادّي من إهدار كلّ حرّيّات الإنسان وحرماته ومقوّماته في سبيل توفير الإنتاج المادّي وتكثيره، إلّا أثراً من آثار تلك النظرة إلى حقيقة الإنسان، وحقيقة دوره في هذه الأرض!

كذلك ينشأ عن نظرة الإسلام الرفيعة إلى حقيقة الإنسان ووظيفته، إعلاء القيم الأدبيّة في وزنه وتقديره، وإعلاء قيمة الفضائل الخُلقيّة، وتكبير قيم الإيمان والصلاح والإخلاص في حياته. فهذه هي القيم الّتي يقوم عليها عهد استخلافه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذه القيم أعلى وأكرم من جميع القيم المادّيّة ـ هذا مع أنّ من مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادّيّة، ولكن بحيث لاتصبح هي الأصل ولاتطغى على تلك القيم العليا ـ ولهذا وزنه في توجيه القلب البشري إلى الطهارة والارتفاع والنظافة في حياته. بخلاف ما توحيه المذاهب المادّيّة من استهزاء بكلّ القيم الروحيّة، وإهدار لكلّ القيم الأدبيّة، في سبيل الاهتمام المجرّد بالإنتاج

والسلع ومطالب البطون كالحيوان[١]!

وفي التصوّر الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مناط العهد مع الله، وهي مناط التكليف والجزاء. إنّه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربّه عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية الّتي توجّه إليه. بينما يملك أن يشقي نفسه ويهبط من عليائه، بتغليب الشهوة على الإرادة، والغواية على الهداية، ونسيان العهد الّذي يرفعه إلى مولاه. وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لاشكّ فيه، يضاف إلى عناصر التكريم الأخرى. كما أنّ فيه تذكيراً دائماً بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة، والرفعة والهبوط، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق!

وفي أحداث المعركة الّتي تصوّرها القصّة بين الإنسان والشيطان مُذكِّر دائم بطبيعة المعركة. إنّها بين عهد الله وغواية الشيطان، بين الإيمان والكفر، بين الحقّ والباطل، بين الهدى والضلال، والإنسان هو نفسه ميدان المعركة. وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها. وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة؛ وتوجيه دائم له بأنّه جنديّ في ميدان؛ وأنّه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان!

وأخيراً تجيء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة: إنّ الخطيئة فرديّة والتوبة فرديّة، في تصوّر واضح بسيط لا تعقيد فيه ولاغموض. ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده ـ كما تقول نظريّة الكنيسة ـ وليس هنالك تكفير لاهوتيّ، كالذي تقول الكنيسة إنّ عيسى عليه السلام (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه، تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم! كلّا! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصيّة، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة. وخطيئة كلّ ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصيّة، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة. تصوّر مريح صريح. يحمل كلّ إنسان وزره، ويوحي إلى كلّ إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط «إنّ الله توّاب رحيم».

هذا طرف من إيحاءات قصّة آدم ـ في هذا الموضع ـ نكتفي به في ظلال القرآن. وهو وحده ثروة من الحقائق والتصوّرات القويمة؛ وثروة من الإيحاءات والتوجيهات الكريمة؛ وثروة من الأسس التي يقوم عليها تصوّر اجتماعي وأوضاع اجتماعيّة، يحكمها الخُلُق والخير والفضيلة. ومن هذا الطرف نستطيع أن ندرك أهميّة القَصَص القرآنيّ في تركيز قواعد التصوّر الإسلامي؛ وإيضاح

---

(١) يراجع بتوسّع كتاب: «الإنسان بين الماديّة والإسلام» لمحمّد قطب ـ «دار الشروق».

القيم التي يرتكز عليها. وهي القيم الّتي تليق بعالم صادر عن الله، متّجه إلى الله، صائر إلى الله في نهاية المطاف. عقد الاستخلاف فيه قائم على تلقّي الهدى من الله، والتقيّد بمنهجه في الحياة. ومفرق الطريق فيه أن يسمع الإنسان ويطيع لما يتلقّاه من الله، أو أن يسمع الإنسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان. وليس هناك طريق ثالث، إمّا الله وإمّا الشيطان، إمّا الهدى وإمّا الضلال، إمّا الحق وإمّا الباطل، إمّا الفلاح وإمّا الخسران. وهذه الحقيقة هي الّتي يعبّر عنها القرآن كلّه، بوصفها الحقيقة الأُولى، الّتي تقوم عليها سائر التصوّرات، وسائر الأوضاع في عالم الإنسان»[1].

عناية ربّانيّة دائمة

وممّا يستلفت النظر من قصّة البشريّة الأُولى، هي تلك عناية الله سبحانه وتعالى بالنسبة لهذا الإنسان، ترافقه طول الحياة مادام مستمسكاً بعروة الله الوثقى الّتي لاانفصام لها.

لقد كان التساؤل خطيراً: هلّا كان العقل البشري يمنحه دعة في الحياة أم يجعله في قلق دائب؟

فكان الجواب: أنّ الإنسان بما أنّه يعقل الأُمور ويتدبّرها بفضل إمعانه في النظر والتفكير، بما أنّه كذلك فإنّه يصبح ويمسي قَلِقاً وفي اضطراب نفساني دائم، حيث يرى نفسه في خضمّ من الحوادث والكوارث تترى على العائشين على هذه البسيطة. وهو لايعلم مصيره بالذات، فلايطمئنّ باله حيث توجّه خياله.

والإنسان أوّل ما وضع قدميه على الأرض أحسّ بهذا القلق، حيث الوحشة ترافقه إذا ما تُرك وشأنه!

غير أنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بفضل رحمانيّته ورأفته بعباده، لم يدع الإنسان غائراً في هواجسه، وقد خلقه ليكون خليفته في الأرض.

فهو ـ سبحانه ـ إثر ما أهبطه إلى الأرض ـ الموعودة ـ أرفقه بزاده وراحلته في هذا المسير الصعب؛ وعده بالنصر والهدى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٧٣ ـ ٧٦.

(٢) البقرة ٢: ٣٨ ـ ٣٩.

فالحياة الوديعة الهادئة المريحة، والّتي تجعل الإنسان يستلذّ بحياته، هي الّتي ترعيها عناية ربّانية عليا وتشملها ولاية الله الكبرى: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّـلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1]، من ظلمات الحياة وأكدارها، إلى ضوء النور وبهيج سعادة الحياة: ﴿يَا أَيُّـهَا الَّـذِينَ آمَـنُوا اسْـتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2]. فالدعوة الإلٓهيّة لاتهدف غير السعادة في الحياة. إن ماديّة أو معنويّة.

هذا إذا شعر الإنسان بعناية الله له وشكر نعماءه.

أمّا الّذين أنكروا نعمة الله من بعد ما عرفوها[3] ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[4] ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾[5]. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[6]. ﴿وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِـلُونَ﴾[7]. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[8].

نعم أولئك أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من نور الفطرة ومن هداية العقل، إلى غياهب الغيّ والضلال.

[٩٤٤/٢] وفي ذلك يقول الإمام أميرالمؤمنين ـ عليه صلوات المصلّين ـ: «فلمّا مَهَدَ أرضه وأنفذ أمره، اختار آدمﷺ خيرةً من خلقه، وجعله أوّل جِبِلّته وأسكنه جنّته وأرغد فيها أُكُله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التعرّض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته. فأقدم على ما نهاه عنه موافاةً لسابق علمه، فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجّة به على عباده. ولم يُخْلِهم بعد أن قبضه ممّا يؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته، قرناً فقرناً، حتّى تمّت بنبيّنا محمدﷺ حجّته وبلغ المقطعَ عُذُرُهُ ونُذُرُهُ»[9].

---

(١) البقرة ٢: ٢٥٧. (٢) الأنفال ٨: ٢٤.

(٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل ١٦: ٨٣).

(٤) النمل ٢٧: ١٤. (٥) الأنعام ٦: ٢٠.

(٦) الأعراف ٧: ٥٣. (٧) غافر ٤٠: ٧٨.

(٨) البقرة ٢: ١١٤. (٩) نهج البلاغة ١: ١٧٧، الخطبة ٩١ (خطبة الأشباح).

ملحوظة

قد يُتساءل عن مرجع ضمير الجمع المذكّر في قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ مع كون الأسماء جمعاً مكسّراً، وهو بحكم المفردة المؤنث، بدليل ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

وأيضاً قوله: ﴿وَ قُلْنَا اهْبِطُوا...﴾ خطاباً مع آدم وحوّاء، حيث أزلّهما الشيطان وأخرجهما ممّا كانا فيه.

وأجاب الزمخشري عن الأوّل بأنّه من باب التغليب، قال: وإنّما ذُكّر، لأنّ في المسمّيات العقلاء فغلّبهم[(١)].

وأجاب عن الثاني بأنّه خطاب لآدم وحوّاء، والمراد: هما وذريّتهما، لأنّهما لمّا كانا أصل الإنس ومتشعّبهم، جُعلا كأنّهما الإنس كلّهم. والدليل عليه قوله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[(٢)]. ويدلّ على ذلك قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وما هو إلّا حكم يعمّ الناس كلّهم. ومعنى ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض[(٣)].

* * *

وللإمام أبي جعفر الطبري بحث روائي حول حديث الخلافة في الأرض، نذكره بنصّه:

قال: اختلف أهل التأويل في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، فقال بعضهم: إنّي فاعل. ذكر من قال ذلك:

[٩٤٥/٢] حدّثنا القاسم بن الحسن، بالإسناد إلى الحسن وقتادة، قالوا: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إنّي فاعل.

وقال آخرون: إنّي خالق. ذكر من قال ذلك:

[٩٤٦/٢] حُدِّثتُ عن المنجاب بن الحارث قال: حدّثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، قال: كلّ شيء في القرآن «جعل» فهو خلق.

قال أبو جعفر: والصواب في تأويل قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي مستخلف في الأرض خليفة ومُصيّر فيها خَلَفاً، وذلك أشبه بتأويل قول الحسن وقتادة.

---

(١) الكشّاف ١: ١٢٦.

(٢) طه ٢٠: ١٢٣.

(٣) الكشّاف ١: ١٢٨. ولنا عن ذلك بحث مذيّل في كتابنا «شبهات وردود» (الجزء السابع من التمهيد: ٤٢٠ ـ ٤٤٢).

وقيل إنّ الأرض الّتي ذكرها الله في هذه الآية هي مكّة. ذكر من قال ذلك:

[٩٤٧/٢] حدّثنا ابن حميد، بالإسناد عن ابن سابط أنّ النبي ﷺ قال: «دُحِيَت الأرْضُ مِنْ مَكَّةَ. وكانت الملائكة تطوف بالبيت، فهي أوّل من طاف به، وهي الأرض الّتي قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وكان النبيّ[١] إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون أتى هو ومن معه فعبدوا الله بها حتّى يموتوا، فإنّ قبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام»[٢].

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾:

والخليفة الفعيلة، من قولك: خَلَف فلانٌ فلاناً في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٣]. يعني بذلك: أنّه أبدلكم في الأرض منهم فجعلكم خلفاء بعدهم. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة، لأنّه خَلَف الّذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خَلَفاً. يقال منه: خَلَف الخليفة يخلُف خلافة وخليفاً.

[٩٤٨/٢] وكان محمّدبن إسحاق يقول بما حدّثنا به ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: ساكناً وعامراً؛ يسكنها ويعمرها، خَلَفاً ليس منكم.

وليس الّذي قال ابن إسحاق في معنى الخليفة بتأويلها، وإن كان الله ـ جلّ ثناؤه ـ إنّما أخبر ملائكته أنّه جاعل في الأرض خليفة يسكنها، ولكن معناها ما وصفتُ قبلُ[٤].

فإن قال لنا قائل: فما الّذي كان في الأرض قبل بني آدم لها عامراً فكان بنو آدم بدلاً منه وفيها منه خلفاً؟ قيل: قد اختلف أهل التأويل في ذلك.

[٩٤٩/٢] فحدّثنا أبو كريب، بالإسناد إلى ابن عبّاس، قال: أوّل من سكن الأرض الجنّ، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة، فقتلهم إبليس ومن معه، حتّى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال؛ ثمّ خلق آدم

---

(١) أي كلّ نبيّ من الأنبياء.

(٢) هذا الحديث مرسل، فابن سابط راوي الحديث تابعيّ لم يدرك النبيّ ﷺ. ولم يوجد هذا الحديث في أيّ من الصحاح.

(٣) يونس ١٠: ١٤.

(٤) الّذي ذكره ابن إسحاق في معنى الخليفة: هو الخَلَف منه تعالى، ليكون هذا المخلوق الجديد خليفة الله في الأرض. وأمّا الّذي اختاره ابن جرير فهو الخلف عن مخلوق قبل آدم، الجنّ أو النسناس، على ما ذكره الأخباريّون.

فأسكنه إيّاها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فعلى هذا القول، إنّي جاعل في الأرض خليفة من الجنّ يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها.

[٩٥٠/٢] وحدّثني المثنّى بالإسناد إلى الربيع بن أنس في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية، قال: إنّ الله خلق الملائكة يوم الأربعاء، وخلق الجنّ يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة، فكفر قوم من الجنّ، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم، فكانت الدماء وكان الفساد في الأرض.

وقال آخرون في تأويل قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي خَلَفاً يخلف بعضهم بعضاً، وهم وُلد آدم الّذين يخلفون أباهم آدم، ويخلف كلّ قرن منهم القرن الّذي سلف قبله.

وهذا قول حكي عن الحسن البصري، ونظير له ما:

[٩٥١/٢] حدّثنى به محمّد بن بشّار، بالإسناد إلى ابن سابط في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ قال: يعنون به بني آدم.

[٩٥٢/٢] وحدّثني يونس بالإسناد إلى ابن زيد، قال الله للملائكة: إنّي أريد أن أخلق في الأرض خلقاً، وأجعل فيها خليفة، وليس لله يومئذ خلق إلّا الملائكة والأرض ليس فيها خلق.

وهذا القول يحتمل ما حُكي عن الحسن، ويحتمل أن يكون أراد ابن زيد أنّ الله أخبر الملائكة أنّه جاعل في الأرض خليفة له، يحكم فيها بين خلقه بحكمه، نظير ما:

[٩٥٣/٢] حدّثني به موسى بن هارون، بالإسناد إلى ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: أنّ الله جلّ ثناؤه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربّنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرّيّة يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً.

فكان تأويل الآية على هذه الرواية الّتي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عبّاس: إنّي جاعل في الأرض خليفة منّي يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه.

وأمّا الإفساد وسفك الدماء بغير حقّها فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه في عباد الله؛ لأنّهما[1] أخبرا أنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ قال لملائكته ـ إذ سألوه: ما ذاك الخليفة ـ: إنّه خليفة يكون

(١) أي ابن مسعود وابن عبّاس.

له ذرّيّة يُفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. فأضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقّها إلى ذرّيّة خليفته دونه، وأخرج منه خليفته.

وهذا التأويل وإن كان مخالفاً في معنى الخليفة ما حُكي عن الحسن من وجه، فموافق له من وجه. فأمّا موافقته إيّاه فصرف متأوّليه إضافة الافساد في الأرض وسفك الدماء فيها إلى غير الخليفة. وأمّا مخالفته إيّاها فإضافتهم الخلافة إلى آدم بمعنى استخلاف الله إيّاه فيها، وإضافة الحسن الخلافة إلى ولده بمعنى خلافة بعضهم بعضاً، وقيام قرن منهم مقام قرن قبلهم، وإضافة الإفساد في الأرض وسفك الدماء إلى الخليفة.

والّذي دعا المتأوّلين قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ في التأويل الّذي ذُكر عن الحسن إلى ما قالوا في ذلك، أنّهم قالوا: إنّ الملائكة إنّما قالت لربّها إذ قال لهم ربّهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ إخباراً منها بذلك عن الخليفة الّذي أخبر الله -جلّ ثناؤه- أنّه جاعله في الأرض لا غيره؛ لأنّ المحاورة بين الملائكة وبين ربّها عنه جرت. قالوا: فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله قد برّأ آدم من الإفساد في الأرض وسفك الدماء وطهّره من ذلك، عُلم أنّ الّذي عُني به غيره من ذرّيّته، فثبت أنّ الخليفة الّذي يُفسد في الأرض ويسفك الدماء هو غير آدم، وأنّهم ولده الّذين فعلوا ذلك، وأنّ معنى الخلافة الّتي ذكرها الله إنّما هي خلافة قرن منهم قرناً غيرهم لما وصفنا. وأغفل قائلو هذه المقالة ومتأوّلو الآية هذا التأويل سبيل التأويل. وذلك أنّ الملائكة إذ قال لها ربّها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لم تضف الإفساد وسفك الدماء في جوابها لربّها إلى خليفته في أرضه، بل قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وغير منكر أن يكون ربّها أعلمها أنّه يكون لخليفته ذلك ذرّيّة يكون منهم الإفساد وسفك الدماء، فقالت: يا ربّنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ كما قال ابن مسعود وابن عبّاس، ومن حكينا ذلك عنه من أهل التأويل[1].

* * *

وهناك قول بأنّ الله هو أعلمهم بذلك، كما في الحديث عن قتادة:

[٢/٩٥٤] أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قال: كان الله أعلمهم إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

(١) الطبري ١: ٢٨٧-٢٩٠.

وبمثل قول قتادة قال جماعة من أهل التأويل، منهم الحسن البصري[1].

[٩٥٥/٢] وعن ابن جُريج قال: إنّما تكلّموا بما أعلمهم الله أنّه كائن من خلق آدم، فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء[2].

[٩٥٦/٢] وعن ابن زيد قال: لمّا خلق الله النار ذُعرت منها الملائكة ذعراً شديداً، وقالوا: ربّنا لِمَ خلقت هذه النار، ولأيّ شيء خلقتها؟ قال: لمن عصاني من خلقي. قال: ولم يكن لله خلق يومئذٍ إلّا الملائكة والأرض ليس فيها خلق، إنّما خلق آدم بعد ذلك. وقرأ قول الله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾[3]. ثمّ قال: قالت الملائكة: يا ربّ أَوَ يأتي علينا دهر نعصيك فيه! لا يرون له خلقاً غيرهم. قال: لا، إنّي أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليقة يسفكون الدماء ويُفسدون في الأرض. فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ وقد اخترتنا؟ فاجعلنا نحن فيها فنحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ونعمل فيها بطاعتك! وأعظمت الملائكة أن يجعل الله في الأرض من يعصيه. فقال: إنّي أعلم ما لا تعلمون، يا آدم أنبئهم بأسمائهم! فقال: فلان و فلان. قال: فلمّا رأوا ما أعطاه الله من العلم، أقرّوا لآدم بالفضل عليهم، وأبى الخبيث إبليس أن يقرّ له، قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[4].

[٩٥٧/٢] وهناك قول بأنّ أبليس أعلمهم بذلك، فيما أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن أبي نضرة قال: لمّا خلق الله آدم ألقى جسده في السماء لا روح فيه، فلمّا رأته الملائكة راعهم ما رأوه من خلقه، فأتاه إبليس فلمّا رأى خلقه منتصباً راعه، فدنا منه فنكته برجله، فصلّ آدم[5] فقال: هذا أجوف لا شيء عنده[6].

---

(١) الطبري ١: ٢٩٦ / ٥١٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٤ / ٣٣. (٢) الطبري ١: ٢٩٩ ـ ٣٠٠ / ٥١٩؛ ابن كثير ١: ٧٥.

(٣) الإنسان ٧٦: ١.

(٤) الطبري ١: ٢٩٨ / ٥١٧؛ الدرّ ١: ١١٢، باختصار. والآية من سورة الأعراف ٧: ١٢ ـ ١٣.

(٥) صَلَّ السلاحُ: سُمع له طنين.

(٦) الدرّ ١: ١١٩؛ العظمة ٥: ١٥٦٠ ـ ١٥٦١ / ١٥٦٠، باب ٤٥ (خلق آدم وحواء ﷺ).

[٩٥٨/٢] وأخرج الطيالسي وابن سعد وأحمد وعبدبن حميد ومسلم وأبو يعلى وابن حبّان وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس: أنّ النبيّ ﷺ قال: «لمّا صوّر الله تعالى آدم في الجنّة تركه ما شاء أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به[1] ينظر ما هو، فلمّا رآه أجوف علم أنّه خلق لايتمالك. ولفظ أبي الشيخ قال: خلق لايتمالك ظفرتُ به»[2].

[٩٥٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أبيه عن هشام الرازي عن ابن المبارك عن ابن خربوذ المكّي عمّن سمع أباجعفر محمّدبن علي عليه السلام يقول: «السجلّ ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له كلّ يوم ثلاث لمحات ينظرهنّ في أمّ الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له، فأبصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الأمور، فأسرّ ذلك إلى هاروت وماروت وكانا من أعوانه، فلمّا قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ قالا ذلك استطالةً على الملائكة»[3].

قلت: في هذا الحديث نكارة لم يصحّ إسناده إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام وكذا الأحاديث قبله. كلّها ممّا ينبو عنه لون كلامهم الرصين ومشارب فهمهم الحكيمة. نعم وضعتها عليهم أياد أثيمة كانت أو كادت تحاول الحطّ من شأنهم الرفيع. وهيهات وقد طهّرهم الله تطهيراً وعصمهم عن وَصَمات أهل الغيّ والفساد.

* * *

وبعد فإليك من سائر الروايات:

---

(١) طاف يطيف به: أتاه في الطيف ودار في خلده: يعني تغلغل في هواجسه.

(٢) الدرّ ١: ١١٧؛ مسند الطيالسي: ٢٧٠ بتفاوت يسير؛ الطبقات ١: ٢٧؛ مسند أحمد ٣: ٢٢٩، مسند أنس بن مالك؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٤٠٧ ـ ٤٠٨ / ١٣٨٦؛ مسلم ٨: ٣١، كتاب البرّ والصلة، باب خلق الإنسان خلقاً لايتمالك؛ أبو يعلى ٦: ٦٨ / ٣٣٢١؛ ابن حبّان ١٤: ٣٥ / ٦١٦٣، كتاب التاريخ، باب ١ (بدء الخلق)؛ العظمة ٥: ١٥٥٨ / ١٠٢١، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء عليهما السلام)، باختلاف يسير؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٤٤ ـ ٥٤٥، باب بدء الخلق، وفيه: «... فلمّا رآه أجوف عرف أنّه خلق أجوف لايتمالك».

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٧٨ / ٣٢٧؛ ابن كثير ١: ٧٤.

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾

[٩٦٠/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: ما كان في القرآن ﴿إذ﴾ فقد كان(١).

[٩٦١/٢] وأخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: كلّ شيء في القرآن «جُعِلَ» فهو ـ بمعنى ـ خُلِقَ(٢).

[٩٦٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بالإسناد إلى الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إنّي فاعل(٣).

[٩٦٣/٢] وأخرج عن ابن إسحاق في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: ساكناً وعامراً يسكنها ويعمرها خلفاً ليس منكم(٤).

[٩٦٤/٢] وأيضاً أخرج عن السّدّي في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ قال: فاستشار الملائكة في خلق آدم. وكذا روي عن قتادة(٥).

قال ابن كثير: وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الإخبار ففيها تساهل. وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أحسن(٦).

قوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾

[٩٦٥/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن سابط أنّ النبي ﷺ قال: «دحيت الأرض من مكة، وكانت الملائكة تطوف بالبيت، فهي [الملائكة] أوّل من طاف به، وهي [مكة] الأرض الّتي قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وكان النبيّ (أي كلّ نبيّ) إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون أتاها هو ومن معه، فيعبدون الله بها حتّى يموتوا فيها، وإنّ قبر نوح وهود

---

(١) الدرّ ١: ١١٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٥ / ٣١٣.

(٢) الدرّ ١: ١١٠؛ الطبري ١: ٢٨٧ / ٥٠١، نقلاً عن أبي روق.

(٣) ابن ابي حاتم ١: ٧٦ / ٣١٥.

(٤) المصدر / ٣١٦.

(٥) المصدر / ٣١٤.

(٦) ابن كثير ١: ٧٣. وتقدّمت عبارة الحسن وقتادة فيما ذكره ابن جرير ١: ٢٨٧ / ٥٠٠.

وشعيب وصالح بين زمزم وبين الركن والمقام»(١).

[٩٦٦/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بالإسناد إلى خالد الحذّاء قال: سألت الحسن فقلت: يا أبا سعيد، آدم للسماء خلق أم للأرض؟ قال: أما تقرأ القرآن: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؟ لا، بل للأرض خُلق(٢).

قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾

[٩٦٧/٢] أخرج وكيع وعبد الرزّاق وعبدبن حميد وابن المنذر وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: إنّ الله أخرج آدم من الجنّة قبل أن يُخَلِّفه، ثمّ قرأ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٣).

[٩٦٨/٢] وروى أبو جعفر محمّدبن الحسن الصفّار بإسناده إلى الحسن بن موسى عن زرارة قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فسألني: ما عندك من أحاديث الشيعة؟ قلت: إنّ عندي منها شيئاً كثيراً قد هممتُ أن أوقد لها ناراً ثمّ أحرقها! قال: ولم؟ هات ما أنكرت منها! فخطر على بالي الآدميّون(٤). فقال لي: ما كان على الملائكة حيث قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾!(٥).

ورواه العياشيّ وعقّبه بالحديث التالي:

[٩٦٩/٢] قال [زرارة] وكان يقول أبو عبدالله عليه السلام ـ إذا حدّث بهذا الحديث ـ «هو كسر على

(١) الدرّ ١: ١١٣؛ الطبري ١: ٢٨٧ / ٥٠٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٦ / ٣١٧، بلفظ: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: دحيت الأرض من مكّة وأوّل من طاف بالبيت الملائكة فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يعني مكّة.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ٧٦ / ٣١٨.

(٣) الدرّ ١: ١١٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٤ / ٣٥؛ ابن عساكر ٧: ٤٥٢، (آدم نبيّ الله عليه السلام). والحديث ـ كما في المصادر ـ «قبل أن يخلقه...» بالقاف. والظاهر أنّه مصحّف. والصحيح ما أثبتناه: «قبل أن يُخَلِّفَهُ» جرياً مع ظاهر تعبير القرآن. فتدبّر!

(٤) هكذا في رواية العيّاشي ١: ٥٠ / ٩. وكذا في تفسير البرهان ١: ١٦٧ / ٨. وفي الهامش من الطبعة القديمة ١: ٧٥؛ أي الآجال المنسوبة إلى آدم عليه السلام أو إشارة إلى سلسلة الآدميين كما ورد في بعض الأحاديث. (البحار ٥٤: ٣٢١ و ٣٣١ و ٣٣٦). قال المجلسي ـ في البحار ٢٥: ٢٨٣ ـ: لعلّها أحاديث كانت في فضائلهم عليهم السلام كان زرارة لايتحمّلها، فنبّهه الإمام بالتنظير بقصور الملائكة عن فهم فضيلة آدم، مع علوّ شأنهم وقرب منزلتهم.

(٥) بصائر الدرجات: ٢٥٦ / ٦، باب ١٠، (الأئمّة يعرفون الإضمار وحديث النفس).

القدريّة. ثمّ قال أبو عبدالله ﷺ: إنّ آدم كان له في السماء خليلٌ من الملائكة، فلمّا هبط آدم من السماء إلى الأرض استوحش المَلَكُ، وشكا إلى الله ـ تعالى ـ وسأله أن يأذن له فيهبط عليه، فأذن له، فهبط عليه فوجده قاعداً في قفرة من الأرض، فلمّا رآه آدم وضع يده على رأسه وصاح صيحة، قال أبو عبدالله ﷺ: يروون أنّه أسمع عامّة الخلق. فقال له المَلَكُ: يا آدم ما أراك إلّا قد عصيت ربّك وحملت على نفسك مالا تطيق، أتدري ما قال الله لنا فيك فرددنا عليه؟ قال: لا، قال: قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قلنا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ فهو خَلَقَك أن تكون في الأرض [أ] يستقيم أن تكون في السماء؟! فقال أبو عبدالله ﷺ: والله عُزِّي بها آدم، ثلاثاً»[1].

قوله: «هو كسر على القدريّة»، لعلّه من جهة أنّ التقادير إنّما كانت تابعةً لما يختاره الإنسان في حياته، فيقدّر له من الآثار ما كان يستتبع فعاله. إذ ليس تقديره تعالى للأمور سوى علمه بما سيقع وما يستتبع من آثار.

[٢ / ٩٧٠] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد، قال الله للملائكة: إنّي أريد أن أخلق في الأرض خلقاً، وأجعل فيها خليفة، وليس لله يومئذ خلق إلّا الملائكة والأرض ليس فيها خلق[2].

[٢ / ٩٧١] وأخرج ابن جرير بإسناده إلى الضحّاك، عن ابن عبّاس، قال: كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة، يقال لهم «الحِنّ»[3] خُلقوا من نار السموم من بين الملائكة، قال: وكان اسمه الحارث. قال: وكان خازناً من خُزّان الجنّة. قال: وخُلقت الملائكة كلّهم من نور غير هذا الحيّ. قال: وخلقت الجنّ الّذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الّذي يكون في طرفها إذ ألهبت. قال: وخلق الإنسان من طين، فأوّل من سكن الأرض الجنّ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة، وهم هذا الحيّ الّذين يقال لهم «الحنّ»، فقتلهم إبليس ومن معه حتّى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. فلمّا فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه وقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. قال: فاطّلع الله على ذلك من قلبه ولم تطّلع عليه

(١) العياشي ١: ٥٠ / ١٠. البحار ١١: ٢١١ ـ ٢١٢ / ١٨. البرهان ١: ١٦٧ / ٩.

(٢) الطبري ١: ٢٨٨ / ٥٠٧؛ ابن كثير ١: ٧٤.

(٣) الحنّ ـ بحاء مهملة وتشديد النون ـ: ضرب من الجنّ. قال ابن المسيّب: الحنّ، الكلاب السود المعينة. قال ابن الأثير: ومنه حديث ابن عبّاس: «الكلاب من الحنّ، وهي ضَعَفة الجنّ» (النهاية لابن الأثير ١: ٤٥٣، مادّة حنن).

الملائكة الّذين كانوا معه؛ فقال الله للملائكة الّذين معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ كما أفسدت الجنّ وسفكت الدماء؟ وإنّما بُعثنا عليهم لذلك. فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: إنّي قد اطّلعت من قلب إبليس على ما لم تطّلعوا عليه من كِبْره واغتراره، قال: ثمّ أمر بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب ـ واللازب: اللزج الصلب من حمأ مسنون ـ منتن. قال: وإنّما كان حمأ مسنوناً بعد التراب. قال: فخلق منه آدم بيده. قال فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل ـ أي فيصوّت ـ قال: فهو قول الله: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ يقول: كالشيْ المنفوخ الّذي ليس بمُصْمِتٍ ،قال: ثمّ [جعل] يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره ويخرج من فيه، ثمّ يقول: لستَ شيئاً! للصلصلة، ولشيْ مّا خُلقتَ! لئن سُلّطت عليك لأهلكنّك، ولئن سُلّطتَ عليّ لأعصينّك. قال: فلمّا نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قِبَل رأسه، فجعل لايجري شيء منها في جسده إلّا صار لحماً ودماً. فلمّا انتهت النفخة إلى سرّته نظر إلى جسده، فأعجبه ما رأى من حسنه، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾[1] قال: ضَجِراً لا صبر له على سرّاء ولا ضرّاء. قال: فلمّا تمّت النفخة في جسده، عطس فقال: الحمد لله ربّ العالمين، بإلهام من الله تعالى. فقال الله له: يرحمك الله يا آدم. قال: ثمّ قال الله للملائكة الّذين كانوا مع إبليس خاصّة دون الملائكة الّذين في السماوات: اسجدوا لآدم! فسجدوا كلّهم أجمعون إلّا إبليس أبى واستكبر لما كان حدّث به نفسه من كبره واغتراره، فقال: لا أسجد له وأنا خير منه و أكبر سنّاً وأقوى خلقاً، خلقتني من نار وخلقته من طين. يقول: إنّ النار أقوى من الطين. قال: فلمّا أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله وآيسه من الخير كلّه وجعله شيطاناً رجيماً، عقوبة لمعصيته. ثمّ علّم آدم الأسماء كلّها، وهي هذه الأسماء الّتي يتعارف بها الناس: إنسان ودابّة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ثمّ عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة، يعني الملائكة الّذين كانوا مع إبليس الّذين خلقوا من نار السموم، وقال لهم: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون أنّي لِمَ أجعل في الأرض خليفة. قال: فلمّا علمت الملائكة مؤاخذة الله عليهم فيما تكلّموا به من علم الغيب الّذي لايعلمه غيره الّذي ليس لهم به علم، قالوا: سبحانك! تنزيهاً لله من أن

(١) الإسراء ١٧: ١١.

يكون أحد يعلم الغيب غيره، تُبنا إليك لاعلم لنا إلّا ما علّمتنا! تبريّاً منهم من علم الغيب، إلّا ما علّمتنا كما علّمت آدم. فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يقول: أخبرهم بأسمائهم ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ أيّها الملائكة خاصّة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾ ولا يعلمه غيري ﴿وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿وَ مَاكُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السرّ كما أعلم العلانية، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار.

قال ابن جرير: وهذه الرواية عن ابن عبّاس تُنبئ عن أنّ قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ خطاب من الله جلّ ثناؤه لخاصّ من الملائكة دون الجميع، وأنّ الّذين قيل لهم ذلك من الملائكة كانوا قبيلة إبليس خاصّة، الّذين قاتلوا معه جنّ الأرض قبل خلق آدم. وأنّ الله إنّما خصّهم بقيل ذلك[1] امتحاناً منه لهم وابتلاءً ليُعَرّفهم قصور علمهم وفضل كثير ممّن هو أضعف خلقاً منهم من خلقه، عليهم، وأنّ كرامته لاتنال بقوى الأبدان وشدّة الأجسام كما ظنّه إبليس عدوّ الله. ويصرّح بأنّ قيلهم لربّهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ كانت هفوة منهم ورجماً بالغيب، وأنّ الله جلّ ثناؤه أطلعهم على مكروه ما نطقوا به من ذلك، ووقفهم عليه حتّى تابوا وأنابوا إليه ممّا قالوا ونطقوا من رجم الغيب بالظنون، وتبرّأوا إليه أن يعلم الغيب غيره، وأظهر لهم من إبليس ما كان منطوياً عليه من الكبر الّذي قد كان عنهم مستخفياً[2].

قال ابن كثير: هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها. قال وهذا الإسناد إلى ابن عبّاس يروى به تفسير مشهور. ثمّ نقل الحديث برواية السّدّي عن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبيّ ﷺ وعقّبه بقوله: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدّي وتقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعلّ بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو أنّهم أخذوه من بعض الكتب المتقدّمة. قال: والحاكم يروي في مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخاري!![3].

[٩٧٢/٢] وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج قال: خلق الله آدم في سماء الدنيا، وإنّما أسجد له

---

(١) أي بهذا القول.

(٢) الطبري ١: ٢٩٢ / ٥٠٩.

(٣) ابن كثير ١: ٧٨ ـ ٧٩.

ملائكة سماء الدنيا ولم يسجد له ملائكة السماوات(١).

[٩٧٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن عبدالله بن يحيى بن أبي كثير قال: سمعت أبي يقول إنّ الملائكة الّذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشرة آلاف فخرجت نارٌ من عند الله فأحرقتهم.

قال ابن كثير: وهذا أيضاً إسرائيليّ منكر كالّذي قبله. والله اعلم(٢).

وقال أبوجعفر الطبري ـ تعقيباً على رواية الضحّاك عن ابن عبّاس ـ: وقد رُوي عن ابن عبّاس خلاف هذه الرواية، وهو:

[٩٧٤/٢] ما حدّثني به موسى بن هارون بإسناده عن ابن عبّاس، وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ: لمّا فرغ الله من خلق ما أحبّ، استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ؛ وإنّما سمّوا الجنّ لأنّهم خـزّان الجنّة. وكان إبليس مع مُلكه خازناً، فوقع في صدره كبر وقال: ما أعطاني الله هذا إلّا لمـزيّة لي ـ هكذا قال موسى بن هارون، وقد حدّثني به غيره، وقال: لمزيّة لي على الملائكة ـ فلمّا وقـع ذلك الكبر في نفسه، اطّلع الله على ذلك منه، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربّنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرّيّة يُفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً ﴿قالُوا﴾ رَبَّنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني من شأن إبليس. فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها. فقالت الأرض: إنّي أعوذ بالله منك أن تنقص منّي أو تشينني! فرجع ولم يأخذ وقال: ربّ إنّها عاذت بك فأعذتها. فبعث الله ميكائيل، فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل. فبعث ملك الموت، فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره. فأخذ من وجه الأرض وخلط، فلم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به فبلّ التراب حتّى عاد طيناً لازباً ـ واللازب: هو الّذي يلتزق بعضه ببعض ـ ثمّ تُرك حتّى أنتن وتغيّر، وذلك حـين

(١) الدرّ ١: ١١٩؛ العظمة ٥: ١٥٦٢ / ١٠٣١، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء ﷺ).

(٢) ابن كثير ١: ٧٤ ـ ٧٥.

يقول: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ قال: منتن. ثمّ قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[١] فخلقه الله بيديه لكيلا يتكبّر إبليس عليه ليقول له: تتكبّر عمّا عملتُ بيديّ ولم أتكبّر أنا عنه؟ فخلقه بشراً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة. فمرّت به الملائكة ففزعوا منه لمّا رأوه، وكان أشدّهم منه فزعاً إبليس، فكان يمرّ فيضربه، فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخار وتكون له صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[٢] ويقول لأمر ما خُلقت! ودخل فيه فخرج من دبره، فقال للملائكة: لاترهبوا من هذا، فإنّ ربّكم صَمَد[٣] وهذا أجوف، لئن سُلّطت عليه لأهلكنّه! فلمّا بلغ الحين الّذي يريد الله ـ جلّ ثناؤه ـ أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له! فلمّا نفخ فيه الرّوح، فدخل الرّوح في رأسه عطس، فقالت له الملائكة: قل: الحمد لله! فقال: الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربّك! فلمّا دخل الروح في عينيه، نظر إلى ثمار الجنّة، فلمّا دخل في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الرّوح رجليه عجلان إلى ثمار الجنّة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٤] فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلّا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ـ أي استكبر وكان من الكافرين ـ قال الله له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ إذ أمرتك ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين، قال الله له: اخْرُجْ مِنْهَا ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ يعني ما ينبغي لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[٥] والصغار هو الذلّ. قال: وعلّم آدم الأسماء كلّها، ثمّ عرض الخلق على الملائكة فقال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنّ بني آدم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا له: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ﴾ الله: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الّذي أبدوا، وأعلم ما كنتم تكتمون، يعني ما أسرّ إبليس في نفسه من الكبر[٦].

---

(١) سورة ص ٣٨: ٧١ ـ ٧٢.
(٢) الرحمان ٥٥: ١٤.
(٣) الصمد: المصمت الّذي لا جوف له.
(٤) الأنبياء ٢١: ٣٧.
(٥) الأعراف ٧: ١٣.
(٦) الطبري ١: ٢٩٢ ـ ٢٩٤ / ٥١٠.

اختيار أبي جعفر الطبري

قال أبو جعفر: فهذا الخبر أوّله مخالف معناه معنى الرواية الّتي رُويت عن ابن عبّاس من رواية الضحّاك الّتي قد قدّمنا ذكرها قبلُ، وموافق معنى آخره معناها؛ وذلك أنّه ذكر في أوّله أنّ الملائكة سألت ربّها: ما ذاك الخليفة؟ حين قال لها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فأجابها أنّه تكون له ذرّيّة يُفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. فقالت الملائكة حينئذٍ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾؟ فكان قول الملائكة ما قالت من ذلك لربّها بعد إعلام الله إيّاها أنّ ذلك كائن من ذرّيّة الخليفة الّذي يجعله في الأرض، فذلك معنى خلاف أوّله معنى خبر الضحّاك الّذي ذكرناه.

وأمّا موافقته إيّاه في آخره، فهو قولهم في تأويل قوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّ بني آدم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء. وأنّ الملائكة قالت إذ قال لها ربُّها ذلك، تبرّياً من علم الغيب: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. وهذا إذا تدبّره ذو الفهم، علم أنّ أوّله يُفسد آخره، وأنّ آخره يُبطل معنى أوّله؛ وذلك أنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ إن كان أخبر الملائكة أنّ ذرّيّة الخليفة الّذي يجعله في الأرض تفسد فيها وتسفك الدماء، فقالت الملائكة لربّها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ فلا وجه لتوبيخها على أنْ أخبرت عمّن أخبرها الله عنه أنّه يفسد في الأرض ويسفك الدماء بمثل الّذي أخبرها عنهم ربُّها، فيجوز أن يقال لها فيما طوي عنها من العلوم: إن كنتم صادقين فيما علمتم بخبر الله إيّاكم أنّه كائن من الأمور، فأخبرتم به، فأخبرونا بالّذي قد طَوَى الله عنكم علمه، كما قد أخبرتمونا بالّذي قد أطلعكم الله عليه.

قال: بل ذلك خلف من التأويل، ودعوى على الله مالايجوز أن يكون له صفة. وأخشى أن يكون بعضُ نَقَلَةِ هذا الخبر هو الّذي غلط على من رواه عنه من الصحابة، وأن يكون التأويل منهم كان على ذلك: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فيما ظننتم أنكم أدركتموه من العلم بخبري إيّاكم أنّ بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، حتّى استجزتم أن تقولوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾. فيكون التوبيخ حينئذٍ واقعاً على ما ظنّوا أنّهم قد أدركوا بقول الله لهم: إنّه يكون له ذرّيّة يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، لا على إخبارهم بما أخبرهم الله به أنّه كائن. وذلك أن الله ـ جلّ ثناؤه ـ وإن كان أخبرهم عمّا يكون من بعض ذرّيّة خليفته في الأرض ما يكون

منه فيها من الفساد وسفك الدماء، فقد كان طوى عنهم الخبر عمّا يكون من كثير منهم ما يكون من طاعتهم ربَّهم وإصلاحهم في أرضه وحقن الدماء ورفعه منزلتهم وكرامتهم عليه، فلم يخبرهم بذلك، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ على ظنّ منها على تأويل هذين الخبرين اللّذين ذكرتُ، وظاهرهما أنّ جميع ذرّيّة الخليفة الّذي يجعله في الأرض يفسدون فيها ويسفكون فيها الدماء. فقال الله لهم إذ علّم آدم الأسماء كلّها: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنّكم تعلمون أنّ جميع بني آدم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء على ما ظننتم في أنفسكم، إنكاراً منه ــ جلّ ثناؤه ــ لقيلهم ما قالوا من ذلك على الجميع والعموم، وهو من صفة خاصّ ذرّيّة الخليفة منهم.

وهذا الّذي ذكرناه هو صفة منّا لتأويل الخبر لا القول الّذي نختاره في تأويل الآية[1].

قال أبو جعفر: وممّا يدلّ على ما ذكرنا من توجيه خبر الملائكة عن إفساد ذرّيّة الخليفة وسفكها الدماء على العموم:

[٩٧٥/٢] ما حدّثنا به ابن أحمدبن إسحاق الأهوازيّ بالإسناد إلى عبدالرحمان بن سابط في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ قال: يعنون الناس.

وقال آخرون في ذلك.

[٩٧٦/٢] بما حدّثنا به بشربن معاذ بإسناده عن قتادة قال: قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فاستشار الملائكة[2] في خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ وقد علمت الملائكة من علم الله أنّه لاشيء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض.

قال: وذكر لنا أنّ ابن عبّاس كان يقول: إنّ الله لمّا أخذ في خلق آدم، قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منّا ولا أعلم منّا. فابتلوا بخلق آدم، وكلّ خلق مبتلى، كما ابتليت السماوات والأرض بالطاعة، فقال الله: ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[3].

---

(١) الطبري ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) وفي الطبعة الجديدة: «فاستخار الملائكة» وهو أيضاً بمعنى الاستشارة، أي استشارهم ليرى الخير والصلاح في ذلك!

(٣) فصّلت ٤١: ١١.

قال أبو جعفر: وهذا الخبر عن قتادة يدلّ على أنّ قتادة كان يرى أنّ الملائكة قالت ما قالت من قولها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ على غير يقين علم تقدّم منها بأنّ ذلك كائن، ولكن على الرأي منها والظنّ، وأنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ أنكر ذلك من قيلها وردّ عليها ما رأت، بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنّه يكون من ذرّيّة ذلك الخليفة الأنبياء والرسل والمجتهدُ في طاعة الله(١).

قال: وقد رُوي عن قتادة خلاف هذا التأويل وهو:

[٩٧٧/٢] ما حدّثنا به الحسن بن يحيى بإسناده عن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا...﴾ قال: كان الله أعلمهم إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء.

وبمثل قول قتادة قال جماعة من أهل التأويل منهم الحسن البصري:

[٩٧٨/٢] حدّثنا القاسم بإسناده عن الحسن وقتادة قالا: قال الله لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إنّي فاعل، فعرضوا برأيهم، فعلّمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه لا يعلمونه، فقالوا بالعلم الّذي علّمهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ وقد كانت الملائكة علمت من علم الله أنّه لاذنب أعظم عند الله من سفك الدماء. ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك. قال: إنّي أعلم مالاتعلمون. فلمّا أخذ في خلق آدم، همست الملائكة فيما بينها، فقالوا: ليخلق ربّنا ما شاء أن يخلق، فلن يخلق خلقاً إلّا كنّا أعلم منه وأكرم عليه منه. فلمّا خلقه ونفخ فيه من روحه أمرهم أن يسجدوا له لما قالوا، ففضّله عليهم، فعلموا أنّهم ليسوا بخير منه. فقالوا: إن لم نكن خيراً منه فنحن أعلم منه، لأنّا كنّا قبله وخلقت الأمم قبله. فلمّا أُعجبوا بعلمهم ابتُلوا. فعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أنّي لا أخلق خلقاً إلّا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

قال [الحسن]: ففزع القوم إلى التوبة، وإليها يفزع كلّ مؤمن، فقالوا: سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. لقولهم: ليخلق ربّنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منّا ولا أعلم منّا.

قال: علّمه اسم كلّ شيء، هذه الجبال وهذه البغال والإبل والجنّ والوحش وجعل يسمّي كلّ

(١) الطبري ١: ٢٩٥ ـ ٢٩٦ / ٥١٢.

شيء باسمه، وعرضت عليه كلّ أمّة. فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. قال: أمّا ما أبدوا فقولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. وأمّا ماكتموه فقول بعضهم لبعض: نحن خير منه وأعلم(١).

[٢/ ٩٧٩] وعن ابن عبّاس في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ قال: أي بما بَعُدوا عن أمري(٢).

[٢/ ٩٨٠] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن سابط في قول الله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ قال: يعنون الحرام(٣).

[٢/ ٩٨١] وأخرج ابن سعد وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله خلق آدم من تراب، ثمّ جعله طيناً، ثمّ تركه حتّى إذا كان حَمَأً مسنوناً خلقه وصوّره، ثمّ تركه حتّى إذا كان صلصالاً كالفخّار، وجعل إبليس يمرّ به فيقول: لقد خُلقت لأمر عظيم، ثمّ نفخ الله فيه من روحه، فكان أوّل شيء جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فلقّنه الله حمد ربّه فقال الربّ: يرحمك ربّك. ثمّ قال: يا آدم اذهب إلى أولئك النفر فقل لهم وانظر ماذا يقولون؟ فجاء فسلّم عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، فجاء إلى ربّه فقال: ماذا قالوا لك، وهو أعلم بما قالوا له؟ قال: يا ربّ سلّمت عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله قال: يا آدم هذه تحيّتك وتحيّة ذرّيّتك، قال: يا ربّ وما ذرّيّتي؟! قال: اختر يدي، قال: أختار يمين ربّي، وكلتا يدي ربّي يمين. فبسط الله كفّه فإذا كلّ ما هو كائن من ذرّيّته في كفّ الرحمان عزّ وجلّ»(٤).

[٢/ ٩٨٢] وأخرج ابن حِبّان عن أنس: أنّ النبي ﷺ قال: «لمّا نفخ الله في آدم الروح فبلغ الروح رأسه عطس فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله»(٥).

---

(١) المصدر / ٥١٤.

(٢) المصدر: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ / ٤٧٥.

(٣) ابن أبي حاتم ١: ٧٧ / ٣٢٠.

(٤) الدرّ ١: ١١٨؛ الطبقات ١: ٣٠ ـ ٣١، باختصار؛ أبو يعلى ١١: ٤٥٣ ـ ٤٥٤ / ٦٥٨٠؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٤٧٤ باختلاف واختصار؛ مجمع الزوائد ٨: ١٩٧، كتاب الأنبياء، باب ذكر نبيّنا آدم أبي البشر ﷺ قال الهيثمي: رواه أبو يعلى وفيه إسماعيل بن رافع. قال البخاري: ثقة مقارب الحديث. وضعّفه الجمهور وبقيّة رجاله رجال الصحيح؛ كنزالعمّال ٦: ١٦٣ / ١٥٢٢٨.

(٥) الدرّ ١: ١١٨؛ ابن حِبّان ١٤: ٣٧ / ٦١٦٥، كتاب التاريخ، باب ١ (بدء الخلق).

[٢/٩٨٣] وأخرج ابن حِبّان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا خلق الله آدم عطس، فألهمه الله ربُّه أن قال: الحمد لله. قال له ربُّه: يرحمك الله. فلذلك سبقت رحمتُه غضبَه»[١].

[٢/٩٨٤] وأخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس قال: لمّا فرغ الله من خلق آدم وجرى فيه الروح عطس فقال: الحمد لله. فقال له ربّه: يرحمك ربّك[٢].

[٢/٩٨٥] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «خلق الله آدم وطوله ستّون ذراعاً. قال: اذهب فسلّم على أولئك النفر من الملائكة فاسمع ما يحيّونك، فإنّها تحيّتك وتحيّة ذرّيّتك. فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله. فكلّ من يدخل الجنّة على صورة آدم طوله ستّون ذراعاً، فلم تزل الخلق تنقص حتّى الآن»[٣].

[٢/٩٨٦] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي الدنيا في صفة الجنّة والطبراني في الكبير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنّة الجنّة جُرداً مُرداً بيضاً جعاداً مكحّلين، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم طوله ستّون ذراعا في عرض سبعة أذرع»[٤].

[٢/٩٨٧] وأخرج مسلم وأبو داوود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة. فيه خلق الله آدم، وفيه أُدخل الجنّة، وفيه أُهبط منها، وفيه مات، وفيه تيب عليه، وفيه تقوم الساعة»[٥].

[٢/٩٨٨] وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: خلقت

---

(١) الدرّ ١: ١١٨؛ ابن حبّان ١٤: ٣٦ / ٦١٦٤.
(٢) الدرّ ١: ١١٨؛ الحاكم ٢: ٢٦١، كتاب التفسير، سورة البقرة.

(٣) الدرّ ١: ١١٨؛ مسند أحمد ٢: ٣١٥؛ البخاري ٤: ١٠٢، كتاب الأنبياء، باب ١؛ مسلم ٨: ١٤٩، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب: يدخل الجنّة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير.

(٤) الدرّ ١: ١١٨؛ المصنّف ٨: ٧٥ / ٥٣؛ مسند أحمد ٢: ٤١٥، وفيه: «على خلق آدم سبعين ذراعاً...»؛ كتاب صفة الجنّة لابن أبي الدنيا: ١٧ / ١٥؛ الأوسط ٥: ٣١٨؛ مجمع الزوائد ١٠: ٣٩٩، باب كيف يدخل أهل الجنّة الجنّة. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن.

(٥) الدرّ ١: ١١٩؛ مسلم ٣: ٦، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، باختلاف؛ أبو داوود ١: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ / ١٠٤٦، كتاب الصلاة، باب ٢٠٦ (من صلّى لغير القبلة ثمّ علم)؛ الترمذي ١: ٣٠٥ / ٤٨٦، أبواب الجمعة، باب ٣٥٠ (باب فضل صلاة الجمعة).

الكعبة قبل الأرض بألفي سنة. قالوا: كيف خُلقت قبلُ وهي من الأرض؟ قال: كانت حشفة[1] على الماء عليها ملكان يسبّحان الليل والنهار ألفي سنة، فلمّا أراد الله أن يخلق الأرض دحاها منها فجعلها في وسط الأرض، فلمّا أراد الله أن يخلق آدم بعث ملكاً من حملة العرش يأتي بتراب من الأرض، فلمّا هوى ليأخذ، قالت الأرض: أسألك بالّذي أرسلك أن لاتأخذ منّي اليوم شيئاً يكون منه للنار نصيب غداً، فتركها. فلمّا رجع إلى ربّه قال: ما منعك أن تأتي بما أمرتُك؟ قال: سألَتْني بك فعظّمت أن أردّ شيئاً سألني بك. فأرسل ملكاً آخر فقال: مثل ذلك حتّى أرسلهم كلّهم، فأرسل ملك الموت فقالت له مثل ذلك، قال: إنّ الّذي أرسلني أحقّ بالطاعة منك. فأخذ من وجه الأرض كلّها من طيبها وخبيثها، حتّى كانت قبضة عند موضع الكعبة، فجاء به إلى ربّه فصبّ عليه من ماء الجنّة، فجاء حمأً مسنوناً، فخلق منه آدم بيده، ثمّ مسح على ظهره فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فتركه أربعين ليلة لاينفخ فيه الروح، ثمّ نفخ فيه الروح، فجرى فيه الروح من رأسه إلى صدره، فأراد أن يثب. فتلا أبو هريرة: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[2].

فلمّا جرى فيه الروح قعد جالساً فعطس، فقال الله: قل: الحمد لله. فقال: الحمد لله. فقال: رحمك ربّك، ثمّ قال: انطلق إلى هؤلاء الملائكة فسلّم عليهم، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقال: هذه تحيّتك وتحيّة ذرّيّتك يا آدم!.

أيّ مكان أحبّ إليك أن أريك ذرّيّتك فيه؟ فقال: بيمين ربّي وكلتا يديّ ربّي يمين. فبسط يمينه فأراه فيها ذرّيّته كلّهم وما هو خالق إلى يوم القيامة. الصحيح على هيئته، والمبتلي على هيئته، والأنبياء كلّهم على هيئتهم. فقال: أي ربّ، ألا عافيتهم كلّهم؟ فقال: إنّي أحببت أن أُشكَرَ. فرأى فيها رجلاً ساطعاً نوره فقال: أي ربّ من هذا؟ فقال: هذا ابنك داوود، فقال: كم عمره؟ قال: ستّون سنة، قال: كم عمري؟ قال: ألف سنة، قال: انقص من عمري أربعين سنة فزدها في عمره، ثمّ رأى آخر ساطعاً نوره ليس مع أحد من الأنبياء مثل ما معه، فقال: أي ربّ من هذا؟ قال: هذا ابنك محمّد، وهو أوّل من يدخل الجنّة، فقال آدم: الحمد لله الّذي جعل من ذرّيّتي من يسبقني إلى الجنّة ولا أحسده.

فلمّا مضى لآدم ألف سنة إلّا أربعين جاءته الملائكة تتوفّاه عياناً، قال: ما تريدون؟ قالوا: أردنا

---

(١) الحَشَفَة: الجزيرة في البحر إذا كانت صغيرة ومستديرة.

(٢) الأنبياء ٢١: ٣٧.

أن نتوفّاك، قال: بقي من أجلي أربعون! قالوا: أليس قد أعطيتها ابنك داوود؟ قال: ما أعطيت أحداً شيئاً. قال أبو هريرة: جحد آدم وجحدت ذرّيّته، ونسي ونسيت ذرّيّته[1].

[٩٨٩/٢] وأخرج أبو الشيخ بسند صحيح عن ابن زيد يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «إنّ الله لمّا أراد أن يخلق آدم بعث ملكاً والأرض يومئذ وافرة، فقال: اقبض لي منها قبضة ائتني بها أخلق منها خلقاً. قالت: فإنّي أعوذ بأسماء الله أن تقبض اليوم منّي قبضة يخلق خلقاً يكون لجهنّم منه نصيب، فعرج الملك ولم يقبض منها شيئاً. فقال له: مالك؟ قال: عاذت بأسمائك أن أقبض منها خلقاً يكون لجهنّم منه نصيب فلم أجد عليها مجازاً، فبعث ملكاً آخر، فلمّا أتاها قالت له مثل ما قالت للأوّل فعرج ولم يقبض منها شيئاً، فقال له الربّ مثل ما قال لأوّل، ثمّ بعث الثالث فقالت له مثل ما قالت لهما، فعرج ولم يقبض منها شيئاً، فقال له الربّ تعالى مثل ما قال للّذين قبله.

ثمّ دعا إبليس ـ واسمه يومئذ في الملائكة حباب ـ فقال له: اذهب فاقبض لي من الأرض قبضة، فذهب حتّى أتاها، فقالت له مثل ما قالت للّذين من قبله من الملائكة، فقبض منها قبضة ولم يسمع لحرجها، فلمّا أتاه قال الله تعالى: ما أعاذتك بأسمائي منك؟ قال: بلى. قال: فما كان من أسمائي ما يعيذها منك؟ قال: بلى. ولكن أمرتني فأطعتك. فقال الله: لأخلقنّ منها خلقاً يسوء منه وجهك! فألقى الله تلك القبضة في نهر من أنهار الجنّة حتّى صارت طيناً، فكان أوّل طين، ثمّ تركها حتّى صارت حمأً مسنوناً منتن الريح، ثمّ خلق منها آدم، ثمّ تركه في الجنّة أربعين سنة حتّى صار صلصالاً كالفخّار، يبس حتّى كان كالفخّار. ثمّ نفخ فيه الروح بعد ذلك، وأوحى الله إلى ملائكته: إذا نفخت فيه من الروح فقعوا له ساجدين، وكان آدم مستلقياً في الجنّة فجلس حين وجد مسّ الروح فعطس، فقال الله له: احمد ربّك فقال: الحمد لله، فقال: يرحمك ربّك. فمن هنالك يقال: سبقت رحمته غضبه. وسجدت الملائكة إلّا هو، قام. فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن لا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[2] ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[3] فأخبر الله أنّه لا يستطيع أن يُعلن على الله ما يكيد على صاحبه. فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ

(١) الدرّ ١: ١١٥ـ١١٦.
(٢) الأعراف ٧: ١٢.
(٣) سورة ص ٣٨: ٧٥.

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[١] وقال الله: إنّ إبليس قد صدّق عليهم ظنّه، وإنّما كان ظنّه أن لا يجد أكثرهم شاكرين»[٢].

[٢/٩٩٠] وأخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن أبي العالية قال: إنّ الله خلق الملائكة يوم الأربعاء، وخلق الجنّ يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة، فكفر قوم من الجنّ. فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم ببغيهم، فكانت الدماء وكان الفساد في الأرض. فمن ثمّ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، كما أفسدت الجنّ ﴿وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ كما سفكوا[٣].

[٢/٩٩١] وروى عيسى بن حمزة قال: قال رجل لأبي عبدالله ﷺ: «جعلت فداك، إنّ الناس يزعمون أنّ الدنيا عمرها سبعة آلاف سنة؟ فقال: ليس كما يقولون إنّ الله خلق لها خمسين ألف عام فتركها قاعاً قفراء خاوية عشرة آلاف عام، ثمّ بدا لله بَداء فخلق فيها خلقاً ليس من الجنّ ولا من الملائكة ولا من الإنس، وقدّر لهم عشرة آلاف عام، فلمّا قربت آجالهم أفسدوا فيها، فدمّر الله عليهم تدميراً، ثمّ تركها قاعاً قفراء خاوية عشرة آلاف عام، ثمّ خلق فيها الجنّ، وقدّر لهم عشرة آلاف عام، فلمّا قربت آجالهم أفسدوا فيها وسفكوا الدماء وهو قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ كما سفكت بنو الجان، فأهلكهم الله ثمّ بدا لله فخلق آدم وقدّر له عشرة آلاف عام، وقد مضى من ذلك سبعة آلاف عام ومائتان وأنتم في آخر الزمان»[٤].

[٢/٩٩٢] وروى العيّاشي، بإسناده إلى هشام بن سالم: قال أبو عبدالله ﷺ: «ما علم الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ لولا أنّهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء»[٥].

[٢/٩٩٣] وأخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس قال: لقد أخرج الله آدم من الجنّة قبل أن

---

(١) الأعراف ٧: ١٢ـ١٧.

(٢) الدرّ ١: ١١٩ ـ ١٢٠؛ العظمة ٥: ١٥٦٣ ـ ١٥٦٤ / ١٠٣٢، باختلاف، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء ﷺ).

(٣) الدرّ ١: ١١٢؛ الطبري ١: ٢٨٨ و ٢٩٧ / ٥٠٥ و ٥١٥، نقلاً عن الربيع بن أنس؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٧ / ٣٢٢؛ العظمة ٤: ١٣٦٤ ـ ١٣٦٥ / ٨٨٠، باب ٢٨ (صفة ابتداء الخلق)، نقلاً عن الربيع بن أنس؛ ابن كثير ١: ٧٤.

(٤) البرهان ١: ١٦٧ / ٧؛ العيّاشي ١: ٤٩ / ٨؛ البحار ٥٤: ٨٦ـ٨٧ / ٧٢، باب ١.

(٥) البرهان ١: ١٦٥ / ٣؛ العيّاشي ١: ٤٧ / ٤؛ البحار ١١: ١١٧ / ٤٧.

يدخلها أحد. قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾. وقد كان فيها ـ قبل أن يُخْلَق بألفي عام ـ الجنُّ بنو الجانّ، ففسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء. فلمّا أفسدوا في الأرض بعث الله عليهم جنوداً من الملائكة، فضربوهم حتّى ألحقوهم بجزائر البحور. فلمّا قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ كما فعل أولئك الجانّ. فقال الله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

[٩٩٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى عبدالله بن عمروبن العاص، قال: كان الجنّ بنو الجانّ في الأرض قبل أن يُخلَق آدم بألفي سنة فأفسدوا في الأرض، سفكوا الدماء. فبعث جنداً من الملائكة فضربوهم حتّى ألحقوهم بجزائر البحور. فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾. قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

[٩٩٥/٢] وأخرج ابن جرير عن عليّ ﷺ قال: «إنّ آدم خُلق من أديم الأرض، فيه الطيّب والصالح والرديّ، فكلّ ذلك أنت راءٍ في وُلده الصالح والرديّ»[٣].

[٩٩٦/٢] وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن أبي ذرّ قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «إنّ آدم خُلق من ثلاث تُربات: سوداء وبيضاء وحمراء»[٤].

[٩٩٧/٢] وأخرج ابن سعد في الطبقات وعبد بن حميد وأبوبكر الشافعيّ في الغيلانيّات وابن عساكر عن سعيد بن جبير قال: خلق الله آدم من أرض يقال لها دحناء[٥].

[٩٩٨/٢] وأخرج الديلميّ عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «الهوى والبلاء والشهوة معجونة بطينة آدم ﷺ»[٦].

[٩٩٩/٢] وأخرج ابن سعد في طبقاته وأحمد وعبدبن حميد وأبو داوود والترمذي وصحّحه

---

(١) الدرّ ١: ١١١؛ الحاكم ٢: ٢٦١؛ التبيان ١: ١٣١، بلفظ: قال ابن عبّاس: إنّه كان في الأرض الجنّ فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فأُهلكوا فجعل الله آدم وذرّيّته بدلهم.

(٢) ابن أبي حاتم ١: ٧٧ / ٣٢١؛ ابن كثير ١: ٧٤.

(٣) الطبري ١: ٣٠٧ ـ ٣٠٨ / ٥٣٥؛ كنزالعمّال ٦: ١٦٢ / ١٥٢٢٧؛ الدرّ ١: ١١٧.

(٤) الدرّ ١: ١١٧؛ ابن عساكر ٧: ٣٧٩، الفصل ٥٧٨ (آدم نبيّ الله)؛ الطبقات ١: ٣٤، وفيه: «وخضراء» بدل «وحمراء».

(٥) الدرّ ١: ١١٧؛ الطبقات ١: ٢٥ ـ ٢٦؛ ابن عساكر ٧: ٣٨٠ و ٣٨١، (آدم نبيّ الله).

(٦) الدرّ ١: ١١٧؛ فردوس الأخبار للديلمي ٥: ٨٣ / ٧٢٥١؛ الكامل لابن عديّ ١: ١٩٧.

والحكيم في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظَمة والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك. والسهل والحزن والخبيث والطيّب»(١).

[٢/ ١٠٠٠] وأخرج ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص منّي، فرجع ولم يأخذ شيئاً وقال: يا ربّ إنّها أعاذت بك فأعذتها. فبعث الله ميكائيل كذلك. فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ـ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ـ فصعد به، فبلّ التراب حتّى صار طيناً لازباً واللازب هو: الّذي يلزق بعضه ببعض. ثمّ قال للملائكة: إنّي خالق بشراً من طين، فخلقه الله بيده لئلا يتكبّر عليه إبليس، فخلقه بشراً سويّاً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرّت به الملائكة ففزعوا منه لمّا رأوه، وكان أشدّهم منه فزعاً إبليس، فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخّار، يكون له صلصلة. فيقول: لأمر مّا خُلِقْتَ! ويدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول للملائكة: لا ترهبوا منه، فإنّ ربّكم صمد وهذا أجوف، لئن سُلّطت عليه لأهلكنّه.

فلمّا بلغ الحين الّذي يريد الله أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلمّا نفخ فيه الروح فدخل في رأسه عطس فقالت الملائكة: الحمد لله. فقال: الحمد لله، فقال الله له: يرحمك ربّك. فلمّا دخلت الروح في عنقه نظر إلى ثمار الجنّة، فلمّا دخلت إلى جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عَجَلاً إلى ثمار الجنّة. وذلك قوله تعالى: ﴿خُلِقَ

---

(١) الدرّ ١: ١١٥؛ الطبقات ١: ٢٦؛ مسند أحمد ٤: ٤٠٠ و ٤٠٦؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ١٩٣ / ٥٤٩؛ أبو داوود ٢: ٤١٠ / ٤٦٩٣؛ الترمذي ٤: ٢٧٣ / ٣٠٣١؛ نوادر الأصول ١: ٣٣٢، الأصل ٦٧؛ الطبري ١: ٣٠٨ / ٥٣٨؛ العظمة ٥: ١٥٤٤ / ١٠٠٢؛ الحاكم ٢: ٢٦١ ـ ٢٦٢، كتاب التفسير؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٤٣؛ البيهقي ٩: ٣؛ كنزالعمّال ٦: ١٢٨ / ١٥١٢٦.

الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[(١)(٢)].

[١٠٠١/٢] وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عبّاس قال: بعث ربّ العزّة إبليس، فأخذ من أديم الأرض: من عذبها ومالحها، فخلق منها آدم. فكلّ شيء خلقه من عذبها فهو صائر إلى السعادة وإن كان ابن كافرَيْن، وكلّ شيء خلقه من مالحها فهو صائر إلى الشقاء وإن كان ابن نبيَّين. قال: ومن ثمّ قال إبليس: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؟ إنّ هذهالطينة أنا جئت بها. ومن ثمّ سمّي آدم، لأنّه أُخِذَ من أديم الأرض[(٣)].

[١٠٠٢/٢] وأخرج الفريابي وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عبّاس قال: إنّما سمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض، الحمرة، والبياض، والسواد، وكذلك ألوان الناس مختلفة فيها الأحمر، والأبيض، والأسود، والطيّب، والخبيث[(٤)].

وروي عن الضحّاك: أنّ الأدمة هي السمرة[(٥)].

[١٠٠٣/٢] وروى أبو إسحاق الثعلبي عن السدّي عمّن حدّثه عن ابن عبّاس قال: إنّما سمّي آدم لأنّه خُلق من أديم الأرض. ومنهم من قال: سمّي بذلك لأنّه خلق من التراب، والتراب بلسان العبرانيّة آدم. ومنهم من قال: سمّي بذلك لأدمته، لأنّه كان آدم اللّون. وكنيته أبو محمّد وأبو البشر[(٦)].

[١٠٠٤/٢] وعن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ليس في الجنّة أحد يكنّى إلّا آدم فإنّه يكنّى أبا محمّد![(٧)].

---

(١) الأنبياء ٢١: ٣٧.

(٢) الدرّ ١: ١١٦ ـ ١١٧؛ الطبري ١: ٢٩٢ ـ ٢٩٤ / ٥١٠؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥١٥ ـ ٥١٦، باب ما جاء في تفسير الروح، باختلاف يسير؛ ابن عساكر ٧: ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٣) الدرّ ١: ١١٧؛ الطبقات ١: ٢٦، باختلاف يسير؛ الطبري ١: ٣٠٧ / ٥٣٤، بلفظ: عن ابن عبّاس قال: بعث ربّ العزّة ملك الموت فأخذ من أديم الأرض من عذبها ومالحها فخلق منه آدم ومن ثمّ سُمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض؛ ابن عساكر ٧: ٣٨٠، باختلاف يسير.

(٤) الدرّ ١: ١٢٠؛ الطبقات ١: ٢٦، قريباً لما رواه البيهقي نقلاً عن سعيدبن جبير؛ الحاكم ٢: ٣٨١، كتاب التفسير، سورة طه؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٤٢ ـ ٥٤٤، باب بدء الخلق؛ الثعلبي ١: ١٨٠.

(٥) القرطبي ١: ٢٧٩.

(٦) الثعلبي ١: ١٨٠ ـ ١٨١.

(٧) المصدر. وذكر جيمس هاكس: أنّ آدم: الطين الأحمر. (قاموس الكتاب المقدّس: ٢٥).

تلك كانت روايات أهل الحديث ولعلّ بعضها أقاصيص، والآن فاستمع إلى روايات أُخرى قد تحتمل التأويل إلى وجه مقبول:

[١٠٠٥/٢] روى قطب الدين الراوندي بالإسناد إلى الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أهل الجنّة ليست لهم كُنَى إلّا آدم عليه السلام فإنّه يكنّى بأبي محمّد توقيراً وتعظيماً»[١].

[١٠٠٦/٢] وروى أبو جعفر الكليني عن شيخه عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن حمّاد بن عيسى، عن ربعيّ بن عبدالله عن رجل، عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خلق النبيّين من طينة علّيّين: قلوبهم وأبدانهم، وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة وخلق أبدان المؤمنين من دون ذلك، وخلق الكفّار من طينة سجّين، قلوبهم وأبدانهم. فخلط بين الطينتين، فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن، ومن هاهنا يصيب المؤمن السيّئة، ومن هاهنا يصيب الكافر الحسنة، فقلوب المؤمنين تحنُّ إلى ما خلقوا منه وقلوب الكافرين تحنُّ إلى ما خلقوا منه».

[١٠٠٧/٢] وبإسناده عن عبدالغفّار الجازيّ[٢]، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خلق المؤمن من طينة الجنّة وخلق الكافر من طينة النّار؛ وقال: إذا أراد الله ـ عزّ وجلّ ـ بعبد خيراً طيّب روحه وجسده، فلا يسمع شيئاً من الخير إلّا عرفه، ولا يسمع شيئاً من المنكر إلّا أنكره؛ قال: وسمعته يقول: الطينات ثلاث: طينة الأنبياء، والمؤمن من تلك الطينة إلّا أنّ الأنبياء هم من صفوتها، هم الأصل ولهم فضلهم، والمؤمنون الفرع من طين لازب، كذلك لا يفرّق الله ـ عزّ وجلّ ـ بينهم وبين شيعتهم؛ وقال: طينة النّاصب من حمأ مسنون. وأمّا المستضعفون فمن تراب، لا يتحوّل مؤمنٌ عن إيمانه ولا ناصب عن نُصبه، ولله المشيئة فيهم».

[١٠٠٨/٢] وبإسناده عن صالح بن سهل قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك من أيّ شيء خلق الله ـ عزّ وجلّ ـ طينة المؤمن؟ فقال: من طينة الأنبياء. فلم تنجس أبداً».

[١٠٠٩/٢] وبإسناده عن أبي حمزة الثُّماليّ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إنّ الله ـ جلّ وعزّ ـ خلقنا من أعلى علّيّين وخلق قلوب شيعتنا ممّا خُلقنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، وقلوبهم

---

(١) البحار ١١: ١٠٧/١٤ عن النوادر: ٩.

(٢) هو عبدالغفّار بن حبيب الجازيّ، نسبة إلى الجازيّة، قرية بالنهرين.

تهوي إلينا لأنّها خلقت ممّا خلقنا منه، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ .كِتَابٌ مَرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1]. وخلق عدوّنا من سجّين وخلق قلوب شيعتهم ممّا خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوي إليهم، لأنّها خُلقت ممّا خُلقوا منه، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ .كِتَابٌ مَرْقُومٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾»[2].

[١٠١٠/٢] وبإسناده عن عثمان بن يوسف قال: أخبرني عبدالله بن كيسان، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «قلت له: جعلت فداك أنا مولاك، عبدالله بن كيسان، قال: أمّا النسب فأعرفه وأمّا أنت، فلست أعرفك، قال: قلت له: إنّي ولدت بالجبل ونشأت في أرض فارس وإنّني أُخالط النّاس في التجارات وغير ذلك، فأُخالط الرّجل، فأرى له حسن السّمت[3] وحسن الخلق و[كثرة] أمانة، ثمّ أُفتّشه فأتبيّنه عن عداوتكم وأُخالط الرجل فأرى منه سوء الخلق وقلّة أمانة وزعارة[4] ثمّ أُفتّشه فأتبيّنه عن ولايتكم، فكيف يكون ذلك؟ فقال لي: أما علمت يا ابن كيسان أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أخذ طينة من الجنّة وطينة من النّار، فخلطهما جميعاً، ثمّ نزع هذه من هذه؛ وهذه من هذه فما رأيت من أُولئك من الأمانة وحسن الخلق وحسن السّمت فممّا مسّتهم من طينة الجنّة وهم يعودون إلى ما خُلقوا منه، وما رأيت من هؤلاء من قلّة الأمانة وسوء الخلق والزعارة، فممّا مسّتهم من طينه النّار وهم يعودون إلى ما خلقوا منه».

[١٠١١/٢] وبإسناده عن صالح بن سهل قال: «قلت لأبي عبدالله ﷺ: المؤمنون من طينة الأنبياء؟ قال: نعم».

[١٠١٢/٢] وبإسناده عن إبراهيم، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لمّا أراد أن يخلق آدم ﷺ بعث جبرئيل ﷺ في أوّل ساعة من يوم الجمعة، فقبض بيمينه قبضة، بلغت قبضته من السّماء السّابعة إلى السّماء الدنيا، وأخذ من كلّ سماء تربة، وقبض قبضة أُخرى من الأرض السّابعة العُليا إلى الأرض السّابعة القُصوى، فأمر الله ـ عزّ وجلّ ـ كلمته فأمسك القبضة الأولى بيمينه والقبضة

(١) المطفّفين ٨٣: ١٩ ـ ٢١. (٢) المطفّفين ٨٣: ٧ ـ ١٠.

(٣) السمت: هيئة أهل الخير.

(٤) الزعارة: سوء الخلق. لايصرف منه فعل ويقال للسيء الخلق الزعرور وفي بعض النسخ «الدعارة» وهو الفساد والفسوق والخبث.

الأُخرى بشماله. ففلق الطين فلقتين فذرا من الأرض ذرواً[١] و من السّماوات ذروا فقال للّذي بيمينه: منك الرّسل والأنبياء والأوصياء والصدّيقون والمؤمنون والسعداء ومن أُريد كرامته. فوجب لهم ما قال كما قال. وقال للّذي بشماله: منك الجبّارون والمشركون والكافرون والطواغيت ومن أُريد هوانه وشقوته. فوجب لهم ما قال كما قال. ثمّ إنّ الطينتين خلطتا جميعاً. وذلك قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى﴾[٢] فالحبّ طينة المؤمنين الّتي ألقى الله عليها محبّته والنوى طينة الكافرين الّذين نأوا عن كلّ خير وإنّما سمّي النوى من أجل أنّه نأى عن كلّ خير وتباعد عنه وقال الله عزّ وجلّ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ فالحيّ: المؤمن الّذي تخرج طينته من طينة الكافر والميّت الّذي يخرج من الحيّ: هو الكافر الّذي يخرج من طينة المؤمن. فالحيّ: المؤمن، والميّت: الكافر وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[٣] فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر وكان حياته حين فرّق الله ـ عزّ وجلّ ـ بينهما بكلمته كذلك يخرج الله ـ عزّوجلّ ـ المؤمن في الميلاد من الظّلمة بعد دخوله فيها إلى النور ويخرج الكافر من النّور إلى الظّلمة بعد دخوله إلى النّور وذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾»[٤].

[١٠١٣/٢] وبإسناده عن أبان بن عثمان، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لو علم الناس كيف ابتداء الخلق ما اختلف اثنان. إنّ الله ـ عزّوجلّ ـ قبل أن يخلق الخلق قال: كن ماء عذباً أخلق منك جنّتي وأهل طاعتي وكن ملحاً أُجاجاً أخلق منك ناري وأهل معصيتي ثمّ أمرهما فامتزجا. فمن ذلك صار يلد المؤمن الكافر والكافر المؤمن ثمّ أخذ طيناً من أديم الأرض فعركه عركاً شديداً فإذا هم كالذرّ يدبّون. فقال لأصحاب اليمين: إلى الجنّة بسلام وقال لأصحاب الشمال: إلى النار ولا أُبالي، ثمّ أمر ناراً فأُسعرت. فقال لأصحاب الشمال: ادخلوها. فهابوها. فقال لأصحاب اليمين: ادخلوها فدخلوها. فقال: كوني برداً وسلاماً فكانت برداً وسلاماً. فقال أصحاب الشمال: يا ربّ أقلنا. فقال: قد أقلتكم فادخلوها. فذهبوا فهابوها. فثمّ ثبتت الطاعة والمعصية فلايستطيع هؤلاء أن يكونوا من هؤلاء؛ ولا هؤلاء من هؤلاء».

---

(١) الفلق: الشقّ والفصل. والذرو: الإذهاب و التفريق. (٢) الأنعام ٦: ٩٥.

(٣) الأنعام ٦: ١٢٢. (٤) يس ٣٦: ٧٠.

[١٠١٤/٢] وبإسناده عن ابن أُذينة، عن زرارة أنّ رجلا سأل أباجعفر عليه السلام عن قول الله ـ جلّ وعزّ ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ فقال: «حدّثني أبي أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قبض قبضة من تراب التربة الّتي خلق منها آدم عليه السلام فصبّ عليها الماء العذب الفرات ثمّ تركها أربعين صباحاً. ثمّ صبّ عليها الماء المالح الأُجاج فتركها أربعين صباحاً. فلمّا اختمرت الطينة أخذها فعركها عركاً شديداً فخرجوا كالذرّ من يمينه وشماله وأمرهم جميعاً أن يقعوا في النار، فدخل أصحاب اليمين، فصارت عليهم برداً وسلاماً وأبى أصحاب الشمال أن يدخلوها».

[١٠١٥/٢] وبإسناده عن أبان بن عثمان عن محمّدبن عليّ الحلبيّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لمّا أراد أن يخلق آدم عليه السلام أرسل الماء على الطين، ثمّ قبض قبضة فعركها ثمّ فرّقها فرقتين بيده ثمّ ذرأهم فإذا هم يدبّون، ثمّ رفع لهم ناراً فأمر أهل الشمال أن يدخلوها فذهبوا إليها فهابوها فلم يدخلوها ثمّ أمر أهل اليمين أن يدخلوها فذهبوا فدخلوها فأمر الله ـ جلّ وعزّ ـ النار فكانت عليهم برداً وسلاماً. فلمّا رأى ذلك أهل الشمال قالوا: ربّنا أقلنا. فأقالهم، ثمّ قال لهم: ادخلوها فذهبوا فقاموا عليها ولم يدخلوها. فأعادهم طيناً وخلق منها آدم عليه السلام وقال أبو عبدالله عليه السلام: فلن يستطيع هؤلاء أن يكونوا من هؤلاء ولا هؤلاء أن يكونوا من هؤلاء. قال: فيرون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوّل من دخل تلك النار فلذلك قوله ـ جلّ وعزّ ـ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾»[١].

[١٠١٦/٢] وبإسناده عن زرارة، عن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ حيث خلق الخلق، خلق ماء عذباً وماء مالحاً أُجاجاً، فامتزج الماءان. فأخذ طيناً من أديم الأرض فعركه عركاً شديداً، فقال لأصحاب اليمين وهم كالذرّ يدبّون: إلى الجنّة بسلام وقال لأصحاب الشمال: إلى النار ولا أُبالي، ثمّ قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٢]، ثمّ أخذ الميثاق على النبيّين، فقال: ألستُ بربّكم وأنّ هذا محمّدٌ رسولي، وأنّ هذا عليٌّ أميرالمؤمنين؟ قالوا: بلى فثبتت لهم النبوّة وأخذ الميثاق على أُولي العزم أنّني ربّكم ومحمّد رسولي وعليّ أميرالمؤمنين وأوصياؤه من بعده ولاة أمري وخزّان علمي عليهم السلام، وأنّ المهديّ أنتصر به لديني

(١) الزخرف ٤٣: ٨١.
(٢) الأعراف ٧: ١٧٢.

وأظهر به دولتي وأنتقم به من أعدائي وأُعبد به طوعاً وكرهاً قالوا: أقررنا يا ربِّ وشهدنا، ولم يجحد آدم ولم يقرَّ فثبتت العزيمة لهؤلاء الخمسة في المهديِّ ولم يكن لآدم عزمٌ على الإقرار به وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ قال: إنّما هو: فترك. ثمَّ أمر ناراً فأُجّجت، فقال لأصحاب الشمال: اُدخلوها فهابوها، وقال لأصحاب اليمين: اُدخلوها فدخلوها فكانت عليهم برداً وسلاماً، فقال أصحاب الشمال: ياربِّ أقلنا، فقال: قد أقلتكم اذهبوا فادخلوها، فهابوها، فثمَّ ثبتت الطاعة والولاية والمعصية».

[١٠١٧/٢] وبإسناده عن حبيب السجستاني قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لمّا أخرج ذرّيّة آدم عليه السلام من ظهره ليأخذ عليهم الميثاق بالربوبيّة له وبالنبوّة لكلّ نبيّ فكان أوّل من أخذ له عليهم الميثاق بنبوّته محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لآدم: اُنظر ماذا ترى، قال: فنظر آدم عليه السلام إلى ذرّيّته وهم ذرّ قد ملأوا السماء، قال آدم عليه السلام: ياربِّ ما أكثر ذرّيّتي ولأمرٍ ما خلقتهم؟ فما تريد منهم بأخذك الميثاق عليهم؟ قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ويؤمنون برسلي ويتّبعونهم، قال آدم عليه السلام: ياربِّ فمالي أرى بعض الذرّ أعظم من بعض وبعضهم له نور كثيرٌ وبعضهم له نورٌ قليل وبعضهم ليس له نور؟ فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: كذلك خلقتهم لأبلوهم في كلّ حالاتهم، قال آدم عليه السلام: ياربِّ فتأذن لي في الكلام فأتكلّم؟ قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: تكلّم فإنَّ روحك من روحي وطبيعتك خلاف كينونتي: قال آدم: يا ربِّ فلو كنت خلقتهم على مثال واحد وقدر واحد وطبيعة واحدة وجبلّة واحدة وألوان واحدة وأعمار واحدة وأرزاق سواء، لم يبغ بعضهم على بعض ولم يكن بينهم تحاسد ولا تباغض ولا اختلاف في شيء من الأشياء، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يا آدم بروحي نطقت وبضعف طبيعتك تكلّفت ما لا علم لك به وأنا الخالق العالم[١]، بعلمي خالفت بين خلقهم وبمشيئتي يمضي فيهم أمري وإلى تدبيري وتقديري صائرون، لا تبديل لخلقي، إنّما خلقت الجنّ والإنس ليعبدون وخلقت الجنّة لمن أطاعني وعبدني منهم واتّبع رسلي ولا اُبالي وخلقت النّار لمن كفر بي وعصاني ولم يتّبع رسلي ولا اُبالي؛ وخلقتك وخلقت ذرّيّتك من غير فاقة بي إليك وإليهم وإنّما خلقتك وخلقتهم لأبلوك وأبلوهم أيّكم[٢] أحسن عملاً في دار الدنيا في حياتكم وقبل مماتكم فلذلك خلقت الدنيا والآخرة والحياة والموت والطاعة والمعصية والجنّة والنّار وكذلك

---

(١) في بعض النسخ: «العليم».

(٢) في بعض النسخ: «أيّهم».

أردت في تقديري وتدبيري، وبعلمي النافذ فيهم خالفت بين صورهم وأجسامهم وألوانهم وأعمارهم وأرزاقهم وطاعتهم ومعصيتهم، فجعلت منهم الشقيّ والسعيد والبصير والأعمى والقصير والطويل والجميل والدميم والعالم والجاهل والغنيّ والفقير والمطيع والعاصي والصحيح والسقيم ومن به الزّمانة ومن لا عاهة به، فينظر الصحيح إلى الّذي به العاهة فيحمدني على عافيته، وينظر الّذي به العاهة إلى الصحيح فيدعوني ويسألني أن أعافيه ويصبر على بلائي فأُثيبه جزيل عطائي، وينظر الغنيّ إلى الفقير فيحمدني ويشكرني، وينظر الفقير إلى الغنيّ فيدعوني ويسألني، وينظر المؤمن إلى الكافر فيحمدني على ما هديته فلذلك خلقتهم[1] لأبلوهم في السرّاء والضرّاء، وفيما أُعافيهم وفيما أبتليهم وفيما أُعطيهم وفيما أمنعهم وأنا الله الملك القادر، ولي أن أمضي جميع ما قدّرت على ما دبّرت ولي أن أُغيّر من ذلك ما شئت إلى ما شئت وأُقدّم من ذلك ما أخّرت وأؤخّر من ذلك ما قدّمت وأنا الله الفعّال لما أُريد لا أُسأل عمّا أفعل وأنا أسأل خلقي عمّا هم فاعلون».

[١٠١٨/٢] وبإسناده عن صالح بن عقبة، عن عبدالله بن محمّد الجعفي وعقبة جميعاً، عن أبي جعفر ﷺ قال: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خلق الخلق فخلق من أحبّ ممّا أحبّ وكان ما أحبّ أن خلقه من طينة الجنّة وخلق من أبغض ممّا أبغض وكان ما أبغض أن خلقه من طينة النّار، ثمّ بعثهم في الظلال فقلت: وأيّ شيء الظلال؟ فقال: ألم تر إلى ظلّك في الشمس شيئاً وليس بشيء، ثمّ بعث منهم النبيّين فدعوهم إلى الإقرار بالله ـ عزّ وجلّ ـ وهو قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[2] ثمّ دعوهم إلى الإقرار بالنبيّين فأقرّ بعضهم وأنكر بعض، ثمّ دعوهم إلى ولايتنا فأقرّ بها والله من أحبّ وأنكرها من أبغض وهو قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾[3] ثمّ قال أبوجعفر ﷺ: كان التكذيب ثَمَّ».

[١٠١٩/٢] وبإسناده عن عبدالله بن سنان قال: «قلت لأبي عبدالله ﷺ: جعلت فداك إنّي لأرى بعض أصحابنا يعتريه النزق والحدّة والطيش[4] فأغتمّ لذلك غمّاً شديداً وأرى من خالفنا فأراه حسن السمت. قال: لا تقل حسن السمت فإنّ السمت سمت الطريق ولكن قل حسن السيماء، فإنّ

(١) في بعض النسخ: «ما هديتهم فلذلك كلّفتهم». (٢) لقمان ٣١: ٢٥.
(٣) الأعراف ٧: ١٠١.
(٤) عراه واعتراه أي غشيه وأتاه. والنزق بالفتح والتحريك: الخفّة عند الغضب. والحدّة والطيش قريبان منه.

الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[١] قال: قلت: فأراه حسن السيماء وله وقار فأغتمُّ لذلك، قال: لاتغتمّ لما رأيت من نزق أصحابك ولما رأيت من حسن سيماء من خالفك، إنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لمّا أراد أن يخلق آدم خلق تلك الطينتين، ثمّ فرَّقهما فرقتين، فقال لأصحاب اليمين كونوا خلقاً بإذني. فكانوا خلقاً بمنزلة الذرّ يسعى، وقال لأهل الشمال: كونوا خلقاً بإذني، فكانوا خلقاً بمنزلة الذرّ، يدرج، ثمّ رفع لهم ناراً فقال: أُدخلوها بإذني، فكان أوَّل من دخلها محمّد ﷺ ثمّ اتّبعه أُولوالعزم من الرّسل وأوصياؤهم وأتباعهم، ثمّ قال لأصحاب الشمال: ادخلوها بإذني، فقالوا: ربّنا خلقتنا لتحرقنا؟ فعصوا، فقال لأصحاب اليمين اخرجوا بإذني من النّار، لم تكلم النّار منهم كلماً[٢]، ولم تؤثّر فيهم أثراً، فلمّا رآهم أصحاب الشّمال، قالوا: ربّنا نرى أصحابنا قد سلموا فأقلنا ومرنا بالدُّخول، قال: قد أقلتكم فادخلوها، فلمّا دنوا وأصابهم الوهج رجعوا فقالوا: يا ربّنا لا صبر لنا على الاحتراق فعصوا، فأمرهم بالدُخول ثلاثاً، كلّ ذلك يعصون ويرجعون وأمر أُولئك ثلاثاً، كلّ ذلك يطيعون ويخرجون، فقال لهم [جميعاً]: كونوا طيناً بإذني فخلق منه آدم، قال: فمن كان من هؤلاء لايكون من هؤلاء ومن كان من هؤلاء لايكون من هؤلاء وما رأيت من نزق أصحابك وخلقهم فممّا أصابهم من لطخ أصحاب الشّمال وما رأيت من حسن سيماء من خالفكم ووقارهم فممّا أصابهم من لطخ أصحاب اليمين»[٣].

نظرة في أخبار الطينة

اعلم أنّ مذهبنا في الخلق والتكليف هو البناء على الفطرة السليمة فطرة التوحيد الّتي فطر الناس عليها. ليكون الحياد عنها عارضاً رغم صميم الذات.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

نعم كان الناس جميعاً ـ على مختلف شعبهم وألوانهم وتنوّع بيئاتهم ـ مفطورين على التوحيد والإقرار بربوبيّته تعالى، منذ أن فطموا ولم يزالوا.

---

(١) الفتح ٤٨: ٢٩. (٢) الكلم: الجرح.

(٣) الأحاديث مستخرجة من الكافي الشريف ٢: ٢ ـ ١١. (٤) الروم ٣٠: ٣٠.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(١).

[١٠٢٠/٢] قال رسول الله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، حتّى يكون أبواه [هما اللّذان] يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه»(٢).

وعليه فكلّ إنسان إنّما وُضعت فطرته على الهدى والاستقامة، وجُبل على الاهتداء إلى كلٍّ من سبيلي الهداية والردى، فإمّا شاكراً متّخذاً سبيل الرشاد، أو كفوراً متّخذاً سبيل الغيّ والفساد. وأيّما أخذ فباختياره بالذات إمّا لحسن نيّة أو لسوء اختيار لامُجبَر ولامقهور.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(٣).

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾(٤). إمّا شاكراً آخذاً إلى الفلاح، أو ناكراً هاوياً إلى الهلاك. ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾(٥).

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾(٦).

ولقد كان الأصل في جبلّة الإنسان هو سلامة الطبع والجنوح نحو معالم الهدى والفلاح، لولا غلبة الهوى والاستهواء نحو مهاوي الردى والضلال.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾(٧).

فالإنسان خلق في أحسن هندام، لكنّه هو الّذي أطاح بحظّه بسوء اختياره.

* * *

هذا مايعطيه القرآن من دراسة لواقع الإنسان ـ على أشكاله وألوانه ـ خُلق في أصل فطرته سليماً وليهفو إلى الخير والسلام. أمّا الانحراف والانجراف فعارض لامحالة. والجميع في أصل الطينة سواء.

---

(١) الأعراف ٧: ١٧٢.
(٢) عوالي اللئالي ١: ٣٥/ ١٨.
(٣) الشمس ٩١: ٧ـ٩.
(٤) الإنسان ٧٦: ٣.
(٥) النجم ٥٣: ٣٩.
(٦) الإسراء ١٧: ١٥.
(٧) التين ٩٥: ٤ـ٥.

إذن فكلّ فكرة أو نظرة تخالف معطيات الكتاب ومحكمات الآثار فمردود ومرفوض لدى حكمة العقل الرشيد.

وتلك أخبار الطينة مرّت عليك، تجعل من طينة المؤمن غير طينة الكافر، وأنّ هذه الطينة كانت هي المؤثرة في مصير الإنسان في مسيرته في الحياة، ولاشكّ أنّها بظاهرها المريب تتنافى ومحكمات الكتاب والسنّة القويمة . فلابدّ إمّا من تأويل مقبول أو الرفض رأساً.

* * *

وإليك بعض ما ذكره أصحاب النظر في الرفض والقبول:

قال المولى المحقق أبوالحسن الشعراني ـ في قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ ـ: هذه الآية تدلّ على أنّ الله تعالى فطر الناس جميعاً على الدين الحنيف، وكان خروج من خرج عنه أمراً طارئاً، كالعوارض. المخالفة لمقتضى الطبع. وفي الحديث: «كلّ مولود يولد على الفطرة...» وكذا آية الذرّ[1] الدالّة على أنّ جميع ولد آدم تسلّموا لذلك وقالوا: بلى، سواء الّذين كفروا بعد أم آمنوا؛ وأنّ الله فطرهم جميعاً على التوحيد.

ويتأيّد ذلك بأحاديث الفطرة الصادرة عن أئمّة أهل البيت. أوردها الصدوق في كتاب التوحيد.

قال: فإن ورد حديث يخالف بظاهره ما ذكرنا، وأنّ فطرة الناس مختلفة، وأنّ بعضهم خُلق على فطرة الشرّ والفساد. فلابدّ من تأويله بحيث لايخالف العقل ومقتضى الكتاب والسنّة، ولايوجب الجبر والظلم منه تعالى على العباد. إذ لو كان الله خلق بعض الناس من طينة سجّين، بما أوجب مصيره إلى الكفر والفسوق، للزم الجبر والظلم منه تعالى. وإن اُريد إيجاب أقربيّته إلى الشرّ والفساد، لا القهر والإلجاء، للزم التبعيض في لطفه تعالى بالنسبة إلى العباد. فبعضهم يجعله على عُرضة الشرّ، وبعضهم يمهّد له أسباب الصلاح، من غير ما سبب معقول. وهذا أيضاً ظلم يتحاشاه ساحة قدسه تعالى[2].

وقال ـ أيضاً ـ في تعليقه على شرح أصول الكافي للمولى صالح المازندراني ـ: ليس في

(١) الأعراف ٧: ١٧٢.

(٢) راجع ماكتبه تعليقاً على كتاب الوافي للمولى محسن الكاشاني ٤: ٢٥ بتوضيح.

الباب حديث يُعتمد على إسناده، بل جميع أخباره ضعيفة. حتّى ولو فرض صحة إسناد بعضها، لكنّها في محتواها مخالفة لأصول المذهب، ولأحاديث الفطرة على التوحيد. إنّ من أصول مذهبنا العدل واللطف الشامل. فلايجعل بعض الناس في فطرتهم أقرب إلى الطاعة وبعضهم أبعد. وكان التبعيض في خلق الإنسان مخالفاً لمقتضى العدل. إنّه تعالى سوّى ـ في اللطف والتوفيق ـ بين مختلف الشعوب والطوائف، ومكّن لهم جميعاً القدرة على الامتثال واجتناب الآثام، بحيث كان تمهيد السبيل للجميع على سواء.

فلو كان خُلق بعض الناس من طينة خبيثة، فإن كان لايمكنه التخلّص منها، فهذا جبر باطل. وإمّا يوجب تسهيلاً له في ارتكاب القبائح، فهذا بنفسه قبيح، لأنّه تبعيض في مرحلة اللطف بعباده. الّذي هو تمهيد الأسباب نحو الخير والصلاح.

على أنّ ذلك مخالف لأحاديث الفطرة على التوحيد، وأن ليس في أصل الخلقة تشويه أو عيب، وإنّما العيب عارض. كما خلق الله الماء صافياً، وإنّما تكدره الأوساخ العارضة. وهكذا الإنسان خلق سليماً ـ على الحنيفيّة البيضاء النقيّة ـ لولا أن يكدر صفوة الأدناس الّتي تعترض طريقه.

قال: فالأصل الّذي عليه اعتقادنا: أنّ جميع آحاد الناس متساوون في الفطرة وفي أصل الخلقة، ومتصافّون على اجتياز مسالك الخير والصلاح، واجتناب مباعث الشرّ والفساد، مادامـوا على الفطرة الأُولى ولم يجرف بهم الطواري.

فما خالف هذا الأصل الأصيل فهو مرفوض إن لم يكن قابلاً للتأويل[١].

* * *

وللمولى محمّد صالح المازندراني ﵀ هنا توجيهاً حاول فيه تأويل تلكم الأخبار إلى ما يمكن قبولها بعض الشيء، دون الرفض الباتّ!

قال: إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لمّا خلق الأرواح وعلم أنّ بعضها يهوي إلى الخير والصلاح، وآخر يبغي الشرّ والفساد، مهما كانوا ومن أيّ طينة خُلقوا. فكان من سابق علمه أن جعل طينة أبدان هواة الخير من علّيّين. وطينة أبدان بغاة الشرّ من سجّين. وذلك رعايةً للمناسبة والمجانسة بين كلّ

---

(١) راجع: شرح أصول الكافي للمولى صالح المازندراني ٨: ٤، التعليقة رقم ١، بتوضيح.

نمط من الأرواح وأبدانها فكانت الخلقة تابعة للفعلة ـ في سابق علمه تعالى ـ لا العكس حتّى يستلزم الجبر. الأمر الّذي لايتنافى وأصل الاختيار في التكليف فلا جبر ولا ظلم، بل هو مقتضى الحكمة المتعالية[١].

وهذا الرأي قد استجاده المولى الشعراني، قال: ولنعم ما قال الفاضل محمّد صالح المازندراني: إنّ كلًّا من الطينتين تابع للإيمان والكفر ومسبَّب عنهما لا العكس، لأنّ الله تعالى علم أنّ جماعة يؤمنون باختيارهم، سواء أكانوا من طينة علّيّين أم من طينة سجّين، ولذلك خلق المؤمنين من علّيّين تشريفاً لهم، وعلم أنّ جماعة يكفرون باختيارهم ولو كانوا من طينة علّيّين، ولذلك خلقهم من سجّين، توهيناً بهم. وبذلك تبيّن فساد توهّم أنّ الإيمان وصفات الكمال تابعة لطهارة الطينة، وأنّ الكفر وسمات الضلال تابعة لخبث الطينة. بل العكس هو الأولى وأنّ طينة الشرّ عارضة على الفطرة الأُولى الّتي أرادها الله في الأزل[٢].

والمولى صالح المازندراني قرّب من وجه مراده بضرب مثال قال: إنّك إذا قرّرت لعبدك المطيع بيتاً شريفاً، ولعبدك المتمرّد بيتاً وضيعاً، استحسنك العقلاء ولايصفونك بالجور وعدم الاعتدال. بل الجور كان لو تساويت بينهما، إذ قد وضعت شيئاً في غير موقعه اللائق به.

وقال ـ في شرح قوله ﷺ: «إنّ الله خلق المؤمن من طينة الجنّة وخلق الكافر من طينة النار...» ـ: إنّه تعالى لمّا علم في الأزل من المؤمن طاعته ومن الكافر عصيانه، خلق كلّ واحد منهما في هذه النشأة ممّا يؤول إليه في النشأة الآخرة[٣].

* * *

وقريب منه ما ذكره العلّامة المجلسي عن بعضهم، قال: إنّ الله تعالى لمّا علم في الأزل، الأرواح الّتي تختار الإيمان باختيارها، والّتي تختار العصيان باختيارها، سواء خلقوا من طينة علّيّين أو من طينة سجّين، فلمّا علم ذلك أعطى أبدان الأرواح الّتي علم أنّهم يختارون الإيمان، كيفيّة العلّيّين للمناسبة، وأعطى أبدان الأرواح الّتي علم أنّها تختار الكفر باختيارها، كيفيّة السجّين، من غير أن يكون للأمرين مدخل في اختيارهم الإيمان والكفر...[٤].

---

(١) المصدر: ٥.

(٢) راجع كلامه في التعليق على الوافي ٣: ٢٧، بتوضيح.

(٣) راجع: شرح أُصول الكافي ٨: ٥.

(٤) مرآة العقول ٧: ٣.

وقال في بحارأنواره: اعلم أنّ أخبار هذا الباب من المتشابهات المعضلات، ولأصحابنا ـ رضي الله عنهم ـ فيها مسالك:

منها ما ذهب إليه الأخباريّون، قالوا: نؤمن بها مجملاً ونعترف الجهل والعجز عن معرفة حقيقة معناها. ونردّ علمه إلى الأئمة عليهم السلام.

ومنها أنّها صدرت موافقة لمذاهب العامّة ولا سيّما الأشاعرة حسب إذعانهم بهكذا روايات روتها الحشويّة منهم.

ومنها أنّها كناية عن علمه تعالى في الأزل بما هم صائرون إليه في المآل، فكان علمه تعالى بذلك، كأنّه خلقهم من طينات مختلفة.

ومنها أنّها كناية عن اختلاف الاستعدادات والّتي لاتوجب جبراً في التكليف والاختيار.

ومنها أنّه لمّا كلّف الله الأرواح ـ في عالم الذرّ ـ وأخذ منهم الميثاق، اختار بعضهم الخير وبعضهم الشرّ حينذاك، فتفرّع على ذلك اختلاف الطينة حسب اختيارهم[1].

ثمّ إنّ المجلسي تضعّف هذه الوجوه وجنح إلى ترك الخوض في أمثال تلكم المسائل الغامضة الّتي تعجز العقول عن إدراك كنهها، فليوكل علمها إلى أهله!

لكنّه تراجع غير مقبول من أمثاله من نُقّاد الحديث، ممّن وقفوا على معاريض كلام الأئمة عليهم السلام، وكانت لهم الحنكة الوافية بتشخيص السليم من السقيم من الأخبار والآثار، الأمر الّذي يليق بمثله وهو المضطلع الخبير.

* * *

وهكذا ذكر السيّد عبدالله شبّر هذه الوجوه في شيء من التفصيل ولم يرجّح.

قال: إعلم أنّ هذا الخبر ونحوه من متشابهات الأخبار ومعضلات الآثار، الّتي تحيّرت فيها الأنظار، وتصادمت فيها الأفكار، واختلفت في توجيهها كلمات علمائنا الأبرار، وقد تخرّجوا عمّا يلزم من ظاهرها من الجبر ورفع الاختيار بوجوه:

(الأوّل) أنّها أخبار آحاد لاتوجب علماً ولا عملاً فيجب ردّها وطرحها لا سيّما وهي مخالفة للكتاب الكريم والسنّة القطعيّة وإجماع الامامية وللأدلة العقليّة والبراهين اليقينيّة.

---

(١) البحار ٥: ٢٦٠ ـ ٢٦١.

وفيه أنّ هذه الأخبار قد رواها العلماء الأعلام في جوامعهم العظام بأسانيد عديدة وطرق سديدة ولايبعد أن تكون من المتواترات معنى، فلا معنى لطرحها وردّها، بل لابدّ من توجيهها. وقد رواها ثقة الإسلام الكليني في الكافي بطرق شتّى ومتون عديدة، والشيخ في الأمالي، والبرقي في المحاسن، والصدوق في العلل، وعليّ بن إبراهيم والعيّاشي في تفسيريهما، والصفّار في بصائر الدرجات وغيرهم، بأسانيد وافرة وطرق متكاثرة، بل الأولى حينئذ أن يقال: إنّ هذه الأخبار متشابهة يجب الوقوف عندها وردّ أمرها وتسليمه إليهم عليهم السلام فإنّ كلامهم كالقرآن محكم ومتشابه، كما ورد عنهم عليهم السلام إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكماً كمحكمه فردّوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا.

(الثاني) أنّها محمولة على موافقة العامّة فيما روته الحشويّة وقد ذهب إليه الأشاعرة، ولمخالفتها لأخبار الاختيار والاستطاعة المعلومة من طريقة الأئمّة عليهم السلام.

وهذا مشارك لما قبله في الضعف، فإنّ الظاهر من بعضها أنّها من أسرار علومهم وكنوز معارفهم.

(الثالث) أنّها كناية عمّا عَلِمَهُ الله تعالى وقدّره من اختلاط المؤمن والكافر في الدنيا واستيلاء أئمّة الجور وأتباعهم على أئمّة الحقّ وأتباعهم. وعلى أنّ المؤمنين إنّما يرتكبون الآثام لاستيلاء أهل الباطل عليهم وعدم تولّي أئمّة الحقّ لسياستهم فيعذرهم لذلك ويعفو عنهم ويعذّب أئمّة الجور وأتباعهم بتسبيبهم لجرائم من خالطهم مع ما يستحقون من جرائم أنفسهم.

(الرابع) أنّها كناية عن علمه تعالى بما هم إليه صائرون فإنّه تعالى لمّا خلقهم مع علمه بأحوالهم فكأنّه تعالى خلقهم من طينات مختلفة. ولا يخفى ضعفه.

(الخامس) أنّها كناية عن اختلاف استعدادهم وتفاوت قابليّاتهم.

وهذا أمر بيّن لايمكن إنكاره إذ لا شبهة في أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا جهل ليسا في درجة واحدة من الاستعداد والقابلية وهذا لايستلزم سقوط التكليف، فإنّ الله تعالى كلّف النبي صلى الله عليه وآله وسلم حسبما أعطاه من الاستعداد لتحصيل الكمالات، وكلّف أبا جهل حسبما أعطاه من ذلك ولم يكلّفه ما ليس في وسعه ولم يجبره على شيء من الشرّ والفساد.

(السادس) أنّ غاية ما يلزم من الخلق من الطينتين الميل والمحبّة لما يقتضيه كلّ منهما من خير وشرّ بالاختيار، وذلك لايستلزم الجبر لاسيّما بعد التصريح بخلط الطينتين الموجب لتدافع الطبيعتين والوقوف على حدّ الاعتدال بحيث يصير المؤمن قادراً على السيئة والكافر قادراً على الحسنة. ويؤيده قوله ﷺ في بعض أخبار هذا الباب: فقلوب المؤمنين تحنّ إلى ما خُلقوا منه، وقلوب الكافرين تحنّ إلى ما خُلقوا منه. وظاهره أنّ ذلك الخلط والمزج صار سبباً لمجرّد الميل لا أنّه رفع القدرة والاختيار، وصار علّة للإجبار، ولعلّ الحكمة والمصلحة في مزج الطينتين إظهار قدرته تعالى في إخراج الكافر من المؤمن وبالعكس، دفعاً لتوهّم استنادهم إلى الطبايع أو ظهور رحمته تعالى في فُسّاق المؤمنين بغفران ذنوبهم، أو تعيّش المؤمنين في دولة الكافرين، إذ لو لم تكن رابطة الاختلاط ولم يكن لهم رأفة وأخلاق حسنة كانوا كلّهم بمنزلة الشياطين، فلم يتخلص أحد من بطشهم. أو لوقوع المؤمن بين الخوف والرجاء حيث لايعلم أنّ الغالب فيه الخير أو الشرّ، أو رفع العُجب عنه بفعل الطاعات، أو الرجوع إليه تعالى في حفظ نفسه من المعاصي أو غير ذلك من الحِكَم والمصالح الّتي لم تدركها عقولنا القاصرة وأفهامنا الفاترة.

(السابع) ما اعتمده أكثر الأصحاب وعوّلوا عليه في هذا الباب، وهو أنّ ذلك منزّل على العلم الإلهي، فإنّه تعالى لمّا خلق الأرواح كلّها قابلة للخير والشرّ، وقادرة على فعلهما، وعلم أنّ بعضها يعود إلى الخير المحض وهو الإيمان، وبعضها يعود إلى الشرّ المحض وهو الكفر باختيارها.. عاملها هذه المعاملة كالخلق من الطينة الطيّبة أو الخبيثة، فحيث علم الله من أحد أنّه يختار الخير والإيمان البتة، ولو لم يخلق من طينة طيّبة، خلقه منها. ولمّا علم من آخر أنّه يختار الشرّ والكفر البتة، خلقه من طينة خبيثة، لطفاً بالأوّل وتسهيلاً عليه وإكراماً له لما علم من حسن نيّته وعمله. وبالعكس في الثاني. وعلم الله ليس بعلّة لصدور الأفعال.

وهذا معنى جيّد تنطبق عليه أكثر أخبار الباب ويستنبط من أخبارهم ﷺ كما أشير إليه في حديث[1] حكايةً عنه تعالى: أنا المطّلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم، ولا أُلزم أحداً إلّا ما عرفته منه، قبل أن أخلقه. ويستفاد ذلك من أخبار أُخر ذكرها يفضي إلى التطويل.

---

(١) أورده في المصابيح ١: ٩.

(الثامن) إنّ الله سبحانه وتعالى لمّا خلق الأرواح قبل خلق الأبدان في عالم الذرّ، وكلّفها بتكليف حين تجرّدها، أجّج لها ناراً وأمرها بالدخول إليها والاقتحام فيها، فامتثل بعضها وبادر إلى الإطاعة فكانت عليه برداً وسلاماً، وأبى بعضها ولم يمتثل فندم وخسر، ثمّ طلب الرجوع مرّة أخرى فأبى ولم يمتثل أيضاً، فقامت هناك الحجّة وثبتت المحجّة، وتحقّق الإيمان والكفر بالإطاعة والعصيان، قبل استقرار الأرواح في الأبدان، ووقع معلوم الله تعالى مطابقاً لعلمه، فخلق تعالى للأرواح المطيعة مسكناً مناسباً لها وهو البدن من طينة علّيين، وخلق للأرواح العاصية مسكناً من طينة سجّين، كما خلق تعالى للمؤمن جنّة وللكافر ناراً وذلك ليستقرّ كلّ واحد فيما يناسبه، ويعود كلّ جزء إلى كلّه وكلّ فرع إلى أصله، فظهر أنّ الخلق من الطينتين تابع للإيمان والكفر ومسبَّب عن العمل دون العكس، فلايلزم الجبر ولا ينافي الاختيار. ألاترى أنّ الله تعالى لمّا علم أنّ بين النبيّين والمؤمنين اتصالاً من وجه وانفصالاً من وجه آخر، لأنّ المؤمنين يوافقونهم في العقايد ويخالفونهم أحيانا في الأعمال، لصدور المعصية منهم، خلق قلوب المؤمنين من طينة النبيّين، وخلق أبدانهم من دون ذلك، لانحطاط درجتهم وشرفهم، فوضع كلاًّ في درجته. وإنّك إذا قرّرت لعبدك المطيع بيتاً شريفاً ولعبدك العاصي بيتاً وضيعاً، صحّ ذلك عقلاً وشرعاً ولا يصفك عاقل بالظلم والجور، إذ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهو يلزم لو انعكس الأمر، أو وقع التساوي، فبان أنّ الخلق من طينتين علّيين وسجّين تابع للطاعة والمعصية والإيمان والكفر دون العكس[1].

* * *

ولسيّدنا العلّامة الطباطبائي توجيه لطيف لهذه الأخبار، أوجز فيه الكلام في إجمال بليغ. قال:

قد استفاضت الأخبار بأنّ الله تعالى خلق السعداء من طينه علّيين (من الجنّة) وخلق الأشقياء من طينة سجّين (من النار) وكلّ يؤول إلى حكم طينته من السعادة أو الشقاء.

وقد أورد عليها: أوّلاً بمخالفة الكتاب. وثانياً باستلزام الجبر الباطل.

أما البحث الأوّل فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[2]. وقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن

---

(١) مصابيح الأنوار في حلّ مشكلات الأخبار ١: ١١ـ ١٤.

(٢) الأنعام ٦: ٢.

طِينٍ﴾[١]. فأفاد أنّ الإنسان مخلوق من طين. ثمّ قال تعالى: ﴿وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[٢]. وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[٣]. فأفاد أنّ للإنسان غاية ونهاية من السعادة والشقاء. وهو متّجه إليها، سائر نحوها. وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾[٤] فأفاد أنّ ماينتهي إليه أمر الإنسان من السعادة أو الشقاء هو ماكان عليه في بدء خلقه، وقد كان في بدء خلقه طيناً فهذه الطينة طينة سعادة وطينة شقاء، ومآل أمر السعيد إلى الجنّة ومآل أمر الشقيّ إلى النار. فهما أوّلهما[٥] لكون الآخر هو الأوّل. وحينئذ صحّ أنّ السعداء خُلقوا من طينة الجنّة، والأشقياء خُلقوا من طينة النار. قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٦]. وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[٧] وهي تشعر بأنّ علّيّين وسجّين هما ماينتهي إليه أمر الأبرار والفجّار من النعمة والعذاب فتدبّر.

وأما البحث الثاني وهو أنّ أخبار الطينة تستلزم أن تكون السعادة والشقاء لازمتين حتميّتين للإنسان، ومعه لايكونان عن كسب واختيار للإنسان وهو الجبر الباطل.

والجواب أنّ اقتضاء الطينة للسعادة أو الشقاء ليس من قبل نفسها بل من قبل حكمه تعالى وقضائه وماقضى من سعادة وشقاء، فيرجع الإشكال إلى سبق قضاء السعادة والشقاء في حقّ الإنسان قبل أن يُخلَق، وأنّ ذلك يستلزم الجبر، وقد ذكرنا هذا الإشكال مع جوابه في باب المشيئة والإرادة وحاصل الجواب: أنّ القضاء متعلّق بصدور الفعل عن اختيار العبد، فهو فعل اختياريّ في عين أنّه حتميّ الوقوع، ولم يتعلّق بالفعل سواء اختاره العبد أو لم يختر حتّى يلزم منه بطلان الاختيار والله الهادي[٨].

وحاصل ما ذكره سيّدنا الطباطبائي وأشار إليه سائر الأعلام ممّن تقدّمه، هو: أنّ الخلقة من

---

(١) السجده ٣٢: ٧.
(٢) البقرة ٢: ١٤٨.
(٣) الحديد ٥٧: ٢٢.
(٤) الأعراف ٧: ٢٩.
(٥) لأنّ الغاية ملحوظة من قبل. فالغاية أوّل في اللّحاظ ونهاية في المآل.
(٦) المطفّفين ٨٣: ١٨ ـ ٢١.
(٧) المطفّفين ٨٣: ٧ ـ ١٠.
(٨) راجع تعليقه على أصول الكافي ٢: ٢ ـ ٣ / ٣.

طينة علّيّين أو من طينة سجّين، كناية عن اختلاف الناس في مآربهم ومشاربهم، فمنهم من يؤول في مساعيه في الحياة إلى درجات عُلى، ومنهم من يؤول إلى دركات سُفلى. كأنّ الأوّلين خلقوا من علّيّين، حيث تحنّ نفوسهم إليه، والآخرين خلقوا من سجّين، حيث تحنّ نفوسهم إليه، لأنّ الشيء تحنّ إلى أصله ومنشائه.. وهذا من التشبيه البليغ، نظير قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[1] أي مطبوع على الاستعجال كأنّه مجبول عليه وقد فطر عليه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾[2]. وهذا لأنّ الإنسان، بنهمه وحرصه المفرط، يُرى كأنّه قد عُجنت فطرته بعنصر العجلة، فيلهف نحو ما يريد من غير هوادة..

وهكذا الناس في أشكالهم وأنحائهم متفاوتون، فبعض يسعى نحو الخير بكلّ همّته، كأنّه من جبلّة ذاته. وآخر يهتمّ بالشرّ كأنّه من صميم فطرته وإذ كان البناء على التشبيه والتمثيل محضاً، فلا موجب لتداعي القول باستلزام الجبر وسلب الاختيار.

قال الزمخشري: إذا كان الإنسان خلق من عجل وكان في فطرته عجولاً، فما وجه ردعه عن الاستعجال، أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟

قال: كلّا، وهذا نظير ما ركّب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها، حيث أعطاه القدرة على كبحها وتسخيرها في مآربه الصالحة وأن لا يرتكب بها الفساد[3].

* * *

وهناك تأويل لعلّه أسدّ، وهو أنّ تلك التعابير كناية عن تمهيدات تُتَّخذ بشأن كلّ من المؤمنين والفاسقين، فمن علم الله منه الخير والصلاح، مهّد له السبل إلى بلوغ كماله، ومن علم منه الشرّ والفساد، مهّد له أرضيّة البلوغ إلى مآربه. ذلك لأنّه تعالى هو مسبّب الأسباب، ولولا إرادته تعالى (أي الإذن منه تعالى) لم يقع شيء، ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[4]، أي لا تستطيعون فعل شيء، إلّا

---

(١) الأنبياء ٢١: ٣٧. (٢) الإسراء ١٧: ١١.

(٣) تفسير الكشّاف ٣: ١١٧ بتوضيح.

(٤) الإنسان ٧٦: ٣٠. وفي سورة التكوير ٨١: ٢٩: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي هذه المشيئة التابعة لمشيئة العبد، إنّما هي عن مقتضى تدبير عالم الخلق، ليقع ما يشاؤه العباد وفق مرادهم، تحقيقاً لمبدأ الاختيار في أفعال العباد.

أن يأذن الله. ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾(١).

وهذا الإذن منه تعالى تابع لإرادة العبد إن خيراً أراد أو شرّاً. وذلك تحقيقاً لجانب إمكان اختيار العباد فيما يشاؤون.

وبهذا التمهيد ـ منذ البدء ـ فسّرنا الحديث المعروف: «السعيد من سَعُد في بطن أُمّه، والشقيّ من شَقِيَ في بطن أُمّه»(٢). أي من علم الله أنّه يسعد في الحياة ويتّخذ طريق السعادة بفضل اختياره، فهذا يمنحه تعالى عناية أكثر منذ نعومة أظفاره. وأمّا الّذي يتخذ طريق الغيّ والغواية بسوء نيّته، فهذا يخذله الله ويتركه في مهاوي ضلاله منذ عرف نفسه. وبهذا التفسير جاء عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام(٣).

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

[١٠٢١/٢] أخرج عبدبن حميد وابن جرير عن أبي صالح في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظّمك ونمجّدك(٤).

[١٠٢٢/٢] وقال ابن عبّاس: كلّ ما في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة(٥).

[١٠٢٣/٢] وقال الحسن: نقول سبحان الله وبحمده وهو صلاة الخلق وصلاة البهائم وغيرهما سوى الآدميّين وعليها يرزقون(٦).

[١٠٢٤/٢] وأخرج الحاكم عن طلحة بن عبيدالله قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير سبحان الله، فقال: هو تنزيه الله عزّوجلّ عن كلّ سوء»(٧).

[١٠٢٥/٢] وأخرج عبدالرزّاق وعبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

---

(١) البقرة ٢: ١٠٢.   (٢) البحار: ١٥٧ / ١٠.

(٣) لنا كلام تفصيلي عن مسألة السعادة والشقاء، في التمهيد ٣: ٣١٥ـ٣٢٨ فراجع.

(٤) الدرّ ١: ١١٤؛ الطبري ١: ٣٠٤ / ٥٢٥؛ القرطبي ١: ٢٧٧، بلفظ: أي نعظّمك ونمجّدك ونطهّر ذكرك عمّا لا يليق بك ممّا نسبك إليه الملحدون، قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما. (٥) المصدر.

(٦) البغوي ١: ١٠٢.

(٧) الحاكم ١: ٥٠٢، كتاب الدعاء؛ القرطبي ١: ٢٧٦.

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: التسبيح: التسبيح، و التقديس: الصلاة[(١)].

[١٠٢٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي ذرّ، أنّ النبيّ ﷺ قال: «أحبّ الكلام إلى الله ما اصطفاه الله لملائكته: سبحان ربّي وبحمده ـ وفي لفظ ـ سبحان الله وبحمده»[(٢)].

[١٠٢٧/٢] وروى البيهقي عن عبدالرحمان بن قرط أنّ رسول الله ﷺ ليلة أُسري به سمع تسبيحاً في السماوات العلا: «سبحان العليّ الأعلى سبحانه وتعالى»[(٣)].

[١٠٢٨/٢] وأخرج ابن جرير وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير أنّ ابن الخطّاب سأل النبي ﷺ عن صلاة الملائكة، فلم يردّ عليه شيئاً. فأتاه جبريل فقال: إنّ أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة، يقولون: سبحان ذي العزّة والجبروت، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة، يقولون: سبحان الحيّ الّذي لايموت[(٤)].

[١٠٢٩/٢] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى ابن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: لانعصي ولا نأتي شيئاً تكرهه[(٥)].

---

(١) الدرّ ١: ١١٣؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٥ / ٣٧؛ الطبري ١: ٣٠٤ / ٥٢٣ و ٥٢٤؛ القرطبي ١: ٢٧٦، بلفظ: قال قتادة: تسبيحهم سبحان الله؛ ابن كثير ١: ٧٥؛ التبيان ١: ١٣٥، بلفظ: قال قتادة: هو التسبيح المعروف.

(٢) الدرّ ١: ١١٣؛ المصنّف ٧: ٦٦ ـ ٦٧ / ٧، كتاب الدعاء، باب ٤٨ (في ثواب التسبيح)؛ مسند أحمد ٥: ١٤٨، بلفظ: أنّ رسول الله ﷺ سُئل: أيّ الكلام أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده «سبحان الله وبحمده»؛ مسلم ٨: ٨٦، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده؛ الترمذي ٥: ٢٣٤ / ٣٦٦٣، باب ١١، أبواب الدعاء؛ النسائي ٦: ٢٠٧ / ١٠٦٦١، باب ١٩٤، كتاب عمل اليوم والليلة، الجزء الثالث، باب ذكر ما اصطفى الله عزّ وجلّ لملائكته. الحاكم ١: ٥٠١، كتاب الدعاء، باختلاف؛ كنزالعمّال ١: ٤٦٠ / ١٩٩٢؛ الطبري ١: ٣٠٢ / ٥٢١؛ ابن كثير ١: ٧٥، بنحو ما نقله أحمد؛ البغوي ١: ١٠٢ / ٤٧، بنحو ما نقله أحمد.

(٣) الأسماء والصفات، الجزء الأوّل ٣٨ ـ ٣٩؛ كنزالعمّال ١٠: ٣٦٨ ـ ٣٦٩ / ٢٩٨٤٥؛ ابن كثير ١: ٧٥.

(٤) الدرّ ١: ١١٣ ـ ١١٤؛ الطبري ١: ٣٠٢ ـ ٣٠٣ / ٥٢٠؛ الحلية ٤: ٢٧٧ ـ ٢٧٨، ترجمة ٢٧٥ (سعيدبن جبير)؛ كنز العمّال ١٠: ٣٦٥ ـ ٣٦٦ / ٢٩٨٣٥.

(٥) الطبري ١: ٣٠٤ / ٥٢٧.

[١٠٣٠/٢] وقال الضحّاك وغيره ـ في تفسير ﴿وَ نُقَدِّسُ لَكَ﴾ ـ: المعنى نطهّر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك(١).

[١٠٣١/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: التقديس، التطهير(٢).

[١٠٣٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: ﴿وَ نُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نصلّي لك(٣).

[١٠٣٣/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَ نُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظّمك ونكبّرك(٤).

كلام عن التسبيح والتقديس

التسبيح: تنزيه عن كلّ دَنَس ورجس.

والتقديس: ترفيع بالشأن بتنزيه شامل. وقد فسّره أهل اللّغة بالتطهير، طهارةٌ ذاتيّة لايُدنّسها شيء. ومن ثمّ فهو آكد في التنزيه، لتكون القداسة ترفّع ونزاهة عن كلّ دنس ورجس ترفّعاً على الإطلاق.

قال الراغب: السَّبْح: المرّ السريع في الماء وفي الهواء. يقال: سَبَحَ سَبْحاً وسِباحةً. واستُعير لمرّ النجوم في الفلك نحو ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٥). ولجري الفرس نحو ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾(٦).

---

(١) القرطبي ١: ٢٧٧.

(٢) الدرّ ١: ١١٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٩ / ٣٣١؛ الطبري ١: ٣٠٥ / ٥٢٨، عن الضحّاك؛ ابن كثير ١: ٧٥، عن الضحّاك.

(٣) الدرّ ١: ١١٤؛ الطبري ١: ٣٠٣ ـ ٣٠٤ / ٥٢٢؛ القرطبي ١: ٢٧٦، نقلاً عن ابن مسعود وابن عبّاس: بلفظ: تسبيحهم صلاتهم. وفي ص ٢٧٧ نقلا عن قتادة (بلفظ: قال قوم منهم قتادة...)؛ ابن كثير ١: ٧٥، نقلاً عن السّدّي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مُرّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة؛ التبيان ١: ١٣٤، بلفظ: قال ابن عبّاس وابن مسعود ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ بمعنى نصلّي لك وفي ص ١٣٥ بلفظ: قال قوم: معنى نقدّس لك: نصلّي لك؛ مجمع البيان ١: ١٤٩، بلفظ: قيل: معنى ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: نصلّي لك... عن ابن عبّاس وابن مسعود.

(٤) الدرّ ١: ١١٤؛ الطبري ١: ٣٠٤ / ٥٢٦؛ ابن كثير ١: ٧٥؛ التبيان ١: ١٣٤ ـ ١٣٥، بلفظ: قال مجاهد: معناه نعظّمك بالحمد والشكر على نِعَمك؛ مجمع البيان ١: ١٤٩، بمعناه.

(٥) الأنبياء ٢١: ٣٣. ويس ٣٦: ٤٠.

(٦) النازعات ٧٩: ٣.

ولسُرعة الذهاب في عمل نحو ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾[١]، أي جرياً متواصلاً بلا هوادة.

قال: والتسبيح تنزيه الله تعالى وأصله المرّ السريع في عبادة الله تعالى. وجُعل التسبيحُ عامّاً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيّة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[٢]. قيل: من المصلّين. والأولى أن يُحمل على ثلاثتها.

قال تعالى: ﴿وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[٣].

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[٤].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[٥]

﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾[٦] أي هلّا تعبدونه وتشكرونه.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٧].

قال: فذلك نحو قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٨]. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ﴾[٩].

قال: فذلك يقتضي أن يكون [تسبيحهم] تسبيحاً على الحقيقة وسجوداً له على وجهٍ لانفقهه، بدلالة ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ودلالة قوله: ﴿وَ مَن فِيهِنَّ﴾ بعد ذكر السماوات والأرض. ولايصحّ أن يكون تقديره: يسبّح له من في السماوات، ويسجد له من في الأرض. لأنّ هذا ممّا نفقهه. ولأنّه محال أن يكون ذلك تقديره، ثمّ يعطف عليه بقوله: «ومن فيهنّ».

قال: والأشياء كلّها تسبّح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار. ولا خلاف أنّ السماوات والأرض والدوابّ مُسبّحات بالتسخير، من حيث إنّ أحوالها تدلّ على حكمة الله تعالى،

---

(١) المزّمّل ٧٣: ٧.

(٢) الصافّات ٣٧: ١٤٣.

(٣) البقرة ٢: ٣٠.

(٤) آل عمران ٣: ٤١.

(٥) ق ٥٠: ٤٠.

(٦) القلم ٦٨: ٢٨.

(٧) الإسراء ١٧: ٤٤.

(٨) الرعد ١٣: ١٥.

(٩) النحل ١٦: ٤٩.

وإنّما الخلاف في السماوات والأرض هل تسبّح باختيار؟ والآية تقتضي ذلك، بما ذكرتُ من الدلالة.

قال: وسبحان أصله مصدر نحو غفران، قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[1]. ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾[2]. وقول الشاعر[3]:

أقول ـ لمّا جاءني فخرُه ـ: سُبحانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفاخرِ!

قيل: تقديره سبحان عَلْقَمَةَ، على طريق التهكّم، فزاد فيه «من» ردًّا إلى أصله.

وقيل: أراد سبحان الله من أجل علقمة، فحذف المضاف إليه.

قال: والسُّبُّوح القُدُّوس من أسماء الله تعالى، وليس في كلامهم «فعّول» سواهما. وقد يُفْتَحان نحو «كَلُّوب» و «سَمُّور».

والسُّبحة: التسبيح. وقد يقال للخَرَزات الّتي بها يُسبَّح: سُبْحَة[4].

* * *

أقول: والمتلخّص من كلامه: أنّ التسبيح هو السبح في عبادة الله، أي الجري المستديم بلافتور. والعبادة قد تكون قولاً أو فعلاً أو نيّة. فإذا أخذ العبد في عبادة ربّه بأيّ نحو من العبادات واستمر عليها بلا فتور، فهو مُسبِّح ويُصبح من المُسبِّحين.

وهو تحقيق لطيف تنحلّ به كثير من المشاكل التفسيريّة هنا. وأهمّها تسبيح الكائنات.

قيل: كيف تسبّح السماوات والأرض وما فيهنّ وحتّى تسبيح الرعد والطير صافّات والجبال يسبّحن بالعشيّ والإشراق. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[5].

لكن لو فسّرنا التسبيح بالدأب على العبادة، وخالصها السُّجود لله تعالى، وهو الخضوع والاستسلام لمحض إرادته تعالى في تسيير نظام الكون والجري وفق ناموس الطبيعة الّذي جُبِل الأشياء عليه ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[6].

---

(١) الروم ٣٠: ١٧.
(٢) البقرة ٢: ٣٢.
(٣) وهو الأعشى. لسان العرب ٢: ٤٧١.
(٤) المفردات (سبح): ٢٢١ـ ٢٢٢.
(٥) الإسراء ١٧: ٤٤.
(٦) النحل ١٦: ٦٩.

نعم، لو فسّرنا التسبيح بذلك انحلّت المشكلة تماماً، حيث الكائنات برمّتها ذلولة تسلك سبل ربّها والّتي جُبلت عليها في تشخيص مسيرتها في عالم الوجود.

ومن ثمّ نرى أنّ التسبيح في مثل هذه الآيات، يخلفه التعبير بالسجود، سجود الكائنات بأسرها لله تعالى، فما هذا السجود إلّا تعبيراً آخر عن ذلك التسبيح!.

قال تعالى: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[١].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾[٢].

وقال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْـمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾[٣]

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[٤].

وقال: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٥].

وإذا كانت الأظلة خاضعة لنظام وكذا الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار وكلّ شيء خلقه الله في هذا الكون، فهي جميعاً ساجدة لله تعالى ومسبّحة له تسبيحاً في عبادة مستمرّة تدأب فيها من غير قصور ولا فتور.

إذن صحّ التعبير بالتسبيح ـ في مفهومه الحقيقي (الدؤوب في العبادة) ـ عن سجود الكائنات بأسرها، أي خضوعها التامّ واستسلامها المحض، تجاه نواميس الطبيعة، لا تجور ولا تحور عن المنهج الّذي رسمته لها الطبيعة، وفق إرادة الله تعالى وسنته الجارية في الخلق. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٦]: كلّ ينتهج منهجه الّذي جُبل عليه. ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٧].

---

(١) الرعد ١٣: ١٥.
(٢) الحجّ ٢٢: ١٨.
(٣) الرحمان ٥٥: ٥ ـ ٨.
(٤) النحل ١٦: ٤٨.
(٥) النحل ١٦: ٤٩.
(٦) الأنبياء ٢١: ٣٣.
(٧) النور ٢٤: ٤١.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[١].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾[٢] أي انتهجي المنهج الّذي مهّده الله وفرض ـ فرضاً ذاتياً ـ الجري عليه بلا تهاون ولا فتور.

والأشياء كلّها على ذلك خاضعة لله يُسبّحون ليلهم ونهارهم على استمرار دائب. ما عدا الإنسان فقد فرض عليه التكاليف ليمتثلها عن اختيار ذاتي لاقسر ولا جبر، اختباراً في صميم ذاته، واستجلاءً لمقام خلافته في الأرض. ومن ثمّ عبّر بكثير من الناس[٣] لا جميعهم.

قال أبو إسحاق الزجّاج[٤] ـ في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٥] ـ: قيل: إنّ كلّ ما خلق الله يسبّح بحمده، وإنّ صرير السقف وصرير الباب من التسبيح، فيكون ـ على هذا ـ الخطاب للمشركين وحدهم في ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. وجائز أن يكون تسبيح هذه الأشياء بما الله به أعلم لايُفْقَهُ منه إلّا ما عُلِّمنا.

قال: وقال قوم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي ما من شيء إلّا وفيه دليل أنّ الله ـ جلّ وعزّ ـ خالقه، وأنّ خالقه حكيم مُبَرّأ من الأسواء، ولكنّكم أيّها الكفّار لاتفقهون أثر الصنعة في هذه المخلوقات.

قال: وليس هذا بشيء، لأنّ الّذين خوطبوا بهذا، كانوا مُقرّين بأنّ الله خالقهم وخالق السماوات والأرض ومن فيهنّ، فكيف يجهلون الخلقة وهم عارفون بها[٦].

قال الأزهري: وممّا يدلّك على أنّ تسبيح هذه المخلوقات تسبيح تُعُبِّدَتْ به، قولُ الله ـ جلّ وعزّ ـ للجبال: ﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ ﴾[٧]. ومعنى «أوّبي» أي سبّحي مع داوود النهار كلّه إلى

(١) الأنبياء ٢١: ١٩ـ٢٠. الاستحسار: التعب والإعياء. (٢) النحل ١٦: ٦٩.

(٣) الحجّ ٢٢: ١٨.

(٤) هو إبراهيم بن السري الزجّاج النحوي (توفّي: ٣١١ هـ) له كتاب معاني القرآن. وقد حضره الأزهري ببغداد وكلّ ما أخذ في التفسير فهو منه. (التهذيب، المقدمة: ٣٩ و ١: ٢٤). (٥) الإسراء ١٧: ٤٤.

(٦) تهذيب اللغة للأزهري ٤: ١٩٧. (٧) سبأ: ١٠.

الليل، ولا يجوز أن يكون معنى أمر الله ـ جلّ وعزّ ـ للجبال بالتأويب إلّا تعبّداً لها.

وكذلك قوله ـ جلّ وعزّ ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾[١]. فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لانفقهها عنها كما لانفقه تسبيحها.

وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[٢]. وقد علم الله هبوطها من خشيته، ولم يعرّفنا ذلك، فنحن نؤمن بما أعلمنا ولا ندّعي بما لم نكلّف بأفهامنا من علم فعلها كيفيّةً نَحُدُّها[٣].

[١٠٣٤/٢] قال أبو زكريّا الفرّاء: حدّثني قيس بن الربيع عن عمّار الدُهنيّ عن سعيد بن جبير قال: «كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة، وكلّ سلطان حجّة، هذا لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٤]. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[٥].

ماذا نفقه من تسبيح الكائنات؟

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَاكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٦].

لو فسّرنا التسبيح ـ هنا ـ بدلالة ذوات الأشياء على بارئها الحكيم، كما قال الشاعر:

وفي كلّ شيء له آية ... يدلّ على أنّه واحد

فهذا لايصحّ ـ في المراد من الآية ـ حتّى ولو كان المخاطب هم المشركين. إذ قد عرفت من كلام أبي إسحاق الزجّاج: أنّهم كانوا معترفين بالّذي خلق السماوات والأرض ومن فيهنّ. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[٧].

نعم لو فسّرنا التسبيح بالعبادة والسجود لله، بمعنى الخضوع والاستسلام لإرادته تعالى، كان

---

(١) الحجّ ٢٢: ١٨.
(٢) البقرة ٢: ٧٤.
(٣) تهذيب اللغة ٤: ١٩٧؛ اللسان ٢: ٤٧٢.
(٤) معاني القرآن للفرّاء ٢: ١٢٥. والآية من سورة الإسراء ١٧: ٤٤.
(٥) النور ٢٤: ٤١.
(٦) الإسراء ١٧: ٤٤.
(٧) الزخرف ٤٣: ٩.

عدم التفقّه لهذا المعنى ـ لمن نظر سطحياً ـ ذا وجه وجيه، حيث خضوع الكائنات لقوانين النظام واستسلامها لنواميس الطبيعة، أمر لايعلمه إلّا العلماء الراسخون في العلم، العارفون بأسرار الكون وخبيئات الوجود.

قلت: وحتّى للمتعمّقين من العلماء، قد خفي عليهم وجه هذا الاستسلام الّذي يُنبيء عن شعور ذاتي في ذوات الأشياء، والّذي يبدو بوضوح في مثل النحل والنمل وغيرهما، من ذوي الأحاسيس الحادّة، تعمل وفق مصالحها حسبما جبلها الله عليه. فما هذه الشعور والإحساس الّذي يبعث الكائنات على العمل وفق وظيفتها تماماً؟!

هذه السلحفاة تبيض خارج البحر وتطمّ بيضها في حفيرة وتتركها لشأنها. ثمّ لمّا خرجت الفروخ عن البيض، إذا هي تأخذ طريقها إلى البحر، لتكرّر حياة أسلافها، وفق سنّة الله الّتي جرت في الخلق.

كيف هذا الشعور ومن أين؟ الأمر الّذي يجهله الناس كافّة وحتّى العلماء، وإنّما عرفوا الآثار والنتائج. أمّا العلل والأسباب الكامنة فمجهولة على الإطلاق!

«فسبّح بحمد ربّك»

ماذا يعني التسبيح بحمد ربّنا؟

التسبيح: تنزيه عن الأسواء.

والتحميد: تمجيد بجلائل الصفات.

ومن ثمّ قد يكون التنزيه بنفس التمجيد، فإذا مجّدته تعالى بصفاته العظام فقد نزّهته عن الأسواء، حيث ترفّعه تعالى عمّا دون شأنه الرفيع.

فإذا قلت: ﴿اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1].

أو قلت: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ

---

(١) البقرة ٢: ٢٥٥.

سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

إذا قلت ذلك وأثنيت على الله بجلائل الصفات فقد نزّهته عن أضدادها ممّا لا يليق بساحة قدسه تعالى.

فهذا هو من التسبيح بالحمد وبالثناء الرفيع.

وبعبارة أصرح ـ وفق مصطلح أهل الكلام ـ: إذا أثنيت على الله بصفات الجمال (الصفات الثبوتيّة)، فقد وصفته بصفات الجلال (الصفات السلبيّة) ونزّهته عن الأسواء ورفّعته عن الأدناس.

وهذا من أبلغ التسبيح والتقديس بشأنه تعالى.

أمّا قولنا: «سبحان ربّي العظيم وبحمده» و «سبحان ربّي الأعلى وبحمده» فيعني: ومع حمده. أي التنزيه مُرْفَقٌ بالتمجيد معاً.

ولسيّدنا العلّامة الطباطبائي ـ هنا ـ رأي يجعل تسبيح الكائنات حصراً في القوليّ، لكن يفسّر القول بكلّ ما يُظهر من بواطن الأشياء، وليس تكلّماً باللّسان محضاً.

فالتكلّم إنّما كان قولاً، لأنّه يبدي ما في كمون المتكلّم من مقاصد وآراء. فكلّ ما كان هذا شأنه، صحّ إطلاق القول بل الكلام عليه بهذا الاعتبار.

فقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٢]، يعني: بدت منهما ما يكشف عن طوعهما واستسلامهما لإرادة الربّ تعالى.

قال: والتسبيح تنزيه قوليّ كلاميّ، وحقيقة الكلام الكشف عمّا في الضمير بنوع من الدلالة عليه. غير أنّ الإنسان أَلِفَ لإبداء مراده بآلة اللسان واستعمال الألفاظ، وقد يعبّر عن مقصوده بمجرّد الإشارة بيده أو برأسه، وربّما استعان بالكتابة أو نصب علامة.

قال: وبالجملة فالّذي يكشف عن معنىً مقصود، قول وكلام. وقيام الشيء بهذا الكشف قول منه وتكليم، وإن لم يكن بصوت أو لفظ.

وعليه فعند هذه الموجودات المشهودة، من السماء والأرض وما فيهما ما يكشف كشفاً

(١) الحشر ٥٩: ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) فصّلت ٤١: ١١.

صريحاً عن وحدانيّة ربّها في ربوبيّته وينزّهه عن كلّ نقص وشين، فهي تسبّح الله سبحانه.

وذلك لكونها في أنفسها فقيرة إلى الله، والحاجة أقوى كاشف عن غناء المحتاج إليه. فكلّ موجود يكشف بذاته المحتاجة عن غناء موجده الكامل التامّ. كما أنّ النظام العامّ المترابط والمنسجم بعضها مع بعض في وحدة جامعة متكاملة، لممّا يدلّ بوضوح على وحدة موجدها وأنّه الّذي يلجأ إليه جميع الكائنات في فقرها وحاجتها. فهو الغنيّ الّذي لافقر لديه والكامل الّذي لانقص فيه، فهو ربّ العالمين إذ لا ربّ سواه. فكلّ واحد منها يكشف بحاجته ونقصه، عن تنزّه ربّه عن الحاجة وبراءته من النقص. وهذا الكشف الذاتي ـ المنبعث من صميم الموجودات ـ قد عُبّر عنه بالتسبيح والتحميد.

قال: لعلّك تقول: إنّ مجرّد الكشف الذاتي لايسمّى تسبيحاً حتّى يُقارَن بالقصد، والقصدُ ممّا يتوقّف على الحياة، وهي عادمة في أكثر الموجودات.

لكن الظاهر من التعبير القرآني أنّ للموجودات بأسرها نحو شعور وإحساس وأنّ لها حظّاً من العلم على قدر مالها من مرتبة الوجود، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ﴾[1].

﴿وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[2].

إذن فما من كائن إلّا وهو يشعر بنفسه بعض الشعور أنّ لها ربّاً يبتغي رحمته وعطفه عليه، فهو الغنيّ الكامل الّذي يلجأ إليه المحتاجون.

وهذا هو تسبيح الكائنات تسبيحاً حقيقيّاً بلسان قالها ـ لابلسان حالها فحسب ـ غير أنّ لسان القال لايستلزم كونه بلفظ أو صوت كما نبّهنا.

قال: فالحقّ أنّ التسبيح الّذي تثبته الآية لكلّ شيء هو التسبيح بمعناه الحقيقي، وقد تكرّر في كلامه تعالى، وفيها موارد لاتحتمل غير الحقيقة كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[3]. وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ﴾[4]. ويقرب منه قوله: ﴿يَا جِبَالُ

---

(١) النور ٢٤: ٤١.
(٢) البقرة ٢: ٧٤.
(٣) الأنبياء ٢١: ٧٩.
(٤) سورة ص ٣٨: ١٨.

أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾[١] فلا معنى لحملها على التسبيح بلسان الحال[٢].

وهذا الّذي ذكره سيّدنا العلّامة، جيّد لطيف وحقيقة لامحيص عنها: إنّ للموجودات بأسرها حظّاً من الشعور بقدر مالها من حظّ الوجود. وهو الظاهر من تعابير القرآن الكريم وكثير من أحاديث الصادقين عليهم السلام.

لكن تفسير التسبيح بالتسبيح العبادي ومن نوعه الفعلي (العملي) ـ كما ارتآه الراغب الأصفهاني ـ لعلّه أوجه وأوفق مع تعابير القرآن، لاسيّما بالنظر إلى توارد تسبيح الكائنات وسجودها في آيات متماثلة، والقرآن يفسّر بعضه بعضاً، وبعد أن لم يكن في تفسير الراغب مايستدعي تأويلاً في التعبير، كما ارتكبه سيّدنا الأستاذ، حيث أوّل القول والكلام ـ من معناهما اللغوي المتعارف المتفاهم عصر النزول ـ إلى مفهوم عام: كلّ أثر أو عمل يكشف عن معنىً خبيء، الأمر الّذي لم يكن مفهوم ذلك العهد ولا في سائر الأزمان وحتّى مع الأبد، إلّا لمن درس هذا التحقيق!!

وأمّا التعبير بالقول في موارد لم يصحّ النطق اللفظي فيها، فهو من باب الاستعارة التخييليّة، وهي من أجود أنواع الاستعارات، والّتي قد مُلئ القرآن العظيم منها: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[٣]. وهذا من أفخم الاستعارات التخييليّة، المتجلّل بها وجه القرآن المجيد. إنّها تمثيل في ترسيم رائع، وقد بهر الأدباء في القديم ولايزال[٤].

هذا مع أنّه ﷺ حاول تأويل الكلام أيضاً بمثل ما صنعه في القول، ولكنّه لم يأت له بشاهد من الكتاب[٥].

---

(١) سبأ ٣٤: ١٠.

(٢) الميزان ١٣: ١١٥ ـ ١١٧ بتلخيص واختزال. وراجع: ٢: ٣٣٣ ـ ٣٣٤ لبيان حقيقة القول.

(٣) سورة ق ٥٠: ٣٠.

(٤) راجع ما سجّله الشيخ الطنطاوي بشأن هذه الآية من الإعجاز البلاغي الرفيع ٢٣: ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٥) راجع ما سجّله الأستاذ الطباطبائي بهذا الصدد في الميزان ٢: ٣٣٣.

وأمّا التقديس

فهو: وصفه تعالى بالقداسة وهي الطهارة والنزاهة عن كلّ شائبة سوء، فهو تعالى سبّوح قدّوس، المنزّه عن كلّ وصمة شين. ﴿هُوَ اللهُ الَّذي لآ إِلـٰهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ﴾[١]. ﴿يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ﴾[٢].

وهكذا كلّ شيء أو شخص انتسب إليه تعالى نسبةً قريبة قرباً قاب قوسين أو أدنى، فهو قدّيس، لأنّه نزل بساحة قدسه تعالى، فهو مبرّأ عن الأدناس.

قال الراغب: التقديس التطهير الإلٓهي المراد به في قوله تعالى: ﴿وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٣] دون التطهير الّذي هو إزالة النجاسة المحسوسة. وقوله تعالى: ﴿وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ﴾[٤] أي نطهّر الأشياء ارتساماً لك[٥].

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ﴾[٦] يعني به جبريل، من حيث إنّه ينزل بالقُدْس من الله أي بما يُطهّر به نفوسنا، من القرآن والحكمة والفيض الإلٓهي.

قال: والبيت المقدَّس هو المطهّر من النجاسة أي الشرك. وكذلك الأرض المقدّسة. قال تعالى: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾[٧].[٨]

وكذلك ﴿بِالْوَادِ المُقَدَّسِ﴾[٩] قال الطبرسيّ: أي المبارك[١٠]. لقوله تعالى: ﴿الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[١١]. ﴿الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[١٢]. قال: وقيل: المطهّر[١٣]. أي من رجس الشرك.

قال الراغب: وحظيرة القدس، قيل: الجنّة، وقيل: الشريعة. وكلاهما صحيح، فالشريعة حظيرة

---

(١) الحشر ٥٩: ٢٣.
(٢) الجمعة ٦٢: ١.
(٣) الأحزاب ٣٣: ٣٣.
(٤) البقرة ٢: ٣٠.
(٥) وفي هذا الكلام إشارة لطيفة إلى طهارة الكون ومافيه، حيث الجميع مظاهر لتجلّي نوره تعالى. ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الزمر ٣٩: ٦٩.
(٦) النحل ١٦: ١٠٢.
(٧) المائدة ٥: ٢١.
(٨) المفردات: ٣٩٦.
(٩) طه ٢٠: ١٢.
(١٠) مجمع البيان ٧: ١٣.
(١١) الأنبياء ٢١: ٨١.
(١٢) الانبياء ٢١: ٧١.
(١٣) مجمع البيان ٧: ١٣.

منها يستفاد القدس أي الطهارة[١].

قال أبو حامد الغزالي: القدّوس هو المنزّه عن كلّ وصف يُدركه حسّ، أو يتصوّره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير.

قال: ولست أقول: منزّه عن العيوب والنقائص، فإنّ ذكر ذلك يكاد يقرب من ترك الأدب. فليس من الأدب أن يقول القائل: ملك البلد ليس بحائك ولا حجّام فإنّه نفي الوجود، يكاد يوهم إمكان الوجود، وفي ذلك الإيهام نقص.

بل أقول: القدّوس هو المنزّه عن كلّ وصف من أوصاف الكمال الّذي يظنّه أكثر الخلق كمالاً. لأنّ الخلق أوّلاً نظروا إلى أنفسهم وعرفوا صفاتهم، وأدركوا انقسامها إلى ما هو كمال، ولكنّه في حقّهم، مثل علمهم وقدرتهم وسمعهم وبصرهم وكلامهم وإرادتهم واختيارهم، ووضعوا هذه الألفاظ بإزاء هذه المعاني، وقالوا: إنّ هذه هي أسماء الكمال.

وإلى ما هو نقص في حقّهم، مثل جهلهم وعجزهم وعماهم وصممهم وخرسهم، فوضعوا بإزاء هذه المعاني هذه الألفاظ.

ثمّ كانت غايتهم في الثناء على الله تعالى ووصفه، أن وصفوه بما هو أوصاف كمالهم، من علم وقدرة وسمع وبصر وكلام، وأن نفوا عنه ما هو أوصاف نقصهم. والله ـ سبحانه وتعالى ـ منزّه عن أوصاف كمالهم، كما أنّه منزّه عن أوصاف نقصهم، بل كلّ صفة تتصوّر للخلق، فهو منزّه ومقدّس عنها وعمّا يُشبهها ويُماثلها. ولولا ورود الرخصة والإذن بإطلاقها لم يجز إطلاق أكثرها ـ وقد شرح ذلك شرحاً أوفى في المقدّمة الرابعة من مقدّمات الكتاب.

قال: قُدْس العبد في أن ينزّه إرادته وعلمه. أمّا علمه، فينزّهه عن المتخيّلات والمحسوسات والموهومات وكلّ ما يشاركه فيه البهائم من الإدراكات، بل يكون تردّد نظره وتطواف علمه حول الأمور الأزليّة الإلّهيّة المنزَّهة عن أن تقرب فتدرك بالحسّ، أو تبعد فتغيب عن الحسّ. بل يصير متجرّداً في نفسه عن المحسوسات والمتخيّلات كلّها، ويقتني من العلوم ما لو سلب آلة حسّه وتخيّله بقي رَيّاناً بالعلوم الشريفة، الكلّيّة، الإلّهيّة، المتعلّقة بالمعلومات الأزليّة والأبديّة، دون الشخصيّات المتغيّرة المستحيلة.

---

(١) المفردات: ٣٩٧. وهكذا ذكر ابن اسحاق الزجاجي في كتابه «اشتقاق أسماء الله»: ٢١٤.

وأمّا إرادته، فينزّهها عن أن تدور حول الحظوظ البشريّة الّتي ترجع إلى لذّة الشهوة والغضب، ومتعة المطعم والمنكح والملبس والملمس والمنظر، ومالايصل إليه من اللذّات إلّا بواسطة الحسّ والقالب، بل لايريد إلّا الله ـ عزّ وجلّ ـ ولايبقى له حظّ إلّا فيه، ولايكون له شوق إلّا إلى لقائه، ولافرح إلّا بالقرب منه. ولو عرضت عليه الجنّة وما فيها من النعيم لم تلتفت همّته إليها، ولم يقنع من الدارين إلّا بربّ الدارين.

وعلى الجملة، الإدراكات الحسّيّة والخياليّة يشارك البهائم فيها، فينبغي أن يترقّى عنها إلى ما هو من خواصّ الإنسانيّة. والحظوظ البشريّة الشهوانيّة يزاحم البهائم أيضاً فيها، فينبغي أن يتنزّه عنها. فجلالة المريد على قدر جلالة مراده.

ومن هِمَّتُه مايدخل في بطنه، فقيمته مايخرج منه. ومن لم يكن له همّة سوى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فدرجته على قدر همّته. ومن رقَّى علمه من درجة المتخيّلات والمحسوسات، وقدّس إرادته عن مقتضى الشهوات، فقد نزل بحبوحة حظيرة القدس[١].

رأي المشايخ في اسمه تعالى «القُدُّوس»

ذكر الإمام الرازي أنّ بعض الشيوخ قال: القدّوس، من تقدّست عن الحاجات ذاتُه وتنزّهت عن الآفات صفاتُه.

وقيل: القدّوس، من قدّس نفوس الأبرار عن المعاصي، وأخذ الأشرار بالنواصي.

وقيل: القدّوس، من تقدّس عن مكان يحويه، وعن زمان يُبليه.

وقيل: القدّوس، الّذي قدّس قلوب أوليائه عن السكون إلى المألوفات، وأنّس أرواحهم بفنون المكاشفات[٢].

اشتقاق كلمة «قُدّوس»

قال بعضهم: أصل هذه الكلمة سُريانيّة، وهو: قدّيسا. وهم يقولون في أدعيتهم: قدّيس قدّيس.

---

(١) المقصد الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي: ٧١ ـ ٧٣.

(٢) شرح أسماء الله الحسنى، للإمام الرازي: ١٨٦.

نظير ما تقدّم في كلمة «الرحمان»[١].

ذكر الرازي هناك: أنّ ورود ما يشبه هذه اللفظة في العبرانيّة لايقدح في كونها عربيّة، لاسيّما وبين العربيّة والعبرانيّة مشابهات كثيرة في الألفاظ[٢].

وقد تقدّم كلام الراغب (المفردات: ٣٩٧)، وكذا الزجاجي (اشتقاق أسماء الله: ٢١٤) في اشتقاق الكلمة وأنّ لها أصلاً صحيحاً، كما عن ابن فارس (معجم مقاييس اللغة ٥: ٦٣). وإن احتمل أنّه من الكلام الشرعيّ الإسلاميّ. أي حقيقة شرعيّة وليست لُغويّة، فيحتمل اقتباسها من اصطلاح ديني قديم!

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[١٠٣٥/٢] أخرج ابن المنذر وابن بطّة في أماليه عن ابن عبّاس قال: إيّاكم والرأي فإنّ الله تعالى ردّ الرأي على الملائكة، وذلك أنّ الله تعالى قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا... قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

[١٠٣٦/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى الحسين بن بشّار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته أيعلم الله الشيء الّذي لم يكن، أن لو كان كيف كان يكون؟ فقال: «إنّ الله هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء، قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤] وقال لأهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٥] فقد علم ـ عزّ وجلّ ـ أنّه لو ردّهم لعادوا لما نهوا عنه، وقال للملائكة ـ لمّا قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ﴾ ـ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلم يزل الله ـ عزّ وجلّ ـ علمه سابقاً للأشياء قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك الله ربّنا وتعالى علوّاً كبيراً، خلق الأشياء كما شاء، وعِلمه بها سابق لها كما شاء، كذلك ربُّنا لم يزل عالماً سميعاً بصيراً»[٦].

---

(١) المصدر: ١٨٥.
(٢) المصدر: ١٥٥.
(٣) الدرّ ١: ١١٣.
(٤) الجاثية ٤٥: ٢٩.
(٥) الأنعام ٦: ٢٨.
(٦) نور الثقلين ١: ٥٣ ـ ٥٤؛ عيون الأخبار ١: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٨، باب ١٠؛ البحار ٤: ٧٨ ـ ٧٩ / ١.

[١٠٣٧/٢] وأخرج وكيع وسفيان بن عُيينة وعبدالرزّاق وسعيدبن منصور وعبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال. علم من إبليس المعصية، وخلقه لها[١].

[١٠٣٨/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ...﴾ الآية. قال: إنّ الله قال للملائكة: إنّي خالق بشراً، وإنّهم متحاسدون فيقتل بعضُهم بعضاً ويُفسدون في الأرض. فلذلك قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قال: وكان إبليس أميراً على ملائكة سماء الدنيا، فاستكبر وهمّ بالمعصية وطغى، فعلم الله ذلك منه. فذلك قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنّ في نفس إبليس بغياً[٢].

قال ابن أبي حاتم: وروي عن السّدّي مثله.

[١٠٣٩/٢] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: إنّي قد اطّلعت من قلب إبليس على ما لم تطّلعوا عليه من كبره واغتراره[٣].

[١٠٤٠/٢] وأخرج أيضاً بالإسناد إلى ابن مسعود وناس من أصحاب النبيّ ﷺ في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: يعني من شأن إبليس[٤].

[١٠٤١/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: كان في علم الله أنّه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنّة[٥].

[١٠٤٢/٢] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى ابن إسحاق في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: أي فيكم ومنكم ولم يبدها لهم من المعصية والفساد وسفك الدماء[٦].

[١٠٤٣/٢] وروى العيّاشي بالإسناد إلى عليّ بن الحسين ﷺ «في قوله: ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ قال: ردّوا على الله فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾، وإنّما قالوا ذلك بخلق مضى، يعني الجانّ أبا الجنّ ﴿وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ﴾، فمنّوا على الله بعبادتهم إيّاه، فأعرض عنهم. ثمّ علّم آدم الأسماء

---

(١) الدرّ ١: ١١٤؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٥ / ٣٦؛ الطبري ١: ٣٠٥ / ٥٣١.

(٢) الدرّ ١: ١١٢ـ١١٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٧٧ و ٧٩ / ٣٢٤ و ٣٣٣.

(٣) الطبري ١: ٣٠٥ / ٥٢٩.

(٤) المصدر / ٥٣٠.

(٥) الدرّ ١: ١١٤؛ الطبري ١: ٣٠٧ / ٥٣٣.

(٦) الطبري ١: ٣٠٦ / ٥٣٢.

كلّها، ثمّ قال للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾، قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾، فأنباهم، ثمّ قال لهم: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، فسجدوا وقالوا في سجودهم في أنفسهم: ما كنّا نظنّ أن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منّا، نحن خُزّان الله وجيرانه وأقرب الخلق إليه. فلمّا رفعوا رؤوسهم، قال الله: أعلم ما تبدون من ردّكم عليّ وما كنتم تكتمون: ظنّنا أن لا يخلق الله خلقاً أكرم عليه منّا. فلمّا عرفت الملائكة أنّها وقعت في خطيئة لاذوا بالعرش، وإنّها كانت عصابة من الملائكة، وهم الّذين كانوا حول العرش لم يكونوا جميعَ الملائكة الّذين قالوا ما ظنّنا أن يخلق خلقاً أكرم عليه منّا، وهم الّذين أُمروا بالسجود، فلاذوا بالعرش وقالوا بأيديهم ـ وأشار بإصبعه يديرها ـ فهم يلوذون حول العرش إلى يوم القيامة. فلمّا أصاب آدم الخطيئة، جعل الله هذا البيت لمن أصاب الخطيئة من ولده فلاذ به من ولد آدمعليه السلام كما لاذ أولئك بالعرش، فلمّا هبط آدمعليه السلام إلى الأرض طاف بالبيت، فلمّا كان عند المستجار، دنا من البيت ورفع يديه إلى السماء، فقال: يا ربّ اغفر لي، فنودي إنّي قد غفرت لك، قال: يا ربّ ولولدي، قال: فنودي يا آدم من جاءني من ولدك فتاب من ذنبه بهذا المكان غفرت له»[١].

[١٠٤٤/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى عمرو بن أبي المقدام عن جابر عن أبي جعفرعليه السلام قال: قال أمير المؤمنينعليه السلام: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لما أحبّ أن يخلق خلقاً بيده، وذلك بعد مضيّ الجنّ والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة، قال: ولمّا كان من شأنه أن يخلق آدمعليه السلام للّذي أراد من التدبير والتقدير لما هو مكوّنه في السماوات والأرض، وعلمه لما أراد من ذلك كلّه، كشط عن أطباق السماوات ثمّ قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس. فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحقّ عظم ذلك عليهم؛ وغضبوا لله وأسفوا على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم أن قالوا: يا ربّ أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشأن، وهذا خلقك الضعيف الذليل في أرضك يتقلّبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك، وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام، لا تأسف ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم وترى، وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك. فلمّا سمع الله ذلك من الملائكة قال: ﴿إِنِّي

(١) البرهان ١: ١٦٦ ـ ١٦٧ / ٦؛ العيّاشي ١: ٤٩ / ٧؛ البحار ٩٦: ٢٠٥ ـ ٢٠٦ / ١٩.

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لي عليهم، فيكون حجّة لي عليهم في أرضي على خلقي، فقالت الملائكة: سبحانك ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ﴾ قالوا: فاجعله منّا فإنّا لانفسد في الأرض ولانسفك الدماء، قال الله ـ جلّ جلاله ـ: يا ملائكتي ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنّي أريد أن أخلق خلقاً بيدي، أجعل ذرّيّته أنبياء مرسلين وعباداً صالحين، وأئمّة مهتدين، أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي ينهونهم عن المعاصي ويُنذرونهم عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم إلى طريق سبيلي، وأجعلهم حجّة لي عُذراً أو نُذراً، وأبين النسناس من أرضي فأُطهّرها منهم، وأنقل مردة الجنّ العصاة عن بريّتي وخلقي وخيرتي وأُسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض أن لا يجاوروا نسل خلقي، وأجعل بين الجنّ وبين خلقي حجاباً؛ ولايرى نسل خلقي الجنّ ولايؤانسونهم ولايخالطونهم ولايجالسونهم، فمن عصاني من نسل خلقي الّذين اصطفيتهم لنفسي أسكنتهم مساكن العصاة وأوردتهم مواردهم ولاأبالي، فقالت الملائكة: يا ربّنا افعل ما شئت ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾»[١].

[١٠٤٥/٢] وروى عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى جابربن يزيد عن أبي جعفر محمّدبن عليّ بن الحسين عن أبيه عن آبائه عن أميرالمؤمنين ﷺ قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق خلقاً بيده، وذلك بعد ما مضى من الجنّ والنسناس[٢] في الأرض سبعة آلاف سنة، وكان من شأنه خلق آدم فكشط[٣] عن أطباق السماوات وقال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس، فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحقّ، عظم ذلك عليهم وغضبوا وتأسّفوا على أهل الأرض، ولم يملكوا غضبهم، قالوا: ربّنا إنّك أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشأن، وهذا خلقك الضعيف الذليل يتقلّبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك، وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام، لا تأسف عليهم ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم وترى، وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك، قال: فلمّا سمع ذلك من

(١) نورالثقلين ١: ٥١ ـ ٥٢؛ علل الشرائع ١: ١٠٤ ـ ١٠٥ / ١، باب ٩٦ (علّة الطبايع والشهوات والمحبّات)؛ القمّيّ ١: ٣٦ ـ ٣٧، رواه مُطوّلاً؛ البحار ١١: ١٠٣ ـ ١٠٤ و ٦٠: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) يقال: إنّه خلق في صورة الناس. قال كراع: والنسناس ـ فيما يقال ـ: دابّة في عداد الوحش تصاد وتؤكل. (لسان العرب مادة نسس).

(٣) كشط الغطاء عن الشيء: نزعه وكشف عنه.

الملائكة قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يكون حجّة لي في أرضي على خلقي، فقالت الملائكة: سبحانك ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما فسد بنو الجانّ، ويسفكون الدماء كما سفك بنو الجانّ، ويتحاسدون ويتباغضون، فاجعل ذلك الخليفة منّا فإنّا لا نتحاسد ولا نتباغض ولا نسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك!.

قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنّي أريد أن أخلق خلقاً بيدي وأجعل من ذرّيّته أنبياء ومرسلين وعباداً صالحين وأئمّة مهتدين، وأجعلهم خلفاء على خلقي في أرضي ينهونهم عن معصيتي، ويُنذرونهم من عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، وأجعلهم لي حجّة، وعليهم عذراً ونذراً، وأُبين النسناس عن أرضي، وأطهّرها منهم وأنقل مردة الجنّ العصاة عن بريّتي وخلقي وخيرتي، وأسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض ولا يجاورون نسل خلقي، وأجعل بين الجنّ وبين خلقي حجاباً، فلا يرى نسل خلقي الجنّ ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم، فمن عصاني من نسل خلقي الّذين اصطفيتهم أسكنتهم مساكن العصاة وأوردتهم مواردهم ولا أبالي. قال: فقالت الملائكة: يا ربّنا افعل ما شئت ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، قال: فباعدهم الله من العرش مسيرة خمسمائة عام، قال: فلاذوا بالعرش وأشاروا بالأصابع، فنظر الربّ ـ عزّ وجلّ ـ إليهم ونزلت الرحمة، فوضع لهم البيت المعمور، فقال: طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش، فإنّه لي رضاً، فطافوا به، وهو البيت الّذي يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبداً، فوضع الله البيت المعمور توبة لأهل السماء، ووضع الكعبة توبة لأهل الأرض. فقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(١)، قال: وكان ذلك من الله تقدمة في آدم قبل أن يخلقه واحتجاجاً منه عليهم، قال: فاغترف ربّنا ـ عزّ وجلّ ـ غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات، وكلتا يديه يمين، فصلصلها في كفّه حتّى جمدت، فقال لها: منك أخلق النبيّين والمرسلين وعبادي الصالحين، والأئمّة المهتدين والدعاة إلى الجنّة وأتباعهم إلى يوم القيامة وأشياعهم ولا أُبالي، ولا أُسأل عمّا أفعل وهم يُسألون.

ثمّ اغترف غُرفةً أُخرى من الماء المالح الأُجاج، فصلصلها في كفّه فجمدت، فقال لها: منك أخلُقُ الجبّارين والفَراعِنة والعُتاة وإخوان الشياطين، والدُعاة إلى النار إلى يوم القيامة وأشياعهم

(١) الحجر ١٥: ٢٨ ـ ٢٩.

ولا أُبالي، ولا أُسأل عمّا أفعل وهم يُسألون.

قال: وشرط في ذلك البداء فيهم، ولم يشترط في أصحاب اليمين البداء، ثمّ خلط المائين جميعاً في كفّه فصلصلهما، ثمّ كفأهما قدّام عرشه، وهما سلالة من الطين، ثمّ أمر الله الملائكة الأربعة، الشمال والجنوب والصبا والدبور، أن يجولوا على هذه السلالة من الطين فأبرأوها وأنشأوها ثمّ جزّأوها وفصّلوها وأجروا فيها الطبائع الأربعة: الريح والدم والمرّة والبلغم، فجالت الملائكة عليها وهي الشمال والجنوب والصبا والدبور، وأجروا فيها الطبائع الأربعة، الريح في الطبائع الأربعة من البدن من ناحية الشمال، والبلغم في الطبائع الأربعة من ناحية الصبا، والمُرّة في الطبائع الأربعة من ناحية الدبور، والدم في الطبائع الأربعة من ناحية الجنوب. قال: فاستقلّت النسمة وكمل البدن، فلزمه من ناحية الريح حبّ النساء وطول الأمل والحرص، ولزمه من ناحية البلغم حبّ الطعام والشراب والبرّ والحلم والرفق، ولزمه من ناحية المُرّة الغضب والسفه والشيطنة والتجبّر والتمرّد والعجلة، ولزمه من ناحية الدم حبّ الفساد واللذّات وركوب المحارم والشهوات.

قال: فخلق الله آدم، فبقي أربعين سنة مصوَّراً، فكان يمرّ به إبليس اللعين فيقول: لأمر مّا خُلقت! قال: فقال إبليس: لئن أمرني الله بالسجود لهذا لأعصينّه، قال: ثمّ نفخ فيه، فلمّا بلغت الروح فيه إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله له: يرحمك الله، فسبقت له من الله الرحمة، ثمّ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾[1]، فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد، فأبى أن يسجد، فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[2]. قال الصادق عليه السلام: أوّل من قاس إبليس واستكبر، والاستكبار هو أوّل معصية عُصي الله بها، قال: فقال إبليس: يا ربّ أعفني من السجود لآدم وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، فقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: لا حاجة لي إلى عبادتك أنا أُريد أن أُعْبَدَ من حيث أُريد لا من حيث تريد، فأبى أن يسجد، فقال الله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[3]، فقال إبليس: يا ربّ وكيف وأنت العدل الّذي لايجور ولا يظلم، فثواب عملي بطل؟ قال: لا ولكن سلني من أمر الدنيا ما شئت ثواباً لعملك فأعطيك، فأوّل ما سأل، البقاء إلى يوم الدين!

(١) البقرة ٢: ٣٤. (٢) الأعراف ٧: ١٢.

(٣) الحجر ١٥: ٣٤ـ ٣٥.

فقال الله: قد أعطيتك، قال: سلّطني على ولد آدم، فقال: قد سلّطتك، قال: أجرني فيهم كجري الدم في العروق، فقال: قد أجريتك، قال: لا يولد لهم ولد إلّا ولد لي اثنان، وأراهم ولا يروني، وأتصوّر لهم في كلّ صورة شئت، فقال: قد أعطيتك، قال: ياربّ زدني، قال: قد جعلت لك ولذرّيّتك صدورهم أوطاناً، قال: ربّ حسبي، فقال إبليس عند ذلك: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١]، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾»[٢][٣].

[١٠٤٦/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنَّف وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في الأمل عن الحسن قال: لمّا خلق الله آدم وذرّيّته قالت الملائكة: ربّنا إنّ الأرض لا تسعهم! قال: إنّي جاعل موتاً. قالوا: إذاً لا يهنأ لهم العيش! قال: إنّي جاعل أملاً[٤].

[١٠٤٧/٢] وروى العيّاشي بإسناده إلى محمدبن مروان، عن جعفربن محمد عليه السلام، قال: «إنّي لأطوف بالبيت مع أبي إذ أقبل رجل طوال جُعشُم[٥] متعمّم بعمامة، فقال: السلام عليك يابن رسول الله، قال: فردّ عليه أبي، فقال: أشياء أردت أن أسألك عنها ما بقي أحد يعلمها إلّا رجل أو رجلان، قال: فلمّا قضى أبي الطواف، دخل الحجر فصلّى ركعتين ثمّ قال: هاهنا يا جعفر، ثمّ أقبل على الرجل فقال له أبي: كأنّك غريب؟ فقال: أجل، فأخبرني عن هذا الطواف كيف كان ولم كان؟ قال: إنّ الله لمّا قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ إلى آخر الآية، كان ذلك [جرأة] مَن يعصي منهم فاحتجب عنهم سبع سنين، فلاذوا بالعرش يلوذون يقولون: لبيّك ذا المعارج لبيّك، حتّى تاب عليهم، فلمّا أصاب آدمُ الذنبَ، طاف بالبيت حتّى قبل الله منه، قال: فقال: صدقت، فتعجّب أبي من قوله: صدقت»[٦].

---

(١) سورة ص ٣٨: ٨٢ ـ ٨٣. (٢) الأعراف ٧: ١٧.

(٣) البرهان ١: ١٧٠ ـ ١٧٤ / ٥؛ القمّيّ ١: ٣٦ ـ ٤٢؛ البحار ١١: ١٠٣ ـ ١٠٥ / ١٠، إلى قوله: «وركوب المحارم والشهوات»؛ علل الشرائع ١: ١٠٤ ـ ١٠٦ / ١ باب ٩٦ (علّة الطبايع والشهوات والمحبّات).

(٤) الدرّ ١: ١١٤؛ المصنَّف ٨: ٢٥٨ / ٣٦، كتاب الزهد، كلام الحسن البصري.

(٥) الجُعْشُم: القصير الغليظ الشديد. وأيضاً: الطويل الجسيم. فهو ضدّ.

(٦) البرهان ١: ١٦٥ / ٤؛ العيّاشي ١: ٤٧ / ٥؛ البحار ٩٦: ٢٠٤ / ١٧.

[١٠٤٨/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أوّل من لبّى الملائكةُ، قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قال: فرادّوه فأعرض عنهم، فطافوا بالعرش ستّ سنين يقولون: لبّيك لبّيك اعتذاراً إليك، لبّيك لبّيك نستغفرك ونتوب إليك»[١].

[١٠٤٩/٢] وروى عليّ بن إبراهيم بالإسناد إلى محمّد بن مروان قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول كنت مع أبي في الحجر فبينما هو قائم يصلّي إذ أتاه رجل فجلس إليه فلمّا انصرف سلّم عليه ثمّ قال: إنّي أسألك عن ثلاثة أشياء لايعلمها إلّا أنت ورجل آخر، قال: ماهي؟ قال: أخبرني أيّ شيء كان سبب الطواف بهذا البيت؟ فقال: إنّ الله تعالى لمّا أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فردّوا عليه فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فغضب عليهم ثمّ سألوه التوبة فأمرهم أن يطوفوا بالضراح وهو البيت المعمور ومكثوا يطوفون به سبع سنين ويستغفرون الله تعالى ممّا قالوا ثمّ تاب عليهم من بعد ذلك ورضي عنهم. فهذا كان أصل الطواف ثمّ جعل الله البيت الحرام حذو الضراح توبة لمن أذنب من بني آدم وطهوراً لهم، فقال صدقت»[٢].

[١٠٥٠/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى يحيى بن أبي العُلا الرازي «عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: وقد سأله رجل فقال: أخبرني عن هذا البيت كيف صار فريضة على الخلق أن يأتوه؟ قال: فالتفت أبو عبدالله عليه السلام إليه وقال: ماسألني عن مسألتك قطّ أحد قبلك، إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لمّا قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ضجّت الملائكة من ذلك وقالوا: يا ربّ إن كنت لابدّ جاعلاً في أرضك خليفة فاجعله منّا من يعمل في خلقك بطاعتك، فردّ عليهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فظنّت الملائكة أنّ ذلك سخط من الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم. فلاذوا بالعرش يطوفون به، فأمر الله ـ عزّ وجلّ ـ لهم ببيت من مرمر سقفه ياقوتة حمراء وأساطينه الزبرجدة يدخله كلّ يوم

---

(١) الدرّ ١: ١١٣.

(٢) نور الثقلين ١: ٥٠ ـ ٥١؛ الكافي ٤: ١٨٨ / ٢، كتاب الحجّ، باب بدء البيت والطواف؛ العيّاشي ١: ٤٨ / ٦، وزاد: ثمّ ذكر المسألتين نحو الحديث الأوّل ثمّ قام الرجل فقلت: من هذا الرجل يا أبه؟ فقال: يا بُنيّ هذا الخضر عليه السلام؛ البحار ٩٦: ٢٠٥ / ١٨؛ البرهان ١: ١٦٦ / ٥.

سبعون ألف ملك لايدخلونه بعد ذلك إلى يوم الوقت المعلوم»[١].

[١٠٥١/٢] وبإسناده إلى عليّ بن حديد عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن أحدهما عليهما السلام أنّه سُئل عن ابتداء الطواف؟ فقال: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لمّا أراد خلق آدم عليه السلام قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقال ملكان من الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ فوقعت الحُجُب فيما بينهما وبين الله ـ عزّ وجلّ ـ وكان تبارك وتعالى نوره ظاهراً للملائكة، فلمّا وقعت الحُجُب بينه وبينهما علما أنّه قد سخط قولهما، فقالا للملائكة: ما حيلتنا وما وجه توبتنا؟ فقالوا: ما نعرف لكما من التوبة إلّا أن تلوذا بالعرش، قال: فلاذا بالعرش حتّى أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ توبتهما، ورفعت الحُجُب فيما بينه وبينهما، وأحبّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يُعبَد بتلك العبادة، فخلق الله البيت في الأرض وجعل على العباد الطواف حوله، وخلق البيت المعمور في السماء يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه إلى يوم القيامة»[٢].

[١٠٥٢/٢] وبإسناده إلى أبي حمزة الثُمالي عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «قلت لأبي: لم صار الطواف سبعة أشواط؟ قال: لأنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فردّوا على الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَقَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ قال الله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وكان لايحجبهم عن نوره، فحجبهم عن نوره سبعة آلاف عام، فلاذوا بالعرش سبعة آلاف سنة فرحمهم وتاب عليهم وجعل لهم البيت المعمور الّذي في السماء الرابعة، وجعله مثابة، ووضع البيت الحرام تحت البيت المعمور، فجعله مثابة للناس وأمناً، فصار الطواف سبعة أشواط واجباً على العباد، لكلّ ألف سنة شوطاً واحداً»[٣].

[١٠٥٣/٢] وبإسناده إلى أبي خديجة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سأل أبي عليه السلام رجلٌ وقال: حدّثني عن الملائكة حين ردّوا على الربّ حيث غضب عليهم وكيف رضي عنهم؟ فقال: إنّ الملائكة طافوا

---

(١) نور الثقلين ١: ٥٢؛ علل الشرائع ٢: ٤٠٢ / ٢، باب ١٤٢ (علّة وجوب الحجّ والطواف بالبيت وجميع المناسك)؛ البحار ١١: ١٠٨ / ١٧.

(٢) نور الثقلين ١: ٥٢ ـ ٥٣؛ علل الشرائع ٢: ٤٠٢ ـ ٤٠٣ / ٣، باب ١٤٢ (علّة وجوب الحجّ والطواف بالبيت وجميع المناسك)؛ البحار ١١: ١٠٩ ـ ١١٠ / ٢٣.

(٣) نورالثقلين ١: ٥٣؛ علل الشرائع ٢: ٤٠٦ ـ ٤٠٧ / ١؛ البحار ١١: ١١٠ ـ ١١١ / ٢٥.

بالعرش سبع سنين يدعونه ويستغفرونه ويسألونه أن يرضى عنهم فرضي عنهم بعد سبع سنين فقال: صدقت ومضى، فقال أبي ﷺ: هذا جبرئيل ﷺ: أتاكم يعلّمكم معالم دينكم...».[1]

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

[١٠٥٤/٢] أخرج ابن جرير عن قتادة والحسن قالا: لمّا أخذ الله في خلق آدم همست الملائكة فيما بينها فقالوا: لن يخلق الله خلقاً إلّا كنّا أعلم منه وأكرم عليه منه. فلمّا خلقه أمرهم أن يسجدوا له لما قالوا.. ففضّله عليهم، فعلموا أنّهم ليسوا بخير منه. فقالوا: إن لم نكن خيراً منه فنحن أعلم منه، لأنّا كنّا قبله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ فعلّمه اسم كلّ شيء، وجعل يسمّي كلّ شيء باسمه، وعُرضت عليه أمّة أمّة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ففزعوا إلى التوبة فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ...﴾ الآية[2].

[١٠٥٥/٢] وأخرج عن مجاهد عن ابن عبّاس قال: إنّ الله لمّا أخذ في خلق آدم قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منّا، ولا أعلم منّا فابتلوا بخلق آدم[3].

[١٠٥٦/٢] وأخرج عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ﴾ قال: علّم الله آدم الأسماء كلّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابّة وأرض وبحر وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني عَرَض أسماء جميع الأشياء التي علّمها آدم من أصناف الخلق ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾ يقول: أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون أنّي لم أجعل في الأرض خليفة. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لله من أن يكون يعلم الغيب أحد غيره، تُبْنا إليك ﴿لا عِلْمَ لَنا﴾ تبريّاً منهم من علم الغيب ﴿إلّا ما عَلَّمْتَنا﴾ كما علّمت آدم[4].

---

(١) نور الثقلين ١: ٥٤؛ علل الشرائع ٢: ٤٠٧ / ٢، باب ١٤٣ (العلّة الّتي من أجلها صار الطواف سبعة أشواط)؛ البحار ١١: ١٦٩ ـ ١٧٠ / ١٧.

(٢) الدرّ ١: ١٢٢؛ الطبري ١: ٢٩٦ ـ ٢٩٧ و ٣١٣ / ٥٦١.

(٣) الدرّ ١: ١٢٢؛ الطبري ١: ٢٩٦ / ٥١٢.

(٤) الدرّ ١: ١٢١؛ الطبري ١: ٣٠٩ / ٥٣٩.

[١٠٥٧/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدّوابّ. فقيل: هذا الجمل، هذا الحمار. هـذا الفرس.(١)

[١٠٥٨/٢] وأخرج وكيع وعبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: ما خلق الله كلّه(٢).

[١٠٥٩/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علّم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم تعلم الملائكة، فسمّى كلّ شيء باسمه، وألجأ كلّ شيء إلى جنسه(٣).

[١٠٦٠/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قول الله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علّمه الغراب والحمامة واسم كلّ شيء(٤).

[١٠٦١/٢] وعن الربيع: قال: اسم كلّ شيء(٥).

[١٠٦٢/٢] وأخرج وكيع وابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علّمه اسم كلّ شيء، حتّى البعير والبقرة والشاة(٦).

[١٠٦٣/٢] وأخرجا عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علّمه اسم كلّ شيء، حتّى علّمه القصعة والقصيعة(٧).

[١٠٦٤/٢] وروى العيّاشي عن داوودبن سرحان العطّار قال: «كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فدعا بالخوان فتغدّينا، ثمّ جاءوا بالطست والدست سنانه، فقلت: جعلت فداك، قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ

---

(١) الدرّ ١: ٢٦٤، ط: مركز هجر. (٢) المصدر.

(٣) الدرّ ١: ١٢١؛ القرطبي ١: ٢٨٢، بلفظ: روى شيبان عن قتادة قال: علّم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة وسمّى كلّ شيء باسمه وأنحى منفعة كلّ شيء إلى جنسه؛ ابن عساكر ٧: ٣٩٩، ترجمة آدم عليه السلام.

(٤) الطبري ١: ٥٤١/٣٠٩. (٥) المصدر: ٥٤٧/٣١٠.

(٦) الدرّ ١: ١٢١؛ الطبري ١: ٥٤٢/٣٠٩.

(٧) الدرّ ١: ١٢٠؛ الطبري ١: ٥٤٣/٣١٠؛ البغوي ١: ١٠٣؛ الثعلبي ١: ١٧٧، عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك بلفظ: «علّمه الله اسم كلّ شيء حتّى القصعة والقُصيعة»؛ الوسيط ١: ١١٦، بلفظ: «علّمه اسم كلّ شيء، حتّى القصعة والمغرفة، عن ابن عبّاس وقتادة ومجاهد».

﴿كُلَّهَا﴾ الطست والدست سنانه منه؟ فقال: الفجاج والأودية، وأهوى بيده كذا وكذي»[١].

[١٠٦٥/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علّمه اسم الصحفة والقدر وكلّ شيء[٢].

[١٠٦٦/٢] وقال السّدّي عمّن حدّثه عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علّمه أسماء ولده إنساناً إنساناً والدوابّ فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس[٣].

[١٠٦٧/٢] وقال الطبرسي: روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه «سُئل عن هذه الآية فقال: الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثمّ نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط ممّا علّمه»[٤].

[١٠٦٨/٢] وروى العيّاشي عن الفضل أبي العبّاس، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «سألته عن قول الله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ما هي؟ قال: أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال»[٥].

[١٠٦٩/٢] وروى عليّ بن إبراهيم القمي في قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: أسماء الجبال والبحار والأودية والنبات والحيوان[٦].

[١٠٧٠/٢] وأخرج الحاكم في تاريخه وابن عساكر والديلمي عن عطيّة بن يسر مرفوعاً، في قوله: ﴿وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علّمه الله في تلك الأسماء ألف حِرْفة من الحرف وقال له: قل لولدك وذرّيّتك: إن لم تصبروا فاطلبوا الدنيا بهذه الحِرَف، ولا تطلبوها بالدين، فإنّ الدين لي وحدي خالصاً. ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له[٧].

ولعلّ في هذا الحديث ما يكشف السرّ عن الأسماء الّتي علّمها آدم... وهو ما نبّهنا عليه ـ مُسبقاً

---

(١) البرهان ١: ١٦٨/ ١٢؛ العيّاشي ١: ٥١ / ١٣؛ البحار ١١: ١٤٧ / ٢٠. والطَسْت إناء من نحاس لغسل الأيدي. ومعه إبريق يكون الغسل بصبّ الماء منه. ولعلّه المراد من الدست شُويه. وقد صحّف إلى الدست سنانه كما في المتن.

(٢) الدرّ ١: ١٢٠؛ الطبري ١: ٣٠٩ / ٥٤٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٠ / ٣٣٧.

(٣) ابن كثير ١: ٧٦.

(٤) مجمع البيان ١: ١٥٢؛ العيّاشي ١: ٥١ / ١١؛ البحار ١١: ١٤٦ـ١٤٧.

(٥) العيّاشي ١: ٥١ / ١٢؛ البحار ١١: ١٤٧ / ١٩. (٦) القمي ١: ٤٥.

(٧) ابن عساكر ٥٧: ٥، رقم ٧١٩٥، ترجمة مأمون بن أحمد؛ الدرّ ١: ١٢١؛ فردوس الأخبار، الديلمي ٣: ٧١ / ٣٩٢٣؛ كنزالعمّال ١٠: ٢٠٦ / ٢٩٠٩١.

أنّها المعرفة بحقائق الأشياء، والعلم بخواصّها وآثارها، والّتي منها تتشعّب جميع العلوم الّتي لايزال الإنسان يتوصّل إليها عبر الحياة.. فبذلك ازدهرت حياته وتسيطر على عالم الوجود كلّه بفضل نبوغه واستعداده لاستخراج كوامن الأمور.. الأمر الّذي تحقّقت به عمارة الأرض على يد هذا الإنسان الّذي هو خليفة الله فيها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1].

وإلى ذلك أيضاً ينظر ما ذكره أبو علي الطبرسي عن ابن عبّاس ومجاهد وسعيدبن جبير وعن أكثر المتأخّرين: إنّه ـ سبحانه ـ علّم آدم جميع الأسماء والصناعات وعمارة الأرضين[2].

* * *

[١٠٧١/٢] وعن أبي علي الجبّائي، وعلي بن عيسى الرمّاني وغيرهما: إنّه علّمه أسماء الأشياء كلّها، ما خَلَق ومالم يَخلُق، بجميع اللّغات التي يتكلّم بها وُلده بعده، قالوا: فأخذ عنه وُلده اللّغات، فلمّا تفرّقوا تكلّم كلّ قوم بلسان ألفوه واعتادوه، وتطاول الزّمان على ما خالف ذلك، فنسوه[3].

[١٠٧٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: أسماء الذرّيّة[4].

[١٠٧٣/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: أسماء الملائكة[5].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾

[١٠٧٤/٢] قال القرطبي: في حرف أُبيّ «عرضها»[6].

[١٠٧٥/٢] وقال: وفي حرف ابن مسعود: «عرضهنّ»[7].

---

(١) هود ١١: ٦١.
(٢) مجمع البيان ١: ١٥٢.
(٣) مجمع البيان ١: ١٥٢؛ التبيان ١: ١٣٨.
(٤) الدرّ ١: ١٢١؛ الطبري ١: ٣١٠ / ٥٤٩؛ البغوي ١: ١٠٣؛ الثعلبي ١: ١٧٧.
(٥) الدرّ ١: ١٢١؛ الطبري ١: ٣١٠ / ٥٤٨؛ الثعلبي ١: ١٧٧ وفيه: عن الربيع وابن أنس.
(٦) القرطبي ١: ٢٨٣؛ ابن كثير ١: ٧٦، وزاد: «أي السماوات»؛ التبيان ١: ١٤١؛ مجمع البيان ١: ١٥٣؛ أبوالفتوح ١: ٢٠٣؛ الطبري ١: ٣١١.
(٧) المصادر.

[١٠٧٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس، وعن مُرّة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ قال: ثمّ عرض الخلق على الملائكة(١).

[١٠٧٧/٢] وأخرج الثعلبي عن مقاتل قال: خلق الله كلّ شيء من الحيوان والجماد، ثمّ عرض تلك الشخوص على الملائكة(٢).

[١٠٧٨/٢] وأخرج عبدالرزّاق عن معمر وعن قتادة قال: علّمه اسم كلّ شيء هذا جبل، وهذا بحر، وهذا كذا وهذا كذا، لكلّ شيء. ثمّ عرض تلك الأشياء على الملائكة فقال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾(٣).

[١٠٧٩/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ قال: عرض أصحاب الأسماء على الملائكة(٤).

[١٠٨٠/٢] وأخرج عن ابن عبّاس قال: يعني عرض أسماء جميع الأشياء الّتي علّمها آدم من أصناف الخلق(٥).

[١٠٨١/٢] وعن قتادة قال: علّمه اسم كلّ شيء ثمّ عرض تلك الأسماء على الملائكة(٦).

[١٠٨٢/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى محمّدبن زياد عن أيمن بن محرز عن الإمام الصادق جعفربن محمّد عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى علّم آدم أسماء حجج الله كلّها ثمّ عرضهم ـ وهم أرواح ـ على الملائكة»(٧).

[١٠٨٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ قال: أسماء ذرّيّته كلّها، أخذهم من ظهره. قال: ثمّ عرضهم على الملائكة(٨).

---

(١) الطبري ١: ٣١٢ / ٥٥١.

(٢) الثعلبي ١: ١٧٨؛ البغوي ١: ١٠٣؛ الوسيط ١: ١١٧.

(٣) عبدالرزّاق ١: ٢٦٥ / ٣٨؛ الطبري ١: ٣١٠ / ٥٤٥.

(٤) الدرّ ١: ١٢١ ـ ١٢٢؛ الطبري ١: ٣١٢ / ٥٥٤.

(٥) الدرّ ١: ١٢١؛ الطبري ١: ٣١٢ / ٥٥٠؛ أبو الفتوح ١: ٢٠٣؛ الثعلبي ١: ١٧٨. بلفظ: «علّم الله آدم أسماء الخلق والقرى والمدن والجبال والسباع وأسماء الطير والشجر وأسماء ما كان وما يكون وكلّ نسمة الله ـ عزّ وجلّ ـ بارئها إلى يوم القيامة، وعرض تلك الأسماء على الملائكة.

(٦) الطبري ١: ٣١٢ / ٥٥٣.

(٧) كمال الدين: ١٣؛ البحار ٢٦: ٢٨٣ / ٣٨.

(٨) الطبري ١: ٣١٢ / ٥٥٢.

قوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

[١٠٨٤/٢] أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أَنبِئُونِي﴾ يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء[١].

[١٠٨٥/٢] وعن مجاهد في قول الله: ﴿بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ قال: بأسماء هذه الّتي حَدَّثَتْ بها آدم[٢].

[١٠٨٦/٢] وقال زيد بن أسلم: قال [آدم]: أنت جبرائيل. أنت ميكائيل، أنت إسرافيل حتّى عدّد الأسماء كلّها حتّى بلغ الغراب[٣].

[١٠٨٧/٢] وقال قتادة والحسن في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: أنّني لا أخلق خلقاً إلّا كنتم أعلم منه وأفضل منه[٤].

[١٠٨٨/٢] وأخرج الديلمي عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «مُثّلت لي أمّتي في الماء والطين، وعُلِّمتُ الأسماء كما عُلّم آدم الأسماء كلّها»[٥].

[١٠٨٩/٢] وروى الصفّار، عن أحمد بن محمّد ويعقوب بن يزيد عن الحسن بن عليّ بن فضّال عن أبي جميلة عن محمّد الحلبي عن أبي عبدالله ﷷ قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله مَـثَّلَ لي أمّتي في الطين وعَلّمني أسمائهم كما عَلَّم آدم الأسماء كلّها»[٦].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾

[١٠٩٠/٢] قال الطبرسيّ في قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: أي تنزيهاً لك وتعظيماً عن أن يعلم الغيب أحد سواك. عن ابن عبّاس[٧].

قلت: «سبحان» مصدر نحو غُفران وكُفران، كلمة تنزيه. وقولك: «سبحانَك اللّهمّ» أي أُنزّهك يا ربّ من كلّ سوء وأُبرّئك.

---

(١) المصدر / ٥٥٧.

(٢) المصدر: ٣١٣ / ٥٥٨.

(٣) ابن كثير ١: ٧٨.

(٤) الوسيط ١: ١١٧.

(٥) الدرّ ١: ١٢١؛ كنز العمّال ١٢: ١٨٥ / ٣٤٥٨٨.

(٦) نور الثقلين ١: ٥٥؛ بصائر الدرجات: ١٠٣ / ١، باب ١٤ (إنّ رسول الله عرف ما رأى في الأظلّة والذرّ)؛ الكافي ١: ٤٤٣ - ٤٤٤ / ١٥، كتاب الحجة، باب مولد النبيّ ﷺ ووفاته؛ البحار ١٧: ١٥٤ / ٦١؛ كنز الدقائق ١: ٣٤٣.

(٧) مجمع البيان ١: ١٥٥؛ الوسيط ١: ١١٧؛ الطبري ١: ٣١٦ / ٥٦٢، بلفظ: تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره.

[١٠٩١/٢] وروى الأزهري بإسناده أنّ ابن الكوّا سأل عليّاً عليه السلام عن «سبحان الله». فقال: «كلمة رضيها الله لنفسه فأوصى بها»[١].

[١٠٩٢/٢] وفي الحديث: أنّ جبرئيل قال: «لله دون العرش سبعون حجاباً لو دنونا من أحدها لأحرقتنا: سُبُحات وجه ربّنا». قيل: يعني بالسُّبُحات جلالَه وعظمتَه ونورَه. وقال ابن شميل: سُبُحات وجهه: نور وجهه[٢].

[١٠٩٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى ابن أبي مليكة عن ابن عبّاس قال: سبحان الله، تنزيه الله نفسه عن السوء. ثمّ قال: قال عمر لعليّ ـ وأصحابه عنده ـ: لا إله إلّا الله، قد عرفناه، فما سبحان الله؟ فقال له عليٌّ: كلمة أحبّها الله لنفسه ورضيها، وأحبّ أن تقال[٣].

[١٠٩٤/٢] وبإسناده عن النضربن عديّ قال: سأل رجلٌ ميمونَ بن مهران عن سبحان الله، قال: اسم يُعَظَّم الله به ويُحَاشا به من السوء[٤].

[١٠٩٥/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال: العليم الّذي قد كمل في علمه والْحَكِيمُ الّذي قد كمل في حكمه[٥].

* * *

[١٠٩٦/٢] وقال ابن زيد في قصّة الملائكة وآدم: فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء، فليس لكم علم. إنّما أردتُ أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمته فكذلك أخفيت عنكم أنّي أجعل فيها من يعصيني ومن يطيعني. قال: وسبق من الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه. فلمّا رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقرّوا لآدم بالفضل[٦].

قلت: وحاشا حكمة الربّ تعالى أن يجعل من غاية الخلق العصيان إلى جنب الإطاعة اللهمّ إلّا بضرب من التأويل البعيد!!

---

(١) لسان العرب ٢: ٤٧١.
(٢) تهذيب اللغة للأزهري ٤: ١٩٧.
(٣) ابن أبي حاتم ١: ٨١ / ٣٤٣؛ ابن كثير ١: ٧٧؛ التبيان ١: ١٤٣.
(٤) ابن أبي حاتم ١: ٨١ / ٣٤٤؛ ابن كثير ١: ٧٧.
(٥) الدرّ ١: ١٢٢؛ الطبري ١: ٣١٧ / ٥٦٣؛ التبيان ١: ١٤٢؛ مجمع البيان ١: ١٥٦، وفيهما: «حكمته» بدل «حكمه».
(٦) الطبري ١: ٣١٨ / ٥٦٥؛ ابن كثير ١: ٧٨.

[١٠٩٧/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: فكان الّذي أبدوا حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وكان الّذي كتموا بينهم قولهم: لن يخلق ربُّنا خلقاً إلّا كنّا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أنّ الله فضّل عليهم آدم في العلم والكرامة(١).

[١٠٩٨/٢] وقال الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: يعني قولهم: لن يخلق الله خلقاً أفضل ولا أعلم منّا(٢).

[١٠٩٩/٢] وأخرج عبدبن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: ما أسرّ إبليس من الكفر في السجود(٣).

[١١٠٠/٢] وأخرج ابن جرير عن سفيان في قوله: ﴿وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: ما أسرّ إبليس في نفسه من الكبر أن لا يسجد لآدم(٤).

ممّ خُلقت الملائكة والجنّ وسائر الحيوان؟

لانعلم من ذلك شيئاً، إذ لاسبيل لنا إلى العلم بأصول الخلقة.

وما ورد بهذا الشأن من روايات هي أشبه بأساطير بائدة، لا مجال لها في عرصات العلم والمعرفة.

وإليك من حكاياتهم في ذلك:

[١١٠١/٢] رووا بالإسناد إلى سعيد بن جبير قال: إنّ الجنّ سبط من الملائكة، خلقوا من نار، وإبليس منهم. وخلق سائر الملائكة من نور(٥).

[١١٠٢/٢] وفي قول بعضهم: الملائكة روحانيّون خلقوا من الريح. وقال الحسن: خلقوا من النور، لايتناسلون ولايطعمون ولايشربون(٦).

[١١٠٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن محمّدبن عامر المكّي قال: خلق الله الملائكة من نور،

---

(١) الطبري ١: ٣١٩ / ٥٧٢؛ ابن كثير ١: ٧٨.
(٢) الوسيط ١: ١١٩.
(٣) الدرّ ١: ١٢٢. وفي بعض النسخ: «من الكبر» بدل «من الكفر».
(٤) الطبري ١: ٣١٩ / ٥٦٩.
(٥) القرطبي ١: ٢٩٤.
(٦) مجمع البيان ١: ١٦٣.

وخلق الجانّ من نار، وخلق البهائم من ماء، وخلق آدم من طين، فجعل الطاعة في الملائكة، وجعل المعصية في الجنّ والإنس[١].

[١١٠٤/٢] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى وهب بن منبّه: سُئل عن الجنّ ما هو وهل يأكلون أو يشربون أو يموتون أو يتناكحون؟ قال: هم أجناس، فأمّا خالص الجنّ فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون. ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون. وهي هذه الّتي منها السعالى والغول وأشباه ذلك[٢].

[١١٠٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: السموم الّتي خلق منها الجانّ جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم[٣].

[١١٠٦/٢] وأخرج عن عمرو بن دينار قال: خلق الجانّ والشياطين من نار الشمس[٤].

[١١٠٧/٢] وروى المعلّى بن محمد[٥] عن بعض أصحابنا يرفعه إلى أبي عبدالله ﷺ قال: «إنّ الله خلق الملائكة من النور، وخلق الجانّ من النار، وخلق الجنّ ـ صنفاً من الجانّ ـ من الريح، وخلق صنفاً من الجنّ من الماء. وخلق آدم من صفحة الطين، ثمّ أجرى في آدم النور والنار والريح والماء»[٦].

[١١٠٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ـ في قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ﴾[٧] ـ قال: هم أولاده يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عدداً[٨].

[١١٠٩/٢] وأخرج عن سفيان قال: باض إبليس خمس بيضات، وذرّيّته من ذلك. قال: وبلغني أنّه يجتمع على مؤمن واحد أكثر من ربيعة ومضر[٩].

---

(١) ابن عساكر ٦٧: ٢٩، ترجمة أبي عامر المكي؛ الدرّ ١: ١٢٤.

(٢) الطبري ٨: ٤٢ ذيل الآية ٢٧ من سورة الحجر. السَّعالي، جمع السِّعْلاء، أنثى الغول ـ فيما زعمته العرب ـ.

(٣) ابن أبي حاتم ٧: ٢٢٦٣ ـ ٢٢٦٤ / ١٢٣٨١.

(٤) المصدر / ١٢٣٨٢.

(٥) في نسخة: المعلّى بن محمّد بن جعفر.. رجل مجهول. والرواية مرسلة أو مجهولة لا اعتداد بها.

(٦) كتاب الاختصاص للمفيد: ١٠٩. (مصنّفات الشيخ المفيد ١٢) والبحار ١١: ١٠٢ / ٨.

(٧) الكهف ١٨: ٥٠.

(٨) ابن أبي حاتم ٧: ٢٣٦٧ / ١٢٨٥١.

(٩) الدرّ ٥: ٤٠٤.

[١١١٠/٢] وأخرج عن مجاهد قال: باض إبليس خمس بيضات: زلنبور. داسم. ثبر. مسوط. أعور[١].

[١١١١/٢] وأخرج ابن بابويه بإسناده إلى معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله ﷺ قال: «الآباء ثلاثة: آدم، وُلد مؤمناً. والجانّ، وُلد مؤمناً وكافراً. وإبليس، وُلد كافراً، وليس فيهم[٢] نتاج، إنّما يبيض ويفرخ. ووُلده ذكور ليس فيهم إناث»[٣].

قال الكفعمي: والأبالسة هم الشياطين وهم ذكور وإناث، يتوالدون ولا يموتون ويخلدون في الدنيا كما خلد إبليس. وإبليس هو أبو الجنّ، والجنّ ذكور وإناث ويتوالدون ويموتون. وأمّا الجانّ فهو أبو الجنّ. وقيل: هو إبليس. وقيل: إنّه مَسْخُ الجنّ كما أنّ القردة والخنازير مسخ الإنس[٤].

قلت: لاندري من أين جاء الكفعميّ ﷺ بهذه التفاسير؟!

قال سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ـ في شرحه على المقاصد ـ: ظاهر الكتاب والسنّة ـ وهو قول أكثر الأمّة ـ أنّ الملائكة أجسام لطيفة نورانيّة، كاملة في العلم والقدرة، شأنها الطاعات. والجنّ أجسام لطيفة هوائيّة، منهم المؤمن والكافر والمطيع والعاصي. والشياطين أجسام ناريّة، شأنها إلقاء النفس في الفساد والغواية.

قيل: تركيب الأنواع الثلاثة من امتزاج العناصر الأربعة (الماء والتراب والنار والهواء) إلّا أنّ الغالب على الشياطين عنصر النار. وعلى الآخرين عنصر الهواء[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾

تقدم أنّ معنى السجود هنا هو الخضوع والاستسلام لمصالح الإنسان في الحياة، الأمر الّذي تعهّدته الملائكة بلا كلام، وعارضه إبليس وقام في مضادّته والمعاداة مع الإنسان، ولايزال. ومن ثمّ فالإنسان في حياته هذه الدنيا واقع بين عاملين: عامل الخير والإسعاد وعامل الشرّ والإفساد، فلابدّ له من مكافحة عوامل الشرّ في مزاولة دائبة، ليبلغ مُناه سعيداً في نهاية المطاف.. فالدار دار كفاح

---

(١) الدرّ ٥: ٤٠٣؛ ابن أبي حاتم ٧: ٢٣٦٧ / ١٢٨٥٠ بتفصيل.

(٢) أي في وُلد إبليس.

(٣) الخصال، أبواب الثلاثة: ١٥٢ / ١٨٦.

(٤) البحار ٦٠: ٢٦٧.

(٥) شرح المقاصد ٣: ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

ونضال، وقد خاب من أخذه الكسل والفتور. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[١].

[١١١٢/٢] قال أبو إسحاق الثعلبي: قال أُبيّ بن كعب: معنى «اسجدوا» أَقِرُّوا لآدم إنّه خير وأكرم عَلَيَّ منكم، فأَقَرُّوا بذلك.

[١١١٣/٢] وروى عن عبدالله بن مسعود قال: أمرهم الله تعالى أن يأتوا بآدم، فسجدت الملائكة وآدَمُ لله ربّ العالمين.

قال الثعلبي: والسجود على قول عبدالله وأُبيّ بمعنى الخضوع والطاعة والتذلّل، كقول الشاعر:

بجمع تضلّ البُلْق في حجراته ... ترى الأكم فيه سُجَّداً للحوافر[٢]

[١١١٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ قال: كانت السجدة لآدم، والطاعة لله[٣].

[١١١٥/٢] وأخرج عن الحسن في الآية قال: أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا له، كرامة من الله أكرم بها آدم، وليعلموا أنّ الله لايخفى عليه شيء وأنّه يصنع ما أراد[٤].

[١١١٦/٢] وقال الشيخ في التبيان: قال قوم: إنّه أمرهم بالسجود له تكرمة وتعظيماً لشأنه وهو المرويّ في تفسيرنا وأخبارنا. وهو قول قتادة وجماعة من أهل العلم. واختاره ابن الإخشيد والرمّاني[٥].

[١١١٧/٢] وحكى ابن الأنباري عن الفرّاء وجماعة من الأئمّة: أنّ سجود الملائكة لآدم كان تحيّة ولم يكن عبادة، وكان ذلك سجود تعظيم وتسليم وتحيّة، لاسجود صلاة وعبادة. وكان ذلك تحيّة الناس وتعظيم بعضهم بعضاً. ولم يكن وضع الوجه على الأرض، فلمّا جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام[٦].

[١١١٨/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ

---

(١) فاطر ٣٥: ٦.

(٢) الثعلبي ١: ١٨٠. البُلق ـ بالضمّ ـ: جمع أبلق. طائر أبلق ـ يضرب بين البياض والسواد ـ يكنّى في بلاد الشام بأبي بُلَيق. والحُجُرات: النواحي. والأُكَم: جمع أَكَمَة، وهو التلّ. أي التلال خاضعة لحوافر الخيل.

(٣) الدرّ ١: ١٢٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٤ / ٣٦٠.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ٨٣ / ٣٥٩؛ الدرّ ١: ١٢٣.

(٥) التبيان ١: ١٥٠؛ مجمع البيان ١: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٦) الوسيط ١: ١٢٠.

قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ قال: كانت السجدة لآدم، والطاعة لله. وحَسَد عدوُّ الله إبليسُ آدمَ على ما أعطاه الله من الكرامة، فقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيٌّ. فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدوّ الله أن يسجد لآدم(١).

[١١١٩/٢] وقال الجُبّائي والبلخي وجماعةٌ: إنّه تعالى جعل آدم قبلةً لهم فأمرهم بالسجود إلى قبلتهم. وفيه ضربٌ من التعظيم لآدم!(٢).

[١١٢٠/٢] وأخرج ابن عساكر عن أبي إبراهيم المُزني أنه سُئل عن سجود الملائكة لآدم، فقال: إنّ الله جعل آدم كالكعبة(٣).

[١١٢١/٢] وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن محمّد بن عَبّاد بن جعفر المخزومي قال: كان سجود الملائكة لآدم إيماء(٤).

[١١٢٢/٢] وروى العيّاشي عن بدر بن خليل الأسدي، عن رجل من أهل الشام، قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: أوّل بقعة عبد الله عليها ظهر الكوفة، لمّا أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجدوا على ظهر الكوفة(٥).

[١١٢٣/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ضمرة قال: سمعت من يذكر أنّ أوّل الملائكة الّذي خرّ ساجداً لله حين أمرت الملائكة بالسجود لآدم إسرافيل، فأثابه الله بذلك أن كتب القرآن في جبهته(٦).

[١١٢٤/٢] وأخرج ابن عساكر عن عمر بن عبدالعزيز قال: لمّا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، كان أوّل من سجد له إسرافيل، فأثابه الله أن كتب القرآن في جبهته(٧).

---

(١) الدرّ ١: ١٢٣؛ الطبري ١: ٣٢٧ / ٥٩٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٤ / ٣٦٤، من قوله: «حَسَد عدوّ الله...».

(٢) التبيان ١: ١٥٠؛ مجمع البيان ١: ١٦٢.

(٣) الدرّ ١: ١٢٣؛ ابن عساكر ٧: ٣٩٨، ترجمة آدم نبيّ الله ﷺ وزاد: فأمر الملائكة أن يسجدوا نحوه تعبّداً كما أمر عباده أن يسجدوا إلى الكعبة.

(٤) الدرّ ١: ١٢٣؛ العظمة ٥: ١٥٦٢ / ١٠٢٩، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء).

(٥) العيّاشي ١: ٥٣ / ١٨؛ البحار ١١: ١٤٩ / ٢٤.

(٦) الدرّ ١: ١٢٣؛ العظمة ٥: ١٥٦٢ / ١٠٣٠، باب ٤٥.

(٧) الدرّ ١: ١٢٣؛ ابن عساكر ٧: ٣٩٨، ترجمة آدم نبيّ الله ﷺ.

[١١٢٥/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى محمّدبن الفضل عن أبي حمزة الثُمالي عن أبي جعفر محمّدبن عليّ الباقرﷺ في حديث طويل قال ـ بعد أن ذكر وفاة آدمﷺ ـ: «حتّى إذا بلغ الصلاة عليه، قال هبة الله: يا جبرئيل تقدّم فصلّ على آدم، فقال له جبرئيل: يا هبة الله إنّ الله أمرنا أن نسجد لأبيك في الجنّة، فليس لنا أن نؤمّ أحداً من ولده»[١].

[١١٢٦/٢] وروى بإسناده إلى هشام بن سالم عن أبي عبدالله قال: «لمّا أُسري برسول اللهﷺ وحضرت الصلاة أذّن جبرئيل وأقام الصلاة، فقال: يا محمّد تقدّم، فقال له رسول اللهﷺ: تقدّم يا جبرئيل فقال له: إنّا لانتقدّم على الآدميّين منذ أُمرنا بالسجود لآدم»[٢].

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾

[١١٢٧/٢] أخرج محمدبن نصر عن أنس قال: قال رسول اللهﷺ: «إنّ الله أمر آدم بالسجود فسجد، فقال: لك الجنّة ولمن سجد من ذرّيّتك، وأمر إبليس بالسجود فأبى أن يسجد. فقال: لك النار ولمن أبى من ولدك أن يسجد»[٣].

[١١٢٨/٢] وأخرج أحمد ومسلم، عن أبي هريرة عن النّبيﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنّة، وأُمرتُ بالسجود فعصيت فلِيَ النّار!»[٤].

[١١٢٩/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي قال: كان اسم إبليس الحرث[٥].

---

(١) نورالثقلين ١: ٥٨؛ كمال الدين: ٢١٤ / ٢ باب: ٢٢ (اتّصال الوصيّة من لدن آدمﷺ)؛ البحار ١١: ٤٥. يقال: أمّ القوم أي صار إماماً لهم.

(٢) نورالثقلين ١: ٥٨؛ علل الشرائع ١: ٨/٤؛ العيّاشي ٢: ٥/٣٠٠، سورة الإسراء؛ البحار ١٨: ٤٠٤ / ١٠٩، و ٢٦: ٣٣٨ / ٣.

(٣) الدرّ ١: ١٢٥.

(٤) البغوي ١: ١٠٥ / ٤٨؛ مسند أحمد ٢: ٤٤٣؛ مسلم ١: ٦١، كتاب الايمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة؛ الثعلبي ١: ١٨١. وفيه: «... ياويلتي... فأبيتُ فلِيَ النّار».

(٥) الدرّ ١: ١٢٤؛ الطبري ١: ٣٢٥ / ٥٩٠، بلفظ: قال: كان اسم إبليس الحارث وإنّما سمّي إبليس حين أبلس متحيّراً؛ القرطبي ١: ٢٩٤، نقلاً عن ابن عبّاس وأنّ «اسمه الحارث».

[١١٣٠/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن ابن عبّاس قال: إنّما سُمّي إبليس، لأن الله أبلسه من الخير كلّه، آيسه منه(١).

[١١٣١/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى العباس بن هلال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنّه ذكر أنّ اسم إبليس الحارث، وإنّما قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: يا إبليس، يا عاصي. وسمّي إبليس لأنّه أُبلس من رحمة الله ـ عزّ وجلّ ـ(٢).

[١١٣٢/٢] وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال إبليس لربّه تعالى: يا ربّ قد أهبط آدم، وقد علمت أنّه سيكون كتاب ورسل، فما كتابهم ورسلهم؟ قال: رسلهم الملائكة والنبيّون منهم، وكتبهم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوشم، وقرآنك الشعر، ورسلك الكهنة، وطعامك ما لم يذكر اسم الله عليه، وشرابك كلّ مسكر، وصدقك الكذب، وبيتك الحمّام، ومصائدك النساء، ومؤذّنك المزمار، ومسجدك الأسواق»(٣).

[١١٣٣/٢] وأخرج عبدالرزّاق في المصنَّف والبيهقي في شعب الإيمان عن قتادة قال: لمّا هبط إبليس، قال [آدم]: أي ربّ قد لعنته فما عمله؟ قال: السحر. قال: فما قراءته؟ قال: الشعر. قال: فما كتابه؟ قال: الوشم. قال: فما طعامه؟ قال: كلّ ميتة وما لم يذكر اسم الله عليه. قال: فما شرابه؟ قال: كلّ مسكر. قال: فأين مسكنه؟ قال: الحمام. قال: فأين مجلسه؟ قال: الأسواق. قال: فما صوته؟ قال: المزمار. قال: فما مصائده؟ قال: النساء(٤).

[١١٣٤/٢] وروى الكليني بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الملائكة كانوا يحسبون أنّ إبليس

---

(١) الدرّ ١: ١٢٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٤ / ٣٦٢؛ الطبري ١: ٣٢٥ / ٥٨٩، بلفظ: عن ابن عبّاس قال: إبليس أبلسه الله من الخير كلّه وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة لمعصيته.

(٢) نورالثقلين ١: ٥٩؛ معاني الأخبار: ١٣٨ / ١، باب معنى إبليس؛ البحار ٦٠: ٢٤١ ـ ٢٤٢ / ٨٩.

(٣) الدرّ ١: ١٥٣؛ حلية الأولياء ٣: ٢٧٨ ـ ٢٧٩ باب ٢٤٢ (عبيدبن عمير)؛ الكبير ١١: ٨٥، (عبيدبن عمير عن ابن عبّاس)؛ مجمع الزوائد ١: ١١٤، كتاب الإيمان، باب في إبليس وجنوده. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وفيه يحيى بن صالح الأيلي، ضعّفه العقيلي. كنزالعمّال ١٦: ٩٨ / ٤٤٠٥٦.

(٤) الدرّ ١: ١٥٢؛ المصنّف ١١: ٢٦٨ / ٢٠٥١١؛ الشعب ٤: ٢٧٧ / ٥٠٩١، باب: في حفظ اللسان، فصل: في حفظ اللسان عن الشعر الكاذب.

منهم، وكان في علم الله أنّه ليس منهم، فاستخرج ما في نفسه بالحميّة والغضب، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين»[١].

[١١٣٥/٢] وقال عليّ بن إبراهيم حدّثني أبي عن ابن أبي عُمَير عن جميل عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سُئل عمّا ندب الله الخلق إليه، أدَخَل فيه الضُلّال؟ قال: نعم والكافرون دخلوا فيه، لأنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أمر الملائكة بالسجود لآدم، فدخل في أمره الملائكة وإبليس، فإنّ إبليس كان مع الملائكة في السماء يعبد الله، وكانت الملائكة تظنّ أنّه منهم ولم يكن منهم، فلمّا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أخرج ما كان في قلب إبليس من الحسد، فعلمت الملائكة عند ذلك أنّ إبليس لم يكن منهم. فقيل له عليه السلام: فكيف وقع الأمر على إبليس، وإنّما أمر الله الملائكةَ بالسجود لآدم؟ فقال: كان إبليس منهم بالولاء ولم يكن من جنس الملائكة، وذلك أنّ الله خلق خلقاً قبل آدم وكان إبليس منهم حاكماً في الأرض، فعتوا وأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس ورفعوه إلى السماء، فكان مع الملائكة يعبد الله إلى أن خلق الله آدم»[٢].

[١١٣٦/٢] وروى الكليني عن أبي علي الأشعري عن محمّد بن عبدالجبّار عن عليّ بن حديد عن جميل بن درّاج قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن إبليس: أكان من الملائكة، أم كان يلي شيئاً من أمر السماء؟ فقال: لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء ولاكرامة.

قال: فأتيت الطيّار فأخبرته بما سمعتُ، فأنكره وقال: كيف لايكون من الملائكة والله ـ عزّوجلّ ـ يقول: ﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ودخل عليه الطيّار وسأله، وأنا عنده، فقال له: جُعلتُ فداك، أرأيت قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في غير مكان من مخاطبة المؤمنين، أيدخل في هذا المنافقون؟ قال: نعم يدخل في هذا المنافقون والضُلّال وكلّ من أقرّ بالدعوة الظاهرة»[٣].

---

(١) نورالثقلين ١: ٥٧؛ الكافي ٢: ٣٠٨ / ٦، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبية؛ البحار ٦٠: ٢٢٠ / ٥٩؛ العيّاشي ١: ١٢ـ ١٣ / ٥، سورة الأعراف؛ كنز الدقائق ١: ٣٥٤.

(٢) نورالثقلين ١: ٥٥ـ٥٦؛ القمي ١: ٣٥؛ البحار ٦٠: ٢٧٣ / ١٦٠؛ البرهان ١: ١٧٠ / ٤.

(٣) نور الثقلين ١: ٥٦؛ الكافي ٨: ٢٧٤ / ٤١٣؛ العيّاشي ١: ٥١ / ١٥؛ البحار ١١: ١٤٨ / ٢٢، و ٦٠: ٢١٧ـ٢١٨ / ٥٤؛ البرهان ١: ١٧٧ / ١٣.

[١١٣٧/٢] وروى الحسين بن سعيد في كتاب الزهد عن فضالة بن أيّوب عن داوود بن فرقد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إيّاك والغضب فإنّه مفتاح كلّ شرّ، وقال: إنّ إبليس كان مع الملائكة وكانت الملائكة تحسب أنّه منهم، وكان في علم الله أنّه ليس منهم، فلمّا أُمر بالسجود لآدم حمي وغضب، فأخرج الله ما كان في نفسه بالحميّة والغضب»[١].

[١١٣٨/٢] وروى عليّ بن إبراهيم في حديث طويل عن العالم عليه السلام وفيه: «فخلق الله آدم فبقي أربعين سنة مصوَّراً، وكان يمرّ به إبليس فيقول: لأمرٍ مّا خُلقتَ: لإن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته! ثمّ نُفخ فيه فلمّا بلغت فيه الروح إلى دماغه عطس عطسة فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك الله، قال الصادق عليه السلام فسبقت له من الله الرحمة، ثمّ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا له فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبى أن يسجد»[٢].

[١١٣٩/٢] وروى العيّاشي عن جميل بن درّاج عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سألته عن إبليس أكان من الملائكة، أو هل كان يلي شيئاً من أمر السماء؟ قال: لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء، وكان من الجنّ وكان مع الملائكة، وكانت الملائكة ترى أنّه منهم وكان الله يعلم أنّه ليس منهم، فلمّا أُمر بالسجود كان منه الّذي كان»[٣].

[١١٤٠/٢] وأخرج ابن جرير بإسناده عن سعد بن مسعود قال: كانت الملائكة تقاتل الجنّ، فسُبي إبليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة فتعبّد معها. فلمّا أُمروا بالسجود لآدم سجدوا فأبى إبليس؛ فلذلك قال الله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾[٤].

---

(١) البرهان ١: ١٧٥ / ٨؛ كتاب الزهد، الحسين بن سعيد الكوفي: ٢٦ ـ ٢٧ / ٦١؛ البحار ٧٠: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ١٧.

(٢) نورالثقلين ١: ٥٦؛ القمي ١: ٤١ ـ ٤٢، وفيه: «لأعصينّه» بدل قوله «لعصيته» ـ وأيضاً فيه: عطس عطسة جلس منها؛ البحار ١١: ١٠٦ / ١١؛ كنزالدقائق ١: ٣٣٣ ـ ٣٣٤، بلفظ: قال أبو جعفر عليه السلام وجدناه في كتاب عليّ عليه السلام فخلق الله آدم... إلى قوله: سبقت له من الله الرحمة؛ البرهان ١: ١٧٣ ـ ١٧٤ / ٥ رواه مطولاً.

(٣) العيّاشي ١: ٥١ ـ ٥٢ / ١٦؛ كنزالدقائق ١: ٣٥٢ ـ ٣٥٣؛ مجمع البيان ١: ١٦٣؛ البحار ١١: ١١٩ / ٥١؛ أبوالفتوح ١: ٢١٣.

(٤) الطبري ١: ٣٢٤ / ٥٨٥؛ التبيان ١: ١٥٣، نقلاً عن ابن عبّاس. قال الشيخ: إنّه خبر واحد لايصحّ؛ مجمع البيان ١: ١٦٤، نقلاً عن ابن عبّاس؛ الدرّ ٥: ٤٠٣، سورة الكهف ـ الآية ٥٠، نقلاً عن سعيدبن منصور.

[١١٤١/٢] وأخرج عن شهر بن حوشب قوله: ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾[١] قال: كان إبليس من الجنّ الّذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء[٢].

[١١٤٢/٢] وأخرج عن الحسن، قال: ماكان إبليس من الملائكة طرفة عين قطّ، وإنّه لأصل الجنّ كما أنّ آدم أصل الإنس[٣].

[١١٤٣/٢] وأخرج عن ابن زيد: إبليس أبو الجنّ، كما آدم أبو الإنس[٤].

[١١٤٤/٢] وأخرج عن قتادة، قال: كان الحسن يقول في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[٥] إلجاءً إلى نسبه[٦]، فقال الله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾[٧] وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم[٨].

[١١٤٥/٢] وروى أبو جعفر الكليني عن شيخه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عُمير عن جميل قال: كان الطيّار يقول لي: إبليس ليس من الملائكة وإنّما أُمرت الملائكة بالسجود لآدم، فقال إبليس: لا أسجد فما لإبليس يعصي حين لم يسجد، وليس هو من الملائكة؟!

قال: فدخلت أنا وهو على أبي عبدالله ﷺ فأحْسَنَ والله في المسألة، «وقال: جُعِلت فداك، أرأيت ما ندب الله ـ عزّ وجلّ ـ إليه المؤمنين من قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَدَخَل في ذلك المنافقون معهم؟ قال: نعم والضُلّال وكلّ من أقرّ بالدعوة الظاهرة. وكان إبليس ممّن أقرّ بالدعوة الظاهرة

---

(١) الكهف ١٨: ٥٠.

(٢) الطبري ١: ٣٢٤ / ٥٨٤؛ ابن كثير ١: ٨١؛ أبوالفتوح ١: ٢١٢؛ الدرّ ٥: ٤٠٣.

(٣) الطبري ١: ٣٢٣ / ٥٨٢؛ ابن كثير ١: ٨٠ ـ ٨١، ونقلاً عن زيدبن أسلم؛ البغوي ١: ١٠٤؛ التبيان ١: ١٥١، بلفظ: قال الحسن البصري وقتادة في رواية ابن زيد والبلخي والرمّاني وغيره من المتأخرين: إنّه لم يكن من الملائكة؛ مجمع البيان ١: ١٦٢، بنحو ما رواه الشيخ في التبيان؛ أبوالفتوح ١: ٢١١، بنحو ما رواه الشيخ؛ الدرّ ٥: ٤٠٢، سورة الكهف ـ الآية ٥٠.

(٤) الطبري ١: ٣٢٤ / ٥٨٧؛ القرطبي ١: ٢٩٤، بلفظ: قال ابن زيد والحسن وقتادة أيضاً: إبليس أبو الجنّ كما أنّ آدم أبوالبشر ولم يكن مَلَكا ـ وروى نحوه عن ابن عبّاس وقال: اسمه الحارث؛ التبيان ١: ١٥٢، نقلاً عن الحسن؛ مجمع البيان ١: ١٦٣.

(٥) الكهف ١٨: ٥٠.

(٦) يقال: ألجأ أمره إلى الله: أسنده.

(٧) الكهف ١٨: ٥٠.

(٨) الطبري ١: ٣٢٣ ـ ٣٢٤ / ٥٨٣.

معهم»[١].

[١١٤٦/٢] وروى عليّ بن إبراهيم القمّي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن جميل عن زرارة عن أبي عبدالله ﷺ، قال: «لمّا أعطى الله ـ تبارك وتعالى ـ إبليس ما أعطاه من القوّة، قال آدم: يا ربّ سلّطت إبليس على وُلدي وأجريته فيهم مجرى الدم في العروق وأعطيته ما أعطيته، فما لي ولولدي؟ فقال: لك ولولدك، السيّئة بواحدة والحسنة بعشر أمثالها، قال: ربّ زدني، قال: التوبة مبسوطة إلى حين تبلغ النفس الحلقوم، قال: يا ربّ زدني، قال: أغفر ولا أبالي، قال: حسبي. قال زرارة: قلت له: ـ جعلت فداك ـ بماذا استوجب إبليس من الله أن أعطاه؟ فقال: بشيئ كان منه، شكره الله عليه. قلت: وما كان منه جعلت فداك؟ قال: ركعتان ركعهما في السماء في أربعة آلاف سنة»[٢].

[١١٤٧/٢] وقال القرطبي: قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ نُصب على الاستثناء المتّصل؛ لأنّه كان من الملائكة على قول الجمهور: ابن عبّاس وابن مسعود وابن جُريج وابن المسيَّب وقتادة وغيرهم... وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجّحه الطبري؛ وهو ظاهر الآية[٣].

[١١٤٨/٢] وأخرج ابن جرير عن محمّدبن إسحاق، قال: أمّا العرب فيقولون: ما الجنّ إلّا كلّ من اجتنّ فلم يُرَ. وأمّا قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[٤] أي كان من الملائكة، وذلك أنّ الملائكة اجتنّوا فلم يُرَوا، وقد قال الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[٥] وذلك لقول قريش: إنّ الملائكة بنات الله. فيقول الله: إن تكن الملائكة بناتي فإبليس منها، وقد جعلوا بيني وبين إبليس وذرّيته نسباً. قال: وقد قال الأعشى، أعشى بني قيس بن ثعلبة

---

(١) نورالثقلين ١: ٥٦ ـ ٥٧؛ الكافي ٢: ٤١٢ / ١، كتاب: الإيمان والكفر، باب: في ذكر المنافقين والضُلّال وإبليس؛ البحار: ٦٠: ٢٦٢ / ١٤٢؛ البرهان ١: ١٧٥ / ٧.

(٢) البرهان ١: ١٧٤ ـ ١٧٥ / ٦؛ القمي ١: ٤٢؛ البحار ١١: ١٤٢ / ٨.

(٣) القرطبي ١: ٢٩٤؛ البغوي ١: ١٠٤، بلفظ: فقال ابن عبّاس وأكثر المفسرين: كان إبليس من الملائكة؛ التبيان ١: ١٥٠، بلفظ: فقال ابن عبّاس وابن مسعود وابن المسيّب وقتادة وابن جُريج والطبريّ: إنّه كان منهم، بدلالة استثنائه من جملتهم هاهنا في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ...﴾ قال: وهو المرويّ عن أبي عبدالله ﷺ؛ مجمع البيان ١: ١٦٢؛ أبو الفتوح ١: ٢١١.

(٤) الكهف ١٨: ٥٠.

(٥) الصافّات ٣٧: ١٥٨.

البكري، وهو يذكر سليمان بن داوود وما أعطاه الله:

وَلَوْ كانَ شَيْءٌ خـالداً أوْ مُـعَمَّراً لَكانَ سُلَيْمانُ البَرِيَّ مِنَ الدَّهْرِ (١)

بَـرَاهُ إلهــي واصْـطَفَاهُ عـبادَهُ وَمَلَّكَهُ مَا بَيْنَ ثُـرَيَا إلى مِـصْرِ (٢)

وَسَخَّرَ مِنْ جِنّ المَـلائِكِ تِسْـعَةً قِـياماً لَـدَيْهِ يَـعْمَلُونَ بِـلا أجْـرِ

قال: فأبت العرب في لغتها إلّا أنّ «الجنّ» كلّ ما اجتنّ. يقول: ما سمّى الله الجنّ إلّا لأنّهم اجتنّوا فلم يُرَوْا، وما سمّى بني آدم الإنس إلّا لأنّهم ظهروا فلم يجتنُّوا، فما ظهر فهو إنس، وما اجتنّ فلم يُرَ فهو جنّ(٣).

[١١٤٩/٢] وعن قتادة في قوله: ﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال: كان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجنّ. وكان ابن عبّاس يقول: لو لم يكن من الملائكة لم يؤمر بالسجود، وكان على خزانة سماء الدنيا. قال: وكان قتادة يقول: جَنَّ عن طاعة ربّه(٤).

[١١٥٠/٢] وعن ابن عبّاس، قال: إنّ من الملائكة قبيلاً يقال لهم الجنّ، فكان إبليس منهم، وكان إبليس يسوس ما بين السماء والأرض فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً(٥).

[١١٥١/٢] وعنه أيضاً قال: إنّ من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض(٦).

[١١٥٢/٢] وروى سمّاك بن حرب عن عِكرمة عن ابن عبّاس قال: كان إبليس من الملائكة فلمّا عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطاناً(٧).

[١١٥٣/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيَّب قال: كان إبليس رئيس ملائكة السماء الدنيا(٨).

[١١٥٤/٢] وذكر القرطبي عن الماوردي أنّه روى عن قتادة: أنّه كان من أفضل صنف من الملائكة

(١) البريَّ بالنصب خبر كان أي بريئاً ومنعزلاً عن الزمان. (٢) ثُريا مخفّف ثريّا: بئر كانت بمكّة لبني تميم بن مُرَّة.

(٣) الطبري ١: ٣٢٣ / ٥٨١.

(٤) الطبري ١: ٣٢٢ـ٣٢٣ / ٥٨٠؛ الدرّ ٥: ٤٠٢، سورة الكهف ١٨ـالآية ٥٠.

(٥) الطبري ١: ٣٢٤ / ٥٨٦؛ ابن كثير ١: ٨٠.

(٦) الطبري ١: ٣٢٢ / ٥٧٨؛ الدرّ ٥: ٤٠١.

(٧) الدرّ ٥: ٤٠١؛ القرطبي ١: ٢٩٤.

(٨) الدرّ ١: ١٢٤؛ الطبري ١: ٣٢٢ / ٥٧٩؛ ابن كثير ١: ٨٠.

يقال لهم الجنّة(١).

والّذي جاء في تفسير الماوردي نقلاً عن ابن عبّاس: أنّهم حيّ من الملائكة يسمُّون جنّاً كانوا من أشدّ الملائكة اجتهاداً(٢).

[١١٥٥/٢] وأخرج وكيع وابن المنذر والبيهقي في الشعب عن ابن عبّاس قال: كان إبليس من خُزّان الجنّة، وكان يدبّر أمر السماء الدنيا(٣).

[١١٥٦/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض. قال: قال ابن عبّاس: وقوله: ﴿كانَ مِنَ الجِنِّ﴾، إنّما يُسمَّى بالجِنان(٤) لأنّه كان خازناً عليها، كما يقال للرجل: مكّي ومدنيّ وكوفيّ وبصري. قال ابن جريج: وقال آخرون: هم سبط من الملائكة قبيلة، فكان اسم قبيلته الجنّ(٥).

[١١٥٧/٢] وعن الضحّاك بن مزاحم، في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ قال: كان ابن عبّاس يقول: إنّ إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، ثمّ ذكر مثل حديث ابن جُريج الأوّل سواء(٦).

[١١٥٨/٢] وعن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: جُعل إبليس على ملك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ، وإنّما سمّوا الجنّ لأنّهم خُزّان الجنّة، وكان إبليس مع ملكه خازناً(٧).

[١١٥٩/٢] وقال سعيدبن جبير: كان من الّذين يعملون في الجنّة(٨).

[١١٦٠/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان» وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب «الأضداد» والبيهقي في «الشعب» عن ابن عبّاس قال: كان إبليس اسمه عزازيل، وكان من أشرف

---

(١) القرطبي ١: ٢٩٤.

(٢) النكث والعيون، الماوردي ١: ١٠٣.

(٣) الدرّ ١: ١٢٤؛ الشعب ١: ١٧٠ / ١٤٧، باب: في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة.

(٤) أي التسمية بالجنّ جاءته من قِبَل أنّه كانت له صلة بالجِنان.

(٥) الطبري ١: ٣٢٢ / ٥٧٧.

(٦) المصدر / ٥٧٨.

(٧) المصدر / ٥٧٦.

(٨) البغوي ١: ١٠٤.

الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة، ثمّ أُبلِس بعد(١).

[١١٦١/٢] وأخرج ابن اسحاق في المبتدأ وابن جرير وابن الأنباري عن ابن عبّاس قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سُكّان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً. فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يُسمّون جنّاً(٢).

[١١٦٢/٢] وقال مجاهد وطاووس عن ابن عبّاس: كان إبليس قبل أن يركب المعصية ملكاً من الملائكة اسمه عزازيل. وكان من سكّان الأرض، وكان سكّان الأرض من الملائكة يسمّون الجنّ، ولم يكن من الملائكة أشدّ اجتهاداً ولا أكثر علماً منه، فلمّا تكبّر على الله وأبى السجود لآدم وعصاه، طرده الله ولعنه، وجعله شيطاناً وسمّاه «إبليس». وهذا قول ابن مسعود وابن جريج وقتادة وأكثر المفسّرين(٣).

[١١٦٣/٢] وأخرج ابن المنذر عن ابن عبّاس قال: كان إبليس من أشرف الملائكة من أكبرهم قبيلة، وكان خازن الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض. فرأى أنّ لذلك له عظمة وسلطاناً على أهل السماوات، فأضمر في قلبه من ذلك كبراً لم يعلمه إلّا الله، فلمّا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم خرج كبرُه الّذي كان يُسرّ(٤).

[١١٦٤/٢] وأخرج من طريق مجاهد عن جنادة بن أبي أميّة قال: أوّل خطيئة كانت الحسد، حسد إبليسُ آدم أن يسجد له حين أُمر، فحمله الحسد على المعصية(٥).

[١١٦٥/٢] وأخرج عن أنس قال: إنّ نوحاً لمّا ركب السفينة أتاه إبليس فقال له نوح: من أنت؟ قال: أنا إبليس. قال: فما جاء بك؟ قال: جئتُ تسألُ لي ربّي هل لي من توبة؟ فأوحى الله إليه: إنّ توبته أن يأتي قبر آدم فيسجد له! قال: أما أنا لم أسجد له حيّاً، أسجد له ميّتاً! قال: فاستكبر وكان من الكافرين(٦).

---

(١) الدرّ ١: ١٢٣؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٤ / ٣٦١؛ الشعب ١: ١٧٠ / ١٤٦؛ القرطبي ١: ٢٩٤؛ ابن كثير ١: ٨٠؛ أبوالفتوح ١: ٢١٢، رواه عن طاووس عن ابن عبّاس. وزاد: وهذا المعنى وارد في رواياتنا.

(٢) الدرّ ١: ١٢٤؛ الطبري ١: ٣٢١ / ٥٧٤؛ ابن كثير ١: ٨٠؛ مجمع البيان ١: ١٦٥، روى ما بمعناه بما روى عنه مجاهد و طاووس.

(٣) الوسيط ١: ١٢٠.

(٤) الدرّ ١: ١٢٤؛ ابن كثير ١: ٨٠.

(٥) الدرّ ١: ١٢٥؛ ابن عساكر ١١: ٢٩٨، ترجمة جنادة بن كبير.

(٦) الدرّ ١: ١٢٥.

[١١٦٦/٢] وروى الثعلبي عن زياد بن الحصين عن أبي العالية قال: لمّا ركب نوح السفينة إذا هو بإبليس على كوثلها[1] فقال له: ويحك قد شقّ أناس من أجلك. قال: فما تأمرني؟ قال: تب، قال: سل ربّك هل لي من توبة؟ قال: فقيل له أنّ توبته أن يسجد لقبر آدم، قال: تركته حيّاً وأسجد له ميّتاً!؟[2].

[١١٦٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان» عن عبدالله بن عمر قال: لقي إبليس موسى فقال: يا موسى أنت الّذي اصطفاك الله برسالاته وكلّمك تكليماً إذ تبت! وأنا أريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربّي أن يتوب عليّ! قال موسى: نعم. فدعا موسى ربّه، فقيل: «يا موسى قد قضيت حاجتك» فلقي موسى إبليس وقال: قد أُمرتَ أن تسجد لقبر آدم ويُتاب عليك! فاستكبر وغضب وقال: لم أسجد له حيّاً أسجد له ميّتاً! ثمّ قال إبليس: يا موسى إنّ لك عليّ حقّاً بما شفعت لي إلى ربّك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهنّ، اذكرني حين تغضب، فإنّي أجري منك مجرى الدم. واذكرني حين تلقى الزحف، فإنّي آتي ابن آدم حين يلقى الزحف، فأذكّره ولده وزوجته حتّى يولّي. وإيّاك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم، فإنّي رسولها إليك ورسولك إليها![3].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

[١١٦٨/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن محمّد بن كعب القرظي قال: ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصيّره إلى ما أدّى إليه ما خَلْقُه من الكفر. قال الله ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[4].

قوله: فصيّره إلى ما أدّت إليه خلقُه. يعني: ما أدّت إليهِ خِلْقَتُه واقتضته فطرته التي فطره الله عليها، وهو الكفر والجحود.

وهكذا جاء في الحديث التالي:

---

(١) الكَوثَل: مؤخّر السفينة.

(٢) الثعلبي ١: ١٨١.

(٣) الدرّ ١: ١٢٥.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ٨٥ / ٣٦٨؛ الدرّ ١: ١٢٥؛ ابن كثير ١: ٨١.

[١١٦٩/٢] أخرج ابن المنذر عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: جعله الله كافراً لايستطيع أن يؤمن(١).

* * *

قلت: وحاشا الصانع الحكيم أن يُفطر مخلوقاً له على الكفر والجحود، ممّا يتنافى وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(٢) وقد تقدّم أنّه الخضوع والاستسلام لله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٣). فكلّ موجود مُذعن في واقع ذاته وفي صميم فطرته إذعاناً صادقاً تجاه بارئه الخالق والمدبّر لكلّ شيء.

نعم كان الّذي من إبليس هو كفران نعمه تعالى فلم يشكر آلاءه تعالى عليه وعلى سائر الخلق، وكان من تبعة هذا الكفران هو العصيان والتمرّد عن امتثال أوامره تعالى الحكيمة، استكباراً واغتراراً بهوى النفس.

[١١٧٠/٢] فقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: يعني العاصين(٤).

وأمّا التعبير بـ«كان» ـ فعلاً ماضياً ـ فغير خفيّ أنّه فعل ناقص وليس مساغه مساغ الأفعال التامّة. فلم يكن إخباراً عن ماضٍ غابر، وإنّما هو إخبار عن حالة كائنة. قال الزمخشري: معناه: كان من جنس كفرة الجنّ وشياطينهم فكذلك أبى واستكبر، كما في آية أخرى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(٥). أي حيث كونه من مردة الجنّ بدرت منه بادرة التمرّد والاستكبار!

ومن تتبّع موارد استعمال «كان» في القرآن بل وفي كلام العرب، يجد الأمر كما ذكرنا. قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٦). أي حال كونه غنيّاً أو فقيراً، لا فيما سبق!

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾. أي كان له ولد حينذاك.

﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.

---

(١) الدرّ ١: ١٢٥.
(٢) الإسراء ١٧: ٤٤.
(٣) الرعد ١٣: ١٥.
(٤) الطبري ١: ٣٢٧ / ٥٩١؛ ابن كثير ١: ٨١.
(٥) الكشّاف ١: ١٢٧. والآية من سورة الكهف ١٨: ٥٠.
(٦) النساء ٤: ٦.

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ﴾.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ﴾[١].

إلى غيرها من آيات تنمّ عن كينونة قائمة، لا عن حالة غابرة.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٢] ليس إخباراً عن حالة سابقة وإنّما هي صفته قائمة، كما في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٣] صفتان قائمتان بذاته تعالى عبر الوجود. فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كلام مستأنف دفعاً لدخل توهّم، فلا يتوهّم أحد أنّه كان من الملائكة ـ وهم معصومون ـ فتمرّد وكفر بأنعم الله، بل كان من قبيل الجنّ، حيث يجوز عليهم الفسق والعصيان كما في الإنس.

قال الزمخشري ـ عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف ـ: قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ كلام مستأنف جار مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين. كأنّ قائلاً قال: ماله لم يسجد؟ فقيل: كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه. والفاء للتسبيب أيضاً، جعل كونه من الجنّ سبباً في فسقه، لأنّه لو كان ملكاً كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله، لأنّ الملائكة معصومون البتّة لايجوز عليهم مايجوز على الجنّ والإنس، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٤]. وهذا الكلام المعترض (الجملة المعترضة أثناء الكلام) تَعَمُّدٌ من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم.

فما أبعد البون بين ما تعمّده الله وبين قول من ضادّه وزعم أنّه كان مَلَكاً ورئيساً على الملائكة فعصى، فلُعن ومُسخ شيطاناً. ثمّ وَرَّكه على ابن عبّاس[٥].

ووافقه ابن المنير الإسكندري في الهامش قال: الحقّ معه في هذا الفصل.

* * *

وبعد فإليك من سائر الروايات:

---

(١) النساء ٤: ١١ـ١٢.
(٢) النساء ٤: ١.
(٣) النساء ٤: ٢٤.
(٤) الأنبياء ٢١: ٢٧.
(٥) الكشّاف ٢: ٧٢٧. قوله: ثمّ ورَّكه على ابن عبّاس، أي اتّهمه به.

[١١٧١/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن عبدالله بن بُرَيدة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال: أي من الّذين أبوا فأحرقتهم النار[١].

[١١٧٢/٢] وروى الكليني بإسناده إلى موسى بن بُكير قال: «سألت أبا الحسن عليه السلام عن الكفر و الشرك أيّهما أقدم؟ فقال لي: ما عهدي بك تخاصم الناس! قلت: أمرني هشام بن سالم أن أسألك عن ذلك، فقال لي: الكفر أقدم وهو الجحود، قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾»[٢].

[١١٧٣/٢] وبإسناده عن مسعدة بن صدقة، قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام، وقد سُئل عن الكفر والشرك أيّهما أقدم؟ فقال: الكفر أقدم، وذلك أنّ إبليس أوّل من كفر، وكان كفره غير شرك، لأنّه لم يدعُ إلى عبادة غير الله، وإنّما دعا إلى ذلك بعد فأشرك»[٣].

[١١٧٤/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل وفيه: «وسأله عن إسم إبليس ما كان في السماء؟ فقال: كان إسمه الحارث. وسأله عن أوّل من كفر وأنشأ الكفر؟ فقال: إبليس لعنه الله»[٤].

[١١٧٥/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى أبي بصير، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إنّ أوّل كُفرٍ كُفرٌ بالله حيث خلق الله آدم، كفر إبليس، حيث ردّ على الله أمره، وأوّل حسد حسد ابن آدم أخاه، وأوّل حرص حرص آدم، نُهي عن الشجرة فأكل منها، فأخرجه حرصُه من الجنّة»[٥].

* * *

(١) ابن كثير ١: ٨١؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٤ / ٣٦٦

(٢) نورالثقلين ١: ٥٧؛ الكافي ٢: ٣٨٥ / ٦؛ العيّاشي ١: ٥٣ / ١٩؛ البحار ٦٩: ٩٧ / ١٤؛ كنزالدقائق ١: ٣٥٧؛ البرهان ١: ١٦٩ ـ ١٧٠ / ٢ و ١٧٨ / ١٧.

(٣) الكافي ٢: ٣٨٦ / ٨؛ البرهان ١: ١٧٠ / ٣؛ البحار ٦٠: ١٩٨ / ٩.

(٤) عيون الأخبار ١: ٢١٩ و ٢٢١، باب ٢٤؛ علل الشرايع ٢: ٥٩٤ و ٥٩٥، باب ٣٨٥، نوادر العمل.

(٥) البرهان ١: ١٧٨ / ١٥؛ العيّاشي ١: ٥٢ / ١٧؛ كنزالدقائق ١: ٣٦٥؛ البحار ١١: ١٤٩ / ٢٣؛ الصافي ١: ١٦٩، روى ما بمعناه باختصار.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

هذا هو المشهد الثالث من قصّة البشريّة الأُولى، أُبيح للإنسان أن يتمتّع بكافّة أنحاء المتع في الحياة، لكنّها المتع المسموحة ــ والتي فيها الخير والصلاح والموجبة لتداوم سعادته في الحياة ــ لا الممنوعة الّتي تتعقّبها المحروميّة.

لقد أبيحت لهما (آدم وزوجه حوّاء) كلّ ثمار الجنّة، إلّا شجرة واحدة. وربما كانت ترمز للمحظور الّذي قد يعرقل الحياة في الأرض بل ولولا الممنوعيّة إلى جنب الممنوحيّة لما كانت تنبت الإرادة في هذا الكائن المختار. ولما كاد يتميّز من الحيوان المسوق، ولا يمتحن بالصبر على الوفاء بالعهد والتقيّد بالشرط.. فالإرادة هي مفرق الطريق.. فالذين يستمتعون بلا اختيار الأفضل الأصلح، تمتّعاً بلا هوادة هم من عالم البهيمة بل هم أضلّ، حتّى ولو بدوا في شكل الآدميّين!!

والروايات بشأن آدم عليه السلام في هذه المرحلة متنوّعة باحثة عن مختلف شؤونه، فمن كونه نبيّاً فإلى زلّته وقبول توبته، ثمّ توالد النسل البشري.

فممّا ورد بشأن نبوّته:

[١١٧٦/٢] ما رواه الصدوق بإسناده إلى عليّ بن محمّد بن الجهم في مسائلة مأمون للإمام الرضا عليه السلام جاء فيها: «كانت خطيئة آدم قبل نبوّته، ثمّ تاب عليه واجتباه نبيّاً».[١] ويأتي تمام الحديث.

[١١٧٧/٢] وأخرج أحمد وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة «أنّ أبا ذرّ قال: يا نبيّ الله أيّ الأنبياء كان أوّل؟ قال: آدم. قال: أوَ نبيّاً كان آدم؟ قال: نعم. نبيٌّ مكلَّم، خلقه الله بيده ثمّ نفخ فيه من روحه ثمّ قال له: يا آدم قُبُلاً[٢]. قلت: يا رسول الله كم وَفَى عدّةُ الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر. جمًّا غفيراً»[٣].

---

(١) تلخيص ممّا رواه الصدوق في الباب ١٥ من عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧٤ ـ ١٧٥، والبحار ١١: ٧٨ / ٨.

(٢) أي مشافهة بلا واسطة.

(٣) الدرّ ١: ١٢٦؛ مسند أحمد ٥: ٢٦٥ ـ ٢٦٦؛ الكبير ٨: ٢١٨، في ترجمة: معان بن رفاعة السلامي؛ مجمع الزوائد ١: ١٥٩؛ كنزالعمّال ١١: ٤٨٢ / ٣٢٢٧٧، باختصار.

[١١٧٨/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وابن حِبّان والطبراني والحاكم وصحّحه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي أمامة الباهلي «أنّ رجلا قال: يا رسول الله أنبيّاً كان آدم؟ قال: نعم، مكلَّم. قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون. قال: كم بين نوح وبين إبراهيم؟ قال: عشرة قرون. قال: يا رسول الله! كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قال: يا رسول الله كم كانت الرسل من ذلك؟ قال: ثلثمائة وخمسة عشر. جمّاً غفيراً»(١).

[١١٧٩/٢] وأخرج عبدبن حميد والآجريّ في الأربعين عن أبي ذرّ قال: «قلت: يا رسول الله! من كان أوّلهم؟ ـ يعني الرسل ـ قال: آدم. قلت: يا رسول الله أنبيّ مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسوّاه قُبُلاً»(٢).

[١١٨٠/٢] وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه والبزّار والبيهقي في الشعب عن أبي ذرّ قال: «قلت: يا رسول الله أيّ الأنبياء كان أوّل؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله ونبيّاً كان؟ قال: نعم، نبيٌّ مكلَّم. قلت: كم كان المرسلون يا رسول الله؟ قال: ثلثمائة وخمسة عشر. جمّاً غفيرا»(٣).

[١١٨١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن أبي ذرّ قال: قلت: «يا رسول الله من أوّل الأنبياء؟ قال: آدم. قلت: نبيّاً كان؟ قال: نعم، مكلَّم. قلت: ثمّ من؟ قال: نوح وبينهما عشرة آباء»(٤).

[١١٨٢/٢] وأخرج الطبراني وأبوالشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي ذرّ قال: «قلت: يا

---

(١) الدرّ ١: ١٢٦؛ ابن حبّان ١٤: ٦٩ / ٦١٩٠، كتاب التاريخ، باب ١ (بدء الخلق) إلى قوله: وبين نوح؟ قال عشرة قرون؛ الأوسط ١: ١٢٨، باختلاف واختصار، الكبير ٨: ١١٨ ـ ١١٩ باختلاف واختصار؛ الحاكم ٢: ٢٦٢، كتاب التفسير، سورة البقرة؛ الأسماء والصفات، الجزء الثاني: ٣١٩، باختلاف في النقل باب: إسماع الربّ كلامه من شاء من ملائكته ورسله وعباده؛ مجمع الزوائد ١: ١٩٦، كتاب العلم، باب التاريخ، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٢) الدرّ ١: ١٢٦.

(٣) الدرّ ١: ١٢٦؛ مسند أحمد ٥: ١٧٨؛ التاريخ ١: ٢٩ / ٣٨، بلفظ: «عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال: آدم نبيٌّ مكلَّم؛ الشعب ٣: ٢٩١ ـ ٢٩٢ / ٣٥٧٦، باب: في الصيام؛ مجمع الزوائد ١: ١٦٠.

(٤) الدرّ ١: ١٢٦؛ المصنَّف ٨: ٣٤٨ / ٢٠١، كتاب الاوائل، باب: أوّل ما فُعل ومن فعله، باختلاف؛ الأوسط ٥: ٧٧؛ مجمع الزوائد ١: ١٩٦ / ١٩٧، كتاب العلم، باب التاريخ.

رسول الله أرأيت آدم أنبياً كان؟ قال: نعم كان نبيًّا رسولاً كلّمه الله قُبُلاً، قال له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾

[١١٨٣/٢] أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن عطاء قال: لمّا سجدت الملائكة لآدم نفر إبليس نفرة ثمّ ولّى مدبراً وهو يلتفت أحياناً ينظر هل عصى ربّه أحدٌ غيره؟ فعصمهم الله. ثمّ قال الله لآدم: قم يا آدم فسلّم عليهم. فقام فسلّم عليهم وردّوا عليه، ثمّ عرض الأسماء على الملائكة فقال الله لملائكته: زعمتم أنّكم أعلم منه ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ إنّ العلم منك ولك، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾. فلمّا أقرّوا بذلك ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فقال آدم: هذه ناقة، جمل، بقرة، نعجة، شاة، فرس، وهو من خلق ربّي. فكلّ شيء سمّى آدم فهو اسمه إلى يوم القيامة، وجعل يدعو كلّ شيء باسمه حين يمرّ بين يديه حتّى بقي الحمار وهو آخر شيء مرّ عليه. فجاء الحمار من وراء ظهره فدعا آدم: أقبل يا حمار! فعلمت الملائكة أنّه أكرم على الله وأعلم منهم.

ثمّ قال له ربّه: يا آدم ادخل الجنّة تحيا وتكرم، فدخل الجنّة فنهاه عن الشجرة قبل أن يخلق حوّاء. فكان آدم لا يستأنس إلى خلق في الجنّة، ولايسكن إليه، ولم يكن في الجنّة شيء يُشبهه، فألقى الله عليه النوم وهو أوّل نوم كان، فانتزعت من ضلعه الصغرى من جانبه الأيسر فخلقت حوّاء منه، فلمّا استيقظ آدم فجلس فنظر إلى حوّاء تُشبهه من أحسن البشر، ولكلّ امرأة فضل على الرجل بضلع، وكان الله علّم آدم اسم كلّ شيء فجاءته الملائكة فهنّوه وسلّموا عليه. فقالوا: يا آدم ما هذه؟ قال: هذه مرأة. قيل له: فما اسمها؟ قال: حوّاء. فقيل له: لم سمّيتها حوّاء؟ قال: لأنّها خُلقت من حيّ. فنُفخ بينهما من روح الله فما كان من شيء يتراحم الناس به فهو من فضل رحمتهما(٢).

---

(١) الدرّ ١: ١٢٦؛ الأوسط ٤: ٣٠٠ ـ ٣٠١؛ العظمة ٥: ١٥٥٣ ـ ١٥٥٤ / ١٠١٦، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء) باختلاف؛ ابن كثير ١: ٨٢، بلفظ:... عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله أرأيت آدم أنبيّاً كان؟ قال: «نعم نبيّاً رسولاً يكلّمه الله قُبَيْلاً» ـ أي عياناً ـ فقال: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ...﴾؛ مجمع الزوائد ٨: ١٩٨، كتاب الأنبياء، باب ذكر نبيّنا آدم؛ الكامل لابن عديّ ٣: ٣٤١.

(٢) الدرّ ١: ١٢٨؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٢ ـ ١٠٣، رقم ٩٣٢٥، ترجمة حميدة بنت عمرو.

وبهذه المناسبة أورد أصحاب التفسير الأثري رواياتٍ عن خَلْق حوّاء والسبب في تسميتها حوّاء:

[١١٨٤/٢] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر من طريق السدّي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: لمّا سكن آدم الجنّة كان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خُلقتِ؟ قالت: لتسكن إليّ، قالت له الملائكة ينظرون ما يبلغ علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حوّاء. قالوا: لِمَ سُمّيت حوّاء؟ قال: لأنّها خُلقت من حيّ فقال الله: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(١).

ورواه أبو اسحاق الثعلبي وزاد: قالوا (أي الملائكة): تحبّها يا آدم؟ قال: نعم، فقالوا لحوّاء: أتحبّينه؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حُبّه، قالوا: فلو صدقت امرأة في حبّها لزوجها لصدقت حوّاء(٢).

[١١٨٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن أشعث الحدّاني قال: كانت حوّاء من نساء الجنّة، وكان الولد يُرى في بطنها إذا حملت ذكر أم أنثى من صفاقها(٣).

[١١٨٦/٢] وأخرج ابن عديّ وابن عساكر عن إبراهيم النخعي قال: لمّا خلق الله آدم وخلق له زوجته، بعث إليه ملكاً وأمره بالجماع ففعل، فلمّا فرغ قالت له حوّاء: يا آدم هذا طيّب زدنا منه!(٤).

قلت: هذه روايات ـ بل حكايات ـ هي أشبه بالهزل منها إلى الجدّ، ولعلّها من فكاهيّات أصحاب الملح والظرف، درجت إلى التفسير عفواً، فياله من تساهل!

[١١٨٧/٢] وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: إنّما سمّيت حوّاء لأنّها أُمّ كلّ حيّ(٥).

---

(١) الدرّ ١: ١٢٧؛ الطبري ١: ٣٢٨ / ٥٩٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٥ / ٣٧٢، نقلاً عن السدّي؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٤٥، باب: بدء الخلق؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٢، ترجمة آدم نبيّ الله ﷺ.

(٢) الثعلبي ١: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٣) الدرّ ١: ١٢٨. والصفاق: الجلد الأسفل الّذي يُمسك البطن. وهو إذا شُقّ كان منه الفتق.

(٤) الدرّ ١: ١٢٩؛ الكامل ٧: ١٥٠؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٩، رقم ٩٣٢٨، ترجمة حوّاء أمّ البشر.

(٥) الدرّ ١: ١٢٨؛ الطبقات الكبرى ١: ٣٩ ـ ٤٠؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٢، ترجمة حوّاء.

[١١٨٨/٢] وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر من وجه آخر عن ابن عبّاس قال: إنّما سمّيت المرأة مرأة لأنّها خُلقت من المرء، وسمّيت حوّاء لأنّها أمّ كلّ حيّ[1].

[١١٨٩/٢] وأخرج سفيان بن عُيينة عن مجاهد قال: نام آدم فخُلقت حوّاء من قُصَيراه، فاستيقظ فرآها فقال: من أنت؟ فقالت: أنا آثا يعني امرأة بالسُّريانيّة، وفي رواية أخرى: بالنبطيّة[2].

[١١٩٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق، قال: لمّا فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم وقد علّمه الأسماء كلّها، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. قال: ثمّ ألقى السِّنة على آدم[3] ـ فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن عبدالله بن عبّاس وغيره ـ ثمّ أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقّه الأيسر ولأم مكانه لحماً وآدمُ نائم لم يهبّ من نومته حتّى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حوّاء، فسوّاها امرأة ليسكن إليها. فلمّا كُشف عنه السِّنة وهبّ من نومته رآها إلى جنبه، فقال ـ فيما يزعمون والله أعلم ـ: لحمي ودمي وزوجتي. فسكن إليها. فلمّا زوّجه الله ـ تبارك وتعالى ـ وجعل له سكناً من نفسه، قال له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[4].

[١١٩١/٢] وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء فإنّ المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوجَ شيء من الضلع، فإن ذَهَبْتَ تُقيمه كَسَرْتَهُ وإن تركته تركته وفيه عوج. فاستوصوا بالنساء خيراً»[5].

قلت: سيأتي ـ في سورة النساء ـ الكلام عن خلق حوّاء من ضلع آدم، كما وردت في روايات هي أشبه بالإسرائيليات وقد خالفت صريح الكتاب العزيز، ووافقت أساطير سِفر التكوين (أصحاح ٢): «فأوقع الربّ الإله سُباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الربّ الإلّه الضلع الّتي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم

(١) الدرّ ١: ١٢٨؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٢، رقم ٩٣٢٨، ترجمة حوّاء.

(٢) الدرّ ١: ١٢٧؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠١، رقم ٩٣٢٨. (٣) السِّنة: النعاس.

(٤) الطبري ١: ٣٢٩ / ٥٩٦؛ ابن كثير ١: ٨٢؛ تاريخ الطبري ١: ٧٠، باب: ذكر خلق الله تعالى أبانا آدم أبا البشر.

(٥) الدرّ ١: ١٢٨؛ البخاري ٤: ١٠٣، كتاب الأنبياء، باب ١؛ مسلم ٤: ١٧٨، كتاب الرضاع، باب الوصيّة بالنساء؛ كنزالعمّال ١٦: ٢٣٨ ـ ٢٣٩ / ٤٤٣٠٢.

من لحمي. هذه تُدعَى امرأة لأنّها من امرءٍ أُخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلتصق بـامرأتـه ويكونان جسداً واحداً!؟».

ما كانت جنّة آدم؟

[١١٩٢/٢] قال الشيخ: قال الحسن وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وأكثر المعتزلة كأبي علي والرمّاني وأبي بكر بن الإخشيد، وعليه أكثر المفسّرين: إنّها كانت جنّة الخلد[١].

قال أبو إسحاق الثعلبي: قالت القدريّة: إنّ الجنّة الّتي أسكنها الله آدم وحوّاء لم تكن جنّة الخلد وإنّما كان بستاناً من بساتين الدنيا. واحتجّوا بأنّ الجنّة لايكون فيها ابتلاء وتكليف. والجواب: أنّا قد أجمعنا على أنّ أهل الجنّة مأمورون فيها بالمعرفة ومكلّفون بذلك. وجواب آخر: أنّ الله تعالى قادر على الجمع بين الأضداد، فأرى آدم المحنة في الجنّة وأرى إبراهيم النّعمة في النّار، لئلّا يأمن العبد ربّه ولايقنط من رحمته، وليعلم أنّ له أن يفعل ما يشاء.

واحتجّوا أيضاً بأنّ من دخل الجنّة يستحيل الخروج منها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[٢]. والجواب: أنّ من دخلها للثواب لايخرج منها أبداً، وآدم له أن يدخلها للثواب. ألاترى أنّ رضوان خازن الجنّة يدخلها ثمّ يخرج منها، وإبليس كان داخل الجنّة وأُخرج منها![٣].

* * *

قال الإمام الرازي: اختلفوا في الجنّة المذكورة في الآية، هل كانت في الأرض أو في السماء؟ وبتقدير أنّها كانت في السماء فهل هي الجنّة الّتي هي دار الثواب أو جنّة الخلد أو جنّة أخرى؟

فقال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصفهاني: هذه الجنّة كانت في الأرض. وحَمَلا الإهباط على الانتقال من بقعة إلى أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾[٤].

واحتجّا بوجوه: أحدها: أنّ هذه الجنّة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنّة الخلد. ولو كان آدم في جنّة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[٥]. ولما

---

(١) التبيان ١: ١٥٦؛ مجمع البيان ١: ١٦٨.
(٢) الحجر ١٥: ٤٨.
(٣) الثعلبي ١: ١٨٢.
(٤) البقرة ٢: ٦١.
(٥) طه ٢٠: ١٢٠.

صحّ قوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾(١).

ثانيها: أنّ من دخل هذه الجنّة لايخرج منها، لقوله تعالى: ﴿وَ مَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(٢).

ثالثها: أنّ إبليس لمّا امتنع من السجود لُعن، فما كان يقدر مع غضب الله عليه أن يصل إلى جنّة الخلد.

رابعها: أنّ الجنّة الّتي هي دار الثواب لايفنى نعيمها، لقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا﴾(٣). ولقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٤) أي غير مقطوع.

فهذه الجنّة لو كانت هي التي دخلها آدم لما فنيت، لكنّها تفنى لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(٥). ولما خرج منها آدم، لكنّه خرج منها وانقطعت تلك الراحات.

خامسها: أنّه لايجوز في حكمته تعالى أن يبتدئ الخلق في جنّة يخلدهم فيها ولا تكليف.

سادسها: لانزاع في أنّ الله خلق آدم في الأرض، ولم يذكر في هذه القصّة أنّه تعالى نقله إلى السماء، ولو كان لكان أولى بالذكر.

قال الرازي: والقول الثاني قول أبى عليّ الجُبّائي: إنّ تلك الجنّة كانت في السماء السابعة، بدليل قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾(٦).

والقول الثالث ـ وهو قول جمهور أصحابنا الأشعرين ـ: إنّ هذه الجنّة هي تلك الجنّة المعهودة، والّتي هي دارالثواب. إذ يجب صرف اللفظ إليها لأنّها المعهودة لاغيرها.

قال الرازي: والأدلّة النقلية هنا ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقّف وترك القطع(٧).

وإليك من سائر الروايات:

[١١٩٣/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: خلق الله آدم يوم الجمعة، وأدخله الجنّة يوم الجمعة، فجعله في جنّات الفردوس(٨).

---

(١) الأعراف ٧: ٢٠.
(٢) الحجر ١٥: ٤٨.
(٣) الرعد ١٣: ٣٥.
(٤) هود ١١: ١٠٨.
(٥) الرحمان ٥٥: ٤٨.
(٦) البقرة ٢: ٣٨.
(٧) تفسير الكبير ٣: ٣ ـ ٤.
(٨) الدرّ ١: ١٢٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٥ / ٣٧١.

[١١٩٤/٢] وقال أبو مسلم محمّدبن بحر: هي في الأرض، لأنّه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهاهما عنها دون غيرها من الثمار.(١) أي فذلك دليل على أنّها جنّة الدنيا حيث التكليف ولاتكليف في جنّة الخلد.

[١١٩٥/٢] وعنه أيضاً قال: هي جنّة من جنان الدنيا في الأرض. وقال إنّ قوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ لايقتضي كونها في السماء، لأنّه مثل قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾(٢).

[١١٩٦/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: حدّثني أبي رفعه قال: «سُئل الصادق عليه السلام عن جنّة آدم أمِن جِنان الدنيا كانت أم من جِنان الآخرة؟ فقال: كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما أُخرج منها أبداً، قال: فلمّا أسكنه الله الجنّة وأتى جهالةً إلى الشجرة، أخرجه، لأنّ الله خلق خلقة لاتبقى إلّا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والإسكان والنكاح، ولايدرك ما ينفعه مما يضرّه إلّا بالتوقيف، فجاءه إبليس، فقال له: إنّكما إذا أكلتما من هذه الشجرة الّتي نهاكما الله عنها صرتما ملكين وبقيتما في الجنّة أبداً، وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنّة وحلف لهما أنّه لهما ناصح كما قال الله -عزّ وجلّ- حكاية عنه: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فقبل آدم قوله، فأكلا من الشجرة، فكان كما حكى الله: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ وسقط عنهما ما ألبسهما الله من لباس الجنّة وأقبلا يستتران بورق الجنّة ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، فقالا كما حكى الله عنهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فقال الله لهما: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، قال: إلى يوم القيامة. قال: فهبط آدم على الصفا، وإنّما سمّيت الصفا لأنّ صفوة الله نزل عليها، ونزلت حواء على المروة، وإنّما سمّيت المروة لأنّ المرأة نزلت عليها، فبقي آدم أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنّة، فنزل عليه جبرائيل عليه السلام، فقال: يا آدم ألم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته؟ قال: بلى، قال: وأمرك الله أن لا تأكل من الشجرة فَلِمَ عصيته؟ قال: يا جبرائيل إنّ إبليس حلف لي بالله إنّه لي ناصح، وما ظننت أنّ خلقاً يخلقه الله يحلف به كاذباً»(٣).

---

(١) التبيان ١: ١٥٩.
(٢) مجمع البيان ١: ١٦٨؛ أبوالفتوح ١: ٢١٨.
(٣) البرهان ١: ١٨١-١٨٢ / ٤؛ القمي ١: ٤٣-٤٤؛ البحار ١١: ١٦١-١٦٢ / ٥؛ نورالثقلين ٢: ١٣ / ٣٦، سورة الأعراف.

[١١٩٧/٢] وروى الصدوق عن محمّد بن الحسن قال: حدّثنا محمّد بن الحسن الصفّار عن إبراهيم بن هاشم عن عثمان عن الحسن بن بشّار عن أبي عبدالله ﷺ قال: «سألته عن جنّة آدم؟ فقال: جنّة من جنان الدنيا، يطلع عليها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الخلد ما خرج منها أبداً»[١].

[١١٩٨/٢] وروى الكليني عن شيخه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن الحسين بن ميسر قال: «سألت أبا عبدالله ﷺ عن جنّة آدم، فقال جنّة من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً»[٢].

* * *

[١١٩٩/٢] وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال: الرغد: الهنيّ[٣].

[١٢٠٠/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: الرغد: سعة المعيشة[٤].

[١٢٠١/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قال: لا حساب عليكم[٥].

آدم شكر ربّه

[١٢٠٢/٢] أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» والبيهقي في «الشعب» وابن عساكر في تاريخه عن الحسن قال: قال موسى يا ربّ كيف يستطيع آدم أن يؤدّي شكر ما صنعته إليه، خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسكنته جنّتك، وأمرت

---

(١) نور الثقلين ١: ٦٢؛ علل الشرائع ٢: ٦٠٠ / ٥٥، باب ٣٨٥ (نوادر العلل)؛ البحار ٦: ٢٨٤ / ٢؛ كنز الدقائق ١: ٣٦٤ - ٣٦٥؛ البرهان ١: ١٨٠ / ٢.

(٢) نور الثقلين ١: ٦٢؛ الكافي ٣: ٢٤٧ / ٢؛ البحار ٦: ٢٨٤ / ٢؛ كنز الدقائق ١: ٣٦٥؛ البرهان ١: ١٨١ / ٣.

(٣) الدرّ ١: ١٢٩؛ الطبري ١: ٣٢٩ / ٥٩٧؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٢، رقم ٥٧٨.

(٤) الدرّ ١: ١٢٩؛ الطبري ١: ٣٣٠ / ٥٩٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٥ / ٣٧٣.

(٥) الدرّ ١: ١٢٩؛ الطبري ١: ٣٣٠ / ٥٩٨، وفيه «عليهم» بدل «عليكم»؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٦ / ٣٧٤.

الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى علم أنّ ذلك منّي فحمدني عليه، فكان ذلك شكراً لما صنعتُ إليه[١].

النهي من اقتراب الشجرة

[١٢٠٣/٢] روى العيّاشيّ، عن سلّام بن المستنير، عن أبي جعفر عليه السلام «في قوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: يعني لا تأكلا منها»[٢].

[١٢٠٤/٢] وقال ابن بابويه الصدوق: روي عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل، فكان فيما سأله أنّه قال: لأيّ شيء فرض الله الصوم على أمّتك بالنهار ثلاثين يوماً، وفرض الله على الأمم أكثر من ذلك؟ فقال النبيّ: إنّ آدم لمّا أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً، ففرض الله على ذرّيّته ثلاثين يوماً الجوع والعطش، والّذي يأكلونه بالليل تفضّل من الله عليهم، وكذلك على آدم»[٣].

* * *

[١٢٠٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: ابتلى اللهُ آدمَ كما ابتلى الملائكة قبله، وكلّ شيء خُلق مبتلًى، ولم يدع الله شيئاً من خلقه إلّا ابتلاه بالطاعة، فما زال البلاء بآدم حتّى وقع فيما نُهي عنه[٤].

[١٢٠٦/٢] وأخرجه ابن جرير بلفظ: عن قتادة قال: ثمّ إنّ البلاء الّذي كُتب على الخلق كُتب على آدم، كما ابتلي الخلق قبله. إنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ أحلّ له ما في الجنّة أن يأكل منها رغداً حيث شاء، غير شجرةٍ واحدة نهى عنها، وقدّم إليه فيها، فما زال به البلاء حتّى وقع بالذي نُهي عنه[٥].

---

(١) الدرّ ١: ١٢٦؛ الشكر لله، لابن أبي الدنيا: ٦٩ ـ ٧٠ / ١٢؛ الشعب ٤: ١٠٣ / ٤٤٢٧، باب تعديد نعم الله ـ عزّ وجلّ ـ وشكرها، باختلاف؛ العظمة ١: ١٥٠.

(٢) البرهان ١: ١٨٨ / ١٤؛ العيّاشي ١: ٥٣ / ٢٠؛ البحار ١١: ١٨٧ / ٤١؛ مجمع البيان ١: ١٦٨؛ الصافي ١: ١٧٠.

(٣) نورالثقلين ١: ٦١ ـ ٦٢؛ الفقيه ٢: ٧٣ ـ ٧٤ / ١٧٦٩، كتاب الصوم، باب علّة فرض الصيام؛ علل الشرائع ٢: ٣٧٨ ـ ٣٧٩ / ١؛ الخصال: ٥٣٠ ـ ٥٣١ / ٦؛ البحار ٩٣: ٣٦٨ ـ ٣٦٩ / ٤٩؛ كنز الدقائق ١: ٣٦٧.

(٤) الدرّ ١: ١٣٠.

(٥) الطبري ١: ٣٣٠ / ٦٠٠.

ماذا كانت الشجرة المنهيّة؟

[١٢٠٧/٢] ذكر الشيخ أبو جعفر الطوسي نقلاً عن الكلبي: أنّها شجرة العلم، أي معرفة الخير من الشرّ[١].

[١٢٠٨/٢] وعن قتادة: إنّها شجرة العلم وفيها من كلّ شيء[٢].

قلت: هذا مأخوذ من التوراة حرفيّاً: «وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها، لأنّك يوم تأكل منها تموت موتاً»[٣].

[١٢٠٩/٢] وبهذا المعنى أيضاً ما أخرجه ابن جرير عن ابن حميد قال: حدّثنا سَلَمة عن محمّد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة أنّه حدّث: أنّها الشجرة الّتي تحتكّ بها الملائكة للخُلد[٤].

قوله: «تحتكّ بها» أي تحكُّ بها ملامس أبدانها لتجعلها صالحة للخلود. وقد يراد: احتكاك الأسنان بها، كناية عن مضغها للأكل. كما في الحديث التالي:

[١٢١٠/٢] وأخرج عن عبدالرزّاق عن عمرو بن عبدالرحمان بن مهرب قال: سمعت وهب بن منبّه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجه ونهاه عن الشجرة، وكانت شجرةً غصونُها متشعّب بعضها في بعض، وكان لها ثمرٌ تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة الّتي نهى الله آدم عنها وزوجه[٥].

قلت: تلك أحاديث تبدو عليها شائبة إسرائيليّة لامساغ لها.

[١٢١١/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى عبدالسلام بن صالح الهروي قال: «قلت للرضا ؑ: ياابن رسول الله أخبرني عن الشجرة الّتي أكل منها آدم وحوّا، ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها، فمنهم من يروي أنّها الحنطة ومنهم من يروي أنّها العنب ومنهم من يروي أنّها شجرة الحسد؟ فقال: كلّ ذلك حقّ! قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟ فقال: يا أبا الصلت إنّ شجرة الجنّة تحمل أنواعاً،

---

(١) التبيان ١: ١٥٨؛ مجمع البيان ١: ١٦٩؛ أبو الفتوح ١: ٢٢٠.

(٢) الثعلبي ١: ١٨٢؛ البغوي ١: ١٠٥.

(٣) سِفر التكوين الأصحاح الثاني: ١٧. وجاء في الأصحاح الثالث عن قول إبليس: «لن تموتا. بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفَين الخير والشرّ» فعلى ما جاء في سِفر التكوين كان الله قد كذب ـ والعياذ بالله ـ وصدق إبليس.. فما أقبح بمسلم أن يأخذ من سلعة كاسدة تفسيراً للقرآن العظيم!!

(٤) الطبري ١: ٣٣٢ / ٦٠٧.

(٥) المصدر: ٣٣٦ ـ ٣٣٧ / ٦١٩؛ وابن كثير ١: ٨٣.

وكانت شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجرة الدنيا»(١).

[١٢١٢/٢] وروى بإسناده إلى عليّ بن محمّد بن الجهم ـ في حديث طويل ـ عن الرضا عليه السلام «في قوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: وأشار لهما إلى شجرة الحنطة»(٢).

[١٢١٣/٢] وروى بإسناده إلى عليّ بن محمّد بن الجهم قال: «حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك أنّ الأنبياء معصومون؟ قال، بلى، قال، فما معنى قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَ عَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾(٣)؟ فقال عليه السلام: إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قال لآدم عليه السلام: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وأشار لهما إلى شجرة الحنطة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. ولم يقل لهما: ولا تأكلا من هذه الشجرة ولا ممّا كان من جنسها، فلم يقربا تلك الشجرة، وإنّما أكلا من غيرها، لمّا أن وسوس الشيطان إليهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ وإنّما نهاكما أن تقربا غيرها، ولم ينهكما عن الأكل منها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾(٤) ولم يكن آدم وحوّاء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فأكلا منها ثقة بيمينه بالله. وكان ذلك من آدم قبل النبوّة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحقّ به دخول النار، وإنّما كان من الصغاير الموهوبة الّتي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلمّا اجتباه الله تعالى وجعله نبيّاً كان معصوماً لا يُذنب صغيرة ولا كبيرة، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(٥) وقال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾»(٦).

قلت: لعلّ في هذا الحديث بيان مندوحة لآدم حين تناول الشجرة، حيث لم يقترب عين الشجرة الّتي وقع النهي عليها، وإنّما تناول من غيرها نظيرتها في الجنس. وهذا نوع من التأويل ذي

(١) نورالثقلين ١: ٦٠؛ عيون الأخبار ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٥ / ٦٧، باب ٢٨ (فيما جاء عن الإمام عليّ بن موسى عليه السلام من الأخبار المتفرّقة)؛ معاني الأخبار: ١٢٤ ـ ١٢٥ / ١، باب معنى الشجرة الّتي أكل منها آدم وحواء؛ البحار ١١: ١٦٤ ـ ١٦٥ / ٩؛ كنزالدقائق ١: ٣٦٠ ـ ٣٦٢؛ البرهان ١: ١٨٧ ـ ١٨٨ / ١٣؛ الصافي ١: ١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) عيون الأخبار ١: ١٧٤ / ١، باب ١٥ (في عصمة الأنبياء)؛ البحار ١١: ٧٨ / ٨.

(٣) طه ٢٠: ١٢١.

(٤) الأعراف ٧: ١٩ ـ ٢١.

(٥) طه ٢٠: ١٢١ ـ ١٢٢.

(٦) آل عمران ٣: ٣٣.

خطر جسيم، وقد تورّط فيه آدم بإغراء إبليس ـ إن صحّ السند ـ والله العالم[١].

[١٢١٤/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس أنّه كان يقول: الشجرة الّتي نُهي عنها آدم: البرّ[٢].

[١٢١٥/٢] وأخرج أحمد في «الزهد» عن شعيب الحيائي قال: كانت الشجرة الّتي نهى الله عنها آدم وزوجته شبه البُرّ، تسمّى الدِّعة، وكان لباسهما النور[٣].

والدعة من وَدُعَ وَدَاعة: الرفاهية في العيش. وكذلك الثوب الوديع: الثمين المصون من الردانة. ولعلّ نوعاً من البُرّ الجيّد أو حَبّاً آخر يُشبه البرّ شهيّ المأكل كان يسمّى عندهم الدِّعة لذلك. كما في الحديث التالي:

[١٢١٦/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب بن منبّه قال: الشجرة الّتي نهى الله عنها آدم البُرّ، ولكنّ الحبّة منها في الجنّة كَكُلَى البقر[٤] ألين من الزبد وأحلى من العسل[٥].

[١٢١٧/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر من طرقٍ عن ابن عبّاس قال: الشجرة الّتي نهى الله عنها آدم السنبلة. وفي لفظ البُرّ[٦].

[١٢١٨/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: الشجرة الّتي نُهي عنها آدم هي السنبلة[٧].

[١٢١٩/٢] وعن الحسن، قال: هي السنبلة الّتي جعلها الله رزقاً لولده في الدنيا[٨].

[١٢٢٠/٢] وعن جابر بن يزيد بن رفاعة عن محارب بن دثار قال: هي السنبلة[٩].

---

(١) عيون الأخبار ١: ١٧٤ ـ ١٧٥ / ١، باب ١٥ (ذكر مجلس آخر للرضا عليه السلام مع المأمون في عصمة الأنبياء)؛ نور الثقلين ١: ٥٩ ـ ٦٠؛ البحار ١١: ٧٨ / ٨؛ البرهان ١: ١٨٦ ـ ١٨٧ / ١٢؛ كنز الدقائق ١: ٣٩٠ ـ ٣٩١؛ الصافي ١: ١٧٨.

(٢) الطبري ١: ٣٣١ / ١ ـ ٦٠٥؛ ابن كثير ١: ٨٣.

(٣) الزهد: ٩٥ / ٢٦٢، باب زهد آدم عليه السلام؛ الدرّ ١: ١٣٠.

(٤) جمع كُلية.

(٥) الدرّ ١: ١٢٩؛ الطبري ١: ٣٣١ ـ ٣٣٢ / ٦٠٦، وزاد: وأهل التوراة يقولون: هي البُرّ؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٦ / ٣٧٨؛ ابن كثير ١: ٨٣.

(٦) الدرّ ١: ١٢٩؛ الطبري ١: ٣٣٠ ـ ٣٣١ / ٦٠١؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٦ / ٣٧٧؛ وزاد: وكذلك فسّره الحسن البصري ووهب بن منبّه وعطيّة العوفي وأبو مالك ومحارب بن دثار وعبدالرحمان بن أبي ليلى؛ العظمة ٥: ١٥٨٢ ـ ١٥٨٣ / ١٠٤٧، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء عليهما السلام)؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٣؛ البغوي ١: ١٠٥، بلفظ: فقال ابن عبّاس ومحمّد بن كعب ومقاتل: هي السنبلة؛ التبيان ١: ١٥٨؛ أبو الفتوح ١: ٢٢٠، نقلاً عن محمّد بن كعب ومقاتل وأكثر المفسّرين؛ الوسيط ١: ١٢١.

(٧) الطبري ١: ٣٣١ / ٦٠٤؛ الوسيط ١: ١٢١.

(٨) الطبري ١: ٣٣٢ / ٦٠٩.

(٩) المصدر / ٦٠٨.

[١٢٢١/٢] وأخرج وكيع وعبدبن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن أبي مالك الغفاري في قوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: هي السنبلة(١).

[١٢٢٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن إدريس، قال: سمعت أبي عن عطيّة في قوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: السنبلة(٢).

[١٢٢٣/٢] وأخرج عن رجل من بني تميم أنّ ابن عبّاس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة الّتي أكل منها آدم، والشجرة الّتي تاب عندها؟ فكتب إليه أبو الجلد: سألتني عن الشجرة الّتي نُهي عنها آدم وهي السنبلة. وسألتني عن الشجرة الّتي تاب عندها آدم وهي الزيتونة(٣).

قلت: قد أسبقنا الكلام عن مثل هذه السفاسف الواهية، كيف يسأل مثلُ ابن عبّاس ـ ترجمان القرآن والتلميذ الملازم للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ـ مثلَ أبا الجلد جيلان بن فروة الأزدي، الرجل المجهول الحال والّذي حيكت حوله خرافات والّتي منها هذه الخرافة(٤).

* * *

[١٢٢٤/٢] وأخرج وكيع وابن سعد وابن جرير وأبو الشيخ عن جَعْدة بن هُبَيرة قال: الشجرة الّتي افتتن بها آدم الكرم، وجعلت فتنةً لوُلده من بعده(٥).

[١٢٢٥/٢] وأخرج ابن جرير عن يعلى بن مسلم عن سعيدبن جبير في قوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: الكرم(٦).

[١٢٢٦/٢] وعن السدّي، قال: الشجرة هي الكرم(٧).

[١٢٢٧/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عبّاس قال: الشجرة الّتي نُهي عنها آدم، الكرمة.

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود. مثله(٨).

---

(١) الدرّ ١: ١٢٩؛ الطبري ١: ٣٣١ / ٦٠٢؛ ابن عساكر ٧: ٤٠١.

(٢) الطبري ١: ٣٣١ / ٦٠٣؛ الوسيط ١: ١٢١.

(٣) الطبري ١: ٣٣١ / ٦٠٥؛ ابن كثير ١: ٨٣.

(٤) راجع ما كتبناه بهذا الشأن: التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب (الجزء التاسع من التمهيد: ٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٥) الدرّ ١: ١٢٩؛ الطبقات الكبرى ١: ٣٤، باب ولد رسول الله؛ الطبري ١: ٣٣٢ / ٦١٣.

(٦) الطبري ١: ٣٣٢ ـ ٣٣٣ / ٦١٥.

(٧) الطبري ١: ٣٣٢ / ٦١٢؛ الوسيط ١: ١٢٢. وعن ابن مسعود.

(٨) الدرّ ١: ١٢٩؛ الطبري ١: ٣٣٢ / ٦١٠ و ٦١١، وفي ح ٦١١ نقلاً عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله مع

←

[١٢٢٨/٢] وأخرج ابن جرير عن الشعبي عن جَعْدة بن هُبَيرة، قال: الشجرة الّتي نُهي عنها آدم: شجرة الخمر[(١)].

[١٢٢٩/٢] وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: بلغني أنّها التينة[(٢)].

[١٢٣٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: هي التين[(٣)].

[١٢٣١/٢] وأخرج ابن جرير عن بعض الصحابة قال: هي تينة[(٤)].

[١٢٣٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك في قوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: هي النخلة[(٥)].

[١٢٣٣/٢] وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن عبدالله بن قسيط قال: هي الأترج[(٦)].

[١٢٣٤/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن أبي العالية قال: كانت شجرة من أكل منها أَحْدَث. قال: ولا ينبغي أن يكون في الجنّة حَدَث[(٧)]!

[١٢٣٥/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال: أتى الشيطان حوّاء فبدأ بها فقال: أَنُهيتما عن شيء؟ قالت: نعم، عن هذه الشجرة. فقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[(٨)]. قال: فبدأت حوّاء فأكلت منها ثمّ أمرت آدم فأكل منها. قال: وكانت شجرة من أكل منها أحدث. قال: ولاينبغي أن يكون في الجنّة حَدَث. قال: ﴿فَأَزَلَّـهُمَا الشَّـيْطَانُ عَـنْهَا

← زيادة قوله: وتزعم اليهود أنّها الحنطة؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٦ / ٣٧٦، وزاد: وكذلك فسّره سعيدبن جبير والشعبي وجَعْدة بن هُبَيرة والسدّي ومحمّدبن قيس.

(١) الطبري ١: ٣٣٢ / ٦١٤.

(٢) الدرّ ١: ١٢٩؛ ابن كثير ١: ٨٣.

(٣) الدرّ ١: ١٣٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٦ / ٣٧٩، بلفظ: عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: تينة. وكذلك فسّره قتادة وابن جُرَيج؛ ابن كثير ١: ٨٣؛ الثعلبي ١: ١٨٢، عن الضحّاك بلفظ: «إنّها شجرة التين»؛ الوسيط ١: ١٢٢، عن ابن جريج بلفظ: «إنّها التين».

(٤) الطبري ١: ٣٣٣ / ٦١٧؛ الدرّ ١: ١٣٠.

(٥) الدرّ ١: ١٣٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٦ / ٣٨٠؛ ابن كثير ١: ٨٣.

(٦) الدرّ ١: ١٣٠.

(٧) الدرّ ١: ١٣٠؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٧ / ٣٨١؛ ابن كثير ١: ٨٣؛ الطبري ١: ٣٣٨ / ٦٢٢.

(٨) الأعراف ٧: ٢٠.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ قال: فأُخرج آدم من الجنّة(١).

* * *

قال أبو إسحاق الثعلبي: قال بعض العلماء: وقع النهي على جنس الشجر. وقال آخرون: بل وقع على شجرة مخصوصة واختلفوا فيها:

[١٢٣٦/٢] فقال علي بن أبي طالب [ﷺ]: «هي شجرة الكافور».

[١٢٣٧/٢] وقال قتادة: شجرة العلم وفيها كلّ شيء.

[١٢٣٨/٢] وقال محمّدبن كعب ومقاتل: هي السنبلة.

[١٢٣٩/٢] وقيل: هي الحَبْلَة، وهي الأصلة من أصول الكرم.

[١٢٤٠/٢] وقال أبو روق عن الضحّاك: إنّها شجرة التين(٢).

* * *

قال أبو جعفر الطبري: والقول في ذلك عندنا: أنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ أخبر عباده أنّ آدم وزوجه أكلا من الشجرة الّتي نهاهما ربُّهما، فأتيا الخطيئة الّتي حذّرهما عن إتيانها بعد أن بيّن لهما عين الشجرة وأشار إليها بقوله: ﴿وَ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

قال: ولم يضع الله لعباده المخاطبين بالقرآن دلالة على أنّ أيّ أشجار الجنّة وقع النهي عليها، ولم يذكر اسمها ولا دلّ عليها بدلالة أخرى.

ولو كان لله في العلم بذلك رضىً، لم يخل عباده من نصب دلالة لهم عليها يصلون بها إلى معرفة عينها ليطيعوه بعلمهم بها، كما فعل في كلّ ما بالعلم به له رضىً.

قال: فالصواب في ذلك أن يقال: إنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ نهى آدم وزوجه عن أكل شجرةٍ بعينها فخالفا إلى ما نهاهما عنه. ولا علم لنا بأيّ شجرة كانت على التعيين، حيث لم يضع الله لعباده دليلاً عليه. لا في القرآن ولا في السنّة الصحيحة. فأنّى يأتي ذلك من أتى؟!

وقد اختلفت الأقوال وكلّ واحد محتمل، غير أنّه إنْ عَلِمَهُ عالمٌ لم ينفع العالم به عِلْمُه، وإن جَهِلَهُ جاهل لم يضرّه جهله به(٣).

---

(١) الطبري ١: ٣٣٨ / ٦٢٢.

(٢) الثعلبي ١: ١٨٢.

(٣) الطبري ١: ٣٣٣، ذيل الحديث رقم ٦١٧.

قلت: والمذهب الصحيح هو ما ذهب إليه أبو جعفر الطبري، في كلّ ما أهمل القرآنُ ذكرَه حيث لم تَعُدْ في معرفته فائدة على المخاطبين ولا كانت ذات أثر في هدف القصّة، وإلّا لم يكن الله ليهمله.

إذن فكلّ محاولة لفهم هكذا مجهولات أو حلّ هكذا معضلات ـ إن صحّ التعبير عنها بالمعضلات ـ محاولة عقيمة لا ترسو على معتمد ولا تعود بفائدة.

وكلّ ما ورد بهذا الشأن من آثار، ضعيفة الإسناد وضيعة الدلالات ولا ترجع إلى محصّل.

نعم، كان النهي عن اقتراب الشجرة ـ كما تقدّم الحديث عنه ـ ابتلاءً لآدم واختباراً له في الحياة، كيف يجعل إرادته بالذات دليلاً على انتهاج سبيل الهدى فلا ينزلق إلى الردى. وقد كانت التجربة عنيفة، لم يطق آدم ـ وهو أبو البشر ـ أن يحمل عِبئه بسلام، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[(١)]. وعليه فالتجربة المرّة لا تتكرّر في حياة أرباب العقول الناضجة وذوي والأحلام الراجحة.

[١٢٤١/٢] روى الكليني بإسناده إلى محمّد بن مسلم بن شهاب قال: سئل عليّ بن الحسين عليه السلام أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ فقال: «ما من عمل بعد معرفة الله ومعرفة رسوله أفضل من بُغض الدنيا، وإنّ لذلك لَشُعَباً كثيرة، وللمعاصي شُعَباً. فأوّل ماعُصي الله به الكبر، وهي معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين، ثمّ الحرص وهي معصية آدم وحوّاء حين قال الله ـ عزّ وجلّ ـ لهما: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأخذا ما لا حاجة بهما إليه، فدخل ذلك على ذرّيّتهما إلى يوم القيامة، وذلك أنّ أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه»[(٢)].

[١٢٤٢/٢] وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال: بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ آدم قبل أن يُصيب الذنب كان أجلُه بين عينيه وأملُه خلفه، فلمّا أصاب الذنب جعل الله أملَه بين عينيه وأجلَه خلفه، فلا يزال يؤمّل حتّى يموت»[(٣)].

[١٢٤٣/٢] وأخرج وكيع وأحمد في الزهد عن الحسن قال: كان آدم قبل أن يصيب الخطيئة أجله

---

(١) طه ٢٠: ١١٥.

(٢) نورالثقلين ١: ٦٠؛ الكافي ٢: ١٣٠ ـ ١٣١ / ١١، كتاب الإيمان والكفر، باب ذمّ الدنيا والزهد فيها، و ٣١٦ ـ ٣١٧ / ٨، باب حبّ الدنيا والحرص عليها؛ البحار ٧٠: ٥٩ / ٢٩؛ كنزالدقائق ١: ٣٦٣؛ البرهان ١: ١٨٣ / ٧.

(٣) الدرّ ١: ١٤١؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٢، رقم ٥٧٨؛ كنزالعمّال ٣: ٤٩٠ / ٧٥٥٤.

بين عينيه وأمله وراء ظهره، فلمّا أصاب الخطيئة حُوّل أمله بين عينيه وأجله وراء ظهره[١].

[١٢٤٤/٢] وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾

[١٢٤٥/٢] أخرج ابن أبي داوود في المصاحف عن الأعمش قال: في قراءتنا في البقرة مكان ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: فوسوس[٣].

[١٢٤٦/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ قال: فأغواهما[٤].

[١٢٤٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصم بن بهدلة في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ قال: فنحّاهما[٥].

قال ابن جرير: وقرأه آخرون: «فأزالهما» بمعنى إزالة الشيء عن الشيء وذلك تنحيته عنه... وأولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ لأنّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ قد أخبر في الحرف الّذي يتلوه بأنّ إبليس أخرجهما ممّا كانا فيه، وذلك هو معنى قوله فأزالهما. فلا وجه ـ إذ كان معنى الإزالة معنى التنحية والإخراج ـ أن يقال: «فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ»[٦].

[١٢٤٨/٢] وقال أبو عبدالله القرطبي: واختلف في الكيفيّة، فقال ابن مسعود وابن عبّاس وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة؛ ـ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ والمقاسمة ظاهرُها المشافهة[٧].

[١٢٤٩/٢] وقال الحسن: إنّما رآهما على باب الجنّة، لأنّهما كانا يخرجان منها، وقد كان آدم حين دخل الجنّة ورأى ما فيها من النعيم قال: لو أن أَخْلُدَا! فاغتنم ذلك منه الشيطان فأتاه من قِبَل الخُلد.

---

(١) الدرّ ١: ١٤١؛ الزهد ٩٥: ٢٦١، باختلاف، باب زهد آدم ﷺ؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٢، رقم ٥٧٨.

(٢) الدرّ ١: ١٤١؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٤.

(٣) الدرّ ١: ١٣٠.

(٤) الدرّ ١: ١٣٠؛ الطبري ١: ٣٣٦ / ٦١٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٧ / ٣٨٦.

(٥) ابن أبي حاتم ١: ٨٧ / ٣٨٣؛ الدرّ ١: ١٣٠.

(٦) الطبري ١: ٣٣٦.

(٧) القرطبي ١: ٣١٢.

فلمّا دخل الجنّة وقف بين يدي آدم وحوّاء، وهما لا يعلمان أنّه إبليس، فبكى وناح نياحة أحزنتهما، وهو أوّل من ناح، فقالا له: ما يبكيك؟ قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة، فوقع ذلك في أنفسهما فاغتمّا ومضى إبليس عنهما ثمّ أتاهما بعد ذلك فقال: يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد، فأبى أن يقبل منه، وقاسمهما بالله إنّه لهما لمن الناصحين، فاغترّا، وما ظنّا أنّ أحداً يحلف بالله كاذباً. فبادرت حوّاء إلى الأكل من الشجرة ثمّ ناولت آدم حتّى أكل منها[1].

[١٢٥٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم: أنّ آدم حين دخل الجنّة ورأى ما فيها من الكرامة وما أعطاه الله منها، قال: لو أن خُلْداً كان! فاغتنمها منه الشيطان لمّا سمعها منه، فأتاه من قِبَل الخُلْد[2].

[١٢٥١/٢] وعنه أيضاً قال: حُدّثتُ أنّ أوّل ما ابتدأهما به من كيده إيّاهما أنّه ناح عليهما نياحة أحزنتهما حين سمعاها، فقالا له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة. فوقع ذلك في أنفسهما. ثمّ أتاهما فوسوس إليهما، فقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[3] وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[4] أي تكونا ملكين أو تخلدا، إن لم تكونا ملكين، في نعمة الجنّة فلا تموتان. يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[5].[6]

[١٢٥٢/٢] وعن سلمة، قال: قال ابن إسحاق في ذلك، والله أعلم، كما قال ابن عبّاس وأهل التوراة: إنّه خَلُص إلى آدم وزوجته[7] بسلطانه الّذي جعل الله له ليبتلي به آدم وذرّيّته، وأنّه يأتي ابنَ آدم في نومته وفي يقظته وفي كلّ حال من أحواله، حتّى يخلص إلى ما أراد منه، حتّى يدعوه إلى المعصية، ويوقع في نفسه الشهوة وهو لا يراه، وقد قال الله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطانُ فأخرجهما ممّا

---

(١) البغوي ١: ١٠٦؛ الوسيط ١: ١٢٢، بلفظ: «إنّما رآهما على باب الجنّة، لأنّهما كانا يخرجان من الجنّة».

(٢) الطبري ١: ٣٣٨ / ٦٢٣؛ تاريخ الطبري ١: ٧٤. وفيه: قال: لو أنّا خَلَدْنا، فاغتمز فيها منه الشيطان. يقال: اغتمز عليه الكلمة: استضعفها ووجد فيها الغميزة في نفس آدم أي نقطة ضعف يمكنه التسرّب منها إليه.

(٣) طه ٢٠: ١٢٠.

(٤) الأعراف ٧: ٢٠ ـ ٢١.

(٥) الأعراف ٧: ٢٢.

(٦) الطبري ١: ٣٣٨ ـ ٣٣٩ / ٦٢٤؛ تاريخ الطبري ١: ٧٤.

(٧) يقال: خَلَصَ إليه أي أتاه خُفية ومن حيث لا يشعر.

كانا فيه[١]. وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] وقد قال الله لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى آخر السورة[٣]. ثمّ ذكر الأخبار التي رويت عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مجرَى الدَّمِ»[٤].

قال ابن اسحاق: وإنّما أُمر ابن آدم فيما بينه وبين عدوّ الله كأمره فيما بينه وبين آدم، فقال الله: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ثمّ خَلُص إلى آدم وزوجته حتّى كلّمهما، كما قصّ الله علينا من خبرهما قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[٥] فخلص إليهما بما خَلُص إلى ذرّيّته من حيث لا يريانه[٦].

[١٢٥٣/٢] وأخرج عبدالرزّاق وابن جرير عن ابن عبّاس قال: إنّ عدوّ الله إبليس عرض نفسه على دوابّ الأرض أنّها تحمله حتّى يدخل الجنّة معها ويكلّم آدم. فكلّ الدوابّ أبى ذلك عليه حتّى كلّم الحيّة فقال لها: أمنعكِ من ابن آدم فإنّك في ذمّتي إن أنتِ أدخلتني الجنّة، فحملته بين نابين من أنيابها حتّى دخلت به. فكلّمه مِن فيها وكانت كاسية[٧] تمشي على أربع قوائم فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها. يقول ابن عبّاس: فاقتلوها حيث وجدتموها، أخفروا ذمّة عدوّ الله فيها[٨].[٩]

[١٢٥٤/٢] وأخرج ابن جرير عن سلمة، قال: قال ابن إسحاق: وأهل التوراة يدرسون: إنّما كلّم آدم الحيّة، ولم يفسّروا كتفسير ابن عبّاس[١٠].

[١٢٥٥/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: لمّا قال الله لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنّة فأتى الحيّة، وهي دابّة لها أربع قوائم كأنّها البعير، وهي كأحسن الدوابّ فكلّمها أن تُدخله في فمها حتّى تدخل به إلى آدم،

(١) هذا ليس نصّ آية. ويريد آية البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.
(٢) الأعراف ٧: ٢٧.
(٣) سورة الناس.
(٤) البخاري ٢: ٢٥٨ و ٤: ٩٣ و ٨: ١١٤؛ أحمد ٣: ١٥٦ و ٢٨٥ و ٣٠٩ و ٦: ٣٣٧؛ مسلم ٧: ٨.
(٥) طه ٢٠: ١٢٠.
(٦) الطبري ١: ٣٤١ـ٣٤٢ / ٦٣٠.
(٧) الكاسي: ذو الكسوة. صاحب المجد والشرف.
(٨) يقال: أخفره أي نقض عهده وغدر به.
(٩) الدرّ ١: ١٣١؛ الطبري ١: ٣٣٩ / ٦٢٧.
(١٠) الطبري ١: ٣٣٩ / ٦٢٨.

فأدخلته في فمها فمرّت الحيّة على الخزنة فدخلت ولا يعلمون؛ لما أراد الله من الأمر. فكلّمه من فمها فلم يبال بكلامه، فخرج إليه فقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[(١)] وحلف لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[(٢)] فأبى آدم أن يأكل منها. فقعدت حوّاء فأكلت ثمّ قالت: يا آدم كُلْ فإنّي قد أكلتُ فلم يضرّ بي. فلمّا أكل ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[(٣)].[(٤)]

[١٢٥٦/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع، قال: حدّثني محدّث أنّ الشيطان دخل الجنّة في صورة دابّة ذات قوائم، فكان يُرى أنّه البعير. قال: فلُعن فسقطت قوائمه فصار حيّة[(٥)].

[١٢٥٧/٢] وروي عن صالح بن حيّان قال: رأيت عبدالله بن عمر يعالج حيّة صغيرة يريد أن يقتلها فقلت: ما تصنع؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما سالمناهنّ منذ عاديننا فاقتلوهنّ حيث وجدتموهنّ»[(٦)].

[١٢٥٨/٢] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى عمرو بن عبدالرحمان بن مهرب قال: سمعت وهب بن منبّه يقول: لمّا أسكن الله آدم وذرّيّته أو زوجته ـ الشكّ من أبي جعفر، وهو في أصل كتابه: وذرّيّته ـ نهاه عن الشجرة وكانت شجرةً غصونُها متشعّب بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخُلدهم، وهي الثمرة الّتي نهى الله آدم عنها وزوجته. فلمّا أراد إبليس أن يستزلّهما دخل في جوف الحيّة، وكانت للحيّة أربع قوائم كأنّها بُختيّة[(٧)] من أحسن دابّة خلقها الله. فلمّا دخلت الحيّة الجنّة خرج إبليس من جوفها، فأخذ من الشجرة الّتي نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حوّاء، فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فأخذت حوّاء فأكلت منها، ثمّ ذهبت بها إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها وأحسن لونها! فأكل منها آدم فبدت لهما سوآتهما، فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربّه: يا آدم أين أنت؟ قال:

---

(١) طه ٢٠: ١٢٠.

(٢) الأعراف ٧: ٢١.

(٣) طه ٢٠: ١٢١.

(٤) الدرّ ١: ١٣٠ ـ ١٣١؛ الطبري ١: ٣٣٧ ـ ٣٣٨ / ٦٢٠.

(٥) الطبري ١: ٣٣٨ / ٦٢١؛ تاريخ الطبري ١: ٧٣.

(٦) الوسيط ١: ١٢٣.

(٧) البختيّ: جَمَلٌ كبير الجثّة طويل العنق.

أنا هنا يا ربّ[١]، قال: ألا تخرج؟ قال: أستحيي منك يا ربّ، قال: ملعونة الأرض الّتي خُلقتِ منها، لعنة يتحوّل ثمرُها شوكاً. قال: ولم يكن في الجنّة ولا في الأرض شجرة كان أفضل من الطلح[٢] والسدر؛ ثمّ قال: يا حوّاء أنتِ الّتي غررتِ عبدي، فإنّك لاتحملين حملاً إلّا حملتيه كرهاً، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفتِ على الموت مراراً. وقال للحيّة: أنت الّتي دخل الملعون في جوفك حتّى غرّ عبدي، ملعونة أنت لعنة تتحوّل قوائمك في بطنك، ولايكن لك رزق إلّا التراب، أنتِ عدوّة بني آدم وهم أعداؤك حيث لقيتِ أحداً منهم أخذتِ بعقبة، وحيث لقيكِ شدخ رأسك.

قال عمرو: قيل لوهب: وماكانت الملائكة تأكل قال: يفعل الله ما يشاء[٣].

ورُوي عن ابن عبّاس نحو هذه القصّة.

[١٢٥٩/٢] وأخرج ابن جرير عن محمّدبن قيس، قال: نهى الله آدم وحوّاء أن يأكلا من شجرة واحدة في الجنّة، ويأكلا منها رغداً حيث شاء. فجاء الشيطان فدخل في جوف الحيّة، فكلّم حوّاء، ووسوس إلى آدم، فقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٤] قال: فعضّت حوّاء الشجرة، فَدَمِيَتِ الشجرةُ، وسقط عنهما رياشهما الّذي كان عليهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٥] لِمَ أكلتها وقد نهيتك عنها؟ قال: يا ربّ أطعمتني حوّاءُ. قال لحوّاء: لم أطعمته؟ قالت: أمرتني الحيّة. قال للحيّة: لم أمرتها؟ قالت: أمرني إبليس. قال: ملعون مدحور! أمّا أنت يا حوّاء، فكما أدميت الشجرة فتدْمين في كلّ هلال. وأمّا أنت يا حيّة فأقطع

---

(١) إسرائيليّة محضة: إذ كيف يخفى على الله مخبأ آدم وزوجه!؟؟ جاء في سفر التكوين (أصحاح ٣): وسمعا صوت الربّ ماشياً في الجنّة فاختبأ آدم وحوّاء من وجه الربّ خوف الفضيحة، حيث وجدا أنفسهما عريانين، فنادى الربّ الاِلٰه آدم وقال: أين أنت، لعلّك أكلت من شجرة المعرفة، فعلمت أنّك عريان. كما أنّ قصّة الحيّة وأنّها حملت إبليس إلى الجنّة ـ في ستار من أعين الخزنة ـ قصّة إسرائيليّة دبّت إلى حظيرة الإسلام على يد مردة أهل الكتاب. وقد تكلّمنا عن ذلك بتفصيل في الجزء العاشر من كتابنا «التمهيد» (الجزء الثاني من التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب).

(٢) شجر من شجر العضاه وهو الشجر العظيم ذوالشوك.

(٣) الطبري ١: ٣٣٦ـ٣٣٧ / ٦١٩؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٣ـ١٠٤، رقم ٩٣٢٨.

(٤) الأعراف ٧: ٢٠ـ٢١. (٥) الأعراف ٧: ٢٢.

قوائمك فتمشين جرياً على وجهك، وسيشدخ رأسك من لقيك بالحجر؛ اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ[١].

[١٢٦٠/٢] وعن ابن زيد قال: وسوس الشيطان إلى حوّاء في الشجرة حتّى أتى بها إليها، ثمّ حسّنها في عين آدم. قال: فدعاها آدم لحاجته، قالت: لا، إلّا أن تأتي هاهنا. فلمّا أتى قالت: لا، إلّا أن تأكل من هذه الشجرة، قال: فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما. قال: وذهب آدم هارباً في الجنّة، فناداه ربّه: يا آدم أمنّي تفرّ؟ قال: لا يا ربّ، ولكن حياءً منك! قال: يا آدم أنّى أُتيت؟ قال: من قِبَل حوّاء أي ربّ! فقال الله: فإنّ لها عليّ أن أدميها في كلّ شهر مرّة كما أدمت هذه الشجرة، وأن أجعلها سفيهة، فقد كنت خلقتها حليمة، وأن أجعلها تحمل كرهاً وتضع كرهاً، فقد كنت جعلتها تحمل يسراً وتضع يسراً.

قال ابن زيد: ولولا البليّة الّتي أصابت حوّاء لكان نساء الدنيا لا يحضن، ولَكُنَّ حليمات وكنّ يحملن يُسْراً ويضعن يُسْراً[٢].

[١٢٦١/٢] وأخرج الدارقطني في الأفراد وابن عساكر عن عمر بن الخطّاب عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله بعث جبريل إلى حوّاء حين دَمِيَتْ فنادت ربّها: جاء منّي دمٌ لا أعرفه! فناداها: لأدمينّك وذرّيّتك، ولأجعلنّه لك كفّارةً وطهوراً»[٣].

[١٢٦٢/٢] وأخرج ابن منيع وابن أبي الدنيا في كتاب البكاء وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصحّحه والبيهقي في الشعب وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: قال الله لآدم: يا آدم ما حملك على أن أكلت من الشجرة الّتي نهيتك عنها؟ قال: يا ربّ زيّنته لي حوّاء! قال: فإنّي عاقبتها بأن لاتحمل إلّا كُرهاً ولا تضع إلّا كُرهاً، ودمّيتها في كلّ شهر مرّتين! قال: فرنّت حوّاء عند ذلك، فقيل لها: عليك الرنّة وعلى بناتك![٤].

---

(١) الطبري ١: ٣٤٠ / ٦٢٩؛ تاريخ الطبري ١: ٧٣. (٢) الطبري ١: ٣٣٩ / ٦٢٥؛ تاريخ الطبري ١: ٧٤ ـ ٧٥.

(٣) الدرّ ١: ١٣٢؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٨، رقم ٩٣٢٨؛ كنز العمّال ٩: ٤٠٨ / ٢٦٧٢٢.

(٤) الدرّ ١: ١٣٢؛ كتاب الرقّة والبكاء لابن أبي الدنيا: ٩٤ / ٣١٣؛ العظمة ٥: ١٥٨٣ ـ ١٥٨٤ / ١٠٤٨، باب ٤٥ (خلق آدم

←

قال القرطبي: وقيل لحوّاء: كما أدميتِ الشجرة فكـذلك يـصيبك الدم كـلّ شـهر وتـحملين وتضعين كرهاً تشرفين به على الموت مراراً. وزاد النقّاش: وتكونين سفيهة وقد كنتِ حليمة.

قال: وقالت طائفة: إنّ إبليس لم يدخل الجنّة وإنّما أغوى آدم وحوّاء بوساوسه من بعيد.

قال: ولمّا أكل آدم من الشجرة بقي عرياناً وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكّتته بالمعصية فرحمته شجرة التين. فبُلي بالعرى.

قال: ويذكر أنّ الحيّة كانت خادم آدم في الجنّة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلمّا أهبطوا تأكّدت العداوة وجُعل رزقها التراب.

[١٢٦٣/٢] وروى عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ: «خمس يقتلهنّ المحرم» فذكر الحيّة فيهنّ.

[١٢٦٤/٢] وروى أنّ إبليس قال لها: أدخليني الجنّة وأنت في ذمّتي. فكان ابن عبّاس يقول: أخفروا ذمّة إبليس، أي انقضوا عهده وذمامه.

[١٢٦٥/٢] وروت ساكنة بنت الجَعْد عن سرّاء بنت نبهان الغنويّة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقتلوا الحيّات صغيرها وكبيرها وأسودها وأبيضها، فإنّ من قتلها كانت له فداء من النار، ومن قتلته كان شهيداً».

قال القرطبي: قال علماؤنا: وإنّما كانت له فداءً من النار، لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده. فلذلك كان من قتل حيّة فكأنّما قتل كافراً.

[١٢٦٦/٢] وقد قال ﷺ: «لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً». أخرجه مسلم(١) وغيره(٢).

[١٢٦٧/٢] وقد أغرب ابن عطيّة هنا كلاماً لا مساغ له قال: قال ابن المسيَّب: إنّما أكل آدم بعد أن سقته حوّاء الخمر فكان في غير عقله(٣).

← وحوّاء ﷺ)؛ الحاكم ٢: ٣٨١، كتاب التفسير، سورة طه؛ الشعب ٥: ٦٤ / ٥٧٩٠، باب المطاعم والمشارب، فصل في طيب المطعم والملبس؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٨، رقم ٩٣٢٨؛ البغوي ١: ١٠٦؛ الوسيط ١: ١٢٣.

(١) مسلم ٦: ٤٠. (٢) القرطبي ١: ٣١٣ـ٣١٤.

(٣) المحرّر الوجيز ١: ١٢٩. وهكذا روى ابن جرير ١: ٣٣٩ / ٦٢٦، وتاريخ الطبري ١: ٥٧. والبغوي ١: ٣٠٦، بلفظ: وكان سعيدبن المسيّب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل، ولكن حوّاء سقته الخمر حتّى إذا سكر قادته إليها فأكل. وهكذا روى الثعلبي (١: ١٨٣) عن طريق محمّدبن إسحاق بالإسناد إلى سعيد بن المسيّب مثله.

قلت: يا لله والقول بلا تعقّل!

قال الشيخ أبوجعفر الطوسي ـ بعد نقل الرواية عن سعيدبن المسيّب ـ: «هذا خبر ضعيف. وعند أصحابنا الإماميّة أنّ الخمرة كانت محرّمة في سائر الشرائع»[١].

وهكذا ذكر الشيخ أبو الفتوح الرازي ـ في تفسيره ـ: هذا قول لايصحّ[٢].

قال ابن كثير: وقد ذكر المفسّرون ـ ممّن اعتمد الأثر وأغفل النظر ـ عن السلف كالسدّي وأبي العالية ووهب بن منبّه وغيرهم، هنا أخباراً إسرائيليّة عن قصّة الحيّة وإبليس وكيف جرى من دخول إبليس الجنّة و وسوسته. قال: وسنبسّط القول في ذلك إن شاء الله في سورة الأعراف[٣].

[١٢٦٨/٢] وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَزِ اللّحم[٤]، ولولا حوّاء لم تخن أنثى زوجها»[٥].

[١٢٦٩/٢] وأخرج البيهقي في الدلائل والخطيب في التاريخ والديلمي في مسند الفردوس وابن عساكر عن عبدالله بن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضّلت على آدم بخصلتين: كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه حتّى أسلم، وكان أزواجي عوناً لي. وكان شيطانُ آدم كافراً، وكانت زوجته عوناً له على الخطيئة».

وأخرج ابن عساكر في حديث أبي هريرة مرفوعاً، مثله[٦].

[١٢٧٠/٢] وأخرج ابن عساكر عن عبدالرحمان بن زيد: أنّ آدم ذكر محمّداً رسول الله ﷺ فقال: إنّ أفضل ما فُضّل به عليّ ابني صاحب البعير أنّ زوجته كانت عوناً له على دينه وكانت زوجتي

---

(١) التبيان ١: ١٦٢.

(٢) أبوالفتوح ١: ٢٢٣.

(٣) ابن كثير ١: ٨٣.

(٤) خَنَزَ اللحمُ: أنتن.

(٥) الدرّ ١: ١٣٢؛ البخاري ٤: ١٠٣، كتاب الأنبياء باب ١؛ الحاكم ٤: ١٧٥، كتاب البرّ والصلة؛ مسلم ٤: ١٧٩، باب الوصيّة بالنساء، وفيه: «لم يَخْبُث الطعام ولم يَخْنَزِ اللّحم. ولولا حوّاء لم تَخُن أنثى زوجها الدهر»؛ ابن حِبّان ٩: ٤٧٧ / ٤١٦٩، كتاب النكاح، باب ٨ (معاشرة الزوجين)، وفيه: «لم يخنز الطعام ولم يخنز اللحم»؛ كنزالعمّال ١٦: ٢٨٦ / ٤٤٥٠٠.

(٦) الدرّ ١: ١٣٢ ـ ١٣٣؛ الدلائل ٥: ٤٨٨، باب: ما جاء في تحدّث رسول الله ﷺ بنعمة ربّه؛ تاريخ بغداد ٤: ١٠١ / ١٧٥٣؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٨، رقم ٩٣٢٨ (حوّاء أمّ البشر)؛ كنزالعمّال ١١: ٤١٣ / ٣١٩٣٦؛ فردوس الأخبار ٣: ١٦٩ ـ ١٧٠ / ٤٣٠٨.

عوناً لي على الخطيئة[١].

[١٢٧١/٢] وأخرج سفيان بن عيينة وعبدالرزّاق وابن المنذر وابن عساكر في تاريخه عن ابن عبّاس قال: كانت الشجرة الّتي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة، فلمّا أكلا منها ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ وكان الّذي وارى عنهما من سوآتهما أظفارُهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم مولّياً في الجنّة، فأخذت برأسه شجرة من شجر الجنّة، فناداه ربُّه: يا آدم أمنّي تفرّ؟ قال: لا، ولكنّي استحيتك يا ربّ! قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنّة وأبحتك منها مندوحة عمّا حرّمت عليك؟! قال: بلى يا ربّ ولكن ـ وعزّتك ـ ما حسبت أنّ أحداً يحلف بك كاذباً! قال: فبعزّتي لأهبطنّك إلى الأرض، ثمّ لاتنال العيش إلّا كدّاً. فاهبطا من الجنّة، وكانا يأكلان منها رغداً. فأهبط إلى غير رغد من طعام ولا شراب، فعُلِّم صنعة الحديد، وأُمر بالحرث فحرث وزرع، ثمّ سقى حتّى إذا بلغ حصد ثمّ داسه ثمّ ذرّاه ثمّ طحنه ثمّ عجنه ثمّ خبزه ثمّ أكله، فلم يبلغه حتّى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ[٢].

[١٢٧٢/٢] وأخرج ابن اسحاق في المبتدا وابن سعد وأحمد وعبدبن حميد وابن أبي الدنيا في التوبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن أُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ آدم كان رجلاً طُوالاً كأنّه نخلة سحوق، ستّين ذراعاً، كثير شعر الرأس. فلمّا ركب الخطيئة بدت له عورته، وكان لا يراها قبل ذلك[٣]. فانطلق هارباً في الجنّة، فتعلّقت به شجرة فأخذت بناصيته، فقال لها: أرسليني قالت: لست بمرسلتك وناداه ربّه: يا آدم أمنّي تفرّ؟ قال: يا ربّ إنّي استحييتك! قال: يا آدم اخرج من جواري، فبعزّتي لا أساكن من عصاني، ولو خلقت ملء الأرض مثلك خلقاً ثمّ عصوني لأسكنتهم دار العاصين. قال آدم: أرأيت إن أنا تُبت ورجعت أتتوب عليّ؟ قال: نعم. يا آدم».

---

(١) الدرّ ١: ١٣٢؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٨، رقم ٩٣٢٨.

(٢) الدرّ ١: ١٣١؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٣، رقم ٥٧٨؛ الطبري ٥: ١٨٧ـ١٨٨ / ١١١٩٨، سورة الأعراف، الآية ٢٢؛ ابن كثير ٢: ٢١٥، سورة الأعراف، الآية ٢٢.

(٣) هذا من مزعومات أهل الكتاب إذ معناه: أنّه لم يكن يشعر بذلك من ذي قبلُ! وهكذا ما يأتي في الحديث التالي: «وكان لا يراها».

وأخرج ابن عساكر من حديث أنس، مثله[١].

[١٢٧٣/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة قال: ابتلى الله آدم فأسكنه الجنّة ليأكل منها رغداً حيث شاء ونهاه عن شجرةٍ واحدة أن يأكل منها، وقدّم إليه فيها. فما زال به البلاء حتّى وقع بما نُهي عنه، فبدت له سوأته عند ذلك، وكان لايراها[٢] فأُهبط من الجنّة[٣].

[١٢٧٤/٢] وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عن مجاهد قال: أوحى الله إلى الملكين: أخرجا آدم وحوّاء من جواري فإنّهما عصياني، فالتفت آدم إلى حوّاء باكياً وقال: استعدّي للخروج من جوار الله، هذا أوّل شؤم المعصية، فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحلّ ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلّق به غصن. فظنّ آدم أنّه قد عُوجل بالعقوبة، فنكّس رأسه يقول: العفو العفو! فقال الله: فراراً منّي؟ فقال: بل حياءً منك يا سيّدي[٤].

[١٢٧٥/٢] وقال شهر بن حوشب: بلغني أنّ آدم لمّا أُهبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله تعالى[٥].

كم لبث آدم في الجنّة؟

[١٢٧٦/٢] أخرج أحمد في الزهد عن سعيد بن جبير قال: ما كان آدمﷺ في الجنّة إلّا مقدار ما بين الظهر والعصر[٦].

[١٢٧٧/٢] وأخرج عبدبن حميد والحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس قال: ما سكن آدم الجنّة إلّا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس[٧].

---

(١) الدرّ ١: ١٣٢؛ الطبقات الكبرى ١: ٣١؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٧ـ٨٨ / ٣٨٨ـ٣٨٩؛ الحاكم ٢: ٢٦٢؛ البعث والنشور: ١٣٩ / ١٧٥؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٤؛ ابن كثير ١: ٨٣ـ٨٤؛ أبو الفتوح ١: ٢٢٣.

(٢) هذا كالحديث المتقدّم من مزعومات أهل التوراة.

(٣) الدرّ ١: ١٣٠؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٠، رقم ٥٧٨.

(٤) الدرّ ١: ١٤١؛ الحلية ٥: ١١٣، باب ٣٠٠ (عمرو بن ذرّ)؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٩.

(٥) الثعلبي ١: ١٨٥؛ البغوي ١: ١٠٨؛ أبو الفتوح ١: ٢٢٨ـ٢٢٩.

(٦) الدرّ ١: ١٢٧؛ كتاب الزهد: ٩٥ / ٢٦٠.

(٧) الدرّ ١: ١٢٧؛ الحاكم ٢: ٥٤٢، كتاب تواريخ المتقدّمين؛ ابن كثير ١: ٨٤.

[١٢٧٨/٢] وأخرج مسلم والنسائي بالإسناد إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنّة، وفيه أُخرج منها»(١).

[١٢٧٩/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى أبي لُبابة بن عبد المنذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الجمعة سيّد الأيّام،... خلق الله فيه آدم، وأُهبط فيه آدم إلى الأرض»(٢).

[١٢٨٠/٢] وأخرج عبدالرزّاق وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: خلق الله آدم من أديم الأرض يوم الجمعة بعد العصر فسمّاه آدم، ثمّ عهد إليه فنسي فسمّاه الإنسان. قال ابن عبّاس: فتالله ما غابت الشّمس من ذلك اليوم حتّى أُهبط من الجنّة إلى الأرض(٣).

[١٢٨١/٢] وأخرج الصدوق بإسناده إلى محمّد بن إسحاق عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن رسول الله ﷺ قال: «إنّما كان لبث آدم وحوّاء في الجنّة حتّى أُخرجا منها، سبع ساعات من أيّام الدنيا، حتّى أكلا من الشجرة فأهبطهما الله إلى الأرض من يومهما ذلك»(٤).

[١٢٨٢/٢] ورواه العيّاشي بنفس الإسناد إلى رسول الله ﷺ وزاد: «فحاجّ آدمُ ربَّه فقال: يا ربّ، أرأيتك قبل أن تخلقني كُنْتَ قَدَّرتَ عَلَيَّ هذا الذنب وكلّ ما صرتُ وأنا صائر إليه، أو هذا شيء فعلتُه أنا من قَبْل أَنْ تُقدِّره عَلَيّ، غَلَبت عليّ شقوتي فكان ذلك منّي وفعلي لا منك ولا من فعلك؟

قال الله له: يا آدم، أنا خلقتُك وعلّمتك، أنا زوّجتك وأسكنتك الجنّة، وبنعمتي جعلتُ فيك قوّتي، وبقوّتي قَوِيَتْ جوارحك على معصيتي، ولم تَغِبْ عن عيني ولم يخلُ علمي من فعلك ولا ممّا أنت فاعله.

(١) مسلم ٣: ٦، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة؛ النسائي ١: ٥١٧ / ١٦٦٢، باب ٥؛ ابن كثير ١: ٨٤.

(٢) الخصال: ٣١٥ـ٣١٦ / ٩٧؛ البحار ٨٦: ٢٦٧ـ٢٦٨ / ٥.

(٣) الدرّ ١: ١٢٧؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٦ / ٤٠؛ الأسماء والصفات، الجزء الثالث: ٥٤٤، باب: بدء الخلق، بلفظ: عن ابن عبّاس: قال: إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ خلق آدم يوم الجمعة بعد العصر من أديم الأرض فسمّي آدم، ألاترى أنّ من ولده الأبيض والأسود والطيّب والخبيث! ثمّ عهد إليه فنسي فسمّي الإنسان. قال: فوالله ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتّى أُهبط؛ ابن عساكر ٧: ٣٨٧.

(٤) الخصال: ٣٩٧ / ١٠٣ أبواب السبعة؛ البحار ١١: ١٤٢ / ١٠؛ البرهان ١: ١٨٤ / ٨؛ نورالثقلين ١: ٦٤؛ كنزالدقائق ١: ٣٧٠.

قال آدم: يا ربّ، الحجّة لك عَلَيَّ يا ربّ حين خلقتني وصوّرتني ونفخت فيّ من روحك وأسجدت لي ملائكتك ونوّهت باسمي في سماواتك... قال الله: لم أفعل ذلك إلّا برضيً منّي عليك، ابتليتُك بذلك.

قال آدم: يا ربّ، الخير منك والشرّ منّي»[١]

والحديث طويل يأتي عند الكلام عن توبة آدم عليه السلام.

* * *

وفي الروايات التالية ما ينافي الروايات المتقدمة:

[١٢٨٣/٢] أخرج الفريابي وأحمد في الزهد وعبدبن حميد وابن المنذر عن الحسن قال: لبث آدم في الجنّة ساعة من نهار. تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيّام الدنيا[٢].

[١٢٨٤/٢] وأخرج عبدالله في زوائده عن موسى بن عُقبة قال: مكث آدم في الجنّة ربع النهار، وذلك ساعتان ونصف، وذلك مائتا سنةٍ وخمسون سنةً. فبكى على الجنّة مائة سنة[٣].

[١٢٨٥/٢] وأخرج ابن سعد عن ابن عبّاس قال: خروج آدم من الجنّة بين الصلاتين: صلاة الظهر وصلاة العصر. فأُنزل إلى الأرض، وكان مكثه في الجنّة نصف يوم من أيّام الآخرة، وهو خمسمائة سنة من يوم كان مقداره اثنتي عشرة ساعة، واليوم ألف سنة ممّا يَعُدُّ أهل الدنيا[٤].

هل كانت خطيئة آدم بتقدير من الله؟

جاء في كثير من الروايات أنّ خطيئة آدم كانت بتقدير من الله، حيث خلقه ليكون خليفته في الأرض وليعمرها[٥] وفق إرادته تعالى.

نعم ماذا يكون المراد من التقدير؟ وليس سوى علمه تعالى الأزلي بما هو كائن، ومن غير أن يكون ذلك موجباً لسلب الاختيار عن العباد.

---

(١) العيّاشي ١: ٥٣ ـ ٥٤ / ٢١.

(٢) الدرّ ١: ١٢٧؛ الزهد: ٩٥ / ٢٥٨، (زهد آدم عليه السلام)؛ ابن كثير ١: ٨٤.

(٣) الدرّ ١: ١٢٧؛ ابن عساكر ٧: ٤١٧.

(٤) الدرّ ١: ١٣٩، للرواية ذيل طويل؛ الطبقات الكبرى ١: ٣٤.

(٥) قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود ١١: ٦١).

فقد كان تعالى خلق آدم ليكون خليفته في الأرض، وأسكنه جنّته مع علمه تعالى بأنّه سوف لايدوم فيها بسوء اختياره.

وفي حديث العيّاشي الآنف ما يشير إليه.

فما ورد ما يخالف ذلك لابدّ من تأويله إلى ما لاينافي الاختيار، تلك الميزة الاختصاصيّة المودعة في هذا الكائن العجيب!

وإليك ممّا ورد من هذا النمط:

[١٢٨٦/٢] أخرج أبو داوود والآجريّ في الشريعة والبيهقي في الأسماء والصفات عن عمربن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ موسى قال يا ربّ أرنا آدم الّذي أخرجنا ونفسه من الجنّة؟ فأراه الله آدم، فقال: أنت أبونا آدم؟ فقال له آدم: نعم. قال: أنت الّذي نفخ الله فيك من روحه وعلّمك الأسماء كلّها وأمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم. فقال: فما حملك على أن أخرجتنا من الجنّة؟ فقال له آدم: ومن أنت؟ قال: موسى. قال: أنت نبيّ بني إسرائيل الّذي كلّمك الله من وراء حجاب، لم‌يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم. قال: فما وجدتَ أنّ ذلك كان في كتاب الله قبل أن أُخلَق؟ قال: نعم. قال: فَلِمَ تلومني في شيء سبق فيه من الله القضاء قبلُ؟ قال رسول الله ﷺ عند ذلك: فحَجّ آدم موسى فحجّ آدم موسى»(١).

[١٢٨٧/٢] وأخرج عبد بن حميد في مسنده وابن مردويه عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى، فقال موسى: أنت خلقك الله بيده وأسكنك جنّته وأسجد لك ملائكته، فأخرجت ذرّيتك من الجنّة وأشقيتهم؟! فقال آدم: أنت موسى الّذي اصطفاك الله بكلامه ورسالاته، تلومني في شيء وَجَدْتَه قد قُدِّر عليّ قَبْلَ أنْ أُخلَق؟ فحجّ آدم موسى»(٢).

[١٢٨٨/٢] وأخرج البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم والآجري في الشريعة والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «تحاجّ آدم وموسى، فحجّ آدم موسى فقال موسى: أنت آدم الّذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنّة؟ فقال له آدم: أنت موسى الّذي أعطاه الله كلّ شيء واصطفاه برسالته؟! قال: نعم. قال:

---

(١) الدرّ ١: ١٣٣؛ أبو داوود ٢: ٤١٣ ـ ٤١٤ / ٤٧٠١، باب ١٠ (في القدر)؛ الأسماء والصفات، الجزء الثاني: ٣٠٥؛ كنزالعمّال ١: ١١٧ / ٥٤٩.

(٢) الدرّ ١: ١٣٣؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٢٩٥ / ٩٤٩.

فتلومُني على أمر قُدِّر عَلَيّ قبل أن أُخلق؟! فحجّ آدم موسى!»[١].

[١٢٨٩/٢] والحديث ـ كما في صحيح البخاري بلفظه[٢] ـ: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى لآدم: آنت الّذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنّة؟ قال آدم: آنت الّذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته كُتِبَ عَلَيَّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحجّ آدم موسى».

قوله: آنْت أي أأنت. فَخُفِّفَ بالإدغام المتحوّل إلى المدّ.

[١٢٩٠/٢] وأخرج ابن النجّار في تاريخه عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التقى آدم وموسى ﷺ فقال له موسى: أنت آدم الّذي خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وأدخلك جنّته، ثمّ أخرجتنا منها؟ فقال له آدم: أنت موسى الّذي اصطفاك الله برسالته، وقرّبك نجيّاً، وأنزل عليك التوراة؟ فأسألك بالذي أعطاك ذلك، بكم تجده كُتِبَ عليّ قبل أن أُخلَق؟ قال: أجده كُتب عليك في التوراة بألفي عام! فحجّ آدم موسى ثلاثاً»[٣].

[١٢٩١/٢] وأخرج أبوبكر الشافعي في الغيلانيّات عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى فقال موسى: أنت آدم الّذي خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته عملت الخطيئة الّتي أخرجتك من الجنّة؟ قال آدم: أنت موسى الّذي اصطفاك الله برسالته، وأنزل عليك التوراة، وكلّمك تكليماً، فبِكَم خطيئتي سبقت خلقي؟ قال رسول الله ﷺ: فحجّ آدم موسى»[٤].

[١٢٩٢/٢] وأخرج النسائي وأبويعلى والطبراني والآجريّ عن جندب البجليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت الّذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنّته، وفعلت ما فعلت فأخرجت وُلدك من الجنّة؟ فقال آدم:

---

(١) البخاري ٤: ١٣١، كتاب الأنبياء، باب ٣١، و ٥: ٢٣٩ ـ ٢٤٠، كتاب التفسير، سورة طه، و ٨: ٢٠٣، كتاب التوحيد، باب ٣٧؛ مسلم ٨: ٤٩ و ٥٠، كتاب القَدَر، باب حجاج آدم وموسى؛ أبو داوود ٢: ٤١٣ / ٤٧٠١، كتاب السنّة، باب ١٧ (في القَدَر)؛ الترمذي ٣: ٣٠٠ ـ ٣٠١ / ٢٢١٧، باب ٢، أبواب القَدَر؛ النسائي ٦: ٣٣٠ / ١١١٣٠، كتاب التفسير سورة النساء؛ ابن ماجة ١: ٣١ / ٨٠، باب ١٠، (في القَدَر).

(٢) البخاري ٥: ٢٣٩ ـ ٢٤٠، من كتاب التفسير، سورة طه.

(٣) الدرّ ١: ١٣٤؛ ذيل تاريخ بغداد ١: ٢٠٣ / رقم ٢٠٨؛ كنزالعمّال ١: ٣٥٩ / ١٥٩١.

(٤) الدرّ ١: ١٣٤؛ ابن عساكر ٥: ٤٥٨، رقم ٢٢٣ ترجمة أحمدبن محمّدبن المؤمّل.

أنت موسى الّذي بعثك الله برسالته، وكلّمك، وآتاك التوراة، وقرّبك نجيّاً؟ أنا أقدم أم الذكر؟ فقال رسول الله ﷺ: فحجّ آدم موسى»[١].

[١٢٩٣/٢] وأخرج الثعلبي عن همّام بن منبّه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «تحاجّ آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الّذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنّة إلى الأرض؟ فقال له آدم: أنت موسى الّذي أعطاك الله علم كلّ شيء واصطفاك على النّاس برسالته؟ قال: نعم. قال: أتلومني على أمر كان قد كُتب عليّ أن أفعله من قبل أن أُخلَق. قال: فحجّ آدم موسى»[٢].

[١٢٩٤/٢] وقال الحسن البصري: لم يخلق الله آدم إلّا للأرض، ولو لم يعص لأخرجه إلى الأرض على غير تلك الحال[٣]!

[١٢٩٥/٢] وروى العيّاشي بالإسناد إلى مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله ؑ رفعه إلى النبيّ ﷺ قال: «إنّ موسى سأل ربّه أن يجمع بينه وبين أبيه آدم. ففعل. فقال له موسى: يا آدم، أنت الّذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأباح لك جنّته، وأسكنك جواره، وكلّمك قُبُلاً! ثمّ نهاك عن شجرة واحدة فلم تصبر عنها، حتّى أُهبطت إلى الأرض بسببها، فلم تستطع أن تضبط نفسك عنها حتّى أغراك إبليس فأطعته. فأنت الّذي أخرجتنا من الجنّة بمعصيتك!

فقال له آدم: ارفق بأبيك ـ أي بُنَيّ ـ فيما لقي في أمر هذه الشجرة، أي بُنَيّ إنّ عدوّي أتاني من وجه المكر والخديعة فحلف لي بالله إنّه في مشورته عَلَيَّ إنّه لمن الناصحين... ولم أظنّ ـ يا موسى ـ أنّ أحداً يحلف بالله كاذباً فوثقت بيمينه، فهذا عذري.

ثمّ قال: أخبرني يا بُنَيّ هل تجد فيما أُنزل إليك أنّ خطيئتي كائنة، من قبل أن أُخلق؟ قال موسى: بدهر طويل!!

قال رسول الله ﷺ: فحجّ آدم موسى! قال ذلك ثلاثاً»[٤].

[١٢٩٦/٢] وهكذا روى عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عُمَير عن ابن مسكان عن أبي

---

(١) الدرّ ١: ١٣٣ ـ ١٣٤؛ النسائي ٦: ٣٩٤ / ١١٣١٨، كتاب التفسير، سورة مريم؛ أبو يعلى ٣: ٩٨ / ١٥٢٨، باختلاف.

(٢) الثعلبي ١: ١٨٤؛ المصنّف لعبد الرزّاق ١١ / ١١٣ / ٢٠٠٦٨.

(٣) مجمع البيان ١: ١٧٦؛ التبيان ١: ١٧٢؛ أبوالفتوح ١: ٢٢٣.

(٤) البحار ١١: ١٨٨ / ٤٤؛ العيّاشي ١: ١٠ / ١٠ ذيل الآية: ٢٠ ـ ٢١ من سورة الأعراف.

عبدالله ﷺ قال: «إنّ موسى سأل ربّه أن يجمع بينه وبين آدم، فجمع بينهما، فقال له موسى: يا أبه، ألم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، وأمرك أن لا تأكل من الشجرة، فَلِمَ عصيته؟ قال آدم: يا موسى، بكم وجدت خطيئتي قبل خلقي في التوراة؟ قال: بثلاثين ألف عام! قال آدم: فهو ذلك!!

قال الصادق: فحجّ آدمُ موسىٰ ﷺ»[1].

[١٢٩٧/٢] وأيضاً روى عن أبي عبدالله ﷺ قال: «لمّا أخرج آدم من الجنّة نزل جبرئيل فقال: يا آدم، أليس الله خلقك بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وزوّجك حوّاء أمته وأسكنك الجنّة وأباحها لك، ونهاك مشافهة أن لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها وعصيت الله؟!

فقال آدم يا جبرئيل، إنّ إبليس حلف لي بالله إنّه لي ناصح، فما ظننت أنّ أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً!».[2]

ملحوظة

قال المجلسي ﷺ: مِنْ أصحابنا مَنْ حمل هذه الأخبار على إرادة المجاراة مع الشائع في الأوساط العامّيّة، ولعلّه لبيان فضح مزاعمهم في مسألة القضاء والقدر، حيث رووا أمثال هذه الحكايات تأييداً لمذهبهم في القدَر، على ما ذكره السيّد ابن طاووس في كتاب «الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف».

وقد أنكر السيّد صدور مثل هذا الكلام المتناقض صدرُه مع ذيله، من رسول البيان الصادع بالحقّ الصراح؛ إذ لو كان الفعل الصادر من العبد فعلاً لله وواقعاً بإرادته الغالبة، لم يكن مجال لمعاتبة آدم في بادرة بدرت منه لا عن إرادته واختياره بالذات، وإنّما هو بتقدير أزليّ قديم!!

فقد كانت مطالبة موسى ربّه أن يجمع بينه وبين أبيه آدم، لغرض معاتبته على ارتكاب الخطيئة، كانت هذه المطالبة منبعثة عن عقيدة تحمّل العبد مسؤوليّة فِعَاله. الأمر الّذي يتناقض مع قوله ﷺ: «فحجّ آدم موسى» أي غلبه في المحاجّة. وإنّما يكون غلبه إذا كانت التقادير الأزليّة هي

---

(١) البحار ١١: ١٦٣/ ٦؛ القمي ١: ٤٤. وراجع البحار ٥: ٨٩/ ٨، باب القضاء والقدر.

(٢) البحار ٥: ٨٩/ ٧؛ القمي ١: ٢٢٥ و ٤٣ ـ ٤٤.

المؤثّرة عبر الوجود، لا إرادة الفاعلين.

إن هذا إلّا تناقض فـاضح!! أللـهمّ إلّا أن نـقول: إنّ مـوسى رجـع عـن عـقيدته فـي مسألة «الاستطاعة والاختيار» وعاد إلى مذهب أبيه آدم في الجبر وسلب مسؤوليّة العباد فيما يجتاحون. وهذا أفضح!

الأمر الذي يوهن نسبته إلى النبيّ الكريم وحاشاه ﷺ[1].

إرادة تشريع وإرادة تكوين

هناك روايات وردت بشأن خطيئة آدم عليه السلام جعلت من إرادة الله ـ تعالى ـ نوعين: إرادة حتم، هي تشريعيّة: وإرادة عزم، هي تكوينيّة! الأمر الّذي دار البحث حوله منذ عهد قديم.

[١٢٩٨/٢] روى أبوجعفر الصدوق بإسناده إلى الفتح بن يزيد الجرجاني قال: لقيت أباالحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عند منصرفه من مكّة إلى خراسان وهو سائر إلى العراق، فسمعته يـقول: «من اتّقى الله يُتّقى ومن أطاع الله يُطاع».

فتلطّفت في الوصول إليه فسلّمت... وكان بـينهما مســائل مـنها مسألة إرادة الله فـي الخـلق والتكليف، فقال: «يا فتح، إنّ لله إرادتين ومشيئتين، إرادة حتم وإرادة عزم: ينهى وهو يشاء، ويأمر وهو لايشاء. أو ما رأيت أنّه نهى آدم وزوجه أن يأكلا من الشجرة، وهو شـاء ذلك، ولولم يشأ لم يأكلا، ولو أكلا (أي مع عدم مشيئته تعالى) لغلبت مشيّتهما مشيّة الله. وأمر إبـراهـيم بـذبح ابـنه إسماعيل، وشاء أن لايذبحه، ولو لم يشأ أن لايذبحه لغلبت مشيّة إبراهيم مشيّة الله»[2].

[١٢٩٩/٢] ورواه الكليني عن شيخه عليّ بن إبراهيم عن المختار بن محمّد الهَمْداني ومحمّد بن الحسن عن عبدالله بن الحسن العلوي جميعاً عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام قال: «إنّ لله إرادتين ومشيّتين، إرادة حتم وإرادة عزم، ينهى وهو يشاء، ويأمرو هو لايشاء، أو ما رأيت أنّه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك، ولولم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيّتهما مشيّة الله،

(١) راجع: الطرائف لرضيّ الدين أبي القاسم ابن طاووس: ٣٢٤ـ٣٢٦ والبحار ٥: ٨٩ / ٨.

(٢) التوحيد: ٦٤ / ١٨ والحديث طويل؛ البحار ٤: ١٣٩ / ٥.

وأمر إبراهيم أن يذبح إسماعيل ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشيّة إبراهيم مشيّة الله»[١].

[١٣٠٠/٢] وأيضاً عنه عن أبيه عن عليّ بن معبد عن واصل بن سليمان عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: «أمر الله ولم يشأ وشاء ولم يأمر، أمر إبليس أن يسجد لآدم وشاء أن لا يسجد، ولو شاء لسجد، ونهى آدم عن أكل الشجرة وشاء أن يأكل منها، ولولم يشأ لم يأكل»[٢].

* * *

قال سيّدنا العلّامة الطباطبائي: في هذه الروايات تقسيم للإرادة إلى تشريعيّة و تكـوينيّة[٣]. فالتشريعيّة هي أوامره تعالى ونواهيه لعباده لغرض الطاعة. وأمّا التكوينيّة فـهو إذنـه تـعالى فـي التحقّق والوجود. فقد يأمر ولا يأذن، فهذا لايتحقّق وجوداً، وإن كان العبد مأموراً بإتيانه، كما في قصّة الذبيح، أمر الله نبيّه إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل، لكنّه تعالى لم يأذن في تحقّقه فلم يقع.

وهذا غالباً مّا يكون في الأوامر الامتحانيّة، حيث المصلحة ملحوظة في إنشاء الطلب محضاً لا في تحقّق المطلوب عيناً.

وهكذا الأمر بشأن خطيئة آدم، نهاه عن تناول الشجرة ـ امتحاناً لعزيمته في الإيفاء بالعهد ـ مع علمه تعالى بأنّه سوف يزلّ وينسى عهده، ومن ثمّ سرّح جانبه بأن أطلق يده في تناول الشجرة. فقد أذن في وقوع الخطيئة ولم يمنع من تحقّقها، حيث المجال كان مجال الاختبار، ولايمكن إلّا بإطلاق السراح.

فهناك لله إرادتان: إرادة حتم، هي تكاليفه. وإرادة عزم، هي مشيئته في التكوين. قـال تـعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[٤] أي وما تشاؤون فعل شيء إلّا أن يأذن الله.. ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾[٥].

---

(١) الكافي ١: ١٥١ / ٤، كتاب التوحيد، باب المشيّة والإرادة؛ نورالثقلين ١: ٦٢؛ البرهان ١: ١٨٤ / ١٠.

(٢) الكافي ١: ١٥٠ ـ ١٥١ / ٣.

(٣) هامش البحار ٤: ١٤٠ / ١. وراجع تعليقه عـلى الكـافي (١: ١٥١) عـبّر عـن الإرادة التشـريعيّة بـالاعتباريّة، وعـن التكوينيّة بالحقيقيّة. حيث التشريع جعل اعتباري أي فرض اعتبار محض. أمّا التكوين فهو إيجاده في العين أي الحقيقة العينيّة الخارجيّة.

(٤) الإنسان ٧٦: ٣٠.

(٥) البقرة ٢: ١٠٢.

قال أبو جعفر الصدوق: إنّ الله نهى آدم وزوجه عن تناول الشجرة وقد علم أنّهما يتناولانها، وشاء أن لايحول بينهما وبين تناولها بالإجبار وسلب الاختيار. لكنّه تعالى منعهما منع زجر وتحذير لغرض الاختبار[١].

قال العلّامة المجلسي: إنّه تعالى لمّا لم يصرف آدم وحوّاء عن تناول الشجرة، فقد وكلهما إلى اختيارها، لمصالح في الخلق والتدبير. وقد عُبّر عن هذا الإيكال بالمشيئة، فكأنّه تعالى شاء أن تقع الخطيئة أي أذن في تحققها[٢].

وللسيّد عبدالله شُبّر ـ هنا ـ بيان مستوفٍ بجوانب البحث جاء فيه: تفسير المشيئة بـالعلم. و بذلك فسّر قوله عليه السلام[٣]: «أمر الله ولم يشأ، وشاء ولم يأمر. أمر إبليس أن يسجد لآدم وشاء أن لايسجد». أي علم أنّه لا يسجد.

وكذا قوله: «ونهى آدم عن تناول الشجرة وشاء أن يأكل منها». أي علم أنّه يتناولها.

وأيّد ذلك:

[١٣٠١/٢] بما رواه ابن بابويه والد الصدوق في الفقه الرضوي، حيث قوله عليه السلام: «قد شاء الله من عباده المعصية وما أراد. وشاء الطاعة وأراد منهم». أي علم منهم المعصية وما أرادها[٤]. والطاعة علمها وأرادها.

فهو تعالى يعلم أزلاً طاعات عباده أبداً وهو يريدها منهم. ويعلم معاصيهم وهو لايريدها أي لايرضاها: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[٥].

وقد أجاد عليه السلام في هذا المجال بما يدفع شبهة الجبر والقول بالقدر[٦].

غير أنّ تفسيرنا للمشيئة ـ هنا ـ بالإذن كان أوفق بتعبير النصّ. فتدبّر!

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

من المخاطب بخطاب الجمع؟

---

(١) هامش البحار ٤: ١٣٩ / ٣.

(٢) البحار ٤: ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٣) في الحديث المتقدم عن الكافي ١: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٤) فقه الرضا عليه السلام: ٤١٠، باب ١١٩.

(٥) الزمر ٣٩: ٧.

(٦) راجع: مصابيح أنواره ١: ٨٨ ـ ٩٣.

المخاطب ـ هنا ـ آدم وحوّاء وذرّيّتهما، باعتبارهما رأساً للجميع. حيث المخاطب في الحقيقة هم بنو الإنسان وقد خلقوا للأرض وفي الأرض وليعمروا الأرض. ويدلّ على ذلك تفريعات جاءت في ذيل الآية:

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ[١] وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٢].

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣].

وقد تكلّمنا عن موارد من لغة العرب والقرآن جاء فيها الجمع مراداً به الاثنان، باعتباره جمعاً بينهما، أو الاثنان فما فوق، عرفاً شائعاً[٤].

وفي الأخبار بيانٌ من وجوه أُخر:

[١٣٠٢/٢] أخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: آدم وحوّاء وإبليس والحيّة![٥]

[١٣٠٣/٢] وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: آدم والحيّة والشيطان[٦].

[١٣٠٤/٢] وأخرج ابن جرير بالإسناد إلى مجاهد قال: آدم وذرّيّته، وإبليس وذرّيّته[٧].

[١٣٠٥/٢] وأخرج ابن جرير عن السّدّي في قوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: فلعن الحيّة وقطع قوائمها وتركها تمشي على بطنها، وجعل رزقها من التراب. وأُهبط إلى الأرض آدم وحوّاء

---

(١) ولعلّه من حيث افتتن آدم بحوّاء فغرّته بتسويلها، حسبما جاءت في الروايات. وهكذا سائر بني آدم بعضهم لبعض عدوّ.

(٢) إنّما كانت الأرض مستقرّ بني الإنسان لا الملك ولا الجنّ.

(٣) هذا التبشير والإنذار إنّما توجّه إلى بني الإنسان وحدهم لا إبليس وذرّيّته.

(٤) راجع كتابنا: «شبهات وردود» (الجزء السابع من التمهيد: ٤٢٧ ـ ٤٣٢).

(٥) الدرّ ١: ١٣٤؛ الطبري ١: ٣٤٤ / ٦٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٩ و ٩٠ / ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٠٣؛ القرطبي ١: ٣١٩.

(٦) الدرّ ١: ١٣٤؛ الطبري ١: ٣٤٣ / ٦٣٣، بلفظ: «قال: آدم وإبليس والحيّة. وفي رواية بلفظ: آدم وإبليس والحيّة ذرّيّة بعضهم أعداء بعض»؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٤، رقم ٥٧٨. (٧) الطبري ١: ٣٤٣ / بعد حديث ٦٣٣.

وإبليس والحيّة[١].

[١٣٠٦/٢] وأخرج أبو الشيخ عن قتادة عن أبي صالح في قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ قال: آدم، وحوّاء، وإبليس والحيّة[٢].

[١٣٠٧/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة قال: يعني آدم، وحوّاء، وإبليس[٣].

[١٣٠٨/٢] وقال الحسن: آدم وحوّاء والوسوسة[٤].

[١٣٠٩/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال: يعني إبليس وآدم[٥].

[١٣١٠/٢] وعن عبدالرحمان بن زيد قال: ذلك خطاب لهما ولذرّيّتهما[٦].

[١٣١١/٢] وقال مجاهد والحسن: بنو آدم وبنو إبليس[٧].

* * *

[١٣١٢/٢] وأخرج ابن عساكر عن عبدالعزيز بن عُميرة قال: قال الله لآدم: اخرج من جواري، وعزّتي لايجاورني في داري من عصاني، يا جبريل أخرجه إخراجاً غير عنيف. فأخذ بيده يُخرجه[٨].

[١٣١٣/٢] وأخرج عن قتادة قال: لمّا أهبط الله آدم إلى الأرض قيل له: لن تأكل الخبز بالزيت حتّى تعمل عملاً مثل الموت[٩]. أي في مشقّة دائبة.

[١٣١٤/٢] وأخرج عن مجاهد قال: إنّ الله لمّا أُهبط آدم وحوّاء قال: اهبطوا إلى الأرض، فلدوا للموت وابنوا للخراب[١٠].

[١٣١٥/٢] وأخرج ابن المبارك في الزهد عن مجاهد قال: لمّا أُهبط آدم إلى الأرض قال له ربّه ـ ﷻ ـ: ابن للخراب و لد للفناء[١١].

---

(١) الطبري ١: ٣٤٣/ ٦٣٢ و ٥: ١٩٠/ ١١٢٠٩.
(٢) الدرّ ١: ١٣٤؛ الطبري ١: ٣٤٣/ ٦٣١.
(٣) الدرّ ١: ١٣٤.
(٤) القرطبي ١: ٣١٩؛ التبيان ١: ١٦٤؛ مجمع البيان ١: ١٧٢.
(٥) الطبري ١: ٣٤٣/ ٦٣٤.
(٦) المصدر: ٣٤٤/ ٦٣٦.
(٧) القرطبي ١: ٣١٩؛ التبيان ١: ١٦٥؛ مجمع البيان ١: ١٧٣، كلاهما عن الحسن.
(٨) الدرّ ١: ١٣٢؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٦.
(٩) الدرّ ١: ١٤١؛ ابن عساكر ٧: ٤١١، رقم ٥٧٨.
(١٠) الدرّ ١: ١٤٢؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٧، رقم ٥٧٨.
(١١) الدرّ ١: ١٤٢؛ الزهد ١: ٨٧/ ٢٥٨.

أين أهبطا

[١٣١٦/٢] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: أُهبط آدم إلى أرض يقال لها دجناء[١] بين مكّة والطائف[٢].

[١٣١٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عمر قال: أُهبط آدم بالصفا وحوّاء بالمروة[٣].

[١٣١٨/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس. إنّ أوّل ما أهبط الله آدم إلى أرض الهند. وفي لفظ بدجناء أرض بالهند[٤].

[١٣١٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن الحسن قال: أُهبط آدم بالهند، وهبطت حوّاء بجدّة، وهبط إبليس بدست ميسان[٥] من البصرة على أميال، وهبطت الحيّة بأصبهان![٦]

[١٣٢٠/٢] وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: أُهبط آدم بالهند وحوّاء بجدّة، فجاء في طلبها حتّى أتى جمعاً، فازدلفت إليه حوّاء. فلذلك سمّيت «المزدلفة» واجتمعا بجمع فلذلك سمّيت «جمعا»[٧].

[١٣٢١/٢] وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل آدم ﷺ بالهند فاستوحش، فنزل جبريل فنادى بالأذان: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله، ـ مرّتين ـ أشهد أنّ محمّداً رسول الله ـ مرّتين ـ. فقال: ومن محمّد هذا؟ قال: هذا آخر ولدك من الأنبياء»[٨].

---

(١) قال ابن الأثير: وفي الحديث عن ابن عبّاس: «إنّ الله مسح ظهر آدم بدجناء». هو بالمدّ والقصر: اسم موضع. ويُروى بالحاء المهملة. والدجناء: تُرعة تُربّى فيها الدواجن جمع داجن: وهي الشاة تعلف وتسقى في حظيرتها. وهذا قريب من الحديث الآتي «دست مِيسان» معرّب «دشت مِيشان». دشت: التُرعة. ميشان ـ جمع ميش ـ المعز من الغنم.

(٢) الدرّ ١: ١٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٩ / ٣٩٤. ابن كثير ١: ٨٤.

(٣) الدرّ ١: ١٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٨ / ٣٩٢؛ ابن كثير ١: ٨٤.

(٤) الدرّ ١: ١٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٨ / ٣٩٣؛ الحاكم ٢: ٥٤٢، كتاب تواريخ المتقدّمين؛ ابن كثير ١: ٨٤.

(٥) دستُ ميسان: كورة جليلة بين واسط والبصرة والأهواز. وهو معرّب دشت ميشان. وقد سبق أنّه متوافق مع الدجناء: تُرعة تُربّى فيها الأغنام.

(٦) الدرّ ١: ١٣٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٩ / ٣٩٥. ابن كثير ١: ٨٤.

(٧) الدرّ ١: ١٣٥؛ الطبقات الكبرى ١: ٤٠؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٩.

(٨) الدرّ ١: ١٣٥؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٧؛ كنزالعمّال ١١: ٤٥٥ / ٣٢١٣٩.

[١٣٢٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال: قال الله ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ فهبطوا، فنزل آدم بالهند وأنزل معه الحجر الأسود وقبضةً من ورق الجنّة، فبثّه بالهند فنبتت شجرة الطيب، فإنّما أصل ما يجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق الّتي هبط بها آدم، وإنّما قبضها آدم حين أُخرج من الجنّة أسفاً على الجنّة حين أُخرج منها[١].

[١٣٢٣/٢] وأخرج سعيد بن منصور عن عطاء بن أبي رباح قال: هبط آدم بأرض الهند ومعه أعواد أربعة من أعواد الجنّة، وهي هذه الّتي تتطيّب بها الناس، وإنّه حجّ هذا البيت على بقرة[٢].

[١٣٢٤/٢] وأخرج ابن جرير والحاكم وصحّحه والبيهقي في البعث وابن عساكر عن ابن عبّاس: أطيب أرض في الأرض ريحاً أرض الهند، أُهبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنّة[٣].

[١٣٢٥/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن المنذر وابن عساكر عن جابر بن عبدالله قال: إنّ آدم لمّا أُهبط إلى الأرض هبط بالهند، وإنّ رأسه كان ينال السماء، وإنّ الأرض شكت إلى ربّها ثقل آدم، فوضع الجبّار تعالى يده على رأسه، فانحطّ منه سبعون ذراعاً، وهبط معه بالعجوة والأترنج والموز. فلمّا أُهبط قال: ربّ هذا الّذي جعلت بيني وبينه عداوة، إن لم تُعنّي عليه لا أقوى عليه! قال: لا يولد لك ولد إلّا وكّلت به ملكاً قال: ربّ زدني! قال: أُجازي بالسيّئة السيّئة، وبالحسنة عشر أمثالها إلى ما أزيد! قال: ربّ زدني! قال: باب التوبة له مفتوح مادام الروح في الجسد. قال إبليس: يا ربّ هذا الّذي أكرمته إن لم تُعنّي عليه لا أقوى عليه. قال: لا يولد له ولد إلّا وُلد لك ولد، قال: يا ربّ زدني، قال: تجري منه مجرى الدم، وتتّخذ في صدورهم بيوتاً، قال: ربّ زدني قال: ﴿وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ﴾[٤].[٥]

[١٣٢٦/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى أبي خديجة عن أبي عبدالله ﷺ قال: «إنّ آدم أُنزل، فنزل

---

(١) الدرّ ١: ١٣٩؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٩ / ٣٩٧؛ ابن كثير ١: ٨٤.

(٢) الدرّ ١: ١٣٦.

(٣) الدرّ ١: ١٣٥؛ تاريخ الطبري ١: ٨١؛ الحاكم ٢: ٥٤٢، كتاب تواريخ المتقدّمين؛ البعث والنشور: ١٤١ / ١٧٩ عن عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٨؛ كنزالعمّال ٦: ٦٩٣ / ١٧٤٤٤.

(٤) الإسراء ١٧: ٦٤.

(٥) الدرّ ١: ١٣٥ ـ ١٣٦؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٨ ـ ٤٣٩، رقم ٥٧٨، وليس فيه قوله: «وهبط معه بالعجوة والأترنج والموز».

في الهند»[١].

[١٣٢٧/٢] وجاء في مفروض مسائل الشاميّ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سأله عن أكرم وادٍ على وجه الأرض؟ فقال ـ حسب زعم الراوي ـ: وادٍ يقال له: «سرنديب»[٢] فيه سقط آدم من السماء[٣].

[١٣٢٨/٢] وروى الصدوق عن أبيه عن عليّ بن سليمان الزراريّ عن محمّد بن الحسين عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «سألته: كيف كان أوّل الطيب؟ فقال: ما يقول مَنْ قِبَلكُم فيه؟ قلت: يقولون: إنّ آدم لمّا هبط إلى أرض الهند فبكى على الجنّة فسالت دموعه فصارت عروقاً في الأرض، فصارت طيباً. فقال: ليس كما يقولون، ولكن حوّاء كانت تغلّفت قرونها من أطراف شجر الجنّة، فلمّا هبطت إلى الأرض وبُليت بالمعصية رأت الحيض، فأُمرت بالغُسل، فنفضت قرونها فبعث الله ريحاً طارت به، و خفضته فذرّت حيث شاء الله، فمن ذلك الطيب!».[٤]

[١٣٢٩/٢] وروى بإسناده إلى عليّ بن حسّان الواسطي عن بعض أصحابه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أُهبط الله آدم من الجنّة على الصفا وحوّاء على المروة، وقد كانت امتشطت في الجنّة، فلمّا صارت في الأرض قالت: ما أرجو من المشط وأنا مسخوط عليّ فحلّت مشطتها فانتشر من مشطها العِطْرُ الّذي كانت امتشطت به في الجنّة، فطارت به الريحُ فألقت أثره في الهند، فلذلك صار العِطْر بالهند!».

وفي حديث آخر: إنّها حلّت عقيصتها فأرسل الله على ما كان فيها من ذلك الطيب ريحاً فهبّت به في المشرق والمغرب![٥]

(١) نور الثقلين ١: ٦٥؛ علل الشرائع ٢: ٤٠٧ / ٢ باب ١٤٣؛ البحار ١١: ١٧٠ / ١٧؛ كنز الدقائق ١: ٣٧١.

(٢) هي جزيرة «سيلان» تقع جنوب شرقيّ الهند. وسمّاها العرب «سرنديب». عاصمتها «كولمبو». مساحتها (٦٥ / ٦٠٧ كم). فهي ليست بوادٍ وإنّما هي جزيرة! الأمر الّذي أغفله جاعل الحديث.

(٣) عيون الأخبار ١: ٢٢١ / ١؛ علل الشرايع ٢: ٥٩٥ / ٤٤؛ البحار ١١: ٢١٠ / ١٢.

(٤) نور الثقلين ١: ٦٥؛ علل الشرائع ٢: ٤٩٢ / ٢، باب ٢٤١ (علّة الطيب وسببه)؛ عيون الأخبار ١: ٢٥٩ / ٣٤؛ البحار ١١: ٢٠٥ / ٥.

(٥) علل الشرائع ٢: ٤٩١ ـ ٤٩٢ / ١، باب ٢٤١ (علّة الطيب وسببه)؛ الكافي ٦: ٥١٣ / ١، كتاب الزيّ والتجمّل والمروءة، باب أصل الطيب؛ البحار ١١: ٢٠٧ / ٨.

[٢ / ١٣٣٠] وروى العيّاشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام ـ رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل ـ قال: «كان لبث آدم وحوّاء في الجنّة سبع ساعات من أيّام الدنيا، حتّى أكلا من الشجرة فأهبطهما الله إلى الأرض من يومهما ذلك. فسألا ربّهما أن يهبطهما إلى أحبّ بقاع الأرض إليه. فأوحى الله إلى جبرئيل أن اهبطهما إلى البلدة المباركة مكّة. فهبط بهما جبرئيل وفرّق بينهما فجعل آدم على الصفا وحوّاء على المروة. فشكيا إلى الله وحشة الفراق، فرحمهما الله وأمر جبرئيل أن ينصب لهما خيمة من خيام الجنّة على التُرعة (الروضة) الّتي بين جبال مكّة، مكان البيت قبل أن ترفع قواعده. ونزلت ملائكة يحرسونهما من مردة الجنّ ويؤنسونهما»(١).

[٢ / ١٣٣١] وقال عليّ بن إبراهيم القمي: هبط آدم على الصفا، وإنّما سمّيت الصفا، لأنّ صفوة الله نزل عليها، ونزلت حوّاء على المروة، وإنّما سمّيت المروة لأنّ المرأة نزلت عليها(٢).

[٢ / ١٣٣٢] وروى الصدوق بإسناده إلى عبدالحميد بن أبي الديلم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سمّي الصفا صفا لأنّ المصطفى آدم هبط عليه، فقطع للجبل اسم من اسم آدم عليه السلام، وهبطت حوّا على المروة، وإنّما سمّيت المروة مروة لأنّ المرأة هبطت عليها فقطع للجبل اسم من اسم المرأة»(٣).

كيف أُهبط آدم؟

[٢ / ١٣٣٣] أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن عطاء: أنّ آدم لمّا أُهبط من الجنّة خرّ في موضع البيت ساجداً، فمكث أربعين سنة لا يرفع رأسه(٤).

[٢ / ١٣٣٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن رجاء بن أبي سَلَمة قال: أُهبط آدم، يداه على ركبتيه مطأطئاً رأسه، وأُهبط إبليس مشبّكاً بين أصابعه رافعاً رأسه!(٥).

[٢ / ١٣٣٥] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنّف عن حميد بن هلال قال: إنّما كره التخصّر في

(١) العيّاشي ١: ٥٣ / ٢١ بتلخيص؛ البحار ١١: ١٨٢ / ٣٦.

(٢) القمي ١: ٤٣ ـ ٤٤؛ البحار ١١: ١٦١.

(٣) نورالثقلين ١: ٦٤؛ علل الشرائع ٢: ٤٣١ ـ ٤٣٢ / ١؛ الكافي ٤: ١٩١ ـ ١٩٢ / ٢، باب حجّ آدم عليه السلام؛ البحار ١١: ٢٠٥ / ٦.

(٤) الدرّ ١: ١٤١؛ ابن عساكر ٧: ٤١٩.

(٥) الدرّ ١: ١٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٨ / ٣٩١؛ ابن كثير ١: ٨٤.

الصلاة، لأنّ إبليس أُهبط متخصّراً(١).

كم كان طول آدم وحوّاء عند الهبوط؟

[١٣٣٦/٢] أخرج الطبراني عن عبدالله بن عمر قال: لمّا أهبط الله آدم أهبطه بأرض الهند ومعه غرس من شجر الجنّة فغرسه بها، وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، وكان يسمع كلام الملائكة فكان ذلك يهوّن عليه وحدته، فغُمز غمزةً فتطأطأ إلى سبعين ذراعاً، فأنزل الله: إنّي مُنزل عليك بيتاً يطاف حوله كما تطوف الملائكة حول عرشي، ويُصلّى عنده كما تُصلّي الملائكة حول عرشي. فأقبل نحو البيت، فكان موضعُ كلّ قدم قريةً، وما بين قدميه مفازة، حتّى قدم مكّة فدخل من باب الصفا، وطاف بالبيت، وصلّى عنده، ثمّ خرج إلى الشام فمات بها(٢).

[١٣٣٧/٢] وأخرج ابن سعد عن ابن عبّاس قال: لمّا خلق الله آدم كان رأسه يمسّ السّماء، فوطده الله إلى الأرض(٣) حتّى صار ستّين ذراعاً في سبع أذرع عرضاً(٤).

[١٣٣٨/٢] وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن مجاهد قال: لمّا أُهبط آدم إلى الأرض فزعت الوحوش ومن في الأرض من طوله، فأُطِرَ منه سبعون ذراعاً(٥).

قال ابن الأثير: روي في صفة آدم: «أنّه كان طُوالاً فأَطَر الله منه» أي ثَنَّاه وقَصَره ونَقَص من طوله. يقال: أَطَرْتُ الشيء فانْأَطَرَ، أي انثنى(٦).

[١٣٣٩/٢] وروى الكليني عن شيخه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان قال: سألت أبا عبدالله ﷺ كم كان طول آدم حين هُبط به إلى الأرض وكم كان طول حوّاء؟ قال: «وجدنا في كتاب عليّ ﷺ: أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لمّا أهبط آدم و زوجه حوّاء ﷺ إلى الأرض كانت رجلاه بثنيّة الصفا ورأسه دون أُفق السماء، وأنّه شكا إلى الله ما يُصيبه من حرّ

---

(١) الدرّ ١: ١٣٥؛ المصنَّف ١: ٤٩٨ / ٨، باب ٢٦٥، كتاب الصلاة، باب الرجل يضع يده على خاصرته في الصلاة.

(٢) الدرّ ١: ١٣٦؛ مجمع الزوائد ٣: ٢٨٨، كتاب الحجّ، باب ما جاء في الكعبة، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير.

(٣) أي غمزه وضغطه عصراً.

(٤) الدرّ ١: ١٣٦؛ الطبقات الكبرى ١: ٣١؛ القرطبي ٦: ٣٨٨.

(٥) الدرّ ١: ١٣٦؛ العظمة ٥: ١٥٦٠ / ١٠٢٤، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء ﷺ).

(٦) النهاية ١: ٥٣، مادة «أطر».

الشمس، فأوحى الله إلى جبرئيل أنّ آدم قد شكا ما يُصيبه من حرّ الشمس، فأغمزه غمزةً وصيّر طوله سبعين ذراعاً بذراعه، وأغمز حوّاء غمزةً فصيّر طولها خمسة وثلاثين ذراعاً بذراعها»[١].

كم عاش آدم؟

[١٣٤٠/٢] روى عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كان عمر آدم من يوم خلقه الله إلى يوم قبضه تسعمائة وثلاثين سنة، ودُفن بمكّة. ونفخ فيه يوم الجمعة بعد الزوال، ثمّ برأ زوجته من أسفل أضلاعه وأسكنه جنّته من يومه ذلك، فما استقرّ فيها إلّا ستّ ساعاتٍ من يومه ذلك حتّى عصى الله وأخرجهما من الجنّة بعد غروب الشمس، فما بات فيها»[٢].

[١٣٤١/٢] وروى الصدوق «في خبر الشامي، سأل عليّاً عليه السلام: كم كان عمر آدم؟ قال: تسعمائة سنة وثلاثون سنة»[٣].

[١٣٤٢/٢] وروى بإسناده إلى محمّد بن جعفر عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «عاش أبو البشر آدم عليه السلام سبعمائة وثلاثين سنة»[٤].

موت آدم ودفنه

[١٣٤٣/٢] أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: أوّل من مات آدم عليه السلام![٥]

[١٣٤٤/٢] وأخرج ابن سعد والحاكم وابن مردويه عن أُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «لمّا حُضر آدم قال لبنيه: انطلقوا فاجنوا لي من ثمار الجنّة؛ فخرجوا، فاستقبلتهم الملائكة فقالوا: أين

(١) نورالثقلين ١: ٦٣؛ الكافي ٨: ٢٣٣ / ٣٠٨؛ البحار ١١: ١٢٦ـ١٢٧ / ٥٧.

(٢) البرهان ١: ١٩٤ / ٤؛ القمي ١: ٤٥؛ الصافي ١: ١٧٩.

(٣) نورالثقلين ١: ٧١؛ عيون الأخبار ١: ٢١٩ / ١، باب ٢٤ (ما جاء عن الرضا عليه السلام من خبر الشامي)؛ علل الشرائع ٢: ٥٩٤ / ٤٤؛ البحار ١٠: ٧٧ / ١؛ كنز الدقائق ١: ٣٩١.

(٤) نورالثقلين ١: ٧١؛ كمال الدين: ٥٢٣ / ٣، باب ٤٦ (ما جاء في التعمير)؛ البحار ١١: ٦٥ / ١٠؛ كنزالدقائق ١: ٣٩١ـ ٣٩٢.

(٥) الدرّ ١: ١٤٩؛ المصنّف ٨: ٣٥٣ / ٢٤٦، كتاب الأوائل، باب أوّل ما فُعل ومن فعله.

تريدون؟ قالوا: بعثنا أبونا لنجني له من ثمار الجنّة! فقالوا: ارجعوا فقد كُفيتم. فرجعوا معهم حتّى دخلوا على آدم. فلمّا رأتهم حوّاء ذُعرت منهم وجعلت تدنو إلى آدم وتلصق به، فقال آدم: إليك عنّي إليك عنّي، فمن قِبَلك أُتيتُ، خلّي بيني وبين ملائكة ربّي. قال: فقبضوا روحه ثمّ غسّلوه وحنّطوه وكفّنوه ثمّ صلّوا عليه ثمّ حفروا له ودفنوه، ثمّ قالوا: يا بني آدم، هذه سُنّتكم في موتاكم فكذلكم فافعلوا».

وأخرجه ابن أبي شيبة عن أُبيّ، موقوفاً[(١)].

[١٣٤٥/٢] وأخرج ابن عساكر عن أُبيّ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ آدم لمّا حضرته الوفاة أرسل الله إليه بكفن وحنوط من الجنّة، فلمّا رأت حوّاء الملائكة جزعت فقال: خلّي بيني وبين رسل ربّي، فما لقيت الّذي لقيت إلّا منك، ولا أصابني الّذي أصابني إلّا منك»[(٢)].

[١٣٤٦/٢] وأخرج ابن عساكر عن عطاء الخراساني قال: بكت الخلائق على آدم حين توفّي سبعة أيّام[(٣)].

[١٣٤٧/٢] وأخرج ابن عساكر عن ابن عبّاس قال: كان لآدم بنون: ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر. فكان أكبرهم يغوث فقال له: يا بُنيّ انطلق، فإن لقيت أحداً من الملائكة فمُره يجيئني بطعام من الجنّة وشراب من شرابها! فانطلق فلقي جبريل بالكعبة فسأله عن ذلك فقال: ارجع فإنّ أباك يموت. فرجعا فوجداه يجود بنفسه، فوليه جبريل فجاءه بكفن وحنوط وسدر، ثمّ قال: يا بني آدم أترون ما أصنع بأبيكم؟ فاصنعوه بموتاكم! فغسّلوه وكفّنوه وحنّطوه ثمّ حملوه إلى الكعبة فصلّى عليه جبريل فكبّر عليه أربعاً، ووضعوه ممّا يلي القبلة عند القبور ودفنوه في مسجد الخيف[(٤)].

[١٣٤٨/٢] وأخرج الدار قطني في سننه عن ابن عبّاس قال: صلّى جبريل على آدم وكبّر عليه أربعاً. صلّى جبريل بالملائكة يومئذ في مسجد الخيف، وأخذ من قبل القبلة، ولحد له، وسنّم قبره[(٥)].

---

(١) الدرّ ١: ١٤٩؛ الطبقات الكبرى ١: ٣٣ ـ ٣٤؛ الحاكم ١: ٣٤٤ ـ ٣٤٥، كتاب الجنائز؛ البيهقي ٣: ٤٠٤، كتاب الجنائز، باب قصّة آدم في مرض الموت؛ المصنّف ٣: ١٣٠ / ١٢، باب ١٣، كتاب الجنائز.

(٢) الدرّ ١: ١٤٩؛ ابن عساكر ٧: ٤٥٦، رقم ٥٧٨.

(٣) الدرّ ١: ١٥٠؛ ابن عساكر ٧: ٤٥٩، رقم ٥٧٨.

(٤) الدرّ ١: ١٤٩؛ ابن عساكر ٧: ٤٥٧ ـ ٤٥٨، رقم ٥٧٨.

(٥) الدرّ ١: ١٤٩؛ الدار قطني ٢: ٥٨، باب مكان قبر آدم ﷺ.

[١٣٤٩/٢] وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: قبر آدم عليه السلام بمنى في مسجد الخيف، وقبر حوّاء بجدّة(١).

[١٣٥٠/٢] وأخرج أبو نُعيم في الحِلية عن ابن عبّاس: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أُتي بجنازة فصلّى عليها وكبّر أربعا. وقال: «كبّرت الملائكة على آدم أربع تكبيرات»(٢).

[١٣٥١/٢] وأخرج ابن عساكر عن أُبيّ: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أُلحد آدم وغسّل بالماء وتراً. فقالت الملائكة: هذه سنّة ولد آدم من بعده»(٣).

[١٣٥٢/٢] وأخرج ابن عساكر عن عبدالله بن أبي فراس قال: قبر آدم في مفازة فيما بين بيت المقدس ومسجد إبراهيم، ورجلاه عند الصخرة، ورأسه عند مسجد إبراهيم. وبينهما ثمانية عشر ميلاً(٤).

[١٣٥٣/٢] وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن خالد بن معدان قال: أُهبط آدم بالهند وإنّه لمّا توفّي حمله خمسون ومائة رجل من بنيه إلى البيت المقدّس، وكان طوله ثلاثين ميلاً ودفنوه بها، وجعلوا رأسه عند الصخرة ورجليه خارجاً من بيت المقدس ثلاثين ميلاً!!(٥)

كنية آدم في الجنّة

وسوف يكنّى آدم ـ في الجنّة ـ بأبي محمّد، تشريفاً له بأكرم ذراريه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم:

[١٣٥٤/٢] أخرج أبو الشيخ في العظمة عن بكر بن عبدالله المزني قال: ليس أحد في الجنّة له كنية إلّا آدم، يكنّى أبا محمّد. أكرم الله بذلك محمداً صلى الله عليه وآله وسلم(٦).

[١٣٥٥/٢] وأخرج ابن عديّ والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عليّ عليه السلام قال: «قال

---

(١) الدرّ ١: ١٥١؛ العظمة ٥: ١٥٩٢ / ١٠٥٦، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء عليهما السلام).

(٢) الدرّ ١: ١٤٩؛ الحلية ٤: ٩٦، باب ٢٥١ (ميمون بن مهران).

(٣) الدرّ ١: ١٥٠؛ ابن عساكر ٧: ٤٥٥ ـ ٤٥٦، رقم ٥٧٨؛ كنزالعمّال ١٥: ٦٠٠ / ٤٢٣٧٨.

(٤) الدرّ ١: ١٥٠؛ ابن عساكر ٧: ٤٥٨، رقم ٤٧٨.

(٥) الدرّ ١: ١٥٠؛ العظمة ٥: ١٥٥٢ / ١٠١٣، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء عليهما السلام).

(٦) الدرّ ١: ١٥٠؛ العظمة ٥: ١٥٧٩ ـ ١٥٨٠ / ١٠٤٤، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء).

رسول الله ﷺ: أهل الجنّة ليست لهم كنى إلّا آدم فإنّه يكنّى أبا محمّد، تعظيماً وتوقيراً»(١).

[١٣٥٦/٢] وأخرج ابن عساكر عن غالب بن عبدالله العقيلي قال: كنية آدم في الدنيا أبو البشر، وفي الجنّة أبو محمّد(٢).

[١٣٥٧/٢] وأخرج ابن عساكر عن كعب قال: ليس أحد في الجنّة له لحية إلّا آدم له لحية سوداء إلى سرّته! وذلك أنّه لم يكن له في الدنيا لحية، وإنّما كانت اللحى بعد آدم(٣) وليس أحد يكنّى في الجنّة غير آدم، يكنّى فيها أبا محمّد(٤)!

[١٣٥٨/٢] وأخرج ابن عديّ في الكامل وأبو الشيخ في العظمة وابن عساكر عن جابر: أنّ النبي ﷺ قال: «ليس أحد من أهل الجنّة إلّا يدعى باسمه إلّا آدم فإنّه يكنّى أبا محمّد، وليس أحد من أهل الجنّة إلّا وهم جرد مرد إلّا ما كان من موسى بن عمران فإنّ لحيته تبلغ سرّته»!!(٥)

بدء التاريخ

[١٣٥٩/٢] أخرج ابن أبي خَيثَمة في تاريخه وابن عساكر عن الزهري والشعبي قالا: لمّا هبط آدم من الجنّة وانتشر ولده أرّخ بنوه من هبوط آدم، فكان ذلك التاريخ حتّى بعث الله نوحاً، فأرّخوا ببعث نوح حتّى كان الغرق، فكان التاريخ من الطوفان إلى نار إبراهيم، فأرّخ بنو إسحاق من نار إبراهيم إلى مبعث يوسف، ومن مبعث يوسف إلى مبعث موسى، ومن مبعث موسى إلى ملك سليمان، ومن ملك سليمان إلى مبعث عيسى، ومن مبعث عيسى إلى مبعث رسول الله ﷺ، وأرّخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم إلى بناء البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل. فكان التاريخ من بناء البيت حتّى تفرّقت مَعَدّ، فكان كلّما خرج قوم من تهامة أرّخوا مخرجهم حتّى مات كعب بن لؤي فأرّخوا من موته إلى الفيل، فكان التاريخ من الفيل حتّى أُرّخ على عهد عمر من الهجرة. وذلك سنة سبع

---

(١) الدرّ ١: ١٥٠؛ الكامل ٦: ٣٠٢؛ الدلائل ٥: ٤٨٩؛ ابن عساكر ٧: ٣٨٨، رقم ٥٧٨.

(٢) الدرّ ١: ١٥٠؛ ابن عساكر ٧: ٣٨٩، رقم ٥٧٨.

(٣) كلام صادر عن مجون!

(٤) الدرّ ١: ١٥٠؛ ابن عساكر ٧: ٣٨٨، رقم ٥٧٨.

(٥) الدرّ ١: ١٥٠؛ الكامل ٤: ٤٧ ـ ٤٨، باختلاف؛ العظمة ٥: ١٥٨٠ ـ ١٥٨١ / ١٠٤٥، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء ﷺ)؛ ابن عساكر ٧: ٣٨٨ ـ ٣٨٩، رقم ٥٧٨، باختلاف.

عشرة أو ثمان عشرة(١).

[١٣٦٠/٢] وأخرج ابن عساكر عن عبدالعزيز بن عمران قال: لم يزل للناس تاريخ كانوا يؤرّخون في الدهر الأوّل من هبوط آدم من الجنّة، فلم يزل ذلك حتّى بعث الله نوحاً، فأرّخوا من دعاء نوح على قومه، ثمّ أرّخوا من الطوفان، ثمّ أرّخوا من نار إبراهيم، ثمّ أرّخ بنو إسماعيل من بنيان الكعبة، ثمّ أرّخوا من موت كعب بن لؤي، ثمّ أرّخوا من عام الفيل، ثمّ أرّخ المسلمون بعد من هجرة رسول الله ﷺ(٢).

ما اصطحبه آدم عند الهبوط

[١٣٦١/٢] روى الصدوق بإسناده إلى ابن أبي عمير عمّن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لمّا أهبط الله آدم من الجنّة أهبط معه مائة وعشرين قضيباً، منها أربعون ما يؤكل داخلها وخارجها، وأربعون منها ما يؤكل داخلها ويرمى بخارجها، وأربعون منها ما يؤكل خارجها ويرمى بداخلها، وغِرارة فيها بذر كلّ شيء من النبات»(٣).

والغِرارة: الجُوالق ـ معرّب جُوال وهو العدل من صُوف أو شَعر.

[١٣٦٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: أُهبط آدم بثلاثين صنفاً من فاكهة الجنّة، منها ما يؤكل داخله وخارجه، ومنها ما يؤكل داخله ويطرح خارجه، ومنها ما يؤكل خارجه ويطرح داخله(٤).

[١٣٦٣/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى أبي الطُفيل عامر بن واثلة «عن عليّ عليه السلام ـ في حديث طويل ـ يقول فيه لبعض اليهود وقد سأله عن مسائل: زعمت اليهود أنّ أوّل حجر وضع على وجه الأرض هي صخرة بيت المقدس وكذبوا! ولكنّه الحجر الأسود، نزل به آدم معه من الجنّة فوضعه في

---

(١) الدرّ ١: ١٥١ ـ ١٥٢؛ ابن عساكر ١: ٣٤ ـ ٣٥، رواه مطوّلاً، باب مبتدأ التاريخ؛ تاريخ الطبري ١: ١٣٣. ولابن جرير بشأن هذا الخبر كلام يُنبؤك عن خبير، فراجع.

(٢) الدرّ ١: ١٥٢؛ ابن عساكر ١: ٣٥، باختلاف، باب في مبتدأ التاريخ.

(٣) نورالثقلين ١: ٦٦؛ الخصال: ٦٠١ / ٤؛ البحار ١١: ٢٠٤ / ٤؛ كنزالدقائق ١: ٣٧٠.

(٤) الدرّ ١: ١٣٧.

ركن البيت.

وزعمت أنّ أوّل شجرة نبتت على وجه الأرض هي الزيتونة وكذبوا! ولكنّها النخلة من العجوة نزل بها آدم معه من الجنّة فغرسها، وأصل النخل كلّه من العجوة، نزل بها ومعه الفحل».

وهكذا روى بالإسناد إلى إبراهيم بن يحيى المدينيّ مايقرب من ذلك[1].

قال ابن الأثير: جاء في الحديث: «العَجْوة من الجنّة». وقد تكرّر ذكرها فيه. وهو نوع من تمر المدينة أكبر من الصَّيحاني يضرب إلى السَّواد، من غرس النبيّ ﷺ[2].

[١٣٦٤/٢] وأخرج أبو الشيخ والبيهقي وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: نزل آدم بالحجر الأسود من الجنّة يمسح به دموعه، ولم ترقأ دموع آدم من حين خرج من الجنّة حتّى رجع إليها[3].

[١٣٦٥/٢] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن السريّ بن يحيى قال: أُهبط آدم من الجنّة ومعه البذور، فوضع إبليس عليها يده، فما أصابت يدُه ذهبت منفعته[4].

[١٣٦٦/٢] وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج قال: لمّا أهبط الله آدم أهبطه بأشياء: ثمانية أزواجٍ من الإبل والبقر والضأن والمعز وأهبطه بباسنة فيها بذر[5]، وتعريشة ـ عنبةٌ وريحانة ـ والعلاة، والكلبتين والركن[6].

[١٣٦٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: أُخرج آدم من الجنّة للساعة التاسعة أو العاشرة، فأُخرج معه غصناً من شجر الجنّة، على رأسه تاج من شجر الجنّة وهو الإكليل من ورق الجنّة![7].

---

(١) كمال الدين ١: ٢٩٥ ـ ٢٩٨ / ٤ و ٥، باب ٢٦؛ البحار ١٠: ٢٢ / ١٠ و ١١.

(٢) النهاية ٣: ١٨٨ مادة «عجا».

(٣) الدرّ ١: ١٣٩؛ ابن عساكر ٧: ٤١٨، رقم ٥٧٨. يقال: رقأ الدمع أو الدمُ أي جفّ وانقطع.

(٤) الدرّ ١: ١٣٨؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٩ / ٣٩٦؛ العظمة ٥: ١٥٧٢ / ١٠٣٧.

(٥) قال ابن الأثير: في حديث ابن عبّاس «نزل آدم ﷺ من الجنّة بالباسنة». قيل: إنّها آلات الصُنّاع. وقيل: هي سكّة الحرث. وليس بعربيّ محض. وسكّة الحرث آلة تُحْرَث بها شبه النير والمسحاة. وفي المعجم الوسيط: الباسنة جُوالق غليظ من مُشاقة الكتّان وسَلّة من خُوص بلاعروة. وهذا أنسب بتعبير النصّ. وفي النهاية: العلاة هي السندان.

(٦) الدرّ ١: ١٣٨.

(٧) الدرّ ١: ١٣٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٨ / ٣٩٠؛ ابن كثير ١: ٨٤.

[١٣٦٨/٢] وأخرج البزّار وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله لمّا أخرج آدم من الجنّة زوّده من ثمار الجنّة وعلّمه صنعة كلّ شيء. فثماركم هذه من ثمار الجنّة، غير أنّ هذه تتغيّر وتلك لا تتغيّر».

وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه والبيهقي في البعث عن أبي موسى، موقوفاً(١).

[١٣٦٩/٢] وأخرج ابن عديّ وابن عساكر في التاريخ عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ آدم أُهبط إلى الأرض ومعه السندان والكلبتان والمطرقة، وأُهبطت حوّاء بجدّة»(٢).

[١٣٧٠/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: ثلاثة أشياء أُنزلت مع آدم: السندان والكلبتان والمطرقة!(٣).

[١٣٧١/٢] وأخرج ابن عساكر من طريق «جعفربن محمّد عن أبيه عن جدّه»(٤) قال: قال النبيّ ﷺ: «إنّ الله لمّا خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهباً ولافضّة، فلمّا أن أهبط آدم وحوّاء أنزل معهما ذهباً وفضّة، فسلكه ينابيع في الأرض، منفعة لأولادهما من بعدهما، وجعل ذلك صداق آدم لحوّاء. فلا ينبغي لأحد أن يتزوّج إلّا بصداق»(٥).

* * *

[١٣٧٢/٢] وأخرج ابن سعد عن ابن عبّاس قال: خرج آدم من الجنّة بين الصلاتين: صلاة الظهر، وصلاة العصر، فأُنزل إلى الأرض. وكان مكثه في الجنّة نصف يوم من أيّام الآخرة، وهو خمسمائة

---

(١) الدرّ ١: ١٣٧؛ الطبري ١: ٢٥٢ / ٤٤٧؛ الحاكم ٢: ٥٤٣، كتاب تواريخ المتقدّمين؛ البعث والنشور: ١٤١ / ١٨٠؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٧ / ٤٢ بتقديم وتأخير؛ مجمع الزوائد ٨: ١٩٧، كتاب ذكر الانبياء، باب ذكر نبينا آدم ﷺ. قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني ورجاله ثقات؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٨، رقم ٥٧٨؛ مختصر زوائد مسند البزار ٢: ٢٦٣ / ١٨٣٧؛ ابن كثير ١: ٨٤.

(٢) الدرّ ١: ١٣٨؛ الكامل ١: ٢٦١؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٩، رقم ٩٣٢٨.

(٣) الدرّ ١: ١٣٨؛ الطبري ١٣: ٣٠٧ ـ ٣٠٨ / ٢٦٠٧٥، وفيه: والميقعة يعني المطرقة؛ مجمع البيان ٩: ٤٠١؛ القرطبي ١٧: ٢٦١، سورة الحديد، الآية ٢٥؛ ابن كثير ٤: ٣٣٧، سورة الحديد، الآية ٢٥.

(٤) هذا السند لم يأت ذكره في ابن عساكر.

(٥) الدرّ ١: ١٣٨؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٩، رقم ٩٣٢٨.

سنة من يوم كان مقداره اثنتي عشرة ساعة، واليوم ألف سنة ممّا يعدّ أهل الدنيا. فأُهبط آدم على جبل بالهند يقال له نوذ[١]، وأُهْبِطَت حوّاء بجدّة، فنزل آدم معه ريح الجنّة فعلق بشجرها وأوديتها فامتلأ ما هنالك طيباً، فمن ثمّ يؤتى بالطيب من ريح آدم. وقالوا: أنزل معه من طيب الجنّة أيضا، وأُنزل معه الحجر الأسود، وكان أشدّ بياضاً من الثلج، وعصا موسى وكانت من آس الجنّة، طولها عشرة أذرع على طول موسى... ثمّ أُنزل عليه بعدُ السندان والكلبة والمطرقتان، فنظر آدم حين أُهبط على الجبل إلى قضيب من حديد نابت على الجبل فقال: هذا من هذا! فجعل يكسر أشجاراً قد عتقت ويبست بالمطرقة، ثمّ أوقد على ذلك القضيب حتّى ذاب، فكان أوّل شيء ضرب منه مدية، فكان يعمل بها، ثمّ ضرب التنّور وهو الّذي ورثه نوح، وهو الّذي فار بالهند بالعذاب!

فلمّا حجّ آدم وضع الحجر الأسود على أبي قبيس، فكان يضيء لأهل مكّة في ليالي الظلم كما يضيء القمر، فلمّا كان قُبيل الإسلام بأربع سنين، وقد كان الحُيَّض والجُنُب يعمدون إليه يمسحونه فاسودّ، فأنزلته قريش من أبي قبيس، وحجّ آدم من الهند أربعين حجّة إلى مكّة على رجليه.

وكان آدم حين أُهبط يمسح رأسه السماء، فمن ثمّ صَلِعَ وأورث ولده الصَلَع، ونفرت من طوله دوابّ البَرّ فصارت وحشاً من يومئذٍ.

وكان آدم وهو على ذلك الجبل قائماً يسمع أصوات الملائكة، ويجد ريح الجنّة. فحُطَّ من طوله ذلك إلى ستّين ذراعاً، فكان ذلك طوله حتّى مات.

ولم يجمع حسن آدم لأحد من ولده إلّا ليوسف ﷺ، وأنشأ آدم يقول: ربّ كنتُ جارك في دارك ليس لي ربّ غيرك ولا رقيب دونك، آكل فيها رغداً وأسكن حيث أحببت، فأهبطتني إلى هذا الجبل المقدّس، فكنت أسمع أصوات الملائكة، وأراهم كيف يحفّون بعرشك، وأجد ريح الجنّة وطيبها. ثمّ أهبطتني إلى الأرض وحططتني إلى ستّين ذراعاً، فقد انقطع عنّي الصوت والنظر، وذهب عنّي ريح الجنّة! فأجابه الله تبارك وتعالى: لِمَعْصيتك يا آدم فعلتُ ذلك بك!

فلمّا رأى الله عرى آدم وحوّاء، أمره أن يذبح كبشاً من الضأن من الثمانية الأزواج الّتي أنزل الله من الجنّة، فأخذ آدم كبشاً وذبحه، ثمّ أخذ صوفه فغزلته حوّاء ونسجه هو، فنسج آدم جُبَّةً لنفسه، وجعل لحوّاء دِرْعاً وخِماراً فلبساه. وقد كانا اجتمعا بجمع فسمّيت «جمعاً» وتعارفا بعرفة فسمّيت

(١) نوذ: جبل بسرنديب، عنده مهبط آدم، وهو أخصب جبل في الأرض. معجم البلدان ٤: ٨٢٢.

«عرفة». وبكيا على ما فاتهما مائة سنة، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً، ثمّ أكلا وشربا وهما يومئذ على نوذ، الجبل الّذي أهبط عليه آدم، ولم يقرب حوّاء مائة سنة[١].

[١٣٧٣/٢] وأخرج ابن عساكر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هبط آدم وحوّاء عريانين جميعا، عليهما ورق الجنّة، فأصابه الحرّ حتّى قَعَدَ يبكي ويقول لها: يا حوّاء قد آذاني الحرّ! فجاءه جبرئيل بقطن وأمرها أن تغزل وعلّمها وعلّم آدم، وأمر آدم بالحياكة وعلّمه.

وكان لم يجامع امرأته في الجنّة حتّى هبط منها، وكان كلّ منهما ينام على حدة حتّى جاءه جبرئيل فأمره أن يأتي أهله وعلّمه كيف يأتيها، فلمّا أتاها جاءه جبرئيل فقال: كيف وجدت امرأتك؟ قال: صالحة»[٢].

حديث غريب وفيه نكارة ظاهرة.

[١٣٧٤/٢] وقد مرّ في حديث عبدالرحمان بن زيد ـ برواية ابن جرير ـ أنّ إبليس وسوس إلى حوّاء وحسّنها في عين آدم فدعاها آدم لحاجته فأبت إلّا عند الشجرة وبعد أن يأكلا منها، فأكلا فبدت لهما سوأتهما فكان السبب في إخراجهما من الجنّة[٣].

[١٣٧٥/٢] وكذا ما رواه ابن عديّ وابن عساكر عن إبراهيم النخعي قال: لمّا خلق الله آدم وزوجه بعث إليه ملكاً وأمره بالجماع ففعل، فلمّا فرغ قالت له حوّاء: ما أطيبه! زدنا منه![٤]

وظاهره أنّ ذلك كان قبل الأمر بالسكنى في الجنّة أو في بدء الورود بها.

كما أنّ ذلك ينافي الخبر التالي:

[١٣٧٦/٢] فقد روى الثعلبي عن ابن عبّاس قال: بكى آدم وحوّاء على ما فاتهما من نعيم الجنّة مائتي سنة، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً، ولم يقرب آدم حوّاء مائة سنة[٥].

* * *

[١٣٧٧/٢] وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس مرفوعاً: «أوّل من حاك آدم ﷺ»[٦].

---

(١) الدرّ ١: ١٣٩ ـ ١٤٠؛ الطبقات الكبرى ١: ٣٤ ـ ٣٦.

(٢) الدرّ ١: ١٣٨؛ ابن عساكر ٧: ٤١٣، رقم ٥٧٨، ترجمة آدم نبي الله ﷺ؛ كنز العمّال ١٢: ٤٧٤ / ٣٥٥٦٧.

(٣) الطبري ١: ٣٣٩؛ تاريخ الطبري ١: ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) الكامل ٧: ١٥٠؛ ابن عساكر ٦٩: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٩٣٢٨.

(٥) الثعلبي ١: ١٨٥.

(٦) الدرّ ١: ١٣٨.

[١٣٧٨/٢] وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن يحيى قال: أوّل من ضرب الدينار والدرهم آدم، ولا تصلح المعيشة إلّا بهما!(١).

[١٣٧٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنَّف عن كعب قال: أوّل من ضرب الدينار والدرهم آدم ولاتصلح المعيشة إلّا بهما!(٢).

[١٣٨٠/٢] وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن قتادة قال: كان آدم ﷺ يشرب من السحاب!(٣)

قلت: لعلّه أراد انتفاعه من السحاب في الزرع والحرث.

[١٣٨١/٢] وأخرج ابن عساكر عن ابن عبّاس قال: كان آدم ﷺ حرّاثاً، وكان إدريس خيّاطاً، وكان نوح نجّاراً، وكان هود تاجراً، وكان إبراهيم راعياً، وكان داوود زرّاداً، وكان سليمان خوّاصاً(٤)، وكان موسى أجيراً، وكان عيسى سيّاحاً، وكان محمّد ﷺ شجاعاً، جعل رزقه تحت رمحه.(٥)

[١٣٨٢/٢] وأخرج الحاكم عن ابن عبّاس أنّه قال لرجل كان يسائله: ادن منّي فأُحدّثك عن الأنبياء المذكورين في كتاب الله، أُحدّثك عن آدم كان حرّاثاً، وعن نوح كان نجّاراً، وعن إدريس كان خيّاطاً، وعن داوود كان زرّاداً، وعن موسى كان راعياً، وعن إبراهيم كان زرّاعاً عظيم الضيافة، وعن صالح كان تاجراً وعن شعيب كان راعياً، وعن لوط كان زرّاعاً، وعن سليمان كان عبداً آتاه الملك. وكان يصوم من الشهر ستّة أيّام في أوّله وثلاثة في وسطه وثلاثة في آخره، وكان له تسعمائة سرّيّة، وثلاثمائة مهريّة، وأُحدّثك عن ابن العذراء البتول عيسى، إنّه كان لايخبئ شيئاً لغد ويقول: الّذي غدّاني سوف يعشّيني، والّذي عشّاني سوف يغدّيني، يعبدالله ليلته كلّها، وهو بالنهار سائح ويصوم الدهر كلّه ويقوم الليل كلّه. وأُحدّثك عن النبيّ المصطفى كان يرعى غنم أهل بيته بأجياد(٦).

---

(١) الدرّ ١: ١٤٨ ـ ١٤٩؛ ابن عساكر ٧: ٤١٣، رقم ٥٧٨.

(٢) الدرّ ١: ١٤٨؛ المصنَّف ٨: ٣٦٠ ـ ٣٦١ / ٣١٠، كتاب الاوائل، باب أوّل ما فُعل ومن فعله.

(٣) الدرّ ١: ١٤٨؛ العظمة ٥: ١٥٦٠ / ١٠٢٥، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء ﷺ).

(٤) يصنع الحصير من الخوص وهو سعف النخل قبل يبسه.

(٥) الدرّ ١: ١٣٩؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٣، رقم ٥٧٨.

(٦) الدرّ ١: ١٣٩؛ الحاكم ٢: ٥٩٦، باختلاف، كتاب تواريخ المتقدّمين.

[١٣٨٣/٢] وروى الكليني بإسناده إلى مسمع عن أبي عبدالله ﷺ قال: لمّا هبط بآدم إلى الأرض احتاج إلى الطعام والشراب، فشكى إلى جبرئيل، فقال له جبرئيل: يا آدم كن حرّاثاً، قال: فعلّمني دعاء، قال: قل: «اللّهمّ اكفني مؤنة الدنيا وكلّ هول دون الجنّة وألبسني العافية حتّى تهنئني المعيشة»(١).

الغاية من الهبوط

[١٣٨٤/٢] قال الإمام أميرالمؤمنين ﷺ بعد أن ذكر آدم ﷺ: «فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجّة به على عباده»(٢).

[١٣٨٥/٢] وقال ـ أيضاً ـ: «ثمّ أسكن الله سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه، وأمن فيها محلّته، وحذّره إبليس وعداوته، فاغترّه عدوُّه نفاسةً عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكّه والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجَذَلِ وَجَلاً(٣)، وبالاغترار ندماً، ثمّ بسط الله سبحانه له في توبته، ولقّاه كلمة رحمته، ووعده المردّ إلى جنّته، فأهبطه إلى دار البليّة وتناسل الذرّيّة»(٤).

لغة آدم بعد الهبوط

[١٣٨٦/٢] أخرج ابن عساكر عن ابن عبّاس أنّ آدم كان لغته في الجنّة العربيّة، فلمّا عصى سلبه الله العربيّة فتكلّم بالسُّريانيّة، فلمّا تاب رُدَّ عليه العربيّة(٥).

ماذا حدث بعد الهبوط؟

[١٣٨٧/٢] أخرج أبو الشيخ عن جابر بن عبدالله قال: إنّ آدم لمّا أُهبط إلى الأرض شكا إلى ربّه

---

(١) نور الثقلين ١: ٦٧؛ الكافي ٥: ٢٦٠ / ٤، كتاب المعيشة، باب فضل الزراعة؛ البحار ١١: ٢١٧ / ٣١؛ كنزالدقائق ١: ٣٧٤.

(٢) نورالثقلين ١: ٦٢؛ نهج البلاغة ١: ١٧٧ خطبة الأشباح، رقم ٩١؛ البحار ٥٤: ١٥٠؛ كنز الدقائق ١: ٣٦٧.

(٣) الجذل: الفرح. والوجل: الخوف.

(٤) نور الثقلين ١: ٦٣؛ نهج البلاغة ١: ٢٢ ـ ٢٣، البحار ١١: ١٢٢ ـ ١٢٣؛ كنز الدقائق ١: ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

(٥) الدرّ ١: ١٤١؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٦ ـ ٤٠٧، رقم ٥٧٨.

الوحشة، فأوحى الله إليه: أن انظر بحيال بيتي الّذي رأيت ملائكتي يطوفون به، فاتّخذ بيتاً فطف به كما رأيت ملائكتي يطوفون به. فكان ما بين يديه مفاوز، وما بين قدميه الأنهار والعيون[1].

[١٣٨٨/٢] وأخرج ابن جرير في تاريخه عن عبدالله بن عمر قال: إنّ الله أوحى إلى آدم وهو ببلاد الهند أن حُجّ هذا البيت فحجّ، فكان كلّما وضع قدمه صار قرية، وما بين خطوتيه مفازة، حتّى انتهى إلى البيت فطاف به وقضى المناسك كلّها، ثمّ أراد الرجوع فمضى حتّى إذا كان بالمأزمين تلقّته الملائكة فقالت: بُرَّ حَجُّك يا آدم، فدخله من ذلك شيء! فلمّا رأت ذلك الملائكة منه قالت: يا آدم إنّا قد حججنا هذا قبلك قبل أن تُخلَق بألفي سنة. فتقاصرت إليه نفسُه[2].

[١٣٨٩/٢] وأخرج ابن جرير في تاريخه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: إنّ آدم حين خرج من الجنّة كان لا يمرّ بشيئ إلّا عَنَّتَ به، فقيل للملائكة: دعوه فليتزوّد منها ما شاء. فنزل حين نزل بالهند ولقد حجّ منها أربعين حجّة على رجليه[3].

[١٣٩٠/٢] وأخرج الشافعي في الأُمّ والبيهقي في الدلائل والأصبهاني في الترغيب عن محمّد بن كعب القرظي قال: حجّ آدم ﷺ فلقيته الملائكة فقالوا: بُرَّ نُسكك يا آدم لقد حججنا قبلك بألفي عام[4].

[١٣٩١/٢] وأخرج أبو نُعَيم في الحِلْية عن سعيد بن جبير قال: لمّا أُهبط آدم إلى الأرض كان فيها نسر، وحوت في البحر، ولم يكن في الأرض غيرهما. فلمّا رأى النسر آدم وكان يأوي إلى الحوت ويبيت عنده كلّ ليلة قال: يا حوت لقد أُهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشي على رجليه ويبطش

(١) الدرّ ١: ١٣٩؛ العظمة ٥: ١٥٧٦ / ١٠٤٠، باب ٤٥ (خلق آدم وحوّاء ﷺ).

(٢) الدرّ ١: ١٣٧؛ تاريخ الطبري ١: ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) الدرّ ١: ١٣٦؛ تاريخ الطبري ١: ٨٣، بلفظ: «عن ابن عبّاس: إنّ آدم ﷺ نزل حين نزل بالهند ولقد حجّ منها أربعين حجّة على رجليه...»؛ الشعب ٣: ٤٣٤ ـ ٤٣٥ / ٣٩٨٨، باب في المناسك، حديث الكعبة والمسجد الحرام؛ بلفظ: عن ابن عبّاس: إنّ آدم ﷺ حجّ على رجليه من الهند أربعين حجّة؛ ابن عساكر ٧: ٤٢٢، رقم ٥٧٨. ترجمة آدم نبي الله ﷺ بلفظ: عن ابن عبّاس: إنّ آدم ﷺ حجّ على رجليه من الهند أربعين حجّة.

(٤) الدرّ ١: ١٣٧؛ كتاب الأُمّ ٢: ١٥٤، كتاب الحجّ؛ الدلائل ٢: ٤٥؛ البيهقي ٥: ١٧٧، باب دخول مكّة بغير إرادة حجّ ولا عمرة.

بيده! فقال له الحوت: لئن كنت صادقاً ما لي في البحر منه منجى ولا لك في البرّ![١]

[١٣٩٢/٢] وأخرج الصدوق بإسناده إلى عُمَر بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله سئل ممّا خلق الله الكلب؟ قال: خلقه من بُزاق إبليس، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: لمّا أهبط الله آدم وحوّاء إلى الأرض أهبطهما كالفرخين المرتعشين فعدا[٢] إبليس إلى السّباع وكانت قبل آدم في الأرض. فقال لها: إنّ طيرين قد وقعا من السماء لم ير الراؤون أعظم منهما، تعالين فكليهنّ، فتعادت السباع معه وجعل إبليس يحثّهم ويصيح ويعدهم بقرب المسافة، فوقع من فيه من عجلة كلامه بُزاق. فخلق الله من ذلك البُزاق كلبين أحدهما ذكر والآخر أنثى، فقاما حول آدم وحوّاء الكلب بالهند والكلبة بجدّة، فلم يتركا السباع أن يقربنهما، ومن ذلك اليوم كان الكلب عدوّ السبع والسبع عدوّ الكلب»[٣].

[١٣٩٣/٢] وذكر القرطبي رواية عن وهب بن منبّه قال: لمّا هبط آدم عليه السلام إلى الأرض قال إبليس للسّباع: إنّ هذا عدوّ لكم فأهلكوه؛ فاجتمعوا وولّوا أمرهم إلى الكلب وقالوا: أنت أشجعنا وجعلوه رئيساً؛ فلمّا رأى ذلك آدم تحيّر في ذلك، فجاءه جبرئيل وقال له: امسح يدك على رأس الكلب ففعل، فلمّا رأت السباع أنّ الكلب ألف آدم تفرّقوا. واستأمنه الكلب فأمنه آدم، فبقي معه ومع أولاده[٤].

[١٣٩٤/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب البكاء عن عليّ بن أبي طلحة قال: أوّل شيء أكله آدم حين أُهبط إلى الأرض الكمّثرى، وأنّه لمّا أراد أن يتغوّط أخذه من ذلك كما يأخذ المرأة عند الولادة، فذهب شرقاً وغرباً لا يدري كيف يصنع! حتّى نزل إليه جبرئيل فأقعى آدم[٥]، فخرج ذلك منه، فلمّا وجد ريحه مكث يبكي سبعين سنة[٦].

[١٣٩٥/٢] وأخرج ابن عساكر عن الحسن. أنّ آدم لمّا أُهبط إلى الأرض تحرّك بطنه فأخذه لذلك

(١) الدرّ ١: ١٤٢؛ الحلية ٤: ٢٧٨، باب ٢٧٥ (سعيدبن جبير)؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٣، رقم ٥٧٨؛ القرطبي ١: ٣٢٧.

(٢) أي ركض.

(٣) علل الشرائع ٢: ٤٩٦ـ٤٩٧ / ١، باب ٢٥٠؛ البحار ١١: ٢٠٧ـ٢٠٨ / ١٠.

(٤) القرطبي ١: ٣٢٨.

(٥) الإقعاء: الجلوس على أعقاب الرجلين.

(٦) الدرّ ١: ١٣٨.

غمّ، فجعل لايدري كيف يصنع، فأوحى الله إليه: أن اقع فأقعى، فلمّا قضى حاجته فوجد الريح جزع وبكى وعضّ على إصبعه، فلم يزل يعضّ عليها ألف عام(١).

ماذا فعل إبليس عند هبوط آدم؟

[١٣٩٦/٢] أخرج ابن عساكر عن عبدالملك بن عمير قال: لمّا أُهبط آدم وإبليس، ناح إبليس حتّى بكى آدم، ثمّ حدا حتّى ضحك(٢).

[١٣٩٧/٢] وأخرج العيّاشي عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ قال: «كان إبليس أوّل من تغنّى وأوّل من ناح وأوّل من حدا: لمّا أكل آدم من الشجرة تغنّى، ولمّا أُهبط حدا، ولمّا استقرّ على الأرض ناح يذكّره ما في الجنّة»(٣).

[١٣٩٨/٢] وأخرج الصدوق بالإسناد إلى أبي عبدالله ؑ قال: «نخر إبليس نخرتين: حين أكل آدم من الشجرة وحين أُهبط به من الجنّة»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾

[١٣٩٩/٢] أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قال: مقامهم فيها(٥).

[١٤٠٠/٢] وأخرج عن الربيع في قوله: ﴿وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قال: هو قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً﴾(٦).(٧)

[١٤٠١/٢] وعن أبي العالية في قوله: ﴿وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قال: هو قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾(٨).(٩)

[١٤٠٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قال: مستقرّ

---

(١) الدرّ ١: ١٤١؛ ابن عساكر ٧: ٤١٠، رقم ٥٧٨.
(٢) الدرّ ١: ١٤١؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٨، رقم ٥٧٨.
(٣) البرهان ١: ١٩٢ / ١٧؛ العيّاشي ١: ٥٨ / ٢٣، و ١: ٣٠٣ / ٢٧٦، سورة النساء؛ البحار ١١: ٢١٢ / ٢٠.
(٤) نورالثقلين ١: ٦٤؛ الخصال: ٢٦٣ / ١٤١؛ البحار ١١: ٢٠٤ / ١.
(٥) الطبري ١: ٣٤٥ / ٦٤٣؛ القرطبي ١: ٣٢١، بلفظ: «أي موضع استقرار ـ قاله أبو العالية وابن زيد».
(٦) غافر ٤٠: ٦٤.
(٧) الطبري ١: ٣٤٥ / ٦٤٠.
(٨) البقرة ٢: ٢٢.
(٩) الطبري ١: ٣٤٥ / ٦٣٩.

فوق الأرض، ومستقرّ تحت الأرض[١].

[١٤٠٣/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قال: يعني القبور[٢].

[١٤٠٤/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قال: القبور[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

[١٤٠٥/٢] روى عليّ بن إبراهيم ـ في حديث طويل ـ عن الصادق عليه السلام جاء فيه: «فقال الله لهما: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال: إلى يوم القيامة»[٤].

[١٤٠٦/٢] وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال: إلى يوم القيامة[٥].

[١٤٠٧/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال: حتّى يصير إلى الجنّة أو إلى النّار[٦].

[١٤٠٨/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال: إلى يوم القيامة إلى انقطاع الدنيا[٧].

[١٤٠٩/٢] وعن السدّي في قوله: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال يقول: بلاغ إلى الموت[٨].

[١٤١٠/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله:

---

(١) الدرّ ١: ١٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٩ / ٤٠٠. (٢) الطبري ١: ٣٤٥ / ٦٤١.

(٣) الدرّ ١: ١٣٤؛ الطبري ١: ٣٤٥ / ٦٤٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٨٩ / ٣٩٩.

(٤) نور الثقلين ١: ٦٣؛ القمي ١: ٤٣؛ البحار ١١: ١٦٢ / ٥. (٥) الدرّ ١: ٢٩٥، ط: مركز هجر.

(٦) الدرّ ١: ١٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٩٠ / ٤٠٤. (٧) الطبري ١: ٣٤٦ / ٦٤٦.

(٨) المصدر / ٦٤٤.

﴿وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال: الحياة[١].

[١٤١١/٢] وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله: ﴿وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال: إلى أجل[٢].

ندم آدم وبكاؤه

[١٤١٢/٢] روى الصدوق بإسناده إلى محمّد بن سهل البحراني يرفعه إلى أبي عبدالله ﷺ قال: «البكّاؤون خمسة: آدم و يعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمّد وعليّ بن الحسين ﷺ، فأمّا آدم فبكى على الجنّة حتّى صار في خدّيه أمثال الأودية...»[٣].

[١٤١٣/٢] وأخرج ابن سعد عن الحسن قال: بكى آدم على الجنّة ثلاثمائة سنة[٤].

[١٤١٤/٢] وأخرج ابن عساكر عن ابن عبّاس قال: بكى آدم حين هُبط من الجنّة بكاءً لم يبكه أحد، فلو أنّ بكاء جميع بني آدم مع بكاء داوود على خطيئته، ما عدل بكاء آدم حين أُخرج من الجنّة، ومكث أربعين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء[٥].

[١٤١٥/٢] ورواه عنه بلفظ آخر، قال: وكان آدم حين أُهبط من الجنّة بكى بكاء لم يبكه أحد، فلو وضع بكاء داوود على خطيئته، وبكاء يعقوب على ابنه، وبكاء ابن آدم على أخيه حين قتله، ثمّ بكاء أهل الأرض ما عدل ببكاء آدم ﷺ حين أُهبط[٦].

[١٤١٦/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط وابن عديّ في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب وابن عساكر معاً في التاريخ عن بُريدة يرفعه قال: لو أنّ بكاء داوود وبكاء جميع أهل الأرض يعدل بكاء آدم ما عدله.

ولفظ البيهقي: لو وزن دموع آدم بجميع دموع ولده لرجّحت دموعه على جميع دموع ولده[٧].

---

(١) الدرّ ١: ١٣٤؛ الطبري ١: ٣٤٦ / ٦٣٥؛ ابن أبي حاتم ١: ٩٠ / ٤٠٣.

(٢) الطبري ١: ٣٤٦ / ٦٤٧؛ القرطبي ١: ٣٢١.

(٣) نورالثقلين ١: ٦٤؛ الخصال: ٢٧٢ ـ ٢٧٣ / ١٥؛ الأمالي للصدوق: ٢٠٤ / ٢٢١ / ٥؛ البحار ١٢: ٢٦٤ / ٢٧.

(٤) الدرّ ١: ١٤٢؛ الطبقات الكبرى ١: ٣٢.

(٥) ابن عساكر ٧: ٤١٦؛ الدرّ ١: ١٤١ ـ ١٤٢.

(٦) ابن عساكر ٧: ٤٠٣؛ الدرّ ١: ٣١١.

(٧) الدرّ ١: ١٤٢؛ الأوسط ١: ٥١؛ الكامل ١: ١٦٦؛ الشعب ١: ٥٠٠ / ٨٣٤، باب في الخوف من الله، بلفظ: «لو وزن دموع ←

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وبعد، فحيث ندم آدم على ما فرط منه في جنب الله وأدركته فطرته الزاهية ليؤوب ويثوب إلى حظيرة الأمن الالّهي الشامل ولِتَسَعُه ولاية الله الكافلة لإخراجه من الظلمات الّتي عرضت مسيرته لحظات فإلى النور الّذي ملأ الآفاق. وكانت ترافقه عبر الآنات وفي ذمّة الخلود. فأدركته الرحمة وشملته العناية الفائضة، وتلقّت توبته بالقبول:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فقد تمّت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذرّيّته، عهد الاستخلاف في هذه الأرض وشرط الفلاح فيها أو البوار:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فقد انتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل، وانطلقت من عقالها، لاتهدأ لحظة ولاتفتر! وقد عرف الإنسان في فجر البشريّة كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار..

وقد تقدّم ـ في كلام سيّد قطب ـ طرف من إيحاءات تعطيها هذه القصّة قصّة البشريّة الأُولى، ولتكون تجربة عنيفة في إبّان خوضه لمعركة الحياة فتكون عبرة نافعة له ولبنيه عبر الخلود، إمّا سعادة رابحة أو شقاء خاسر والعياذ بالله.

وإليك في ذلك روايات عن السلف:

← آدم بجميع دموع ولده لرجّح دموعه على دموع ولده» وفي ص ٥٠١ / ٨٣٥ بلفظ: عن ابن بريدة قال: «لو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء داوود ما عدله، ولو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء آدم حين أُهبط إلى الأرض ما عدله»؛ تاريخ بغداد ٤: ٢٦٧؛ ابن عساكر ٧: ٤١٥، رقم ٥٧٨؛ كنزالعمّال ٦: ١٣٠ / ١٥١٣٣.

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾

[١٤١٧/٢] قال الحسن: قبولها تعلُّمه لها وعمله بها(١).

[١٤١٨/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن قتادة وعبدالرزّاق عن عكرمة قال: اليوم الذي تاب الله فيه على آدم كان يوم عاشوراء(٢).

[١٤١٩/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى فرات بن أحنف عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «لولا أنّ آدم أذنب ما أذنب مؤمن أبداً. ولولا أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ تاب على آدم ماتاب على مذنب أبداً»(٣).

[١٤٢٠/٢] وبإسناده إلى الحسن بن عبدالله عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله في حديث طويل يقول فيه ـ وقد سأله بعض اليهود عن مسائل ـ: «وأمّا صلاة العصر فهي الساعة الّتي أكل آدم فيها من الشجرة، فأخرجه الله من الجنّة. فأمر الله ـ عزّ وجلّ ـ ذرّيّته بهذه الصلاة إلى يوم القيامة، واختارها لأمّتي فهي من أحبّ الصلوات إلى الله وأوصاني أن أحفظها من بين الصلوات. وأمّا صلاة المغرب فهي الساعة الّتي تاب الله فيها على آدم. وكان بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله عليه ثلاثماة سنة من أيّام الدنيا، وفي أيّام الآخرة يوم كألف سنة ما بين العصر والعشاء، فصلّى آدم ثلاث ركعات، ركعة لخطيئته وركعة لخطيئة حوّاء وركعة لتوبته. فافترض الله هذه الثلاث ركعات على أمّتي، وهي الساعة الّتي يُستجاب فيها الدعاء، فوعدني ربّي أن يستجيب لمن دعاه فيها»(٤).

ماهي الكلمات؟

[١٤٢١/٢] أخرج وكيع وعبدبن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ

---

(١) القرطبي ١: ٣٢٣.

(٢) الدرّ ١: ١٤٧؛ التبيان ١: ١٧٢، قال الشيخ رحمه الله: ورواه أيضاً أصحابنا؛ المصنّف ٤: ٢٩١ / ٧٨٥٢.

(٣) نورالثقلين ١: ٦٩؛ علل الشرائع ١: ٨٤، باب ١٧٨ (علّة الذنب وقبول التوبة)؛ البحار ١١: ١٦٥ / ١٠؛ كنزالدقائق ١: ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٤) نور الثقلين ١: ٦٩؛ علل الشرائع ٢: ٣٣٧ ـ ٣٣٨ / ١؛ الفقيه ١: ٢١٢ ـ ٢١٣ / ٦٤٣، باب علّة وجوب خمس صلوات في خمس مواقيت؛ الأمالي للصدوق: ٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ البحار ١١: ١٦٠ ـ ١٦١ / ٤؛ كنزالدقائق ١: ٣٨٦.

آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: هو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

وأخرج عبدبن حميد عن الحسن وعن الضحّاك مثله(٢).

[١٤٢٢/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن محمّد بن كعب القرظي في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: هو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا...﴾ الآية. ولو سكت الله عنها ولم يُخبرنا عنها، لتفحّص رجال حتّى يعلموا ما هي؟(٣)

[١٤٢٣/٢] وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جُريج عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: هو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا...﴾ الآية(٤).

[١٤٢٤/٢] وأخرج الثعلبي من طريق عكرمة عن سعيدبن جبير في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٥).

[١٤٢٥/٢] وأخرج ابن جرير عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: هو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٦).

---

(١) الأعراف ٧: ٢٣.

(٢) الدرّ ١: ١٤٤؛ الطبري ١: ٣٥٠ / ٦٥٦ـ٦٥٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٩١ / ٤١٠؛ القرطبي ١: ٣٢٤، نقلاً عن ابن عبّاس والحسن وسعيدبن جبير والضحّاك ومجاهد؛ ابن كثير ١: ٨٥، نقلاً عن مجاهد وسعيدبن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمّدبن كعب القرظي وخالدبن معدان وعطاء الخراساني وعبدالرحمان بن زيد بن أسلم؛ البغوي ١: ١٠٧ـ١٠٨، نقلاً عن سعيد بن جبير ومجاهد والحسن؛ التبيان ١: ١٦٩، نقلاً عن الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد؛ مجمع البيان ١: ١٧٥، نقلاً عن الحسن وقتادة وعكرمة وسعيدبن جبير؛ أبوالفتوح ١: ٢٢٧، نقلاً عن الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد؛ البخاري ٤: ١٠١، نقلاً عن أبي العالية؛ الثعلبي ١: ١٨٤، عن سعيدبن جبير وكذا عن الحسن ومجاهد؛ الوسيط ١: ١٢٤، عن الحسن وسعيدبن جبير ومجاهد.

(٣) الدرّ ١: ١٤٤؛ ابن أبي حاتم ١: ٩١ / ٤١٠، بلفظ: عن مجاهد وسعيدبن جبير في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قالا: قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وروي عن الحسن وقتادة ومحمّدبن كعب القرظي وخالدبن معدان وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو ذلك؛ الشعب ٥: ٤٣٤ / ٧١٧٢، باب في معالجة كلّ ذنب بالتوبة.

(٤) الدرّ ١: ١٤٤؛ القرطبي ١: ٣٢٤؛ ابن كثير ١: ٨٥.

(٥) الثعلبي ١: ١٨٤؛ الدرّ ١: ١٤٤؛ الوسيط ١: ١٢٤.

(٦) الطبري ١: ٣٥٠ / ٦٥٩؛ ابن كثير ١: ٨٥؛ التبيان ١: ١٦٩؛ عبدالرزّاق ١: ٢٦٨ / ٤٥.

[١٤٢٦/٢] وعن ابن زيد: هو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَـلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَـنَكُونَنَّ مِـنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

[١٤٢٧/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن قتادة في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: ذُكر لنا أنّه قال: يا ربّ أرأيت إن تُبت وأصلحتُ؟ قال: فإنّي إذن أرجعك إلى الجنّة قالا: ﴿رَبَّنَا ظَـلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فاستغفر آدم ربّه وتاب إليه فتاب عليه. وأما عدوّ الله إبليس فوالله ما تنصّل من ذنبه ولا سأل التوبة حين وقع بما وقع به، ولكنّه سأل النظرة إلى يوم الدين، فأعطى الله كلّ واحد منهما ما سأل!(٢).

[١٤٢٨/٢] وروى الكليني في روضة الكافي عن شيخه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عُمير عن إبراهيم صاحب الشعير عن كثير بن كلثمة عن أحدهما عليهما السلام في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: «لا إله إلّا أنت سبحانك اللّهمّ وبحمدك عَـمِلتُ سـوءًا وظـلمتُ نـفسي، فاغفرلي وأنت خير الغافرين. لا إله إلّا أنت سبحانك اللّهمّ وبحمدك عَمِلتُ سوءًا وظلمتُ نـفسي فاغفرلي وارحمني وأنت أرحم الراحمين. لا إله إلّا أنت سبحانك اللّـهمّ وبـحمدك عَـمِلتُ سـوءًا وظلمتُ نفسي فتُب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم»(٣).

[١٤٢٩/٢] وروى العيّاشي بالإسناد إلى محمّدبن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال: الكلمات التي تلقّاهنّ آدم من ربّه فتاب عليه وهدى، قال: «سبحانك اللّهم وبحمدك، ربّ إنّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّك أنت الغفور الرحيم، اللّهمّ إنّه لا إله إلّا أنت سبحانك وبـحمدك، إنّـي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّك خير الغافرين. اللّهمّ إنّه لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك إنّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّك أنت الغفور الرحيم»(٤).

[١٤٣٠/٢] وقال محمّدبن كعب: الكلمات هي قوله: «لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ

(١) الطبري ١: ٣٥٠ / ٦٦٠ و ٣٤٧ / ٦٤٨؛ التبيان ١: ١٦٩؛ ابن كثير ١: ٨٥.

(٢) الدرّ ١: ١٤٤؛ الشعب ٥: ٤٣٤ / ٧١٧٤، باب في معالجة كلّ ذنب بالتوبة، وزاد بعد قوله «فتاب عليه» بلفظ: «إنّـه هـو التوّاب الرحيم»؛ الطبري ١: ٣٤٨ / ٦٥١، باختصار؛ ابن عساكر ٧: ٤٠٠، رقم ٥٧٨.

(٣) نورالثقلين ١: ٦٧؛ الكافي ٨: ٣٠٤ ـ ٣٠٥ / ٤٧٢؛ كنزالدقائق ١: ٣٨٤؛ البرهان ١: ١٩٣.

(٤) البرهان ١: ١٩٥ / ٨؛ العيّاشي ١: ٥٩ / ٢٥؛ البحار ١١: ١٨٦ / ٣٧ و ٩٢: ١٩٢ ـ ١٩٣ / ٢١.

سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم. لا إلٰه إلّا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا وظلمتُ نفسي فارحمني إنّك أنت الغفور الرحيم. لا إلٰه إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءًا وظلمت نفسي فارحمني إنّك أنت أرحم الراحمين»[١].

[١٤٣١/٢] وروى القرطبي عن ابن عبّاس ووهب بن منبّه: أنّ الكلمات: «سبحانك اللّهم وبحمدك لا إلٰه إلّا أنت عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين، سبحانك اللّهمّ وبحمدك، لا إلٰه إلّا أنت عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم»[٢].

[١٤٣٢/٢] وأخرج الواحدي عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: لمّا أصاب آدم الخطيئة فزع إلى كلمة الإخلاص فقال: «لا إلٰه إلّا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إلٰه إلّا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم»[٣].

[١٤٣٣/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالرحمان بن زيد في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قال: قال آدم: اللّهمّ لا إلٰه إلّا أنت سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، تب عليّ، إنّك أنت التوّاب الرحيم[٤].

[١٤٣٤/٢] وأخرج عبد بن حميد عن عبدالله بن زيد في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: لا إلٰه إلّا أنت سبحانك وبحمدك. ربِّ عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفر لي إنّك أنت خير الغافرين. لا إلٰه إلّا أنت سبحانك وبحمدك. ربِّ عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنّك أنت أرحم الراحمين. لا إلٰه إلّا أنت سبحانك وبحمدك. ربِّ عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم[٥].

[١٤٣٥/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن أنس في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: سبحانك اللّهمّ وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنّك أنت خير الغافرين.

---

(١) الثعلبي ١: ١٨٤؛ البغوي ١: ١٠٨؛ أبوالفتوح ١: ٢٢٧؛ القرطبي ١: ٣٢٤.

(٢) القرطبي ١: ٣٢٤.

(٣) الوسيط ١: ١٢٥.

(٤) الطبري ١: ٣٤٩/٦٥٥.

(٥) الدرّ ١: ١٤٥.

لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنّك أنت أرحم الراحمين. لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم(١).

[١٤٣٦/٢] وأخرج هنّاد في الزهد عن سعيد بن جبير قال: قال: لمّا أصاب آدمُ الخطيئةَ فزع إلى كلمة الإخلاص: لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفرلي إنّك أنت خيرُ الغافرين، لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فارحمني إنّك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم(٢).

[١٤٣٧/٢] وأخرج ابن جرير عن مجاهد، كان يقول في قول الله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾: الكلمات «اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفرلي إنّك خير الغافرين. اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك، ربّي إنّي ظلمتُ نفسي فارحمني إنّك خير الراحمين. اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إنّي ظلمتُ نفسي فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم»(٣).

[١٤٣٨/٢] وقال الحسن بن راشد: إذا استيقظت من منامك فقل الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه: سُبّوح قُدّوس، ربُّ الملائكة والروح، سبقت رحمتُك غضبَك، لا إله إلّا أنت، إنّي ظلمتُ نفسي فاغفرلي وارحمني إنّك أنت التوّاب الرحيم الغفور(٤).

[١٤٣٩/٢] وأخرج الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: الكلمات هي: أنّ آدم ﷺ قال: يا ربّ ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكنّي جنّتك؟ قال: بلى، قال: فلم أخرجتني منها؟ قال: بشؤم معصيتك. قال: يا ربّ أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنّة؟ قال: نعم، قال: فهذه الكلمات(٥).

(١) الدرّ ١: ١٤٥؛ الشعب ٥: ٤٣٤ / ٧١٧٣، باب في معالجة كلّ ذنب بالتوبة؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٣، رقم ٥٧٨.

(٢) الدرّ ١: ١٤٥؛ الزهد لهنّاد ٢: ٤٦١ / ٩١٨.

(٣) الطبري ١: ٣٥٠ / ٦٥٧؛ التبيان ١: ١٦٩، وزاد في آخره: وروي مثلُ ذلك عن أبي جعفر ﷺ.

(٤) البرهان ١: ١٩٥ ـ ١٩٦ / ٩؛ العيّاشي ١: ٥٩ / ٢٦؛ البحار ١١: ١٨٦ ـ ١٨٧ / ٣٨ و ٧٣: ١٩٥ / ١١.

(٥) الوسيط ١: ١٢٥.

[٢ / ١٤٤٠] وأخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحّاك عن ابن عبّاس: أنّ آدم طلب التوبة مائتي سنة حتّى آتاه الله الكلمات، ولقّنه إيّاها قال: بينا آدم جالس يبكي، واضعاً راحته على جبينه إذ أتاه جبريل فسلّم عليه، فبكى آدم وبكى جبريل لبكائه فقال له: يا آدم ما هذه البليّة الّتي أجحف بك بلاؤها وشقاؤها وما هذا البكاء؟ قال: يا جبريل وكيف لا أبكي وقد حوّلني ربّي من ملكوت السماوات إلى هوان الأرض، ومن دار المقام إلى دار الظعن والزوال، ومن دار النعمة إلى دار البؤس والشقاء، ومن دار الخلد إلى دار الفناء؟ كيف أجتاز يا جبريل هذه المصيبة؟ فانطلق جبريل إلى ربّه فأخبره بمقالة آدم! فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: انطلق يا جبريل إلى آدم فقل:... يا آدم قد سبقت رحمتي غضبي، قد سمعتُ صوتَك وتضرّعك، ورحمتُ بكاءَك، وأقلتُ عثرتَك، فقل: لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي ذنوبي، إنّك أنت خير الغافرين، لا إله إلّا أنت، سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنّك أنت خير الراحمين. لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي. فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم. فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ...﴾ الآية[1].

[٢ / ١٤٤١] وأخرج الطبراني عن أبي برزة الأسلمي قال: إنّ آدم لما طوطىء منع كلام الملائكة ـ وكان يستأنس بكلامهم ـ بكى على الجنّة مائة سنة فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ له: يا آدم ما يُحزنك؟ قال: كيف لا أحزن وقد أهبطتني من الجنّة ولا أدري أعود إليها أم لا؟ فقال الله تعالى: يا آدم قل: اللّهمّ لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، سبحانك وبحمدك. ربّ إنّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّك أنت خير الغافرين. اللّهمّ لا إله إلّا أنت وحدك لاشريك لك سبحانك وبحمدك. ربّ إنّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنّك أنت أرحم الراحمين. اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك لا شريك لك، ربّ عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي إنّك أنت التوّاب الرحيم. قال: فهي الكلمات الّتي أنزل الله على محمّد ﷺ: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. قال: وهي لولده من بعده.

قال: وقال آدم لابن له يقال له هبة الله، ويسمّيه أهل التوراة وأهل الإنجيل شيث: تعبّد لربّك واسأله أيردّني إلى الجنّة أم لا؟ فتعبّد لله وسأل. فأوحى الله إليه: إنّي رادّه إلى الجنّة! فقال: أي ربّ

(١) الدرّ ١: ١٤٥ ـ ١٤٦؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٥ ـ ٤٣٦، رقم ٥٧٨.

إنّي لستُ آمن أنّ أبي سيسألني العلامة! فألقى الله إليه سواراً من أسورة الحور، فلمّا أتاه قال: ما وراءك؟ قال: ابشر، أخبرني أنّه رادّك إلى الجنّة! قال: فما سألته العلامة؟ فأخرج السوار فرآه فعرفه، فخرّ ساجداً. فبكى حتّى سال من عينيه نهرٌ من دموع، وآثاره تعرف بالهند!

وذكر أنّ كنز الذهب بالهند ممّا ينبت من ذلك السوار! ثمّ قال: استطعم لي ربّك من ثمر الجنّة، فلمّا خرج من عنده مات آدم، فجاءه جبريل فقال: إلى أين؟ قال: إنّ أبي أرسلني أن أطلب إلى ربّي أن يُطعمه من ثمر الجنّة! قال: فإنّ ربّه قضى أن لا يأكل منها شيئاً حتّى يعود إليها، وأنّه قد مات فارجعْ فوارِه، فأخذه جبريل ﷺ فغسّله، وكفّنه، وحنّطه، وصلّى عليه[1]، ثمّ قال جبريل: هكذا فاصنعوا بموتاكم[2].

* * *

وهناك روايات جاءت فيها زيادة: أنّ آدم استشفع إلى الله لقبول توبته بمحمّد وآله الطيّبين، وهم أنوار في ملكوت العرش.

[١٤٤٢/٢] أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن عليّ ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن الكلمات الّتي تاب الله بها على آدم، فقال: «إنّ الله لمّا أهبط آدم إلى الأرض لم يزل باكياً ضارعاً إلى الله. فنزل جبرائيل فسأله: ما هذا البكاء؟ قال: وما يمنعني من البكاء وقد أُخرجتُ من جوار الرحمان! قال: فعليك بهذه الكلمات، فإنّ الله قابل توبتك وغافر ذنبك. قل: اللّهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد، سبحانك لا إله إلّا أنت عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفر لي إنّك أنت الغفور الرحيم. اللّهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد، سبحانك لا إله إلّا أنت عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فتُب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم. فهذه الكلمات الّتي تلقّاها آدم»[3].

[١٤٤٣/٢] وهكذا روى المتّقي الهندي بالإسناد إلى عليّ ﷺ قال: «قال آدم: اللّهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد، سبحانك لا إله إلّا أنت، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فتُب عَلَيَّ إنّك أنت التوّاب الرحيم»[4].

---

(١) هذا ينافي ما تقدّم أنّ جبريل امتنع من الصلاة على آدم فقدّم ابنه شيثاً.

(٢) الدرّ ١: ١٥٠ ـ ١٥١؛ مجمع الزوائد ٨: ١٩٨ ـ ١٩٩، كتاب الأنبياء، باب ذكر نبيّنا آدم ﷺ.

(٣) الدرّ ١: ١٤٧؛ فردوس الأخبار ٣: ١٦٣ / ٤٢٨٨.

(٤) كنز العمّال ٢: ٣٥٨ ـ ٣٥٩ / ٤٢٣٧.

[١٤٤٤/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى مَعْمَر بن راشد قال: سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يذكر حديث النبيّ صلى الله عليه وآله مع يهوديّ حيث سأله عن أفضليّته على نبيّ الله موسى عليه السلام فقال له النبيّ: «إنّـه يُكْرَهُ للعبد أن يُزكّي نفسه، ولكنّي أقول: إنّ آدم عليه السلام لمّا أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: اللّهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لمّا غفرت لي. فغفرها الله له...»(١).

[١٤٤٥/٢] وأخرج العيّاشي عن محمّد بن عيسى بن عبدالله العلوي، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام، قال: «الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه، قال: يا ربّ أسألك بحقّ محمّد لمّا تبت عليّ، قال: وما عِلْمُك بمحمّد؟ قال: رأيته في سرادقك الأعظم مكتوباً وأنا في الجنّة»(٢).

[١٤٤٦/٢] وأخرج الطبراني في المعجم الصغير والحاكم وصحّحه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن عمر بن الخطّاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لمّا أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحقّ محمّد إلّا غفرت لي؟ فأوحى الله إليه: ومن محمّد؟ فقال: تبارك اسمك، لمّا خلقتني رفعتُ رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله» فعلمتُ أنّه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممّن جعلت اسمه مع اسمك! فأوحى الله إليه: يا آدم إنّه آخر النبيّين من ذرّيّتك، ولولا هو ما خلقتك»(٣).

[١٤٤٧/٢] وأخرج ابن المنذر عن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام قال: «لمّا

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٨٧ / ٣٢٠ ـ ٤، المجلس ٣٩؛ ترتيب الأمالي ١: ٥٨٨ / ٥٥٥ ـ ٢؛ روضة الواعظين، الفتّال: ٢٧٢، عنوان مناقب آل محمّد؛ جامع الأخبار، السبزواري: ٤٤ ـ ٤٥ / ٤٨ ـ ٩، الفصل الرابع؛ البرهان ١: ١٩٨ / ١٤؛ الاحتجاج ١: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) البرهان ١: ١٩٦ ـ ١١؛ العيّاشي ١: ٥٩ / ٢٨؛ البحار ١١: ١٨٧ / ٤٠ و ١٦: ٣٦٧ / ٧٤.

(٣) الدرّ ١: ١٤٢؛ الصغير ٢: ٨٣ / ٩٩١؛ الحاكم ٢: ٦١٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد؛ دلائل النبوة للبيهقي ٥: ٤٨٩، باب ما جاء في تحدّث رسول الله صلى الله عليه وآله بنعمة ربّه ـ عزّ وجلّ ـ أخرجه عن عبدالرحمان بن زيد بن أسلم عن عمر بن الخطّاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لمّا اقترف آدمُ الخطيئة، قال: يا ربّ أسألك بحقّ محمّد لمّا غفرت لي، فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: يا آدم! وكيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟ قال: لأنّك يا ربّ لمّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله». فعلمتُ أنّك لم تُضف إلى اسمك إلّا أحبّ الخلق إليك. فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: صدقت يا آدم، إنّه لأحبُّ الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقّه فقد غفرتُ لك، ولولا محمّد ما خلقتُك»؛ ابن عساكر ٧: ٤٣٧؛ مجمع الزوائد ٨: ٢٥٣، باب: عظم قدره صلى الله عليه وآله. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والصغير.

أصاب آدم الخطيئة عظم كربه، واشتدّ ندمه. فجاءه جبريل فقال: يا آدم هل أدلّك على باب توبتك الّذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلى يا جبريل! قال: قم في مقامك الّذي تناجي فيه ربّك فمجّده وامدح، فليس شيء أحبّ إلى الله من المدح. قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل: لا إلّه إلّا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ لايموت، بيده الخير كلّه وهو على كلّ شيء قدير. ثمّ تبوء بخطيئتك فتقول: سبحانك اللّهمّ وبحمدك لا إلّه إلّا أنت، ربّ إنّي ظلمتُ نفسي وعملتُ السوء فاغفر لي، إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت. اللّهمّ إنّي أسألك بجاه محمّد عندك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي. قال: ففعل آدم فقال الله: يا آدم من علّمك هذا؟ فقال: يا ربّ إنّك لمّا نفخت فيّ الروح فقمتُ بشراً سويّاً أسمع وأبصر وأعقل وأنظر، رأيت على ساق عرشك مكتوباً: «بسم الله الرحمان الرحيم، لا إلّه إلّا الله وحده لاشريك له، محمّد رسول الله» فلمّا لم أر على أثر اسمك اسم ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل غير اسمه، علمت أنّه أكرم خلقك عليك! قال: صدقت وقد تبتُ عليك وغفرتُ لك خطيئتك. قال: فحمد آدم ربّه وشكره وانصرف بأعظم سرور لم ينصرف به عبد من عند ربّه. قال: فجاءته الملائكة أفواجاً تهنّئه يقولون: لتهنك توبة الله يا أبا محمّد»[1].

[١٤٤٨/٢] وأخرج ابن النجّار عن ابن عبّاس قال: «سألت رسول الله ﷺ عن الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه؟ قال: سأل بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين، إلّا تُبْتَ عليّ، فتاب عليه»[2].

[١٤٤٩/٢] وأخرج العيّاشي بإسناده إلى عبدالرحمان بن كثير، عن أبي عبدالله ؑ قال: «دعا آدم ربّه بحقّ الخمسة: محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين، فغفر الله له. وذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، الآية»[3].

[١٤٥٠/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: «سألت النبيّ ﷺ عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه؟ قال سأله بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن

(١) الدرّ ١: ١٤٦.

(٢) الدرّ ١: ١٤٧؛ شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني ١: ١٠١.

(٣) البرهان ١: ١٩٦ / ١٠؛ العيّاشي ١: ٥٩ / ٢٧؛ البحار ١١: ١٨٧ / ٣٩ و ٢٦: ٣٢٦ / ٩.

والحسين إلّا تبت عليّ فتاب عليه»[١].

[١٤٥١/٢] وروى بإسناده إلى أبي سعيد المدائني يرفعه [إلى النبي ﷺ] «في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: سأله بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ﷺ»[٢].

[١٤٥٢/٢] وقال الكليني ـ ذيل الحديث الذي رويناه عنه آنفاً عن الروضة ـ: وفي رواية أخرى «في قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: سأله بحقّ محمّد وعليّ والحسن والحسين وفاطمة ـ صلّى الله عليهم ـ»[٣].

[١٤٥٣/٢] وروى بإسناده إلى المفضّل بن عُمَر عن الصادق جعفر بن محمّد ﷺ «سأله عن قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ما هذه الكلمات؟ قال: هي الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، وهو أنّه قال: «يا ربّ أسألك بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تُبت عليّ»، فتاب الله عليه، إنّه هو التوّاب الرحيم»[٤].

[١٤٥٤/٢] وروى بإسناده إلى محمّد بن سنان عن المفضّل بن عُمَر عن أبي عبدالله ﷺ وساق الحديث إلى قوله: «فقالا: اللّهمّ إنّا نسألك بحقّ الأكرمين عليك محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة، إلّا تُبت علينا ورحمتنا، فتاب الله عليهما، إنّه هو التوّاب الرحيم»[٥].

ملحوظة

قد يتشكّك البعض في مثل هذه الروايات، حيث لا موضع لآل البيت حينذاك وهم لم يُخلقوا

(١) نورالثقلين ١: ٦٨؛ الخصال: ٢٧٠ / ٨؛ معاني الأخبار: ١٢٥ / ١، باب: معنى الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه؛ البحار ١١: ١٧٦ / ٢٢؛ كنزالدقائق ١: ٣٨٢ـ٣٨٣؛ البرهان ١: ١٩٤ـ١٩٥ / ٥.

(٢) نورالثقلين ١: ٦٧؛ معاني الأخبار: ١٢٥ / ٢، باب معنى الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه؛ البحار ١١: ١٧٧ / ٢٣؛ كنزالدقائق ١: ٣٨٢؛ البرهان ١: ١٩٥ / ٦.

(٣) الكافي ٨: ٣٠٥، ذيل الرقم ٤٧٢؛ البرهان ١: ١٩٣ / ٢؛ كنزالدقائق ١: ٣٨١.

(٤) نورالثقلين ١: ٦٨؛ كمال الدين: ٣٥٨ـ٣٥٩ / ٥٧؛ الخصال: ٣٠٤ـ٣٠٥ / ٨٤؛ البحار ١٢: ٦٦ / ١٢؛ كنزالدقائق ١: ٣٨٣.

(٥) نورالثقلين ١: ٦٧ـ٦٨؛ معاني الأخبار: ١١٠ / ١، باب معنى الأمانة الّتي عرضت على السماوات والأرض؛ البحار ١١: ١٧٤ / ١٩؛ كنزالدقائق ١: ٣٨٢.

بعدُ؟!

قلت: مع غضّ النظر عن صحّة أسانيدها ـ وقد عرفت أنّ بعضهم صحّحها كالحاكم النيسابوري في المستدرك[١] ـ لا غرو بعد كونهم أنواراً محلّقين في ظلّ العرش، قبل أن يُخلق آدم بأحقاب.

[١٤٥٥/٢] فقد أخرج محبّ الدين الطبريّ في كتابه «الرياض النضرة في فضائل العشرة» بالإسناد إلى سلمان الفارسي ـ رضوان الله عليه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يُخلق آدم بأربعة عشر ألف عام»[٢].

وغيرها من روايات، يجدها المراجع بوفرة في مظانّها.

هذا مضافاً إلى إمكان معرفة آدم بشأن الطيّبين من ذرّيته، علّمه الله يوم علّمه الأسماء، فاستغلّ فرصة الاستشفاع بجاههم العظيم عند الله، ولاريب أنّهم الشفعاء عند الله لجميع الخلائق من الأوّلين والآخرين، وقد مرّ عليك بعض الأحاديث بهذا الشأن.

وبعد، ألم يكن النبيّ ﷺ باهل نصارى نجران بأهل بيته عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[٣] حيث وجدهم عظماء عند الله، وذوي وجوه مقبولة لديه سبحانه وتعالى، فلا استغراب أن يتوسّل آدم بهم في التوصّل إلى قربه تعالى، لمكان معرفته بشأنهم الرفيع عند الله.

* * *

وهناك روايات أُخر تجعل الكلمات الّتي تلقّاها آدم، هي تعلّم مراسم الحجّ والدعاء والاستغفار عند البيت الحرام. علّمه الله إيّاها ليقوم بأدائها كملا فتقبل توبته.

[١٤٥٦/٢] أخرج عبدبن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق أبي إسحاق السَّبَيْعي عن رجل من تميم، قال: أتيت ابن عبّاس فسألته: ما الكلمات الّتي تلقّى آدم من ربّه؟ قال: علم شأن الحجّ، فهي الكلمات[٤].

[١٤٥٧/٢] وأخرج الأزرقي في تاريخ مكّة والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدعوات وابن

---

(١) الحاكم ٢: ٢١٥. ذكر الحديث وعقّبه بقوله: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٢) الرياض النضرة ٢: ١٦٤. قال: وخرّجه أحمد في المناقب. (فضائل الخمسة، الفيروز آبادي) ١: ١٦٨.

(٣) راجع تفصيل الحديث في الكشّاف ١: ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٤) ابن أبي حاتم ١: ٩١ / ٤٠٨؛ ابن كثير ١: ٨٥؛ الدرّ ١: ١٤٥.

عساكر بسند لا بأس به، عن بُرَيدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا أهبط الله آدم إلى الأرض طاف بالبيت أسبوعاً وصلّى حذاء المقام ركعتين ثمّ قال: «اللّهمّ أنت تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما عندي فاغفر لي ذنوبي. أسألك إيماناً يباهي قلبي ويقيناً صادقاً حتّى أعلم أنّه لا يصيبني إلّا ما كتبت لي ورضّني بقضائك» فأوحى الله إليه: يا آدم إنّك دعوتني بدعاء فاستجبتُ لك فيه، ولن يدعوني به أحدٌ من ذرّيّتك إلّا استجبت له وغفرت له ذنبه وفرّجت همّه وغمّه واتّجرت له من وراء كلّ تاجر وأتته الدنيا راغمة وإن كان لا يريدها»(١).

[١٤٥٨/٢] وأخرج الخطيب في أماليه وابن عساكر بسند فيه مجاهيل عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ آدم لمّا أكل من الشجرة أوحى الله إليه: اهبط من جواري! وعزّتي، لا يجاورني من عصاني. فهبط إلى الأرض مسودّاً، فبكت الأرض وضجّت. فأوحى الله إليه: يا آدم صم لي اليوم يوم ثلاثة عشر. فصامه فأصبح ثلثه أبيض، ثمّ أوحى الله إليه: صم لي هذا اليوم يوم أربعة عشر. فصامه فأصبح ثلثاه أبيض، ثمّ أوحى الله إليه: صم لي هذا اليوم يوم خمسة عشر. فصامه فأصبح كلّه أبيض. فسمّيت أيّامَ البيض»(٢).

[١٤٥٩/٢] وأخرج الجنيدي والطبراني وابن عساكر في فضائل مكّة عن عائشة قالت: لمّا أراد الله أن يتوب على آدم أذن له فطاف بالبيت سبعاً ـ والبيت يومئذ ربوة حمراء ـ فلمّا صلّى ركعتين قام واستقبل البيت وقال: اللّهمّ إنّك تعلم سريرتي وعلانيتي فاقبل معذرتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي. اللّهمّ إنّي أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً صادقاً حتّى أعلم أنّه لا يصيبني إلّا ما كتبت لي، والرضا بما قسمت لي! فأوحى الله إليه: إنّي قد غفرت ذنبك، ولن يأتيَني أحد من ذرّيّتك يدعوني بمثل ما دعوتني إلّا غفرتُ ذنوبه وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه واتّجرت له من وراء كلّ تاجر وجاءته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها(٣).

[١٤٦٠/٢] وأخرج الطبراني في الأوسط وابن عساكر عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال: «لمّا أهبط

---

(١) الدرّ ١: ١٤٣ ـ ١٤٤؛ ابن عساكر ٧: ٤٢٨ ـ ٤٢٩، رقم ٥٧٨.

(٢) الدرّ ١: ١٤٧؛ ابن عساكر ٧: ٤١٩، رقم ٥٧٨؛ كنزالعمّال ٨: ٥٦٤ ـ ٥٦٥ / ٢٤١٩٣.

(٣) الدرّ ١: ١٤٣؛ الأوسط ٦: ١١٧ ـ ١١٨؛ ابن عساكر ٧: ٤٣١ ـ ٤٣٢، رقم ٥٧٨؛ كنزالعمّال ٥: ٥٧ / ١٢٠٣٤؛ مجمع الزوائد ١٠: ١٨٣، كتاب الأدعية، باب دعاء آدم ؛.

الله آدم إلى الأرض قام وِجاهَ الكعبة فصلّى ركعتين، فألهمه الله هذا الدعاء: اللّهمّ إنّك تعلم سريرتي وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنبي. اللّهمّ إنّي أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً صادقاً حتّى أعلم أنّه لا يصيبني إلّا ما كتبت لي، وأرضني بما قسمت لي. فأوحى الله إليه: يا آدم قد قبلت توبتك وغفرت ذنبك، ولن يدعوني أحد بهذا الدعاء إلّا غفرتُ له ذنبه وكفيته المهمّ من أمره وزجرت عنه الشيطان واتّجرت له من وراء كلّ تاجر، وأقبلَتْ إليه الدنيا راغمة وإن لم يردها»[1].

[١٤٦١/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى أبي خديجة عن أبي عبدالله عليه السلام قال سأل أبي عليه السلام رجلٌ وقال: حدّثني عن رضا الربّ عن آدم عليه السلام، فقال: «إنّ آدم لمّا أُهبط إلى الأرض سأل ربّه ـ عزّ وجلّ ـ هذا البيت، فأمره أن يأتيه فيطوف به أسبوعاً، ويأتي منى وعرفات، فيقضي مناسكه كلّها، فجاء من الهند فكان موضع قدميه حيث يطأ عليه عمراناً، ومابين القدم إلى القدم صحارى ليس فيها شيء، ثمّ جاء إلى البيت فطاف أسبوعاً وأتى مناسكه فقضاها كما أمره الله. فقبل الله منه التوبة وغفر له، قال: فجعل طواف آدم لما طافت الملائكة بالعرش سبع سنين. فقال جبرئيل عليه السلام. هنيئاً لك يا آدم لقد غُفر لك، لقد طفتُ بهذا البيت قبلك بثلثة آلاف سنة، فقال آدم: ياربّ اغفرلي، ولذرّيّتي من بعدي! فقال: نعم من آمن منهم بي وبرسلي. فقال الرجل: صدقت ومضى. فقال أبي: هذا جبرئيل أتاكم يعلّمكم معالم دينكم!».[2]

قلت: وتقدّم في حديث عطاء: أنّه حجّ البيت على بقرة[3].

[١٤٦٢/٢] وبإسناده إلى عبدالحميد بن أبي الديلم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لمّا أراد أن يتوب على آدم أرسل إليه جبرئيل فقال له: السلام عليك يا آدم الصابر على بليّته التائب عن خطيئته. إنّ الله بعثني إليك لأعلّمك المناسك الّتي يريد أن يتوب عليك بها. وأخذ جبرئيل بيده وانطلق به حتّى أتى البيت. فنزلت عليه غمامة من السماء، فقال له جبرئيل: خطّ برجلك حيث أظلّك هذا الغمام، ثمّ انطلق به حتّى أتى به إلى منى فأراه موضع مسجد منى فخطّه

---

(١) الدرّ ١: ١٤٣؛ الأوسط ٦: ١١٧ ـ ١١٨؛ ابن عساكر ٧: ٤٣١ ـ ٤٣٢؛ مجمع الزوائد ١٠: ١٨٣، باب دعاء آدم عليه السلام.

(٢) نورالثقلين ١: ٧٠ ـ ٧١؛ علل الشرائع ٢: ٤٠٧ / ٢، باب ١٤٣، (العلّة الّتي من أجلها صار الطواف سبعة أشواط)؛ البحار ١١: ١٧٠ / ١٧؛ كنزالدقائق ١: ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٣) الدرّ ١: ١٣٦.

وخطّ المسجد الحرام بعد ما خطّ مكان البيت، ثمّ انطلق به إلى عرفات فأقامه على العرفة وقال له: إذا غربت الشمس فاعترف بذنبك سبع مرّات، ففعل ذلك آدم، ولذلك سمّي المعترَف، لأنّ آدمﷺ اعترف عليه بذنبه، فجُعل ذلك سنّة في وُلده يعترفون بذنوبهم كما اعترف أبوهم، يسألون الله التوبة كما سألها أبوهم آدم، ثمّ أمره جبرئيل فأفاض من عرفات، فمرّ على الجبال السبعة، فأمره أن يكبّر على كلّ جبل أربع تكبيرات، ففعل ذلك آدم، ثمّ انتهى به إلى جمع ثلث الليل، فجمع فيها بين صلاة المغرب وبين صلاة العشاء فلذلك سمّيت جمعاً، لأنّ آدم جمع فيها بين الصلاتين، فوقت العتمة تلك الليلة ثلث الليل في ذلك الموضع، ثمّ أمره أن ينبطح في بطحاء جمع فانبطح حتّى انفجر الصبح، ثمّ أمره أن يصعد على الجبل جبل جمع، وأمره إذا طلعت الشمس أن يعترف بذنبه سبع مرّات، ويسأل الله التوبة والمغفرة سبع مرّات، ففعل ذلك آدم كما أمره جبرئيل، وإنّما جعل اعترافين ليكون سنّة في ولده، فمن لم يدرك عرفات وأدرك جمعاً فقد وفى بحجّه. فأفاض آدم من جمع إلى منى، فبلغ منى ضحى فأمره أن يصلّي ركعتين في مسجد منى، ثمّ أمره أن يُقرّب إلى الله قرباناً ليتقبّل الله منه ويعلم أنّ الله قد تاب عليه ويكون سنّة في ولده القربان، فقرّب آدمﷺ قرباناً فقبل الله منه قربانه وأرسل الله ناراً من السماء فقبضت قربان آدم، فقال له جبرئيل، إنّ الله قد أحسن إليك إذ علّمك المناسك الّتي تاب عليك بها، وقبل قربانك، فأحلق رأسك تواضعاً لله ـ عزّ وجلّ ـ إذ قبل قربانك. فحلق آدم رأسه تواضعاً لله، ثمّ أخذ جبرئيل بيد آدم فانطلق به إلى البيت، فعرض له إبليس عند جمرة العقبة، فقال له: يا آدم أين تريد؟ قال جبرئيل: يا آدم ارمه بسبع حصيات وكبّر مع كلّ حصاة تكبيرة، ففعل ذلك آدم كما أمره جبرئيل، فذهب إبليس ثمّ أخذ بيده في اليوم الثاني فانطلق به إلى الجمرة الأُولى، فعرض له إبليس فقال له: ارمه بسبع حصيات وكبّر مع كلّ حصاة تكبيرة، ففعل ذلك آدم فذهب إبليس، ثمّ عرض له عند الجمرة الثانية، فقال له: يا آدم أين تريد؟ فقال له جبرئيل: ارمه بسبع حصيات وكبّر مع كلّ حصاة تكبيرة، ففعل ذلك آدم فذهب إبليس، ثمّ عرض له عند الجمرة الثالثة فقال له: يا آدم أين تريد؟ فقال له جبرئيل: ارمه بسبع حصيات وكبّر مع كلّ حصاة تكبيرة، ففعل ذلك آدمﷺ فذهب إبليس. ثمّ فعل ذلك به في اليوم الثالث والرابع فذهب إبليس، فقال له جبرئيل: إنّك لن تراه بعد مقامك هذا أبداً، ثمّ انطلق به إلى البيت فأمره أن يطوف بالبيت سبع مرّات، ففعل

ذلك آدم فقال له جبرئيل: إنّ الله تبارك وتعالى قد غفر لك وقبل توبتك وحلّت لك زوجتك»(١).

[١٤٦٣/٢] وروى عليّ بن إبراهيم، عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ آدم بقي على الصفا أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنّة وعلى خروجه من جوار الله ـ عزّ وجلّ ـ فنزل عليه جبرائيل فقال: يا آدم ما لك تبكي؟ فقال: يا جبرائيل ما لي لا أبكي وقد أخرجني الله من جواره وأهبطني إلى الدنيا! قال: يا آدم تب إليه، قال: وكيف أتوب؟ فأنزل الله عليه قبّة من نور في موضع البيت، فسطع نورُها في جبال مكّة، فهو الحرم، فأمر الله جبرائيل أن يضع عليه الأعلام، قال: قم يا آدم، فخرج به من مكّة يوم التروية وأمره أن يغتسل ويُحرم.

وأُخرج من الجنّة أوّل يوم من ذي القعدة، فلمّا كان يوم الثامن من ذي الحجّة أخرجه جبرائيل إلى منى فبات بها، فلمّا أصبح أخرجه إلى عرفات وقد كان علّمه الإحرام وأمره بالتلبية، فلمّا زالت الشمس يوم عرفة قطع التلبية، وأمره أن يغتسل، فلمّا صلّى العصر أوقفه بعرفات وعلّمه الكلمات الّتي تلقّاها من ربّه، وهي: سبحانك اللّهمّ وبحمدك لا إله إلّا أنت عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفرلي إنّك أنت الغفور الرحيم، سبحانك اللّهمّ وبحمدك لا إلّه إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي إنّك خير الغافرين، سبحانك اللّهمّ وبحمدك لا إله إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفرلي إنّك أنت التوّاب الرحيم.

فبقي آدم إلى أن غابت الشمس رافعاً يديه إلى السماء يتضرّع ويبكي إلى الله، فلمّا غربت الشمس ردّه إلى المشعر فبات به، فلمّا أصبح قام على المشعر الحرام فدعا الله تعالى بكلمات وتاب عليه، ثمّ أفاض إلى منى، وأمره جبرائيل أن يحلق الشعر الّذي عايه، فحلق. ثمّ ردّه إلى مكّة، فأُتي به إلى الجمرة الأُولى، فعرض له إبليس عندها، فقال: يا آدم أين تريد؟ فأمره جبرائيل أن يرميه بسبع حصيات، وأن يكبّر مع كلّ حصاة تكبيرة، ففعل ثمّ ذهب، فعرض له إبليس عند الجمرة الثانية، فأمره أن يرميه بسبع حصيات، فرمى وكبّر مع كلّ حصاة تكبيرة، ثمّ ذهب فعرض له إبليس عند الجمرة الثالثة، فأمره أن يرميه بسبع حصيات ويكبّر عند كلّ حصاة، فرمى وكبّر مع كلّ حصاة تكبيرة، فذهب إبليس فقال جبرائيل لآدم: إنّك لن تراه بعد اليوم أبداً، فانطلق به إلى البيت الحرام وأمره أن يطوف به سبع مرّات، ففعل، فقال له: إنّ الله قد قبل توبتك وحلّت لك زوجتك، قال: فلمّا

(١) نورالثقلين ١: ٦٩ ـ ٧٠؛ علل الشرائع ٢: ٤٠٠ ـ ٤٠١ / ١؛ البحار ١١: ١٦٧ ـ ١٦٩ / ١٥.

قضى آدم حجّه لقيته الملائكة بالأبطح فقالوا: يا آدم برَّ حجّك أما إنّا قد حججنا قبلك هذا البيت بألفي عام»(١).

فيما أوصى الله آدم عند الهبوط

[١٤٦٤/٢] أخرج ابن عساكر عن الحسن قال: لمّا أهبط الله آدم من الجنّة إلى الأرض قال له: يا آدم أربع احفظهن، واحدة لي عندك، وأخرى لك عندي، وأخرى بيني وبينك، وأخرى بينك وبين الناس! فأمّا الّتي لي عندك، فتعبدني لا تُشرك بي شيئاً. وأمّا الّتي لك عندي فأوفيك عملك لا أظلمك شيئاً. وأمّا التي بيني وبينك فتدعوني فأستجيب لك، وأما الّتي بينك وبين الناس فترضى للناس أن تأتي إليهم بما ترضى أن يأتوا إليك بمثله(٢).

[١٤٦٥/٢] وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي في الأسماء والصفات عن سلمان ﷺ قال: لمّا خلق الله آدم قال: يا آدم، واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك. فأمّا الّتي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأمّا التي لك فما عملت من شيء جزيتك به، وإن أغفر فأنا غفور رحيم، وأمّا التي بيني وبينك فمنك المسألة والدعاء وعليّ الإجابة والعطاء. وأخرجه البيهقي من وجه آخر عن سلمان رفعه(٣).

[١٤٦٦/٢] وأخرج ابن الصلاح في أماليه عن محمّد بن النضر قال: قال آدم: يا ربّ شَغَلْتَني بكسب يدي، فعلّمني شيئاً فيه مجامع الحمد والتسبيح! فأوحى الله إليه: يا آدم إذا أصبحت فقل ثلاثاً، وإذا أمسيت فقل ثلاثاً: الحمد لله ربّ العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده. فذلك مجامع الحمد والتسبيح(٤).

[١٤٦٧/٢] وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عبّاس قال: لمّا أهبط الله آدم إلى الأرض أكثر ذرّيّته فنمت، فاجتمع إليه ذات يوم وُلده ووُلد وُلده ووُلد وُلد وُلده، فجعلوا يتحدّثون حوله وآدم ساكت لا يتكلّم، فقالوا: يا أبانا ما لنا نحن نتكلّم وأنت ساكت لا تتكلّم؟! فقال: يا بَنيّ إنّ الله لمّا

(١) البرهان ١: ١٩٣ ـ ١٩٤ / ٣؛ القمي ١: ٤٤ ـ ٤٥؛ البحار ١١: ١٧٨ ـ ١٧٩ / ٢٥، و ٩٦: ٣٥ ـ ٣٦ / ١٤؛ الصافي ١: ١٧٧ ـ ١٧٨، باختصار.

(٢) الدرّ ١: ١٤٧؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٠، رقم ٥٧٨.

(٣) الدرّ ١: ١٤٨؛ الزهد: ٩٤ / ٢٥٤، باب زهد آدم ﷺ؛ الأسماء والصفات، الجزء الثاني: ٣١٨ ـ ٣١٩؛ كنز العمّال ٢: ٦٧ / ٣١٤٩؛ الكبير ٦: ٢٥٣ / ٦١٣٧، في ترجمة سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان.

(٤) الدرّ ١: ١٤٨.

أهبطني من جواره إلى الأرض عهد إليّ فقال: يا آدم أقلّ الكلام حتّى ترجع إلى جواري[١].

[١٤٦٨/٢] وأخرجا عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا أهبط الله آدم إلى الأرض مكث فيها ما شاء الله أن يمكث، ثمّ قال له بنوه: يا أبانا تكلّم! فقام خطيباً في أربعين ألفاً من ولده وولد ولده وولد ولد ولده وولد ولد ولد ولده فقال: إنّ الله أمرني فقال: يا آدم أقلل كلامك ترجع إلى جواري»[٢].

[١٤٦٩/٢] وأخرج ابن عساكر عن فضالة بن عُبيد قال: إنّ آدم كَبُر حتّى كانت تلعب به بنو بنيه. فقيل له: ألا تنهى بني بنيك أن يلعبوا بك؟ قال: إنّي رأيت ما لم يروا وسمعت ما لم يسمعوا، وكنت في الجنّة وسمعت كلام الملائكة، وإنّ ربّي وعدني إن أنا أمسكت فمي أن يُدخلني الجنّة![٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾

[١٤٧٠/٢] قال الجبّائي: الهبوط الأوّل هو الهبوط من الجنّة إلى السماء، وهذا الهبوط من السماء إلى الأرض[٤].

[١٤٧١/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ قال: الهدى الأنبياء والرسل والبيان[٥].

[١٤٧٢/٢] قال الحسن: الهدى: القرآن[٦].

[١٤٧٣/٢] وقال السُّدّي: كتاب الله[٧].

[١٤٧٤/٢] وقال مقاتل بن حيّان: الهدى: محمّد ﷺ[٨].

[١٤٧٥/٢] وروى العيّاشي بإسناده عن جابر قال: «سألت أبا جعفر ﷺ عن تفسير هذه الآية في

---

(١) الدرّ ١: ١٤٨؛ تاريخ بغداد ٧: ٣٣٩، بعد رقم ٣٨٤٣، ترجمة الحسن بن شبيب بن راشد؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٧، رقم ٥٧٨

(٢) الدرّ ١: ١٤٨؛ تاريخ بغداد ٧: ٣٣٨ ـ ٣٣٩ / ٣٨٤٣؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٧، رقم ٥٧٨؛ كنزالعمّال ٣: ٣٥٣ / ٦٨٩٨.

(٣) الدرّ ١: ١٤٨؛ ابن عساكر ٧: ٤٤٧، رقم ٥٧٨.

(٤) التبيان ١: ١٧٣؛ مجمع البيان ١: ١٧٩.

(٥) الدرّ ١: ١٥٢؛ الطبري ١: ٣٥٢ / ٦٦٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٩٣ / ٤١٩.

(٦) ابن كثير ١: ٨٥.

(٧) القرطبي ١: ٣٢٨.

(٨) ابن كثير ١: ٨٥.

باطن القرآن[١] ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، قال: تفسير الهدى عليّ عليه السلام، قال الله فيه: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[٢].

[١٤٧٦/٢] وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي الطفيل قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله «فَمَن تَبِعَ هُدَيَّ» بتثقيل الياء وفتحها[٣].

[١٤٧٧/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ قال: يعني بياني[٤].

[١٤٧٨/٢] وأخرج ابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ قال: ما زال لله في الأرض أولياء منذ هبط آدم، ما أخلى الله الأرض لإبليس إلّا وفيها أولياء له يعملون لله بطاعته[٥].

* * *

قلت: وبذلك وردت روايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وأنّ الأرض لاتخلو من حجّة قائمة، ولولا ذلك لم يعرف الحقّ من الباطل.

وإليك ما أورده أبوجعفر محمّدبن يعقوب الكليني بهذا الشأن:

[١٤٧٩/٢] روى بإسناده عن محمّدبن الفُضيل عن أبي حمزة الثُمالي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «والله ما ترك اللهُ أرضاً منذ قبض آدم عليه السلام إلّا وفيها إمام يُهتَدى به إلى الله، وهو حجّته على عباده. ولاتبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده»[٦].

[١٤٨٠/٢] وعن عبدالله بن سليمان العامري عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «مازالت الأرض إلّا ولله فيها الحجّة، يُعرّف الحلال والحرام ويدعو الناس إلى سبيل الله»[٧].

[١٤٨١/٢] وعن عليّ بن أبي حمزة عن أبي بصير عنه عليه السلام قال: «إنّ الله أجلّ وأعظم من أن يترك

---

(١) المقصود من الباطن هو المفهوم العامّ المستخرج من فحوى الآية، وينطبق على مصاديق عبر الآفاق والأيّام. ومن أبين مصاديق الهدى هو الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام المتجسّد فيه معالم الهدى ويدور معه الحقّ حيثما دار، كما قال رسول الإسلام عليه آلاف التحيّة والسلام.

(٢) العيّاشي ١: ٦٠ / ٢٩؛ البرهان ١: ٢٠٠ / ١٨.

(٣) الدرّ ١: ١٥٢.

(٤) الطبري ١: ٣٥٤ / ٦٦٣.

(٥) الدرّ ١: ١٥٢.

(٦) الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٧٩ / ٨، باب أنّ الأرض لاتخلو من حجّة.

(٧) المصدر / ٣.

الأرض بغير إمام عادل»[١].

[١٤٨٢/٢] وعن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: «إنّ الأرض لاتخلو إلّا وفيها إمام، كيما إذا زاد المؤمنون شيئاً ردّهم، وإن نقصوا شيئاً أتمّه لهم»[٢].

[١٤٨٣/٢] وعن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال: «إنّ الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحقّ من الباطل»[٣].

[١٤٨٤/٢] وعن محمّدبن الفضيل عن أبي حمزة قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت»[٤].

[١٤٨٥/٢] وفيما رواه بالإسناد إلى الوشّاء عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «لاتبقى، إذن لساخت»[٥].

قال ابن منظور: ساخت بهم الأرض تسوخ سَوْخاً وسُؤوخاً وسَوَخاناً، إذا انخَسَفَت. وهو من ساخ يسوخ أي رسب. يقال: ساخت يَدَي فرسي: أي غاصت في الأرض[٦].

فمعنى قوله عليه السلام إذن لساخت الأرض بأهلها أي ابتلعتهم أو أخذت بأقدامهم فلم يقدروا حراكاً فيها. وهذا المعنى هو الّذي جاء في حديث آخر:

[١٤٨٦/٢] روى الكليني بالإسناد إلى أبي هراسة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «لو أنّ الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله»[٧].

أي جعلتهم حيارى لايدرون أين المَخْلَص وما هو سبيل النجاة!

[١٤٨٧/٢] ومن ثمّ كان عليّ عليه السلام يقول: «اللّهمّ إنّك لاتخلي أرضك من حجّة لك على خلقك».

رواه الكليني بطريقين بالإسناد إلى أبي أُسامة. وعن طريق هشام بن سالم عن أبي حمزة عن أبي إسحاق عمّن يثق به من أصحاب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام[٨].

[١٤٨٨/٢] وجاء في قصار كلماته عليه السلام: «اللّهمّ بلى لاتخلو الأرض من قائم لله بحجّة... لئلّا تبطل

---

(١) المصدر / ٦.
(٢) المصدر ٢.
(٣) المصدر / ٥.
(٤) المصدر: ١٧٩ / ١٠.
(٥) المصدر / ١٣.
(٦) لسان العرب ٣: ٢٧.
(٧) الكافي ١: ١٧٩ / ١٢.
(٨) المصدر / ٧.

حجج الله وبيّناته...»[١].

[١٤٨٩/٢] وقال بشأن آدم بعد هبوطه وقبول توبته: «فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجّة به على عباده، ولم يُخلهم بعد أن قبضه ممّا يؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته قَرْنا فقرناً...»[٢].

[١٤٩٠/٢] وقال في أُولى خطبة من النهج ـ: «ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبيّ مرسل أو كتاب منزل أو حجّة لازمة».

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قال الشيخ: عمومه يقضي أنّه لايلحقهم خوف أهوال القيامة[٣].

قال ابن جرير: يعني فهم آمنون في أهوال القيامة من عقاب الله، غير خائفين عذابه، بما أطاعوا الله في الدنيا واتّبعوا أمره وهُداه وسبيله. ولاهم يحزنون يومئذٍ على ما خلّفوا بعد وفاتهم في الدنيا.

أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: لا خوف عليكم أمامكم، وليس شيءٌ أعظم في صدر الّذي يموت ممّا بعد الموت، فأمّنهم منه وسلّاهم عن [١٤٩١/٢] الدنيا فقال: ﴿وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

[١٤٩٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبير في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ قال: يعني في الآخرة ﴿وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني لايحزنون للموت[٥].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قال ابن جرير: يعني: والّذين جحدوا آياتي وكذّبوا رسلي. وآيات الله حُجَجُه وأدلّته على وحدانيّته وربوبيّته وما جاءت به الرسل من الأعلام والشواهد على ذلك وعلى صدقها فيما أنبأت عن ربّها.

(١) نهج البلاغة ٤: ٣٧، الحكمة ١٤٧.
(٢) المصدر ١: ١٧٧، الخطبة ٩١.
(٣) التبيان ١: ١٧٦.
(٤) الطبري ١: ٣٥٤ / ٦٦٤.
(٥) الدرّ ١: ١٥٢؛ ابن أبي حاتم ١: ٩٣ / ٤٢٦؛ ابن كثير ١: ١٦٠.

قال: وقد بيّنّا أنّ معنى الكفر التغطية على الشيء.

[١٤٩٣/٢] قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني: أهلها الّذين هم أهلها دون غيرهم. المخلّدون فيها أبداً إلى غير أمد ولا نهاية. قال: كما حدّثنا به عُقبة بن سنان البصري قال: حدّثنا غسّان بن مُضَر قال: حدّثنا سعيدبن يزيد. وحدّثنا سوار بن عبدالله العنبري قال: حدّثنا بشربن المفضّل قال: حدّثنا أبو مَسْلَمة سعيدبن يزيد.

[١٤٩٤/٢] وحدّثني يعقوب بن إبراهيم وأبوبكر بن عون قالا: حدّثنا إسماعيل بن عليّة عن سعيدبن يزيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أمّا أهل النار الّذين هم أهلها فإنّهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكنّ أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم وبذنوبهم فأماتتهم إماتة حتّى إذا صاروا فَحْماً أُذن في الشفاعة»[١].

[١٤٩٥/٢] قال ابن كثير[٢]: وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي مسلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخُدري عن رسول الله ﷺ وعقّبه بقوله: «فجيء بهم ضبائر ضبائر فبُثّوا على أنهار الجنّة. ثمّ قيل: يا أهل الجنّة أفيضوا عليهم. فينبتون نبات الحِبّة تكون في حميل السيل».

فقال رجل من القوم: كأنّ رسول الله ﷺ قد كان بالبادية![٣]

وسيأتي ـ ذيل الآية ٨١ ـ بعض الكلام عن مسألة الخلود، ولاسيّما خلود أهل النار، وأنّه مختصّ بأولئك الّذين ثابروا على الكفر والعناد وماتوا وهم كفّار. أمّا العصاة الّذين احتفظوا بإيمانهم حتّى الممات، فسوف يثابون بعد معاناة العقاب، والأمر لله.

---

(١) الطبري ١: ٣٥٤ / ٦٦٥.
(٢) ابن كثير ١: ٨٦.
(٣) مسلم ١: ١١٨، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة؛ ابن ماجة ٢: ١٤٤١ / ٤٣٠٩، باب ٣٧؛ مسند أحمد ٣: ١١.

قال تعالى:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ
فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ
وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا
لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

في هذا المقطع من الآيات يواجه السياق بني إسرائيل، أولئك الّذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهة نكرة؛ وقاوموها مقاومة عنيفة: خفيّة وظاهرة؛ وكادوا لها كيداً متواصلاً، لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة وتبيّن لهم أنّه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبيّة والاقتصاديّة الّتي كانت لهم لحدّ ذاك الحين.. وذلك مذ وحّد الأوس والخزرج وسدّ الثغرات الّتي كانت تنفذ منها اليهود. وشرع لهم منهجاً قويماً وغنيّاً عن الاستجداء من الأجانب ذوي الأطماع. منهجاً مستقلاً يقوم على أساس كتاب جديد وشريعة جديدة على يد نبيٍّ من وُلد إسماعيل وليس من وُلد إسحاق!

الأمر الّذي أثار ضغائنهم وزاد حقدهم على هذه الأمّة منذ بزوغها، فكانت معركة دامية شنّها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد، ثمّ لم يخبُ أوارها حتّى اللحظة الحاضرة، بنفس الوسائل ونفس الأساليب، لايتغيّر إلّا شكلها، أمّا حقيقتها فباقية، وأمّا طبيعتها فواحدة.

هذا على الرغم من أنّ العالم كلّه منذ زمن سحيق كان يطاردهم من جهة إلى جهة ومن قرن إلى قرن ـ ولا يزال ـ فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلّا في العالم الإسلامي المفتوح، الّذي يكافح الاضطهادات سواء الدينيّة أو العنصريّة، ويفتح أبوابه لكلّ مسالم لايؤذي الإسلام ولايكيد للمسلمين.

قال سيّد قطب: ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أوّل من يؤمن بالرسالة

الجديدة ويؤمن للرسول الجديد؛ مذ كان القرآن يصدّق ما جاءت به التوراة في عمومه، ومذ كانوا هم يتوقّعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافه في البشارات الّتي يتضمّنها كتابهم؛ وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين(١).

وهذا العرض ـ من آيات سورة البقرة ـ هو الشوط الأوّل من تلكم الجولة الواسعة مع بني إسرائيل بل هذه الحملة الشاملة لكشف مواقفهم وفضح مكائدهم بعد استنفاد كلّ وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد.

تبدأ هذه الجولة بنداء علويّ جليل إلى بني إسرائيل، تذكّرهم بنعمته تعالى عليهم وتدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته؛ يمهّد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدّقاً لما معهم، وتندّد بموقفهم منه موقف المعاند، وكفرهم به أوّل من يكفر! كما تندّد بتلبيسهم الحقّ بالباطل وكتمان الحقّ ليموّهوا على الناس ـ وعلى المسلمين خاصّة ـ ويشيعوا الفتنة والبلبلة في الصفّ الإسلامي الموحَّد، والشكّ والريب في نفوس الداخلين في حظيرة الإسلام، وتأمرهم أن يدخلوا مع الداخلين، فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد، بالصبر والصلاة: بترويضها على المقاومة في سبيل الحقّ. وبالابتهال إلى الله ليعينهم على فهم الحقّ والانصياع له.

فأوّل خطوة تخطوها هذه الجولة أن تذكّرهم بنعم الله الّتي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل، مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الّذين تلقّوا هذه النعم على عهد موسى ﷺ. وذلك باعتبار أنّهم أمّة واحدة متضامنة الأجيال، متّحدة الجبلّة. كما هم في حقيقة الأمر سواء وفق ما بدى من صفاتهم ومواقفهم في جميع العصور.

وتعاود تخوّفهم باليوم الّذي يُخاف الوحدة والوحشة فيه، حيث لاتجزي نفسٌ عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة، ولايؤخذ منها فدية، ولايجدون من ينصرهم ويعصمهم من عذاب الله!

قال تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ..﴾

تلك النعم الّتي أفاضها عليكم طول حياتكم وفضّلكم ببعث الأنبياء منكم من لدن موسى الكليم فإلى عهد عيسى المسيح.

---

(١) البقرة ٢: ٨٩.

﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ بالإيمان والاستسلام لله تعالى.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ من حسن المثوبة وتداوم البركات عليكم.

﴿وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ لاتخشون إلّا الله؛ لايهيبكم شيء سواه ولايروّعكم أمر في جنب الله ولا تأخذكم في الله لومة لائم.

﴿وَ آمِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ ـعلى نبيّ الإسلام، حال كونه ـ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ حيث توافق الأديان في أصول معارفها وقواعد الأحكام.

﴿وَ لَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ حال كونكم أعرف بدلائل صدقه وأعلم بمواضع بيّناته.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ لاتستبدلوا الّذي هو أدنى ـحبّ الجاه والمال ـبالذي هو خير: حبّ الله والوفاء بالعهد. حيث الحرص على السيادة وإيثار الدنيا على الآخرة ثمن بئيس يتقاضونه تجاه مايدفعونه من الحياة العليا السعيدة.

﴿وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ تأكيد مكرّر على الأخذ بجانبه تعالى، لايرجون إلّا الله، ولا يهابون سواه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. حيث كانت لازمة التلوّي في دين الله ـ بغية الحصول على حطام الدنيا ـهو تلبيس الأمر على العامّة وكتمان الحقّ دون الصراحة به، الأمر الّذي يورث ألم النفس عند ما يحاول الإنسان أن يخالف فطرته ويناقض بديهة عقله.

﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ابتهالاً إلى الله. حيث تواجد ارتياح القلوب.

﴿وَ آتُوا الزَّكَاةَ﴾ إنفاقاً في سبيل الله وتواسياً مع المعوزين.

﴿وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ التئاماً مع جماعة المؤمنين. لا انعزالاً انعزال المستكبرين أهل الجمود والجحود.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ توبيخ لاذع بأولئك الزعماء الدينيّين، يعظون الناس بمحاسن الأخلاق ومكارم الفعال. ولكن وعظاً لم ينتشئ من قلب واع، خاشع لله، متّعظ بزواجره وهو نوع ترفّع مقيت اعتاده أهل الشقاق والنفاق.

﴿وَ أَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ حال كونكم تعرفون من شريعة الله ما لايعرفه غيركم من التأكيد على ملازمة التقوى والخضوع لله محضاً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ هذا الالتواء في الدين سوف يؤدّي بكم إلى البوار والهلاك، ويفتضح أمركم على رؤوس الأشهاد؟!

﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾ ولتكن استعانتكم للمغالبة على هوى النفس، بترويضها على المقاومة تجاه المغريات.

وهكذا الصلاة، قربان كلّ تقيّ وابتهال إلى الله ليأخذ بمجامع قلبه ويهديه إلى الصراط السويّ في الحياة، إن مادّيّة أو معنويّة. وليخرجه من الظلمات إلى النور، عند متشابكات الأمور.

﴿وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾: ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾: خشعت نفوسكم لذكر الله. ومن ثمّ خفّت عليهم وارتاحت لها نفوسهم وابتهجت بها.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الظنّ هنا: اليقين القاطع.

قال ابن سيده أبوالحسن عليّ بن إسماعيل المُرسي (ت ٤٥٨): الظنّ: شكٌّ، ويقينٌ، إلّا أنّه ليس بيقين عيان، إنّما هو يقين تدبّر. فأمّا يقين العيان فلايقال فيه إلّا العلم[١].

فاليقين إن حصل عن تدبّر وتعقّل، كان ظنّاً قاطعاً. وإن حصل عن مشاهدة وعيان، كان علماً، حسب متعارف اللغة. وبذلك جاء استعمال القرآن النازل بلسان العرب العرباء.

فالذين يخشعون لله ولايخشعون لأحد سواه، هم أهل اليقين وهم على يقين من أمرهم وأنّهم سائرون في رقابة من الله، وأنّهم إليه راجعون، فيحاسبهم على أعمالهم حتّى ولو كانت على مقدار مثقال ذرّة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[٢]. ﴿وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ﴾[٣].

السرّ في تكرار قصص بني إسرائيل

قد يتساءل البعض ما هذا التكرّر في سرد قصص بني إسرائيل؟

نعم كانت قصّة بني إسرائيل قصّة نضال مستمرّ بين دعاة الحقّ ودعاة الفساد في الأرض. فهناك الأنبياء ـ وهم دعاة الإيمان والاستسلام للحقّ ـ في صفّ رصين، وفي مقابلتهم اصطفاف أهل الزيغ والباطل، في معركة دامية ومستمرّة، مادامت الأهواء لا تخضع للحقّ ولاتنصاع لمعالم

(١) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ١٠: ٨. وراجع: لسان العرب لابن منظور ١٣: ٢٧٢.

(٢) سبأ ٣٤: ٣.

(٣) يونس ١٠: ٦١.

الهدى، ومادامت عاجلة الدنيا هي الّتي بهرت عيون أهل الردى وتجلّت زخـرفتها فـي نـفوسهم، فأنستهم ذكر الله.

هكذا استمرّ كفاح بني اسرائيل عناداً مع الحـقّ، عـبر تـاريخهم البـئيس المـليئ بـالأكـدار والنكبات. فليكن سرد قصصهم عبرة لسائر الأمم وللأمّة المسلمة بالذات، وليأخذوا من مواضـع إسرائيل الملتوية درساً يعتبرون به في انتهاج سبل السعادة والسلام.

فكان سرد قصصهم وتكريرها، تأكيداً على العظة بها، وكانت ضروريّة أوّلاً وقبل كلّ شـيء لتحطيم دعاوي يهود، وكشف مكـايدها، ببيان حـقيقتها وحـقيقة دوافـعها فـي الدسّ للإسـلام والمسلمين، كما كانت ضروريّة لتفتيح عيون المسلمين وقلوبهم لهذه الدسـائس والمكـايد الّـتي توجّه إلى مجتمعهم الجديد، وإلى الأصول الّتي يقوم عليها؛ كما توجّه إلى وحدة الصـفّ المسـلم لخلخلته وإشاعة الفتنة فيه.

ومن جانب آخر كانت ضروريّة لتحذير المسلمين من مزالق الطريق الّتي عثرت فيها أقـدام الأمّة المستخلفة قبلهم، فحُرمت مقامَ الخلافة، وسُلبت شرفَ القيام عـلى أمـانة الله فـي الأرض، ومنهجه لقيادة البشر. وقد تخلّلت هذه الجولة توجيهات ظاهرة وخفيّة للمسلمين لتحذيرهم مـن تلك المزالق والدركات.

وما أحوج الجماعة المسلمة إلى هذه العظة وذاك الاعتبار، وما أحوج الأمّة المسلمة في طول تاريخها المجيد إلى تملّي هذه التوجيهات وإلى دراسة هذا القرآن ومافيه من عبر وعظات، بالعين المفتوحة والحسّ البصير، لتتلقّى منه تعليمات القيادة الإلٓهية العلويّة في معاركها الّتي تخوضها مع أعدائها التقليديّين، ولتعرف منها كيف تردّ على الكيد العميق الخبيث الّذي يوجّهونه إليهم دائبين، بأخفى الوسائل وأمكر الطرق. ومايملك قلب لم يهتد بنور الإيمان، ولم يتلقّ التـوجيه مـن تـلك القيادة المطّلعة على السرّ والعَلَن والباطن والظاهر، أن يُدرك المسالك والدروب الخفيّة الخبيثة الّتي يتدسّس فيها ذلك الكيد اللئيم المريب!

نعم كانت قصّة بني إسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القـرآن الكـريم؛ والعـناية بـعرض مواقفها ومواضع عبرتها عناية ظاهرة، تُوحي بحكمة الله ـ عزّ وجلّ ـ في علاج هذه الأمّة المسلمة

وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى![1]

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[2].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

[١٤٩٦/٢] قال مقاتل بن سليمان: قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أجدادهم، فكانت النعمة حين أنجاهم من آل فرعون وأهلك عدوّهم وحين فرق البحر لهم وحين أنزل عليهم المنّ والسلوى وحين ظلّل عليهم الغمام بالنهار من حرّ الشمس وجعل لهم عموداً من نور يُضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر وفجّر لهم اثنتي عشرة عيناً من الحجر وأعطاهم التوراة فيها بيان كلّ شيء فدلّهم على صنعه ليوحّدوه عزّوجلّ[4].

[١٤٩٧/٢] وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: ذلك للأحبار من اليهود. ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي آلائي عندكم وعند آبائكم، لمّا كان نجّاهم من فرعون وقومه. ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الّذي أخذت بأعناقكم للنبيّ ﷺ إذ جاءكم. ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أنجز لكم ما وعدتكم عليه، بتصديقكم معه واتّباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال. ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات. ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وعندكم من العلم ما ليس عند غيركم. ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم[5].

[١٤٩٨/٢] وقال الجبّائي في قوله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: المعنيّ به بنو إسرائيل من اليهود والنصارى،

---

(١) وراجع: في ظلال القرآن ١: ٨١ ـ ٨٣.

(٢) البقرة ٢: ١٤٣.

(٣) يونس ١٠: ١٣ ـ ١٤.

(٤) تفسير مقاتل ١: ١٠٠.

(٥) الدرّ ١: ١٥٤؛ الطبري ١: ٣٥٥ / ٦٦٨ ـ ٦٨٦؛ ابن أبي حاتم ١: ٩٥ / ٤٣٤؛ التبيان ١: ١٨١، بلفظ: قال أكثر المفسرين؛ مجمع البيان ١: ١٨٣، بلفظ: قيل: هو خطاب لليهود الّذين كانوا بالمدينة.

ونسبهم إلى الأب الأعلى، كما قال: ﴿يَا بَنِيَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1].

[١٤٩٩/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى جعفر بن محمّد بن عمارة عن أبيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «يعقوب هو إسرائيل، ومعنى إسرائيل: عبدالله. لأنّ إسرا هو عبد، وإيل هو الله عزّ وجلّ»[2].

[١٥٠٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس: إنّ إسرائيل كقولك: عبدالله[3].

[١٥٠١/٢] وأخرج ابن جرير عن عبدالله بن الحرث البصري قال: إيل: الله بالعبرانيّة[4].

[١٥٠٢/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إسرائيل هو يعقوب[5].

[١٥٠٣/٢] وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عبّاس قال: إسرائيل هو يعقوب[6].

[١٥٠٤/٢] وروى الصدوق بإسناده إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في حديث طويل وسُئل عن أنبياء لهم إسمان؟ فقال: «يوشع بن نون وهو ذوالكفل، ويعقوب وهو إسرائيل»[7].

[١٥٠٥/٢] قال: وفي خبر آخر: أنّ إسرا هو القوّة، وإيل هو الله عزّ وجلّ. فمعنى إسرائيل قوّة الله[8].

قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾

[١٥٠٦/٢] قال الحسن في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾: ذكر النعمة شكرها[9].

[١٥٠٧/٢] وروى الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من لم يشكر القليل لم

---

(١) التبيان ١: ١٨١.

(٢) نور الثقلين ١: ٧١؛ علل الشرائع ١: ٤٣ / ١، باب ٣٩؛ البحار ١٢: ٢٦٥ / ٣٠؛ البرهان ١: ٢٠١ / ٢.

(٣) الدرّ ١: ١٥٣؛ الطبري ١: ٣٥٥ / ٦٦٦؛ القرطبي ١: ٣٣١، بلفظ: قال ابن عبّاس: «إسرا» بالعبرانيّة هو عبد، و«ايل» هو الله؛ ابن كثير ١: ٨٦.

(٤) الدرّ ١: ١٥٤؛ الطبري ١: ٣٥٥ / ٦٦٧.

(٥) الدرّ ١: ١٥٣؛ الطبري ٥: ٣٤٠ / ١٠٥٢٨، من سورة الأنعام، الآية ٨٥.

(٦) الدرّ ١: ١٥٣؛ ابن كثير ١: ٣٩٠، الآية ٩٣ من سورة آل عمران.

(٧) نور الثقلين ١: ٧١؛ عيون الأخبار ١: ٢٢٢ / ١، باب ٢٤؛ علل الشرائع ٢: ٥٩٦ / ٤٤، باب ٣٨٥؛ الخصال: ٣٢٢ / ٧؛ البحار ١٦: ٩٠ / ٢٢، باب ٦.

(٨) علل الشرائع ١: ٤٣ / ٢، باب ٣٩؛ معاني الأخبار: ٤٩.

(٩) البغوي ١: ١٠٩؛ أبو الفتوح ١: ٢٣٧؛ الشكر لله، لابن أبي الدنيا: ٨٠ ـ ٨١ / ٣٣، بلفظ: قال: أكْثِرْ ذكرَ هذه النعمة، فإنّ ذكرها شكرها.

يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والمحدِّث بنعمة الله شاكر وتاركها كافر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب!»[١].

[١٥٠٨/٢] وقال الجبّائي: جعل تعريفه إيّاهم نعمه عهداً عليهم وميثاقاً، لأنّه يلزمهم القيام بما يأمرهم به من شكر هذه النعم كما يلزمهم الوفاء بالعهد والميثاق الّذي يأخذ عليهم![٢].

قوله تعالى: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

[١٥٠٩/٢] قال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ يعني اليهود، وذلك أنّ الله عهد إليهم في التوراة أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأن يؤمنوا بمحمّدﷺ وبالنبيّين والكتاب فأخبر الله عنهم في المائدة فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ بمحمّدﷺ ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ يعني نصرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾[٣]. فهذا الّذي قال الله: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الّذي عهدتُ إليكم في التوراة فإذا فعلتم ذلك ﴿أُوفِ﴾ لكم ﴿بِعَهْدِكُمْ﴾ يعني المغفرة والجنّة. فعاهدهم أن يُوفي لهم بما قال: المغفرة والجنّة[٤]، فكفروا بمحمّدﷺ وبعيسى عليه السلام. فذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فهذا وفاء الربّ ـ عزّ وجلّ ـ لهم[٥].

[١٥١٠/٢] وقال ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾: هذا العهد، هو: أنّ الله تعالى عهد إليهم في التوراة أنّه باعث نبيّاً يقال له: محمّد، فمن تبعه كان له أجران اثنان: أجر باتّباعه موسى وإيمانه بالتوراة، وأجر باتّباعه محمّداًﷺ وإيمانه بالقرآن ومن كفر به تكاملت أوزاره وكانت النار جزاءه فقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ في اتّباع محمّدﷺ ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أدخلكم الجنّة[٦].

---

(١) الثعلبي ١: ١٨٦؛ مسند أحمد ٤: ٢٧٨، وفيه: والتحدّث بنعمة الله شكر، وتركها كفر...؛ الشكر لله، لابن أبي الدنيا: ٩٥ / ٦٣، بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: «التحدّث بالنعم شكرها، وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة بركة والفرقة عذاب»؛ مجمع الزوائد ٥: ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) التبيان ١: ١٨٣؛ مجمع البيان ١: ١٨٤.

(٣) المائدة ٥: ١٢.

(٤) في تتمّة الآية: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ...﴾.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٠٠ ـ ١٠١.

(٦) الوسيط ١: ١٢٧.

[١٥١١/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ يقول: ما أمرتكم به من طاعتي ونهيتكم عنه من معصيتي في النبيّ ﷺ وغيره ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يقول: أرض عنكم وأدخلكم الجنّة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود. مثله[١].

[١٥١٢/٢] وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: هو الميثاق الّذي أخذ عليهم في سورة المائدة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ﴾[٢].[٣].

[١٥١٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُريج في قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: ذلك الميثاق الّذي أخذ عليهم في المائدة ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾[٤]. فهذا عهد الله الّذي عهد إليهم. وهو عهد الله فينا. فمن أوفى بعهد الله وفى الله له بعهده[٥].

[١٥١٤/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة قال: العهد الّذي أخذ الله عليهم وأعطاهم هي الآية التي في سورة المائدة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى قوله ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[٦].

[١٥١٥/٢] وأخرج الثعلبي عن قتادة قال: هو العهد الّذي أخذ الله عليهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ...﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[٨]. فهذا قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾. ثمّ قال تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٩] الآية. فهذا قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾[١٠].

[١٥١٦/٢] وأخرج عبدبن حميد عن الحسن في قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أوفوا بما افترضتُ عليكم أوفِ لكم بما رأيتُ الوعد لكم به على نفسي![١١].

[١٥١٧/٢] وأخرج عبدبن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن الضحّاك في قوله: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي

---

(١) الدرّ ١: ١٥٤؛ الطبري ١: ٣٥٨ / ٦٧٧؛ ابن أبي حاتم ١: ٩٥ ـ ٩٦ / ٤٣٧ ـ ٤٤٠.

(٢) المائدة ٥: ١٢.

(٣) الدرّ ١: ١٥٤؛ البغوي ١: ١٠٩.

(٤) المائدة ٥: ١٢.

(٥) الطبري ١: ٣٥٧ / ٦٧٦؛ أبو الفتوح ١: ٢٣٩.

(٦) الدرّ ١: ١٥٤؛ البغوي ١: ١٠٩؛ مجمع البيان ١: ١٨٤؛ أبوالفتوح ١: ٢٣٩.

(٧) المائدة ٥: ١٢.

(٨) نفس الآية.

(٩) نفس الآية.

(١٠) الثعلبي ١: ١٨٧.

(١١) الدرّ ١: ١٥٤.

أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أوفوا بطاعتي أوف لكم بالجنّة[١].

[١٥١٨/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال: عهده إلى عباده: دين الإسلام أن يتّبعوه ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يعني الجنّة[٢].

[١٥١٩/٢] وعن السدّي قال: أمّا ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾: فما عهدت إليكم في الكتاب. وأمّا ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: فالجنّة، عهدت إليكم أنّكم إن عملتم بطاعتي أدخلتكم الجنّة![٣].

[١٥٢٠/٢] وعن ابن زيد قال: أوفوا بأمري أوف بالذي وعدتكم، وقرأ ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُم﴾ حتّى بلغ ﴿وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾[٤] قال: هذا عهده إليكم الّذي عهده لهم[٥].

[١٥٢١/٢] وروي عن الإمام أبي محمّد العسكري ﷺ، قال: «قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، لمّا بعثت محمّداً وأقررته في مدينتكم ولم أُجشّمكم الحطّ والترحال إليه وأوضحت علاماته ودلائل صدقه لئلّا يشتبه عليكم حاله ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الّذي أَخَذَته على أسلافكم أنبياؤكم وأُمروا أن يؤدّوه إلى أخلافهم، ليؤمننّ بمحمّد العربيّ القرشيّ الهاشميّ، المبان بالآيات، والمؤيّد بالمعجزات الّتي منها: أن كلّمته ذراع مسمومة، وناطقه ذئب، وحنّ عليه عود المنبر، وكثّر الله له القليل من الطعام، وألان له الصلب من الأحجار، وصلّب له المياه السيّالة، ولم يؤيّد نبيّاً من أنبيائه بدلالة إلّا جعل له مثلها أو أفضل منها. والّذي جعل من أكبر أوليائه عليّ بن أبي طالب ﷺ، شقيقه ورفيقه، عقلُه من عقلِه وعلمُه من علمِه وحلمُه من حلمِه، مؤيِّد دينَه بسيفه الباتر بعد أن قطع المعاذير للمعاندين بدليله القاهر، وعلمه الفاضل وفضله الكامل. ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الّذي أوجبت لكم به نعيم الأبد في دار الكرامة ومستقرّ الرحمة. ﴿وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ في مخالفة محمّد ﷺ فإنّي القادر على صرف بلاء من يعاديكم على موافقتي، وهم لا يقدرون على صرف انتقامي عنكم إذا آثرتم مخالفتي»[٦].

---

(١) الدرّ ١: ١٥٤؛ العظمة ٢: ٥٣٠ ـ ٥٣١ / ١٨٤.
(٢) الطبري ١: ٣٥٧ / ٦٧٤.
(٣) المصدر / ٦٧٥.
(٤) التوبة ٩: ١١١.
(٥) الطبري ١: ٣٥٨ / ٦٧٨؛ أبوالفتوح ١: ٢٣٩.
(٦) البرهان ١: ٢٠٠ ـ ٢٠١ / ١؛ تفسير الإمام: ٢٢٧ ـ ٢٢٨ / ١٠٧؛ كنزالدقائق ١: ٣٩٥ ـ ٣٩٦؛ تأويل الآيات ١: ٥٠ ـ ٥١ / ٢٥؛ البحار ٩: ١٧٨ / ٦.

[١٥٢٢/٢] وروى عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن محمّد بن أبي عمير عن جميل عن أبي عبدالله عليه السلام «قال له رجل: جُعلت فداك، إنّ الله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١] وإنّا ندعو فلا يُستجاب لنا!؟ قال: لأنّكم لا تفون بعهده، وإنّ الله يقول: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. والله لو وفيتم لله لوفى الله لكم».[٢]

[١٥٢٣/٢] وروى المفيد بالإسناد إلى هشام بن سالم قال: قلت للصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله، ما بال المؤمن إذا دعا ربما استجيب له وربما لم يستَجَب له؟ وقد قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَ قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٣]، فقال: «إنّ العبد إذا دعا الله ـ تبارك وتعالى ـ بنيّة صادقة وقلب مخلص، استجيب له بعد وفائه بعهد الله، وإذا دعا الله لغير نيّة وإخلاص، لم يستَجَب له؛ أليس الله يقول: ﴿وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ فمن وَفَى وُفِي له»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

[١٥٢٤/٢] قال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ قال: يعني وإيّاي فخافونِ في محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فمن كذّب به فله النار[٥].

[١٥٢٥/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ يقول: فاخشونِ[٦].

قوله تعالى: ﴿وَ آمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾

[١٥٢٦/٢] قال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ آمِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه رؤوس اليهود. يقول: صدّقوا بما أنزلتُ من القرآن على محمّد مصدّقاً ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: محمّد تصديقه معكم أنّه نبيّ رسول[٧].

---

(١) المؤمن ٤٠: ٦٠.

(٢) نورالثقلين ١: ٧٣ / ١٦٢، و ٤: ٥٢٧ / ٧١؛ القمي ١: ٤٦؛ البحار ٩٠: ٣٦٨ / ٣؛ البرهان ١: ٢٠١ـ٢٠٢ / ٤.

(٣) المؤمن ٤٠: ٦٠.

(٤) مستدرك الوسائل ٥: ١٨٩؛ الاختصاص: ٢٤٢؛ البحار ٩٠: ٣٧٩ / ٢٣.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٠١.

(٦) الطبري ١: ٣٥٨ / ٦٨٠ و ٦٨١ نقلاً عن السدّي؛ ابن كثير ١: ٨٦، نقلاً عن أبي العالية والسدّي والربيع بن أنس وقتادة.

(٧) تفسير مقاتل ١: ١٠١.

[١٥٢٧/٢] وأخرج عبدبن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَ آمِنوا بِمَآ أَنزَلْتُ﴾. قال: القرآن: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾. قال: التوراة والإنجيل.[١]

[١٥٢٨/٢] وقال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿وَ لَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: أراد أوّل من يكفر به[٢].

[١٥٢٩/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في الآية قال: يقول يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمّد ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، لأنّكم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ﴿وَ لَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ يقول: لا تكونوا أوّل من كفر بمحمّد ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأوّل: يا ابن آدم عَلّم مجّاناً كما عُلّمت مجّاناً[٣].

[١٥٣٠/٢] وفي المجمع: ولا تكونوا السابقين إلى الكفر به فيتّبعكم الناس. أي لا تكونوا أئمّة في الكفر به. قاله أبو العالية[٤].

[١٥٣١/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ لَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: يعني محمّداً فتتابع اليهود كلّها على الكفر به، فلمّا كفروا تتابعت اليهود كلّها: أهل خيبر، وأهل فدك، وأهل قريظة، وغيرهم على الكفر بمحمّد ﷺ[٥].

[١٥٣٢/٢] وذكر الطبرسيّ: أنّ المعنى: ولا تكونوا أوّل جاحد لصفة النبيّ ﷺ في كتابكم. قال: فعلى هذا تعود الهاء في «به» إلى النبيّ ﷺ. قاله ابن جُريج[٦].

[١٥٣٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُريج في قوله: ﴿وَ لَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ قال: بالقرآن[٧].

[١٥٣٤/٢] وقال عليّ بن عيسى الرمّاني: يُحتمل أن يكون: أوّل كافرٍ بالقرآن: أنّه حقّ في كتابكم. وإنّما عظم أوّل الكفر، لأنّهم إذا كانوا أئمّة لهم وقدوة في الضلالة كانت ضلالتهم أعظم، كما روي عن النبيّ ﷺ: من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنّة سيّئة كان عليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة[٨].

---

(١) الدرّ ١: ٣٤٠، ط: مركز هجر؛ الطبري ١: ٣٥٨ / ٦٨٢. (٢) الوسيط ١: ١٢٨.

(٣) الدرّ ١: ١٥٥؛ الطبري ١: ٣٥٩ و ٣٦١ / ٦٨٥ و ٦٨٧. (٤) مجمع البيان ١: ١٨٥.

(٥) تفسير مقاتل ١: ١٠١. (٦) مجمع البيان ١: ١٨٥.

(٧) الدرّ ١: ١٥٥؛ الطبري ١: ٣٦٠ / ٦٨٤؛ القرطبي ١: ٣٣٣؛ التبيان ١: ١٨٧.

(٨) مجمع البيان ١: ١٨٦؛ التبيان ١: ١٨٧.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾

[١٥٣٥/٢] قال مقاتل بن سليمان: ثمّ قال لرؤوس اليهود: ﴿وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وذلك أنّ رؤوس اليهود كتموا أمر محمّدﷺ في التوراة وكتموا أمره عن عامّة اليهود وكانت للرؤساء منهم مأكلة في كلّ عام من زرعهم وثمارهم، ولو تابعوا محمّداﷺ لحبست تلك المأكلة عنهم، فقال الله لهم: ﴿وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾: يعني بكتمان بعث محمّدﷺ عرضاً قليلاً من الدنيا ممّا تصيبون من سفلة اليهود ثمّ يخوّفهم بقوله: ﴿وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ في محمّد. فمن كذّب به فله النار![١]

[١٥٣٦/٢] وقال ابن لهيعة: حدّثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ قال: آياته كتابه الّذي أنزله إليهم، والثمن القليل هي الدنيا وشهواتها[٢].

[١٥٣٧/٢] وعن الحسن قال: الثمن القليل هي الدنيا بحذافيرها[٣].

[١٥٣٨/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾: لا تأخذوا طُعْماً قليلاً وتكتموا إسم الله. فذلك الطُعم هو الثمن[٤].

[١٥٣٩/٢] وأخرج أبو الشيخ عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ قال: لا تأخذ على ما علّمت أجراً، فإنّما أجر العلماء والحكماء على الله، وهم يجدونه عندهم. يا ابن آدم عَلّم مجّاناً كما عُلّمت مجّاناً[٥].

قوله تعالى: ﴿وَ لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

[١٥٤٠/٢] أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿وَ لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: لا تخلطوا الصدق بالكذب ﴿وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: لا تكتموا الحقّ وأنتم قد علمتم أنّ محمّداً رسول الله[٦].

[١٥٤١/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: لا تلبسوا اليهوديّة والنصرانيّة بالإسلام، وأنتم تعلمون أنّ دين الله الإسلام، وأنّ اليهوديّة والنصرانيّة بدعة ليست من الله. ﴿وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: كتموا محمّداً وهم يعلمون أنّه رسول الله،

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٠١.
(٢) ابن كثير ١: ٨٧.
(٣) المصدر.
(٤) الطبري ١: ٣٦١/ ٦٨٨.
(٥) الدرّ ١: ١٥٥.
(٦) الدرّ ١: ١٥٥؛ الطبري ١: ٣٦٤ـ ٣٦٥/ ٦٩٠ و ٦٩٤.

﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾(١).

[١٥٤٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: الحقّ، التوراة التي أنزل الله، والباطل، الّذي كتبوه بأيديهم(٢).

[١٥٤٣/٢] وعن أبي العالية في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقول: لا تخلطوا الحقّ بالباطل، وأدّوا النصيحة لعباد الله في أمر محمّد ﷺ(٣).

[١٥٤٤/٢] وعن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: اليهوديّة والنصرانيّة بالإسلام(٤).

[١٥٤٥/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ قال لليهود: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ وذلك أنّ اليهود يُقرّون ببعض أمر محمّد ويكتمون بعضاً ليصدقوا في ذلك فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ولا تخلطوا الحقّ بالباطل. نظيرها في آل عمران(٥) والأنعام: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾(٦) يعني ولم يخلطوا بشرك(٧).

[١٥٤٦/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ قال: هو محمّد ﷺ(٨).

[١٥٤٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾: أي ولا تكتموا أمر محمّد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمّداً نبيّ ونعته في التوراة(٩).

[١٥٤٨/٢] وقال الحسن: كتموا صفة محمّد ﷺ ودينه، وهو الحقّ وأظهروا دين اليهوديّة والنصرانيّة(١٠).

---

(١) الدرّ ١: ١٥٥. الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

(٢) الدرّ ١: ١٥٥؛ الطبري ١: ٣٦٣/ ٦٩٣.

(٣) الطبري ١: ٣٦٣/ ٦٩١؛ ابن كثير ١: ٨٨، نقلاً عن أبي العاليه وسعيدبن جبير والربيع بن أنس.

(٤) الطبري ١: ٣٦٣/ ٦٩٢.

(٥) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آل عمران ٣: ٧١.

(٦) الأنعام ٦: ٨٢ وتمامها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

(٧) تفسير مقاتل ١: ١٠١ ـ ١٠٢؛ الوسيط ١: ١٢٨.

(٨) الدرّ ١: ١٥٥؛ الطبري ١: ٣٦٥/ ٦٩٩.

(٩) تفسير مقاتل ١: ١٠٢.

(١٠) التبيان ١: ١٩١.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

[١٥٤٩/٢] روى الصدوق في العلل الّتي ذكرها الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام قال: «فإن قال: فلِمَ أُمروا بالصلاة؟ قيل، لأنّ الصلاة إقرار بالربوبيّة، وهو صلاح عام؛ لأنّ فيه خلع الأنداد، والقيام بين يدي الجبّار، بالذلّ والاستكانة والخضوع والخشوع والاعتراف، وطلب الإقالة من سالف الذنوب، ووضع الجبهة على الأرض كلّ يوم وليلة، وليكون العبد ذاكراً لله تعالى غير ناس له، ويكون خاشعاً وَجِلاً متذلّلاً طالباً راغباً في الزيادة للدين والدنيا، مع ما فيه من الانزجار عن الفساد؛ وصار ذلك عليه في كلّ يوم وليلة، لئلّا ينسى العبد مدبّره وخالقه، فيبطر ويطغى، وليكون في طاعة خالقه والقيام بين يدي ربّه، زاجراً له عن المعاصي وحاجزاً ومانعاً عن أنواع الفساد»[١].

[١٥٥٠/٢] وروى بالإسناد إلى الحارث بن دلهاث عن أبيه عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «إنّ الله ـعزّ وجلّ ـأمر بثلاثة مقرون بها ثلاثة أخرى: أمر بالصلاة والزكاة[٢]؛ فمن صلّى ولم يزكّ لم تقبل منه صلاته! وأمر بالشكر له وللوالدين[٣]؛ فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله! وأمر باتّقاء الله وصلة الرحم[٤]؛ فمن لم يصل رحمه لم يتّق الله ـعزّ وجلّ ـ»[٥].

[١٥٥١/٢] وروى الصدوق بإسناده عن معروف بن خرّبوذ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك و تعالى قرن الزكاة بالصلاة فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فكأنّه لم يقم الصلاة».

ورواه الكليني، عن عليّ بن محمّد، عن ابن جمهور، عن أبيه، عن عليّ بن حديد، عن عثمان بن رشيد، عن معروف بن خرّبوذ مثله إلّا أنّه حذف لفظ فكأنّه[٦].

[١٥٥٢/٢] وروى القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمّد التميمي المغربي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، أنّه سئل عن زكاة الفطرة، قال: «هي الزكاة الّتي فرضها الله على جميع المؤمنين مع الصلاة،

---

(١) نورالثقلين ١: ٧٤؛ عيون‌الأخبار ٢: ١١٠ـ١١١ / ١، باب ٣٤(العلل الّتي ذكر الفضل بن شاذان)؛ البحار ٧٩: ٢٧١ / ١٩.

(٢) البقرة ٢: ٤٤.

(٣) لقمان ٣١: ١٤.

(٤) النساء ٤: ٢.

(٥) الخصال، أبواب الثلاثة: ١٥٦ / ١٩٦؛ عيون الأخبار ١: ٢٣٤ / ١٣؛ البحار ٧١: ٦٨ / ٤٠؛ نور الثقلين ١: ٧٤.

(٦) وسائل الشيعة ٩: ٢٢؛ الفقيه ٢: ١٠ / ١٥٨٤، أبواب الزكاة، باب ما جاء في مانع الزكاة. الكافي ٣: ٥٠٦ / ٢٣، كتاب الزكاة، باب منع الزكاة.

بقوله تعالى: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ﴾[١] على الغنيّ والفقير، والفقراء هم أكثر الناس، والأغنياء أقلّهم، فأمر كافة الناس بالصلاة والزكاة»[٢].

[١٥٥٣/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: فريضتان واجبتان فأدّوهما إلى الله[٣].

[١٥٥٤/٢] وروى الصدوق بالإسناد إلى القاسم بن الربيع الصحّاف عن محمّدبن سنان أنّ أباالحسن عليّ بن موسى الرضاﷺ كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: «أنّ علّة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء، لأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ كلّف أهل الصحّة القيام بشأن أهل الزمانة من البلوى، كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ﴾. في أموالكم، إخراج الزكاة، وفي أنفسكم توطين النفس على الصبر، مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله ـ عزّوجلّ ـ والطمع في الزيادة، مع ما فيه من الرأفة والرحمة لأهل الضعف، والعطف على أهل المسكنة، والحثّ لهم على المواساة، وتقوية الفقراء، والمعونة على أمر الدين، وهي عظة لأهل الغنى وعبرة لهم، ليستدلّوا على فقر الآخرة بهم، ومالهم من الحثّ في ذلك على الشكر لله ـ تبارك وتعالى ـ لما خوّلهم وأعطاهم، والدعاء والتضرّع والخوف من أن يصيروا مثلهم. في أمور كثيرة، في أداء الزكاة والصدقات، وصلة الأرحام واصطناع المعروف»[٤].

[١٥٥٥/٢] وروى العيّاشي عن إسحاق بن عمّار، قال: «سألت أبا عبداللهﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ﴾، قال: هي الفطرة الّتي افترض الله على المؤمنين»[٥].

[١٥٥٦/٢] وعن إبراهيم بن عبدالحميد، عن أبي الحسنﷺ، قال: «سألته عن صدقة الفطرة

---

(١) هذه الآية في المزمّل ٧٣: ٢٠ والنور ٢٤: ٥٦ والنساء ٤: ٧٧ والبقرة ٢: ٨٣، ١١٠.

(٢) مستدرك الوسائل ٧: ١٣٩؛ دعائم الإسلام ١: ٢٦٦، كتاب الزكاة، ذكر زكاة الفطر؛ البحار ٩٣: ١٠٩ / ١٦.

(٣) الطبري ١: ٣٦٦ / ٧٠١.

(٤) عيون الأخبار ٢: ٩٦ ـ ٩٧ / ١، باب ٣٣ (في ذكر ما كتب به الرضاﷺ إلى محمّدبن سنان في جواب مسائله في العلل.) نورالثقلين ١: ٧٤؛ علل الشرائع ٢: ٣٦٩ / ٣، باب ٩٠ (علّة الزكاة)؛ الفقيه ٢: ٨ ـ ٩ / ١٥٨٠، كتاب الزكاة، باب علّة وجوب الزكاة؛ البحار ٩٣: ١٨ / ٣٨. والحديث ـ كما ورد في الفقيه ـ مشوّش اصلحناه على نسختي العيون والعلل.

(٥) البرهان ١: ٢٠٥ / ٣؛ العيّاشي ١: ٦٠ ـ ٦١ / ٣٢؛ البحار ٩٣: ١٠٤ / ٢؛ الصافي ١: ١٨٢.

أواجبة هي بمنزلة الزكاة؟ فقال: هي ممّا قال الله: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، هي واجبة»[١].

[١٥٥٧/٢] وروي عن الرضا عليه السلام: «اعلم أنّ الله تبارك وتعالى، فرض زكاة الفطرة قبل أن يكثر الأموال، فقال: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وإخراج الفطرة واجب على الغنيّ والفقير، والعبد والحرّ، وعلى الذكران والإناث، والصغير والكبير، والمنافق والمخالف»[٢].

[١٥٥٨/٢] وروى العيّاشيّ عن زرارة قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام، وليس عنده غير ابنه جعفر عليه السلام، عن زكاة الفطرة، فقال: يؤدّي الرجل عن نفسه وعياله وعن رقيقه الذكر منهم والأنثى والصغير منهم والكبير صاعاً من تمر عن كلّ إنسان أو نصف صاع من حنطة وهي الزكاة الّتي فرضها الله على المؤمنين مع الصلاة على الغنيّ والفقير منهم، وهم جلّ الناس وأصحاب الأموال أجلّاء الناس[٣]، قال: قلت: وعلى الفقير الّذي يتصدّق عليه؟ قال: نعم يعطي ممّا يتصدّق به عليه»[٤].

[١٥٥٩/٢] وعن هشام بن الحكم، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «نزلت الزكاة وليس للناس الأموال، وإنّما كانت الفطرة»[٥].

[١٥٦٠/٢] وعن سالم بن مكرم الجمال، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «أعط الفطرة قبل الصلاة، وهو قول الله: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، والّذي يأخذ الفطرة عليه أن يؤدّي عن نفسه وعن عياله وإن لم يُعطها حتّى ينصرف من صلاته فلا تُعدّ له فطرة»[٦].

[١٥٦١/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: في مواقيتها ﴿وَ آتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني وأعطوا الزكاة من أموالكم ﴿وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يعني صلّوا مع المصلّين يعني مع المؤمنين من أصحاب النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله[٧].

---

(١) البرهان ١: ٢٠٥ / ٤؛ العيّاشي ١: ٦١ / ٣٣؛ البحار ٩٣: ١٠٤ / ٧؛ الصافي ١: ١٨٢.

(٢) مستدرك الوسائل ٧: ١٣٩؛ فقه الرضا عليه السلام: ٢٠٩ و ٢١٠، باب ٣٠ (نوافل شهر رمضان و دخوله)؛ البحار ٩٣: ١٠٧ / ١١.

(٣) أجلّاء جمع جليل: عظام القوم وسادتهم.

(٤) العيّاشي ١: ٦١ / ٣٤؛ البحار ٩٣: ١٠٨ / ١٢؛ البرهان ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦ / ٥.

(٥) العيّاشي ١: ٦١ / ٣٥؛ البحار ٩٣: ١٠٤ / ٨؛ البرهان ١: ٢٠٦ / ٦؛ الصافي ١: ١٨٢.

(٦) العياشيّ ١: ٦١ / ٣٦؛ البرهان ١: ٢٠٦ / ٧؛ البحار ٩٣: ١٠٨ / ١٣.

(٧) تفسير مقاتل ١: ١٠٢.

[١٥٦٢/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله: ﴿وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال: أمرهم أن يركعوا مع أمّة محمّد يقول: كونوا منهم ومعهم[١].

[١٥٦٣/٢] وعن مجاهد في قوله: ﴿وَ ارْكَعُوا﴾ قال: صلّوا[٢].

قال الطبرسي: وقوله: ﴿وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ إنّما خصّ الركوع بالذكر، وهو من أفعال الصلاة، بعد قوله ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ لأحد وجوه:

[١٥٦٤/٢] منها ما ذكره أبو مسلم وهو أنّه عبّر بالركوع كناية عن الصلاة؛ وذلك لأنّ الركوع أوّل ما يُشاهد من الأفعال الّتي يُستدلّ بها على أنّ الإنسان يصلّي، فكأنّه كرّر ذكر الصلاة تأكيداً[٣].

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾

[١٥٦٥/٢] روي عن الصادق ﷺ قال: «من لم ينسلخ من هواجسه[٤] ولم يتخلّص من آفات نفسه وشهواتها، ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله تعالى وتوحيده وأمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّه إذا لم يكن بهذه الصفة فكلّما أظهر أمراً يكون حجّة عليه، ولا ينتفع الناس به، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ويقال له: يا خائن، أتطالب خلقي بما خُنت به نفسك، وأرخيت عنه عنانك؟!».[٥]

[١٥٦٦/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: وقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال نزلت في الخُطباء والقُصّاص، وهو قول أمير المؤمنين ﷺ: «وعلى كلّ منبر منهم خطيب مِصْقَع[٦] يكذب على الله وعلى رسوله وعلى كتابه»[٧].

[١٥٦٧/٢] وروى الكليني بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبدالله ﷺ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ﴾[٨] قال: «يا أبا بصير، هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثمّ خالفوه إلى

---

(١) الدرّ ١: ١٥٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٠ / ٤٧١.

(٢) الدرّ ١: ١٥٥؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٠ / ٤٧٠.

(٣) مجمع البيان ١: ١٩٠.

(٤) الهواجس ما وقع في الخَلَد من أوهام. جمع هاجس.

(٥) نورالثقلين ١: ٧٥؛ مصباح الشريعة: ١٨؛ البحار ٦٩: ٢٢٣.

(٦) المِصْقَع: الخطيب المُفَوَّه. البليغ. العالي الصوت. من لا يُرتجّ عليه في كلام. يقال: خطيب مِصْقَع.

(٧) نورالثقلين ١: ٧٥؛ القمي ١: ٤٦؛ البحار ٦٩: ٢٢٣؛ البرهان ١: ٢٠٩ / ٤.

(٨) الشعراء ٢٦: ٩٤.

غيره»[١].

[١٥٦٨/٢] وبإسناده إلى خيثمة قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «أبلغ شيعتنا أنّ أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره»[٢].

[١٥٦٩/٢] ورواه بالإسناد إلى ابن أبي يعفور عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره»[٣].

[١٥٧٠/٢] وبإسناده إلى قتيبة الأعشى عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة من وصف عدلاً وعمل بغيره»[٤].

[١٥٧١/٢] وبإسناده إلى معلّى بن خنيس عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثمّ عمل بغيره»[٥].

[١٥٧٢/٢] وأخرج عبدالرزّاق وابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي قلابة في الآية قال: قال أبو الدرداء: لايفقه الرجل كلّ الفقه حتّى يمقت الناس في ذات الله، ثمّ يرجع إلى نفسه فيكون لها أشدّ مقتاً[٦].

[١٥٧٣/٢] وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وأحمد وعبدبن حميد والبزّار وابن أبي داوود في البعث، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حِبّان وأبو نُعيم في الحِلية، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رأيت ليلة أُسري بي رجالاً تُقرض شفاهُهم بمقاريض من نار، كلّما قُرضت رَجعت؛ فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خُطباء من أمّتك كانوا يأمرون

(١) نورالثقلين ١: ٧٥؛ الكافي ٢: ٣٠٠ / ٤، كتاب الايمان والكفر، باب من وصف عدلاً وعمل بغيره؛ و ١: ٤٧ / ٤، عن أبي جعفر عليه السلام كتاب فضل العلم، باب لزوم الحجة على العالم وتشديد الأمر عليه؛ القمي ٢: ١٢٣.

(٢) نورالثقلين ١: ٧٥؛ الكافي ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦ / ٢ كتاب الايمان والكفر، باب زيارة الإخوان؛ البحار ٦٩: ٢٢٥ ـ ٢٢٦ / ٥.

(٣) نورالثقلين ١: ٧٥؛ الكافي ٢: ٣٠٠ / ٣، كتاب الايمان والكفر، باب من وصف عدلاً وعمل بغيره؛ البحار ٦٩: ٢٢٤ / ٣.

(٤) نورالثقلين ١: ٧٥؛ الكافي ٢: ٣٠٠ / ٢، كتاب الايمان والكفر، باب من وصف عدلاً وعمل بغيره؛ البحار ٦٩: ٢٢٤ / ٢.

(٥) نورالثقلين ١: ٧٥؛ الكافي ٢: ٢٩٩ / ١.

(٦) الدرّ ١: ١٥٦؛ المصنّف لعبدالرزّاق ١١: ٢٥٥ / ٢٠٤٧٣؛ المصنّف لابن أبي شيبة ٨: ١٦٧ / ٥، باب ١١؛ الطبري ١: ٣٦٨ ـ ٣٦٩ / ٧٠٨؛ الأسماء والصفات، الجزء الثاني: ٤٢٠؛ ابن كثير ١: ٨٩؛ كنزالعمّال ١٠: ١٨٢ ـ ١٨٣ / ٢٨٩٥٠؛ ابن عساكر ٤٧: ١٧٢ ـ ١٧٣.

الناس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ولا يعقلون»(١).

[١٥٧٤/٢] وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه(٢)، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟ ما أصابك! ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(٣).

[١٥٧٥/٢] وأخرج الخطيب في اقتضاء العلم بالعمل وابن النجّار في ذيل تاريخ بغداد عن جابر عن النبيّ ﷺ قال: «اطّلع قوم من أهل الجنّة على قوم من أهل النار فقالوا: بم دخلتم النار؛ وإنّما دخلنا الجنّة بتعليمكم؟! قالوا: إنّا كنّا نأمركم ولا نفعل»(٤).

[١٥٧٦/٢] وأخرج الطبراني والخطيب في اقتضاء العلم بالعمل وابن عساكر عن الوليد بن عُقبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أناساً من أهل الجنّة يتطلّعون إلى أناس من أهل النار فيقولون: بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنّة إلّا بتعليمكم؟! فيقولون: إنّا كنّا نقول ولا نفعل»(٥).

[١٥٧٧/٢] وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن الوليد بن عُقبة أنّه خطب الناس، فقال

---

(١) الدرّ ١: ١٥٦؛ المصنَّف ٨: ٤٤٦ / ٦، باب ٦، كتاب المغازي؛ مسند أحمد ٣: ١٨٠؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٣٦٧ / ١٢٢٢؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٠ ـ ١٠١ / ٤٧٢؛ ابن حبّان ١: ٢٤٩ / ٥٣، كتاب الإسراء؛ الحلية ٨: ٤٣ ـ ٤٤، باب ٣٩٤ (إبراهيم بن أدهم)؛ الشعب ٤: ٢٤٩ / ٤٩٦٥، باب في حفظ اللسان، فصل في فضل السكوت عمّا لايعنيه؛ أبو يعلى ٧: ٦٩ / ٣٩٩٢؛ كنزالعمّال ١٠: ٢٠٩ / ٢٩١٠٦؛ مجمع الزوائد ٧: ٢٧٦، كتاب الفتن، باب فيمن يأمر بالمعروف ولا يفعله؛ البغوي ١: ١١٠ ـ ١١١ / ٥٢؛ ابن كثير ١: ٨٩؛ الوسيط ١: ١٣١.

(٢) القِتْب: المِعَى، يجمع على أقتاب بمعنى أمعاء. واندلق: تدلّى وخرج من مكانه. قال ابن الأثير: وفي الحديث: يلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه. يريد خروج أمعائه من جوفه.

(٣) الدرّ ١: ١٥٦ ـ ١٥٧؛ مسند أحمد ٥: ٢٠٥؛ البخاري ٤: ٩٠، كتاب بدء الخلق، باب ١٠ (صفة النار وأنّها مخلوقة)؛ مسلم ٨: ٢٢٤، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولايفعله؛ البيهقي ١٠: ٩٥، كتاب آداب القاضي؛ كنزالعمّال ١٠: ١٩٤ / ٢٩٠٢٣؛ القرطبي ١: ٣٦٦؛ ابن كثير ١: ٨٩ ـ ٩٠؛ البغوي ١: ١١١ / ٥٣.

(٤) الدرّ ١: ١٥٧؛ كنزالعمّال ١٠: ٢٧٢ / ٢٩٤٢٠.

(٥) الدرّ ١: ١٥٧؛ الأوسط ١: ٣٧؛ ابن عساكر ٦٣: ٢١٨ / ٨٠٣٣، ترجمة الوليد بن عقبة بن أبي معيط؛ مجمع الزوائد ٧: ٢٧٦، كتاب الفتن، باب من يأمر بالمعروف ولا يفعله؛ ابن كثير ١: ٩٠.

في خطبته: ليدخُلَنَّ أُمراءُ النارَ، ويدخُلَنَّ من أطاعهم الجنّة؛ فيقولون لهم وهم في النار: كيف دخلتم النار وإنّما دخلنا الجنّة بطاعتكم؟ فيقولون لهم: إنّا كنّا نأمركم بأشياء نخالف إلى غيرها[١].

[١٥٧٨/٢] وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال: يُشرف قومٌ في الجنّة على قوم في النار فيقولون: ما لكم في النار؛ وإنّما كنّا نعمل بما تعلّمونا؟! قالوا: كنّا نعلّمكم ولا نعمل به[٢].

[١٥٧٩/٢] وأخرج ابن المبارك في الزهد عن الشعبي قال: يطّلع قوم من أهل الجنّة إلى قوم من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النار؛ وإنّما دخلنا الجنّة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ قالوا: إنّا كنّا نأمر بالخير ولا نفعله[٣].

[١٥٨٠/٢] وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والأصبهاني في الترغيب بسند جيّد عن جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الّذي يعلّم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يُضيء للناس ويُحرق نفسه»[٤].

[١٥٨١/٢] وأخرج ابن أبي شيبة وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن جندب البجلي قال: إنّ مثل الّذي يعظ الناس وينسى نفسه كمثل المصباح يُضيء لغيره ويُحرق نفسه[٥].

[١٥٨٢/٢] وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الّذي يعلّم الناس وينسى نفسه كمثل الفتيلة تُضيء للناس وتُحرق نفسها»[٦].

[١٥٨٣/٢] وأخرج ابن قانع في معجمه والخطيب في الاقتضاء عن سليك قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «إذا علّم العالم ولم يعمل، كان كالمصباح يُضيء للناس ويُحرق نفسه»[٧].

---

(١) الدرّ ١: ١٥٧.

(٢) الدرّ ١: ١٥٧؛ المصنّف ٨: ٢٨٠ / ١، الزهد، باب ٧٢ (الشعبي).

(٣) الدرّ ١: ١٥٧؛ الزهد ١: ٢١ / ٦٤.

(٤) الدرّ ١: ١٥٧؛ الكبير ٢: ١٦٦، ترجمة أبي تميمة الهجيمي عن جندب؛ ابن كثير ١: ٨٩؛ أبو الفتوح ١: ٢٥٣؛ مجمع الزوائد ١: ١٨٤ ـ ١٨٥ كتاب العلم، باب من لم ينتفع بعلمه، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وله طريق يأتي في قتال أهل البغي، ورجاله موثّقون؛ كنز العمّال ١٠: ١٨٧ / ٢٨٩٧٦.

(٥) الدرّ ١: ١٥٧؛ المصنّف ٨: ٢٥٠ / ٥، الزهد، باب ٥٩ (حديث طلق بن حبيب).

(٦) الدرّ ١: ١٥٧ ـ ١٥٨؛ مجمع الزوائد ١: ١٨٤؛ كنز العمّال ١٠: ١٨٦ / ٢٨٩٧٥.

(٧) الدرّ ١: ١٥٨؛ كنز العمّال ١٠: ١٨٦ / ٢٨٩٧٤.

[١٥٨٤/٢] وروى العيّاشيّ بالإسناد إلى يعقوب بن شعيب، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «قلت: قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؟ فوضع يده على حلقه، قال: كالذابح نفسه»[١].

[١٥٨٥/٢] وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالعالم السوء يوم القيامة فيُقذَف في جهنّم فيدور بقَصَبه ـ قلت: وما قَصَبُه؟ قال: أمعاؤه ـ كما يدور الحمار بالرحى، فيقال: يا ويله، بِمَ لقيتَ هذا وإنّما اهتدينا بك؟! قال: كنت أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه»[٢].

[١٥٨٦/٢] وأخرج الطبراني عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به، لم يزل في ظلّ سخط الله حتّى يكفّ أو يعمل ما قال ودعا إليه»[٣].

[١٥٨٧/٢] وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عبّاس أنّه جاءه رجل فقال: يابن عبّاس إنّي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر! قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل. قال: وما هنّ؟ قال: قوله عزّ وجلّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أحكمتَ هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني؟ قال: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٤] أحكمتَ هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث؟ قال: قول العبد الصالح شعيب: ﴿وَ مَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[٥] أحكمتَ هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك[٦].

[١٥٨٨/٢] وأخرج ابن المبارك في الزهد والبيهقي في شعب الإيمان عن الشعبي قال: ما خطب خطيب في الدنيا إلّا سيعرض الله عليه خطبته يوم القيامة: ما أراد بها[٧].

[١٥٨٩/٢] وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال: ويل للّذي

---

(١) البرهان ١: ٢٠٨ ـ ٢٠٩ / ٢؛ العيّاشي ١: ٦١ / ٣٧؛ البحار ٩٧: ٨٤ ـ ٨٥ / ٥٤.

(٢) الدرّ ١: ١٥٨.

(٣) الدرّ ١: ١٥٨؛ ابن كثير ١: ٩٠؛ كنزالعمّال ١٠: ٢١٠ / ٢٩١٠٨؛ مجمع الزوائد ٧: ٢٧٦.

(٤) الصف ٦١: ٢ ـ ٣. (٥) هود ١١: ٨٨.

(٦) الدرّ ١: ١٥٨؛ الشعب ٦: ٨٨ ـ ٨٩ / ٧٥٦٩، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ابن عساكر ٢٣: ٧٣، رقم ٢٧٣٧ (شعيب بن أحمد)؛ ابن كثير ١: ٩٠.

(٧) الدرّ ١: ١٥٨؛ الزهد ١: ٤٤ / ١٣٦؛ الشعب ٤: ٢٥٠ / ٤٩٦٨.

لايعلم، مرّةً؛ ولو شاء الله لعلّمه. وويل للّذي يعلم ولايعمل، سبع مرّات(١).(٢)

[١٥٩٠/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن عبدالله بن مسعود قال: ويل لمن لا يعلم، ولو شاء الله لعلّمه، وويل لمن يعلم ثمّ لايعمل، سبع مرات(٣).

[١٥٩١/٢] وروى الطبرسيّ في مكارم الأخلاق: عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ياابن مسعود، لا تكوننّ ممّن يهدي الناس إلى الخير ويأمرهم بالخير، وهو غافل عنه؛ يقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾»(٤).

[١٥٩٢/٢] وقال الحجّال عن أبي إسحاق عمّن ذكره في قوله: ﴿وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾: أي تتركون(٥).

[١٥٩٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ قال: بالدخول في دين محمّد ﴿وَ أَنتُمْ تَتْلُونَ﴾ يقول: تدرسون الكتاب بذلك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تفهمون، ينهاهم عن هذا الخُلُق القبيح(٦).

[١٥٩٤/٢] وقال الإمام العسكري ﷺ: «قال ـ عزّ وجلّ ـ لقوم من مردة اليهود ومنافقيهم المحتجنين(٧) لأموال الفقراء، الّذين يأمرون بالخير ويتركونه وينهون عن الشرّ ويرتكبونه، قال: يا معاشر اليهود ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ بالصدقات وأداء الأمانات ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما به تأمرون ﴿وَ أَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة الآمرة بالخيرات والناهية عن المنكرات، المخبرة عن عقاب المتمرّدين، وعن عظيم الشرف الّذي يتطوّل الله به على الطائعين المجتهدين ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما عليكم من عقاب الله في أمركم بما به لا تأخذون وفي نهيكم عمّا أنتم فيه منهمكون»(٨).

---

(١) أي قال الكلام الأوّل مرّةً واحدة. أمّا الكلام الأخير فقاله سبع مرّات.

(٢) الدرّ ١: ١٥٨؛ المصنّف ٨: ٣١٠ / ١٠٢، باب ٧٥؛ الزهد: ٢٢٠ / ٧٦٣، باب زهد أبي الدرداء؛ كنزالعمّال ١٦: ٢٢١ / ٤٤٢٤٣؛ ابن عساكر ٤٧: ١٤٨.

(٣) الدرّ ١: ١٥٨؛ الزهد: ٢٤٦ / ٨٦٨، باب زهد ابن مسعود.

(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٢٠٢؛ مكارم الأخلاق: ٤٥٧، الباب الثاني عشر، الفصل الرابع؛ البحار ٧٤: ١٠٩ / ١.

(٥) البرهان ١: ٢٠٩ / ٣؛ العيّاشي ١: ٦٢ / ٣٨؛ البحار ٩٧: ٨٥ / ٥٥.

(٦) الدرّ ١: ١٥٦؛ الطبري ١: ٣٦٨ / ٧٠٣ و ٧٠٩ و ٧١٠.

(٧) احتجن المالَ: احتجزه وضمّه إلى نفسه.

(٨) تفسير الإمام: ٢٣٣؛ البحار ٩: ٣٠٨، باب ٢؛ البرهان ١: ٢٠٦ / ١.

[١٥٩٥/٢] وأخرج عبدبن حميد عن قتادة في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: أولئك أهل الكتاب كانوا يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ولا ينتفعون بما فيه(١).

[١٥٩٦/٢] وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن عبّاس قال: نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينه وبينهم رضاع من المسلمين: اثبت على الدين الّذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل ـ يعنون به محمّداً ﷺ ـ فإنّ أمره حقّ، وكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه(٢).

[١٥٩٧/٢] وأخرج ابن جرير عن السدّي في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وهم يعصونه(٣).

[١٥٩٨/٢] وعن ابن جُريج قال: أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس فعيّرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشدّ الناس فيه مسارعة(٤).

[١٥٩٩/٢] وعن ابن زيد قال: هؤلاء اليهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ما ليس فيه حقّ ولا رشوة ولاشيء أمروه بالحقّ. فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٥).

[١٦٠٠/٢] وقال أبو مسلم: كان اليهود يأمرون العرب بالإيمان بمحمّد ﷺ إذا بعث، فلمّا بعث كفروا به(٦).

[١٦٠١/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾: وذلك أنّ اليهود قالوا لبعض أصحاب النبيّ ﷺ: إنّ محمّداً حقّ فاتّبعوه ترشدوا، فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ لليهود: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ

---

(١) الدرّ ١: ١٥٦؛ الطبري ١: ٣٦٨ / ٧٠٥. بلفظ: عن قتادة في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: كان بـ إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبرّ ويخالفون فعيّرهم الله؛ مجمع البيان ١: ١٩٢؛ أبوالفتوح ١: ١ عبدالرزّاق ١: ٢٦٨ / ٤٦.

(٢) الدرّ ١: ١٥٦؛ القرطبي ١: ٣٦٥؛ أسباب نزول الآيات: ٤

(٣) المصدر / ٧٠٤.

(٤) الطبري ١: ٣٦٨ / ٧٠٦.

(٥) المصدر / ٧٠٧.

(٦) التبيان ١: ١٩٩؛ مجمع البيان ١: ١٩٢.

بِالْبِرِّ﴾ يعني أصحاب محمّد ﴿وَ تَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ يقول: وتتركون أنفسكم فلا تتّبعوه ﴿وَ أَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة فيها بيان أمر محمّد ونعته ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنتم فتتّبعونه(١).

قوله تعالى: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾

[١٦٠٢/٢] قال الرمّاني وغيره: هو خطاب لأهل الكتاب، ويتناول المؤمنين على وجه التأديب(٢).

[١٦٠٣/٢] وقال الجبّائي: إنّه خطاب للمسلمين دون أهل الكتاب(٣).

[١٦٠٤/٢] وروى العيّاشي عن عبدالله بن طلحة عن أبي عبدالله ﷺ قال: «الصبر هو الصوم»(٤).

[١٦٠٥/٢] وقال عليّ بن إبراهيم: الصبر الصوم(٥).

[١٦٠٦/٢] وروى الكليني عن شيخه عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن سليمان عمّن ذكره عن أبي عبدالله ﷺ «في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ قال: يعني بالصبر الصيام. وقال: إذا نزلت بالرجل النازلة والشدّة فليصم، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ يعني الصيام».

ورواه الصدوق مرسلاً عن الصادق ﷺ مثله(٦).

[١٦٠٧/٢] وقال مجاهد: الصبر في هذه الآية: الصوم ومنه قيل لرمضان: شهر الصبر(٧).

[١٦٠٨/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء وابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبَير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلّد لا يُرَى

---

(١) تفسير مقاتل ١: ١٠٢.

(٢) التبيان ١: ٢٠١؛ نقلاً عن الرمّاني والطبري؛ مجمع البيان ١: ١٩٤.

(٣) التبيان ١: ٢٠١؛ مجمع البيان ١: ١٩٤.

(٤) العيّاشي ١: ٦٢ / ٤٠؛ البحار ٩٣: ٢٥٤ / ٢٩.

(٥) القمّي ١: ٤٦.

(٦) نورالثقلين ١: ٧٦؛ الكافي ٤: ٦٣ ـ ٦٤ / ٧، كتاب الصيام، باب ما جاء في فضل الصوم والصائم؛ الفقيه ٢: ٧٦ / ١٧٧٦ و ١٧٧٧ كتاب الصوم، باب فضل الصيام؛ العيّاشي ١: ٦٢ / ٤١؛ البحار ٩٣: ٢٥٤ / ٣٠.

(٧) القرطبي ١: ٣٧٢؛ ابن كثير ١: ٩٠؛ البغوي ١: ١١٢؛ الوسيط ١: ١٣١.

منه إلّا الصبر[١].

[١٦٠٩/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن الخطّاب قال: الصبر صبران، صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله![٢]

[١٦١٠/٢] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: الصبر في بابين، الصبر لله فيما أحبّ وإن ثَقُل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عمّا كَرِه وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الّذين يُسلَّم عليهم إن شاء الله تعالى[٣].

[١٦١١/٢] وقال عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين ينادي منادٍ: أين الصابرون، ليدخلوا الجنّة بغير حساب؟ قالوا: نعم. قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: نحن الصابرون! قالوا: وما صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله وصبرنا على معصية الله حتّى توفّانا الله! قالوا: أنتم كما قلتم، ادخلوا الجنّة، فنعم أجر العاملين».

قال ابن كثير: ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٤].

[١٦١٢/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر وأبو الشيخ في الثواب والديلمي في مسند الفردوس عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية»[٥].

[١٦١٣/٢] وأخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده والترمذي وحسّنه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وفي الأسماء والصفات عن ابن عبّاس قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «يا غلام ألا أعلّمك كلمات ينفعك الله بهنّ؟ قلت: بلى! قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة، واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنّ الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يُرد الله أن يعطيكه لم يقدروا على ذلك، أو أن يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يعطيكه لم يقدروا على ذلك، وأن قد جفّ القلم بما هو

---

(١) الدرّ ١: ١٥٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٢ / ٤٨٥؛ ابن كثير ١: ٩٠ و ٢٠٢.

(٢) الدرّ ١: ١٥٩؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٢ / ٤٨٤، وزاد: وروي عن الحسن نحو قول عمر؛ ابن كثير ١: ٩٠؛ كنزالعمّال ٣: ٧٥١ / ٨٦٥٣.

(٣) الدرّ ١: ١٦٠؛ ابن كثير ١: ٢٠٢، سورة البقرة، الآية ١٥٣.

(٤) ابن كثير ١: ٢٠٢، والآية من سورة الزمر ٣٩: ١٠.

(٥) الدرّ ١: ١٥٩؛ كنزالعمّال ٣: ٢٧٣ / ٦٥١٥.

كائن إلى يوم القيامة[1]، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وإذا اعتصمت فاعتصم بالله، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أنّ الصبر على ما تكره خير كثير، وأنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً»[2].

[١٦١٤/٢] وأخرج الدار قطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي والأصبهاني في الترغيب عن سهل بن سعد الساعدي. أنّ رسول الله ﷺ قال لعبدالله بن عبّاس: «ألا أعلّمك كلمات تنتفع بهنّ؟ قال: بلى يا رسول الله! قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جفّ القلم بما هو كائن، فلو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد العباد أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً»[3].

[١٦١٥/٢] وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عبّاس قال: كنت ذات يوم رديف رسول الله ﷺ قال: «ألا أعلّمك خصالاً ينفعك الله بهنّ؟ قلت: بلى. قال: عليك بالعلم، فإنّ العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيّمه، والرفق أبوه، واللين أخوه، والصبر أمير جنوده»[4].

---

(١) حديث جفّ القلم بما هو كائن، من الأحاديث المتشابهة وعليه مسحة إسرائيليّة ظاهرة، علّنا نحاول تأويله إلى تخريج مقبول في مجال يأتي إن شاء الله.

(٢) الدرّ ١: ١٥٩؛ مسند أحمد ١: ٣٠٧؛ منتخب مسند عبدبن حميد: ٢١٤ / ٦٣٦؛ الترمذي ٤: ٧٦ / ٢٦٣٥، أبواب صفة القيامة؛ الشعب ٢: ٢٨ / ١٠٧٥، باب في الرجاء من الله تعالى؛ الأسماء والصفات، الجزء الأوّل: ١٢٦، جماع أبواب ذكر الأسماء الّتي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه؛ الحاكم ٣: ٥٤١، كتاب معرفة الصحابة؛ كنزالعمّال ١: ١٣٣ ـ ١٣٤ / ٦٣١.

(٣) الدرّ ١: ١٥٩ ـ ١٦٠؛ شعب الإيمان ٢: ٢٧ ـ ٢٨ / ١٠٧٤، باختلاف يسير، باب في الرجاء من الله تعالى.

(٤) الدرّ ١: ١٦٠؛ النوادر ١: ٢١٠، الأصل التاسع والثلاثون، في مراتب الأخلاق وفضل العلم؛ كنز العمّال ١٥: ٩٠٣ / ٤٣٥٥٨.

[١٦١٦/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان والخرائطي في كتاب الشكر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان نصفان، فنصف في الصبر، ونصف في الشكر»(١).

[١٦١٧/٢] وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كلّه».

وأخرج سعيد بن منصور وعبدبن حميد والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود موقوفاً مثله. وقال البيهقي: إنّه المحفوظ(٢).

[١٦١٨/٢] وأخرج البيهقي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر والعدل واليقين والجهاد»(٣).

[١٦١٩/٢] وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن جابربن عبدالله قال: «قيل: يا رسول الله أيّ الإيمان أفضل؟ قال: الصبر والسماحة! قيل: فأيّ المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال: أحسنهم خُلُقاً»(٤).

[١٦٢٠/٢] وأخرج البيهقي عن عبدالله بن عُبَيد بن عُمَير الليثي عن أبيه عن جدّه قال: «بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: الصبر والسماحة! قال: فأيّ الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده! قال: فأيّ الهجرة أفضل؟ قال: من هجر السوء! قال: فأيّ الجهاد أفضل؟ قال: من أهرق دمه وعقر جواده. قال: فأيّ الصدقة أفضل؟ قال: جُهد المقلّ. قال: فأيّ الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت»(٥).

[١٦٢١/٢] وأخرج أحمد والبيهقي عن عبادة بن الصامت قال: قال رجل: «يا رسول الله أيّ العمل

---

(١) الدرّ ١: ١٦٠؛ الشعب ٧: ١٢٣ / ٩٧١٥، باب في الصبر على المصائب؛ كنزالعمّال ١: ٣٦ / ٦١؛ فضيلة الشكر لله للسامري: ٣٩.

(٢) الدرّ ١: ١٦٠؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٣ / ٩٧١٦ و ٩٧١٧؛ الكبير ٩: ١٠٤؛ مجمع الزوائد ١: ٥٧، كتاب الإيمان، باب في كمال الإيمان، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح؛ كنزالعمّال ٣: ٢٧١ / ٦٤٩٨.

(٣) الدرّ ١: ١٦٠؛ شعب الإيمان ١: ٧٠ ـ ٧١ / ٣٩ باختلاف، باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل أهل الإيمان في إيمانهم؛ كنزالعمّال ١: ٢٨٤ ـ ٢٨٥ / ١٣٨٧؛ ابن عساكر ٤٢: ٥١٥ رقم ٤٩٣٣، ترجمة الإمام أمير المؤمنين ﷺ.

(٤) الدرّ ١: ١٦٠؛ المصنّف ٧: ٢٢٢ / ٤٢، باب ٦؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٢ / ٩٧١١؛ كنزالعمّال ٣: ٦٦٥ / ٨٤٠٠.

(٥) الدرّ ١: ١٦٠ ـ ١٦١؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٢ ـ ١٢٣ / ٩٧١٢؛ كنزالعمّال ١: ٢٨٩ / ١٤٠٠.

أفضل؟ قال: الصبر والسماحة! قال: أريد أفضل من ذلك؛ قال: لا تتّهم الله في شيء من قضائه»[(١)].

[١٦٢٢/٢] وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة»[(٢)].

[١٦٢٣/٢] وأخرج البيهقي عن الحسن قال: الإيمان الصبر والسماحة، الصبر عن محارم الله وأداء فرائض الله[(٣)].

[١٦٢٤/٢] وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان والبيهقي عن عليّ ﷺ قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، إذا قطع الرأس تتن باقي الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له»[(٤)].

[١٦٢٥/٢] وأخرج البيهقي عن عسعس «أنّ رسول الله ﷺ فقد رجلاً فسأل عنه، فجاء فقال: يا رسول الله إنّي أردت أن آتي هذا الجبل فأخلو فيه وأتعبّد! فقال رسول الله ﷺ: لصبر أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام، خير من عبادته خالياً، أربعين سنة»[(٥)].

[١٦٢٦/٢] وأخرج أيضاً من طريق عسعس بن سلامة عن أبي حاضر الأسدي «أنّ رسول الله ﷺ فقد رجلاً فسأل عنه، فقيل: إنّه قد تفرّد يتعبّد! فبعث إليه فأُتي إليه فقال رسول الله ﷺ: ألا إنّ موطناً من مواطن المسلمين أفضل من عبادة الرجل وحده ستّين سنة، قالها ثلاثاً»[(٦)].

---

(١) الدرّ ١: ١٦١؛ مسند أحمد ٥: ٣١٩، بلفظ: «... عبادة بن الصامت يقول: إنّ رجلاً أتى النبيّ ﷺ فقال: يا نبيّ الله أيّ العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله والتصديق به وجهاد في سبيله. قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: السماحة والصبر. قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: لاتتّهم الله تبارك وتعالى في شيء قُضي لك به»؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٣ / ٩٧١٤؛ كنزالعمّال ٣: ٧١٢ / ٨٥٤٠.

(٢) الدرّ ١: ١٦٢؛ الزهد: ٣٤ / ٥٢؛ شعب الإيمان ٧: ٤٢٦ / ١٠٨٣٨، باب في الجود والسخاء؛ كنزالعمّال ١: ٢٨٨ / ١٣٩٣.

(٣) الدرّ ١: ١٦١؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٢ / ٩٧٠٩؛ كنزالعمّال ١: ٢٨٨ / ١٣٩٤.

(٤) الدرّ ١: ١٦١؛ المصنّف ٧: ٢٢٩ / ٨٨، كتاب الإيمان والرؤيا، باب ٦؛ شعب الإيمان ١: ٧١ / ٤٠، باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه و بلفظ: قال عليّ ﷺ: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان؛ القرطبي ١: ٣٧٢، باختصار وتوضيح.

(٥) الدرّ ١: ١٦١؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٦ / ٩٧٢٧؛ كنزالعمّال ٤: ٤٥٤ / ١١٣٥٤، باختلاف.

(٦) الدرّ ١: ١٦١؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٦ـ١٢٧ / ٩٧٢٩، باختلاف؛ كنزالعمّال ٤: ٤٥٤ـ٤٥٥ / ١١٣٥٥.

[١٦٢٧/٢] وأخرج البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة عن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الّذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الّذي لايخالط الناس ولايصبر على أذاهم»(١).

[١٦٢٨/٢] وأخرج البيهقي عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّكم يسرّه أن يقيه الله من فيح جهنّم؟ ثمّ قال: ألا إنّ عمل الجنّة حزن بربوة، ثلاثاً، ألا إنّ عمل النار سهل لشهوة، ثلاثاً، والسعيد من وُقي الفتن، ومن ابتُلي فصبر؛ فيالها ثمّ يالها...!»(٢).

[١٦٢٩/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن الحسن: أنّ رسول الله ﷺ قال: «أدخل نفسك في هموم الدنيا واخرج منها بالصبر، وليردّك عن الناس ما تعلم من نفسك»(٣).

[١٦٣٠/٢] وأخرج البيهقي عن البُراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى نهمته في الدنيا، حيل بينه وبين شهوته في الآخرة، ومن مدّ عينيه إلى زينة المترَفين، كان مهيناً في ملكوت السماء، ومن صبر على القوت الشديد أسكنه الله الفردوس حيث شاء»(٤).

[١٦٣١/٢] وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة والبيهقي ـ واللفظ له ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ: أنّه قال: «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً، وصبر على ذلك!»(٥).

[١٦٣٢/٢] وأخرج البيهقي عن أبي الحُوَيرث أنّ رسول الله ﷺ قال: «طوبى لمن رزقه الله

---

(١) الدرّ ١: ١٦١ ـ ١٦٢؛ الأدب المفرد: ٨٩ / ٣٨٨؛ الترمذي ٤: ٧٣ / ٢٦٢٥؛ ابن ماجة ٢: ١٣٣٨ / ٤٠٣٢؛ مسند أحمد ٢: ٤٣؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٧ / ٩٧٣٠؛ كنزالعمّال ١: ١٤٢ / ٦٨٦.

(٢) الدرّ ١: ١٦٢؛ شعب الإيمان ٧: ١٤٧ ـ ١٤٨ / ٩٧٩٦؛ كنزالعمّال ١٦: ١٣٤ ـ ١٣٥ / ٤٤١٥٩.

(٣) الدرّ ١: ١٦١؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٤ / ٩٧١٩؛ كنزالعمّال ١٥: ٨٠٢ / ٤٣١٨٣.

(٤) الدرّ ١: ١٦١؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٥ / ٩٧٢٢؛ كنزالعمّال ٣: ٢٢٧ / ٦٢٧٧.

(٥) الدرّ ١: ١٦١؛ مسند أحمد ٢: ١٦٨، بلفظ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه»؛ مسلم ٣: ١٠٢ بنحو ما رواه أحمد؛ الترمذي ٤: ٦ / ٢٤٥٢، أبواب الزهد، باب ٢٣، بنحو ما رواه أحمد؛ ابن ماجة ٢: ١٣٨٦ / ٤١٣٨، باب ٩، بلفظ: «قد أفلح من هدي إلى الإسلام ورزق الكفاف وقنع به»؛ الكبرى ٤: ١٩٦، بنحو ما رواه أحمد؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٥ / ٩٧٢٣؛ الحاكم ٤: ١٢٣، كتاب الأطعمة، بنحو ما رواه أحمد؛ كنزالعمّال ٣: ٣٩٣ / ٧١٠٣، بنحو ما رواه أحمد.

الكفاف وصبر عليه»[١]

[١٦٣٣/٢] وأخرج أيضاً عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما صبر أهل بيت على جهد ثلاثاً إلّا أتاهم الله برزق».

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث ابن عمر. مثله[٢].

[١٦٣٤/٢] وأخرج البيهقي عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاع أو احتاج فكتمه الناس كان حقّاً على الله أن يرزقه رزق سنة من حلال»[٣].

[١٦٣٥/٢] وأخرج أيضاً عن ابن عبّاس قال: ما من مؤمن تقيٍّ يحبس الله عنه الدنيا ثلاثة أيّام وهو في ذلك راضٍ عن الله من غير جزَع، إلّا وجبت له الجنّة[٤].

[١٦٣٦/٢] وأخرج عن شُريح بن الحارث القاضي، قال: إنّي لأُصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرّات: أحمده إذ لم تكن أعظم ممّا هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفّقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني[٥].

قلت: وليته عند ما واكب الطاغية عُبَيدالله بن زياد في مآثمه في وقعة الطفّ بكربلاء، ليته عند ذاك ذكر الله ولم ينجرف مع ركب الضلال!! وقد نفاه المختار بن أبي عبيدة الثقفي إلى قرية «بانقيا» يقضي بين اليهود هناك، حيث أبغضته الشيعة بالكوفة لموضعه ذاك البغيض[٦].

[١٦٣٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم فقال: «هل منكم من يريد أن يُؤتيه الله علماً بغير تعلّم، وهدًى بغير هداية؟ هل منكم من يريد أن يُذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا إنّه من زهد في الدنيا وقصر أملُه فيها، أعطاه الله

(١) الدرّ ١: ١٦١؛ شعب الإيمان ٧: ١٢٥ / ٩٧٢٤؛ كنزالعمّال ٣: ٣٩٢ / ٧١٠٠، نقلاً عن عبدالله بن حنطب.

(٢) الدرّ ١: ١٦٢؛ شعب الإيمان ٧: ٢١٥ / ١٠٠٥٣؛ النوادر ١: ٢٥٣، الأصل ٤٧؛ كنزالعمّال ٦: ٤٧٢ / ١٦٦٠٦؛ أبو يعلى ١٠: ٧٠ / ٥٧٠٨؛ مجمع الزوائد ١٠: ٢٥٦، قال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله وُثقوا.

(٣) الدرّ ١: ١٦٢؛ شعب الإيمان ٧: ٢١٥ ـ ٢١٦ / ١٠٠٥٤.

(٤) الدرّ ١: ١٦٢؛ شعب الإيمان ٧: ٢٢٩ / ١٠١١٤.

(٥) الدرّ ١: ١٦٢؛ شعب الإيمان ٧: ١٩٨ / ٩٩٨٠؛ ابن عساكر ٢٣: ٤٢، رقم ٢٧٣٣.

(٦) راجع: ابن أبي الحديد، شرح النهج ٤: ٩٨. وتاريخ الطبري ٦: ٣٤ ـ ٣٥. والتستري في القاموس ٥: ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

علماً بغير تعلّم، وهدًى بغير هداية، ألا إنّه سيكون بعدكم أقوام لا يستقيم لهم الملك إلّا بالقتل والتجبّر، ولا الغنى إلّا بالبخل والفخر، ولا المحبّة إلّا بالاستجرام في الدين واتّباع الهوى، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر للفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر للبغضاء وهو يقدر على المحبّة، وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ، لا يريد بذلك إلّا وجه الله، أعطاه الله ثواب خمسين صدّيقاً»[١].

[١٦٣٨/٢] وأخرج مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي والبيهقي عن أبي سعيد الخُدري أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّه من يستعفّ يعفّه الله، ومن يستغن يُغنه الله، ومن يتصبّر يُصبّره الله، ولم تُعْطَوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر!».[٢]

[١٦٣٩/٢] وأخرج أحمد في الزهد عن ابن الخطّاب قال: وجدنا خير عيشنا بالصبر![٣].

[١٦٤٠/٢] وأخرج أبو نُعَيم في الحِلية عن ميمون بن مهران قال: ما نال رجل من جسيم الخير - نبيّ ولا غيره - إلّا بالصبر![٤].

[١٦٤١/٢] وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾ قال: إنّهما معونتان من الله فاستعينوا بهما[٥].

[١٦٤٢/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن جُرَيج في قوله: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾ قال: إنّهما معونتان على رحمة الله[٦].

---

(١) الدرّ ١: ١٦٢؛ شعب الإيمان ٧: ٣٦٠ / ١٠٥٨٢، باب في الزهد وقصر الأمل؛ كنز العمّال ٣: ٢٠٩ / ٢١٠ / ٦١٩٥.

(٢) الدرّ ١: ١٦٢ ـ ١٦٣؛ الموطّأ ٢: ٩٩٧ / ٧، كتاب الصدقة؛ مسند أحمد ٣: ١٢، باختلاف؛ البخاري ٢: ١٢٩، كتاب الزكاة، باب ٥٠: (الاستعفاف عن المسألة) و ٧: ١٨٣، كتاب الرقاق، باب ٢٠ (باب الصبر عن محارم الله)؛ مسلم ٣: ١٠٢، كتاب الزكاة، باب فضل التعفّف والصبر؛ أبو داوود ١: ٣٧١ ـ ٣٧٢ / ١٦٤٤، كتاب الزكاة، باب ٢٩ (في الاستعفاف)؛ الترمذي ٣: ٢٥٢ / ٢٠٩٣، أبواب البرّ والصلة، باب ٧٦ (ما جاء في الصبر)؛ النسائي ٢: ٥٠ ـ ٥١ / ٢٣٦٩، كتاب الزكاة، باب ٨٧ (الاستعفاف عن المسألة)؛ شعب الإيمان ٣: ٢٦٧ / ٣٥٠٣، باختلاف، باب في الزكاة، فصل في الاستعفاف عن المسألة؛ كنز العمّال ٦: ٥٠٠ / ١٦٧١٤، باختلاف.

(٣) الدرّ ١: ١٦٣؛ الزهد: ١٨٨ / ٦١١؛ البخاري ٧: ١٨٣، كتاب الرقاق، باب ٢٠ (باب الصبر عن محارم الله)؛ كنز العمّال ٣: ٧٤٤ / ٨٦٣٣.

(٤) الدرّ ١: ١٦٣؛ الحلية ٤: ٩٠، باب ٢٥١ (ميمون بن مهران).

(٥) الدرّ ١: ١٥٩.

(٦) الطبري ١: ٣٧٢ / ٧١٤؛ ابن كثير ١: ٩١.

[١٦٤٣/٢] وأخرج عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾ قال: يقول: استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله؛ واعلموا أنّهما من طاعة الله(١).

[١٦٤٤/٢] وروى العيّاشي عن مسمع، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا مسمع، ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمٌّ من غموم الدنيا أن يتوضّأ ثمّ يدخل مسجده فيركع ركعتين فيدعو الله فيهما، أما سمعت الله يقول: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾؟!»(٢).

[١٦٤٥/٢] وروى الكليني بالإسناد إلى أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «كان عليّ عليه السلام إذا هاله شيء فزع إلى الصلاة» ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾(٣).

[١٦٤٦/٢] وأخرج أحمد وأبو داوود وابن جرير عن حذيفة قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة»(٤).

قال ابن الأثير: وفي الحديث: «كان إذا حَزَبه أمر صلّى» أي إذا نزل به مُهمٌّ أو أصابه غمٌّ(٥).

[١٦٤٧/٢] وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن أبي الدرداء قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كانت ليلة ريح، كان مفزعه إلى المسجد حتّى يسكن، وإذا حدث في السماء حدث من كسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى المصلّى حتّى تنجلي»(٦).

[١٦٤٨/٢] وأخرج أحمد والنسائي وابن حِبّان عن صُهَيب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «كانوا ـ يعني الأنبياء ـ يَفْزعون إذا فُزِّعوا إلى الصلاة»(٧).

[١٦٤٩/٢] وأخرج سعيدبن منصور وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن

---

(١) الدرّ ١: ١٦٣؛ الطبري ١: ٣٧١ / ٧١٣ بلفظ: قال يقول: استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله، و ٢: ٥٣ / ١٩٢٠؛ ابن كثير ١: ٩٠.

(٢) البرهان ١: ٢١٠ / ٤؛ العيّاشي ١: ٦٢ / ٣٩؛ البحار ٨٨: ٣٤٨ / ١٠؛ مجمع البيان ١: ١٩٤.

(٣) البرهان ١: ٢١٠ / ٢؛ الكافي ٣: ٤٨٠ / ١، كتاب الصلاة، باب صلاة من خاف مكروهاً؛ الصافي ١: ١٨٤.

(٤) الدرّ ١: ١٦٣؛ مسند أحمد ٥: ٣٨٨؛ أبو داوود ١: ٢٩٧ / ١٣١٩؛ الطبري ١: ٣٧١ / ٧١١؛ ابن كثير ١: ٩١، بطرق.

(٥) النهاية ١: ٣٧٧.

(٦) الدرّ ١: ١٦٣؛ كنزالعمّال ٨: ٣٠٨ / ٢٣٠٥٦؛ ابن عساكر ١٩: ١٥٢، رقم ٢٣٠٢ (زياد بن صخر).

(٧) الدرّ ١: ١٦٣؛ مسند أحمد ٤: ٣٣٣؛ النسائي ٦: ١٥٧ / ١٠٤٥٠؛ ابن حبّان ٥: ٣١٢ / ١٩٧٥؛ كنزالعمّال ٧: ٢١٨ / ١٨٦٩٨.

عبّاس: أنّه كان في مسير له فنعي إليه ابن له، فنزل فصلّى ركعتين ثمّ استرجع وقال: فعلنا كما أمرنا الله فقال: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾[1].

[١٦٥٠/٢] وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الشعب عن ابن عبّاس: أنّه نُعي إليه أخوه قُثَم وهو في مسير فاسترجع، ثمّ تنحّى عن الطريق فصلّى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثمّ قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[2].

[١٦٥١/٢] وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عبادة بن محمّد بن عبادة بن الصامت قال: لمّا حضرت عبادة الوفاة قال: أُحرج على إنسان منكم يبكي، فإذا خرجتْ نفسي فتوضّؤوا وأحسنوا الوضوء، ثمّ ليدخل كلّ إنسان منكم مسجداً فيصلّي، ثمّ يستغفر الله لعبادة ولنفسه، فإنّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾ ثمّ أسرعوا بي إلى حفرتي[3].

[١٦٥٢/٢] وأخرج البيهقي في الشعب عن مقاتل بن حيّان في قوله: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ﴾ يقول: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة، فحافظوا عليها وعلى مواقيتها وتلاوة القرآن فيها، وركوعها وسجودها و تكبيرها والتشهّد فيها والصلاة على النبيّ ﷺ وإكمال طهورها فذلك إقامتها وإتمامها[4].

[١٦٥٣/٢] وأخرج عبدالرزّاق في المصنَّف والبيهقي من طريق مَعْمَر عن الزُهري عن حميدبن عبدالرحمان بن عوف عن أمّه أمّ كلثوم بنت عُقبة ـ وكانت من المهاجرات الأوَل ـ أنّ عبدالرحمان ابن عوف غُشي عليه غشية ظنّوا أنّه أفاض نفسه فيها. فخرجت امرأته أمّ كلثوم إلى المسجد تستعين بما أُمرت به من الصبر والصلاة! فلمّا أفاق قال: أُغشي عَلَيَّ آنفاً؟ قالوا: نعم. قال: صدقتم، إنّه أتاني مَلَكان في غشيتي هذه فقالا لي: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين! فقال مَلَك آخر: أرجعاه

---

(١) الدرّ ١: ١٦٣؛ الحاكم ٢: ٢٦٩ ـ ٢٧٠، كتاب التفسير، سورة البقرة بلفظ: عن ابن عبّاس قال: جاءه نعي بعض أهله وهو في سفر فصلّى ركعتين ثمّ قال: فعلنا ما أمر الله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾؛ الشعب ٧: ١١٤ / ٩٦٨١.

(٢) الدرّ ١: ١٦٣؛ الطبري ١: ٣٧١ / ٧١٢؛ الشعب ٧: ١١٤ / ٩٦٨٢، باب: الصبر على المصائب؛ البحار ٨٨: ٣٨٣ / ١٠.

(٣) الدرّ ١: ١٦٣؛ الشعب ٧: ١١٤ / ٩٦٨٣؛ كنزالعمّال ١٣: ٥٥٥ / ٣٧٤٤٣.

(٤) الدرّ ١: ١٦٤؛ الشعب ٧: ١١٥ / ٩٦٨٥.

فإنّ هذا ممّن كُتبت له السعادة وهم في بطون أمّهاتهم، وسيمتّع الله به بنيه ما شاء الله.. قال: فعاش بعد ذلك شهراً ثمّ مات[١].

قلت: ولعلّها السعادة العاجلة الدنيّة الّتي عاشها أمثاله؛ إذ لا سعادة عليا باقية لمن مات عن كره لآل محمّد ﷺ[٢]! كيف وقد وصفه عمر بن الخطّاب ـ وهو أعرف الناس به ـ بفرعون هذه الأمّة، حينما اعتذر إليه عن عدم استخلافه، قائلاً: «وأمّا أنت يا عبدالرحمان فما يمنعني منك إلّا أنّك فرعون هذه الأمة»[٣].

قال المحقّق التستري: بل وقارونها، حيث تضخّم ثروته الطائلة! قال ابن قتيبة: قسّم ميراثه على ستّة عشر سهماً فبلغ نصيب كلّ امرأة له ثمانين ألف درهم[٤].

مات سنة ٣٢ عن شحناء بينه وبين آل عثمان من جهة، وبينه وبين آل عليّ من جهة. إذ قد استجيبت عليه دعوة العبد الصالح الإمام أميرالمؤمنين ؛ حينما أدار الخلافة لصهره، قال له عليٌّ: «دقّ الله بينكما، عِطْرَ مَنْشَم![٥]»[٦]. قال أبو الهلال العسكري في كتابه «الأوائل»: استجيبت دعوة عليّ ؛ فيهما، فماتا متهاجرين متعاديين[٧].

قوله تعالى: ﴿وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

[١٦٥٤/٢] أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: قال المشركون: والله يا محمّد إنّك لتدعونا إلى أمر كبير! قال: إلى الصلاة والإيمان بالله![٨].

---

(١) المصنّف لعبدالرزّاق ١١: ١١٢ / ٢٠٠٦٥، باب ١٣٤ (القدر)؛ شعب الإيمان ٧: ١١٥ / ٩٦٨٤؛ الدرّ ١: ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) روى الثعلبي بإسناد اعتمده عن جرير بن عبدالله البجلّي عن رسول الله ﷺ قال: «من مات على بغض آل محمّد لم يشمّ رائحة الجنّة» (الثعلبي ٨: ٣١٤). ورواه صاحب الكشّاف (٤: ٢٢٠ ـ ٢٢١)؛ وفي ينابيع المودّة (٣: ١٤٠)؛ وراجع: البحار (٢٧: ١١٢ / ٨٤).

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ٢٩.

(٤) المعارف لابن قتيبة: ١٠٤. وراجع: قاموس الرجال للتستري ٦: ١٣٤ / ٤٠٥٧.

(٥) شرح النهج لابن أبي الحديد ٩: ٥٥.

(٦) مَنْشَم: امرأة عطّارة من خزاعة؛ فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتّى يموتوا؛ فضُرب مثلاً لكلّ من تحالف مع غيره واشتدّ التحالف بينهما.

(٧) شرح النهج لابن أبي الحديد ١: ١٩٦.

(٨) الدرّ ١: ١٦٤؛ الطبري ١: ٣٧٢ / ٧١٥.

[١٦٥٥/٢] وأخرج عن الضحّاك في قوله: ﴿وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: لثقيلة[١].

[١٦٥٦/٢] وأخرج البيهقي في الشعب عن مقاتل بن حيّان في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ يقول: صرفُك عن بيت المقدس إلى الكعبة كبُر ذلك على المنافقين واليهود[٢].

[١٦٥٧/٢] وقال مقاتل بن سليمان في قوله: ﴿وَ اسْتَعِينُوا﴾ على طلب الآخرة ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على الفرائض ﴿وَ الصَّلَاةِ﴾ الخمس حافظوا عليها في مواقيتها ﴿وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يعني حين صُرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة فكَبُر ذلك على اليهود، منهم جُدَيّ بن أخطب، وسعيد بن عمرو الشاعر، وغيرهم ثمّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ يعني إلّا على المتواضعين من المؤمنين لم يكبُر عليهم تحويل القبلة[٣].

[١٦٥٨/٢] وأخرج البيهقي في الشعب عن مقاتل بن حيّان في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ يعني المتواضعين[٤].

[١٦٥٩/٢] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قال: المصدّقين بما أنزل الله[٥].

[١٦٦٠/٢] وأخرج عبدبن حميد عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قال: المؤمنين حقّاً[٦].

[١٦٦١/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قال: الخائفين[٧].

[١٦٦٢/٢] وقال الورّاق: يعني العابدين المطيعين[٨].

---

(١) الدرّ ١: ١٦٤؛ الطبري ١: ٣٧٢ / ٧١٦؛ ابن كثير ١: ٩١؛ التبيان ١: ٢٠٣، نقلاً عن الحسن والضحّاك؛ مجمع البيان ١: ١٩٦؛ الوسيط ١: ١٣١، وعن الحسن.

(٢) الدرّ ١: ١٦٤؛ الشعب ٧: ١١٥ / ٩٦٨٥.

(٣) تفسير مقاتل ١: ١٠٢.

(٤) الشعب ٧: ١١٥ / ٩٦٨٥؛ الثعلبي ١: ١٨٩؛ البغوي ١: ١١٢.

(٥) الدرّ ١: ١٦٤؛ الطبري ١: ٣٧٢ / ٧١٧؛ ابن أبي حاتم ١: ١٠٣ / ٤٨٩؛ البيهقي ٢: ١٣.

(٦) الدرّ ١: ١٦٤؛ الطبري ١: ٣٧٢ / ٧١٩؛ البخاري ٥: ١٤٧، كتاب التفسير، سورة البقرة.

(٧) الدرّ ١: ١٦٤؛ الطبري ١: ٣٧٢ / ٧١٨؛ التبيان ١: ٢٠٤، نقلاً عن الربيع بن أنس؛ أبوالفتوح ١: ٢٥٧، نقلاً عن الربيع بن أنس؛ الثعلبي ١: ١٨٩، نقلاً عن الحسن؛ البغوي ١: ١١٢، نقلاً عن الحسن.

(٨) الثعلبي ١: ١٨٩.

[١٦٦٣/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: الخشوع: الخوف والخشية لله. وقرأ قول الله: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾(١) قال: قد أذلّهم الخوفُ الّذي نزل بهم وخشعوا له(٢).

[١٦٦٤/٢] وقال قتادة: الخشوع في القلب، وهو الخوف وغضّ البصر في الصلاة(٣).

[١٦٦٥/٢] وقال سفيان الثوري: سألت الأعمش عن الخشوع؟ فقال: يا ثوري أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع فقال: أُعَيْمش! تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع! ليس الخشوع بأكل الجشب ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس! لكنّ الخشوع أن ترى الشريف والدنيّ في الحقّ سواء، وتخشع لله في كلّ فرض افترض عليك!(٤)

[١٦٦٦/٢] وروى الحاكم بالإسناد إلى أمير المؤمنين ﷺ وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(٥) قال: «الخشوع في القلب، وأن تُلَيِّنَ كفَّيك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك!»(٦).

[١٦٦٧/٢] وروى ابن شهر آشوب بالإسناد إلى الباقر ﷺ وابن عبّاس في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قالا: «الخاشع، الذليل في صلاته المقبل عليها، كما كان رسول الله وأمير المؤمنين عليهما صلوات المصلّين»(٧).

* * *

قال الطبرسي: وفي مرجع الضمير من قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ وجوه وأقوال:

أحدها: أنّه عائد إلى الصلاة وحدها. وهو قول أكثر المفسرين.

---

(١) الشورى ٤٢: ٤٥.

(٢) الطبري ١: ٣٧٣ / ٧٢٠.

(٣) القرطبي ١: ٣٧٤.

(٤) القرطبي ١: ٣٧٥.

(٥) المؤمنون ٢٣: ٢.

(٦) الحاكم ٢: ٣٩٣، كتاب التفسير، سورة المؤمنون؛ القرطبي ١: ٣٧٥. قوله: «تُلَيِّن كفَّيك...» يقال: ليَّن الشيْ وألانه: جعَله ليّناً. يقال: ألان للقوم جناحه أي أخذهم بالملاطفة. وتليين الكفّ كناية عن البذل لهم لما آتاه الله من المُكنة.

(٧) البرهان ١: ٢١١ / ٧؛ المناقب لابن شهر آشوب ١: ٣٠٢؛ البحار ٣٥: ٣٤٨ / ٢٧، عن ابن عبّاس؛ تفسير فرات الكوفي: ٥٩ ـ ٦٠ / ٢١ / ١٢ عن ابن عبّاس؛ شواهد التنزيل ١: ١١٥.

[١٦٦٨/٢] قال عليّ بن إبراهيم: قوله تعالى: ﴿وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ....﴾ يعني الصلاة[١].

ثانيها: أنّه عائد إلى الصبر والصلاة معاً. وعود ضمير الفرد إلى الاثنين، باعتبار أنّ كلّاً منهما أصل برأسه، شائع. نظير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[٣]. و قوله: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[٤]. قال: ونحو ذلك في الشعر وسائر الكلام كثير.

ثالثها: أنّه عائد إلى الاستعانة بهما.

رابعها: أنّه عائد إلى محذوف (مقدّر معلوم) وهو: الإجابة للنبيّ ﷺ ذكره الأصمّ. أو مؤاخذة النفس بهما. أو تأدية ماتقدّم. أو تأدية الصلاة وضروب الصبر عن المعاصي. أو هذه الخطيئة (وعظ بلا اتّعاظ وزجر بلا انزجار). قاله أبو مسلم.

وضعّف الطبرسي هذا الوجه الأخير باعتبار عدم سبق ذكر ولا إشارة لمرجع الضمير في الآية[٥].

لكن الإمام الرازي وجّه هذا الرأي ـ فيما ذكره من ثالث الوجوه ـ قال:

ثالثها: أنّه عائد إلى جميع هذه الأمور التي أُمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها، من قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي...﴾ إلى قوله: ﴿وَ اسْتَعِينُوا﴾. والعرب قد تضمر الشيء اختصاراً أو تقتصر فيه على الإيماء، إذا وثقت بعلم المخاطب، فيقول القائل: ما عليها أفضل من فلان، يعني الأرض. ويقولون: ما بين لابتيها أكرم من فلان، يعنون المدينة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[٦]. ولم يسبق ذكر للأرض[٧].

---

(١) القمي ١: ٤٦.
(٢) التوبة ٩: ٣٤.
(٣) الجمعة ٦٢: ١١.
(٤) التوبة ٩: ٦٢.
(٥) مجمع البيان ١: ١٠٠، (ط إسلاميّة).
(٦) النحل ١٦: ٦١.
(٧) التفسير الكبير ٣: ٤٩.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

[١٦٦٩/٢] قال عليّ بن إبراهيم: الظنّ في كتاب الله على وجهين، فمنه ظنّ يقين ومنه ظنّ شكّ، ففي هذا الموضع الظنّ يقين، وإنّما الشك قوله تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[١]، ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾[٢].[٣]

قلت: تقدّم كلام ابن سيده: الظنّ، شكّ ويقين، إلّا أنّه ليس بيقين عيان، وإنّما هو يقين تدبّر. فأمّا يقين العيان فلا يقال فيه إلّا العلم[٤].

[١٦٧٠/٢] وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ قال: لأنّهم لم يعاينوا فكان ظنّهم يقيناً، وليس ظنّاً في شك، وقرأ ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٥].[٦]

[١٦٧١/٢] وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كلّ ظنّ في القرآن فهو يقين. وفي موضع آخر: كلّ ظنّ في القرآن فهو علم[٧].

[١٦٧٢/٢] وذكر القرطبي الحديث ناسباً له إلى الضحّاك قال: كلّ ظنّ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شكّ[٨].

[١٦٧٣/٢] وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ما كان من ظنّ الآخرة فهو علم[٩].

[١٦٧٤/٢] وعن أبي العالية في قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ قال: إنّ الظنّ هاهنا اليقين[١٠].

[١٦٧٥/٢] وعن السدّي: قال: أمّا يظنّون فيستيقنون[١١].

---

(١) الجاثية ٤٥: ٣٢.
(٢) الفتح ٤٨: ١٢.
(٣) البرهان ١: ٢١١ / ١١؛ القمي ١: ٤٦؛ البحار ٧: ٤٤ / ٢٣.
(٤) المحكم لابن سيده ١٠: ٨؛ لسان العرب ١٣: ٢٧٢.
(٥) الحاقّة ٦٩: ٢٠.
(٦) الطبري ١: ٣٧٤ / ٧٢٥.
(٧) الدرّ ١: ١٦٤؛ الطبري ١: ٣٧٤ / ٧٢٢؛ ابن كثير ١: ٩٢.
(٨) القرطبي ١٨: ٢٧٠.
(٩) الدرّ ١: ١٦٤؛ الطبري ١٤: ٧٥ / ٢٦٩٨٢، سورة الحاقة، الآية ٢٠.
(١٠) الطبري ١: ٣٧٤ / ٧٢١؛ ابن كثير ١: ٩٢. وزاد ابن كثير بقوله: قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد والسدّي والربيع بن أنس وقتادة نحو قول أبي العالية؛ التبيان ١: ٢٠٥؛ بلفظ: قال الحسن وأبو العالية ومجاهد وابن جريج: «يظنّون» أي «يوقنون»؛ مجمع البيان ١: ١٩٧. نقلاً عن الحسن ومجاهد.
(١١) الطبري ١: ٣٧٤ / ٧٢٣.

[١٦٧٦/٢] وعن ابن جُرَيج قال: عَلِموا أنّهم ملاقو ربّهم هي كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[1] يقول علمت[2].

[١٦٧٧/٢] وروى العيّاشي عن أبي مَعْمَر، عن عليّ ﷺ «في قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾، يقول: يوقنون أنّهم مبعوثون. والظنّ منهم يقين»[3].

[١٦٧٨/٢] وقال ابن عبّاس: يريد الّذين يستيقنون أنّهم مبعوثون، وأنّهم محاسبون وأنّهم راجعون إلى الله تعالى[4].

[١٦٧٩/٢] وروى الصدوق في حديث طويل، عن عليّ ﷺ يقول فيه ـ وقد سأله رجل عمّا اشتبه عليه من الآيات ـ: «فأمّا قوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ يعني البعث، فسمّاه الله ـ عزّ وجلّ ـ لقاءه. وكذلك ذكر المؤمنين: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يعني أنّهم يوقنون أنّهم يُبعثون ويُحشرون ويُحاسَبون، ويُجزَون بالثواب والعقاب. والظنّ هاهنا اليقين»[5].

[١٦٨٠/٢] وروي عن ابن عبّاس، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ قال: نزلت في عليّ وعثمان بن مظعون وعمّار بن ياسر وأصحاب لهم[6].

[١٦٨١/٢] وقال مقاتل بن سليمان: ثمّ نعت الخاشعين فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يعني يعلمون يقيناً ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يعني في الآخرة ﴿وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم[7].

[١٦٨٢/٢] وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله: ﴿وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ قال: يستيقنون أنّهم راجعون إليه يوم القيامة[8].

---

(١) الحاقة ٦٩: ٢٠.

(٢) الطبري ١: ٣٧٤ / ٧٢٤؛ ابن كثير ١: ٩٢، وزاد: وكذا قال عبدالرحمان بن زيد بن أسلم.

(٣) العيّاشي ١: ٦٢ / ٤٢؛ البرهان ١: ٢١١ / ١٠؛ البحار ٧: ٤٢ / ١٦.

(٤) الوسيط ١: ١٣٢.

(٥) التوحيد: ٢٦٧، باب الردّ على الثنوية والزنادقة؛ نورالثقلين ١: ٧٦ ـ ٧٧؛ البرهان ١: ٢١١ / ٩؛ البحار ٩٠: ١٣٩ / ٢.

(٦) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٩٣؛ البحار ٣٨: ٢٣٣ ـ ٢٣٤؛ البرهان ١: ٢١١ / ٨؛ شواهد التنزيل ١: ١١٥.

(٧) تفسير مقاتل ١: ١٠٢.

(٨) الدرّ ١: ١٦٥؛ الطبري ١: ٣٧٧ / ٧٢٦؛ التبيان ١: ٢٠٧، بلفظ: قيل: راجعون بالإعادة في الآخرة، في قول أبي العالية؛ مجمع البيان ١: ١٩٨.